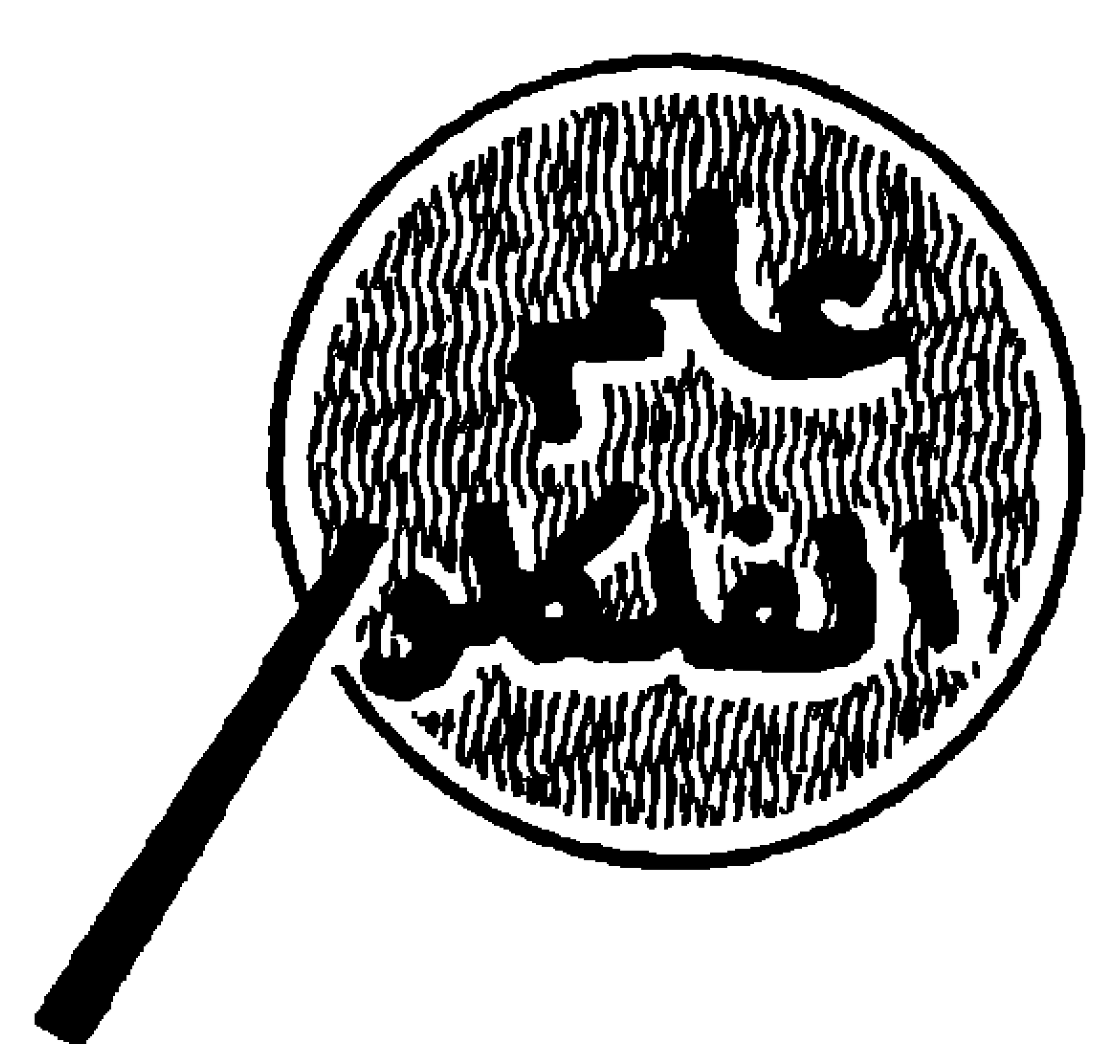


إهـــــــداء2005

الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد
القاهرة

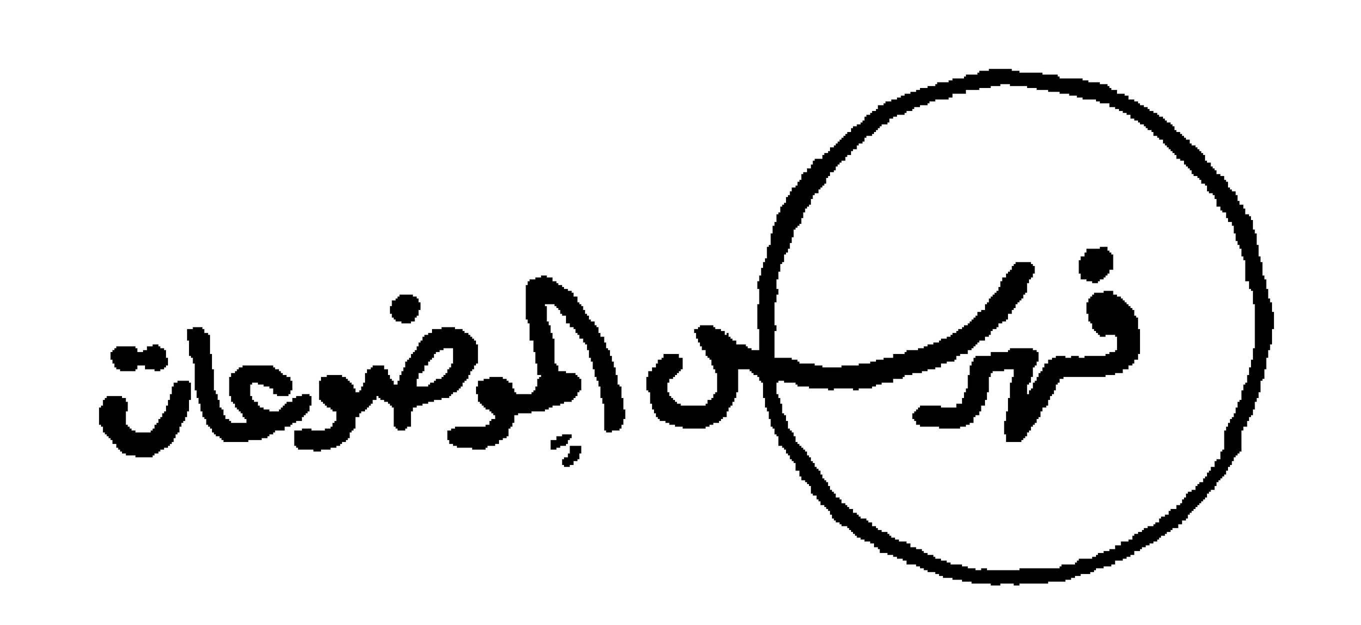
كل سنة وانت طيب
يا نادره

أخوك
محمد الشنواني
٢/٢/١٩٦٨



تأليف : الكزاندر هجرتى كراب
ترجمة : رشدى صالح

وزارة الثقافة
مؤسسة التأليف والنشر
دار الكاتب العربى
القاهرة ـ ١٩٦٧



الموضوع	صفحة

• التمهيـــد والمقـــدمات

• مقدمة المترجم :

مكانة الكتاب بين الكتب المرشدة الى علم الفولكلور . الكزاندر كراب . وجهوده العلمية . منهاجه الأدبى ونقدنا له .

• مقدمة المؤلف :

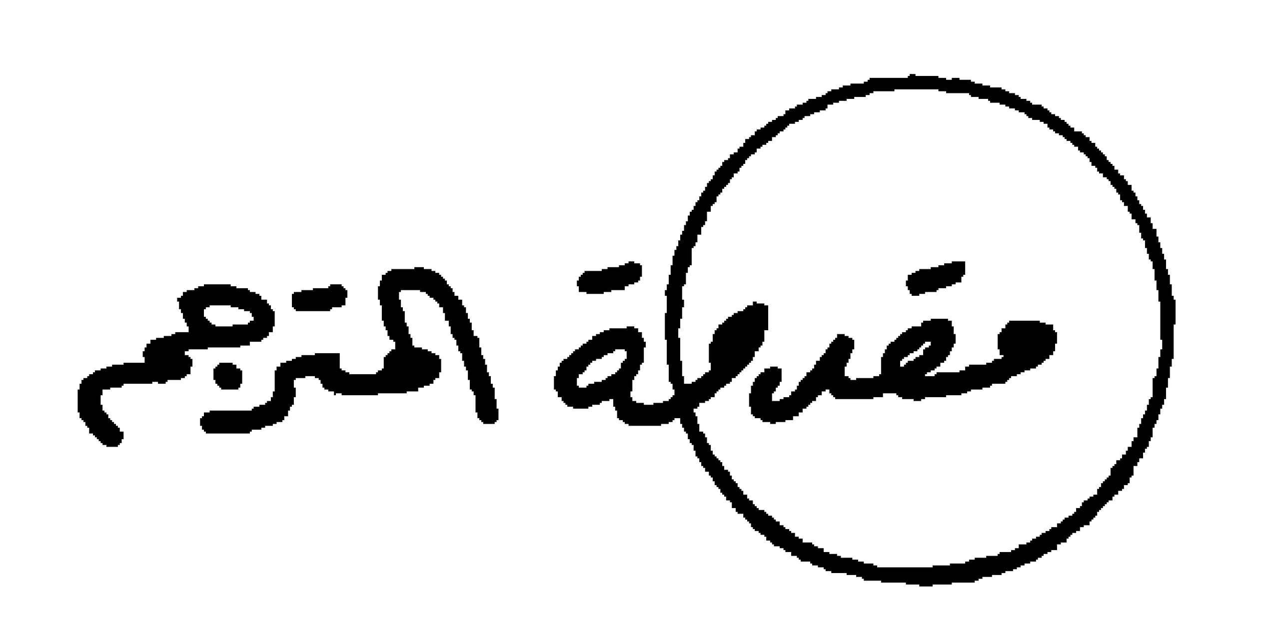
المنهج الأدبى .

• تمهيـــــد :

اصطلاح فولكلور . الفولكلور وعلم التاريخ . منهج البحث المقارن . الفولكلور والتطور الحضارى . المدرسة الألمانية . المدرسة الأنتروبولوجية . المدرســة الفولكلورية الأدبيـــة (الشرقية) .

« لعل كتابا واسع التأثير ، ان يوضع فى اصـــل القصص الشعبى ، وذيوع الحكايات المشابهة من جيل لجيل ، ومن بلد لبلد » .

سير والتر سكوت



أقبلت على ترجمة هذا الكتاب ، يحدونى الرجاء ، أن أضم الى المكتبة العربية ، مرجعا علميا جديدا . يسعف القارىء ، والباحث المتخصص ، والدارس الذى يتصدى لدراسة الفولكلور .

وتذرعت بصبر كثير ، وأنا أترجم الفصول المختلفة ، فالترجمة الأدبية ، — فى ظنى — نوع من أنواع الخلق . وأما الترجمة الفنية ، لأصول العلوم ، فعمل مرهق من أعمال ارساء القواعد ، وتشييد الأسس .

ولعل القارىء يلمس ، أن تعريب المصطلحات الفولكلورية ، ليس امرا يسيرا دائما .

ان هذه المصطلحات جديدة فى لغتنا . واكثرها ، يحدد معانى خاصة بأنواع المادة الفولكلورية . ومناهج البحث لهذا العلم الجديد ونعنى به علم « الفولكلور » .

وعندما فرغت من الترجمة . توفرت على وضع كشاف بالمصطلحات الانجليزية وما يعادلها فى اللغة العربية .

والحقت بالترجمة ، كشافا ثانيا ، بالأعلام الذين جاء ذكرهم فى سياق الكتاب .

وحاولت جهدى أن أذلل الأسلوب الشخصى — غير المألوف — الذى استخدمه المؤلف ، فى الأصل ، وأن أنتزع

من بين تراكيبه وجمله الاعتراضية ومنحاه الخاص ، أسلوبا عربيا واضحا، يتسم بالدقة والأمانة .

واذا كان المؤلف قد حشد فى دراسته مجموعة كبيرة من الاشارات الى الحكايات والأساطير والطبائع والمعتقدات ، التى لا يألفها القارىء العربى ، فقد حاولت ان اقرب هذا كله تقريبا الى من يستخدم الترجمة .

وأما الكتاب نفسه ، فيحتل مكانة مرموقة ، بين المراجع العلمية ، فى « الفولكلور » .

كان المؤلفون ، منذ مطالع هذا القرن ، ينشرون « مداخل » فى هذا العلم ، يريدون بها ان يرسموا صورة عامة لميدان « الفولكلور » وتقسيماته .

وكان علمــاء الاستشراق ، وعلم الانسان ، وعلوم اللغة والتــاريخ والأثريات ، قد شقوا طريقهم الى ميدان الفولكلور ، قبل ذلك بسنوات كثيرة .

واختلف دارسو الفولكلور ، فيما بينهم ، وتفرقوا بين النظــريات الأسطورية والأنتروبولوجية والمشرقية والتاريخية والجغرافية التاريخية .

واختلفت معهم ، حدود هذا العلم ، ومدلولاته . واغراضه ، وطرائق البحث فيه بل اختلف الدارسون حــول استخدام كلمة فولكلور هل يستخدمونها كما هى أم يترجمونها .

وهذا الاختلاف . لا يدل على فجاجة ، بل يدل على نضج . لكنه يستدعى ، تعمقا فى البحث ، واستيعابا للأسس ، واحاطة بتاريخ هــذا العلم . ومعرفة كافية بالعلوم الاجتماعية الأخرى .

وكل ذلك يلقاه القارىء فى كتاب الكزاندر هجرتى كراب الذى كان علما من اعلام الفولكلور فى عصرنا الحديث .

ولد الكزاندر كراب عــام ١٨٩٦ وتوفى عام ١٩٤٧ وامضى السنوات الأولى من حياته التعليمية ، يدرس فى معاهد انجلترا وهولندة والمانيــا حيث التحق بجامعة برلين . ثم نال شهادة الماجستير من جامعة أوا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده ، باسماء جامعات مختلفة ، وهيئات علمية لها احترامها فكان استاذا فى جامعات مينوسوتا وكولومبيا ، وجامعة بروكسيل الحرة ، وكان عضوا فى جمعية الفولكلور الانجليزية وعضوا فى جمعية الفولكلور الأمريكية ، ومنـــدوبا فى عدد من مؤتمرات الفولكلور الدوليـــة .

ومن دراساته الأخرى ، غير الكتاب الذى نقدم ترجمته العربية ، كتاب « دراسة الميتولوجيا » و « الفولكلور الجرمانى » و « الميتولوجيا العالمية » و « أجناس الأساطير » .

واشترك الكزاندر هجرتى كراب ، فى تاليف مواد قاموس الأساطير والحكايات الخرافية والفولكلور .

ونشر كراب عشرات من المقالات والدراسات فى أهم المجلات والدوريات العلمية الدولية ، وهذه الدراسات ، تظهر مكانته الكبيرة بين الباحثين فى اللغويات ، والدراسات الأسبانية ، والفلسفية فضلا عن دراسة تراث الشعوب .

وتؤكد هذه الدراسات والكتب ، موقف كراب الذى ظنه موقفا غـــير منحاز ذلك انه اعلن انه لا يلتزم بآراء مدرسة معينة من المدارس المختلفة التى تصدرت للفولكلور كما أنه لم يلتزم بمنهاج سابق . بل آثر أن ينتقى ما يراه صالحا من آراء هذه المدارس ، ويستخدم منهج التحليل الأدبى ، فى القاء الضوء على المادة الفولكلورية وتحليل مدلولاتها .

* * *

واذا كان المؤلف قد عارض مدارس الفولكلور السابقة ، واخذ عليها ، تزمتها ، واسرافها فى التعليل ، فهو نفسه قد تزمت فى تطبيق آرائه ، واهمها هذا الراى القائل باهمية الابداع الفردى ، بالنسبة للآداب والفنون الشعبية . . ثم هذا الرأى الذى ابداه عن أصول الحكاية او غيرها من انواع الأدب الشعبى والقائل كذلك بأن الصدفة هى التى تحكم نشوء هــذه الفنون ونموها .

وفى ظنى أن هذه الآراء ، لا تثبت للفحص العلمى الدقيق ، كما انها لا تطابق طبيعة المادة الفولكلورية .

وفى كتبى عن الأدب والفنون الشعبية ، اخذت بالراى المعارض القائل بأن الآداب الشعبية ، « حصيلة » الابداع الجمعى .

ومن الصعب — ان لم يكن من النادر للغاية — أن تصل الينا ، فى الشكل الذى صاغه المنشىء الفرد . . ذلك ان الأثر الأدبى الشعبى ، ينتقل من منشئه الفرد ، الى مستقبليه ومستعمليه فى البيئة الشعبية أو غيرها ، ثم يمضى يدور على الألسنة ويتواتر بالرواية الشفاهية ، ويتعرض للتحريف واعادة السبك ، الى أن يستقر فى صيغته الأخيرة ، بعد أن تتوافق عليه الجماعة الشعبية ، ويستقر عليه ذوقها .

واظهر دليل على ذلك ، « الأمثال » والأقوال السائرة ، وأغانى العمل وأغانى المناسبات العائلية الخ — فهى جميعا « مؤلفات » تنشأ فى وجدان أفراد ، لكنها تعيش لأن الجماعة الشعبية ، سوتها بالاستعمال وأنضجتها بالتداول ، وأرستها بتوافق الذوق ، و « وظفتها » لأغراض يصطلح عليها جمهور مستعمليها .

واما ما يذهب اليه الكزاندر كراب — المرة بعد المرة — من ان الصدفة هى التى تحكم نشوء الأجناس الأدبية ، فامر لا نقبله ، لان الأدب الشعبى — فى ظننا — افراز لأنواع محددة من الحياة ، وما دمنا نعرف القوانين التى تحكم نشوء انواع هذه الحياة واضطرادها ، فنحن — نستطيع ان نعرف — القواعد التى تحكم نشوء الأنواع الادبية واضطرادها .

ثم ان المؤلف ، أسرف على نفسه حين خلط بين دراسة المعتقدات الشعبية الدارجة والعقائد الدينية . ونحن نعتبر دراســـة المعتقدات الشعبية جزءا من دراسة الفولكلور ، أما دراسة العقائد الدينية ، فتدخل فى نطاق الدراسات المقارنة للأديان وعلم تاريخ الأديان .

وقد أسقطت بعض الفقرات ، ولم اترجم الفصل الأخير ، واشرت الى ذلك فى حينه ، لأن الفقرات التى أسقطتها — قليلة لا غناء فيها ثم هى تخرج على دائرة بحثنا .

وبالرغم من هذا كله ، فان الفصول التى عقدها الكزاندر كراب فى هذا الكتاب ، تعتبر مرجعا أساسيا لا غناء عنه لمن يدرس علم الفولكلور ، وخاصة تلك الفصــــول التى افردها لحكايات الجان والخرافات المحلية

والمهاجرة . وسير الأنساب ، والأغنية القصصية . فهو هنا ، يقدم مادة غنية ، وملاحظات ثاقبة ، اما الفصول التى عقدها حول محتوى الأدب الشعبى ، ـ فأقل من ذلك ثراء وشفافية ، أو قل انها أكثر من غيرها دلالة على ضعف المنهج الأدبى الذى طبقه فى تحليل مادة الفولكلور .

غير ان كتاب «علم الفولكلور» لفت اليه أنظار نفر من الدارسين العرب فحاولوا أن ينقلوه الى العربية لكنهم توقفوا عند البداية .

وانى لأرجو ان تتضافر جهود الباحثين وتتوالى اضافات اخرى ـ مؤلفة ومترجمة ـ فى هذا العلم الجدير بكل جهد وبذل .

وينبغى لى ـ آخر الأمر ـ أن اشكر الدكتور عبد الغفار مكاوى والأستاذ سمير مصطفى ، لأنهما تفضلا فترجما العبارات المكتوبة باللغات غير الانجليزية .

واخص بالشكر الدكتور مكاوى ، على جهده فى ترجمة النصوص الألمانية ، والمساهمة فى ترجمة النصوص اليونانية واللاتينية . وأعتبر أن تفضله بالسهر معى ليالى عديدة ، قد أثرى جهدى .

وسيلاحظ القارىء انى استخدمت كلمة الفولكلور ولم أستخدم « المأثورات الشعبية » أو غيرها من الترجمات العربية وذلك الأمر يجيزه تاريخ هذا العلم ، بل قد تفرضه الدقة العلمية خاصة وان مصطلح فولكلور قد ذاع بصيغته تلك ، فى لغات العالم واصبح مصطلحا عالميا .

* * *

ولعل ترجمتنا لهذا الكتاب أن تكون أول محاولة من نوعها فى نقل مراجع الفولكلور الى اللغة العربية . وانى لأرجو أن تكون هذه الترجمة فاتحة جهود أخرى تتوالى فى هذا المضمار وتحقق ما نرجوه ، من تقدم لهذه الدراسات الجديدة ، التى نعتقد أنها تثرى الثقافة العربية .

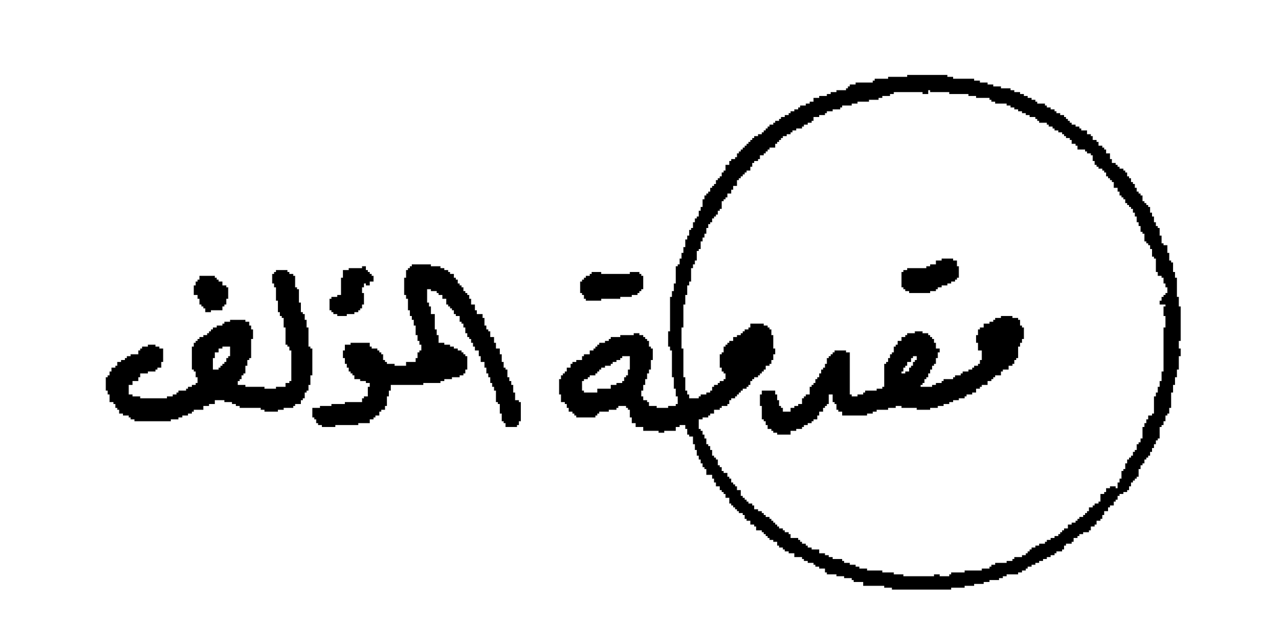
* * *

وبعد فقد حاولت ما استطعت ، فان كنت أصبت نجاحا ، فلكل من بذل معى جهدا ، اوجه هذا النجاح وان كنت أصبت فشلا ، فحسبى انى وحدى الذى أحمل مسئولية هذا الذى قصر عنه جهدى .

والله المستعان ؟

رشدى صالح

القـــاهرة ١٩٦٧



مقدمة المؤلف

يدين هذا الكتاب ، بميلاده ، للأيام التى قضاها المؤلف فى لندن ، مشاركا فى اجتماعات مؤتمر العيد الخمسينى لجمعية الفولكلور البريطانية .

ولا نزاع فى أن كتب المدخل والكتب المرشدة الى الفولكلور ، ليست نادرة . غير ان المرء يفتقد فى اللغة الانجليزية ، وجود مؤلف جامع ، يمتاز بالشمول ، والتبويب المنهجى يستطيع أن يحقق تلك المنفعة ، التى اداها « المرشد الى الفولكسكوندة » الألمانى الذى نشره همز فى مدينة ليبزج ، قبل ان تندلع الحرب العالمية العظمى ، بسنوات قليلة .

والحق ان الفولكلور قد أصبح علما تاريخيا ، منذ سنين عديدة ، واستقرت مناهج بحثه ، تتيح من وسائل الفحص والتيقن ما تتيحه طرائق البحث فى العلوم الأخرى .

ولعله يؤلف ـ مع العلوم الشقيقة ـ آفاق معرفتنا بحياة الانسان الغابرة . وينبنى على هذا ، ان ينتحل الفولكلور مرتبة « العلم الممهد مجهول المؤلف » او البداية شبه العلمية بالنسبة لأى من العلوم الأخرى ، أو لهذه العلوم جميعا ، وقد انتحل تلك المرتبة ، المرة بعد المرة ، وخاصة بالنسبة لعلوم اللغة ، والتاريخ ، والاتنوجرافيا ، وتاريخ الأديان .

ويسعد المؤلف سعادة حقة ان يثبت هذا الكتاب فائدته للزملاء العاملين فى الميادين المتصلة بالفولكلور ، والذين يتوقون الى ان يعرفوا حقائقه الأساسية ، وطرائق عمله .

وقد آثرت ، عند ضرب الأمثلة ، والايضاحات ، ان اقدم الحكايات والطقوس ، والمعتقدات التى تسنى لى ان اعرفها بطريقة مباشرة . فلست اظن اننا نجنى فائدة ، من تاليف الكتاب الثالث عشر ، طالما ان مادته ماخوذة من اثنى عشر كتابا اخرى .

واذا كنت استخدمت نتائج غيرى من العلماء ، فقد اقتنعت سـلفا بصحتها ، واختبرتها على ضوء ما وصلت اليه معلوماتنا الراهنة واذا لم نهتد الى حل حاسم ، ومتفق عليه ، لمشكلة من المشكلات ، فقد صرحت بان تلك هى الحال .

وقيدت نفسى ، فى الأجزاء الفهرسية ، بان احيل القارىء الى اقل عدد من الدراسـات الموثوق بها ، والمتوفرة ، عن الموضوع ، فقد تتيح تلك الدراسات بدورها ، مادة فهرسية جديدة .

وليس نقل القوائم الفهرسية عن كتب الآخرين ــ مجـرد تبديد للوقت ، بل عمل صريح من اعمال الغش ، ولو انه يمارس على نطاق واسع فى بعض البلاد ، ويلقى تشجيعا من بعض الجامعات .

وانى لارجو ــ الا اكون فى نقدى للمدرسة الانثروبولوجية ــ اشـد قسوة من اندرو لانج Andrew Lang حين هاجم ، فى زمانه ، تخيلات مكس موللر Müller الشمسية الأسطورية .وكل ما ارجوه ان اكون مثله فى رواء النكتة وسرعة البديهة .

وفى كتابنا الراهن ، لم اصرف همى الى ارسـاء نظرية تحكمية ، فما اكثر ما لدينا من هذه النظريات ــ بل عنيت بان ابسط منهاج عمل عام ، تاريخى المنحى فى جوهره .

ولست ازعم ، او ارى ، ان هذا المنهج يعلو فوق الخطا من كل ناحية . فعلى نقيض هذا اثق بان هذا المنهاج ، سيناله مع الزمن ــ اصلاح وتطوير .

لكنى على نفس اليقين ، من انه سيبقى ــ بعناصره الجوهرية ــ اصح ما وضع من مناهج ولعلى اقول هذا ، فى شىء من الحرية ، لانى لا ازعم لنفسى فضل انشاء هذا المنهج .

وطبقا لهذا المنهاج ، سيجد القارىء ــ وخاصة فى تناول الفولكلور الشفاهى اى الحكايات والاغانى ، انى تبنيت التفسيرات الادبية الخالصة .

ذلك انى أرى ان الحكايات والأغانى الشعبية تعبيرات أدبية بحتة تصور العبقرية الشعبية ، التى تعمل ، بوازع من تلك الدوافع ذاتها التى تزع الذهن الخلاق عند رجل الأدب ، والعالم والفنان .

ويختلف الاثنان (*) فى تلك الأمور التى لا مفر من ان تختلف عليها المدارس الأدبية المتباينة ، وتلك هى قضايا الذوق ، وطرائق « التكنيك » .

وما دامت تلك هى الحال ، فانى اتجاسر فازعم ان نتـــائج الذهن الشعبى ، تبتغى وتستحق ، نفس المستويات من النقد .

ولا فائدة من ان نحجم عن تسمية « التفاهات » و « الأشياء الفجة » بما تستحقه من اسماء ، وما ينبغى لها من صفات لو انها كانت انتاجا ادبيا ، وقيست بمعايير مصطلح الأدب بعامة .

وينبغى الا يساورنا ادنى اشفاق من ان تخسر مادة الفولكلور ، من جراء هذا فمقاييس القرن الثامن عشر النقدية اصبحت لحسن الحظ ، فى ذمة الماضى ، وثمة اشياء اخرى عديدة ، غير الفولكلور ، لم تكن لتحظى برضاء « فولتير » أو « بوب » قد اصبحت تعتبر — برغم ذلك — أرقى انواع التعبير عن العواطف والأخيلة الفنية .

ولكن ينبغى ان نبدى استدراكا آخر ، ذلك ان هذا الكتاب ، لم يقصد به ، أن يكون موسوعة للفولكلور . ولو أردناه كذلك ، لاختلف تبويبـــه اختلافا بينا ، وزاد حجمه زيادة بالغة .

واذا كنت قد حاولت الكمال ، فلم يخطر على بالى لحظة أن أرهق القارىء ، بكثرة التفاصيل المتناثرة ، وعلى الأخص فى الفصول المعقودة للخرافات ، ومأثورات النبات والحيوان ، ذلك أن هذه التفاصيل جديرة بأن تعالج علاجا شافيا فى معجم او موسوعة فقط .

ومع أنى أبدو ، أثناء عرض الوقائع ، اعتنق آراء لم يقبلها بعد علماء الفولكلور البريطانيون بعامة . فليس ثمة جدوى فى أن انكر الدين العظيم الذى اشعر بأنى احمله نحو العلم والفكر البريطانيين . هذا الدين ، الذى

(*) العبقرية الشعبية الدارجة ، والذهن المثقف الخلاق — المترجم .

سيبدو فى كل صفحة ، ولعله يظهر اكثر ما يظهر حيث تتسع شقة الخلاف بين العلماء الانجليز وبين النتائج والاستدلالات التى توصلت اليها .

وينبغى ان اوجه الشكر للدكتور وبر ايزلز ، على ما اسداه لى من آراء نافعة ، والآنسة اريكا بوتكه من برلين ـ وقد حققت العديد من الشواهد ، ولاصدقائى بروفيسور اليسون بيرز من جامعة ليفربول ، وبروفيسور أ . ب . بوتكين من جامعة اوكلاهاما ، اللذين راجعا السلخ .

واما دينى لصاحب الروح الطيبة (*) ، الذى كانت كتبه ، ومقالاته ، عمدتى ، وعونى الفكرى ، فى سنوات نفيى العشر ، فلعل الاهداء ان يكفى فى الدلالة عليه .

الكزاندر هاجرتى كراب
باريس ١٩٤٩

(*) أهدى المؤلف كتابه لآرثر برنارد كوك ـ المترجم .

تمهيد

فى عام ١٨٤٦ ، اشتق وليـــام جون تومز عـــالم الآثار الانجليزى ، اصطلاح « فولكلور » ليحل محل التعبير الثقيل : « الأثريات الشعبية » .

ومنذ ذلك الحين ، لقيت هذه الكلمة القبول الواقعى فى كافة البلاد الأوروبية ، وهى جارية الآن فى لغات كثيرة ، غير اللغة الانجليزية .

واما كلمة « فولكسوندة الالمانية » فلا تعتبر ، بحال ، مساوية لكلمة « فولكلور » الانجليزية ، ذلك انها ذات استعمال أوسع مدارا ، فهى تضم — فيما تضم من اشياء — دراسة فن الفلاحين ، وصنائعهم اليدوية . على حين يقتصر الفولكلور على دراسة المأثورات غير المدونة للشعب ، كما تبدو فى القصص الشعبى ، والعادات والمعتقدات والسحر والطقوس .

والاعتراض الذى يثار المرة بعد المرة ، ضد الاصطلاح الانجليزى — من أن له معنيين ، فهو يدل على كل من المادة والعلم الذى يحاول أن يدرسها — هذا الاعتراض ليس خطير الأثر . ذلك أنه ينطبق بدرجة مساوية على العلوم الأخرى ، واظهرها — قطعا — علم التاريخ .

ولعلنـــا نفسر — على النحو التـــالى — مجال الفولكلور ، وما ينجزه من اعمال اساسية فى جمع المادة وتصنيفها اللذين لا يستغنى عنهما علم من العلوم سواء كان طبيعيا أو تاريخيا .

يريد الفولكلور أن ينشىء من جـــديد التاريخ الفكرى للانسان ، لا كما تمثله كتابات الشعراء والمفكرين المرموقة بل كما تصوره اصوات العامة ، الأقل جهارة .

ثم ان الفولكلور علم تاريخى . هو تاريخى من حيث انه يحاول أن يلقى ضوءا على ماضى الانسان . وهو علم لأنه يحاول أن يصل الى أغراضه ـ لا عن طريق التأملات والاستنتاجات المبنية على أفكار مجردة يسلم بها سلفا ـ بل باستخدام طرائق القياس التى تحكم ـ عند التحليل الأخير ـ سائر الأبحاث العلمية ، الطبيعية أو التاريخية .

وتستدعى العبارة الأخيرة أن نضيف القليل من الملاحظات .

فالعلوم التاريخية ـ فيما نعرف ـ تتميز على العلوم الطبيعية ، فى أن الثانية تملك أداتين من أدوات البحث . وهاتان هما الملاحظة والتجربة ، اما العلوم التاريخية فتتاح لها فحسب ،أداة الملاحظة التى تتخذ أسلوب دراسة الوثائق . والدراسة التاريخية ـ اذن ـ تعنى تقييم الوثائق . والافادة منها ، على قدر ما نعرف من وقائع التاريخ ، ونرتبها ترتيبا زمنيا .

ذلك هو جوهر منهج البحث التاريخى كما بسطه سافينى والأخوان جريم ، فى بداية القرن الماضى .

ومن هذه الناحية ، تعرض الفولكلور ـ اكثر ما تعرض ـ لانتقاد المؤرخين فمن الجلى الواضح ان الجانب الأوفى من الوثائق التى جمعها علماء الفولكلور واستخدموها ، لا تزعم لنفسها ، تاريخا عريقا مضطردا .

ولعل علماء الفولكلور أن يقابلوا ذلك الاعتراض ، باثارة الاعتبارات التالية .

ان مجرد وجود تاريخ على وثيقة من الوثائق يرتب لها ـ فى التاريخ والفولكلور آثارا قليلة الأهمية .

ومثال ذلك ان سانت جيروم ابدى ملاحظة عابرة ، فى بعض كتاباته ، فقال ان لغات الغلاطيين فى آسيا الصغرى ، تشبه الى حد بعيد لغات موجودة فى بلاد الغال .

من هذه العبارة ، انتهى محترفو كتابة التاريخ الى القول بأن اللغات السلتية كانت مستخدمة اثناء القرن الرابع الميلادى ، فى آسيا الصغرى وبلاد الغال .

والذى حدث ـ اذن ـ هو ان سانت جيروم كان ينقل مجرد نقل عن كتاب « التواريخ القديمة » المفقودة لفارو ، وكان فارو بدوره قد استقى

الواقعة موضوع المناقشة ، من كتابات « بوزيدونيوس » وهو من كتاب القرن الأول قبل الميلاد .

وهكذا ، فالتاريخ الحقيقى للوثيقة يسبق تاريخها الرسمى ، بخمسة قرون .

ولا ريب فى ان مؤرخى العصور القديمة جميعا ، يعرفون هذه المشكلة التى ضربت لها مثلا واحدا لاغير ، ولو ان التطبيق العملى ـ كما يظهره الشرح ـ جدير بأن يقضى على القواعد « الذهنية » لهذه النظرية .

واما الفولكلور ، فلا يجرى على اساس قواعد اخرى .

انه ينص ، فحسب ، على ان حداثة وثيقة من الوثائق ، لا تتعارض مع صلاحيتها للاستعمال بشرط أن نستطيع التدليل على ان هذه الوثيقة مستمدة من مصدر آخر ، أشد منها قدما .

والى هنا ، لا يوجد خلاف ظاهر ، بين المنهج الذى يستخدمه المؤرخ المدقق ، والمناهج الذائعة عند علماء الفولكلور . غير ان ثمة اشياء جديرة بأن تقال فى هذا الموضوع ، فميدان التاريخ ـ باعتباره علما وثائقيا ـ ينتهى بانتهاء الوثائق نفسها . فاذا طبقنا هذه القاعدة تطبيقا شاملا ، لقصر التاريخ أيما قصور عن أن يؤدى رسالته ، ونعنى بها بناء التاريخ الظاهرى او السياسى للانسان .

وحيث لا توجد وثائق ، يكون من حق المؤرخ ـ وهذا حقه لا نزاع ـ أن يستنبط شتى النتائج من الاستدلالات اللغوية أو مدلولات الحفائر الأثرية .

ويزيد عدد هذه النتائج الاستدلالية اذا انتقلنا من التاريخ السياسى الى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى ، حيث تتزايد ندرة الوثائق ، ذلك ان واضعى التقاويم التاريخية القديمة ، المحترفين ، قد استغرقوا ـ بسبب من الأسباب ـ فيما كان يقع من تقلبات واحداث ظاهرية ملموسة ، على مسرح الحياة الكبير .

ولقد يواجه الفولكلور هذه المسألة ذاتها ، غير انه ـ قصـــدا الى تذليلها ـ لا يضطر الى الخروج على ميدانه ، بل يطبق منهج البحث المقارن ، على مادته . واصطلاح منهج البحث المقارن جدير بأن يثير معطيات خاطئة وشديدة الخطر ، فلقد استخدمته سائر مدارس الأسطوريين من انصار النظرية الشمسية والقمرية ، ولو انهم استخدموه بمدلول مختلف تماما ،

حتى لقد حق على هذا الاصطلاح ان يفقد قيمته الآن . ويكفى ان نقول ان ما بين علم الفولكلور ,وهذه الأوهام . يشبه ما بين علم الكيمياء الحديثة ، وعلم « الركة » الكاذب الذى كان من اهم اغراضه ان يكتشف حجـــر الفلاسفة .

وتبدأ طريقة البحث المقارن بمعناها الاصطلاحى الحديث ، من القاعدة القائلة بأن الانسان ، قد اجتاز أثناء تكوينه الفكرى ، منذ ما وجد على سطح الأرض ، مراحل من التطور التدريجى ، الذى كان بطيئا ثم ان افكارا ، اشد حداثة وأكثر تعقيدا ، اخذت تحل محل افكار سابقة ، أكثر قدما ، واشد سذاجة .

ومع ان هذه القاعدة ، لا تتفق كل الاتفاق مع وجهة النظر المسيحية الا انها تطابق الحقائق الثابتة بل تتفق مع النتائج التى كشفت عنها النظرية الداروينية بعامة .

واما الرأى القائل بأن الجماعات البدائية التى تعيش فى ايامنا ، أصابها الانحلال فانحدرت عن مستواها الذى كان عاليا ذات يوم ، فرأى لا تسنده حقيقة ثابتة غير انه قد وجدت أمثلة بعينها متفرقة ، ترتبط دائمـــا بجماعات « اجتماعية » صغيرة العدد ، تظهرنا على انها مرت بسلسلة من التحلل ، التى نستطيع أن نعزو اسباب كل حالة منها ، الى وقائع تاريخية ، من الممكن أن نتثبت من صحتها .

وخير مثال على عملية التحلل هذه والذى كشفت عنه أعمال التنقيب فى السنوات الأخيرة ، هو ما آلت اليه المحلات السكندينافية التى كانت قائمة فى جزيرة جرينلاند ، فى أواخر العصور الوسطى .

وفى هذا المثال ذاته ، يجدر بنا ان نلاحظ أن التحلل الفكرى لتلك الجماعة ، كان ابطأ بكثير من تحللها الفيزيقى .

ان القوة العقلية عند الانسان ، واحدة فى جوهرها ، وان اختلفت درجاتها وينبنى على هذا ، ان يتخذ التطور الروحى للانسان ، انماطا شديدة التشابه ، فى مختلف انحاء الأرض ، وفى شتى انواع المناخ ، وذلك ، بالرغم من الاختلاف البالغ فى درجة التطور .

واذن ، لعل قبيلة تعيش فى مكان ما من الأرض ، أن تمثل درجة التطور

الروحى التى تخطتها ، ومنذ مئات السنين ، قبيلة ثانية ، كانت تعيش فى مكان آخر من المعمورة .

واذن ، فدراسة القبيلة الأولى ، يلقى ضوءا على ماضى القبيلة الثانية ــ ونحن نرحب بهذا الضوء حين لا تتوفر لنا وثائق تتصل بالتاريخ الماضى، أو حين لا تكون تلك الوثائق شافية .

وليس شرطا ، ان يكون المكانان اللذان أشرنا اليهما ، متباعدين أحدهما عن الآخر ، ففى كل بلد حديث ، يعتنق أهل الريف معتقدات ، وعادات ، تخلى عنها اغلب أهل المدن منذ زمن .

والنتيجة السائغة ــ اذن ــ هى ان اسلاف سكان المدن المعاصرين الذين كانوا يعيشون فى زمن لم تكن المدن الكبيرة قد قامت فيه بعد ، أو الذين لم يكونوا قد نزحوا الى الحواضر ــ هؤلاء الأسلاف كانوا يباشرون من العادات ، ويعتنقون من المعتقدات ، ما يباشره الفلاحون المعاصرون .

ولنا أن نقول ، ان المستوى الثقافى لأية جماعة بشرية ، حرى بأن يوضح المستوى الاجتماعى ، الذى كانت تعيشه جماعة بشرية اخرى .

واذا نظرنا الى الحواضر الخالصة ، وجدنا الأنموذج البروليتارى من ــ اشد الكائنات التى يتصورها العقل ــ افتقارا الى التقاليد السابقة .

بيد اننا نستطيع أن نشير الى بعض الاستثناءات ، فثمة صنائع وحرف ، تنحو ــ برغم تواضعها ــ الى المحافظة على تلك العادات السالفة، والطبائع الغابرة ، التى اندثرت من حياة الكثرة الكثيرة من سكان المدن .

وفى مقدورنا أن نقول ، ان طبقة اجتماعية معينة قد تمثل ، مرحلة من مراحل التطور الثقافى الذى جاوزته الطبقات الأخرى .

ذلك ان المجتمع الانسانى ، فى اشكاله الحضارية المتقدمة ، يعرض عناصر القديم وعناصر الجديد جنبا الى جنب ، ففى الجزر البريطانية ، قد تنطلق القطارات السريعة ، بالقرب من آبار مقدسة ، أو لعلها تعبر فوق هذه الآبار فى احيان أخرى ، وما أكثر الذين يستخدمون هذه القطارات أو يديرون ماكيناتها ، ثم يؤمنون بالأشباح والغيلان .

ولا يهدد هذا الأمر ، بنشوب تناقض دائم ، فما من بلد آخر ، يبدى من التسامح مع العناصر القديمة الموجودة فى قلب الحياة العصرية ، مثل

الذى تبديه انجلترا ، ومع هذا ، فلا نكاد نذكر عدد التناقضات الخطيرة ، فيها على حين تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية ، ـ فى أقل من قرن ـ لأزمتين طاحنتين كانتا جديرتين بأن تقضيا على بلاد كثيرة غيرها .

وما من ارض فى الوجود ، تلاشت فيه التقاليد ، تحت ضغط حركة التنميط التى لا ترحم ، كما حدث ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والأحداث التى وقعت مؤخرا لا تحملنا على الظن بأن هذا « التنميط » قد قضى على التمزقات الصريحة بين الجماعات المختلفة ، كما انه لم يقض على روح التعصب المنتشرة فى سائر الأنحاء .

وجدير بنا ان نحذر من الوقوع فى خطئين قد يتخذان شكل الوصول الى النتائج السريعة بناء على ما ذكرناه .

فالرجل المتوحش فى عصرنا الحديث ليس انسانا بدائيا ، حتى فى تلك المناطق التى تندر فيها مخالطات الأمريكيين والأوروبيين التواقين الى ان يحملوا مسئولية الرجل الأبيض !!!

لقد ازيح هذا الانسان ، فى سياق تطور طويل جدا ، عن تلك المرحلة التى يسعدنا ان نطلق عليها اصطلاح « المرحلة البدائية » المضلل ، ولعله ازيح عنها ، اول ما وطئت اقدام الرجل الأبيض ، ارض وطنه العذراء .

ولا يجوز لنا ان نسوى بين الفلاح الحديث والانسان المتوحش ، ولو كان هذا الفلاح يعيش فى أكثر انحاء أوروبا تخلفا ، ذلك انهما مختلفان ، وبينهما مسافة واسعة ، من مسافات التطور كان فيها هذا الفلاح يتعرض ـ المرة بعد المرة ـ لتأثير الحضارات الكبرى ، وعوامل الحضارات الناشئة فى المدن ، وهذا كله ، أثر فى تكوينه الثقافى تأثيرا كبيرا .

ونتيجة للارتباط بين علمنا والتطور الاجتماعى للانسان ، ازدهرت دراسات هذا العلم فقط فى ظل حضارات المدن الكبيرة ، اى انها ازدهرت عندما كانت تلك الحضارات توشك أن تبلغ غايتها وتكاد تستوفى حلقاتها .

لقد كان ثمة فولكلوريون ايام الاسكندر ـ ضاع اكثر ما كتبوا ـ فلم يبق لنا الا ان نتقصى اعمالهم من خلال جامعى النصوص لاغير ، بينما يبدو تأثيرهم فى الأدب فى امثال «التحولات» لأوفيد metamorphoses .

واما فى الغرب ، فنعتبر الفولكلور ابن الحركة الرومانسية ، وقد أسسه يعقوب جريم ، ولا احد غيره ، فأرسى قواعد منهاجنا فى كتابه العظيم « الميتولوجيا الالمانية » .

وانه لأمر عجيب ، وان كانت له سوابق ، ان يكون التأثير المباشر الذى احدثه هذا الكتاب فى نطاق الدراسات العامية ، فى وطن جريم تأثيرا ضعيفا فسرعان ما افسد علماء الميتولوجيا من انصار النظرية القمرية والنظرية الشمسية ، الأثر الطيب الذى كان متوقعا أن يحرزه هذا الكتاب ، وعجز الخليفة الحقيقى الكبير ، ليعقوب جريم — ونعنى به ويلهلم مانهاردت — عن أن يحصل على منصب فى هيئة التدريس بالجامعات.

واما الشاعر البليغ ، والعالم لودفيج أولاند ، فلم يترك تلاميذ يحتذونه ، مع أنه كان متأثرا بيعقوب جريم تأثرا بالغا .

وأما كارل مونهوف ، فقد كان عالم اسطوريات مبرزا ، لكنه نال شهرته الواسعة باعتباره عالما من علماء النحو .

ولم يكن الارد هوجو ماير الذى نشر الطبعة الرابعة الدقيقة لكتاب الميتولوجيا الألمانية ، اكثر من جامع نصوص دءوب .

ولم يقرر علماء الفولكلور الألمان الرجوع الى منهج يعقوب جريم الا فى أواخر القرن الماضى ، وكان اكثر ما دعاهم الى ذلك ، هذا التقدير الذى صادف كتب منهاردت ، ولو أنه كان تقديرا متأخرا زمنا .

ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أسماء علماء من امثال : كارل ڤاينهولد ، وولهلم هيرتز ، وفردريك فون درلن ، ولعلنا نلاحظ تقدما قريب الشبه من هذا ، فى بريطانيا ، نتيجة لتقدم الدراسات الألمانية فيها .

كانت كتابات جريم وأولاند ، غير ميسورة الا لأولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقرءوا الأسلوب النثرى الصعب الذى استخدمه هذان العلمـــان .

ولهذا السبب ، كان تأثيرهما غير ملموس . وأما علماء الميتولوجيا الشمسية ، فكان يمثلهم مكس مولر ، وهو من المع المتحدثين بلسان هذه المدرسة ، فلم يكن غريبا اذن ، أن يكون « لأوهامهم » سحرها الشديد الذى لبث باقيا حتى نهاية القرن الماضى .

وكانت المدرسة الأنتروبولوجية التى يقودها علماء كتايلور واندرو لانج، قد قدمت للجمهور الانجليزى هذا الذى حاول مانهاردت أن يقدمه للجمهور الألمانى ، وان كانت المدرسة الأنتروبولوجية الانجليزية صنعت ذلك ، بقدر اكبر من النجاح .

ولا نزاع فى ان رجاحة العقل الانجليزية ، قد اكدت ذاتها ، ونحن

تدين لها آخر الأمر ، بذلك الانتـــاج العظيم الذى حققته المدرســـة الانتروبولوجية ، والذى بلغ ذروته فى كتاب « الغصن الذهبى » وهو الكتاب الذى تبدو كافة المحـــاولات الأخرى لحل الغوامض ، محاولات ضئيلة الحجم ، اذا قيست اليه .

واما المدرسة الفولكلورية الأدبية [1] فمنهاجها انتقائى ، وهى لا تلتزم بنظرية ثابتة محددة ، وان كانت تأخذ نفسها بتطبيق منهج محدد .

وتدين هذه المدرسة بوجودها للعالم تيودور بنفى .

وكان أشهر علمائها فى فرنسا ، جاستون بارى ، وايمانويل كوسكان ، وهويت ، وأشهرهم فى قرننا الحـــالى ، علمـــاء الفولكلور الفنلنديون والسكندينافيون .

وهناك كلمة أخرى ينبغى أن نبديها فى موضوع جدير باثارة الاهتمام فى زمان كزماننا .

تلك هى انه قد عم الافتراض ان دراسة التاريخ ، تؤدى الى نشر روح التسامح فى الشئون البشرية ، ذلك بالرغم من أن عددا من اساتذة التاريخ المحدثين ، لم يحاولوا بصدق ، أن يبرهنوا على صحة هـــذا الافتراض .

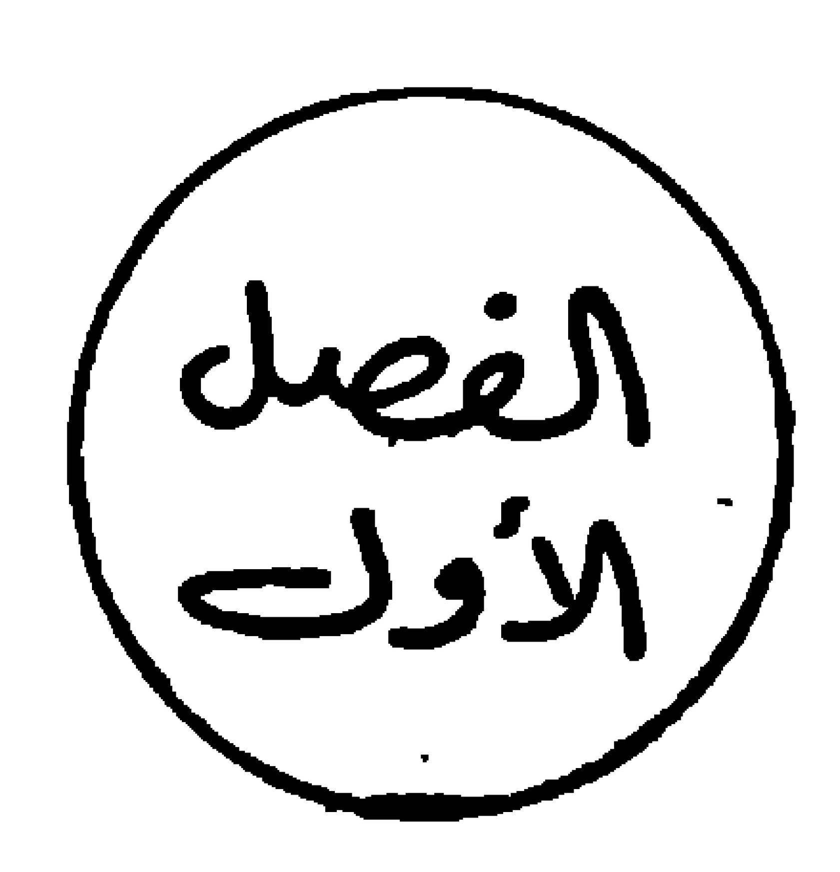
واما الفولكلور ، فيجب أن يحقق هذه الفضيلة ، مثله فى ذلك مثل علم التاريخ ان لم يزد عليه .

ولعل الحقيقة التالية توضح ما نقول . فعندما وطئت أقدام أوائل المكتشفين القادمين من البحر الأبيض ، ارض هذه الجزر ، كان سكانها ــ بلا شك ــ يعيشون حياة حضارية تشبه الحياة التى عاشها سكان جزر فيجى ، فى اواسط القرن الماضى .

وكانت مسافة زمنية تبلغ الألفى عام ، تفصل بين الرجل الأبيض ، والانسان المتوحش فاذا تذكرنا ان عمر النوع الانسانى ، يزيد على المائتى الف سنة ، فى أقل تقدير ، لما كان من حقنا ، أن ننظر نظرة صلف الى اخواننا الذين لم يواتهم الحظ ، بل لعلنا لا نملك الحق فى أن نوليهم هذه النظرة ، لولا افتقارنا الى حاسة التمييز بين الأبعاد والمسافات الزمنية .

---

(1) يطلق عليها ايضا اسم المدرسة الشرقية ــ المترجم .



حكايات الجـان

● حكايات الجان :

تعريفها . جزئياتها المتكررة . نشوء هذا النوع والابداع الفردى . النصوص المستحدثة والتوزيع الجغرافى لحكايات الجان . النصوص التاريخية او النصوص الأم . اشـــهر المجموعات المكتوبة : الليالى المسلية والخمســـون حكاية وحكايات امى الأوزة .

بدء الدراسة المنهجية ـ راى الأخوين جريم فى انها آرية من حيث موطنها الاصلى .

الصلة بينها والاساطير ـ نظرية بنفى عن الاصل الهندى لحكايات الجان . نقدها . آراء بدييه المعارضة لها . راى المدرسة الأنثربولوجية . نقده . المدرسة التاريخية الجغرافية (الفنلندية) .

عنصر الخوارق فى حكايات الجان . العنصر التعليمى .
نظرية سانتيفز الطقسية .
التفسير النفسى ونقده .
اهم السمات المميزة لحكاية الجان .

« الخادم » وأبطال الحكايات . الشخصيات الشريرة . الحراسة الشعائرية .

العناصر الجادة والعناصر المرحة .
عنصر الاثارة (التشويق) .

تقارض المادة بين الثقافات الشعبية المختلفة . صيغتها النثرية . آراء الأنثروبولوجيين الخاصة بوجود رواسب من موروثات قديمة فى حكايات الجان . حداثة تاريخها بالنسبة لأنواع الأدب الفولكلورى الأخرى . أثر الهجرة فيها .

• حكايات الجـــان

عندما بدات الدراسة العلمية المنهجية للفولكلور فى أوروبا ، أوائل القـــرن الماضى ، كان بدؤها ، فى جوهره ، ثمـــرة من ثمار الحـــركة « الرومانسية » (الابتداعية) .

وكانت حكايات الجـــان أول شيء جذب الانتباه السائد ، وغطت « الحكايات المنزلية » للأخوين جريم ، على سائر مجموعات حكايات الجان التى سبقتها الى الظهور .

كما انها حفزت جامعى النصوص لأن ينشطوا أينما كانوا من أوروبا .

ونحن نعنى بحكاية الجان انها احدوثة ، متواترة بالرواية الشفاهية ، منثورة ، ولها قدر من « القوام » وانها جادة فى الغالب الأعم .
وليس معنى هذا اننا نسقط منها عنصر المرح على اطلاقه .

هذه الأحدوثة ، تتمركز حول « بطل أو بطلة » ..
ويكون البطل فقيرا او وحيدا فى بداية الأحدوثة وبعد سلسلة من المخاطرات تلعب فيها « الخوارق » دورا ملموسا ، يستطيع البطل ان يصل الى غرضه ، فيعيش حياة سعيدة ، الى النهاية .

واذن نستطيع أن نعتبر أن قصة الجان تتألف من عدد من المغامرات أو « الجزئيات » (*) المتناثرة — وان لم يكن تناثرها عفويا — ذلك انها تتساوق معا ، فى ارتباط بالبطل أو البطلة ، باعتباره الشخصية المحورية .

وهذه الجزئيات ، تؤلف فيما بينها ، نسيج الحكاية أو قل نسيج « الأنموذج » (**) واذن فكل « أنموذج » يتألف من عدد متغير من الجزئيات التى تتوالى فى سياق معين (١) ، فاذا حللنا انموذج الحكاية المعروفة — حكاية — Nicht Nocht Naething :

(*) راجع كلمة motif فى فهرس المصطلحات والاعلام .

(**) راجع كلمة Type فى فهرس المصطلحات والاعلام .

الفينا الجزئيات التالية :

١ ـ طفل نذر للعفريت .

٢ ـ ٤ ـ ثلاثة أعمال يفرضها العفريت على الأسير .

٥ ـ هروب الأسير مع ابنة العفريت .

٦ الى ٨ ـ ثلاثة « جمادات » تجيب بالنيابة عن الهاربين .

٩ ـ مطاردة يقوم بها العفريت .

١٠ الى ١٢ ـ ثلاثة أشياء يلقيها الهاربون ليصنعوا منها حواجز سحرية .

١٣ ـ لعنة زوجة العفريت .

١٤ ـ القبلة التى تنسى البطل خطيبته .

١٥ ـ ١٧ ـ ثلاث مغامرات للخطيبة المنسية مع طلاب الزواج منها الذين يلحون عليها .

١٨ ـ فك الطلسم والاعتراف .

* * *

وتمتاز بعض « الجزئيات » المعروفة ، بأنها ترد فقط فى قليل من حكايات النماذج . وأما الجزئيات الأخرى ، غير المعروفة فكثيرة ، ولا يقتصر وجودها على عدد قليل من النماذج .

والمثال الذى أوردناه ـ فيما سبق ـ وهو مثال ينتمى الى النوع الثانى ، على حين ان الكثير من الأمثلة الأخرى ، قد ينطوى تحت النوع الأول .

ومجموع الجـزئيات كافة ، بالغ الضخامة ، فهو يزيد على العشرة آلاف جزئية (٢) .

وبعض هذه الجزئيات ، يتشابه فيما بينه ، الى الحد الذى يكفى أن يجعلها تتبادل المواضع ، فى حكاية من الحكايات .

وخذ مثلا الجزئيات من ١٠ الى ١٢ ، تجد انها تستطيع أن تحل فى يسر ، محل الجزئيات من ١٠ الى ١٢ أ فى الحكاية المشار اليها . ونعنى بهذا ، التغيير والتبديل فى مواضع الهاربين .

وهكذا ، تستطيع بعض الجزئيات ان تحل محل جزئيات أخرى ، وذلك فى نطاق ضيق ـ ثم تستطيع بعد ذلك أن تؤدى وظائف هـــذه الجزئيات الثانية ، بالنسبة للتسلسل المنطقى للأنموذج غير ان ذلك لا يعنى على الاطلاق ، وهو لا يعنى هذا الذى قيل احيانا من ان الجزئيات تتواصل قسرا فى نظام كاليد سكوبى (*) ، بل على النقيض من هذا ، تمثل حالات تبادل المواضع بين الجزئيات ، نسبة ضئيلة للغاية . ذلك ان الجزئيات ، واضحة التكوين ، فى العادة ، لا يشوبها غموض ، وهى ترتبط معا ، فى تسلسل منطقى شديد ، حتى ليجوز لنا ان نعتبر « الأنموذج » تكوينا فنيا له هذا التكامل ، الذى يسم أو يكاد ، قصيدة من نظم الشاعر تينسون ، او رواية من تأليف توماس هاردى .

وما دامت تلك هى الحال ، فان الأنموذج . الذى يتألف كما قلنا من جزئيات متباينة ، لكنها تنتظم معا فى سياق منطقى محدد ـ هذا الأنموذج لابد وان يؤلف دفعة واحدة .

وفى موطن محدد ، بزمان معلوم ، وان يكون ثمرة عقل واحد .

ومن هذا الموطن ، الذى لا يسهل علينا ان نحدده . يشرع الأنموذج يهاجر متجها الى الأماكن الأخرى ، ولعله يحمل فى غالب الأحيان عبر مسافات شاسعة ، وقارات بكاملها .

وتقودنا هذه الحقيقة بدورها الى ان نناقش مســـألة النصـــوص المستحدثة (**) ، والتوزيع الجغرافى لحكايات الجان .

عرفنا الجانب الأوفى من نماذج الحكايات ، عندما توفر لنا قدر كبير

(*) الكاليد سكوب ـ آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة اشكال مختلفة وهى تنتظم انتظاما بديعا ـ المترجم .

(**) انظر Variant فى فهرس المصطلحات .

من نصوصها المستحدثة اى تلك النصوص الشفاهية ، التى أخذت ونقلت عن روايات العامة ، فى بعض فترات القرن التاسع عشر .

والقليل من هذه النصوص المستحدثة ، يرجع الى تاريخ اقدم من هذا ، وبعضها يعود الى زمن متاخر شيئا . ذلك ان نشاط جامعى النصوص لم يتوقف مع مجىء القرن العشرين .

وقد يزيدعدد النصوص المستحدثة (٣) ، لحكاية ما ، على المائة نص ، تتواتر عادة من انحاء اوروبا حيث نشط جامعو النصوص ، وتتواتر كذلك من مناطق آسيا بما فيها اندونيسيا ، ومن شمال افريقيا وجنوبها ، ومن المستعمرات الأمريكية .

واما مناطق وسط افريقيا ، ومناطق الأهالى الوطنيين فى قلب استراليا ، فتلفت انظارنا ــ فقط ــ بانها مجهولة بالنسبة لنا .

وليس سبب ذلك فحسب ، قلة عدد الذين يجمعون نصوصها . بل يعطينا انتشار النصوص المستحدثة ، كامل الحق ، فى أن نعتبر حكايات الجان ، أثرا من آثار العالم القديم ، حملته الى أندونيسيا تيارات الثقافة الهندوكية والاسلامية ، ثم حمله العرب الى شرق أفريقيا ، وحمله الهولنديون الى جنوب افريقيا واذاعه المستعمرون الأوروبيون فى العالم الجديد .

وايا كان الأمر ، فقدثبت أن اصل كافة النصوص المستحدثة (٤) لنماذج الحكايات الأمريكية ، والجنوب افريقية المعروفة لنا هو أصل أوروبى .

ولعلنا نشك بعد ذلك اعظم الشك فى أن يستطيع الأحباش والهنود الأمريكيون ــ مع استثناء الحضارات الأمريكية الغابرة واستثناء بقاياها ــ ان يبدو هذا الاهتمام المضنى الذى تقتضيه حكاية الجان العادية ، بما فى مغامراتها العديدة من توترات .

ولقد تحملنا نصوص حكايات العالم القديم المجموعة من مناطق الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ، على الظن بأن رواتها يعجزون عن المحافظة على رواية الحكاية الجيدة ، ولا نقول شيئا عن مقدرتهم على ابداع حكاية جديدة مماثلة .

ومعظم النماذج ، لا تمثلها فقط تلك النصوص المستحدثة ، التى تم جمعها فى العصر الحديث .

ولا جدال فى ان الاهتمام العلمى بحكايات الجان ، ظاهرة حديثة فى أساسها ــ تدين بوجودها للحركة الرومانسية كما قلنا من قبل .

بيد انه كان لحكايات الجان ، فيما قبل القرن التاسع عشر ، ذلك الاغراء الجمالى الذى أقدرها على أن تنفذ الى ادب بعض البلاد ، وأن يتم تدوينها بالكتابة منذ قرون ماضية ، وان يحافظ عليها لتصل الينا ، فى الشكل الذى اتخذته ، فى ذلك الزمن .

وتمييزا للنصوص المكتوبة (النصوص الأم) (*) على النصـــوص الشفاهية ، نستطيع أن نسميها بالنصوص التاريخية المستحدثة .

ومن غير ان نناقش هنا ، مسالة « التقييم الدقيق » لهذه النصوص التاريخية ــ وهو موضوع سنوليه اهتماما فيما بعد ــ يجوز لنا ان نقول ان وجود هذه النصوص التاريخية فى ادب من الآداب ، يدل قطعا على أن النموذج الذى تنتمى اليه هــذه النصوص كان ذائعا فى البلد المشار اليه ، أو كان معروفا فيه على الأقل .

ولقد تدل النصوص التاريخية لبعض النماذج ، على انها تبلغ من العمر آلاف السنين .

واغلب هذه النصوص التاريخية نلقاها فى ثنــــايا الكتابات الأدبية القديمة ، وفى الملاحم والأخبار والتقاويم وما اليها .

ولم يفكر مؤلف فى الأزمنة الماضــية فى أن يجمع هــذه النصــوص التاريخية ، وينشرها على أساس انها ادب له قيمة ، فى ذاته .

والحق ان اول كتاب يسوغ لنا أن نعتبره مجموعة من حكايات الجان هو كتاب « الليالى المسلية » Piacevoli Notti للايطالى سترابارولا من كارافاجيو (٥) . ويرجع تاريخه الى منتصف القرن السادس عشر .

غير اننا نجد ان حكايات الجان الخالصة تمثل الجانب الأصغر من هذا الكتاب .

ولقد نظن ان الأسباب التى دعت سترابارولا الى تضمين كتابه هذه الحكايات ــ ان كان حقا هو الذى ضمها اليه ــ انه خشى الا يتوفر له قدر

(*) انظر Version فى فهرس المصطلحات .

كاف من الحكايات الأخرى . او هو اراد الا يقتصر دوره على أن ينقل فقط عن بوكاشيو .

والى القـــرن السابع عشر ، يرجـــع تاريخ (الخمســـون حكاية) Pentamerone (*) للمؤلف النابوليونى : جيا مباتستا بازيلى ــ وهــذا الكتاب اول مجموعة خالصة من حكايات الجان (٦) .

وظهر فى باريس اواخر القرن الثامن عشر الكتاب الشهير « حكايات امى الأوزة » (**) لبيرو . وشهد ذلك القرن ، صدور مجموعات اخرى اقل اهمية . وذلك فى فرنسا وايطاليا (٧) .

أما الدراسة المنهجية ، لهذا الموضـــوع جميعا فقد بدات فى مطلع القرن التاسع عشر .

ولا نزاع فى انه من خصائص الفكر البشرى ، أن يثير العلم الجديد عند ميلاده ، أسئلة حول المصدر الأول الذى نشأت منه حكايات الجان ثم يحاول محاولة جريئة ان يجيب على هذه الأسئلة .

ولما كان فرانز بوب Franz Popp قد فرغ ــ بالكاد ــ من التدليل على قيام الوحدة اللغوية فى المجموعة الآرية فقد كان أمرا طبيعيا أن يعتبر الأخوان جريم ، ان حكايات الجان انتاج آرى كامل ، خاصة وان أغلب النصوص المستحدثة التى اتيحت لهما ، كانت آرية وأن نصوص الحكايات غير الآرية ، لم تكن ماثلة بين أيديهما .

وهناك عنصر ينبغى تقديره ، فى هذا الصدد . ذلك هو محاولة العلماء آنذاك ، أن يستنبطوا ما ظنوه الدين الآرى البدائى ، وكذلك ظنهم ، ان أساطير الاغريق والهند القديمة ، تمثل أدق تمثيل هذا الدين .

وما داموا قد سلموا على هذا النحو بعراقة هذه الأساطير ، فقد كان من اليسير ان يعتقدوا ان حكايات الجان ، عبارة عن أغصان صغيرة ، نبتت من الأساطير الأصلية .

وكان أمرا مقضيا ، أن يسقط هذا الزعم المسبق ، القائل بآرية حكايات الجان ، فى اللحظة التى ظهرت فيها نصوص مستحدثة غير آرية .

(*) انظر بنتاميرون فى الفهرس .

(**) واجع Contes de ma mere L'Oye فى فهرس المصطلحات .

وكان ذلك فى سياق القرن التاسع عشر .

واما الافتراض الثانى وهو ان حكايات الجان تنحدر من الأساطير ، فلا يشوبه الخطأ من ناحية المبدأ ، بشرط أن يكشف « الحفيد » عن وجود قدر كاف من التماثل مع « سلفه » .

فاذا استغنينا عن الاستعارة ، كان علينا أن نبرهن على أن حكاية الجان هذه وبذاتها ، تنحدر من أسطورة محددة وبذاتها .

بيد ان ما يدعم هذا البرهان ، من حكايات الجان ، قليل للغاية ، لسوء الحظ .

ومثل واحد من هذه القلة القليلة من الأمثال التى تصدق عليها النظرية السابقة ، هو قصة « قاتل زوجته » أو « اللحية الزرقاء » (*) التى ذكرها دكتور بول كريتشمر Paul Kretschmer (٨) ونحن لا نستطيع أن نعتبر النص الذى يعرفه القراء الانجليز ، من كتاب تشارلس بيرو Charles Perrault أقدم نص ، أو اشد النصوص بدائية ، بالرغم من خشونة ملامحه .

وفى مجموعة بذاتها ، من نصوص هذه الحكاية وخاصة الموجودة منها فى انجلترا وجنوب شرق اوروبا ـ يطلب « اللحية الزرقاء » من خطيباته أن ينهشن عظام رجل ميت وترفض أختان هذا الطلب ، فيقتلهما على الفور واما الثالثة فتهرب بحيلة .

ويسمى الوحش فى نص اغريقى آخر « سلطان العالم السفلى » ومعنى هذا انه الموت ذاته .

والفكرة التى تشتمل عليها هذه النصوص اشاعتها أسطورة اغتصاب كور Kore ، واطلاق اسم « عرائس الموت » المألوف ، على العذارى اللائى يمتن قبل الزواج .

واما الموت الذى يصور فى العالم القديم كله بصورة ناهش الجثث فيبحث عن رفيق يشاطره طعامه المفزع الرهيب ، وينبغى للفتيات اللاتى يرفضن طلبه أن يدفعن حياتهن ثمنا لهذا الرفض .

ان تشاروس (**) . شيطان الموت الاغريقى ، ما برح تصاحبه

(*) راجع Bluebeard فى فهرس المصطلحات .

(**) انظر Charos فى الفهرس .

كاروندیسا .. ولدينا اغنيـــة شعبية يونانية حديثة ، تحكى كيف ان تشاروس وكاروندیسا ، يأكلان جماجم الأطفال عشاء لهما وكيف انهما يستخدمان أيدى المقتولين من الجنود ، كشيالات « وسكاكين » .

وليس شك فى اننا نعرف حكاية جان تنحدر من بعض الأساطير وتلك هى الحكاية القديمة التى تدور حول الساحرة « كيركه » ذات الشهرة الهومرية (٩) .

وتترامى النصوص المستحدثة من هـذه الحكاية فى منطقة تمتد من ساحل بريتانى الى منغوليا وتتخذ من الشرق الأوسط مركزا لها .

ومن الشرق الأوسط ، انتشرت هذه الحكاية ، فى مختلف الاتجاهات ، وكان ذلك فى مرحلة سابقة على تأليف الأوديسة .

واما تحول الأبطال الى حيوان ، فتفسير معروف تستخدمه حكايات الجان للدلالة على الموت .

وقبل أن تتحول الحكاية الى حكاية جان ، تصرع البطلة عشاقها السابقين حين تملهم ومثل هذا الاتهام يوجهه البطل الى الالهة عشتارت فى ملحمة جلجامش ، التى كانت موجودة فى بلاد ما بين النهرين .

ونحن نعرف الأصل الطقسى لهذه الأسطورة .

ويمدنا نص روسى مستحدث من هذه الحكاية ، بدليل حاسم ، يثبت صحة الاستنتاج الذى ذهبنا اليه من ان حكاية كيركه تنحدر من أسطورة عشتارت .

فى هذا النص الروسى ، تسمى البطلة مارينا ، ويصاحبها الحمام .

وكان اسم مارينا ، الذى يقابل بيلاجيا اللاتينى اسما مقدسا يطلق على « الالهة الأم » السامية التى كانت حامية للبحارة والتى كان الحمام طائرها المقدس .

ثم ظهر لعلماء الفولكلور جميعا ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، انه لم يعد من الممكن أن يعتنقوا النظرية الآرية فى اطارها العام .

ولم يكن سبب ذلك فحسب ، أنهم عرفوا نصوصا كثيرة غير آرية فى أوروبا بل كان سـببه كذلك ، ان جمود القالب الفنى لأكثر حـكايات الجان ، قد اتضح أكثر من ذى قبل .

وفى تلك الفترة ، شرع اهتمام العلماء الأوروبيين بآداب الهند القديمة ، يتحول عن الأغانى الفيدية الى الأدب القصصى فى المرحلة السنسكريتية .

وكان من الآثار الأولى ، لتحول اهتمامهم انهم كشفوا عن عديد من حكايات الجان الأوروبية الشهيرة ، فى مجموعات القصص الهندى .

دعت تلك الحقائق تيودور بنفى أن يعلن فى عـــام ١٨٥٩ ، نظريته المعروفة عن الأصل الهندى لحكايات الجان وعن هجراتها من الهنـــد الى أوروبا (١٠) .

ولم يكن بنفى عالم فولكلور فى المقام الأول .

ولم يفكر البتة فى أن يخضع نصوص حكاياته للتحليل الدقيق . بل لعله ، لم يكن ليجد الوقت اللازم ـ أو يجد الوسائل اللازمة ـ لانجاز هذا العمل ، لو انه فكر فيه .

ولهذا السبب ، ترك نفسه ، تحت رحمة الفكرة العامة عن نماذج الحكايات ، كما تمثلها النصوص المستحدثة التى تضمها مجموعة جريم ، أو بعض تلك النصوص التاريخية التى اشرنا اليها من قبل . وعلى هذا النحو ، اعتمدت دراساته فى ذلك الحين ، على حدسه الذكى ، اكثر من اعتمادها على الأدلة العلمية القاطعة .

وحيثما تدل الدراسات المتاخرة على ضعف الأساس الذى استندت اليه آراء بنفى ، أو حيثما تدل على تعارضها مع الحقيقة ، فان السبب فى هذا التهافت والتعارض يعود الى قلة المواد التى كانت بين يديه .
بل لقد قصر بنفى ـ احيانا ـ عن أن يبلغ المدى الذى كانت تسبغه المواد التى كانت متوفرة لديه .

وكان سبب هذا ، انه لم يكن يريد أن يخضع حكاياته ، للفحص الشامل كما قلنا .

ولعل خير مثال ، على تخبطه ، ما ذكره من أصل هندى . للحكايات الاغريقية الدائرة حول العراف « تيرزياس » (١١) .

انه يقول :

قد نذكر ان تيرزياس أصيب بالعمى ، لأنه رأى الهة وهى عارية ،

على حد ما ذكرته احدى الروايات ثم انه سخط فاصبح امراة ، ثم صار رجلا ، لأنه رأى ثعبانا يلقح حية .

واصدر حكما فض به نزاعا نشب بين زيوس وهيرا حـول مشكلة هامة ، تلك هي : ايهما يجنى لذة اكبر من الاتصال الجنسى بين الزوج والزوجة اهو الرجل أم المراة ؟

راى تيرزياس ان المراة هى التى تستمتع أكثر من الرجل ، وخسرت هيرا رهانها فعاقبته بأن اصابته بالعمى ، لكن زيوس عوضه عن مصابه هذا ، فرفع عنه الحجاب ، وجعله عريفا متنبئا .

لاحظ بنفى ان هناك تشابها ظاهرا بين هذه الحكاية وحكاية اخرى تنتظمها الملحمة الهندية الكبيرة ونعنى بها الهابهاراتا .

فى الحكاية الهندية يتحول ملك الى امراة ، حين يستحم فى نهر ، وتلك حادثة يعتد بها فى القصص الهندى .

ويترك الملك مملكته لأبنائه المائة ، وينسحب الى الغابة حيث يضع ــ وقد صار امراة ــ مائة ولد آخر ، يعود بهم الى مملكته ليشاركوا فى الحكم غير ان اندرا يبذر بذور التفرقة بين فريقى الأبناء ، ليقتل بعضهم بعضـا .

ويتزيا أندرا بزى رجل الدين البرهمى ، ويذهب يسأل الملك : أى فريق من أبنائه يحب أن تعاد له الحياة ؟ ويختار الملك ، فى غير تردد ، هذا الفريق الذى انجبه وهو امرأة « لأن المراة تحب أكثر من الرجل » وعندما يسأل هل يتمنى أن يستعيد رجولته ، يؤثر أن يظل امراة « لأن المراة أكثر استمتاعا بالحب من الرجل » .

* * *

والالهة تتحدث الى البطل ــ فى هذه الحكاية ــ بعد تغيير طبيعته ــ وتلك ناحية يتركها النص الاغريقى رهن الغموض .

بيد ان تغير طبيعة البطل تجعله قادرا لا نزاع على ان يرد على أمثال تلك الأسئلة الدقيقة .

واذا ذهبنا الى القول بأن الأسطورة الاغريقية تعتمد على ضريبتها الهندية ، لجاز لنا ان نعتبر أن تحول تريزياس الى رجل ، كان هو العقوبة الأصلية التى فرضتها هيرا ، حتى تقلل من حظه من المتعة ، طبقا لراى تيرزيارس نفسه .

وعلى هذا الأساس ، يصبح الشقاق الذى حدث بين الالهين ، والانتقام الشرير الذى أنزلته الالهة الغضبى ، اضافة مستحدثة ، أضيفت الى الحكاية الشرقية ، فى المرحلة التالية للعصر الاغريقى الهومرى .

بيد ان هذا الافتراض ، لا يفسر كيف تحول ترزياس — اول مرة — الى امراة .

وأما التفسير ، فتزودنا به فقرة موضوعة لتشرح أسباب فقده البصر ، ذلك انه راى الهة وهى عارية — وتلك حقيقة لا تحتاج الى تعليل فأغلب العريفين من العميان .

ولدينا حكاية هندية مماثلة اخرى ، لم تطرأ على ذهن بنفى وهو يفكر فى هذا الموضوع .

لقد فاجأ الملك الا (ILA) الاله شيفا (Siva) (*) مع ابنه عملاق الجبل ، فى خاوة يعترض عليها المتمسكون بالأخلاق .

وعقابا له على طيشه وفضوله دعت عليه الالهه الغضبى ، أن يكون امراة ، منذ ذلك الحين والى الأبد .

واخيرا فينبغى لنا ان نسال : اين ترد حكاية الثعابين التى تتناسل ، من النص الأصلى لأسطورة ترزياس ؟

تعطينا الرد ، حكاية هنـــدية ثالثة ، موجودة فى (مونباتيكاريترام Munipaticaritram) وهى مؤلف هنـــدى ، عـرفه بنفى ولم ير انه يستطيع ان يمدنا بأهم ايضاح للأسطورة الاغريقية — وفى هذه الحكاية ، يفاجىء الملك « براهمادانا » حيـة وهى تزنى فيضربها بالسوط وتتهمه الحية اتهاما كاذبا عند زوجها الذى يسعى — على الفور — الى الفتك به .

غير ان الثعبان ، يسمع — لحسن الحظ — الملك يقص القصة على مسامع الملكة . وبدلا من قتله يكافئه الثعبان ، المعترف بالفضل ، بأن يمنحه

(*) انظر Siva فى فهرس المصطلحات والاعلام .

القدرة على أن يفهم لغة الحيوان والأصوات الصادرة عن الطبيعة أى انه يكشف عنه الحجاب ويجعله عريفا متنبئا .

لا شك اذن فى ان الحكاية الهللينية حكاية هندية ، أسيئت صياغتها وكانت تقول فى الأصل ان ترزياس راى حية تزنى ، فأصابها بجراح عقابا لها ، وكافأه الزوج الشكور بأن أعطاه القدرة على ان يفهم لغة الحيـــوان واصوات الطبيعة ، ثم راى الهة وهى تستحم ، فتحول الى امراة . ودعى بعد ذلك ليفض نزاعا بين هيرا (*) وزيوس ، وادلى برايه المعروف ، فحولته الالهة الغاضبة الحاقدة الى رجل مرة ثانية .

* * *

اجمع خلفاء بنفى على أن يأخذوا بنظريته القائلة بأن حكايات الجان والحكايات المرحة الأوروبية ، ذات أصل هندى ، وطبقوها على حكايات أخرى لم يتسن لبنفى أن يدرسها ، ولم ينهج خلفاؤه ، على منهاجه باستمرار .

وبسبب ضعف المنهاج العلمى ، تعرضت هـــذه النظرية جميعا ، للهجوم الذى شنه عليها جوزيف بديه (١٢) ، عام ١٨٩٣ حين اصـــدر كتابه المعروف « النوادر الماجنة الشعرية » (**) .

اثبت بديه ان منهج بنفى واتباعه القائم على الحدس يقصر كثيرا ، عن المستوى الذى تفرضه الدقة العلمية .

وأثبت ثانيـــا ان الحكايات المرحة بخاصة ، تشتمل فى العـــادة على موضوعات غاية فى البساطة ، حتى ليتعذر على التحليل العلمى ، والموازنات الدقيقة ، أن تنتهى فيها الى نتائج مرضية بشأنها .

بل ذهب بديه الى القول بأنه يحتمل أن يكون لبعض النماذج خاصية « تعدد الأصول » أى أن ينشأ أنموذج واحد ، فى أماكن متباعدة من العـــالم .

ولا ترتفق نشأته ، فى هذه الأماكن ، بعضها على بعض .

(*) انظر Fera فى فهرس المصطلحات والأعلام ـ المترجم .

(**) انظر Fabliau فى فهرس المصطلحات والأعلام ـ المترجم .

وسوف نعالج فى فصل قادم مدى انطباق آراء جوزيف بديه على الحكايات المرحة .

واما اغلب نماذج حكايات الجان فيرتاب فى أصلها ، اشد الارتياب .

وفى تلك الأثناء ، نشأت فى بريطانيا العظمى مدرسة جديدة يقودها اندرولانج (١٣) وسيرلورانس جوم Sir Lawrence Gomme (١٤) ودكتور . ج . أ . ماكلوتش MacCulloch (١٥) .

اشار هؤلاء العلماء الى أن العديد من الجزئيات ذات الصبغة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى نلقاها فى حكايات الجان ، وضعت فى ظل مجتمع لا يختلف فقط عن مجتمعنا ، بل يختلف كذلك عن مجتمع العصور الوسطى ، ومجتمعات العصور القديمة ، كما تصورها كتابات اصحاب التقاويم التاريخية أو قل ان حكايات الجان تتسم بطابع معين من البدائية والتوحش ، يجعل تاريخها ممعنا فى القدم .

واما مشكلة هجرة الحكايات ، فقد اغفلتها هذه المدرسة ، بل لقد ذهب اندرولانج ، بخاصة ، الى الزعم بأن بعض حكايات الجان ، ان لم تكن كلها ، ذات أصول متعددة .

وتثير هذه النظرية ، اعتراضات جسيمة ما فى ذلك شك ، وقد يحق لى ان اتناولها بشىء من التفصيل ، نظرا لانتشارها بين جمهرة البريطانيين .

واما نظرية « تعدد الأصول » بالنسبة لحكايات الجان ، فأحق النظريات بالرفض ، ذلك انه يتعذر على العقل أن يتصور ، نشوء حكاية بالغة التعقيد فى موضوعهامثل حكاية Nicht Nocht Naëthing ـ التى لخصناها فيما سبق ـ فى أماكن متباعدة ، لا يتأثر احدها بالآخر .

ثم اذا سلمنا جدلا بأن بعض العناصر المعينة ، نشأت فى مرحلة التوحش ، لما دل ذلك على شىء بالنسبة للحكاية التى قد تشتمل على هذه العناصر وهى فى شكل بقايا متخلفة من الماضى .

ثم اذا نحن سلمنا بأن الحكاية نشأت فى مرحلة التوحش ، لكان معنى هذا انها نشأت فحسب فى مرحلة التوحش الخاصة بذلك البلد الذى التحمت فيه أجزاء الحكاية ، وتمت صياغتها لأول مرة ، ويحتمل ان تكون تلك الحكاية قد هاجرت ـ نظريا على الأقل ـ من ذلك البلد الى بلاد اخرى بعيدة كل البعد عن التوحش ، وهكذا ، يعجز هذا الافتراض ، ان يدلنا على شىء بالنسبة لماضى الشعب الذى تجرى فيه هذه الحكاية الآن .

واخيرا ، فما يسمونه « بدائية بعض الظروف » المستفادة من حكايات الجان ، قد بولغ فيها اشد المبالغة .

وقد ينبغى أن نضرب بعض الأمثال فى هذا الصدد .

تنسب حكايات كثيرة من حكايات الجان الى الملوك والأميرات انهم يفتحون الأبواب بأنفسهم كما لو كانوا قواسين وبوابين ، وهذا بالرغم من فخامة الحياة فى بلاطهم وقصورهم . ومن هذا الوصف ، قيل ان البلاط الأصلى فى حكاية الجان ، يندرج تحت الأنواع البدائية ، وان مظاهر البهرجة ان هى الا تحويرات وتعديلات مستحدثة .

ولعلنا نفند هـــذا الراى حين نذكر انه قد ينسب الى « نيرون » و « كلوديوس » فى حياة القياصرة لسوتيونيوس وفى حوليات « تاسيت » ، أنهما قاما بأعمال لم تخطر لهما على بال .

ويصدق هذا الأمر كذلك ، على الرواية التاريخية التى وضعها كاتب بولندى وتصدى فيها لهذه المرحلة التاريخية نفسها . فهل يجوز لنا ان نستنتج من هذا ، ان حياة البلاط فى عهد الأسرة الأولى التى حكمت روما ، كانت حياة بدائية ؟

واضح أن سوتيونيوس وتاسيت ، رددا الشائعات الموضوعة التى كانت رائجة فى حوانيت الحلاقين وان كتاب الوقائع التاريخية ، حاكوا سوتيونيوس وتاسيت .

ولما كان من الصعب على العامة أن يعرفوا خصائص الحياة الرافهة التى يعيشها الملوك ، فانهم تخيلوا حياة القصر ، كما لو كانت على غرار الحياة اليومية الجارية .

ثم ان أنصار المدرسة الأنثروبولوجية يستنتجون من زواج البطل فى بعض حكايات الجان من اميرة ووراثته العرش عن حميه عندما يموت — انه فى وقت انشاء تلك الحكايات كانت وراثة العرش تنتقل من الاب الى البنت أو البنات ولم تكن تنتقل الى الابن الأكبر للملك .

ونحن نقرأ فى الروايات الأمريكية العادية ، ان بطلا ينتمى الى عائلة متواضعة الأصل ، أثبت جدارته ودل على انه انموذج حى للكمال ، فتزوج من ابنة صاحب الملايين فى النهاية .

ويجوز لنا أن نفترض ان هذا البطل ورث ملايين حميه عندما مات .

لكن هل يجوز لنا كذلك ان نستنتج ان اصحاب الملايين الأمريكيين ، درجوا على ان يورثوا الاناث ويحرموا الذكور من ابنائهم من الميراث ؟

وثمة استنتاجات اخرى تستند الى ضيق رقعة ممالك الجان ، الأمر الذى يسمح للبطل ان يقطع المسافة الى الحدود ، فى وقت قصير وبغير ان يستخدم القطار .

ولسنا فى حاجة الى ان نعود الى زمن هبقراط ، بحثا عن الظروف المذكورة فقد يكفى أن نذكر على سبيل المثال ان جيته كان وزيرا فى اقليم أصغر من مملكة الجان هذه .

ويستدل اتباع المدرسة الأنثروبولوجية على وجود نظام « الزواج من خارج العائلة » بأن من يخطب الأميرة فى حكايات الجان ، يكون غريبا فى العادة .

وتلك حال ، نراها فى العائلات الملكية فى اوروبا ان لم اكن مخطئا .

ويربط انصار هذه المدرسة بين نماذج « عرائس الجان » والنظـــام الطوطمى ، غير ان الملمح المشترك الوحيد بين هذه الحكايات ، هو وجود حيوان فيها ، فاذا صح استنتاجهم ، كان فى وسعنا ان نربط بين خرافات لافونتين والنظم الطوطمية .

وخلاصة القول اننا كلما اختبرنا النظرية الأنثروبولوجية ، كلما بدت متهافتة .

وغاية ما نستطيع ان نقول ــ بغير خطأ ــ هو ان عددا محصورا من الجزئيات تتداوله الجماعات البشرية التى تعيش فى مرحلة التوحش .

ولا تنتظم هذه العناصر كلها فى حكاياتهم الشعبية ، أضف الى هذا ، ان لديهم عناصر اخرى قد تمثل وجهة نظر لا نلقاها عـــادة فى النظم الاجتماعية والقوانين المتحضرة .

ومثال هذا ، طرائق العقاب المتوحشة التى اندثرت من أوروبا على الأقل منذ الثورة الفرنسية ومنذ الاصلاحات التى دشنتها كتابات جيريمى بنتـــام .

وتفترض حكايات الجان فى غالبها ، وجود حضارة راقية شيئا ، ووجود تنظيم اجتماعى ، قد يوصف بأى وصف الا البدائية .

ويفند مزاعم المدرسة الأنثروبولوجية ان حكايات الجان ، قليلة جدا ، عند زنوج وسط أفريقيا ، وعند اهالى استراليا الأصليين .

واما كتاب بديبه الذى تطبعه النظرة السلبية بطابعها . فلم يخرج كثيرا على نطاق نظرية بنفى الهندية لكنه أثار فى اتباع بنفى رغبة قلبية جياشة نحو البحث والاستقصاء ، وحملهم على ان يدافعوا عن قضيتهم دفاعا اكثر صحة .

وكان من الأمور الطبيعية ، ان يبدأ تطبيق هذه النظرية الدقيقة فى فرنسا ، على يد انصار بنفى الفرنسيين المعروفين ، من امثال جاستون بارى (١٦) وايمانويل كوسكان (١٧) .

كان بنفى يرى فى هجرة الحكايات الشعبية من الشرق الى الغرب ، ظاهرة خالصة من ظواهر العصور الوسطى ، وكان ينسب الى المسلمين والمغول ، القيام بدور نقل هذه الحكايات .

وفى عام ١٩١٢ ، اثبت كوسكان ان بنفى اسرف فى تقدير الدور الذى نهض به المسلمون والمغول (١٨) لكن شواهد متزايدة ، ما تزال تترى فى ايامنا لتثبت ان هجرة الحكايات لا تخص مرحلة العصور الوسطى ولا تقف عند مرحلة تاريخية بذاتها ، بل لقد حدثت فى الماضى وهى تحدث فى كل زمان (١٩) .

وبينما كانت المناقشات تجرى بين مختلف المدارس فى غرب أوروبا ووسطها كانت طريقة جديدة فى البحث ، تظهر فى ثنايا دراسة « الكاليفالا » التى قام بها يوليوس كرون وتابعها ابنه دكتور كارل كرون ثم دكتور آنتى آرنى .

والمدرسة الجغرافية التاريخية (*) ـ كما يسمونها (٢٠) ـ تعنى أول ما تعنى ، عقد مقارنات بالغة الدقة بين كل ما يوجد من النصوص الشفاهية التى تتعلق بأنموذج معين ، مع النظر الواجب الى توزيعها الجغرافى المبنى على تحليل النصوص المستحدثة تحليلا تفصيليا دقيقا .

ويؤدى هذا المنهج الى اعادة تكوين النمط اى القالب الذى اشتقت منه النصوص المستحدثة بصورتها النهائية .

(*) انظر المدرسة الفنلندية أو التاريخية الجغرافية فى فهرس المصطلحات والأعلام ـ المترجم .

ثم يقارن هذا النمط الى النصوص التاريخية ومن خـــلال فحص الشواهد والأدلة فحصا دقيقا ، ننتهى الى تكوين « النمط الأصـــلى » او « النمط الأساسى » والى معرفة موطنه الأصلى بالتقريب ، وتحديد تاريخ نشأته .

ولدينا الآن اكثر من اثنتى عشرة دراسة ، تتناول كل منها أنموذجا محددا ، واسفرت غالبية هذه الدراسات عن نتائج مقبولة ، ومع ان واضعى هذه الدراسات لم يكونوا متحيزين لنظرية بنفى ، الا انهم أكدوا صحة نظريته الحدسية ، تأكيدا بارزا .

ويتركز اهم اعتراض اثير حتى الآن على المنهج الفنلندى ، فى صميم عملية « تقييم » النصوص التاريخية (٢١) .

ولنا ان نلخص موقف العلماء الفنلنديين على النحو التالى .

لا يدين النص التاريخى بوجوده لرغبة الكاتب فى أن ينشر على الناس ، حكاية شفاهية جارية بين العامة ،وان يتحرى الأمانة فى نقلها .

بل على نقيض هذا ، نستطيع أن نتبين ان الكاتب تحـدوه رغبة ، أو تدفعه بعض ، الدوافع ، التى قد نحمدها من زاوية الأخلاق او من الزاوية الجمالية ، لكنها تخرج تماما ، على أغراض علم الفولكلور .

وعلى ذلك ، فلا مفر من ان تحدث تعديلات وتحريفات فى هــــذه النصوص التاريخية ، الأمر الذى يزيد من قيمة اعادة تكوين « النمط » الأصلى .

واما الذين يعارضون هذه النظرية فيقولون انه ينبغى ان نطمئن الى النصوص التاريخية اكثر مما نطمئن الى « النمط » الذى يتالف من نصوص مستحدثة .

ويتعذر علينا ان نقطع بصفة عامة ، او ان نقطع من ناحية المبدا ، اى النظريتين هى الأصح خاصة وان عنصر الارتفاق فى النصوص التاريخية أبعد ما يكون عن الاستقرار والثبات .

ومعنى هذا ، ان التقييم الحق لكل نص تاريخى ، سيختلف من حالة الى حالة ، ولن تستطيع ان تضع قاعدة ثابتة لها .

ولم تحاول نظرية بنفى الهندية ، ولم يحاول انصارها المعاصرون ،

ان يشرحوا مسالة أصل حكايات الجان . ذلك أن عملهم ينتهى عند اعادة انشاء النمط الأساسى والكشف عن موطنه وتاريخ نشأته .

واتفق لأدلبرت كون Adelbert Kuhn و ف . ك . شفارتز F.L. Schwartz أن قادا انصار النظرية الآرية فى المانيا وأن قادهم ماكس موللر Max Müller فى انجلترا لكن هؤلاء جميعا قادوا أنصار النظرية الآرية الى لا شيء ثم جاءت النظريات الأسطورية القمرية والنجمية فى أعقابهم ، فجردت النظرية الآرية جميعا من قيمتها ، ان كانت لها قيمة .

وعلى ضوء هذه الظروف ، يجوز لنا ، بالتأكيد أن نعتنق الرأى المعقول القائل بأن حكاية الجان ليست الا نوعا مميزا من القصص الشعبى ، غايته الامتاع والمؤانسة .

ذلك على الأقل ، هو مجالها فى وقتنا الراهن ، وكذلك كان شأنها اثناء التاريخ الانسانى ، اى أثناء الستة الآلاف سنة الأخيرة أو نحوها .

اما اذا افترضنا ان الراى الصائب هو نقيض هذه الفكرة ، وان حكايات الجان كانت تبتغى فى الأصل تحقيق غاية سامية ، فينبغى ان يتولى التدليل على صحة هذا الافتراض ، أولئك الذين يفترضونه .

* * *

لقد بينا فيما سبق بطلان المزاعم التى زعمتها المدرسة الأنثروبولوجية.
غير انه ينبغى أن نصرح بأن بعض الجزئيات التى دخلت فى تكوين الحكايات ، كانت بقايا متخلفة من مرحلة ثقافية ماضية ، او لعلها كانت ذائعة ـ لفترة غير قليلة ـ فيما مضى من زمن .

* * *

ولدينا عنصر بذاته ، نلقاه فى الكثرة الكثيرة من حكايات الجان ، وهو جدير بأن نوليه شيئا من تفكيرنا خاصة من حيث ، اتصاله بالقوانين التى تحكم التطورات النفسية .

واشير بالطبع الى عنصر الخوارق . ولا نزاع فى اننا نستطيع أن نفسر العديد من الجزئيات التى تنطوى تحت هذه التسمية ، على الأساس الذى امدتنا به المدرسة الأنثروبولوجية .

ومثال هذا ، اذا حدث فى احدى الحكايات ، ان افترق اخوان بعد

أن غرسا ، شجرتين وكانتا تذبلان اذا أصيب الأخوان بسوء ـ فان هذه الاشارة القصصية ، تدين بوجودها ، للاعتقاد الذائع فى « شـــجرة الحياة » (٢٢) .

وهذا الاعتقاد ، يندر بين الجماعات المتوحشة ، ويقتضى وجوده ان يسبقه قدر من التطور الثقافى .

ونحن نلقى هذا الاعتقاد فى الهند كثيرا .

غير أن هنـــاك اشارات قصصية اخرى عن خوارق الطبيعة ، لا تتيح لنا مثل هذا التفسير اليسير نسبيا .

ومثال هذا ، حكاية الانسان الذى يؤخذ الى أرض الجن حيث يقوم بسلسلة من المغامرات ـ وانا أستخدم النص الايرلندى (٢٣) ـ ثم يعاد هذا الانسان ، آخـر الأمر ، الى المكان الذى بدأ منه رحلته العجيبة ليجد ان دقائق معدودات هى التى مضت منذ أن غادر هذا المكان .

ولا تستطيع نظرية من نظريات رواسب الماضى ، أو من نظريات عودتها الى الحياة ، أن تفسر لنا هذه الاشارة القصصية ، ونعنى بها الاشارة الى التلاشى المعجز ، لكل احساس بالزمان .

ولقد قيل ان تعاطى بعض المخدرات ، والحشيش الهندى بخاصة ، يثير احلاما او اوهاما (٢٤) ، لها هذه الخاصية ، غير انه ينبغى لنا ، أن نناقش ـ فى اقتضاب ـ تلك الاشارة القصصية المضادة ، والتى ترد فى كثير من الحكايات ، وهدفنا من هذا ، أن نتبين مدى الخطر ، فى أن ناخذ بالتعميم فى مثل هذه الأمور .

قد يؤخذ البطل الى مملكة الجان ، ويظن انه يقضى هناك وقتا قصيرا لاغير . ثم يصاب بحنين مفاجىء الى بيته ، ويبدى للجان رغبته فى ان يعود الى البيت لـكنه يصـــاب بالذهول حين يقال له ان قرونا عديدة مضت (٢٥) على غيابه .

ومن العبث ، أن نعزو هذا التصور للأحلام ، فما من حلم ، يؤدى اليه . ولا يجوز لنا أن نرى هذه الاشارة القصصية قد جاءت تقليدا للاشارة الأولى ، او نسجت على منوالها ، ذلك ان الاختلاف بين النوعين يصل الى مدى بعيد .

واقرب الاحتمالات ، فى ظننا ان نقول ان هذه الحكايات تجسيد للتجربة الانسانية المألوفة والقائمة على الاحساس بان ايام السعادة الســـماوية المقدرة لنا ، ستمضى بأسرع مما نشعر ونظن .

ولدينا حكاية شرقية اخرى ، تمد جذورها فى تجربة الاحلام ، ما فى ذلك شك .

هذه هى حكاية الليلة الثالثة فى « ألف ليلة » (٢٦) فالبطل ، يحمله طائر الى أرض السعادة ويفتح البطل بابا محرما ، فيحمله الطائر عائدا به ، ويزيد الأمور سوءا ، بأن يفقد البطل احدى عينيه .

واذا استثنينا من هذه الحكاية تلك المحسنات التى استحدثها اديب بلا شك ، فانها تمثل ، بأسلوبها الواقعى ، هذا الاحساس بالضيق النفسى الذى يساورنا ، حين نصحو من النوم ، ومن الأحلام ، فنجد أنفسنا وقد عدنا ثانية ، الى الحياة ، الرتيبة المملة التى نعيشها كل يوم .

ولدينا جزئية ذائعة معروفة ، يرجعها العالم الالمانى ل . لستنر L. Laistner (٢٧) الى تجربة الأحلام ، وتلك هى فقرة السؤال الذى يفصل بين الحياة والموت والذى عرفناه فى أسطورة أوديب (*) ، والذى ما برح معروفا ايضا فى انحاء اوروبا .

واما الحلم الذى نشير اليه ، فهو نوع من « الكابوس » ، المألوف لنا ، ولعله كان أشد ذيوعا فى الماضى ، حين لم تكن عادات تهوية البيوت وحجرات النوم ، قد عرفت بعد .

ونسمع فى حكاية ايسلندية ، عن عروس حديثة العهد بالزواج ، يقال لها فى الحلم ، انه ينبغى لها أن ترد على ثلاثة أسئلة يوجهها زوجها ، والا قتلها هذا الزوج .

ولدينا كذلك مجموعة من حكايات القدرية تشاء الأقدار لبطلها أن يحتمل العذاب ثلاث ليال سويا ، أو تشاء له أن يحمل البطلة على كاهله ، ويصعد بها الجبل ، ثم يعجز عن اتمام العمل المنوط به .

وهذان النوعان من الحكايات ، يفصحان افصاحا ، عن تجربة « الكابوس » الذاتية البحتة .

وعلى ضوء نظريات الأحلام ــ بذلت جهود ، بغير مبرر فيما اظن ، لتفسير صفة الكسل الواضحة التى يتصف بها ابطال حكايات الجان (٢٨) .

(*) انظر OEdipus فى فهرس المصطلحات والاعلام

وينبغى أن نقول ان صفة الكسل هذه ، واضحة للعيان ، ذلك أن أضخم الأعمال يتحقق فى كثير من الحكايات ، بمساعدة حليف ذى قوة خارقة للعادة ، وأما البطل ، فيكسب صداقة هذا الحليف ، أول ما يكسب .

ونستطيع ان نشرح هذا الكسل المفترض ، على نحو أيسر ، اذا اخذنا بالاتجاه العام فى القصص الشعبى ، فتغاضينا عن التفاصيل ، وسايرنا هذا القصص الشعبى فى تمجيده للبطل ، وتمكينه من تخطى العقبات ، على طريقة « تعال انظر ! وخذ ما تريد » أى بغير أن يتحمل العناء أو يبذل الجهد الطائل .

وجدير بنا ، الا نسقط من حسابنا ، عنصرا آخر ، ذلك هو العنصر التعليمى الأخلاقى ، ففى اواسط القرن الماضى ، وحين كانت فكرة « الفن من أجل الفن » تسيطر على الأذهان ، كان من المألوف انكار الغاية التعليمية الأخلاقية لحكايات الجان .

واذا كان هذا العنصر قد اتضح فى قصص شعبى مثل « حكايات أمى الأوزة » بحيث كان من المتعذر انكاره ، فقد كانت النقائص تترى وتتساقط على راس بيرو العجوز السىء الحظ .

ولا شك ، فى ان انكار العنصر التعليمى ، فكرة متهافتة لا تستند الى أساس ، ذلك ان الحكايات الشعبية المأخوذة من حياة الجماعات البدائية ذاتها تفصح عن وجود هذا العنصر التعليمى الناضج .

غير انه من البلاهة كذلك أن نزعم ان كافة حكايات الجان انبعثت من أصل أخلاقى ، أو انها تبتغى تحقيق غاية أخلاقية . لكنا نقول ، ان الجانب الأوفى من هذا الحكايات ، يدين بعناصره أو بنائه الفنى ، للغايات الأخلاقية التعليمية .

ومثال هذا العنصر ، فقرة « الباب المحرم » و « الدرج المحرم » اللذان لا يجوز فتحهما ، والقارىء يعرف هذه الفقرة من قصص « اللحية الزرقاء » و « كيوبيد وبسايكه » .

ونحن لا نستطيع ان نتجنب الاستنتاج القائل بأن هذه الجزئية ، ظلت طوال قرون متوالية ، تؤكد القول بأن التطلع الذهنى ، قد يكون فضولا فى بعض الأحيان .

ويلفتنا كذلك ، اشتمال بعض الحكايات على « الثنائية » فقد نسمع

فى بعضها ، عن اختين ، أولاهما طيبة القلب مجبولة على الخير ، والاحسان ، دءوبة فى العمل ، وأما الثانية ، فتتصف بنقائص هذه الصفات الطيبة .

وقد نسمع عن اخوين لكل منهما من الأخلاق وطرائق السلوك والذوق ما يناقض أخلاق ومزاج الأخ الآخر .

ويصعب علينا ــ اذن ــ أن نتجنب الاحساس بأن هذه الثنائية والتقابل المقصود ، انما أريد به ان يكون وسيلة للتعليم والوعظ كما هى الحال فى الديانات الفارسية القديمة .

بقى أن نناقش نظريتين تحاولان أن تفسرا أصل حكايات الجان .

وهاتان همــا نظرية ب . ســانتيفز P. Saintyves التى تسمى ب « النظرية الطقسية » ثم خرافات مذهب فينا النفسى التحليلى (٢٩) .

لقد صادف النجاح الجزئى محاولات العالم الفرنسى سانتيفز أن يستنتج « حكايات » بعينها من الطقوس القديمة ومن احتفالات الجماعات البدائية ومواكبها فبعض الفقرات مثلا فى حكاية سندريلا ، تشبه فقرات أخرى فى حكاية درومنا Dromena التى نسمع عنها ، عند الحديث عن احتفالات ساكاكا البابلية .

غير ان النظرية الطقسية لا تستطيع ان تطمح الى تفسير أصل الغالب الأعم من الحكايات المعروفة فضلا عن سائرها .

واما طريقة التحليل النفسية فى الشرح والتناول ، فقد تستحق مناقشة أشد اختصارا . ذلك ان المقولة التى تطرحها تلك المدرسة ، وهى ان هناك عقدا نفسية مختلفة ، تنشط فى سن الطفولة ، كما يزعم انصار هــــذه المدرسة ــ هذه المقولة لم تثبت صحتها بعد ، ومن ثم فلا نستطيع ان نأخذ بالنتائج المبنية عليها هذا اذا خلا منطق النفسيين من الخطأ ــ وقد يكون هذا المنطق أى شىء الا ان يكون خاليا من الخطأ (٣٠) .

واذن ، ففى وسعنا أن نقول ــ وحتى تظهر ادلة اخرى تثبت عكس ما نقول ــ ان حكاية الجان نوع من القصص الشعبى البدائى الأول ، وانها تستمد مادتها ، شأنها فى ذلك شأن القصص الحديث ، من مصادر متباينة ، وان هذه المواد تتخذ شكل الجزئيات المتكررة (الموتيفات) .

وبعض هذه الجزئيات ، يتصف بقدر كاف من الواقعية ، على حين

يكون بعضها الآخر عبارة عن بقايا متخلفة من الماضى ، تمثل أشـــكال المعتقدات الأولى ، التى نشأت قبل تكوين الحكاية بفترة طويلة .

ولقد يكون بعض هذه الجزئيات تكملة واستطرادا من أوهام الأحلام .

* * *

ويجوز لنا بعد ذلك ان نبحث كم مضى من الزمن على ذيوع حكايات الجان الحديثة فى أوروبا ، ذلك اذا سلمنا أصلا بصواب الفكرة القائلة بأن هجرة هذه الحكايات كانت صوب الغرب .

ويتضح لنا على الفور ، ان كل حكاية من هذه الحكايات ، تحتاج الى أن نفرد لها دراسة خاصة ، وأن نرد عليها ردا خاصا . غير اننا نستطيع ان نقول ــ بعامة ــ أن أقدم الحكايات التاريخية الأوروبية ، جـدير بأن يمدنا باجابة شافية . ذلك ان أكثر الحكايات التاريخية ذيوعا ، تعود بنا الى العصور الوسطى ، على حين ينحدر بعض هذه الحكايات ، من العصور القديمة فى بلاد البحر الأبيض المتوسط (٢١) .

ولعل ايراد بعض الأمثلة يوضح هذا .

ان حكاية الصبى الذى كان يفهم لغات الحيوان ، والذى انتخب « بابا » ــ هى حكاية من العصر الوسيط ، تعود الى القرن الثالث عشر . وتتصل ــ فى نشوئها ــ بسيرة البابا الالزاسى ليون الرابع عشر (١٠٦٩ ــ ١٠٥٤) الذى عمد بعد موته (٢٢) .

واما أنموذج حكايات « عذراء البجع » ــ اى حكايات الزوجة الجنية التى تهجر زوجها اذا ما انتهكت المحرمات ــ فقد ثبت انها ذات أصل هندى .

ولم يظهر هذا النوع من الحكايات فى أوروبا الغربية ، فيما قبل القرن التاسع الميلادى ، ذلك ان اقدم نصوصها التاريخية المستحدثة ، عبارة عن اغنية « أدية » من أسكنديناوة .

وتدين حكاية الكلب جلرت (Gelert) بوجـــودها فى بلاد ويلز الى التصنيف الفرنسى لمجمـــوعة الحكايات الشرقية : ونعنى به « كتاب سندباد » الذى لم يصل الى أوروبا الغربية ، فى فترة سابقة بكثيرة ، على منتصف القرن الثانى عشر (٢٣) .

واقدم النصوص التاريخية المستحدثة لحكاية الكهانة ، هو النادرة الواردة فى التوراة عن يوسف واخوته ، والتى تعود ـ لا ريب ـ الى الالف الثانية قبل ميلاد المسيح . بل ان هذه القصة ذاتها لا تعدو ان تكون صياغة ادبية ، لحكاية اخرى اقدم منها . وفيها يأمر الأب ـ وقد اغضبته رؤية رآها عن ابنه ـ بقتل هذا الابن ، لكن خادما وفيا ، يخدعه ويعصى امره (٢٤) .

وحكاية اياسون وميديا ، ما هى الا نص أدبى ، يعتبر اقدم نماذج القصص الموسومة باسم « أسفار الأميرة ذات الشعر الذهبى » .

وتعتبر نادرة « بولفيموس Polyphemus » فى الأوديسة ، اقدم نص تاريخى مستحدث ، لحكاية ذائعة واذا استخلصنا هيكلها الأساسى ، من الروايات الشفاهية المختلفة ، راينا فيها تفاصيل لا نلقاها عند هومر ، وان كانت هذه التفاصيل ، موجودة ـ دون ريب ـ فى النص الأصلى المفقود (٢٥) .

وينطبق هذا التفسير كذلك ، على حكاية كيركه Kirke .

واما اسطورة برزيوس Perseus ، فتؤلف اقدم نص تاريخى من حكاية التوامين .

وهكذا ، نرى اننا لا نبالغ ، حين نقول ان حكايات الجان نوع من القصص الشعبى ، أقدم تاريخا من الملاحم .

ولكن ما هى السمات العامة لهذا النوع من القصص ؟ ما هى الخصائص التى ينبغى ان ننسبها الى حكايات الجان كافة ، والتى تميزها على غيرها من انواع القصص الشعبى ؟

أولى هـــذه السمات ، ان حكايات الجان ، فى جوهـــرها ، حكايات ميلودرامية ، من حيث الانفعال العاطفى ومن حيث الطابع الذى يطبعها .

والسمة الثانية ان ابطالها « نمطيون » ، وان عددهم قليل ، فهم البطل أو البطلة ، والمنقذ الكريم أو المنقذون الكرماء ، والشخصية الشريرة . غير ان العادة جرت بأن تدور حكاية الجان حول بطل واحد لاغير ويندر الخروج على هذه القاعدة .

ومن الاستثناءات ، حكاية التوامين التى أشرنا اليها فيما قبل ، وحكاية الأخوة الأربعة الأذكياء المهرة .

واذا ظهر فى حكاية الجان أبطال متعددون انعدمت الفوارق بينهم ولهذا يقال عن الأخوين فى حكاية التوأمين ، بانهما يتشابهان من ناحية الخلقة تشابها يجعل من العسير التمييز بينهما .

وفى المثل الآخر الذى ذكرناه ، يتشابه الأبطال الأربعة ، الا فى شىء واحد هو ان كلا منهم يملك صفة معجزة لا يتصف بها الآخرون .

والبطل الأمثل فى حكايات الجان ، بطل ميلودرامى ، يتحلى بما شئت من الفضائل ، ولا يعلق به اى ضعف أو نقص .

وفى معظم حكايات الجان لا نتبين أدنى تطور فى شخصيات ابطالها . ذلك ان البطل ، يكون منذ بدء القصة متفوقا بذكائه أو نقاء نفسه ، ويظل كذلك الى نهايتها .

على ان هناك بعض الاستثناءات التى ترجع ــ لا مراء ــ الى النزعات الوعظية الأخـــلاقية التى سبق لنا ان ناقشناها . ففى حكاية « الطائر الذهبى » يخالف البطل نصائح منقذه مرتين ، فيقع فى المتاعب جزاء وفاقا . ولا يستطيع أن يبلغ غايته ويصلح من اخطائه ، الا فى المحاولة الأخيرة .

وخذ مثلا النادرة الأساسية فى قصة « كيوبيد وبسايكة » (*) القديمة ، ترى أن البطلة انتهكت المحرمات مرتين ، وفتحت صندوقا محظورا ، ثم استطاعت آخر الأمر ، ان تنتصر على فضولها القاتل .

وبالرغم من بساطة فن الذين وضعوا حكايات الجان ، فقد كانوا على بينة ، من اهمية عقد المقارنات التى تبرز امتياز البطل ، أو تظهر جمـــال البطلة ، ففى كثير من هـــذه الحكايات يكون للبطل ، اخوان احمقان ، أو يكون للبطلة اخت حاسدة ، قد تتصف بأى شىء الا الجمال ويحاول هؤلاء الأخوة أو الأخوات انجاز المهمة الموضوعة ، لكنهم يفشلون فشلا ذريعا ، ثم يستطيع البطل أو البطلة ان يصل بهذه المهمة الى غايتها من النجاح . ويتجلى الطابع الميلودرامى فى هذه الحكايات ، من وصف الظروف التى تحيط بالبطل أول ما يبدأ عمله ، فيقال انه يجد نفسه وسط ظروف تعسة بائسة ، ولعله يكون أصغر الأبناء ، يقابله الآخرون بالسخرية والانكار .

وقد تعانى البطلة من سوء المعاملة التى تلقاها من زوجة ابيها ، أو من

(*) انظر كيوبيد وبسايكه فى فهرس المصطلحات والأعلام .

اخواتها غير الشقيقات . ويكون البطل يتيما ، فى كثرة كثيرة من الحكايات ويمثل موت الأب خسارة افدح من موت الأم .

وقد يبدو البطل فى بعض الحكايات ، فى صورة الأحمق ، الذى ينتبه احساسه ، وتستيقظ بصيرته شيئا شيئا . واذن ، فالبطل الأمثل فى حكايات الجان ، شخصية « عصابية » وتلك هى الشخصية التى تؤثرها الميلودراما حتى اليوم .

ولا تشوب البدائية هذه الفضائل التى يتحلى بها البطل ، وانما أريد لها ان تنطبع فى الذهن عن طريق التكرار .

واهم هذه الفضائل ــ بالطبع ــ فضيلة الشجاعة ، وتتلوها فضيلة الذكاء ، التى تكون مهارة « عوليسية » فى بعض الأحيان ولا سبيل الى ان نكرر وجود ملامح للتوحش فى هذه الشمائل ولدينا حكاية بوليفيموس وهى مثل واضح على عادة اكل لحوم البشر ، كما ان البطل يظهر قسوة بالغة فى معاملة أعدائه واذا كانت الظروف القديمة تبرر تلك القسوة ، الا أنها تدعونا الى ان نتردد فى اتخاذ البطل صديقا لنا .

* * *

وحكاية بوليفيموس ، اذن ، قديمة للغاية ، كما يتضح ذلك من النص الهومرى ، ولا نزاع فى ان سكان مناطق البحر الابيض المتوسط ، ما كانوا يتكلفون اكثر من عبور مضيق جبل طارق ، أو مضايق البوسفور ، ليجدوا انفسهم بين قبائل تمارس عادة أكل لحوم البشر . فليس هناك ما يدعونا ــ اذن ــ الى ان نعود بهذه الحكاية الى العصر الجليدى .

وفى بعض النصوص المستحدثة ، لنمط آخر ، هو « شجرة جوبيتر » تقتل زوجة الأب ابن زوجها ، حين تدعه ينظر داخل الصندوق ، ثم تترك الغطاء الثقيل يسقط عليه .

ولعلنا نفهم هذه الواقعة ، اذا كنا قد رأينا هذه الصناديق المصنوعة من خشب البلوط والتى كانت تستخدم فى العصور الوسطى .

وربما حددت هذه الواقعة وحدها تاريخ نشاة هذه الحكاية على وجه التقريب ، غير اننا ، نجد انفسنا بازائها ، فى وضع استثنائى ذلك اننا نستطيع ان نجد براهين اخــرى اكثر دلالة ممــا ذكرناه فالمؤرخ الفرنكى : جريجورى التورى ، الذى كتب فى القرن السابع الميلادى ،

يحكي لنا كيف قتل الملك كلوفيس ، ابن عمه بطريقة مشابهة ، وجيامباتسيتا بازيلي ، يحكي لنا عن الملك الذى اراد ان « يكون هو نفسه زوج ابنته » !! (٣٦)

وهكذا ، يرجع أقدم نص مستحدث ، الى العصور الوسطى ، غير ان الأنثروبولوجيين ، انتحلوا سائر الآراء المردودة ، حول عراقة هذا النمط .

وللرد على هذه المزاعم ، ينبغى ان نلاحظ اولا انه لم يعرف عن هذا النحو من الزواج المحرم انه موجود الآن عند اكثر الجماعات البشرية توحشا ، أو انه كان موجودا عندها فى يوم من الأيام .

وثانيا ان هذا الزواج كان ساريا فى ايران ، أثناء عصرها التاريخى المعلوم ، الى ما قبل الفتح الاسلامى ، وكانت ، نظم الديانة الزرادتشية تحبذ هذا الزواج باعتباره عملا مثوبا .

والملاحظة الثالثة ان واقعة مشابهة ، وردت ، فى رواية « الاخصاب » لاميل زولا ، والفرق ان الأب فى هذه الرواية ، لا يريد أن يكون زوج ابنته فحسب ، بل ينجح فى تحقيق رغبته .

والملاحظة الرابعة ان كل النصوص المستحدثة الموجودة الآن لحكايات الجان ــ والتى ننصح بالرجوع اليها فى كتاب سندريلا للآنسة كوتس ــ تحمل طابع العصور الوسطى ، وكثير منها يجاهر فيذكر تغاضى رجال الدين عن زواج الملك زواجا غير عادى ، وهذا الاستخفاف والهزء لا يجدهما المرء ــ عادة ــ فى حكايات الجان .

واذا تذكرنا موقف الراى العام فى العصور الوسطى من « مرشديه » الدينيين ، وتذكرنا شغف أهل تلك العصور ، بالقصص الفاحش البذىء ، الذى يرتبط اشد الارتباط ، بانتشار فكرة التحريمات ، لاتضحت لنا النتيجة ، وتلك ان هذه الحكاية نتاج كامل للعصور الوسطى (٣٧) .

ثم ان الكثرة الكثيرة من النصوص المستحدثة المتواترة من انحاء العالم القديم ، تردد صورة الوشاح الكونى .

هذا الوشاح الذى تكون زخارفه الأرض بحيوانها وطيرها ، والبحر بأسماكه ، والسماء بنثارها من النجوم .

وتعود فكرة الوشاح الكونى الى كبرياء « كوزمكراتور » .

وهى قصة نشأت فى بلاد ما بين النهرين ، ثم انتشرت من بيزنطة الى أوروبا فى عصرها الوسيط .

والنمط الأساسى لحكاية الجان التى نتحدث عنها ، نشأ ـ بالتأكيد ـ فى عالم بعيد عن الهمجية بعد بابل فى عهدها القديم ، وبيزنطة فى عصرها الوسيط ، عن هذه الهمجية (٢٨) .

* * *

والبطل ، فى هذا الطراز من الحكايات يكاد يفشل فى انجاز مهمته ، لولا العون الذى يلقاه من « خدامه » الطيبين (*) .

وهؤلاء « الخدام » ، يكونون حيوانات تعاون البطل ، احيانا ، أو يكونون من أصحاب الخوارق غالبا .

والبطل ، لا يحصل على رعاية هؤلاء « الخدام » بغير وجه حق ، ذلك انه يكسب صداقتهم بعمل طيب يبديه أو باحسان يقدمه ، وقد يكسب ود هؤلاء « الخدام » باجابة مهذبة يلقيها على حين لا يفشل اخوته الجفاة فى الحصول على هذه الرعاية فحسب ، بل يجدون انفسهم وقد طاردتهم تلك القوى لأنهم أساءوا اليها .

غير ان هناك ، حالات قليلة مثل حكاية « القطيطة تلبس حذاءها الطويل الرقبة » ـ وفيها ينال البطل صداقة الحيوان الذى ينجده ، بغير أن يبذل من ناحيته عملا يبرر هذه الصداقة .

* * *

ويحصل البطل فى حكاية معروفة اخرى على مساعدة ثلاثة حيوانات حين يقسم بينها فريسة كانت هذه الحيوانات تتنازعها .

والقاعدة ان تكون الحيوانات المساعدة أو الخادمة المسخرة لنجدة البطل ، من قطيع ينبغى للبطل أو البطلة أن تقوم برعيه فهذه الحيوانات ، اما أن تكون ثيرانا واما خرافا واما خيلا .

وتلك هى حالة الأنموذج القصصى الذى يشتمل على حكاية « فريكسوس وهيلى » (٢٩) .

(*) ترجمنا كلمة Helper على ضوء استعمالها فى هذا النص بـ « الخادم » تمشيا مع ما تعطيه كلمة « خادم ـ وخدام » من مدلول سحرى ـ المترجم .

وفى حكاية الخاتم المسحور ــ الشهيرة ــ وهى أســـاس حكاية علاء الدين الشرقية ، نجد ان الحيوان الخادم هو هذا الثعبان ، الذى يعزى اليه انه حصل على الخاتم .

وقد تكون كذلك ، كلابا وقططا .

* * *

وربما كان الحيوان الخادم . حيـــوانا مفترسا ، كالثعلب والذئب والأسد ، وعندها يوهب الحيوان ملكة النطق والكلام .

ولم يكن سبب هذا التصور ، ان الناس كانوا يعتقدون ــ حين انشأوا هذه النماذج القصصية ــ ان الحيوان يشبه الانسان فى صفاته ، او ان أفعاله تنبعث عن دوافع بشرية وتصدر عن انفعالات بشرية بل كان سبب هذا التصور ، فيما يبدو لنا ــ هو ان الذين أنشأوا تلك النماذج ، عمدوا الى استخدام تلك الحيلة القصصية فى صياغة تلك الحكايات التى يلعب فيها الحيوان دورا ظاهرا ، لأنهم ما كانوا يستطيعون نسجها ، وروايتها بغير اللجوء الى هذه الحيلة .

* * *

ويكثر فى هذه النماذج من القصص ، أن نكتشف ــ فى النهاية ــ ان الحيوان المسخر لخدمة البطل انما هو نفسه انسان « مسخوط » وقد يظن ان ذلك هو شأن سائر القصص التى يلعب فيها الحيوان دور «الخادم» غير انه من العسير الأخــذ بهذه النتيجة ليس فقط : بسبب ندرة النصوص التى اتاحت هذا التعليل ، واعتمدت على عنصر « تحول الانسان » الى حيوان ، بل لأنه يصعب علينا ان نعرف لماذا اهمل هذا العنصر ، برغم انه ــ فى ذاته ــ يثير الاهتمام .

ويتضح لنا ، من ناحية ثانية ، ان محاولة تفسير هذا العنصر تفسيرا عقليا ، يرمى الى ان نجعل « تحول الانسان الى حيوان » شيئا منطقيا ، هذه المحاولة ، اضافها قصاصون مثقفون .

ولقد كان أمرا طبيعيا أن تنشىء المدرسة الأنتروبولوجية ، رابطة بين شخصية الحيوان « الخادم » والنظم الطوطمية ، على حين رات مدرسة بنفى الهندية ، فى هذه الشخصية ، انعكاسا لموقف البوذيين المعروف من حياة الحيوان جميعا .

* * *

والنظرية الثانية اقل سخفا من النظرية الأولى . ولا نزاع فى ان حكاية الخاتم السحرى التى ينقذ بطلها الكريم ثعبانا وكلبا وقطا من العذاب والموت ــ هذه الحكاية هى ذات أصل هندى .

ومع ذلك ، فمثل هذا التوسع فى الاستنتاج الذى يعتمد على استقصاء حقيقة واحدة منفصلة ، يتصف بالتهور والجرأة الشديدة (٤٠) وقد يكون من حقنا ، بعد ذلك ، ان نعرف مواقف الانجلو سكسون من الحيوان ، وهو هذا الموقف الذى تمثله « جمعية الرفق بالحيوان » فقد يأتى مؤرخ فى عام ٣٠٠٠ م . ويزعم انه كانت هناك صلة بين الحقيقتين .

واذا أردنا أن نعرف الى اى مدى تصل القسوة على الحيــوان فى الهند ، استطعنا أن نصل الى فكرة دقيقة وصحيحة ، بدون حاجة منا الى آراء البراهمة .

وفى عديد من حكايات الجان ، يتبدى « الخادم » كواحد من الكائنات غير المنظورة ولعل اغرب هذه الكائنات الخارقة للعادة ، شخصية « الميت الشكور » (٤١) ونستطيع ان نقدم تلخيصا عاما ، لهذا الأنموذج القصصى على النحو التالى :

يعثر البطل فى اول مطافه ، بجثمان رجل ، لا يوارى التراب . ويهمل ، لأن الميت مفلس فقير .

ويهب البطل ــ برغم فقره وحاجته ــ آخر ما يحمل من مال ، لنفقات دفن الجثة ، أو لدفع الديون عن الميت ، أو للغرضين كليهما .

وبعد قليل ، يلتقى البطل برجل ، يغدو رفيق سفره ، ويعاونه فى انجاز مهمته الصعبة ، وينقذ حياة البطل ، ثم يكشف هذا الرجل الثانى عن نفسه ، فاذا به هذا الميت الذى أحسن البطل الى جثته .

* * *

وقد يضاف الى هذه الحكاية ، حكايات أخرى عديدة لأن المهام الملقاة على اكتاف البطل ، قد تتباين فى النماذج القصصية المختلفة . واقــدم النصوص التاريخية المستحدثة ــ وهو نص حكاية موجــودة فى قصة لشيشرون وفى كتاب « توبت » ــ يعود بنا الى مرحلة ما قبل المسيحية .

وعملية دفن الجثــة ، ثم اعتراف الميت بالجميل ، كما يبدوان فى شكلهما العام ، يشيران الى أن هذا الأنموذج القصصى نشأ اول ما نشأ

فى مكان غير معلوم ، والحق ، اننا نجد فى هذا المثال « حالة مستقلة » نستطيع ان نطبق عليها نظرية « تعدد مصادر الجنس الواحد » دون خطر .

اما اذا اضفنا الى الحكاية السابقة عنصر « فقر الميت » ارتقت الحكاية مباشرة الى بيئة تحظى بقدر من الحضارة ـ بينما تشير القسوة التى تصيب جثة الميت ، الى وجود نوع من مقاييس الأخلاق والآداب العامة ، تسبق فى تاريخها تشريعات سولون ، والألواح الاثنى عشر .

واذا اضيفت العناصر السابقة ، الى مجموعة اخرى من العناصر ، لكى يتألف من هذه وتلك هيكل عام ، اصبح للحكاية أصل محدد ، فى موطن معلوم ، وزمن معروف ، واستطاع المنهج التاريخى الجغرافى ان يحدد كل هذه الجوانب .

* * *

وفى حكاية واحدة على الأقل ـ ونعنى بها حكاية الرجل الأرضى ، ينبغى للخادم الذى قد يكون قزما او امراة ساحرة ، ان ينهزم على يد البطل ، فاذا عفا عنه البطل ، بادر الى نجدته فى اعماله القادمة .

وقد تكون النجدة التى يحظى بها البطل ، نجدة غير مدبرة سلفا فقد يسمع البطل اتفاقا حديثا يجرى بين الحيوان ، أو يجرى بين الكائنات الخفية ، ذات الطبيعة الشيطانية ، ثم يتصرف البطل على ضوء هذه المعلومات ، التى نالها بالطريقة السابقة .

* * *

واذن لا يجوز لنا ان نزعم ان الموتيفة الذائعة فى الهند ، هندية الأصل . فلعل هذه الموتيفة أو الجزئية ، قد نشأت فى اماكن متباعدة ، متفرقة (٤٢) .

* * *

غير ان هناك حادثة قصصية ، تتحول فيها ، المعلومات المستفادة اتفاقا ، الى سبب لهلاك الحيوان الذى انشأها .

وهذه الحادثة القصصية ، شديدة الذيوع فى الهند ، وهى نادرة فى انحاء العالم القديم الاخرى .

ولا نزاع ـ اذن ـ فى انها ذات اصل هندى (٤٣) .

* * *

واحيانا ما تؤدى الجمادات ذلك الدور المنوط بالحيوان الخادم ، فتطلب شجرة الى البطل او البطلة ، ان يسقط عنها ثمارها ، فاذا فعل هذا كافأته على صنيعه ، بأن رفضت هذه الشجرة المعترفة بالفضل ـ ان تبوح لمن يطارد البطل بما يريد من معلومات ، ولا ينال مثل هذه الحماية ، الأخ الشرير أو الأخت الشريرة لأنهما يعرضان عن دعاء الشجرة فيلقيان نهاية سيئة .

* * *

واسترضاء أشياء بذاتها فى بيت الساحرة ، او بالقرب من مسكنها ، يؤلف ـ فى العادة ـ واجبا أساسيا ينبغى أن يؤديه البطل أو البطلة .

كما ان الدور الذى ينهض به الخادم فى انجاز المهام المنوطة بالبطل ، يختلف اشد الاختلاف من حالة الى حالة . فقد يكتفى « الخادم » بأن يضع معرفته الممتازة تحت تصرف البطل ، ويقصر عمله على اسداء النصح ، وقد ينجز الخادم بنفسه القسم الأكبر والأصعب من هــذه المهام ان لم ينجزها كلها .

وخطأ اذن ، ان نبرز تكاسل البطل ، باعتباره ، ملمحا عاما وقسمة مشتركة ، بين حكايات الجان .

* * *

وقد لا يكون للبطل فى كثير من الحكايات ، « خادم » يسعفه بل يحصل البطل على شىء عجيب ييسر له اداء عمله ، او ينجز المهام الموكولة الى البطل .

وعلى هذا النحو ، يحصل البطل فى حكاية « أسفار الأميرة ذات الشعر الذهبى » على حصان سحرى أو سفينة سحرية ـ وهى سفينة « آرجو » فى النص الأدبى الاغريقى .

وقد يكون هذا الشىء العجيب ، فى حكايات أخرى ، آلة موسيقية سحرية (٤٤) :

« لم يعرف لها مثيل من قبل »

« يفيض منها الطرب ، والمرح الشديد »

« فحيثما تعلو انغامها »

« لا تملك الكائنات الحية التى تسمع أنغامها المرحة »
« الا أن ترقص حولها وتتواثب فى رشاقة »

* * *

وقد يكون هذا « الشيء » العجيب ، حلية من هذه الحلى المعروفة لنا فى حكايات الجان كالخاتم المسحور وطاقية الاخفاء أو عباءة الاخفاء ، وكيس النقود الذى لا يفرغ منه المال ، أو البساط السحرى ، أو غير ذلك .

والبطل ، لا يحصل على هذه الأشياء دون مقابل ، فاياسون (*) ــ كما ينبغى ان نذكر ــ نال سفينة الشحن « آرجو » جزاء له عن عطفه على هيرا ، التى حملها ــ وقد بدت له فى شكل عجوز قعيدة ــ وعبر بها نهرا ، فاضت مياهه . فاذا وضعنا مكان هيرا ، جنية عجوزا تريد أن تختبر الناس ووضعنا حصانا سحريا فى مكان سفينة الشحن « آرجو » دخلنا ــ على الفور ــ فى عالم الجان .

والبطل ، فى حكايات أخرى عديدة يحصل على هذه الأشياء العجيبة بذكائه العوليسى فيقابل من يملكون هذه العجائب ، بينما هم يختصمون حول اقتسامها ، ويعرض البطل وساطته ويشترط ان يجربها أولا ، فاذا اسلموها له بادر الى الهروب بها .

وقد تضيف بعض الحكايات ، ان البطل وقد أنجز مهمته ، يتدبر أمره ويجد ان خير ما يصنع هو أن يعيد هذه العجائب الى أصحابها الأصليين . وتلفيق هذا الحدث ، واضح ، وضوح تلفيق الغرض الأخلاقى ، الذى دعا الى انشاء هذا الحدث .

ولقد كان رواة هذا النوع من الحكايات ، كبعض كتاب السير ، يحرصون على ان يبعدوا عن أبطال حكاياتهم ، أية مظنة او شبهة عيب قد توحى بها اعمالهم .

* * *

وحكايات الجان ، مثلها مثل الميلودراما الجيدة ، فيها شخصية شريرة . ونستطيع ان نقسم الشخصيات الشريرة الى فريقين وذلك تبعا لموقفهم من البطل .

(*) انظر اياسون وآرجو فى فهرس المصطلحات والاعلام .

وأما الفريق الأول فيتألف من اناس قريبين منه ــ وان لم يكونوا قريبين الى قلبه أعزاء لديه ــ او يتألف من أناس لا تجمعهم والبطل رابطة ، ولا يعرف بعضهم بعضا ، الى أن تدعوه أعماله الى الاحتكاك بهم والتعرف عليهم .

وينتسب الى هذا الفريق ، كوكبة الأعمام والأخوال البغيضين ، وزوجات الأب المقيتات ، والأخوات غير الشقيقات ، والأخوة الحاسدون ، والأصدقاء الخائنون ، وقد ينضم الى هذا الفريق ، الأم الزانية ، فى بعض الحكايات .

وأما الفريق الثانى ، فيتألف من هذا الزحام المختلط ، من العمالقة والأبالسة والغيلان والسعلاة ، والعرافات ، والسحرة الذين نلقاهم فى أكثر النماذج واغلبها الأعم .

والفريق الأول يستدر شيئا من الشرح .

ان التصور الواقعى الذى يجرى خلال صورة « زوجة الأب » و « الاخ غير الشقيق » و « الأخت غير الشقيقة » ــ هذا التصور واضح لا يحتاج الى بيان .

واما ظهور الاخوة الحاسدين ، او الأخوات الحاقدات ، فينبغى أن نشرحه على اساس فكرة « المقابلة » بين الأضداد ، ذلك ان الهدف هو ان تجلو هذه الموازنة شخصية البطل وتبرزها .

وأما شخصية الأخت من سفاح (٤٥) أو شخصية الأم الزانية ، والتى ترد فى حكاية واحدة لاغير ، فسببها فيما نظن ، هو هذا التحول الذى يطرأ على الأشياء ، فقد يكون دورهن أصلا ، هو دور الزوجة التى يأخذها البطل قسرا عن ارادتها (ومثال ذلك فقرة شمشون الشهيرة) (٤٦) .

غير ان هذا الأنموذج ، لم يخضع بعد للدراسة الفاحصة الدقيقة .

والقارىء الانجليزى فى غنى عن أن نقدم له شرحا لشخصية العم أو الخال الغاشم ، خاصة اذا تذكر هذا القارىء ، الملك جون والملك ريتشارد الثالث . ويكفينا ان نقول ان شخصيات هذا الفريق ، مجبولون على الشر ، وان نفوسهم مظلمة ، وانهم يلقون جزاء ما يصنعون آخر الأمر .

وغير قليل مما قلنا ، ينطبق على طبائع الفريق الثانى ، ســوى ان شخصيات هذا الفريق لا تنتمى الى البطل بأى انتماء طبيعى ، وانما هى

تقابله فى معركة عادلة ، وتحصد منها اسوأ حصادها ثم انها تتفوق بقوتها الخارقة ، ولو أن مقدراتها الذهنية لا ترقى الى مستوى قوتها البدنية ، وذاك من حسن حظ البطل .

والمعركة بينها وبين البطل معركة عادلة كما ذكرنا فقواها الجسمية الخارقة تنهزم أمام ذكاء البطل وسرعة حركته .

والحق ان عدد النماذج التى يؤثر فيها البطل أن يتغلب على هذه الشخصيات بذكائه يزيد كثيرا على عدد النماذج التى يهزمها فيها اثناء المعارك المنظمة العادية .

وليس بنا حاجة الى أن نورد الأمثال فحكايات كثيرة ، ستتواتر على ذهن القارىء على الفور .

ثم ان البطل ينجح فى اداء مهمته فينهزم أعداؤه الأبالسة ، وينال خصومه الداخليون عقابهم ، ويتزوج هو الأميرة ، ويعيش معها سعيدا بعد ذلك .

وهذه النهاية السعيدة ، التى لا تتصور حكاية جان بدونها ، تقترب بهذا الأنموذج من الميلودر'ما الحديثة .

ولا نعرف حكاية جان ذات نهاية تراجيدية ، وحيثما تتيح النصوص التاريخية حكاية كهذه كما هو الشأن فى قصة اياسون ، فان الحكاية الشعبية تكون قد مرت بعملية « اعادة صياغة أدبية » .

وهناك استثناء واضح ، لهذه القاعدة .

هذا الاستثناء هو قصة « الموت اشبين » كما هى واردة فى مجموعات الأخوين جريم وفى عدد جم من نصوص الحكايات الشفاهية المتواترة — على نحو خاص — من اواسط أوروبا وروسيا الغربية .

ولعلنا نذكر ان الطبيب الجرىء يخدع اشبينه ويسوقه الى كهف فى جوف الأرض ، فيرى السنة النار الكثيرة وهى ملتهبة . فاذا سأل عنها قيل له انها « ارواح » او « حيوات » اشخاص آخرين .

ثم يرى حياته وقد شارفت ان تلفظ آخر اشتعالاتها وعبثا يبتهل الى الموت ان يمنحه فسحة فى العمر ، ويتلاشى الضوء ، ويسقط الطبيب المنكود جثة هامدة ، عند قدمى اشبينه .

وفى نص فرنسى آخر ماخـــوذ عن اصل المانى نجد الطبيب يموت فيطرحون جثته على الطريق فى الصباح التالى .

وتاريخ هذه الحكاية الشعبية على اكبر جانب من الامتاع فقد ذاعت الحكاية فى أوروبا فى عصرها الوسيط ، وانتشرت حتى وصـــلت الى ايسلندة ، ولو انها كانت فى صيغة مختلفة فالطبيب يخدع اشبينه عندما يأتى ليأخذه ، وذلك بان ينتزع منه وعدا بأن يتركه يصلى ، ثم يعمد الطبيب الى ذكائه ، فلا ينهى هذه الصلاة ابدا ويضطر الموت الى ان يتوسل بخدعة اخرى ، ليتغلب على دهاء ابنه بالمعمودية . وتصبح الحكاية بشكلها هذا ، حكاية مرحة ، وتعيش فى صيغتها تلك ، فى سائر انحاء القارة الأوروبية .

غير أن صيغة جديدة ، زحزحتها عن مكانها فى أوروبا الوسطى ، وتلك هى الصيغة المأسوية التى نعرفها ، والتى نشأت فى المانيا الشرقية ، أو لعلها نشأت فى سيليزيا ذاتها ، بعد فترة قصيرة من انتهاء حرب الثلاثين ، وكانت هذه الحكاية ذات أصل أدبى اى أصل انسانى . ذلك انها تضمنت من الأدب الاغريقى ، حدثين من اهم احداثها وهما حدث الطبيب الذى ينقذ مريضا على خلاف ما تشاء « القوى » العليا ، ويدفع حياته ثمنا لفعلته ، ثم حدث الكهف ذى المصابيح التى تمثل حيوات البشر .

واما الحدث الأول فمأخوذ من انشودة بندارية ، ذلك انه فى جوهره ، قصة اسكلبيوس (*) .

واما الثانى فاصله موجود فى نادرة من نوادر « التاريخ الصحيح » للوسيان عن مدينة ليكنوبوليس .

وفى المركز الحقيقى من حكاية الجان ، نجد اهم الأعمال التى ينبغى ان يؤديها البطل ، وعددها ثلاثة فى الغالب الأعم .

وتختلف طبيعة هذه الأعمال ، فى النصوص المتباينة .

على أن موتيفة رحلات « الاستطلاع » والمغامرات من أكثرها ذيوعا . بل ان ذيوع هذه الجزئية المتكررة جدير بأن يمنع الفولكلوريين من أن يروا فى حكايات الجان ، ما هو اكثر من اعتبارها قصصا موضوعة أضيف بعضه الى بعض ، بغرض التسرية والامتاع . بل ان القليل من الموضوعات ، يستطيع أن يضارع ، فى امتاعه ومؤانسته موضوعا جيدا يدور حـــول المغامرات .

(*) انظر اسكلبيوس فى فهرس المصطلحات والأعلام .

وموضوع رحلات الاستطلاع والمغامرة هو الذى يجعل حكايات مثل حكايات ارجونوت أو الأوديسة أشد سحرا من قصص الالياذة والنبلنجنليد Nibelurgenlied بما فيها من مبارزات ومعارك مملة رتيبة .

واما ما يمضى البطل باحثا عنـــه ، فيختلف كثيرا ، من حكاية الى حكاية . وحيث اننا نعالج القصص الشعبى ، فلن تكون طلبة البطل طلبة مجردة كالسعادة او الحب ، بل ستكون ـ على العكس ـ شيئا ماديا ملموسا ، فهى امراة مثلى ، أو هى الحصان البديع ، أو الطائر الجميل ، أو ماء الحياة ، أو شعرات المارد الثلاث ، او سيف الضوء أو لعلها حل للغــز .

وفى هذا كله لا نستطيع أن نرى شيئا بدائيا ، فهذه الأشياء مما سعى اليها الانسان واراد الحصول عليها ، فهى الكنوز والعمر الطويل ، والمراة المثـــلى .

وأما ان يحتوى الكنز على حصان بديع أو سيف بديع ، فتعود بهذه الحكايات ، الى العصور الوسطى ، وهى ليست عصور ما قبل التاريخ فقد كان يقال عن كل بطل من ابطال هذا العصر ، انه يقتنى اجمل امراة ، واسرع حصان وامضى سيف ، واحيانا ما يقال انه يملك فضلا عن هذا ، احسن كلاب الصيد ، وخير السفن . وتاتى نوبات الحراسة فى المرتبة الثانية بين الأعمال الشعبية المحببة التى ينبغى ان يؤديها البطل .

ويجب أن نقول هنا ، اننا لا نجد شيئا أثريا او قديما فى هذه الجزئية المتكررة .

وحقا ، وجدت « الحراسة الطقسية » قبل ذلك بوقت طويل ـ ومنها السهر بالقرب من جثة الميت ـ والتى لم تكن عملا اجتماعيا كما هى الحال فى ايرلنده .

غير أن الفصول الأولى من قصة ابوليوس تحمل المرء على أن ينظر الى الأمر من زاوية مختلفة .

ثم كانت هناك تلك الحراسة التى تتضمنها مراسم الفروسية والتى يعرفها كل من قرا دون كيخوتة ، وهى عادة ، مرعية لا تزال ، فى بعض فرق جيوش القارة الأوروبية .

وعلى ضوء ما ذكرنا من تواتر العناصر الواقعية فى حكايات الجان . نجد ان هذه « الحراسة الطقسية » ، تتخذ اشكالا مختلفة فى النصوص

المستحدثة من هذه الحكايات ، فتبدو فى صورة حراسة يقوم بها فى ليال ثلاث متتالية . واحد من الأبناء الثلاثة . ونجد ان الابنين الأكبرين يخافان اشد الخوف ، واما الابن الأصغر ، فيواجه الاختبار بشجاعة .

غير ان هذا النوع من الحراسة الذى يمكن أن نشتقه مباشرة من الحياة اليومية يعتبر نوعا نادرا فى ادب حكايات الجان .

واشد من ذلك شيوعا ، حراسة البيوت فى ظروف تجعلها كريهة مبغضة الى النفس فهناك أولا حراسة قلاع تسكنها الأشباح ، التى تقتل كل كائن بشرى يحاول أن يقوم بهذا العمل .

واما البطل فيستطيع بسلوكه ، الحذر الشجاع ، أن يهزم الأشباح ، ويفك السحر عن القلعة ، وينال الأميرة جزاء له .

ولدينا ، الحكاية الموسومة باسم « اليد والطفل » وقد كان الظن الى وقت مضى ، ان كل طفل يولد فى بيت ، تخطفه يد مارد تنزل من المدخنة ، وكان على البطل أن يبتر اليد او الذراع ، ويسترد الأطفال المخطوفين .

ثم هناك الحراسة التى تؤدى فى المذبح ، قريبا من نعش أميرة مسحورة ، تنبعث من كفنها فى كل ليلة ، وتقتل الجنود المرسلين لحراستها ، ويظل الأمر كذلك الى ان يأتى البطل ، ويحذر مقدما من شرها ، فيسلك السلوك الصحيح ، ولا يصاب بضرر ويفك عن الأميرة سحرها .

ومثل هذه الحكايات يقال ، لما تتضمنه من اثارة ناشئة من المخاطرات ، وهى لا تطلب فى سامعها ، أكثر من أن يؤمن ايمانا ساذجا بالأشباح والغيلان ، الأمر الذى لا يدعونا الى أن نعود الى العصر الحجرى ، لنجده .

وترتبط مجموعة أخرى من الأعمال التى ينبغى انجازها ، بمخاطرات الاغراء . فلكى يظفر البطل بعروسه يجب عليه أن يمر باختبارات محددة كسباق العربات ، أو الجرى على الأقدام ، أو مبارزة حميه ، أو مبارزة العروس نفسها اذا كانت أمازونية أو يجب أن ينتصر فى رحلته ، أو أن يستطيع فك بعض الألغاز أو يهزم حميه فى مباراة شطرنج .

وليس بنا حاجة أن نعود الى الثقافات البدائية ، لكى نفسر هذه (الجزئيات) . فنحن نعرف ان العرائس الملكية لم تكن تقدم كهدايا فى المعارك ذات الجوائز ، والوثائق التاريخية تعلمنا أن المصاهرات الملكية كانت ثمرة أعمال الديبلوماسية والسياسة ، حتى فى العصور المتخلفة نسبيا ،

كالعهد الميروفى والمسينى . ولم يكن الملك بل رئيس العشيرة ، يقدر كفاءة صهره فى الملاكمة أو لعب الشطرنج ، بل كانت تحكمه هذه النوازع التى حكمت المصاهرات الملكية فى القرن الثامن عشر أو تلك التى تحكم المصاهرات الملكية الحديثة .

وحقيقة ما حدث ، فى بساطة ـ هو أن الرجل العادى ، فى ظروف غير مواتية وحين كانت سلطة القانون ضعيفة ، كان حريا بأن يستوثق من الصفات الجسمية والعقلية لصهره المقبل . بل لعله جدير بأن يصنع هذا اليوم .

ولقد كان اميل الى الاستيثاق من الصفات الشخصية للشاب الذى يطلب يد ابنته ، فى زمن كانت فيه المنافسات الرياضية ، مقبولة مقدرة .

وليس هناك ما هو انسب من هذه الظروف ، للانتقال فى القصص الموضوع ، واللحاق بالأفعال الملكية ، واضفاء الفخامة الواجبة عليها .

وحين ندخل ميدان القصص الموضوع ، نجد ان قوانين القياس والمقارنة والتحريف ، ما تلبث حتى تقدم لنا كثرة كثيرة من الاختبارات ، التى كان اقلها موجودا بالفعل .

ومن الأمور الطبيعية اذا ، ان يبحث الملك الهندى ، عن لاعب شطرنج ممتاز على حين يبدى ضريبة الايسلندى أو الايرلندى اهتماما خاصا بالمصارعين .

واذا نحينا هذه الاختلافات المحلية ، جانبا ، تأكد لنا ان القاعدة السارية هى أن المبارزات البدنية تسبق فى تاريخها التحديات العقلية . ففى أقدم نص معروف لنا ، من أوديب ، لم يكن البطل او أبو الهول منتميا الى طبقة المثقفين ، بل صرع البطّل الوحش ، بعصاه الغليظة وحدها (٤٧) .

* * *

ولقد ذكرنا فى التعريف باصطلاح « حكاية الجان » الذى أوردناه فى البداية ، ان هذه الحكاية ، قصة جادة .

والحق ان النبرة الجادة ، ظاهرة فيها بل لقد يميل الانسان ، غالبا الى ان يغفل عناصرها المرحة ، ولا يغنى عن ذلك ، ما قد ننتبه اليه من

دعابة مريرة تأتى فى نهاية الحكاية ، عندما يضطر الشخص الشرير الى ان يدلى برأيه ، فينفذ هذا الرأى على الفور .

غير أن هناك حكايات تنحو نحو الكوميديا أو المهزلة ، ولو أن أكثرية هذا النوع من الحكايات ينحو نحو الميلودراما .

وخير مثل ، نورده ، هو حكاية « الخياط الشجاع » التى تقص تاريخ حياة رجل ، لا يمتاز بالقوة أو الشجاعة ، بل يمتاز بالذكاء وشىء من حضور البديهة .

وفى نصوص هذه الحكاية ، ذات الأشكال المتباينة ، والمنتشرة فيما بين الهند وبلاد البلطيق . استغنى القصاصون عن عنصر الذكاء ذاته ،واسعف الخط وحده البطل الجبان .

وقد نجد الكثير من المرح كذلك فى الحكايات الدائرة حول مغامرات رجل أحمق ، أو تلك التى تدور حول « ابن أرملة » .

وتحرص هذه الحكايات على ألا تتناول الجوانب المأسوية فاذا تسببت المخاطرات التى يقوم بها البطل الأحمق فى حكايات الجان المشار اليها ، فى أن تجلب عليه المتاعب ، كما صنعت المغامرات بفارس لامانشا ، فانه ينتهى آخر الأمر نهاية سعيدة ، فيصبح أميرا فى بعض الأحيان ، أو يصير رجلا ثريا على الأقل .

وتوضح هذه النقطة ، الحكايتان الثانيـــــة والثالثة من البنتامرونى « الخمسون حكاية » Pentamerone وهكذا ، يتأكد المرح فى حكايات الجـــان .

اما المرح الذى تدل عليه كلمة (esprit) الفرنسية فمفقود ، حتى فى نصوص الحكايات الوافدة من فرنسا وايرلندا ، حيث يتوقع الانسان ــ بالطبع ــ أن يجد هذا النوع من المرح .

أما النصوص التى تفصح عن ومض من هذا المرح (الفرنسى) فتكشف ــ لا نزاع ــ عن دور رجل الأدب ، وهو يعيد صياغة القصص القديمة .

والنوع الثالث ، المتفرد من حكايات الجان ــ اذا جاز لنا ان نصنفها على هذا النحو ــ هو ما يسمى بالحكاية التكشيفية (٤٨) ، التى قد يعرفها القارىء الانجليزى خير معرفة ، وبفضل ترجمات جورج دب الممتازة وذلك

مما اورده اسبورنسون عن « الدجاجة التى ذهبت الى دوفرفيلد لتنقذ العالم » أو عن حكاية « الديك الذى سقط فى دنان الخمر » .

ولقد انحطت هذه الحكايات جميعا ، فصارت اغانى أطفال او اسجاعا لكن ينبغى ان نبحث عن أصلها فى مجالات أخرى ، ولعلنا نضطر الى ان نستخدم الكثير من المقابلات والمقارنات ، حتى فى هذه المجالات الأخرى .

ولم نزل فى حاجة الى صدور دراسة شاملة ، تتناول هذا القسم من الحكايات .

وكثيرا ما أشير الى ان اصلها شعائرى وكثيرا ما رفض الأخذ بهذا الرأى .

ويتعذر علينا ، أن نقطع برأى حاسم فى هذه المسالة ، قبل أن نقوم بمزيد من الدراسات العلمية .

وثمة ملمح مشترك ، تتقاسمه حكايات الجان والميلودراما ، وذلك هو الميل الشديد الى ما يسميه احد أصدقاء المؤلف بـ « الاثارة المقدسة » فمن الواضح أن حكاية الجان العادية ، تؤثر أن تكون النجاة من المآزق عسيرة كما أنها تحب « المفاجئات المسرحية » .

ويجد البطل نفسه فى المواقف التى يبدو الا امل معها ولا رجاء فبطل حكاية « الفارس الأحمر الصغير هود » يستقر فى معـــدة الذئب ، واوديسيوس يقع محاصرا فى حظيرة السيكلوبس (الجبار وحيد العين) والبطل فى النص الأصلى المفقود فى قصة كيركه ، يسخط . وزواج البطل من عروس غير عروسه ــ فى قصة « العروس الحيوان » وقصة Nicht Nocht Naething ــ اما ان يكون قائما على قدم وساق ، أو يكون مؤجلا الى حين .

وعندما يبلغ الترقب غايته ، ويشتد القلق الذى يساور النفوس يتغير مجرى الأحداث فجأة ، وتنتهى الأمور نهاية سعيدة .

والمشهد الختامى فى قصة « اللحية الزرقاء » لبيرو يعتبر مثلا جيدا ، فى هذا الصدد .

ومن هذه الزاوية التكنيكية الخالصة ينبغى أن ننظر الى بعض الجزئيات المتكررة التى اثارت كثيرا من جدل المدرسة الأنتروبولوجية . فالبطل يأتى الى مسكن المارد ، واثناء غياب المارد ، تقوم امرأة عطوف باخفاء

البطل وتكون ام المارد او جدته او ابنته او مدبرة بيته ، او اسيرة عنده : واذا عاد المارد الى مسكنه ، كانت اولى كلماته :

« ف فى فوفوم »

« اشم رائحة رجل انجليزى »

او شيئا آخر من هذا القبيل .

ولما كان هذا النوع من الاستقبال قد اندثر فى زماننا وعصرنا ، فقد زعموا ان هذه الجزئية المتكررة ، تعود الى عصور التوحش ، ذلك ان ملكة الشم بين المتوحشين ، اقوى بكثير من ملكة الشم عند سكان المدن الحديثة . لكن الاستدلال ، يقوم على أساس ضعيف . فاذا سلمنا جدلا بأن حاسة الشم عند الانسان ، قد ضعفت فى الألفى سنة الأخيرة ، فنحن نعرف ان المارد من أكلة لحوم البشر ، كان يتصف بحاسة شم حادة ، فيما يتصف به من سمات حيوانية أخرى ، وانه كان يشارك فى قوة الشم ، الحيوان المتوحش ذاته .

واغلب الظن ، ان هذه الصفة قد قيلت ، لأن القاص كان مدفوعا بدافع الرغبة فى الاثارة ، واذا دخل المارد آكل لحوم البشر ، كهفه ، وفاته أن يشم رائحة رجل غريب فيه ، تلاشت فرصة الترقب ، والاثارة .

وكما قلت سابقا ، قد يعجز فلاحون كثيرون ، عن أن يشموا رائحة الغرباء . فى حجراتهم الضيقة ، المكدسة بالأشياء .

ولقد كتب هراء كثير آخر عما تظهره حكايات الجان ، من ضوابط اخلاقية . ذلك ان الأخلاقيين فى القرن التاسع عشر ، لم يتوانوا عن اظهار ان حكايات الجان العادية ـ تطبع فى الأذهان المواعظ المستفادة من موعظة الجبل .

غير ان هذا القول ، لا يتيح لنا ، ان نستنتج أن حكايات الجان ، بقايا مترسبة ، من نظم اخلاقية ، تجاوزناها فى مسيرتنا . وخلقناها وراء ظهورنا . فمن المسلم به ، ان المجتمع الحديث لا تحكمه مبادىء الانجيل المثلى أو اخلاقيات أرسطو . وان مرد الحاسة الأخلاقية عاطفى ، الآن كما كان فى الماضى وان الراى العام الحديث ، يرحب بانزال العقوبة على المعتدى الشرير .

وتعبر حكايات الجان عن هذا الأمر بدقة ، فشخصياتها الشريرة تنال جزاءها . ولا يدهشنا أن تميل العقوبة فيها الى قسوة ابلغ مما تسمح

به التشريعات الحديثة . فنحن نعرف ان اصلاح القوانين الجنائية ، قد حدث فى مرحلة زمنية متأخرة . ولا يدهشنا كذلك ، أن يظهر البطل فى ، تعامله مع المـــردة من صفات عوليس ، اكثر مما يظهـــره من صفات دون كيخوتة .

ان هذا يدل فحسب على ان القصاص أناس « معقولون » .

اضف الى هذا ان حكايات الجان ، خالية تماما ــ من كل تأمل دينى . فالمعبودات المسيحية ، محذوفة منها ، شأن الشخصيات المقدسة الرومانية والاغريقية . واذا ذكر اسم الله أحيانا فى حكايات ألف ليلة وليلة ، فينبغى ان نفهم هذا العنصر ، على الأساس الذى أتاح الاشارة الى « هيرا » و « اثينا » فى قصة الأرجونت ــ ونعنى به الاهتمامات الأدبية .

ولقد يعارض القارىء هذا الرأى ، ببعض الحكايات التى تذكر عبارة الاله الطيب le bon Dieu أو der Liebe Gott ــ وهى عبارات ترد فى النصوص الفرنسية أو الألمانية الجنوبية المستحدثة ــ كما قد يعارض هذا الرأى بالاشارة الى العذراء فى بعض الحكايات الفرنسية ،والايطالية ــ وان كان مدى علمى انها لا ترد فى الحكايات الايرلندية ــ أو الاشارة الى الشيطان، أو الاشارة الى قديسين ، ومنهم القديس بطرس على نحو خاص .

ومن بين هذه الشخصيات تحظى العذراء بأقل اعتراض من الناحية الأخلاقية . اذ هى تظهر أبدا فى صورة الراعية الرحيمة ، كأثينا فى قصة أرجونوت ، وتحل محل الجنية الطيبة .

أما دورها ، فى القصة الثالثة من مجموعة حكايات جريم ، فأقل ارضاء للنفس ، ذلك أنها تغتصب المكان الذى كان مخصصا للأشباح مصاصة الدماء ، ولا يغنى عن ذلك ، ان نهاية القصة ، قد عدلت كثيرا .

وتستوى فى غموضها ، شخصية المعبودات فى بعض القصص الفرنسى والألمانى اذ يقال للبطل فى حكاية « الموت اشبين » انه يجب أن يساعد الأغنياء ، ويترك الفقراء يموتون جوعا .

واذا كان الأخوان جريم يضيفان أن « البطل قال هذا لأنه لم يكن يعرف رحمة الله السابغة الأصيلة » فمن الواضح أن هذا القول ، جاء متأخرا على لسان قصاص متدين ، ان لم يكن قد أضافه يعقوب جريم نفسه .

وأما دور القديس بطرس ــ وهو دور كوميدى غالبا ــ فيعود بجذوره الى حكايات العصور الوسطى المرحة التى سنعرض لها بعد حين .

ثم اننا لا نجد اى أثر للفلسفة أو المثاليات فى حكايات الجان العادية . والمبدأ الفلسفى الذى يظهر ــ فى عدد قليل منها ــ هو عقيدة القدرية . فالشباب الذى يمضى ليحضر شعرات الشيطان الثلاث ، قد كتب عليه من البداية أن يغدو ربيب الملك أو التاجر الغنى الذى يسمع هذه النبوءة ، ويحاول جهده أن يحول دون تحقيقها . والفلاح الذى يصيبه سوء الطالع ، المرة بعد المرة ، يقال له انه لن يستطيع ان يغير سوء طالعه ، وينبغى له أن ينقل كل ما يملك الى حوزة زوجته السعيدة الطالع . فاذا صنع هذا ، واتاه الحظ وحسنت معيشته .

والمستبد ، يقال له أنه سيلقى مصرعه على يد ابن بنته الوحيـــدة فيحاول جاهدا أن يمنع ميلاد هذا الطفل ، لكن القدر يدل على انه اقوى من كل تدبير بشرى وكل قوة بشرية .

ومن الخطأ اذن أن ننسب هذه النبرة القدرية الى التأثيرات الاسلامية ــ ذلك أن الايمان بالجبرية ، ازدهر فى بلاد بعيدة عن الشرق الاسلامى ونحن نعرف ان بعض هذه الحكايات الجبرية ، أقدم بكثير من الاسلام .

غير ان مناقشة العناصر الدينية فى حكايات الجان ، تثير مناقشة أخرى مقتضبة عن آلهة الجان والمردة ، التى يتميز بها هذا النوع من القصص الشعبى .

ولنبدأ القول بأن هذه المناقشة محايدة كل الحيدة . فغنى عن البيان ان ، كل امة ، انما تدخل فى الحكايات الموضوعة ، ما صنعته من جن بدائى ــ بحيث أن المهمة الواحدة قد يؤديها جان فى القصص السيلتى ، أو كابوس أو ساحرة فى القصص التيـــوتونى أو عفريت فى الحكايات السلافية . فاذا هاجر نص من نصوص هذا القصص ، وارتحل من بلد الى آخر ، ترجمت أسماء المردة الى أنسب الأسماء المقابلة لها فى اللغـة الأخرى .

وحيث نلاحظ عكس ما سبق ــ اى حيث نجد حكاية وفيها شخصية غريبة على الهة الجان الخاصة بالبلد الذى نناقشه ــ فينبغى أن نسلم أول ما نسلم بوجود تأثيرات ادبية فيها .

وهكذا ، فظهور الأشباح مصاصة الدماء فى الحكايات الألمانية ، يشير

الى تيارات ادبية سلافية ، وظهور القزم الخرافى أو المارد الخرافى فى الحكايات البريطانية ، يعزى الى تيارات ثقافية اسكنديناوية .

غير ان ماردا من هذه المردة ، لم يدخل قط فى تكوين نظام دينى ثابت ، او فى ديانة متقدمة .

ولقد يكون بعضها ــ كأقزام المنازل أو بعض المردة ــ قد حظى بقداسة اعتقادية محلية ، غير ان هذا الأمر ذاته ، لا يفسر لنا طبيعة الدور الذى ينبغى أن تؤديه هذه القوى الخفية فى حكايات الجان .

واذا ظهرت فى بعض النصوص الألمانية لحكاية فراو هولى ــ شخصية الهة من آلهة الأوليمب التيوتونية القديمة ، فسبب هذا ، فى جلاء ، ان شخصية الالهة القديمة كانت مرتبطة ببعض الأماكن ، فى ذلك البلد ، الذى دونت فيه الحكاية أول ما دونت ، وان هذه الشخصية ، لبثت تعيش ــ على نحوها ذاك ــ وتعلقت بالذاكرة الشعبية .

ومن أفدح ما يقع فيه عالم الفلكلور من أخطاء ، أن يستنتج من هذه الواقعة المفردة ، أن الحكاية التى أشرنا اليها ، تنحدر من أسطورة قديمة .

واذا ، فليس هناك أدنى صلة بين حكايات الجان والنظم الدينية : البدائية منها والمتقدمة .

وكل ما نستطيع أن نقول هو ان مجموعة من عقيدة الكائنات الخارقة المسرفة فى قدمها وبدائيتها قد امدت اشتقاق حكايات الجان بأسماء هذه الكائنات وان ذلك يشبه السبيل الذى سلكته الميتولوجيا الكلاسية وهى توحى لفولتير بـ « انرياد » .

واذا ، فالاعتقاد فى الهة المردة والجان ، لا يسعفنا فى تقصى تاريخ حكاية ما بل غاية أمره أن يحـــدد جنسية الحكاية . بحيث اذا فتحنا مجموعة حكايات ، اتفاقا ، ولم نلق نظرة على غلافها أو صفحة عنوانها ، ووجدنا « بابا ياجا » و « رويزال » ، عرفنا على الفور ان الحكاية التى امامنا ، مترجمة عن الروسية ، أو الألمانية السيليزية ، أو الايرلندية ، او الانجلو ايرلندية .

والحق انه اذا تعمدنا تحييد الايمان بالمردة ــ اى اذا تعمدنا أن نضع الأسماء والاصطلاحات الغامضة بدل الأسماء المحددة ــ لاستحال علينا فى اغلب الحالات ، أن نقطع بانتساب الحكايات التى ندرسها الى روسيا او ايرلندة . بل ان الاشارة الى النظم البشرية المجردة ، قليلا ما تمدنا

بحل . فصاحب البيت الشرير قد يرد فى حكاية ايرلندية مثلما يرد فى حكاية سلافية او روسية .

واقصى ما نقوله عن نظام تعدد الزوجات من انه يشير الى الشرق ـ يعتبر قولا غامضا للغاية .

ومثل هذه الاعتبارات قمين بأن يقودنا الى مناقشة صيغة حكايات الجان أو شكلها . واول ما نلاحظ فى هذا الصدد هو ان أكثرها يقال نثرا ، والاستثناء نادر قليل .

ولعلنا نذكر من هذا القايل ، تلك الحكايات التى جمعها و . رادلوف W. Radloff من افواه القبائل التركية فى سيبيريا الجنوبية . وقصص راجا راسالو Rassalau . البنجابية . وحكايات الجان التى تتضمنها الأوديسه .

غير ان التحول من القصص الشعبى الى الملاحم كان قد تم فى هذه الحالات جميعا .

وهذه الصفة العامة (الأسلوب النثرى) ، لا يحول دون تسرب النظم الى عديد من الحكايات وكثير من نصوصها المستحدثة .

ومن الحماقة ان نستنتج مما سبق أن الحكاية كلها كانت منظومة شعرا ، كما أنه من الحماقة أن نستنتج من استخدام شكسبير للقافية احيانا ، انه كان ملتزما بالقافية دائما .

وهذه المنظومات ، تتصف بقدر من التماسك برغم أنها قد لا تكون عريقة بل لعلها تتيح الترجمة الشعرية حين تنتقل من مجموعة لغوية الى مجموعة لغوية ثانية .

ولعل خير مثال ، هو هذا الشعر الذى نلقاه فى قصة شجرة جونيبر التى اشتهرت فى الأدب منذ ما أجراها جوته على لسان جريتشن Gretchen فى الفصل الأخير من مؤلفه « فاوست الأول » .

وهذا الشعر ، ليس له مقابل فى المنظومات الفرنسية وحدها ، بل له مرادف كذلك فى المنظومات الجاسكونية كما يتضح هذا من المقارنة بين النصوص الجاسكونية ، ونص حكاية الجان الألمانية ، ونص جيته :

النص الجاسكوني	النص الالماني القديم	نص أغنية جيته
Ma Mairâstrô	أمي التي ذبحتني	نص اغنية جيته
Pique pastro	ابى الذى أكلنى !	التى قتلتنى !
M'a boulit		
E perboulit	اختى الصغيرة	ابى الوغد
Moun paîre	تبحث عن ساقي	الذى أكلنى !
Lou Lavouraire	وتلفهما برباط من حرير	أختى الصغيرة
M'mantsat		
E ronségat	تضعهما تحت شجرة الجوز	دفأت ساقى
Ma suroto		فى مكان رطب
La Lisoto	طر ... طر ...	هناك اصبحت
M' plourat		
E soupirat	انا عصفور جميل (١)	طيرا جميلا فى الغابة
Tsous un Albre		
M'a entarrat		طر ايها الطائر
Riou tsiou, tsiou		طر ايها الطائر
Encaro souî biou		

فاذا أسقطنا من تقديرنا الافتراض بحدوث ترجمة ادبية ، يبقى الا نستكثر على شخص أن يستطيع التحدث بلغتين ، أو الكتابة بهما ، ـ ولعله يكون من هؤلاء الرواة الرحالة الذين يعيشون فى مناطق الحدود اللغوية .

(*) فى الأدب الشعبى المصرى اغنية أطفال تقول ـ « أنا الديك الأخضر الاخضر ـ أمشى على الحيط واتمخطر ـ ومرات أبوى دابحانى وابوى ياكلنى حامى واختى تلم عضامى » أنظر النص ص ٥٢ من كتابنا فنون الأدب الشعبى الجزء الأول .

وأما « نوع » النثر فى حكاية ما ، فيعتمد ـ لا ريب ـ على الراوية . فقد استعان الأخوان جريم ، وازبورنن النرويجى ، و د . لأرمنيى بنقلة نصـــوص (*) أو حكائين ممتازين ، بيد أنه من الظلم ، أن نسقط من حسابنا ، تلك الكفاءة الأدبية النادرة التى كانت لرجال من امثال الأخوين جريم اللذين لم يجمعـا ذخائر الفلكلور المندثرة لأمتهما ، وحســب ، بل انشأ ـ بهذا الجهد ـ عملا أدبيا فذا ، يقف على قدم المساواة فى تاريخ اللغة الألمانية ، مع انجيل لوتر ، ويندر أن نجد له ضربا مساويا فى البلاد الأخـــرى .

ولو ان الأخوين جريم ، صنعا ما يطلبه الآن الفولكلوريون المتحمسون ـ فقاما بتدوين الحكايات تدوينا حرفيا ، ونشراها بدون أن يستعينا بقدرتهما الفائقة والعطوفة على اعادة الصياغة ، لتوفرت نصوص تتيح ـ هنا أو هناك ـ أن نصل الى نتائج افضل بالنسبة لتاريخ هذه الحكايات ، غير أنه من المحتمل ، فى هذه الحالة أيضا ، أن يبقى علمنا (الفلكلور) نائما فى غيبوبته لا يزال .

وحكاية الجان الأصيلة ، تستغنى عن المقدمات ، وتقود القارىء الى ه لب الموضوع مباشرة .

ولبداية هذه الحكايات هناك بعض العبارات التى يجب مراعاتها .

وتاتى النهاية بعد نتيجة منطقية وتكون قصيرة ، وموضوعة فى قالب أسلوبى محدد (٤٩) .

واما توزيع المادة فى ثناياها ، فيكون متسقا متوازنا .. ففيها جزء تمهيدى ، يكشف عن موضوعها ، ويؤدى الى اهم أجزائها ، ويشتمل ـ عادة ـ على العمل المنوط بالبطل . فاذا انتهى هذا الجزء ، بقى القليل من المادة ، يضاف قبل نهاية الحكاية ، ويكون فى العادة عبارة عن انزال العقاب بالشخص الشرير أو الأشرار ، وانصاف المعتدى عليهم والضحايا .

ونحن نستطيع أن نلاحظ ـ فى وضوح ـ مراعاة « صنعة » حكايات الجان ، لبعض قواعد العرف أو القانون . فنجد ان العدد « اثنان » أو « ثلاثة » هو السائد فيها . واما العدد « اثنان » فيرتبط بالثنائية

(*) آثرنا أن نترجم كلمة story teller بناقل نصوص أو حكاء (حكواتى) نظرا لطبيعة العمل الذى يقوم به هذا الناقل فى تزويد جامع النصوص بالمادة الفولكلورية .

الأخلاقية التى سبق لنا أن أشرنا اليها ، أو هو يرتبط بالديوسكورية — وهى من الموروثات الاعتقادية الأصيلة التى سيأتى بيانها فيما بعد — ومثال ذلك « حكاية الأخوين التوأمين » .

وأما العــــدد « ثلاثة » فلا يمتد فقط الى الشخصيات الناشطة ، بل يشمل الحادثات ايضا . فالقلعة المسحورة ينبغى أن تحرس ثلاث ليال متوالية . وطالب الزواج يجب ان يجيب على ثلاثة اسئلة أو يحل ثلاثة الغاز ، او يقوم بثلاثة اعمال . والمسـافر المستطلع يقابل ثلاثة رجال متقدمين فى السن فيزودونه بالمعلومات . وقاتل المارد يصرع ثلاثة مردة ، واحدا بعد واحــد . والأمير العائد يواجه ثلاثة أخطار ينبغى لخادمه المخلص ان يقضى عليها .

والعدد « أربعة » نادر نسبيا ، وكذلك عدد « سبعة » .

اما عدد « اربعون » — أى أربعون يوما — فشائع جد الشيوع فى الحكايات الشرقية ، الاغريقية والسامية والسلافية .

وثلاثة أعوام ، وثلاثة شهور ، وثلاثة أيام ، فترات زمنية مفضلة فى حكايات الجان ، وكذلك شأن « سنة ويوم » . وكلها نصوص قانونية قديمة ، لا شك . ولكنها ليست من القدم ، بحيث استحال على النص الثانى ان يتواتر فى القانون الانجليزى ، الى يومنا هذا .

ويرتبط بعدد ثلاثة ، التكثيف التدريجى فى الأحداث ، التى يتركز ثقلها فى الحدث الثالث كما ذكرنا فبين المردة الثلاثة ، الذين يجب أن يهزموا ، ينبغى أن يكون المارد الثالث أشدهم خطورة ، وثالث غابة بين غابات المعادن التى يخترقها البطل أو البطلة ، تكون اثمنها واغلاها ، فهى من ذهب ، على حين ان الغابتين الأخريين تكونان من نحاس ثم من فضة .

ومن بين بنات الملك الثلاث ، تكون الثالثة أشدهن حسنا وبهاء ، وثالث ابناء الملك يكون هو البطل .

ويؤدى هذا الأمر الى تفنيد زعم انتروبولوجى آخر . فقد قيل انه اذا كان لابد للبطل فى حكايات الجان من أن يكون اصغر الأبناء ، فسبب ذلك ، ينبغى أن نجده فى النظم القانونية القديمة التى كانت تقضى بتوريث أصغر الأبناء بيت العائلة — وتلك قاعدة من قواعد التوريث ، كانت موجودة فى هذه الجزر أثناء عصرها الوسيط .

غير أن هذه القضية ، باطلة من حيث المنطق ، فاذا سلمنا بوجود نظام

توريث اصغر الابناء ، فلا يصح ان يستخلص أحد من هذا ان أصغر الأبناء كان يحظى بالميراث لأنه كان أهم من غيره ولقد تدل هذه القاعدة فى الميراث على عكس ما تعلمنا حكايات الجان وهو ان أصغر الأبناء ، قد يتصف بأى صفة الا ان يكون بطلا شجاعا ، مقداما ، معتمدا على نفسه .

بيد ان النظرية جميعا ، سطحية قدر ما هى عديمة الجدوى فقد تفسر لنا حالة الابن الأصغر تلك الطرائف الأدبية الخاصة بنقل مركز الثقل الى النهاية ، والتى تلحقه بآخر عضو فى المجموعة . ولا يستطيع أحد أن يخلص من هذا الى القول بأن اصغر الأبناء كان يحظى بالميراث لأنه كان « أهم » من غيره .

ولعلنا نزعم ــ طبقا لهذا الرأى ــ انه حيثما وجد نظام توريث الابن الأكبر يكون أكبر الأبناء هو البطل ، وسائر اخوته جبناء تعساء .

وما كان لرجل نورماندى ان يقبل هذا الرأى او يعترف به ولو انه قبله ، لعلمه الواقع درسا .

ولقد اشرنا فيما سبق الى أن قاعدة توريث الابن الأصغر ، كانت تستند الى تفكير عملى خلاصته انه عند وفاة راس العائلة ، يكون أصغر الأبناء اشدهم حاجة الى بيت عائلته ، ذلك ان اخوته الكبار ، يتاح لهم من الوقت ، ما يكفى لأن يدبروا أمورهم بأنفسهم .

ومما هو جدير بالملاحظة ، ان هذه الحيلة ، لا تقتصر على حكايات الجان وحدها ، بل تحكم الفن القصصى كله .

ومما له ملمح ميلودرامى ، ذلك الجو العام الذى تظهره حكايات الجان . فاذا لم يكن العالم الذى ترسمه ، أحسن ما يستطاع من عوالم فهو ــ على الأقل ــ عالم مثالى ، يلقى فيه الأشرار جزاءهم العادل ، بينما يجد الأخيار والشجعان ، بل الحمقى والجبناء أحيانا ــ مخرجا سعيدا .

ثم ينبغى ان نأخذ فى اعتبارنا ان هناك ملمحا يدعو الى الطمأنينة ، ويبعث المواساة فى النفوس ونعنى به ، عدم وجود الموت ــ الا بالنسبة للأشرار .

ومما يلفت النظر هذا الاطناب الشديد فى الحديث عن الموت ، وهو ما تعجز صحيفة الكريستان ساينس مونيتور ذاتها عن مجاراته والتفوق

عليه . واكثر العناصر ذيوعا ، هما تغير هيئة الانسان بواسطة السحر ، أو انقلابها الى صورة الحجر ، بسبب الفزع والخوف .

ولو ضربنا مثلين ، لجلونا هذا الأمر واوضحناه .

فى حكاية « جون المخلص » المعروفة ، يستطاع اعادة الناصح الأمين الى الحياة ، بعد ان كان قد سخط وتحول الى تمثال حجرى ، وذلك بأن يغسل التمثال بدم أبناء سيده .

وتتم التضحية البشعة ، ثم ترتد الحياة الى الأطفال بمعجزة .

والفكرة الأساسية هى بالطبع ، فكرة « التعويض » . فينبغى أن تقدم حياة أو حياتان أحيانا ، بدلا من حياة أخرى .

وقد أدى هذا بدوره الى ذيوع الظن بأن الدم قادر على شفاء بعض الأمراض الخطيرة مثل الجذام ، كما أدى الى نشوء طقوس برج الثور وكان له كبير أثر فى الايمان بالكفارة فقد كان الظن أن الاثم مرض خطير . وهكذا ، فجون المسخوط تمثالا ، هو جون الميت ، وقد اعادته الى الحياة قوة الدم البشرى المنشطة .

وأما قصة كيركه فهى الصيغة الأدبية لحكاية قديمة ، كانت الساحرة فيها تسخط عشاقها . وهذه الحكاية ذاتها ، اشتقت من حكاية شرقية — من بلاد ما بين النهرين — تقص كيف ان الالهة الأم عشتارت قتلت عشاقها .

ونحن نجد هنا — كما سبق لنا أن ذكرنا — مثلا جيدا لحقيقة مفردة وهى أن لدينا حكاية جان مشتقة من اسطورة ، ولكن بينما تسلم الأسطورة بالحقيقة القاسية والصريحة عن الموت ، لا تعترف بها حكاية الجان ، بل تستعيض عنها بالايضاح والشرح .

ولقد الحت المدرسة الأنتروبولوجية ، فى طرح مسألة وجود بقايا موروثات دراسة قديمة فى حكايات الجان ، ولقد فندنا فى هذه الصفحات مزاعمها فى هذا الصدد ، المرة بعد المرة ، حتى ليحق للقارىء أن يتساءل هل يرفض المؤلف فكرة بقايا الموروثات — من حيث المبدأ .

ولعلى أتصدى لهذا السؤال الآن .

لقد حاولت فى هذا الفصل أن ابين ، بوضوح كاف فيما أرجو ، ان حكايات الجان ، انموذج من القصص الشعبى لا أكثر . فهى اذن وثيقة

أدبية ، ذلك اذا توسعنا فى مصطلح « أدبى » وبسطناه على نتاج الفكر البشرى ، ذى المنحى الفنى ، والذى تكون أداته الكلمة المنطوقة او المكتوبة .

وما دام الأمر كذلك ، فينبغى أن نتناول حكاية الجان ، بنفس الطريقة التى نعالج بها اى نص أدبى آخر ـ أى بالطريقة التاريخية وفى ضوء علم اللغة .

ويعنى ذلك أن نحدد نشوء أصلها ومكانها ، ثم نحدد ما تلا ذلك من تاريخها ، وهذا يطابق ما ذكرناه من قبل فى حديثنا عن منهج المدرسة الفنلندية .

ولا تختص حكايات الجان وحدها بوجود بقايا الموروثات ، فهذه البقايا موجودة بالمثل فى النصوص الأدبية ذات المستويات الرفيعة وقد نبهنا الدكتور جلبرت مورى فى دراسته الممتازة ، الى وجود عدد من بقايا الموروثات الدراسة فى القصائد الهومرية (٥٠) ، وقد حاولت ـ ذات المحاولة ـ فيما يتصل بالملاحم التيوتونية . غير انها ـ أى الموروثات ـ لم تدلنا على شىء فيما يخص تاريخ الملاحم التى تواترت فيها .

وفى قصة ارجوناوتا لابولونيوس روديوس ، يقضى الكينوس ـ بوصفه محكما بين الطرفين ـ بانه اذا كان اياسون قد ضاجع ميديا ، فينبغى ان يظلا معا ، كزوج وزوجة ، أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، فينبغى أن تسلم ميديا للكولشيين المطالبين بها .

ومن الحماقة أن نستنتج من هذا المثل ان ابولونيوس أو المرجع المباشر الذى أخذ عنه ، كانا يعرفان تلك القاعدة ، باعتبارها قانونا جاريا .

ولا يجوز ، دون أن نقوم بمزيد من البحث ـ أن نستنتج ان جذور هذه الحكاية ترجع الى عصر كانت فيه تلك القاعدة تطبق تطبيقا عاما .

فقد يعمد شاعر له ذوق الأثريين ، الى ان يقحم النادرة التى نحن بصددها ، ليضفى على قصته الموضوعة مذاقا أثريا قديما .

وأما مثل بتر الاصبع الذى نجده فى معركة الغربان Rabenschlacht المنظومة بالألمانية الوسطى ، ـ وهى قصيدة من القرن الثالث عشر ـ فتشير فحسب الى ان القصيدة تشتمل على مواد ترجع الى عصر كانت فيه تلك الممارسات البربرية ذكريات غامضة ، لعادات ازمان سبقتها .

ولا يختلف الأمر عن هذا ، بالنسبة لبقايا الموروثات الدارسة التى نلقاها فى حكايات الجان . اذ هى تتخذ ــ فى الغالب ــ صورة الجزئيات ، وتنتمى الى ماض كان قد انطوى ودرس ، عندما صيغت هذه الحكاية .

وسأختار بعض الأمثلة .

تعتبر حكاية الأخوين التوأمين (٥١) من الأمثلة القليلة ، التى تدور فيها الحكاية حول مجموعة من المعتقدات كانت سارية فى عصور ما قبل التاريخ .

ومن الغريب حقا ، الا تشير كتابات المدرسة الأنتروبولوجية الى حكاية التوأمين .

وفى الحكاية بطلان ، ــ وفى بعض صورها المتباينة ــ ثلاثة أبطال ، يوصفون بأنهم توأمان او ثلاثة توائم . وقد حملت بهم الأم ــ بفضل معجزة خارقة ــ وشابه احدهما الآخر ، حتى ليتعذر ان نميز بين اخ واخيه او اخوته . ثم ينفصلون ، ويشتبك احدهم فى مقاتلة تنين ــ وهو فى هذا يشبه ، التوأمين هرقل وأبوللو ، وبلترام التيوتونى .

ويصطرع التوامان ، فيقتل الأخ أخاه ، فى سورة من الغيرة .

وكل هذه الملامح مشتقة من الاعتقاد القديم القائل بأن التوائم ، يتشابهون (بينما لا يحدث ذلك كثيرا فى واقع الأمر) وانهم قمينون بأن يتقاتلوا . وان الصراع التوأمين ينتهى بموت أحدهما ، أو مصرع كليهما .

ولقد ترك الظن الخرافى فى التوائم ، طابعة على الآداب الملحمية عند سائر الأمم التى قد تفاخر بمثل هذا الأدب .

كما ان بقايا الموروثات الدارسة كانت ذائعة فى العصور الوسطى ، قدر ذيوعها فى العصور القديمة .

ثم ان حكايتنا (ونعنى حكاية الأخوين التوأمين) من أقدم ما نعرف من حكايات ، ذلك ان خرافة برزيوس الكلاسية ، واحدة من مشتقاتها الأدبية ، وذلك بالرغم من انها فقدت عنصر التوائم ، ولعلها قد نشأت اثناء ما كانت الديوسكورية قوة ناشطة فى بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وثمة بقية موروث ، ذكرناه عابرين ، وذلك هو الاعتقاد فى ان الدم ، قوة شافية منشطة كما يظن ذلك بجلاء فى حكاية جون المخلص .

كان هذا المعتقد عالميا ذات يوم ، ثم ظهر كبقايا موروث دارس فى آداب العصور الوسطى ، وقد زعموا ان الامبراطور قسطنطين ، أصيب بداء الجذام ، وانه اراد أن يداوى نفسه ، بأن يستحم فى الدماء الدافئة المسفوحة من اطفال مذبوحين .

ونجد ذات الموروث الدارس ، فى قلب قصيدة « هنرى المسكين » Der arme Heinrich المكتوبة بالألمانية الوسطى ، والمنظومة فى القرن الثانى عشر .

وهكذا ، فلا حاجة بحكاية الجان التى ذكرناها ، الى أن تعود بتاريخها الى عصور ما قبل التاريخ ، فأغلب الظن ، انها ليست كذلك .

وهناك نوع من الحكايات يصف الاضطهاد الذى يقدر للفتاة ان تعانيه ، على يد شبح مصاص للدماء — من فصيلة الغيلان المرعبة .

والاعتقاد فى الغيلان مصاصة الدماء — وهى الجثث الحية التى تترك قبورها بالليل لتتغذى بالأحياء — قد اندثر من أوروبا الغربية — عـــدا ايسلنده — منذ قرون .. الأمر الذى قد يدعونا الى أن ننسب الى هذه الحكايات انها قديمة للغاية . فاذا القينا نظرة شاملة الى نصـــوصها المختلفة ، لم نجد بد من أن نلاحظ انها قليلة العدد فى أوروبا الغربية ، وانها تزيد عددا كلما اتجهنا شرقا . بل لقد تحول الشبح مصاص الدماء فى اغلب النصوص الايطالية والألمانية ، الى لص لا اكثر .

وهكذا يجوز لنا ان نستنتج ان هذا النوع كله وافد على غرب أوروبا والقسم الأكبر من وسط أوروبا وانه هاجر الى ايطاليا والمانيا ، من بلاد البلقان وروسيا ، حيث لم يزل الاعتقاد فى الأشباح مصاصة الدماء ، ساريا ، ولم يزل الناس يخافونها .

وفى العديد من نصوص الحكايات المستحدثة عن « انسى الأرض » — الذى أشرنا اليه فيما قبل — ترد النادرة التالية .

يأتى البطل الى بلد يكابد مشقة المجاعة الناجمة من أن تنينا شرب الماء كله ، وفى النصوص العصرية ، يحرس التنين نبعا فقط) ويخلى التنين بينه وبين الماء اذا قدمت له ضحية .

وهنا نفاجىء مؤلف حكايات الجان أثناء عمـــله ، فالجزئية التى نناقشها — وهى أن يبتلع ثعبان او تنين العنصر الواهب لحياة انسان او بلد

بكامله ثم يحجب هذا العنصر نقول ان هذه الجزئية توجد وحدها فى سائر أنحاء المعمورة (٥٢) اذ نلقاها منعزلة عن القصص .

وفى بعض النصوص المستحدثة من هذه الحكايات وفى حكاية أخرى شبيهة بها ـ وتلك هى حكاية « العملاق الصغير » ـ تغذو الأم البطل بلبنها حتى يصبح رجلا مكتملا .

وهذه النادرة تصور بطريقة فجة ما هو سـار من العادات بين الفئات الدنيا من المجتمع الأوروبى وبين فقـراء البيض ، فيما كان ولايات الاتحاد السلافية . وقد أتيح لى أنا نفسى أن أعـرف امرأة فى جنوب ولاية ميسورى كانت ترضع ولدها وقد شارف الرابعة من عمره .

ونحن نرجح أن تنطوى الاسـاءة الى جثة الميت فى حكايات الميت الشكور على اشارة الى عصر كانت فيه تلك العادة حية فى الذاكرة ، أن لم تكن جارية فى استعمال الناس .

ومن أكثر أحداث حكايات الجان ذيوعا حدث البحث عن « العروس » ـ الذى يجب أن يتولاه من يتقدم للزواج منها .

وحق ان هذا الأمر الذى نناقشه قد نشأ من عادات زواج ، لم تزل سارية ، بين الأجناس المتوحشة الهمجية (٥٣) . غير انه من الخطأ ، ان نفترض ان هذه العادة جارية بينهم وحدهم ودون غيرهم ذلك أن فقرة ممتعة فى La Mare au Diable لجورج صند ، تشير الى وجود هـذه العادة فى بريشون ، أثناء القرن الماضى .

وذات الأمر ينطبق على قصة « العروس غير الحقيقية » الشهيرة ، والمشتقة من عادة زواج واسعة الانتشار لم تزل جارية فى المناطق الريفية من بلاد أوروبية كثيرة .

وبمعنى آخر ، فان وجود صلة بين حكاية جان وعادة قديمة ، لا يقدم لنا أى دليل على تاريخ الحكاية ، الا اذا استطعنا أن نقطع بأن هذه العادة كانت قد انقرضت قبل ذلك بوقت طويل .

وفى الكثير من النصوص المستحدثة لحكايات أندروميدا ، يبتر البطل لسان أو ألسنة الوحش الذى صرع ليستخدمها بعد ذلك كوسيلة لاثبات شخصيته (٥٤) . وهذه الجزئية ترجع الى عادة قديمة ، كانت تقضى باستعمال لسان الوحش المقتول ، كشارة نصر وهذا الأمر يشبه ما يحدث

الآن فى مصارعات الثيران الاسبانية ، حيث تستخدم آذان الثور المصروع ، لنفس الغرض والغاية .

ولدينا ــ بعد ذلك ــ الجزئية المركزية فى حكاية Tom Tit Tot وهى جزئية (قوة الاسم) فما ان يعرف غريم الشيطان اسمه ، حتى تذهب عنه قوته . ــ وذلك معتقد تنبنى عليه ، عند اقوام كثيرة ــ كاليهود والرومان ــ عادة اخفاء أسماء الآلهة والمعبودات ، عن الغرباء ، حتى لا يتسنى لهم أن يجذبوها بعيدا عن اقوامها ، بقوة السحر .

ولا نزاع فى أن هذه الجزئية قديمة ، لكنها ليست من القدم بحيث نجدها فى العصور التاريخية أو فى المراحل المتقدمة من الحضارة الانسانية . ولكن لماذا يقل ما نصنعه بالجزئيات المعروفة ، والتى لا تؤكد الا نظريات أصدقائنا اتباع المدرسة الأنتروبولوجية ؟ لدينا ــ على سبيل المثال ــ جزئية مفترق الطرق حيث نرى عمودا ، عليه كتابات معينة ــ تكون فى العادة ــ تحذيرا يقول « من يمضى فى هذا الطريق يلقى نهايته » .

هذه الجزئية لا تفترض فقط أن يعرف البطل ، القراءة والكتابة ، بل كانت تتردد كثيرا ــ للغرابة ــ فى بلاد لا تستطيع ــ الى وقت قريب ــ أن تفاخر بمستوياتها التعليمية العالية ، ومنها روسيا على سبيل المثال . ولكنا هنا ، نتعامل مع جزئية مهاجرة .

بيد أن ما يصح بالنسبة لقسم من الجزئيات ، ينطبق على القسم الآخر منها . وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا ، احتمال أن تكون بعض الجزئيات البربرية قد هاجرت ــ أحيانا ــ الى الشعوب ذات الحضارات الراقية فى مستواها .

ويجوز أن نزيد عدد الأمثلة المضروبة على وجود بقايا موروثات قديمة فى حكايات الجان ، دون أن نحدث فى الصورة العامة ، تغييرا جسيما .

وليس فى مقدورنا ، أن نحدد ــ بناء على معلوماتنا الراهنة ــ كمية هذه البقايا من الموروثات ، بالنسبة لجماع الجزئيات المعروفة لنا .

ولن نستطيع القيام بهذا العمل ، الا حين نضع فى متناول الباحث قائمة نهائية ، بكافة الجزئيات .

غير انه من العدل ، أن نلقى نظرة الى الجانب الآخر من الموازنة . فما هى بقايا الموروثات التى يجوز لنا أن نتوقع وجودها ــ ثم لا نجدها ــ

فى حكايات الجان ، مع افتراض انها قديمة هذا القدم الذى تتوهمه المدرسة الأنتروبولوجية ؟

ان قائمة تشمل هذه الجزئيات لتزيد كثيرا فى عددها ، على عـــدد الجزئيات التى اعتبرتها تلك المدرسة ـ بحق أو بغير حق ـ بقايا موروثات دارسة .

ويكفينا ان نذكر القليل منها .

ليس هناك من أثر لنظام الأخذ بثأر القتيل ، او دفع الدية ، وليس هناك من اثر لنظام الزواج عن طريق السبى ، الا فى مثال « جون المخلص » ، وليس هذا المثال بأقدم من « خرافة سليمان » حيث يأتى ذكر واقعة الخطف ذاتها .

ولا نجد اثرا لميثاق الدم الا فى نصوص مستحدثة قليلة من حكاية « جون المخلص » ولا نجد اثرا لنظام واد البنات الصغيرات ، او قتل الآباء المتقدمين فى السن ، أو تقديم الضحايا البشرية أو حرق جثث الموتى ، أو تحكيم الآلهة فى المنازعات .

وخلاصة القول اننا لا نجد أثرا لشىء ، يقرنه دارسو الأنتروبولوجيا الثقافية ـ بمراحل الهمجية او التوحش . فاذا تذكرنا ان هذه الأشياء ـ جميعها أو اكثرها ـ قد تركت طابعها على المعتقدات والخرافات المحلية . وعلى الأغانى الفولكلورية ، والقصص الشعرى ، انسقنا ـ بلا شك ـ الى القول بأن حكايات الجان لم تر هـــذه المراحل من التطور البشرى ، او الأفضل من هذا ان نقول ، ان هذه المراحل لم تعرف حكايات الجان ، وذلك لسبب واضح هو ان حكايات الجان نتاج فترة تاريخية تالية .

بمعنى آخر ، نحن نصل هنا الى النتيجة التى تكشفت لنا ونحن نلقى نظرة على النظم البشرية ، التى تظهرها حكايات الجان .

وخلاصة هذه النتيجة ان حكايات الجان تفترض قيام مجتمع ، ليس متحضرا فحسب ، بل قيام مجتمع متقدم فى حضارته ، وأكاد أقول انها تفترض وجود مجتمع مسرف فى رفاهيته .

ويجوز لنا ان نظن ان جزيرة كريت ، ومصر ، وبلاد ما بين النهرين كانت المواطن الأصيلة لحكايات الجان ، وليس لنا ان نفكر فى كاماتشاتكا . ومينسوتا وجزر سليمان .

واغلب الظن اذا ، أن تكون حكايات الجان احـدث انواع القصص الشعبى عمرا (*) ، واذا كانت توضع على رأس دراسات الفلكلور (وتلك عادة اخذت بها فى هذا الكتاب) فسبب ذلك عندى اننى أعتبر حكايات الجان ، من الناحية الفنية والأدبية ، أكمل ابداعات العبقرية الشعبية غير المتعلمة .

وما دام الأمر كذلك ، فمن حق القارىء ، الذى أفسح صدره لى ، أن يسأل لماذا لا تستمر حكايات الجان ، وهى الحكايات الجديدة ، فى الظهور الى يومنا هذا ؟

والجواب انها تواصل الظهـــور ، وأغلب الظن انها ستظل تظهر ، وتنشأ ، على مدى مرحلة زمنية قادمة . فحكاية هود الصغير راكب الحصان ، قد وضعها ـ بيرو ـ فيما يبدو ، لأننا لا نعرف لها نصوصا اقدم من ذلك ، كما ان غيرها من النصوص الفرنسية والأوروبية الوسطى ـ وهى قليلة فى عددها ـ تفصح عن تأثير النص الفرنسى الكلاسى الذى يتعذر ان نخطاه .

وما كان لحكاية « القطيطة تلبس حذاءها الطويل والرقبة » أن توجد فى انجلترا أو المانيا ، بغير حكاية « القط بوتيه » لبيرو . ثم أن تأثير نصوص بيرو الأصلية ، يتضح تماما فى النصوص الشفاهية المجموعة من أوروبا الوسطى فى القرن التاسع عشر .

ولكى نطرح امثلة انجليزية أقدم من ذلك ، نشير الى حكاية الطفل رولاند التى يعرفها القارىء الانجليزى خير المعرفة والتى تقول ابياتها .

« جاء الطفل رولاند الى البرج المظلم » .

هذه القصة نتاج كامل ، للعصور الوسطى الانجليزية . فموضوعها البسيط ـ كما هو الشأن فى قصة بى وولف ـ هو قصة فتاة خطفها السحرة ، وانقذها واحد من أخوتها ـ وهى ـ بلا ريب ـ قصة متفرعة من حكايات « اللحية الزرقاء » (٥٥) .

(*) يكاد كراب أن يكون واحـــدا من اقلية قليلة ترى هذا الرأى ـ فحكايات الجان ، عند كثرة دارسى الثقافة الشعبية من اقدم انواع القصص الشعبى لانها تتناول الجانب غير اليقينى من تجربة الانسان كما تتناول تصوراته الغيبية ـ (المترجم) .

هذا الموضوع البسيط ، نقل الى بريطانيا من اسكنديناوه ، حيث نجده فيها حتى اليوم .

مع هذه القصة تداخلت سيرة عائلية نثرية ايرلندية ، كما يبدو لنا ذلك من الأحداث التالية غير المعروفة فى اسكنديناوه (١) فالفتاة تختفى وهى تدور بأنحاء الكنيسة ، مثلها فى ذلك مثل الملكة التى تختفى فجاة فى أنشودة سيراورفيو السلتية (٢) والأخوة المنقذون ، يبادرون قبل قيامهم برحلة البحث ، بسؤال ساحرة عما أصاب أختهم من أحداث (ويعتمد البطل فى حكايات الجان الأصيلة على حسن طالعه) و (٣) راعيا القطعان ومربية الدجاج الذين يلقاهم البطل فى العالم السفلى ، يجدون أمثالهم فى الجزئية السيلتية المثلى ــ الخاصة براعى القطعان الذى يقابله البطل عند وصوله الى أرض الجان .

والى حكاية الجان الهجينة هذه ، اضيفت اسماء الساحر مرلين والبطل الملحمى الفرنسى رولاند ، الذى صار هنا ، كما صار حيثما كان ، من العصور الوسطى ، ماردا ، أو غولا مرعبا .

ومن العسير أن نجد مثلا اكثر انتماء الى الروح البريطانية من هذه الحكاية التى أضافت اليها سائر شعوب هذه الجزر ، ما اتيح لها من اضـــافة .

ولقد انشات مسرحية هملت لشكسبير ، حكاية جان مكتملة ، جمعت صورها المختلفة من جاسكونيا أثناء الامبراطورية الثانية .

ومن الثابت أن تمثيل الترجمة التى قام بها ديماس لهذه المسرحية قد أذاعت موضوعها بين سكان تلك المنطقة .

وكذلك ، أدى تمثيل مسرحية الملك لير فى فرنسا وايطاليا ، الى تعديل النصوص المحلية لحكاية Cap o'rushes فى مناطق جسكونيا وكورسيكا . وحين كنت تلميذا صغيرا فى أوروبا الوسطى سمعت حكاية تشبه تاريخ حيـاة جان دارك ، وقد حــذفت منها الأســماء الأصلية ، وبدت البطلة فى صورة ساحرة بيضاء ، تستخدم السحر لتحقيق اغراض خيرة .

وسبق لنا أن أوردنا مثـــل « الموت اشبين » . كما أن العديد من حكايات الجان لويلهلم هوف ، قد صارت شعبية رائجة فى المانيا ، واذا لم يكن ذلك هو ما أصاب الحكايات المثقفة التى وضعها المؤلفون الآخرون ،

كهانز كريستيان أندرسون ، فسبب ذلك انهم أسرفوا على أنفسهم فى الأخذ بالمنحى العاطفى والوعظى ، بحيث استعصى على الناس العاديين ان يقبلوا حكاياتهم أو يهضموها . وهناك سؤال آخر ، هام بالمثل ، وهو أن نقرر ما اذا كان سائر أنواع حكايات الجان المعلومة لنا ، تمثل جماع ما ظهر من حكايات الجان على الاطلاق ــ فى كوكبنا الأرضى على الأقل .

والجواب . اننا لا ندرى ، ولن ندرى أبدا فكثير من الحضارات اندثر بدون أن يترك أثرا ــ ونعنى بذلك انها لم تترك آثارا ادبية . ولعلنا نسلم بأن كل ما كان جاريا من حكايات الجان فى مصر القديمة ومنها الحكايات التى نشرها ماسبيرو لم تكن مدونة وليس بوسعنا أن نفترض ان كل الحكايات المصرية هاجرت الى بلاد اخرى .

واخيرا ، فلسنا نعرف من حضارات المايا والانكا نواحيها الأدبية ، ولا نقول شيئا عن فولكلورها .

ولا نزاع فى أن الحكايات ، جـــديرة بأن تندثر وتتلاشى فى بلد من البلاد ، وقد تشتمل المواد المخطوطة التى دونها سنفد جرونتفيح على حكايات لم تسجل فى أوروبا الوسطى والغربية .

ونحن نعـــرف الآن ان الدانيمرك لم تنشىء الا القليل من حكايات الجان ، وانها قامت بدور الوسيط بين المانيا واسكنديناوه واذن ، فلابد لنا من ان نستنتج ان الجانب الأوفى من هـــذه الحكايات ــ ان لم يكن سائرها ــ كان معروفا ــ ذات يوم ــ فى أوروبا الوسطى ، ثم اندثر قبل ان تبدأ عمليات الجمع المنهجية فى القرن التاسع عشر . وتنطبق الملاحظة ذاتها على مصادر الحكايات المجموعة فى ولايات البلطيق وروسيا ، والتى تجهلها بقية انحاء أوروبا ، تمام الجهل .

وينبغى أن نضيف شيئا عما هو معروف عن انتشار حكايات الجان .

ونستطيع أن نميز ــ على نحو عام ــ بين طريقين للانتشار وهما الانتشار عن طريق البر والانتشار عن طريق البحر . فاذا نشأت حكاية ما ، فى مكان معين من المعمورة ــ كما يجوز أن نزعم ذلك لأنفسنا ــ فالأرجح انها انتشرت فى شكل دوائر ، كتلك التى نراها عندما نلقى حجرا فى الماء . ولا تؤلف الحدود اللغوية ، حواجز مانعة تحول دون ذلك ، بل هى لا تحول دون انتشار الأشعار الموجودة فى حكايات الجان ، كما سبق أن قلنا .

وانه لاستنتاج طبيعى ، أن يزيد عدد التغييرات والتحريفات اضطرادا مع مساحة المسافة التى تقطعها هذه الحكايات فى هجراتها خاصة وان التواتر الشفاهى ينحو بالحكايات نحو التعديل والملاءمة . وتسند الحقائق هذه الملاحظة بعامة . فقصص الأشباح مصاصة الدماء الخاصة بالشرق الأوروبى ، تزيد فى طابعها المحايد كلما هاجرت الى الغرب ، ويزيد تحويرها كذلك ، الى أن يحل لص جسور محل الشبح مصاص الدماء . ولقد يحدث ـ فى بعض الأحيان ـ أن ننسج على غرار الحكاية المهاجرة ، حكايات أخرى فى بلد ، لا يشبه فى ظروف حياته ، ذلك البلد الذى نشأت فيه الحكاية المهاجرة أول ما نشأت حتى لقد تزاحم النصوص المستحدثة ، النص القديم ، وتزيحه عن مكانه .

وقد يحدث أن تندثر الحكاية الأصيلة من سائر الأنحاء عدا حدود المنطقة التى تغطيها تلك الحكاية ، وسبب ذلك ان النصوص المستحدثة لا تكون قد ترامت بعد الى منطقة الحدود هذه .

وهذه حال قصة « الموت اشبين » التى يحتفظ بنصها الأصلى فى البلاد الواقعة على اطراف القارة الأوروبية مثل ايسلنده والبرتغال وايطاليا على حين ان النصوص المستحدثة منها ، تنتشر وتسود فى وسط أوروبا وتنتشر جزئيا فى اوروبا الشرقية ، كما رأينا ذلك فى القرن السابع عشر .

أما حين تتخذ الهجرة طريق البحر فان النص المستحدث ـ أو الصيغة المستحدثة ـ المنتقل من بلد بعيد ، قد يشبه النص الأصلى ، اكثر مما يشبه اى نص مستحدث ـ او قل اكثر ما تشبهه سائر النصوص المستحدثة ـ الناجمة عن الانتشار بطريق البر .

وعلى هذا النحو اذيعت حكاية كيركة المأخوذة من الأوروبية ـ مباشرة من بلاد الاغريق الى الهند ، بحيث صار النص المستحدث السيلانى ، من هذه القصة ، أشد قربا الى النصوص الهومرية ، من كافة النصوص المستحدثة الأخرى المعلومة لنا ، سواء منها ما كان مدونا مكتوبا ، أو ما كان متواترا بالرواية الشفاهية .

اضف الى ذلك ان هناك قصة هندية عن امير اسير (أو عن اميرة أسيرة فى مجموعة أخرى من النصوص) ينيمه مارد ثم يوقظه ، وتحرره امراة او يحرر الأميرة رجل .

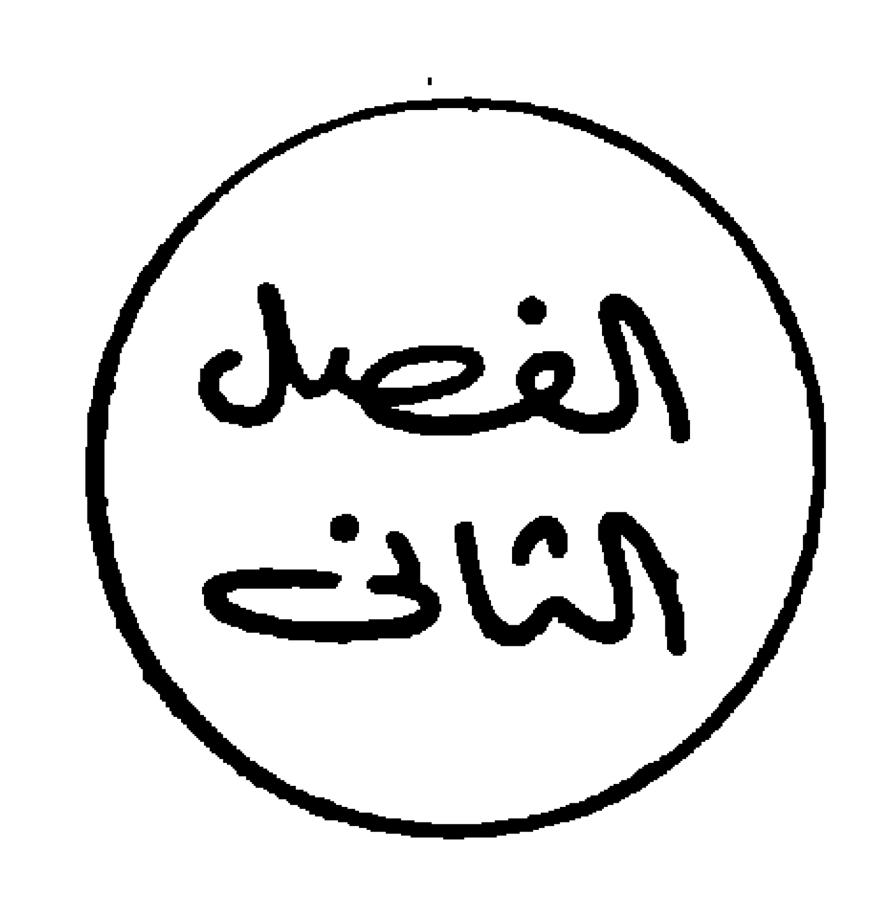
هذه الحكاية ذائعة فى الهند ، وبلاد البلقان ، وشمال افريقيا وايسلنده ، بيد أن النصوص الايسلندية المستحدثة . أشد قربا الى الحكاية الهندية ــ من النصوص الأخرى . وسبب ذلك ان الحكاية نقلت الى ايسلندة ، عن الهند مباشرة ، أثناء الاحتكار التجارى الدانيمركى ، الذى عاصر نشاط الارساليات والبعثات الدانيمركية فى الهند . وليس مستبعدا أن تهاجر الحكاية مرتين ، فى نفس الاتجاه ، وان كانت تهاجر حينذاك فى صيغتين مختلفتين . وهكذا فجزئية « الفتاة المسمومة » ذات الأصل الهندى ، هاجرت الى كريت ، ولحقت برجل هو الملك مينوس الخرافى وعرفتها أوروبا فى عصر النهضة والاستكشافات البرتغالية ، ثم أدخلها صمويل بطلر فى « هوديبراس » غير ان الجزئية فى شكلها العادى ــ أى المنسوبة الى فتاة ــ دخلت أوروبا فيما بين هذين التاريخين ، ودخلتها فى اتصال بالخرافات الدائرة حول الاسكندر وارسطو .

اما حكاية « النساج الذى يبدو فى هيئة الاله فيشنو » الهندية ، فوصلت الى اوروبا ــ لأول مرة بعد حملة الاسكندر على الهند ، وكان الذى اعاد صياغها ، وغير من شكلها ــ هو الجغرافى السكندرى مناسياس .

وفى اوائل العصور الوسطى ، هاجرت هذه الحكاية غربا للمرة الثانية ، وكانت فى صيغة أدبية ، وكجزء من الف ليلة وليلة ثم صارت الصيغ الهندية ذاتها معروفة لنا ، بفضل ترجمة الكتب الخمسة ، وبعض النصوص الادبية الهندية الأخرى . ومن العسير ان نجد امثلة خيرا من هذا المثل ، ترينا كم كان منهج بيديه متهافتا حين طبق على انتشار قصص الجان وذيوعها .

لقد حقق هذا المنهج غرضا نافعا بالمقارنة الى منهج بنفى الغامض ومنهج اتباعه اللاحقين ، لكن طريقة بيديه (*) ، اضرت أكثر مما نفعت ، فيما يتصل بدراسة موضوع انتشار الحكايات بعامة .

(*) انظر بديه ونيفى فى فهرس المصطلحات والاعلام (المترجم) .



الحكاية المرحة

- **الحكاية المرحة :**

تعريفها وخصائصها . قلة جزئياتها الأولية . واقعيتها . فحشها . استغلال رجال الكنيسة لها . الفابليو البيكاردية . الفرق بينها وبين حكاية الجان . الهزء والسخرية . الغاية الأخلاقية . حياد جنسها الأدبى .

● الحكاية المرحة

على خلاف حكاية الجان ، لم تكن الحكاية المرحة فى مقدمة بدائع العبقرية الشعبية التى جذبت انتباه العلماء المعاصرين للحركة الرومانسية .

ولم يكن سبب ذلك بالتأكيد ـ ان المواد كانت مفتقدة . بل ـ على نقيض ذلك ـ كان علماء الأثريات الفرنسيون من أمثال لجراند دوسى Legrand D'Aussy قد استخرجوا من بطون المخطوطات التى ضمتها مكتبات العصور الوسطى تلك الحكايات المرحة المنظومة شعرا والمعروفة بالاسم البيكاردى وهو « الفابليو » (*) (٥٦) .

وكان ذلك قبل نهاية القرن الثامن عشر بسنين معدودات .

ومن الواضح ـ اذن ـ ان شعورا بالاستعلاء هو الذى جعل الرومانسيين يعتبرون هذا « الجنس » الأدبى جنسا هابطا .

وحقا لم يحجم الأخوان جريم ـ وهما اللذان عرفا بالميل الى الشمول ـ عن أن يضما الى مجموعة حكاياتهم ، نماذج قليلة من هذا النوع بعضها مأخوذ من كتب النوادر المضحكة ومجموعات الحكايات المرحة ، التى تمت فى القرن السادس عشر ، غير ان تعليقات الأخوين جريم على هذه النماذج ، لم تكن شافية . وأما « بنفى » فلم يميز ـ من حيث الجوهر ـ بين حكاية الجان والحكاية المرحة ، ذلك ان نظريته الهندية ، تنطبق عليهما جميعا .

ومن ناحية اخرى ، وضع « بديبه » الحكاية المرحة نصب عينيه على نحو خاص حين هاجم النظرية الهندية .

(*) نادرة او احدوثة منظومة ساخرة أو أغنية ساخرة ، ذاعت فى اوروبا فى عهدها الوسيط ونشأت فى فرنسا حوالى القرن الثانى عشر ، ومنها انتشرت الى بلاد اخرى ، وكانت سخرياتها تتناول ما فى سلوك الأزواج ورجال الدين من مادة تدعو الى التشهير ـ المترجم .

والحق أن ما يقوله « بنفى » فى كتابه عن حكاية الحان والخرافات ، ينبغى أن نعتبره لونا من « المشهيات » الطريفة وكذلك ، فعلماء الفلكلور الفنلديون لم يتورعوا عن اخضاع الحكايات المرحـــة للمنهج الجغرافى التاريخى الذى طبقوه على حكايات الجان (٥٧) .

ونحن نعنى بالحـــكاية المرحة ، تلك الأحدوثة القصيرة ، المنثورة أو المنظومة التى تحكى نادرة أو سلسلة من النوادر ، وتنتهى الى موقف فكه مرح .

وأما موضوعها فيؤخذ من الحيـــاة اليومية ، وتندر فيها عناصر الخوارق ، وحين تظهر هذه العناصر تكون وظيفتها أن تخلق القاعدة التى يقوم عليها الموقف المرح لا أن تخلق الموقف نفسه .

وينبنى على قصر هذا النوع أن يقل عدد الجزئيات التى تؤلفه ، حتى ليغلب عليها أن تتألف من جزئية واحدة لاغير .

ثم ان أنواع الحكايات المرحة ، محدودة شأنها فى ذلك ـ شأن حكايات الجـــان .

وينعدم « الحدث » انعداما تاما فى بعض الحكايات المرحة ومثال ذلك حكايات اليوم السادس فى كتاب بوكاشيو العظيم ، حيث ينشأ المرح من الادلاء ، باجابة لاذعة .

وهكذا ، تختلط الحكاية المرحة اشد الاختلاط ، بالنادرة والفكاهة .

ثم ان قلة جزئياتها ، تؤدى بنا الى نتيجة أخرى هامة ..

سبق أن رأينا ان نشوء حكاية الجان من مصادر مختلفة متعددة ، نظرية خاطئة فلسنا نتصور حكاية شديدة التعقيد ، كثيرة العناصر الأولية والفقرات ، مرتبة ترتيبا دقيقا ، وقد نشأت من مصادر يستقل بعضها عن بعضها الآخر ، وفى أكثر من مكان واحد ، بل فى أكثر من عقل فرد .

غير أن الأمر يختلف عن هذا ، فيما يتصل بالعناصر الأولية او الجزئيات المتكررة ، فليس ثمة ما يمنع من أن تنشأ هذه العناصر الأولية ـ وهى على ما عليه من السذاجة ـ فى أماكن متعددة وعصور مختلفة .

والحق انه كلما امعن عنصر اولى فى السذاجة ، رجحنا انه ناشىء من معتقد عالمى شعبى ، أو انه ينبثق من ظن ، منتشر فى انحاء العالم ، أو انه

يقوم على عادة ذائعة فى سائر العالم ، أو انه يعبر عن نظم اجتماعية عالمية ، او لعل هذا العنصر نشأ فى اكثر من مرحلة زمنية واحدة ونشأ فى أماكن متفرقة ، لم تربط الروابط التاريخية بينها أو لا تقوم بينها الآن مثل هذه الروابط .

ومثال هذا العنصر الأولى ـ او الجزئية الأولية ـ عنصر « النغم السحرى » الذى نلقاه فى اسطورة أورفيوس الشرقية القديمة ، ونلقاه ـ كذلك ـ فى الشعر الحديث . أو فى حكايات الجان التى تنتمى الى انواع شديدة الاختلاف وذائعة فى انحاء الأرض .

وأساس هذا العنصر الأولى ، ما نعرفه فى حياتنا الواقعية ، من تأثير الموسيقى على العقل البشرى . وهو نفسه ما تحسه الجماعات البشرية المتوحشة وما يلمسه جمهور موسيقى « فاجنر » سواء بسواء .

وهكذا ، لا يسوغ لنا أن نرتب اية نتيجة على وجود « عنصر أولى » معين فى جنوب كاليفورنيا ثم وجوده فى جزر « سوندا » .

وما دمنا قد رأينا فيما سبق أن الكثير من الحكايات المرحة يتألف من عناصر اولية قليلة ، بل من عنصر واحد أحيانا ، فلا يجوز لنا أن نطرح جانبا ، الرأى القائل بنشوء هذه الحكايات من مصادر متباينة .

ولعل ضرب الأمثلة يرشدنا فى هذا الصدد . فالحكاية الثامنة من حكايات اليوم الثامن فى كتاب « ديكامرون » لبوكاشيو ، تروى حادثة خداع ، بهذا الأسلوب الفاحش الذى امتاز به أعظم من صنف الحكايات المرحة على الاطلاق .

تقول الحكاية ان سيدة كانت تعشق أحد الفرسان ، وكان لهذا الفارس تابع .

وذات يوم ، يشاء الفارس أن يزور صاحبته ، فيرسل اليها التابع قبــــله .

وتستميل السيدة هذا التابع ، وتغريه بنفسها ، فاذا جاء الفارس ، استخدمت ذكاءها ، فى اخفاء التابع ، فأنكرت انها رأته . واذا هى مع الفارس لا تزال ، يأتى زوجها ، فلا يرتج عليها ، بل تستخدم حضـــور بديهة فائقة ، فتأمر الفارس أن يندفع الى الخارج ، شاهرا سيفه ، وهو يلعن ويسب . وينذر بأنها ستتحمل مسئولية ما يحدث .

واذ يسألها زوجها المأخوذ ، عن سبب هذا الذى يراه ، تجعل التابع يخرج من مخبأه ، وتقول لزوجها الساذج ، انها أجارت هذا الخادم ، حين رات سيده يطارده .

ولا نزاع فى أن فكرة الموضوع بسيطة ، ولعلها نشأت المرة بعد المرة فى أماكن متفرقة ، وحضارات مختلفة بشرط أن تكون مجتمعاتها قد ترفهت شيئا ، فأنشأت لنفسها رأيا خاصا ، عن « حدة ذكاء المرأة » فى مثل هذ المواقف .

وحيثما نعرف ان الروابط التاريخية كانت قائمة ، أو حيثما تكون هذه الروابط قائمة بالفعل — كما هى الحال بين فرنسا وايطاليا أو بين أوروبا والشرق الادنى . نرجح انتشار مثل تلك الحكايات عن طريق الهجرة .

غير انه من الأمور العسيرة ، بل المستحيلة ، ان نتقصى تاريخ هذه الحكاية ، على ضوء الافتراض السابق .

ولقد تكثر بين ايدينا النصوص التاريخية والشفاهية لهذه الحكاية ، غير أن كثرتها تلك ، لا تساوى كثرة نصوص حكايات الجان .

ثم أن الحكايات المرحة ، تتألف — كما قلنا — من عناصر أولية قليلة ، يطرأ عليها التحوير والتحريف ، اذ يتناقلها الرواة واحدا بعد واحد ، فيتعذر علينا أن نستنبط منها نتيجة حاسمة .

وخذ مثلا تلك الحكاية التى ذكرناها تجد أن الفارس فى حكاية بوكاشيو قد أصبح ضابطا فى الحكاية المرحة الحديثة ، وان التابع قد اصبح جنديا للمراسلة . فاذا جاءت هذه الحكاية على لسان بحار ، صار الفارس ضابطا بحريا ، والتابع بحارا يخدم الضابط .

وقد يصبح الفارس والتابع فى الحكايات الحديثة ، رجلا وابنه ، أو عما وابن أخيه .

وهذه التحريفات ، تحول بيننا وبين أن نتقصى الطريق الذى سلكته هذه الحكاية أثناء انتشارها ، ونخشى أن تصدق شكوك « بيديه » فى جملتها (٥٨) .

ولقد ينبغى لنا أن نضيف الى ما سبق مشكلة اخرى ، ذلك انه حيثما تعبر الحكايات المرحة عن حياة الانسان الدارجة ، وتفترض وجود صلات اساسية ، كصلات الرحم ، والقرابة عن طريق النسب ، أو تلك الصلات

التى تكون بين السيد والخادم ، وبين القسيس ورعيته . فان نطاقها لا يتحدد تحديدا واضحا ، بل ان الجماعات شبه المتحضرة ، التى قد لا تفهم حكايات الجان المعقدة ، تستمتع اشـــد الاستمتاع بالحكايات المرحة ، لأنها ساذجة فى بساطتها ، وقريبة اليهم فى واقعيتها .

واذا ، فالحكايات المرحة لا تلحق بمجتمع انسانى محدد المعالم ، بل هى تطفو على رسلها ، من بلد الى بلد .

ولنا ان نقول كذلك ، ان الحكايات المرحة ليست محددة التاريخ ، ذلك انها نشأت اول ما انشأ الانسان نظاما اجتماعيا ، أيا كان هذا النظام .

وتؤكد الوثائق التاريخية صحة هذا الرأى ، فبينما تكثر النصوص الشفاهية لحكايات الجان ، وتزيد على نصوصها المكتوبة ، يحدث عكس هذا ، فى مجال الحكايات المرحة فتجد أن نصوصها المكتوبة أكثر عددا من نصوصها الشفاهية .

وبينما لم يخطر على بال أحد قبل ستراباررولا strapanola أن يجمع حكايات الجان ، كانت مجموعات عديدة من الحكايات المرحة قد وجدت طريقها منذ فجر الحضارة القديمة ، فالأمر الواضح ـ اذا ـ هو ان الحكايات المرحة كانت ـ بطبيعتها ـ اشد اغراء من حكايات الجان .

وهذا العدد الوافر نسبيا من نصوصها المكتوبة ، ومن مجموعاتها يتيح لنا ، ما لا تتيحه حكايات الجان ، وهو أن نستنبط النتائج بالاستدلال السلبى .

وما نعنيه هو أنه اذا كانت لدينا خمس أو ست مجمـوعات ، من العصور الوســـطى ، ولم تكن متواترة بعضها عن بعض ، وقصت كل مجموعة خمسمائة حكاية مرحة ، واذا لم نجد نوعا أو أكثر من هـــذه الحكايات فيها ، فالنتيجة السائغة اذا هى أن هذا النوع الذى نتحدث عنه ، لم يكن معروفا فى العصور الوسطى ، ويقع عبء اثبات وجودها ، على عاتق أولئك الذين يتكلفون الرأى المعارض .

ولقد ادى اختفاء الخوارق من هذه الحكايات المرحة ، وادت واقعيتها الصريحة الى ان تنجو من حبائل المدرسة الأسطورية ، وكانت نجاتها تلك ، شيئا طيبا لا نزاع .

غير أن الحكايات المرحة لم تخل تماما من الشخصيات ذات القداسة ، بل كان هومر نفسه يعرف بعض تلك الحكايات التى نسبها الى آلهـــة

الأوليمب دون أن يتحرج أو يراعى قداستها . وكان بعض هذه الحكايات بذيئا فاضحا ، شأن أى من حكايات « الفابليو » فى القرن الثالث عشر . ومثال ذلك حكاية آرس وافروديتى اللذين ضبطا فى «خلوة» هثياتسيوس . واما ان البطلين صارا بعد ذلك من الشخصيات المقدسة ، فلا يضفى على هذه الحكاية اى قدر من الوقار الأخلاقى . بل هى ـ فى الحق ـ أبعد ما تكون عن الأخلاقيات .

ومما يدعو الى حيرتنا ان نسأل لماذا كان القدماء ينظرون شزرا الى ما نسميه بالحكايات الملزية ، التى لم تكن أسوأ من النادرة السابقة . ونحن نرجح أن يكون هذا التعالى أو الاعراض ، قاصرا على بعض قدماء المؤلفين من المتزمتين مثل سنيكا وشيشرون ، وهم الذين شاءت الأقدار أن تعيش آراؤهم فى هذه الأمور وغيرها .

والثابت أن الحكايات الملزية بشكلها الأول القديم ، ضاعت واندثرت ، لكنها عاودت الظهور فى نوادر العصور الوسطى وفى كتابات بوكاشيو والف ليلة وليلة .

ونرجح كذلك أن يكون بعض المؤلفين لذلك العصر ، ممن وصلتنا كتاباتهم ، أعادوا نشر الحكايات القديمة ، ومنهم بلاوتوس وبترونيوس واربانيز ، وابوليوس ، ومكروبيوس .

ثم ان حكايات أخرى ، ذكرها مختلف المؤلفين القدماء ، قريبة من هذه الحكايات الملزية فى روحها وان لم تنتسب اليها وتحسب تماما عليها . ومثال ذلك حكاية هيرودوت عن ملك مصرى ، استعصى شفاؤه من العمى ، الا بأن يستطب ببول زوجته المخلصة أشد الاخلاص . غير أن الملك لا يجد سبيلا الى هذا الدواء الشاق .

وهناك تلك الحكاية المعروفة الدائرة حول شيخ منسر كان يتعامل مع الرمامسة ،وقد تفرق الرأى فيها ، فذهب فريق الى انها مصرية وذهب فريق آخر الى أنها ليست كذلك . خاصة من حيث موطنها الأصلى .

ومع هذا ، فما دام قد توفر لنا كل هذا العدد الكبير من نصوص الحكايات المرحة ـ المدونة والشفاهية ـ فقد ينبغى لنا أن نصل فيها الى رأى واضح محدد .

ولدينا ـ بعد ذلك تلك الحكاية التى تشكل النادرة الأساسية فى « الجندى المجيد » Miles gloriosus لبلاوتوس والتى تدور حول زوجة

تستخدم فتحة فى حائط البيت ، لتخدع زوجها الساذج فيظن اذا لاحت له فى بيت غريمه انها ليست هى ، بل بديلتها .

ويجرى الأمر هكذا ، الى أن ينقذها عاشقها .

وكانت تلك الحكاية ذائعة فى العصور الوسطى ، وكانت جزءا من احدوثات « حكماء روما السبعة » (٥٩) .

وكذلك فلدينا احدوثة « سيدة افسوس » أو راعية افسوس التى أوردها بيترينوس اربينز (٦٠) .

وتنتمى الى هذا النوع ، تلك الحكاية التى ذكرها ايسوب وفلوفيوس جوزيفوس عن « لبر » الذى يفضل ان يعذبه الذباب الذى يمتص دمه على ان يهش عنه هذا الذباب ، فيحل محله ذباب آخر متعطش الى دمائه .

ولعل هذه الحكاية ان تشير الى حكام روما القدماء ، ولعلها جديرة أيضا بأن تشير الى زعماء الحزبين الأمريكيين السياسيين .

وينبغى أن نذكر كذلك قصة الابن الذى يشارف الموت ، ويكتب الى امه قائلا انه سينجو من مرضه ، اذا لبس قميص رجل لم يعرف الحزن ، أو اذا حمل الى بيت لم يندب فيه على ميت .

ويبدو ان هذه القصة ، ظهرت اول ما ظهرت فى أدب رسائل الاسكندر الأكبر الى امه أوليمبياس (٦١) .

ونحن نستطيع أن نتوسع فى هذه القائمة ، ونزيدها طولا ، ذلك ان القدماء كانوا مشغوفين بهذا النوع من الحكايات المرحة كما أن بعض رواة الأخبار والقصص عندهم ـ مثل هيرودوت ـ يظل مبرزا لا يدانى فى هذا الفن حتى اليوم .

وقصدا منى الى أن أثير مرة أخرى ، صعوبة مشكلة انتشار النصوص أو ذيوعها على مدى واسع ، سأذكر ـ آخر ما أذكر ـ هذه القصة المعروفة عن شاب يغرر بامرأة متدينة ، فيخدعها ويوهمها بأنه اله (٦٢) ، وذلك لينال بغيته منها .

هذه الحكاية معروفة فى الهند ، كما كانت موجودة فى بلاد البحر الأبيض المتوسط القديمة ، ولعل أشهر نصوصها هو هذا النص الذى وضعه فلافيوس جوزيفوس وتاسيت أثناء حكم الامبراطور تيبريوس .

وحين نعالج هذه الحكاية ، يجدر بنا أن نذكر ، انها تقوم على أساس الاعتقاد الذائع اشد الذيوع ، والقائل انه من الممكن أن يباشر كائن الهى العلاقة الجنسية مع انسى ، وانها تقوم كذلك على اساس شعائر الزواج المقدس .

وما دام هذا الاعتقاد قائما ، فمن المستطاع ، أن ينشأ عنه هذا النوع من الحكايات المرحة . بل من المحتمل كذلك ، أن يستغل الأدعياء هذا الظن الذائع ، على النحو الذى أشرنا اليه .

وليس فى حكاية موندوس وباولينا ، ما يدعو الى استبعاده ، فى ذاته .

واذا فنظرية نشوء الحكايات من مصادر متنوعة ، لا تنطبق فحسب على هذا النوع من الحكايات المرحة ، بل هى أشد النظريات انطباقا ، واذا فهى أدعاها الى القبول .

ومع تهافت الأدب القصصى فى الغرب بعـــد سقوط الامبراطورية الرومانية وجد هذا النوع من القصص ملجأ فى التقاويم التاريخية وسير القديسين ، ومن ذلك ان مجموعة القصص الضافية المنسوبة الى جريجورى التورى ، والمسماة « من الاعترافات المجيدة » تشتمل على أقدم نص لحكاية القرد الذى يرمى الى ظهر سفينة تلك الثروة الطائلة التى جمعها خمار بطرق غير مشروعة (٦٢) .

واذ تتسع رقعة الأدب ـ الذى صار أول أمره لاتينيا فى غالبه ان لم يكن لاتينيا كله ـ تكاثر عدد الحكايات المرحة والنوادر فقد أدخل جون السلسبورى ، عددا وافرا من هذه الحكايات فى مؤلفه المعروف باسـم Policraticus ومن بين حكاياته قصة « سيدة افسوس » . أو « راعية افسوس » .

واذا كانت الحكاية التى نتحدث عنها ، قد عرفت فى التاريخ القديم ـ كما هى الحال بالنسبة للقصة التى أشرنا اليها ـ فلسنا نستطيع أن نتقصى تاريخها أو نتبين كيف تسلسلت الينا .

بيد اننا نعرف أن مجموعات لاتينية ، كتبها نساخ أثناء العصـــور الوسطى ، ـ كانت موجودة بلا نزاع ، لكنها اندثرت واصبحت مفقودة الآن ، أو لعل بعضها ما برح مطمورا فى دور الكتب الأوروبية .

ونحن نرى أن هذه المجموعات القصصية اللاتينية ، كانت هى الواسطة

بين الآداب والكتابات الكلاسية ، وبين الذين جمعوا الحكايات والنوادر فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

ومعظم الذين صنفوا مجموعات الحكايات والنوادر عاشوا فى العصور الوسطى ـ ومنهم ماكروبيوس ـ فلا نستغرب اذا ، أن تذيع الحكايات التى يشتمل عليها كتابه « ساتورناليا » فى العصور الوسطى .

ولدينا مؤلف اغريقى ، ترجمت كتاباته مرتين الى اللغة اللاتينية ، وحظى برواج شديد ، عند الكتاب الكنسيين على نحو خاص ـ وهـذا المؤلف هو جوزيفوس .

واخيرا ، فلدينا الحواشى على المتون الكلاسية القديمة ، خاصة فرجيل وستاتيوس .

وكانت هذه الحواشى ، تضم بعضا من الأساطير القديمة ، التى كانت مشهورة ، لكثرة ما أشارت اليها الكتابات اللاتينية الكلاسية ولكنها لم تكن معلومة بكاملها للغرب . وينبغى أن ننوه هنا ، بالتعليقات الفرجيلية على سيرفيوس .

وشهدت فترة الحروب الصليبية ازدهار نوع آخـر من مجموعات القصص الضافية الموسومة باسم أدب الأمثولات . ذلك ان الكنيسة كانت تواجه مهمة شاقة فى أن تشرح للفلاحين الأميين ، وللطبقة الوسطى الناشئة والأمية بالمثل ـ الحقائق الجوهرية فى المبادىء الأخلاقية والعقيدة المنزلة فاصطنعت الكنيسة أسلوب الرمز والتورية ، الذى وجد له سندا ، فى الانجيل .

وكانت الحكايات المرحة ، مناسبة لهذا الغرض ، وذلك لأنها قصيرة ومركزة . وأما موضوعاتها الخادشة للحياء ، فلم تكن مشكلة ، ذلك أن العناصر الأخلاقية التى أضيفت اليها ، والتفسير الرمزى الذى اضفى عليها ـ كانا جديرين بأن يزيلا عنها ، ما قد يعلق بموضوعها من أثر سيىء .

ويجوز لنا أن نظن ان رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ـ وهم الذين كانوا اشـد سذاجة وأقل ادعاء من رجال الكنيسة المحدثين ـ كانوا يستمتعون بهذه الحكايات ، بل كانوا يستطيبون النوادر ، باكثر مما كانوا يستطيبون عناصر الوعظ الأخلاقى المضافة اليها .

ولقد أدرك نفر من رجال الفكر ـ ومنهم دانتى على سبيل المثال ـ الخطر الكامن فى هذا الأسلوب من الوعظ ، فرفعوا أصواتهم محتجين ،

واعترضوا على استخدام النوادر أداة للارشاد ، ولكن اعتراضاتهم ذهبت سدى . ولبثت الامثولات تنمو وتذيع ، فى بلاد أوروبا جميعا ، منذ القرن الثانى عشر .

وكانت تلك الحكايات توضع وفقا للفضائل التى يراد استنتاجها منها .

ولم يكن هذا التبويب ، يكلف رجال الكنيسة ادنى جهد .

ثم أن الحركة البروتستانتية وحركة الاصلاح الدينى ، لم تقضيا على هذا التيار ، فغاية أمرهما ، أنهما خلصاه من المعانى السيئة .

وفى وقتنا الحاضر ، لا تقابل هذه القصص ، بالاحتقار أو الاعتراض من جانب الفرق الافانجيلية المختلفة ، الموجودة فى العالم الجديد بل يستطيع الكثيرون من رجال الكنيسة الافانجيلية فى قرننا العشرين ، ان يقصوا علينا نوادر من هذا النوع ، فيلقونها بهذا الاشتهاء ، والحماس ، اللذين كانا من سمات الوعاظ الدومنكيين والفرنسسكيين فى العصور الوسطى .

ولعل أهم مجموعات الامثولات هى قصص جاك دى فترى(٦٤) ونيكول بوزون والمسالك الرومانية فى مختلف طبعاتها وكتب الأمثولات الاسبانية (٦٥) .

والدراسة الحقة لهذه الأعمال ، لا تدخل فى ميدان « الفولكلور » بل تتصل بالتاريخ الأدبى فى عصره الوسيط ، وهو الذى لم يوضع بعد .

ويكفى أن نقول ان بعض الحكايات المذكورة فى هذه الكتب ، كان مجهولا فى أوروبا أثناء تاريخها القديم (٦٦) ، ومطلع تاريخها الوسيط ، على حين كانت تلك الحكايات نفسها معلومة لأهل الشرق ، منذ فترة طويلة سابقة . والأمر الثابت تاريخيا ، هو ان للتأثيرات الشرقية اثرها فى ادب الأمثولات ، وجاك فترى نفسه ، قضى سنوات عديدة من حياته ، فى الأراضى المقدسة .

ويعطينا الفصل الثامن عشر من « النوادر الرومانية » (طبعة أويسترلى) مثالا واضحا لما نقول .

يرشو تاجر ثرى ، امراة عجوز ، لكى تغوى زوجة تاجر آخر كان غائبا عن بيته لبعض الوقت ، فتضع العجوز شيئا من التوابل فى عينى الكلب ، وتزور الزوجة ، وتزعم لها أن الكلب الذى يسفح الدموع غزيرة ، كان امراة شابة « سخطت » فتحولت الى كلب ، وذلك لأن قلبها القاسى صد عن الشباب .

هذه الحكاية موجودة فى الكثير من مجموعات الحكايات الشرقية ، لكنها تظهر لأول مرة فى أوروبا ، فى مجموعة بيير الفونس المعروفة باسم التعاليم الكنسية .

لكنها لا تتردد كثيرا بعد ذلك ، فى المأثورات الشفاهية .

واذا ، فلا فائدة فى أن ننكر ان طابعها الظاهر ، هو طابع « الشيء المستورد من الشرق » كما انه لا فائدة فى أن نؤكد ان حكاية من هذا النوع ، قد صيغت مرات ، فى أزمان مختلفة ، وبلاد متباينة ، وكانت تنشأ بغير أن لتواتر صيغة من الصيغ السابقة .

وأما الفابليو فيعود ظهـــورها الى فترة متأخرة عن فترة ازدهار الأمثولات .

ونحن نعنى بكلمة « فابليو » البيكاردية انها حكاية مرحة ، منظومة على غرار الشعر الفرنسى المنظوم على أساس التفاعيل الثمانى . كتلك الحكايات التى انتشرت فى شمال شرق فرنسا ، فى القرن الثالث عشر .

ونشوء هذا النوع الأدبى ، جدير بأن ينتسب تاريخيا الى القرن الثانى عشر ، فلدينا ترجمات ألمانية لبعض هذه النوادر وهى تعود الى مطالع القرن الثالث عشر (٦٧) ، ومعنى هذا ، ان فترة من الزمن كانت قد انقرضت قبل أن تترامى هذه الحكايات ، وتتجاوز الحدود اللغوية .

وشهد القرن الثالث عشر ، أثناء نهايته ــ نشوء الأحدوثة القصصية النثرية ــ وهى هذا النوع من القصص الايطالى ــ أى من حكايات المرح التوسكانية ــ التى كانت تحرص على مراعاة قواعد فن القصة ، فيستقيهم لها شكل فنى رفيع (٦٨) .

وعلى حين اتصفت اقدم مجموعة للأقصوصة الايطالية بالبدائية ، والجرى على منوال التوريات والرمز ، الا أن هذا النوع الأدبى ، بلغ ذروته عند بوكاشيو . ثم واصل خلفاء بوكاشيو هذا التقليد الأدبى ، يواتيهم قدر كبير من النجاح أو يصيبهم قليل من التوفيق ، الى ان كان القرن السادس عشر بل الى ان جاء القرن السابع عشر . .

ولدينا فى أسبانيا أثناء عصرها الوسيط ، مجموعة قصص « الكونته لوكانور » (٦٩) الشهيرة ، لمصنفها خوان مانويل الابن ، وفيها حكايات ممتعة حقا ، وكثير من حكاياتها . يشبه ترويض النمرة وثياب الامبراطور الجديد وقد كان لها تاريخ مجيد .

ولم تظهر الأحدوثة او الأقصوصة النثرية فى فرنسا قبل القـــرن الخامس عشر ، وخير مثال لها هو « مائة خبر جديد » التى تم تدوينها فى بلاط ولى العهد ـ الملك لويس الحادى عشر فيما بعد ـ أو تم تدوينها اقريبا من بلاطه .

واما رواة القصص الفرنسيون ، فى ذلك القرن ، فقد ساروا على خطى الايطاليين، وتابعوا تقاليدهم، ومثل ذلك نجده فى Heptameron لمارجريت دانجولم .

وبلغت الاستفادة من الحكايات المرحة غايتها فى فرنسا ، بصـــدور خرافات لافونتين ، وبالرغم من روعة هـذا العمل ، فلم يحتفل به النقاد الفرنـسيون ، وذلك موقف خاطىء منهم .

وفى القرن التالى ، استعمل فولتير عناصر الحكايات المرحة والنوادر القديمة ، أو أعاد صياغتها على مدى واسع .

ولم يكن فولتير يقع على هذه العناصر ، فى مجمـــوعات القصص القديمة ، التى لم تكن تحت يده بالتأكيد ، بل كان يظفر بها عند المؤلفين الأجانب ، وبعضهم كانوا من المؤلفين الانجليز (٧٠) .

وأما أدب الأمثولات فى البلاد التيوتونية فقد مات موتا بطيئا ، وشهد القرن الخامس عشر ترجمة لمجموعة من هذه القصص ، وذلك من الألمانية الى السويدية .

ومجموعة القصص التى نعنيها هى Seelen-Trost :

ثم كانت الأمثولات ، هى المصدر الأول ، أو النماذج التى احتذتها كتب النوادر والفكاهات ، والتى اشتملت على حكايات ، لا ترمى الى غايات اخلاقية خالصة ، بل كانت تهدف الى اشاعة الامتاع والتسلية فى نفوس قرائها .

ولم تكن الفكاهات والنوادر مجهولة للايطاليين (٧١) عند ذلك ، فقد لبثت تصدر عن المطابع ، مع الأحدوثات النثرية . وهى التى تمتاز بأنها أكثر طموحا ، وانضـــج فنا ، والتى أمد الكثير منها وليام شكسبير بموضوعات مسرحياته .

وربما كانت قصة ترويض النمرة ، خير مثل للحكاية المرحة التى اتسعت رقعتها ، وامتد نسيجها ، وصيغت فى قالب درامى .

وأما الكتاب المحدثون ، فاستعملوا هذا القصص القديم ، يقنعون باظهاره مع قليل من التحوير أو التجديد ، أو هم يصبون النبيذ الجديد فى أوانى النبيذ القديمة ، يحاولون بهذا أن يصطنعوا صياغة جديدة للفكرة أو الموضوع القصصى القديم (٧٢) .

وما دمنا قد ألقينا نظرة عابرة على المواد التاريخية ، وكانت الضرورة هى التى أملت علينا ذلك ، وليس حب الاستطلاع ، فقد أصبحنا فى وضع يتيح لنا أن نبين السمات الرئيسية للحكايات المرحة . تنحو حكايات الجان نحو التاريخ لحياة الأشخاص فتتجه الى أن تحكى قصة بطل من طفولته الى أن يتم مهمته ، ــ ونحن لا نفترض ان يقع حادث هام للبطل بعد انجاز هذه المهمة ــ أما الحكايات المرحة ، فتنحو نحو القصة الجزئية ، فهى تختار حدثا صغيرا او سلسلة من الأخبار الصغيرة الجزئية التى لا تمثل الا جانبا صغيرا من حياة البطل .

وبينما ترمى حكاية الجان الى تحقيق متعة أو ابداء موعظة ، تريد الحكاية المرحة أن تسرى عن قرائها ومستمعيها ، وتريد أن تثير فيهم روح المرح ذلك ان الدعابة من ســـماتها الأساسية بل يقاس نجاحها او فشلها ، بقدر ما تحققه من اشاعة المرح .

ثم ان الخوارق تحتل مكانة ظاهرة فى حكايات الجان على حين أنهـا تتضاءل كثيرا فى الحكايات المرحة ، وذلك اذا بدت فيها على الاطلاق ، ومثال ذلك تلك الحكاية المرحة المعروفة التى تقول ان كائنا وهابا سخيا ، منح زوجين ثلاث رغبات .. فأبدت الزوجة رغبة طائشة وغضب الزوج ثم ابدى رغبة اخرى اكثر طيشا وكأنه ينتقم من زوجته ، ثم يضيع الزوج فرصة الرغبة الثالثة لكى تقضى على أثر رغبته الطائشة . فى هذه القصة ، يخلق العنصر الخارق للطبيعة (وهو الكائن الوهاب) حدث القصة لكنه لا يؤثر على روح الدعابة فيها ، ذلك ان الدعابة تنبعث من أعمال الناس ، وحماقاتهم .

واذا كان عدد الشخصيات قليلا فى حكايات الجان فأجدر به أن يكون أقل من ذلك فى الحكاية المرحة .

والشىء المسلم به ان هذه الشخصيات أنماط ونماذج ، تحتاج الى مقدرة بوكاشيو الفنية لكى تنمو من أنماط الى شخصيات تنبض بالحياة .

ولا يحاول واضعو النوادر أن يجعلوا أبطالها فوق مستوى النـاس العاديين ، بل نجد ـ على نقيض هذا ـ ان هؤلاء الرجال والنساء الذين يتحركون فى الحكايات المرحة ، هم شخصيات دارجة ، تواجه مشكلات عادية ملموسة ، وتتعرض للنزوات المألوفة . والحق ان تكوين الحكايات المرحة على أساس الجزئيات ، يحول دون نمو الشخصيات .

واذا شاء المستمع أن يستنتج ان شخصية أو أكثر ، استفادت من التجربة التى ترويها القصة ، فذلك شأن المستمع ، ومن حقه ان يتخذ هذه النظرة المتفائلة .

غير ان هذا بدوره يقودنا الى أن نناقش مشكلة « الغاية الأخلاقية » التى كتب الكثير عنها . وان كان أكثر ما كتب لا يفوق ما قاله بدييه فى شروحه للخرافات . والتى طالما أستند اليها واستعين بها .

ومعنى هذا ، ان تلك الآراء تجافى الصواب ، لأنها تدافع عن فكرة بدهية فى أساسها .

ويلتقى المرح ، مع اخوته : الهزء والسخرية ، فى عنصر هام ، يدعو الى الأسف وان كان أمرا مقررا ، ذلك ان الضحك الذى ينشأ عن الدعابة ، أو ينبعث من السخرية والهزء ، انما يكون على حساب انسان آخر .

لقد عرفت العصور جميعا ، وسائر المجتمعات البشرية ، أنواعها من الناس يهيئون مادة للدعابة والهزء معا . والمثل المألوف لنا هو أنه فى العصور الوسطى ، بل الى عصرنا الحديث ، كان الناس يظنون ـ وقد يكون ظنهم قائما على أساس ـ ان أهل بعض الحرف والصنائع ـ ممن كانوا يشتغلون بصناعة المواد الخام التى يقدمها « الزبائن » كالخياطين والطحانين ـ كانوا يحتجزون لأنفسهم قدرا كبيرا من هذه المواد ، فيردون كمية من الدقيق اقل من الكمية المعطاة لهم ، أو يسرقون شيئا من القماش الذى يأخذون ـ وهذا الأمر ، جعل العـديد من النوادر والفكاهات والحكايات المرحة ، ترمى الخياطين والطحانين بسخرياتها .

وكذلك فبعض المهن المثقفة ، لم تكن تحظى باحترام اشد مما كانت الصنائع تحظى به . ومن ثم ، عنفت سخريات العصور الوسطى ، فى نيلها من الأطباء والمحامين ، وكان ذلك شأن الحكايات المرحة منذ ما وجدت . ولم يختف هذا الاتجاه من أنحاء العالم الجديد ، فالنوادر الموضوعة حول

المحامين والساسة الأمريكيين ، جديرة بأن تملأ مجلدا ضخما ، وتزود القارىء بمادة ممتعة ، لا تقل عما كانت سخريات العصـــور الوسطى تهيئه بسخرياتها ، ونقدها للنساء ورجال الكنيسة .

وينبغى أن نضع هذه الاعتبارات فى تقديرنا اذا شئنا أن نحكم حكما صحيحا على أدب النوادر الفكاهية الفرنسى الوفير ، أو اذا شئنا حكما صائبا على الديكاميرون .

ولقد يكون من التحيف ، أن نستنتج من امثال هذه الحكايات ، ان الفئات الاجتماعية التى تتحدث عنها ، تتصف بالشذوذ فى سلوكها ، ومع هذا ، فينبغى أن يستقر فى أذهاننا ، ان قيمتها السلوكية ، كانت جديرة بأن تفتح المجال فسيحا ، لما تستحقه من انتقاد .

وكذلك فليس لنا ان نتهم العصور الوسطى ، بأنها هى التى انشأت هذا الموقف الفكرى المعادىللمرأة ورجال الدين ، فقصة «سيدة افسوس» كانت ذائعة الصيت فى العصور القديمة ، ولعلها كانت من أصل شرقى ، ثم انها كانت مفضلة عند قراء ادب فولتير الذى استخدم صورة منها فى كتابه « زاديج » كما كانت اثيرة عند أهل العصور الوسطى .

وقصة الفيلسوف سيكوندوس ، وهى من أشد الحكايات ، عداء للزواج ، نشأت فى الهند ، ثم هاجرت الى الشرق الادنى ، ومنه ارتحلت الى أوروبا فى فترة مبكرة من التاريخ الوسيط .

واخيرا فعـــدد الرهبان الزناة ، فى الحكايات الهندية ، يضـــارع فى ضخامته عددهم فى نوادر العصور الوسطى الفرنسية .

وتدل احدث روايات سنكلير لويس الحديثة ، على أن هذا الموضوع لم يستهلك بعد .

وثمة عنصر هام للغاية ، يلاقى الاهمال ــ كما لاحظ بديبه بحق ــ وذلك هو عنصر « الموضوع » البحث ثم التمييز الواجب بين الحكاية البذيئة ، والحكاية التى لا تعدو التلميح بخدش الأداب .

وبعض الحكايات المرحة ، تندرج تحت القسم الثانى لا الاول ، ذلك أن الوازع الاخلاقى ، عند رواة القصص ، قوى للغاية ، فحيثما يكون البطل شريرا ، فانهم لا يكتفون بالهزء من شره وفساده ، بل ينبغى أن ينال عقابا صارما .

ولعل خير أمثلة نوردها ، هى حكاية بوكاشيو عن القسيس الذى زعم أنه جبريل ، أو الحكايات التى وضعها السابقون على بوكاشيو ، كتلك التى يرويها جوزيفوس ، والتى تدور حول موندوس وباولينا .

ولدينا حكاية كونستانت دى هامل ، التى تصور فى كثير من الحيوية والحماس ، هزيمة ثلاثة من طغاة القرية ، ارادوا ان يدمروا بيتا يملكه فلاح بسيط . ولقد يعترض بأن لدينا مجموعة من نوادر أخرى ، تهزأ من الزوج الغيور أو تزرى بالزوج ـ المخدوع ، ـ وهى الحكايات التى أمدت موليير بموضوعات عديدة لمسرحياته . وتفسير هـــذا ، ان تلك الحكايات نفسها كانت اخلاقية على نحو من الانحاء ، وذلك أن الغيرة كانت تعتبر رذيلة ، لا تليق بانسان ، خاصة اذا ابداها رجل .

ولعلنا نخالف الآن تلك النظرة ، غير اننا نعلم ان التصورات الأخلاقية تتغير من قرن الى قرن .

والملاحظات السابقة ، تنطبق كثيرا ، على النوادر التى سبق لنا ان أدرجناها تحت قسم الحكايات البذيئة .

وان ابناء جيلنا لينسون بسهولة شديدة . كيف أن حساسيتنا بالنسبة لبعض الأمور ، انما هى حساسية اكتسبناها فى ازمان متأخرة للغاية . وان أهل القرن الثامن عشر واهل القرن السابع عشر ، كانوا يفتقرون الى هذه الحساسية ، كما كان اهل العصور الوسطى وعصر النهضة يفتقرون اليها .

وعندما بعث فولتير الى صديقه فردريك ، ملك بروسيا ، بقصيدته الفاضحة « لا بوتشلا » كتب اليه فردريك يقول أن أمه الملكة وأخته الصغرى ـ التى أصبحت أميرة بيرث فيما بعد ـ كانتا تقرآن القصيدة بشغف شديد .

* * *

ولقد يتعذر علينا أن نستدل من الطابع العام للحكاية المرحة ، أو من موضوعاتها ، على البلد الذى نشأ فيه نص بعينه من نصوصها . لكن ـ لعل « الشكل » وحده أن يمدنا بايضاح . فبعض الحكايات تذكر أسماء أماكن بذاتها أو تشير الى قديسين محليين ، ولقد يدلنا هذا على أن

الموطن الأصلي لهذا النص هو شـــمال شرقي فرنسا حتى ولو كانت الأسماء واردة في ترجمة ايطالية .

اما « النوع » أو « الجنس » الأدبي كله فمحايد ، لا ينتمي الى زمان محدد أو مكان معلوم . بل ان الاشارة الى هيئات او نظم اقطاعية ، لا يحدد تاريخ تاليفها ، تحديدا جازما ، ذلك ان لونا عامـــا من الوان السلطة الاقطاعية ، يبدو في وضع بعض الوجهاء او الموظفين بالنسبة للرجـــل العادى .

وهذا اللون من السلطة ، موجود في مجتمعات كثيرة ، لا نستثنى منها الولايات المتحدة .

وبوسعى أن اتصور ان حكاية كونستانت دى هامل كانت رائجة في كل مدينة من الأقاليم السلافية القديمة .

ولما كان الطابع الواقعى ، يغلب على الحكايات المرحة ، فمن اليسير ان تحدث الملاءمة بين بعض العناصر الواقعية التفصيلية وبين الظروف المتجددة .

ولعل هذه الملاءمة ، أن تحدث على يد راوية فرد ، وبغير تعمد .

وقد يكون من الخير ، ونحن نشارف ختام هذا الفصل ، أن نذكر بعض الأمثلة العملية ، لمشكلة انتشار الحكايات المرحة وذيوعها .

وطبيعى ان نفضل تلك الحكايات التى تستطيع ـ نظرا لطبيعتها الخاصة والتركيب النسبى لعناصرها ـ أن تتيح لنا من النتائج ما تقصر عنه الحكايات التى حللها بديبه ، ودلل بها على صحة منهجه القائم على الشك .

ولقد اشرنا من قبل الى حكاية « شيخ المنسر » وليس في الجنس الأدبى الذى تنتمى اليه هذه الحكاية ـ أى شيء محلى بالذات ، فحكايات اللصوص ، كانت ذائعة في سائر الحضارات التى يسعها علمنا .

غير أنه من الحقائق الثابتة ، ان مثل هذه الحكايات ، تزدهر ، في أواخر كل حضارة ، حين تسرع تلك الحضارة الى الافول .

ومن المعروف ـ مثلا ـ ان حكايات اللصوص في الف ليلة ، وهى التى تؤلف جانبا ظاهرا منها ، انما تعود الى القرون المتأخرة ، أو لتلك

الفترة التى يسميها أ . شبنجلر بحضارة السحر . حين كان خلفاء بغداد والقاهرة ، يحثون الخطى نحو انحلال دولتهم .

وكذلك فحكايات اللصوص فى آداب الهند وفولكلورها ، تنتمى الى عصر انحلال كامل ، جاء بعد أن بلغت الحضارة السنسكرتية اوجها .

واذا ، فحكاية بيت الكنز لم تكن تنشأ فى ظروف مغايرة لما ذكرناه . ذلك انها لا تفترض فقط قيام حضارة متقدمة ، بل تفترض ان تلك الحضارة ، قد زاد نضجها ، وأوفى على الغاية ، وان عصر مجدها قد فات ،وانقضى .

وتضع رواية هيرودوت هذه الحكاية ، فى مصر أثناء الدولة الوسطى .

والطابع العام ، للفتـــرة التاريخية والعاصفة التى اعقبت حكم الرمامسة العظام ليبرر استنتاجنا ، وهو انه اذا لم تكن تلك المرحلة هى التى انشأت هذه الحكاية بالذات ، فلا نزاع فى انها اعانت على نشوء ذلك الجنس القصصى بالتحديد .

ولقد جادل جاستون بارى فى هذا الأمر ، واستند الى المسلمات العامة الدارجة عن عادات المصريين وطبائعهم ، وقال انه من المستحيل ان يكون لهذه الحكاية اصل مصرى . ثم ربط بين نادرة جزئية فيها وبين مبدأ «الاباحة » والترخيص المعروف ، الذى تقول به بعض عبادات ما بين النهرين .

ثم استنتج ان هذه الحكاية نشأت اول ما نشأت فى بابل .

وهذا الاستنتاج لا يسنده الا ان نزعم ان حكايات اللصوص ينبغى ان تصور الواقع الدقيق ، لا مفر لها من ذلك .

غير ان هذا الافتراض ، لا يطابق الحقيقة ولن يطابقها ، ذلك ان عنصر المغامرة ، مقصـــود فيها لذاته ، والفن الشعبى ، يختار الملوك لموضوعات المغامرات الكبيرة .

،وليس من المنطق ، ان ننكر انتساب الحكاية المشار اليها الى مصر على اســاس ما ذكره جاستون بارى ، كما لا يجوز لنا ان ننكر الأصـــل الفرنسى لحكاية تروبير – وهى قصة طويلة وفاضحة تعود الى القرن الثالث عشر – على زعم انه ما كان يليق بذوق فرنسى أن يلعب الدور المنسوب اليه فى تلك القصة .

وقد يتعين علينا ان نفصل فى مشكلة أخرى وتلك هى : هل اخترعت هذه القصة فى مصر أول ما انتحلت ، أم بعثت فيها ، بعد أن كانت قد انحدرت اليها من حضارة أخرى ، تجهلها ، وفى بعض الأزمنة الغابرة ؟

هذا امر لا نستطيع ان نقطع فيه برأى أما الشيء الثابت لدينا فهو ان كافة الصيغ المعروفة لهذه القصة ، جاءتنا من مصر .

ويجوز لنا ــ بلا نزاع ــ ان ندرج تحت نوع الحكايات المرحة ، حكاية البرهمى الذى اعاد الحياة الى أسد ، فأقدم نصوصها هندى ، أو هو من مدينة مدراس .

واما النصوص الهندية الأحدث تاريخا فتذكرنا بأن المعرفة والحكمة لا تجتمعان دائما لشخص واحد . وينتهى اقدم نص هندى كما ينتهى النص العبرى الى الحكمة الأخلاقية القائلة : لا تصنع الخير فيمن يصنع الشر ، حتى لا تحصد نكران الجميل . هذه السمة ، تدلنا على ان الحكاية نشأت فى الهند ، وان النص المنسوب الى الشرق الأوسط ، مشتق من نص هندى أقدم منه بكثير ، بل هو اقدم من تلك المجموعات الهندية التى اشتملت على الحكاية المذكورة .

وحتى لا يقال ان هذا الكتاب متحيز بغير حق لنظرية بنفى الهندية . سوف ننظر آخر الأمر ، فى قصة من أصل أوروبى شمالى .

تحكى احدى نوادر « الكونت لوكانور » الاسبانية كيف ان لصا باع روحه للشيطان نظير ان يساعده الشيطان فى مغامراته ، اذا وقع فى الأسر . ويحافظ الشيطان على وعده ، ولو انه يتباطأ احيانا فى الوفاء به . وعندما يحكم على اللص بالشنق ، ويساق الى المشنقة ، يأتيه الشيطان بصندوق يزعم أن به الف قطعة نقدية ، ويراوده أن يرشو القاضى . ولا يتردد اللص فى اعطاء القاضى هذا الصندوق وعندما يحين وقت الشنق ، لا يجدون حبلا ، ويصيح القاضى « انها معجزة » ويزعم أن المحكوم عليه بالاعدام ، لا بد وان يكون مظلوما بريئا .

وكاى رجل محترم ، يفتح القاضى الصندوق فيجد فيه حبلا متينا بدلا من النقود ، وينفجر غاضبا ، ويأمر بشنق اللص . ترد هذه الحكاية أول ماترد فى نص فرنسى قديم ، يزعم ــ دون أن نستطيع الشك فيما يزعم ــ انه ترجمة عن اللغة الانجلوسكسونية .

وفى الآداب التيوتونية ــ وهى آداب انجلترا واسكنديناوه ــ لا يخدع الشيطان طنيبه بل يخدعه اله الحرب « أوتين » . ويوجـــد ضريب لحيلة الحبل ، فى قصة الملك فيكار ، النوردية ، حيث يصنع أوتين من نبات متسلق غير سام ، حبلا متينا ، فيتسبب فى مصرع طنيبه الملك .

هذه الأمثلة ، التى نستطيع زيادة عددها بدون عناء ــ جديرة بأن تدلنا على انه ليس لنا أن نسلم تسليما أعمى ، بمنهج بديه القائم على الشك . فنحن نخشى أن يتعذر علينا الكشف عن الكثير من هذه الحكايات وقد يكون بعض هذه الحكايات قد نشأ مستقلا بعضه عن بعض ، فى أماكن متفرقة ، وأزمان مختلفة ، غير ان بعضها الآخر يتيح لنا ــ بلا شك ــ ان نستطرد فى فحصها ، ونمضى فى الكشف عنها ، يحدونا أمل قوى فى ان يسفر هذا الفحص ، عن قدر من التيقن والنجاح .



حكاية الحيوان

حكاية شـــارحة . قصرها . قلة عناصرها الجزئية . علاقتها بالأساطير . خرافات الحيوان . ترجيح نشوئها فى الشرق السامى قبل الهند وبلاد الاغريق . ملاحم الحيوان . حكايات النبات الشارحة وخرافاته .

● حكاية الحيـــوان

رأينا فيما سبق أننا نستبعد أن تكون حكاية الجان قد نشأت فى عصور التوحش ذلك انها تفترض ان تسبقها الى الوجود ، حضارة أعلى مستوى من حالة التوحش الخالصة .

وحيثما تعبر الحكايات المرحة ، عن علاقات غاية فى البساطة فانها تحملنا على الظن بأنها كانت تلقى القبول عند الفئات الدنيا من المستوى الحضارى المشار اليه . ولو أننا لا نستطيع ان نفترض ان اكثر هذه الحكايات يسبق فى نشأته ، نشوء الحضارات .

واما النوع الثالث من القصص الشعبى الذى نناقشه الآن ــ ونعنى به حكايات الحيوان (٧٢) ــ فمن اقدم ما نعرف من قصص . ذلك أن المجتمعات المتوحشة ، تستطيع ان تنشىء قصصا من هذا النوع ، قدر ما تستطيعه الجماعات المتحضرة المعاصرة ، بل لعل هذه الجماعات المتوحشة أن تكون اشد قدرة واوسع باعا ، فى هذا الصدد .

وحكاية الحيوان فى ابسط صورها ، حكاية شارحة او مفسرة من حيث جوهرها . أو قل انها حكاية ترمى الى شرح علة أو غاية .

ونوجز حقائق هذا الأمر على النحو التالى .

من المسلمات ، أن الانسان منذ طفولة جنسه البشرى وهو شديد الشغف بعالم الحيوان المنبسط حوله ، وذلك لأسباب تتصل بارضاء ذاته ، ان لم تكن تتصل بفضوله العقلى . وتطلعاته الفكرية . بل لقد يتميز الانسان البدائى بدقة الملاحظة ، وبأن الخصائص الحيوانية فى شكل كل حيوان ، تثير اهتمامه ، وتستفز خياله ، وتستدعى ملاحظاته تلك أن يعرف الأسباب ، ويفهم العلل ، فما السبب ـ مثلا ــ فى أن يختص حيوان بذاته ، بلون معين ؟ ولماذا يميز حيوان ما ، نفسه عن أقرانه ، بطريقة خاصة فى مشيته ؟ ولماذا يعيش حياة متميزة ؟

ولما لم يكن هذا الانسان البدائى ، يعرف المعلومات التى يعرفها علماء

الحيوان أو علماء النبات المحدثون ، فقد كان هذا الانسان يخترع ذلك القصص الذى يستطيع أن يمده بالتفسيرات المطلوبة .

وهذا الميل الفريزى الى معرفة الأسباب ، واجتلاء العلل ، لم يختف حتى فى زماننا ، فهو شائع بين الأطفال ، ولعلنا نقول ان هذا الميل الفريزى الى فهم العلل والأسباب ، يفترض وجود مزيج من التطلع العقلى ، ومن التخيل ، ولو أن نسبة هذا الى ذاك تختلف من حالة الى حالة .

ولعلنا نقول كذلك أن هذا المزيج من التطلع والتخيل ، ضرورى لوجود كل عمل علمى .

وهكذا ، ينبغى لنا أن نتخيل هذا التسلسل الطويل ، الذى لا يعتريه انقطاع ، والذى يصل بين النتاج الفكرى المتواضع الذى جادت به قريحة الانسان البدائى ، وبين ارفع التأملات العلمية التى يتوصل اليها عالم مثل اوليفر لودج أو البرت اينشتاين .

وحتى لا نضيع فى متاهات التأمل نورد مثلا نموذجيا .

نحن نعرف حق المعرفة ، أن الدب احد الحيوانات القليلة غير المذنبة ، بين حيوانات شمال أوروبا . وقد تساءل الناس : لماذا هو كذلك ؟ ثم كانت الاجابة المباشرة وهى انه اضاع ذنبه . واستدعت الاجابة سؤالا ثانيا هو : وكيف اضاع الدب ذنبه ؟ وللرد على هذا السؤال ، نشأت تلك القصة التى تحكى لنا كيف أن ثعلبا تحدى دبا يغمس ذيله فى الماء ويصطاد به السمك ، وكيف أن الماء تجمد من حول ذنبه ، وكيف انه اندفع ناجيا بنفسه ، ففقد ذنبه أثناء ذلك .

جرت هذه الحكاية على الألسنة ، لما فيها من مرح ودعابة ، وتواترت من مكان الى مكان ، حتى ترامت الى أماكن لم تكن تعرف الدببة .

ونسى الناس أصلها ، وسقطت منها جملتها الختامية ، التى كانت جديرة بأن تقول « وهذا هو السبب فى أن صار الدب بلا ذنب حتى يومنا هـذا » .

وثمة ملح مألوف فى القصص الشعبى ، أشرنا اليه من قبل ، عند مناقشتنا للحكايات المرحة ، وهذا الملح هو أنه اذا لم يتسق عنصر واقعى فى هذا القصص ، مع ظروف استعمالها الجديد ، فانه يتغير ويحل محله عنصر واقعى آخر تعرفه البيئة الجديدة التى يجرى فيها هذا القصص .

وهكذا ، حل « الذئب » محل الدب ، مع أن الذئب حيوان مذنب .

وهكذا ، نشأت القصة المعروفة باسم حكاية رينار التى تقص قصة السيد ازنجرين الذى ذهب يصطاد السمك من الجليد ففقد ذيله (٧٤) .

وليس أمرا غريبا أن تشتمل الحكايات الشارحة أو التفسيرية ، على لغة الحيوان . فكما قلت ــ فيما سبق ــ يتعذر علينا ان نجد قصة حيوان أصيلة وقد خلت من الزعم القوى ، بأن الحيوان يشبه الانسان فى تصرفه وسلوكه ، وانه يفكر تفكيرا منطقيا .

وكل ما نعرف من هذا القصص ، فى زماننا ، ينحو هذا النحو .

ولعل اشارتنا الى قصة الثعلب رينار ــ وهى قصة ذائعة للغاية ــ أن تلقى بعض الضوء ، على الأهمية أو المكانة ، التى تنتحلها حكايات الحيوان ، بالنسبة للأدب .

وهذه القصة مع ذلك ، واحدة من أحدث الشواهد ، لا اقدمها ، على ما نقول .

ولعلنا نستطيع أن نقول ، انه كلما صعدنا فى نهر الزمن ، ورجعنا فيه الى الماضى ، كلما اتضحت لنا المكانة التى تشغلها حكايات الحيوان الشارحة .

لقد لاحظ الناس ، فى بلاد متباعدة ، ان الثعابين تنضو جلودها عن اجسامها ، وقد دعاهم ذلك الى الاعتقاد بأن الثعابين مخلدة . والحق ان تجديد الجلد ، عملية تجديد للحيوية والفتوة .

ومن هنا نشأ السؤال التالى :

ــ ولماذا تستطيع الثعابين أن تفعل هذا ، بينما يعجز الانسان عنه ؟

ثم كان الرد الذى قيل على السؤال السابق وهو أن الثعبان خدع الانسان وجرده من خلوده وانتحل هذا الخلود لنفسه .

وهذا هو جذر الأسطورة الشهيرة ، عن سقوط الانسان (٧٥) .

ولعلنا نفترض انه ليس ثمة اصل آخر سوى هذا الأصل لقصة الغراب والحمامة ، الواردة فى أسطورة الطوفان اليهودية ــ ذلك اذا كانت هذه الأسطورة عبرية حقا ، وهو الأمر الذى يثير نوعا من الشك .

ويظهر الغراب والحمامة فى موقف التعارض ، فى عدد كبير من البلاد ، وذلك لشدة الاختلاف بين لون الغراب ولون الحمامة .

ثم ان الكثير من الحكايات التفسيرية تحاول أن تشرح السبب فى سواد لون الغراب ، ويبدى كل شعب ـ بل كل قبيلة ـ تفسيره الخاص لهذه الظاهرة .

وقد لا نجانب الصواب كثيرا ، اذا قلنا ان نوحا قد دعا على الغراب ـ فى النص القديم لسفر التكوين فى التوراة ـ لأن الغراب ، فر هاربا ، ولم يعد اليه ، فكان دعاء نوح عليه ، سببا فى سواد لونه ، على حين ظل الحمام أبيض اللون .

والغالب الأعم ، أن تكون حكاية الحيوان شديدة القصر ، وتكون عناصرها الجزئية قليلة العدد .

غير ان الأنماط المختلفة ، تتميز بعضها عن بعض ، الأمر الذى يسمح لنا بأن ندرس كيفية انتشارها وذيوعها من مكان الى مكان . فحكايات الدب والثعلب والذئب ، التى يعود أصلها الى الشمال الأوروبى ، ترشدنا فى وضوح ، الى الطريق الذى ينبغى لنا أن نسير فيه ، أثناء هـذه الدراسة .

واما حكاية « السقوط » فتؤلف نمطا متميزا ، ذاع فى الهند واليونان وصقلية ، وقسم كبير من أفريقيا ، فضلا عن بلاد ما بين النهرين . ولا مفر من أن نفترض أن ثمة علاقة تاريخية ، كانت قائمة بين هذه الأنحاء .

ولعل أقدم النصوص ـ وهو الذى يرد فى ملحمة « جلجامش » البابلية ـ أن تعود الى أصل عراقى ، وصل الى أفريقيا عبر مصر وبلاد البحر الأبيض المتوسط .

ويحدث ـ فى بعض الأحيان ـ أن تذيع حكايات حيوان جد متشابهة فى منطقتين تبعد احداهما عن الأخرى ، بمسافات شاسعة . فنحن نقرأ فى حكاية هنغارية أنه :

« عندما خلق الله الدنيا ، جعل للحصان قرنين ، ولم يمنحه أسنانا ، واما البقرة فلم توهب قرونا ، وان كانت قد وهبت صفين من الأسنان .

ولما كانت البقرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وكان الحصان قادرا على الرفس ، فقد اتجهت البقرة الى الله ، وقالت له أنها تعجز عن الركل والرفس ، وانها تدعوه ان يهبها قرنى الحصان ، ويعطى الحصان أسنانها فكها الأعلى نظير ذلك .

وقد استجاب الله لرجائها ورضى الحصان ، وتم التبادل .. فصار للحصن منذ ذلك الوقت ، اسنان ، وصار للبقرة قرنان وأصبح الحصان يكشف عن اسنانه دائما ، وصارت البقرة تهز قرنيها » .

ثم نقرأ الحكاية التالية القادمة من « آنام » :

« كانت الجاموسة فيما مضى ، ذات صفين من الأسنان ، بينما لم يكن للحصان أسنان وذات يوم تقابلا وسأل الحصان الجاموسة أن تعيره مؤقتا أسنان فكها الأعلى - حتى يحضر وليمة .. ووافقته الجاموسة ، غير ان الحصان رفض أن يعيد اليها الأسنان ، الا اذا استطاعت أن تفوز عليه فى سباق . وعجزت الجاموسة عن منافسته فى الجرى . ومنذ ذلك الوقت ، خلا فكها الأعلى من الأسنان » .

ومع ان هناك اختلافات بين الحكايتين السابقتين ، الا اننا نستطيع أن نقيم علاقة بينهما .

ولقد أصاب دانهارت (٧٦) ، فيما استنتج ، من ان الغجر الرحل هم الذين حملوا هذه الحكاية الى هنغاريا .

ومن ناحية ثانية ، فان مجرد ارجاع سواد الغراب فى قصة كورونس وقصة التكوين ، الى سبب اللعنة ، لا يدل على أن هناك علاقة تاريخية بين الحكايتين ذلك أن اللعنات تثير الخوف فى سائر المجتمعات البدائية والقريبة من البدائية ، ثم ان سبب اللعنة يختلف فى القصة اليونانية عنه فى الحكاية الفلسطينية ، فبينما هو عنصر « كشف » و « فضح » فى القصة الأولى ، اذا به ، على نقيض ذلك فى الحكاية الثانية .

ولقد توحى حكايات الخلق واسطورة كورونيس الاغريقية بسؤال :
- اى علاقة - ان كان ثمة علاقة - بين حكايات الحيوان والأساطير ؟ رأينا - فيما سبق من حديث - أن بعض الأساطير يتحول الى حكايات الجان . وان النوادر قد تقال عن آلهة الأوليمب ، غير ان شيئا من ذلك ، لا يرجح لدينا ان هناك علاقة وثيقة بين الأساطير وهذه الأنماط من الحكاية ، بل ان نقط التقائها يأتى اتفاقا وبمحض الصدفة . لكن الأمر يختلف شيئا بالنسبة لحكايات الحيوان ، لأنها موجودة - لا شك - فى جذور ما نسميه الآن بالأساطير .

ويجوز أن نقول ان حكايات الحيوان - كتلك التى تتكلم عن خلود

الحيوان ، او التى تفسر سواد الأغربة ــ قد تنمو وتصبح أساطير كاملة التكوين . ولعلنا نضيف الى ذلك ، ان آلهة الأوليمب ، واضرابهم من الآلهة السيلتية والتيوتونية ، انما يدخلون تاريخ المعتقدات ، فى فترة متاخرة بعض الشىء . فقد سبقهم جميعا ، نشوء معتقدات أمعن فى بدائيتها ، وسذاجتها ، فكان اكثر هذه المعتقدات ، يتجسد فى شكل حيوانات وطيور ، فالاله « زيوس » كان نسرا ، والالهة أثينا كانت بومة ، وهيرا كانت بقوة ، والاله النوردى تور كان طائر جنة صغيرا ، والاله تير كان ذئبا ، مثله فى هذا مثل الاله الرومانى مارس ، وضريبه السيلتى ديباتر .

وهكذا ، يحق لنا أن نزعم أن الحكايات التى تدور حول حيوانات تطورت فاصبحت الهة ــ هذه الحكايات كانت البداية المباشرة للحكايات التى تدور حول الالهة ــ أو قل انها كانت بداية الأساطير (*) .

ولعل المثل التطبيقى ان يوضح هذا الراى .

نحن نطلق على طائر الجنة الصغير اسم طائر النار ، ويقال انه أحد الطير التى يرجع اليها الفضل فى انها جلبت النار من السماء الى الأرض ، لتنفع بها الناس .

والطائر الصغير ، يدين بهذه الصفة الذائعة ، الى حكاية تفسر السبب فى ان صدره أحمر اللون . ولقد صار طائر الجنة الصغير ، اله البرق والرعد عند الشعوب التيوتونية .

ومعنى هذا ــ اذن ــ ان طائر النار قد أصبح اله النار ، مجسدا .

واما الحكاية التى تروى لنا كيف أمد « تور » البشرية بالنار ، فلم تصل الينا ولكنا نرجح انها كانت تشبه حكاية بروميتيوس الاغريقية فى اكثر من وجه .

ولدينا طائر نار آخر ، فى مكان آخر من الأرض ، ونعنى به الغراب الذى يقال ان سبب سواد لونه هو انه تقاعس عن نجدة الانسان . ثم صار الغراب عند قبائل شرق سيبيريا وشمال غرب أمريكا ، كائنا نصف

(*) يشير المؤلف فى الفقرات السابقة الى ان التجريد جاء تاليا للتجسيد ، غير أن هذا الافتراض ، لا يفسر وجود النظرتين معا فى وقت واحد ، الأمر الذى يجعل حكم المؤلف افتراضيا ــ المترجم .

الهى ، يتصف بصفات مقدسة . وتحتفظ حكايات فيلوميلا وبروكنه (*) المحزنة كما يرويها أوفيد ، بطابعها التفسيرى . ويصدق هذا على حكاية آراشنة وقسم كبير من حكايات تغيير الأشكال والطبائع (المسخ) التى لا تقتصر على العالم القديم بحال من الأحوال . بل لقد عرفت العصور الوسطى هذا اللون من الحكايات ، وان لم يظهر فيها شاعر كأوفيد ، ينظم هذه الحكايات شعرا .

وتشير أوفيليا الى احدى هذه الحكايات عندما تقول ان البومة كانت ابنة خباز ذات يوم .

ونحن نروى هذه الحكاية طبقا للنص المدون فى جلوستر شاير (٧٧) .

فى يوم من الأيام ، دخل الاله دكان خباز ، حيث كانوا ينضجون الخبز ، والتمس أن يعطوه شيئا من الخبز ليأكل ، فوضعت صاحبة الدكان قطعة من العجين فى الفرن ، غير ان ابنتها وبختها لأن قطعة العجين كانت أكبر مما ينبغى أن يناله ذلك الشحاذ . وانقصت الأم قطعة العجين ، غير أن قطعة العجين ، شرعت تنتفخ حتى صارت جسيمة الحجم ، فصاحت ابنة الخباز :

ــ « هيو ! هيو ! هيو ! »

وكانت تلك هى صيحة البومة التى جعلت الاله ، يحول الفتاة الى بومة ، جزاء وفاقا على شرها .

ولعلنا نرى ــ بغير عناء ــ أن الذى وضع هذه الحكاية ، لم يكن انسانا مستقرا ، بل كان ــ اغلب الظن ــ شخصا متشردا أو قل انه كان طفيليا شحاذا .

ولم تكن البومة ابنة خباز ــ كما تقول صيغة اخرى للحكاية ــ بل كانت من أصل أكرم ، فالأغنية الشعبية الانجليزية التالية تقول : ــ

« ذات مرة كنت ابنة ملك »

« اجلس فى حجر سيدة »

« ولكنى اليوم ، مشردة بالليل »

(*) Philomela & Prokne

« منفية بين اشجار الصفصاف »
« ازعق : هو ! هو ! هو ! هو ! »
« هو ! هو ! »
« وقدماى باردتان ! »
« الرحمة لى ! »
« فانت ترانى مظلومة فقيرة عجوزا »
« وذات يوم كنت ابنة ملك »
« اجلس فى حجر ابى »
« ولكنى اليوم مشردة فقيرة »
« اختبىء فى شجرة جوفاء »

وفى احيان كثيرة ، لا تتحول زوجة الخباز أو ابنتـــه الى بومة ، بل تتحولان الى طائر الغابات الذى يعيش على ديدان الشجر ، ولعل سبب ذلك ــ كما يقول دكتور هاريس بحق ــ ان طائر الغابات ، كان منذ ازمان سحيقة ــ هو صانع المطر وطائر الرعد .

ولما كان منع المطر يعني منع الخبز ، فقد تالفت حكاية تحول ابنة الخباز ، الى طائر .

وعلى حين ، نعتبر حكاية الحيوان ، مصدرا اساسيا من مصادر هذا القصص الذى يندرج تحت اسم الأساطير . فان تاثيرها على الآداب المكتوبة اعظم من هذا واخطر .

ولقد تتفرع حكايات الحيوان الشارحة الى فرعين أدبين يتساويان فى الأهمية ، وهذان هما : الخرافة وملحمة الحيوان .

ولقد كان الغرض الأصلى لحكايات الحيوان ، هو أن تشرح حقيقة فى الطبيعة ، يتعذر على الانسان البدائى أن يفهمها وعلى ذلك ، يجوز لنا ان تقول انها تخلو من التعاليم الأخلاقية . اما الخرافة ، فأمرها مختلف ، ذلك انها فى جوهرها ، حكاية حيوان ، ترمى الى اظهار غرض اخلاقى . أو قل انها اشد وعظا وتعليما ، من حكايات الحيوان الشارحة . ونكاد نقطع بان حكاية الحيوان الشارحة اقدم تاريخا ، من الخرافة ، وانها تطورت وصارت خرافة ، فى ظل ظروف معروفة .

وهذا التطور ظاهر جلى فى حكاية مثل حكاية « كورونس » Coronis الاغريقية وحكاية نوح والغراب فى الأساطير العبرية .

وأما الحكاية الأولى ، فتحذرنا من اختلاق القصص والأخبار ، وأما الثانية فتحثنا على ان نؤدى ــ باختيارنا ــ ما نؤتمن عليه من عمل .

ولقد نشأت الخرافات ، فى العصور القديمة ، وفى بلاد الاغريق والهند ، فاذا زعمنا انه كانت بين البلدين رابطة تاريخية ، فاى البلدين كانت أسبق فى هذا المضمار ؟

ومما يبدو غريبا أن نرى عالم الهنديات « تيودور بنفى » يقول ان الخرافات الاغريقية كانت هى الأسبق زمنا ، بينما يذهب (أ . روده) أستاذ الدراسات الكلاسية الى عكس ما قال به بنفى (٧٨) .

ولقد يجوز لنا أن نفترض أن هناك علاقة تاريخية بين خرافات الاغريق وخرافات الهند ، كلما اظهرت تلك الخرافات ملامح مشتركة ، أو حيثما نرى فى الهند وبلاد الاغريق ، خرافات واحدة .

ولكن الذى يثير الشك لدينا ، فى رجوع الخرافات الى أصل اغريقى أو هندى ، هو أن أيسوب الذى يقال أنه اخترع الخرافات الاغريقية ، لم يكن ــ فى الحقيقة ــ اغريقيا ، بل لم يكن من رعايا الاغريق فى القارة الأوروبية ، وأغلب الظن أنه كان رقيقا ساميا يشتغل بالكتابة فى أيونيا(٧٩) .

أضف الى ذلك أن هذا النوع من القصص نجده فى أقدم أجزاء العهد القديم الأمر الذى يحملنا على الظن ان هذا النوع القصصى جميعا ، قد وصل الى الايونيين ، من الشرق السامى . وانه ارتحل كذلك من الشرق السامى الى الهند ، مع ما ارتحل اليها ، من ثقافة مابين النهرين .

ونحن نعرف أن أهل العصور الوسطى كانوا يستخدمون أدب الخرافات اللاتينية الذى انحدر اليهم من العصور القديمة .

ولم تنم الخرافات الحديثة وتتكاثر ، بل لم يقدر لها الذيوع بين صفوف الشعب .

وكان المفكر الالمانى لسنج يقول ــ مدفوعا برغبته فى استثمار خرافات لافونتين ــ أن القصص الشعبى يتصف بالتماسك ، وان الغرض الأخلاقى أهم صفات الخرافات .

ونحن نستطيع أن نتبين خطأ هذا القول ، من المصير الذى لقيته مزاعم لسنج نفسه ، فقد طواها النسيان .

وليس فى مقدور الخرافات أن تتنكر لأصلها ، غير أن اباها ـ وهو قصص الحيوان الشارح ـ قد يتصف باية صفة الا ان يكون شيئا متماسكا او مطلقا ، ذلك ان حكايات الحيوان تنبض بالحياة ، ومهما ارتقى الغرض الأخلاقى الذى ترمى اليه الخرافة ، فلابد أن تستبقى شيئا من معدن الأب ، ونبضه ، اذا شيء لنوعها القصصى أن يستمر ويبقى .

ومن هنا جاءت حيوية الكتاب العظيم الذى وضعه لافونتين ، والذى كانت تهديه الغريزة لا اكثر وتقوده الرغبة العارمة الى رواية النوادر .

ولا حاجة بنا الى الحديث عن الغايات الأخلاقية التى تنتحلها الخرافات . ولا حاجة بنا كذلك الى أن نطيل التعقيب على انها ليست « الأداة » المناسبة لحمل الأفكار الفلسفية الرفيعة ، أو التعاليم الدينية والأخلاقية السامية ، ذلك ان الخرافات تعترف ـ كسائر أنواع القصص الشعبى (٨٠) ـ بفلسفة واحدة ، تلك هى فلسفة الأمر الواقع العادى بل الواقع القاسى البحت ..

واما ملاحم الحيوان ، فلم تكن فى اساسها ، من انشاء العصور الوسطى الأوروبية فقد عرفها العالم القديم ، وان كان قد عرفها فى اطار فنى بدائى . ثم ذاعت أثناء النهضة ـ خاصة فى اسبانيا ـ باطارها الفنى ذاك .

وتفترض ملحمة الحيوان ، ان يسبقها الى الوجود نوعان هما الخرافة والملحمة .

وليست « معركة الضفدع والجرذان » الهومرية ، سوى ملحمة ساخرة ، وكذلك شأن حكاية « الثعلب رينار » . وما أن اختفت الطبقة الأرستقراطية ، واختفت معها الروح التى كانت تبعث الحياة فى فنها وأدبها ، حتى سقطت الطبقة الوسطى على الماضى ، وجعلت من الملاحم القديمة ، اشياء هزلية وهذا هو ما حدث فى بلاد الاغريق ، بعد عصر هومر ، وفى اوروبا أثناء عصرها الوسيط وحتى القرن الثانى عشر . ولا حاجة بنا اذن أن نبحث عن سبب غير هذا ، لذيوع هذا النوع من الملاحم . ولقد سمحت ملاحم الحيوان الفرنسية (٨١) ـ بخاصة ـ بنشوب مناقشات عديدة حول أصلها ، وأصل العناصر المكونة لها .

والمشكلتان تتصلان بموضوعين مختلفين فالعناصر الجزئية أقدم تاريخا بكثير من التكوين الأدبى الذى تؤلفه .

وقد انقسم الراى ، انقساما شديدا بالنسبة لحكاية الثعلب الفرنسية ففى القرن التاسع عشر كان يعقوب جريم (٨٢) ، يرى فحسب حكايات تيوتونية عن الحيوان ، تمضى فى قدمها وعراقتها ، وقوة شاعريتها . وكان و . شرر (٨٣) ، ولوسيان فوليه فى زماننا ، يشيران الى وجود تاثيرات عديدة ، للخرافات اللاتينية ، بل كانا يشيران الى تأثير مجموعات أمثولات بذاتها ، كأمثولات « التعاليم الكنسية » .

وأما الراى الصائب ، فيقع بين هذين الرأيين . ذلك ان بعض نوادر حكاية الثعلب الفرنسية ، عبارة عن استعارات ادبية ، وبعضها الآخر ـ كنادرة الذئب الذى يصطاد ـ تمثل هذا النوع من الحكايات الشارحة القديمة التى كانت ذائعة فى أوروبا ، قبل مرحلة الهجرات التيوتونية بزمن طويل .

وينبغى أن نتحدث قليلا عن حكايات النبات الشارحة وعن خرافات النبات التى تولدت منها (٨٤) ، كما تولدت خرافات الحيوان من حكايات الحيوان .

تذيع الحكايات الشارحة التى تدور حول النبات ، قدر ما تذيع حكايات الحيوان الشارحة ولو انا نجد نباتا وحيوانا ، وقد اختلطا كأبطال لهذه الحكايات . ولكى نوضح هذا الأمر نذكر فيما يلى قصة انجليزية تمثل هذا النوع .

حدث ذات يوم أن كان طائر بحرى ضخم ثقيل يتاجر فى الصوف ، مع شجرة التوت الشائكة والخفاش واستأجر الثلاثة سفينة وحملوها صوفا ، لكنها تحطمت ، وأفلست الشركة ولهذا يختفى الخفاش عن العيون الى منتصف الليل هربا من الدائنين ، ويغطس الطائر البحرى الى أعماق المياه باحثا عن السفينة المحطمة ، وتعترض شجرة التوت الشائكة طريق الأغنام التى تمر بها لتعوض خسائرها بسرقة الصوف منها .

ومن حكايات النبات ، نشأت خرافات النبات ، فى زمن مبكر للغاية ، ولعل حكاية « جوتام » الشهيرة التى ناقشها سير جيمس فريزر فى

دراسته القوية للخرافات ، ان تكون من اقدم نماذج الخرافات الموجودة بين أيدينا حتى الآن (٨٥) .

يقتل واحد من أبناء جديون اخوته الا واحدا ، ويقتلهم بالطريقة الشرقية المألوفة ، ويستولى على العرش . بحيل خداعة ، وساذجة ويخرج جوتام ــ وهو الأخ الباقى على قيد الحياة ــ من مخبئه ، ويخاطب أهل شاشم من جبل جرزيم ، ويقص عليهم الخرافة التالية :

ذات يوم أرادت الأشجار أن تولى عليها ملكا من بينها ، وقالت لشجرة الزيتون : كونى ملكة علينا غير أن شجرة الزيتون قالت : أينبغى لى ان أهجر زيتى الذى به تتقربون الى الله والناس وامضى اختال واهتز جيئة وذهوبا ، فوق هامات الشجر ، وقالت الأشجار لشجرة التين : تعالى واحكمى فينا ، غير ان شجرة التين قالت : اينبغى لى ان افقد حلاوتى وثمارى الطيبة ، وامضى أختال واهتز جيئة وذهوبا فوق هامات الشجر ، وخاطبت الأشجار شجرة العنب وقالت لها : تعالى وكونى ملكة علينا ، لكن شجرة العنب قالت : أينبغى لى ان اترك نبيذى الذى ينعش الآلهة والبشر وامضى فى خيلائى اهتز جيئة وذهوبا فوق هامات الشجر ؟ ثم قالت الأشجار كلها لشجرة الصفصاف تعالى وكونى ملكة علينا فردت الصفصاف اذا جعلتمونى ملكة عليكن ، فتعالين وضعن ثقتكن فى ظلى ، والا فلتندلع النار فى الصفصاف ولتلتهم ارز لبنان » . ثم هرب جوتام قبل ان يصلوا اليه ويأخذوه سجينا .

يفسر سير جيمس فريزر وهو الذى أورد الكثير من الحكايات الهللينية المماثلة ــ الفرض الأخلاقى لهذه الخرافة فيقول انه السخرية الشديدة من النظام الملكى . واسمح لنفسى ــ ان اختلف مع معاصرى الشهير فى هذه الناحية فآمليخ ، لا يمثل قطعا النظام الملكى المقدس الذى رضى عنه الله والناس ، والذى نجده فى المراحل الأخيرة من تاريخ اسرائيل وفى الملحمة الهومرية ولو عرف ارسطو هذه الحكاية ، واستخدم أمثلة عبرية فى كتابه السياسة لوضع ذلك الرجل فى صف الطغاة المستبدين الذين كانوا يؤلفون تلك الطبقة الكريهة من الرجال المغامرين الطموحين الذين كانوا يغتصبون الحكم فى المدن ، يريدون من ذلك أن يحققوا لأنفسهم ثراء طائلا على حساب النبلاء والأشراف ، الذين كانوا يلاقون الاضطهاد والنفى والتقتيل على أيدى أولئك المستبدين كما انهم كانوا يحققون

هذا الثراء على حساب العامة ممن كانوا يستجيبون لصيحات هؤلاء المغامرين الظلمة .

وأيا كان الأمر ، فالحكاية الواردة فى العهد القديم ، والتى يتحدث عنها تثبت أن هذا النوع الأدبى قديم بالغ القدم .

واذا لم تصادف خرافات النبـــات من الذيوع ما لقيته خرافات الحيوان ، فينبغى ان نبحث عن علة ذلك ، فى الصعوبة التى يواجهها خيال الانسان حين يتصور نباتا يمشى أو يتكلم أو يتحرك ، وهــذه الصعوبة تخف ــ قطعا ــ بالنسبة لخرافات الحيوان .

الفصل الرابع

الخرافة المحلية

● الخرافة المحلية :

خصائصها . خاصية تماثل الجزئيات . الخرافات المحلية ومعالم الطبيعـة . نقد اراء المدرسة الانتروبولوجية فيما يتصل باشتمال الخرافات المحليـــة على مادة تاريخية . الخرافة والاستدلالات الجيولوجيـة . وهجرة الجزئيات المتكررة . والخرافات العائلية . والقصص الانجيلى . والجان والاشباح . الخرافات التاريخية . والكشف عن الدفائن والكنوز . والتسميات الشـعبية ـ والعمالقة والاقزام . وارواح الأسلاف والكائنات السفلية وانواع الجان الاخرى .

● الخرافة المحلية

بين حكايات الجان ، والحكايات المرحة ، وحكايات الحيوان ، ملمح مشترك هو الانتشار والذيوع من نقطة محددة فى كوكبنا .

ولسنا نعلم ـ فى العادة ـ أين كان موطنها الأصلى ، وقد يحتاج تحديد هذا المكان الى أن نقوم بدراسة خاصة وقد نجد أن نظرية تعدد الأصول فى خير حالاتها نظرية سائغة وقابلة للتطبيق على الحكايات التى نشأت فى مرحلة بذاتها ، والتى تتصف ببساطة التركيب ، وتفترض قيام علاقات بدائية بين الأفراد .

أما الخرافات المحلية ، فترتبط ـ على نقيض ذلك ـ بمكان محدد تتولد فيه ، أثناء زمن غير محدد .

فى هذا المكان درجت الخرافات المحلية وتواترت قرونا كثيرة . واذن ، فهى معلومة الأصل والمكان ، ومجهولة التاريخ .

ثم انها لا تهاجر أو ترتحل . فاذا وجدنا خرافات محلية أصيلة ، فى أماكن مختلفة من الأرض ، فلا يجوز لنا أن نقول ان بين هذه الأماكن علاقات تاريخية . وقد تتكفل نظرية تعدد الأصول ، بتفسيرها خاصة عندما تبدو هذه الحكايات وقد نشأت من قاعدة مشتركة بدائية ، واستجابة لأعم قوانين النفس الانسانية . وهى تلتقى مع حكايات الحيوان فى عنصر الشرح والتفسير ، اذ أنه موجود فى الجانب الأوفى منها . وتلتزم الخرافات المحلية بالبيئة الطبيعية التى تولد فيها ، ذلك لأنها تنشأ لتشرح ظاهرة شاذة أو ملمحا شاذا فى هذه البيئة ذاتها . وتعيش الخرافة المحلية الشارحة ما عاشت هذه الظاهرة فاذا اختفت ، بسبب تغيير يقع فى القشرة الأرضية ، اختفت معها الخرافة المحلية . وتتواتر الخرافة المحلية فى موطنها من جيل الى جيل ، لا يصيبها تغيير كبير ، وعندما تلقى على الغرباء ، ويكون رواتها هم الحكماء المحليون ، والغرباء هم جمهور المستمعين ، سرعان ما ينساها الغرباء ؛ الا أن يكونوا من علماء الفولكلور

او الاثريات . وتوضح هذه الحقيقة الكثير من الطبيعة المحلية الثابتة لهذه الخرافات . وينطبق كلامنا كذلك على تلك الخرافات التى تحاول ان تفسر الأسماء على ضوء علم الأسماء الشعبى وان مثل « بعيد عن العين بعيد عن القلب » لينطبق على هذا الانتاج المتميز الذى تبدعه العبقرية الشعبية . وتتصف الخرافات المحلية بأنها قصيرة ، وأن فقراتها أو جزئياتها قليلة العدد ومتكررة . ولقد تنسب جزئية منها الى موطن معلوم ، وقد يكون هذا الوطن متراميا فسيحا .

ولم يبذل الا اقل الجهد فى هذا الميدان ، وكذلك ، فلم تجمع الخرافات المحلية بطريقة منهجية .

واذا كانت الخرافات المحلية لأوروبا الوسطى (٨٦) ، والدانمرك (٨٧) ، وايسلندة (٨٨) ، والجزر البريطانية (٨٩) قد لقيت عناية كافية فان شبه جزيرة اسكنديناوه صنعت القليل فى هذه الناحية (٩٠) ، مع أنها بذلت جهدا ظاهرا فى السنوات الأخيرة للكشف عن حكايات الجان الأوروبية بل ان الحال بالنسبة للخرافات المحلية فى جنوب أوروبا ، أسوأ من هذا . واذا توفرت المواد المجموعة ، يكون أصلح منهج هو منهج التصنيف بالبطاقات الذى يرمى الى تحديد موطن كل جزئية على حدة ونحن نأمل ان تتم هذه الأعمال ، فى وقت غير بعيد .

ولعل بعض الأمثلة توضح لنا صفة ذيوع التماثل فى الجزئيات التى نناقشها ، فحينما نجد اثرا منطبعا على صخرة تزعم الحكايات انه اثر قدم ، لشخصية معروفة . والمثل الكلاسى ، هو بلا شك ، قمة آدم فى جزيرة سيلان ، غير أن هذه الحكايات ، تجرى فى منطقة واسعة من اوروبا . أما اذا كان الأثر يشبه يد الانسان ، فتزعم الحكايات أن هذا الأثر جاء نتيجة لأداء « قسم » كما هى الحال بالنسبة للصخرة المعروفة الواقعة قريبا من « ولفشولز » فقد أقسم الكونت هوبر اوف مانسفيلد احد قواد هنرى الخامس (١١٠٦ ــ ١١٢٥) عشية المعركة الا يهزم بعد ذلك او تنطبع الصخرة ببصمة راسه واطاعت الصخرة ، وما تزال تحمل حتى الآن ذلك الأثر .

وأما الكونت فقد هزم فى المعركة ، وسقط قتيلا .

ويطلق على سلسلة الكثبان الرملية بين الهند وسيلان اسماء مختلفة فهى « كوبرى آدم » أو « معبر راما » وقد انشئت الخرافة

المحلية ، حول حملة راما الذى سار على راس جيش يتألف من القردة ، وعبر به الجزيرة .

ويقول البطل فى هذه الملحمة العظيمة التى تحمل اسمه :

انظرى ! يا حبيبتى حول جزيرة سيلان .
كيف تزمجر أمواج المحيط العالية .
وهى تخفى اللآلىء فى كهوف من المرجان .
وتنضج الأصداف على الشاطىء .
وطريق العبور يترامى .
نصبا تذكاريا لشهيدة راما .
وراما سيظل يهتف .
طول العصور والأزمان .
بخلود عملنا الذى يجل على الفناء .

وحيثما نجد بحيرة ، نسمع الزعم بأنها بغير قاع وان الذين حاولوا قياس عمقها بالدقة انقلب عملهم هذا الى كارثة أودت بهم . وكانت القلاع والأديرة تقع ـ عادة ـ فى وسط البحيرات ويقال ان الفيضانات أغرقتها ، لأن أهلها خرجوا على طاعة الله .

واذا رأينا صخرة مستديرة نحتتها الأمواج ، أو تلا منعزلا ، فالظن أنه سقط وضاع من امرأة عملاقة كانت تحمله بين يديها لأمر ما .

والخرافات المحلية التى تقص سير المواقع ، والمعارك ، بين التنينات تكاد تجرى فى كل مكان من أوروبا ولا يقل عنها ـ من حيث الذيوع ـ تلك الخرافات التى تدور حول تقديم الأضحيات لتشييد المبانى والقلاع ، والكاتدرائيات والكبارى .

ويندر ان تجد فى المناطق الجبلية ، سفحا لا تتعلق به حكاية خرافية ، تقول ان انسانا ألقى بنفسه من فوقه ، أو ان فارسا طارده العدو فرمى بنفسه من قمته ، أو ان عذراء فعلت هذا وهى تهرب من آسرها .

وقد تنتهى الحكاية بكارثة ، أو قد ينجو البطل الهارب بمعجزة .

ونجـد ــ بالقرب من شواطىء البحار ــ وفى مكان القلاع المهدمة المطمورة ، أو المدن التى غمرتها الميــاه ــ حكايات تقول انها أهلكت بسبب المعاصى التى ارتكبها سكانهــا . ونحن نعلم ان هــذا النوع من الخرافات المحلية كان شائعا فى شمال شاطىء البليبونيز فى اكايا ، وندين بهذه المعرفة لباوزانياس الذى كان يداب على جمع الخرافات المحلية . ثم ان هذا النوع ، موجود حتى اليوم فى المناطق الساحلية بفرنسا والمانيا .

ولكن أية قيمة تاريخية ، نستطيع أن ننسبها الى هــذا النوع من الخرافات ؟ .

اذا سايرنا آراء المدرسـة الأنتروبولوجية لما جاز لنـا أن نقلل من هذه القيمة . ذلك ان أنصار هذه المدرسة يقولون لنا ان الذاكرة الشعبية تمتاز بقوة غريبة على الاستبقاء والتذكر .

واذا أعانهــا على التذكر شىء ملموس ــ كوجـود قلعـة مدمرة أو بحيرة فسيحة أو بركة عميقة ــ فانها تتذكر حقائق تاريخية ، واذا لم تستطع تلك الذاكرة الشـعبية أن تسترجع الحقـائق التاريخية استرجاع المؤرخين ، فانهــا تحتفظ بهــا وتستبقيها ، على نحو يدعو الى الوثوق بها بل تستبقيها على نحو دقيق .

وينبغى أن نقول ان هــذا الرأى تدحضــه الحقائق المسلم بها . ولو ان هذه الحقائق أكثر تواضعا مما يحب اعتناقه ، بعض أصدقائنا من أنصار تلك المدرسة . فالأدلة الأركيولوجية تبرر الظن بأن البحر اغار على جزء من شواطىء « اكايا » وأغرق مدينتين .

وينسحب نفس الاستدلال بالحقائق على بحيرة كوباى .

والخرافات الهولندية عن فيضانات دمرت مدنا بأكملها ، ليست من صنع الخيال .

ووراء « فنتا » الألمانية أو السلافية على الأحرى ــ وهى الواقعة على ساحل بومبرانيا ــ تلوح مدينة « جولين » القديمة التى دمرتها الفيضانات أو دمرها القرصان .

وينطبق هذا التدليل بالحقائق على الخرافة البريطانية الشهيرة

التى تدور حول مدينة « ايز » الغرقى فجغرافيو « رافنا » (*) ، يذكرون مدينـــة باسم « كريز » أو « كرس » تقـع فى مكان قريب ، ومـورو ــ الذى عاش فى القرن السادس عشر ــ كتب يقول :

« ما يزال اناس متقدمون فى السن ، يؤكدون لنا انهم شاهدوا بقايا الأسوار القديمة أثناء حدوث جزر منخفض ، وبعد أن كانوا قد فرغوا من صيد السمك » وهناك مثل آخر ، خير مما سبق ، يعرفه قراؤنا ، وذلك هو القصة الدائرة حول سودوم وعمورية فلا نزاع فى أنها تنتمى الى هذا النوع من الخرافات . وتشبه معاصى أهلها ، معاصى اهل فنتا وايز ، التى تسببت فى تدمير هاتين المدينتين .

ولا يخالجنا شك كذلك فى حدوث تلك الكوارث فالتكوين الجغرافى لوادى الأردن ، والانخفاض الذى يشمل البحر الميت ، وامتداده ــ أى البحر الأحمر وبعض بحيرات شرق أفريقيا ــ كل ذلك يرجح لدينا حدوث تلك الكارثة وان كنا نتغاضى عن الخيالات الشعرية مثل سقوط النار من السماء بيد اننا لا نقبل القول بأن كل حكاية خرافية ، تشير الى مدينة تاريخية أو تتعلق بقلعة أو دير ، فلو كان الأمر كذلك ، لزاد عدد ما تحت سطح البحر من هذه الأماكن » على عدد ما تحمله الأرض منها .

والفكرة فى ذاتها واضحة التهافت والسخف .

وبالاضافة الى الذواكر التاريخية يجدر بنا أن ندرس عاملين آخرين هما : الاستدلالات الجيولوجية وهجرة العناصر الجزئية المتـــكررة (الفقرات) .

وليس شرطا أن يكون الانســـان جيولوجيا ضـليعا ــ كما يقول ســير جيمس فريزر ــ ليســـتدل ــ بنـــاء على وجـــود مجموعة من الشواهد ــ على انه حيثما نرى الآن ارضا يابسة ، فقد كانت هناك مياه جارية ذات يوم ، او انه حيثما نرى الآن ميـاها جارية ، فقد كانت هناك أرض يابسة .

وكان الناس يخطئون الصخور فى أماكن اخرى ، فيتوهمون انها أسوار ، فالبحارة القدماء فى سانت مايو كانوا يظنون انهم يرون مدينة

(*) Ravenna

كوزى التى شيدت على ثلثمائة تل ، وقد صارت حجارة معلقة تطل على البحـر .

وكان آخـرون يظنون بالمثـل أنهم يستطيعون أن يتبينوا أسقف البيوت ، وأبراج الـكنائس فى المدينـة التى اجتاحهـا الطوفان على حين غرة .

واخيرا ، فمما يتمشى مع المنطق ، ان نجد قدرا كافيا من المخالطة ، فى منطقة معينة .

هذه المخالطة كانت حرية بأن تحيط سكان الأماكن المأهولة بأخبار جـيرانهم ، فاذا لم تحطهم بهـا كاملة فلا اقل من ان تحيطهم بأهم عناصرها .

وهـذا بدوره ، جدير بأن يفسر لنـا التماثل الموجود بين أنواع الحكايات الذائعة فى منطقة محددة .

بيد انه بالرغم من ورود فكرة الكارثة ومعصية البشر ، فى العهـد القديم ، الا ان هذه الأفكار تعبر عن العصور الوسطى تمام التعبير .

ولعل تصور أهل البحر الأبيض المتوسط القدماء لهذا الأمر ، يبدو واضحا فى الخرافة الايطالية الخاصة بفيضان بحيرة « ألبان » ، وان كنا نرجح أن تكون هذه الخرافة قد نشأت من أصل مثقف أو شبه مثقف .

ولقد زعم ملك من ملوك « البالونجا » ـ اختلفت أسماؤه بين ريمولوس ورومولوس واميليوس سيلفيوس ـ انه اله فى هيئة بشر وقلد رعود جوبيتر وبروقه (وتلك ذواكر تحملنـا على أن نتـذكر سحر المطر القـديم) .

وجزاء له على كفره وعصيانه ، سقطت عليه ، صاعقة منتقمة ، ففجرت بحيرة البان واغرقت قصره .

وذكر مؤرخ قديم أنه كان فى استطاعته الرائى أن يرى بقايا القصر وهى رابضـة فى قاع البحيرة ، حين ينخفض منسوب المـاء ويستقر سطح البحيرة ! .

وهـذه الخرافة ، تبـدو مزهوة بثقافتها الغزيرة ، اذا قيست الى خرافات العصور الوسطى التى عرضنا لها فيما سبق .

غـير أن خطيئـة الاسـتعلاء والتطاول على الآلهـة (Hubris)

تحل محل معصية الفجور التى ارتكبها سكان المدينة الغرقى من أهل العصور الوسطى (٩١) .

اما حكايات القرابين المقدمة لتشييد المبانى ، فقد اكتشفت هياكل عظمية بالفعل ، عند هدم الأبنية . التى تدور حولها هذه الحكايات .

يجدر بنا ان نقول ان قرابين البناء ، هى بقية عادات ، متأصلة ، ظلت موجودة فى شمال المانيا ، حتى القرن التاسع عشر .

ولقد ، كان من الطبيعى ان يسلم الذهن الشعبى بأن هذه القرابين كانت تقدم عند تشييد كل بناء يرتفع كثيرا عن الأرض المنبسطة ، وكان من الطبيعى كذلك أن يؤدى اكتشاف تلك الهياكل العظمية عند هدم المبانى ــ الى تأكيد الفكرة العامة الدارجة .

ويرتبط معتقد قرابين البناء ، بالاعتقاد فى انه اذا دفن بطل بعد موته عند باب مدينة أو فى منطقة حدود دولة ، فانه يحمى المدينة من السقوط فى قبضة العدو ، ويحمى الدولة من الغزو الخارجى .

وهكذا نجد فى « الهرقليين » ليوريبيدس أن البطل أيرثيوس يعد اهل أثينا ــ قبل تنفيذ الاعدام فيه بأمر من الكمينا ــ يعدهم بأن يحمى أرضهم من أعدائه ويحمى اعوانهم سكان جزر البليبونيز ، وذلك وفاء منه ، للجميل الذى أسداه أهل أثينا اليه حين توسطوا لصالحه .

ولكن من الغريب أن يدفن جسمه ورأسه المقطوع ، كل فى ناحية ، وعلى مسافة بعيدة ، وأن يدفنا فى موقعين هامين من الناحية الاستراتيجية . فاذا ترددت هذه الخرافة فى شمال أوروبا وفى بريطانيا ثم شاعت فى اسكنديناوه ، فلسنا محتاجين الى أن نفترض أن ذلك حدث بفضل التأثيرات الكلاسيكية . ذلك ان عقيدة البطل وعبادته ــ وهى فكرة تسرى فى هذه الحكايات وتتحول فى العصور الوسطى الى فكرة الاعتقاد فى القديسين وعبادتهم ــ هذه العقيدة ، تستطيع أن تشرح لنا كيف نشأت تلك الحكايات ، كل على حدة ، وفى استقلال بعضها عن بعض .

غير أن هذه الحقيقة الجوهرية ، لا تنفى حدوث استعارات أدبية خالصة وما أن تصير هذه المادة ، خرافة ذائعة حتى تشق طريقها الى الأدب .

وقد يجلو هذا الأمر ، ويفصل فيه ، أن نعقد مقارنة دقيقة بين الصيغ المختلفة للخرافات .

وأما الحكايات التى تدور حول الوثبة القاتلة — سواء كانت نهايتها سعيدة أم فاجعة ، فانها تثير فى الذهن ، حادثة اخرى ، هى القفزة الاغريقية المعروفة من فوق الصخرة البيضاء .

ولا نستطيع أن ننكر أن بعض الشعائر المماثلة ، كانت تعيش فى أوروبا الشمالية والوسطى ، وكانت تبدو فى حالات العقاب على الجرائم الخطيرة ، أو حكايات الانتحار .

ولعل هذه العادات ، قد أنشأت خرافات من النوع الذى أشرنا اليه .

لكنا لا نستطيع أن نجزم بأن هذه العادات كانت تمارس دائما بالقرب من كل حجر أو صخرة ، ذكرتها خرافة من هذه الخرافات .

والحق أنه ما أن تروى حكاية عن جرف شاهق ، حتى تلحق النادرة ، بجرف آخر مجاور .

ولقد نستوثق من الأصول التى تولدت عنها بعض الخرافات المحلية لكن هذه الأصول ، لا تكون أصولا تاريخية . فاذا استوطن الناس بلادا جديدة ، ووجدوا فيها آثارا شاهقة بناها أهلها الأقدمون ، عزوا هذه الآثار — من تلقاء أنفسهم — الى الخوارق أو ردوها الى الجبابرة العتاة ، أو نسبوها الى الشياطين والمردة أو عزاها أهل الشرق الى الجان .

وهكذا نسمع أن غنابيز فرنسا والجزر البريطانية هى من صنع العفاريت وان أطلال محارق الجير الرومانية — فى رأى الفلاحين الألمان — هى من صنع الشياطين ، الذين اقتسموا الأرض مع الآلهة ، وأقاموا الأسوار ، بيانا للحدود ! .

وهكذا ، فبقايا المدرجات الرومانية فى جنوب فرنسا تسمى « قصر جاليين » و « جاليين » فيما نعلم أميرة مغربية كانت زوجة للامبراطور شارلمان . والاهرامات عند فلاحى مصر المحدثين من عمل الجن ، والابنية الهللينية فى نظر الفلاحين الرومليين من عمل الجبابرة

العتـــاة ، وهــذه الأطلال ذاتها ، لا تنسب ــ فى المناطق القريبـــة من الدانوب ــ الى رجل آخر غير تراجان فاتح داسيا .

ولا يخفى على أحد ، هذا المنطق والتسلسل النفسى الذى يسمح بنشوء هذه الأوهام . فآثار الأقدمين ، تبدو خارقة فى نظر شعب ، ترك وراءه أيام مجده ، وخاصة حين تقاس هذه الأمجاد الى تخلف هذا الشعب وانحداره .

ولست اشك فى ان يقول سكان امريكا عام أربعة آلاف نفس القول عن مبانى وولورث .

ولكن يجدر بنا أن نتذكر انه اذا اشتملت الشعائر والمعتقدات على حادثة تاريخيـــة ، فلن تستبقى الخرافة ــ فى خير حالاتها ــ الا نواة صغيرة من هذه الحادثة التاريخية ولا شىء أكثر .

أما حين نجد عكس هذا ، فيجب أن نحسب حساب التأثيرات الثقافية ومثال ذلك أن ذكريات المعـــارك الحربية ، تعيش طويلا بعد وقوعهـــا . واذا صدقنا ما قاله لويس هيمون ، من أن سيدة عجوز كانت تعيش بالقرب من واترلو ، وكانت قد شاهدت المعركة العظمى اثناء طفولتها ، ورات الامبراطور عن قرب ، ــ اذا صدقنا هذا ، فالأمر المؤكد ، أن العجوز كانت تعرف القليل النادر عما كان يجرى حولها ، ولعل اقصى ما وصل الى علمها عن المعركة ، لا يزيد عما ذكره كاسبار العجوز عن معركة بلنهايم حين قال :

ــ كانت انتصارا عظيما ... !

ومن الحماقة ــ قطعا ــ أن نبحث فى القصص الشعبى ، عما هو اكثر من هذا .

وتمدنا خرافة رونسفو بمثل جيد .

وهذه الخرافة هى الأصل الذى نعرفه لأغنية رولان الشهيرة .

وفى مناطق السفوح بجبال البرانس ، عاشت ذكرى معركة حربية ، طوال قرون عــديدة ، وكانت تلك المعركة قد انتهت بهزيمة الغزاة الأجانب وهم الفرنك كما توجد فى هذه المناطق ، صخرة فيها كسر ، وتدور حولها حكاية شعبية مؤداها أن فارسا من الغزاة الغرباء ــ كان عملاقا دون شك ــ أراد الا يخسر سيفه ، ويبدو أن السيف كان بالغ

الضخامة ، فحاول أن يحطمه فيضرب به الصخرة ويكسره ، لكن السيف كان قويا ضخما ، حتى انه كسر تلك الصخرة فأحدث فيها ذلك الصدع .

وما كان لهذه الخرافة أن تنمو ، وتبلغ نطاقا أوسع من هذا ، لو لم يكن بالقرب منها دير يضم رهبانا ، وكان الرهبان حريصين على أن يجتذبوا الزائرين الحجاج اليه .

والحق أن الرهبان كانوا يعرفون أسباب المعركة ، لأنهم كانوا يملكون كتاب اينهارد الموسوم حياة كارولىVita Caroli ، لكنهم أخذوا يزيدون الخرافة ويوسعون رقعتها ، فأضافوا الحقائق العلمية الى الحكاية الشعبية .

وهذا المزيج الشهير ، يؤلف جوهر الملحمة المعروفة ، كما يشرحها بيديه شرحا مقنعا للغاية .

ولدينا استثناء من القاعدة التى ذكرناها آنفا عن قصور الذاكرة الشعبية فيما يخص الخرافات المحلية .

ولعلنا نجد هذا الاستثناء فيما أسميه بـ « الخرافات العائلية » لأنى لا أجد اسما آخر خيرا من هذا الاسم .

وأكثر العائلات الايرلندية القديمة : آمنت بروح النذير ، وهى روح « عائلية » ينذر ظهورها بحدوث وفاة وشيكة فى العائلة .

هذا المعتقد ليس ايرلنديا خالصا ، وليس سلتيا ، ذلك أنه موجود ذائع فى القارة الأوربية ، فأغلب الأسر الملكية ــ بما فيها الهوهنزلين ــ لها هذه الروح المنذرة .

غير أن الجانب الشعبى من الخرافة ينتهى بانتهاء القول بوجود روح عائلية وظهورها بين الحين والحين . وأما ما يقال ــ بعد ذلك عن كيفية نشوء هذه الروح : والأسباب المحددة التى تجعلها تلحق بعائلة من تلك العائلات ، فمسائل لا تتصل أدنى اتصال بالخرافة الشعبية ذلك ان هذه التفاصيل جاءت من المستويات الاجتماعية العالية ، واتخذت صورة تواريخ الأسر وانسابها وايامها ، ووقائع الحروب المحلية وغير ذلك .

ولقد تتعمق بعض هذه الاخبار صفوف العامة ، لكنها لا تكتسب اصالة حقة بينهم ، ولا تنتشر فى صفوفهم .

وليس عسيرا أن نعرف عمر هذه الخرافات المستفيضة ، ومع ان هذا الموضوع جـدير ، بانشاء دراسة جيدة فيه ، الا انه فى وسعنا ان نقول ان كثرة هذه الخرافات ، لها « مذاق » القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر .

والهاتف بالنـذير ، أو روح النذير ، هو ـ فى العادة ـ محظية مهجورة ، تنتقم لنفسـها من الرجل الذى منحتـه قلبها ، وخصته بحبها ، كما انها تنتقم من عائلته بالطريقة التى اشرنا اليها .

ثم أن اختلاط الخرافات المثقفة بالخرافات الشعبية ، يتخذ أشكالا اخرى ، فلم يكن للكتب ، كبير اثر ، اثناء انتشار الامية فى العصور الوسطى ، بل الى وقت غير بعيد من عصرنا الحديث .

غير أن كتابا واحـدا ، ينفرد دون هذه الكتب ، يحيط به أبسط الناس واشدهم انغمارا ، وذلك هو العهد القديم ، التى كانت المواعظ تلقى عليهم منه ، فى أيام الآحـاد المتوالية . فلا تأخذنا الدهشة ـ اذا ـ حين نجد عددا وافرا من الاشارات الانجيلية ذائعا فى الحكايات الشعبية التى يتداولها الناس فى أنحـاء أوروبا ، أو حين نرى أن بعض هـذه الحكايات صورا منسوخة من قصص التوراة والانجيل .

والمثل الكامل ـ لهـذه الحال ـ هو الحكايات المحلية التى تروى سيرة تدمير سودوم وعموريه .

وحين تبرز معاصى الناس فى الأماكن المزدحمة تكون قصة مأخوذة من التوراة ، اقدر على التفسـير والشرح ، من أى مرجـع تاريخى أو غير تاريخى .

واذا روت خرافة محلية ، قصة اشخاص انخسفت بهم الأرض ، كانت خرافة « داتان » و « ابريام » النموذج المحتذى ما فى ذلك شك .

وهناك خرافات محلية اخرى ، تدور حول قصص انهيار الأسوار والأبراج ، عندما تتقدم منها جحافل العدو .

وهذه الخرافات ـ فيما يبدو ـ موضوعة على غرار قصة الاستيلاء على الناصرة .

وأما الحكايات التى تروى لنا كيف أن عدوا عبر نهرا أو خليجا وكيف أن المياه توقفت عن الجريان أثناء عبوره ، فتنسج على غرار الأنموذج الأصلى فى قصة عبور بنى اسرائيل للبحر .

وقد يلوح أنى وضعت العنصر التاريخى فى أدنى مرتبة . لكنى لا أحب أن أزعم أن هذا القصص قليل الأهمية ذلك أنه يجب أن نضم مزايا أخرى ، فضلا عن الوقائع التاريخية ، التى يجدر بالمؤلفات التاريخية ، أن تطاولها فى المعلومات المقطوع بصحتها والموثوق بها .

وكثيرا ما تشرح الخرافات المحلية ، السنن التى بادت من الاستعمال ، ذلك أن هذه الخرافات تستطيع أن تلقى أضواء كاشفة على تلك الخرافات .

والمثل الكلاسيكى ، عند قرائنا الانجليز ، هو ــ بلا ريب ــ حكاية اللادى جوديفا التى درسها أ . س . هارتلاند بطريقة ممتازة .

ولعلنا نذكر أن هذه الحكاية حكاية شارحة أو غائية ، وضعها الرواة ، ليشرحوا فيها ، بعض السنن المندثرة ، والممارسات الزراعية البائدة ، التى تبلغ ذروتها فى موكب المراة العادية .

وثمة حكايات من هذا القبيل ، تنتشر وتذيع فى أواسط أوروبا ، وفى ألمانيا الجنوبية والنمسا وسويسرا على نحو خاص .

تقص هذه الحكايات ، قصة مدينة وقعت ــ ذات يوم ــ تحت ضغط الحصار الذى فرضه العدو ، وانهار الأمل فى انقاذها ، وعندها ، تقدمت الصفوف امراة مقاتلة « مسترجلة » ،وشدت من عزيمة الجنود المتخاذلين ، وأحرزت النصر الرائع ، بفضل ما ردته على الجنود . من شجاعة وقوة بأس . وقد تضيف الحكاية أن مجلس المدينة انعقد فى جلسة مهيبة ، وقرر ــ اعترافا منه بفضل هذه السيدة ــ أن يمنح جنس المراة ، قدرا من التكريم .

وقد يتخذ هذا التكريم ، شكل اقامة احتفالات تشترك فيها النساء وحدهن ، أو يبدو فى شكل منح المراة ، حقوقا وامتيازات أخرى .

وانه لأمر طبيعى أن تكون هذه الحكايات قد دبرت ووضعت ،

لتشرح علة هـذه المهرجانات ، واسباب تنظيمها ، أو لتشرح هـذه الامتيازات التى لم تكن تناسب حالة المرأة فى العصور الوسطى .

ومن المرجح ـ اذا ـ أن تكون هذه الاحتفالات ذاتها ، بقايا سنن وثنيـة ، تقابل احتفالات « تسموفيا » الاغريقية التى كانت تتصـل بفـكرة الخصوبة ، والتى كانت تضم النسـاء وحدهن ، ولا يشترك فيها الرجال .

وأما الخرافات الكثيرة المنتشرة فى القارة الأوروبية ، والتى تقول لنا أن أناسا بذاتهم ، قد نزلت بهم لعنة قديس أو لعنة رجل من رجال الدين ، لأنهم رقصوا فى الأيام المقدسة والتى تقول لنا كذلك أن هؤلاء النـاس مكتوب عليهم أن يظهروا فى اليوم المقـدور فيرقصوا رقصا جنونيا ، وأن يرقصوا كذلك ـ حين يبعثون ـ فى منتصف الليل ـ هذه الخرافات تشير الى أن بعض الرقصـات الوثنية كانت تمارس فى أسواق العصور الوسطى (وكانت بقايا ممارسات دارسة) ثم حرمها رجال الكنيسة .

وتدل الحكايات المعروفة ، عن ركوب الساحرة فى ليلة القديس ولبورجس أول شهر مايو الى جبل هرتز أو فيافى بلاكولا الجرداء فى السويد ـ تدل هذه الحكايات على أن الممارسات الوثنية كانت موجودة فى الاحتفال بمولد بلتان السلتى وانها ظلت سارية الى العصور الوسطى المسيحية ثم حرمها رجال الكنيسة فجعلوا الكائنات الوثنية المقدسـة شياطين ، وجعلوا الناس الذين يمارسونها ، سحرة ضالين .

بيد أن العقيدة الوثنية ، عاشت فى قلب حكايات الغوامض ، لمدة طويلة بعد ظهور المسيحية .

ونحن نعرف ، من التطورات المماثلة التى وقعت فى بلاد الاغريق ، أن الغوامض نشأت أول ما نشأت ، تحت أجنحة الاحتفالات والطقوس ، الخاصة بعقائد محرمة .

ويحسن بنا أن نذكر أن السحرة الفرس كانوا ـ كما قال الجغرافى العربى ابن حوقل الذى وضع كتابه عام ٩٧٦ ميـلادية ـ يلتجئون الى جبال « دماواد » وهو جبل الالهة (الأوليمب) فى الديانة السابقة على الزرادشتية .

« هناك خرافات كثيرة تروى عن جبل ديناوند ومن عادة المهرجين من شتى أنحاء الأرض أن يلتقوا هنـــاك ـ نشرة أولينبروك الصفحة التاسعة) (*) .

وهكذا ، لم يغير رجال الكنيسة الموضوعات القديمة وحدها ، فأنشئوا ـ بذلك ـ فولكلورا جديدا ، بل اذاعوا انواعا أخرى من الخرافات المحلية التى نقلوها عن خرافات البحر الأبيض المتوسط .

وتنتمى الى هذه الخرافات ، تلك الحكايات التى تدور حول قديسين ألقوا بمتاعهم على الأرض ، فتفجرت الينابيع من تحتها ، كما تنتمى اليها كذلك ، الحكايات التى تدور حول الصور المقدسة التى تضحك وتبكى ، تنزف العرق أو الدم ، تشير برأسها ، ثم تعود الى مكانها الأول ، اذا ما أزيحت عن موضعها .

وهذا النوع من القصص ، نجده فيما وضع مؤلفو الاغريق والرومان القدماء من كتابات .

ولا يسعنا أن نفصل هذه الخرافات عن حكايات الخوارق الدائرة حول العذراء والقديسين ، وهى التىكانت رائجة فى العصور الوسطى ، حيث كانت تنطبع بطابع مسيحى أو وسيط ، ولا نقول طابع اكليروسى .

وليس بنا حاجة أن نقول ان كل حكاية من هذه الحكايات ، توحى بأن لها أصلا قديما موضوعا ومنحولا . ذلك أن التماثل الشامل ، الذى نجده فى هذه الحكايات ، يدل أكثر ما يدل ، على أن الحكايات ، تواترت وذاعت من مكان الى مكان ، فى « منطقة » بعينها أو « مناطق » بذاتها .

ولا أهمية لتحديد التاريخ اذا اضيف اليها ذلك التحديد .

وخذ مثلا « أنموذج » حكاية اللص الشهيرة الذى يطلق الرصاص على الصليب ، فيرتد اليه الرصاص ويقتله .

هذه الحكاية روتها لى منذ اثنتى عشر عاما تقريبا ، صبية بلجيكية

(*) Multae de eo (Monte Dianawend) fabulae n arrantur, in his, praestigiatores ex omnibus orbis terrarum partibus huc se conferre Solere (Ed. Uylenbroek, p. 9).

لاجئة ، ونسبت مكان الحادثة الى ناحية بالقرب من مالينز ، وجعلت تاريخ حدوثها الشهور الأولى من الحرب العالمية الكبرى .

وكثرة كثيرة من الخرافات المحلية ، تضرب بجذورها الى الخرافات والأوهام الشعبية التى سنتناولها بالحديث المستفيض فيما بعد .

وهكذا ، نجد ان الحكايات التى تتعلق بسحر الساحرات ، واللصوص ، والماسون ، واخراج العفاريت من الأجسام البشرية ، وكتب السحر (ككتاب اجريبا على سبيل المثال) والأمهات اللائى يمتن فى المخاض ثم يرجعن لارضاع ابنائهن ، والحكايات الدائرة حول العفاريت التى تظهر فى شكل حيوان ، وما نسميه بالنظرة السفلية — كل هذه الحكايات ، نشأت من اعتقاد واقعى بهذه الأشياء وكانت تريد أن تبرر الخرافات التى صدرت عنها .

واذا درسنا هذا النوع من المعتقدات والممارسات ، سمعنا — معها تلك الخرافات المحلية ، التى تسايرها ، وتشرح صحة الأساس الذى بنيت عليه .

وينبعث غير قليل من الخرافات المحلية ، من تجربة الأحلام ، التى سبق لنا أن تحدثنا عنها فى الفصل المعقود لحكايات الجان . ومثال هذه الخرافات ، حكايات « الكابوس » ونوادر الأشخاص الذين يخطفون لتؤدى عنهم غرامة أو دية ، ونادرة لغز ابى الهول ، ونوادر مطاردة المردة والأبالسة وكذلك فليس لقصة السندباد البحرى المعروفة الشرقية ، او قصة العجوز والبحر المعروفة فى انحاء القارة الأوروبية . ليس لهذه القصص اصل آخر غير الأصل الذى نشير اليه وهو الأحلام .

وتفترض بعض الخرافات المحلية ، أن تكون قد سبقتها الى الوجود ، تخيلات شعبية قديمة .

ومن ذلك ، أنموذج « المطاردة الوحشية » الذى نلقاه ذائعا فى أواسط اوروبا ، والدانيمرك ، وهولنده ، وبلجيكا ، وشمال شرق فرنسا .

تعود هذه الحكاية — بلا نزاع — الى ذلك المعتقد القديم الذى كان يرى ان الموتى يركبون ريح الليل ، وينفثون أحقادهم — وكل معتقد بدائى — يرى أن الميت ينفثها على الأحياء — فتصيب اولئك الذين يشاء سوء طالعهم أن يعترضوا طريق الموتى ، بغير أن يأخذوا حذرهم .

وليس هذا الظن ، تيوتونيا بالتخصيص كما يرى الكثيرون – بل كان موجودا في بلاد الاغريق ، حيث ارتبط باسم هيكات ، وفي بلاد الهند ، حيث نشأت منه مقدمة الراميانا الشهيرة ، وكان موجودا كذلك في بافاريا ، حيث نرى أن حكاية الملك واتزمان ، صدرت مباشرة ، عن تلك المعتقدات والأوهام .

وأما المارد الذى يقود جيشا وحشيا ، فجدير بأن يصبح أميرا كافرا ، تؤهله قسوته ، أن ينال لعنات القديسين أو الأولياء .

ويحدث هذا التحول – من المارد الى الأمير الكافر – في أماكن مختلفة ، ليس بينها اتصال .

ويضارع الحكايات السابقة من حيث القدم ، حكاية « جنى الماء » الذى يظهر فى صورة « فرس البحر » فيسحب معه الانسى الغافل ، الى أعماق المستنقع أو البحيرة .

ولا يساورنا شك فى أن هذه الفكرة التى تنتشر فى مئات الحكايات المحلية ، فى أوروبا ، وبعض أجزاء آسيا – تدخل فى تكوين الخرافة المعروفة ، عن مصرع الملك تيودريك الذى جمح به حصانه الشيطانى ، فلم يستطع الملك أن يترجل عنه ، ولقى مصرعه .

وتنشأ خرافات كثيرة ، من خداع البصر ، حين يتكرر الخداع ، فيتوهم الانسان أوهاما ، لها أشكال وملامح .

ونحن ننسب الى هذا النوع ، خرافة الضفدع القزم المنتشرة فى المناطق المجاورة لبحيرة كونستانس ، والخرافات الفرنسية التى تدور حول الجنيات ، اللائى يغسلن ثيابهن ، فى هداة الليل ، على شواطىء بحيرة أو مجرى مائى .

وأما هاته الجنيات فقد كن فى الأصل أمهات قتلن سرا ، أطفالهن المولودين سفاحا .

وأما أصل حكايات الأشباح المحترقة ، فيعود الى ظاهرة الاشعاع الفسفورى المألوف فى المناطق الواقعة حول المستنقعات والبرك .

ثم أن بعض الأماكن ، تشجع على خداع السمع ، لأنها تردد الأصداء ، ومن هنا ، نشأت تلك الخرافات التى تزعم أن أشباحا عطست

او تجشات بأصوات عالية ، او انها كانت تلقى أجزاء من قصائد شعرية ، تنتظر ان يمر بها عابر سبيل طيب فيشكرها ويقول لها :

ــ بارك الله فيك ! .

او يتم لها هذه القصيدة الشعرية .

واذا تدرجت هذه الخرافة شيئا ، جاز ان تزعم ان قسيسا : حكم عليه بعد الموت ، ان يزور كنيسة قديمة او مهجورة ، ويلقى فيها التراتيل ، ما ان يأتى الليل ، أو حكم عليه بأن يرتل هذه الأناشيد فى ليلة محددة بذاتها من العام ، وذلك لأن هذا القسيس كان فى حياته يهمل فى اداء واجباته الدينية .

ويتحلل القسيس من هذا الواجب الدينى اذا ساقت اليه الأقدار انسانا ، مهيئا نفسيا ، لأن يتلقى القداس من يد هذا القسيس .

ولقد كان خداع السمع سببا كذلك فى نشوء الحكايات المختلفة الأوروبية ــ شمالها ووسطها ــ عن موت بان ... ففيها ، ينادى هاتف فلاحا يعبر الطريق ، ليقول بعد أن يعود الى بيته أن فلانا قد مات ، فاذا قص الفلاح تلك الحكاية على أهله ، سمع على الفور نواحا آتيا من خارج البيت (٩٢) .

ولعلى أضيف أن نفرا من الباحثين عزوا أصل خرافات « الصيد الوحشى » الى أن الأوز البرية ، والطير البرى الضخم ، ترفع أصواتها بما يشبه العويل ، وهى تطير عبر أواسط أوروبا ، أثناء هجرتها الى مناطق البحر الأبيض المتوسط ، وعودتها منها . ونحن نرى أن العوارض الذاتية ، تصنع ــ بصفة كاملة أو جزئية ــ تلك الخرافات التى تدور حول الأناس الذين سخطوا فصاروا ذئابا ، وعن خرافة « الركونج » الدنمركية الواردة فى قصيدة جيته المعروفة ، وهى كذلك تصنع هذا النوع من الحكايات الذى يدور حول الرجال الذين ، تحملهم المطاردات الوحشية الى مسافات شاسعة أو تحملهم اليها ، صفوف من الجن ، أو الساحرات . وهكذا ، نسمع أن ريترفون شارفنشتاين من أهل القرن السابع عشر ، اختفى فجأة ذات يوم ، ثم ظهر بعد مضى اعوام ، وقال أن الساحوات خطفنه ورفعنه الى الجو ، من منطقة الراين ووضعنه فى مكان ما من تركيا ، حيث اضطر الى العودة منه سعيا على الأقدام .

ولم يكن ما حدث للرجل الطيب أكثر من اضطراب عقلى ، صاحبه فقدان تام للذاكرة ، فلم يعد يعرف من هو (٩٤) .

وهذا العارض ، ليس نادرا على الاطلاق ، وقد حدثت حالة مثيرة ، منذ سنوات ، فى مدينة سانت بول الأمريكية الواقعة فى ولاية مينيسوتا . وامعانا فى المبالغة ، صار بطلها قسيسا بروتستانتيا وليس فارسا . وأقحمت الاشاعات الساحرات فى القصة ، ولو انى لا أشك فى أن هاته الساحرات كن أجمل واشد اغراء من الساحرات اللائى جاء ذكرهن فى الحكاية الألمانية .

ومهما يكن من أمر ، فقد نسج فيكتور هوجو ، حكاية من هذا النوع ، وضمنها رائعته « الراين » وهى احدى عيون الأدب الرومانسى(٩٥) .

ويجب أن نتحدث قليلا عما نسميه بالخرافات التاريخية ، فليس ثمة شك فى أنها تحمل هذه التسمية لأنه ليس لها علاقة بالتاريخ .

وقد يتعذر علينا تماما أن نفرق بين النوادر وبين الخرافات التاريخية . وسنضرب مثالا انجليزيا ، هو حكاية « الملك وطحان دى » الذى يقال انه نادى الملك باسم « هال » غير أننا لا نعرف أى هنرى نعينه قصة الطحان . فقد توافق ـ بقيرحرج ـ على أنها تشير الى اى هنرى انجليزى ، من هنرى الأول الى هنرى الثامن ، ولو أننى أعتقد أن منشىء القصة الذى ذكر هذا الاسم لأول مرة ، كان يشير الى الملك هنرى السادس وانه كان متأثرا بوليام شكسبير ففى الفصل الثالث من مسرحية « الملك هنرى السادس » يتفلسف الملك بنفس المنطق والأسلوب .

وقد نسبت حكاية الامبراطور ورئيس الدير ـ التى ذكرها الدكتور أندرسون ـ الى عديد من الملوك يتراوحون بين فرعون مصر وفردريك الأكبر ملك بروسيا .

وهذه الحكاية ذاتها ، تعزى فى سيليزيا البروسية الى الملك شارل الثانى ثم الى الملك فردريك الثانى ، ذلك أن هذين الملكين انقذا البروتستانت فى سيليزيا من حكم آل هبسبورج .

ولقد يعزو احد أنصار عائلة (أورانج) حكاية عن بريان بورد فى أيرلندة الى الملك ويليام الثالث . فاذا نحينا هذه الوقائع جانبا ، وهى تؤثر ـ لا نزاع ـ فى حظ الحكاية من الصدق التاريخى ، وجدنا ان الحكاية بعد ذلك قد فقدت سندها الشعبى وذيوعها على الألسنة .

ويقال ــ كثيرا وعلى سبيل المثال ــ ان قسطا وافرا من الحكايات الدائرة حول الاسكندر الأكبر رددها هو وأشاعها ، ذلك اذا لم يكن قد اختلقها جملة وتفصيلا .

وينطبق نفس الشيء على نابوليون الأول .

وتعمد بعض العائلات الملكية المتهالكة فى عصرنا الحديث الى حشو كتب التاريخ التعليمية ، بهذا النوع من القصص الموضوع الذى يزيف التاريخ ويزيف الفولكلور .

ولا يقتصر هذا الاتجاه على النظم المثالية وحدها ، فقد اظهرت الأحداث الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كم تصطنع بعض الدوائر من زيف ، وتذيع من لغو ، حين يمس الحديث أسماء أعلام مشهورين كجورج وشنطون .

ولدينا مثال جيد ، لهذه الخرافات التاريخية ذات الطابع الذى يقارب الطابع الأدبى والتى تلحق بأسماء حكام كبار ، ولم تستبعد بعد من الدراسات الموضوعة فى علم الفولكلور ، ونعنى بهذا المثال تلك القصة التى تجرى أحداثها فى مدينة لايجنيتز ، بسيليزيا ، والتى تعزى مرة الى الملك شارل الثانى عشر وتعزى مرة ثانية الى الملك فردريك الثانى .

تقول القصة :

ذات مساء ذهب الملك وقد ارتدى ثياب الجندى العادى ــ الى حانة فى هذه المدينة ، وطرده صاحب الحانة قائلا له أن المكان مشغول كله .

غير أن خادمة طيبة القلب ، سمحت له بالدخول الى مخزن الغلال الواقع خلف الحانة . وفى باكورة الصباح التالى استيقظ الملك وكتب على باب الحانة هذه الأبيات التى تتعذر ترجمتها وهى :

لو عرف بعض الناس ، بعضهم الآخر ! .
لاحترم بعض الناس بعضهم الآخر .
ولما لم يكن بعض الناس يعرف بعضهم الآخر .
فان بعض الناس ينسون بعض الناس فى بعض الأحيان ! (*) .

(*) Wenn mancher Mnan wüste, wer mancher Mann wär,
Gäb mancher Mann manchem Mann manchmal mehr E'hr.
Da mancher Mann nicht weiss, wer mancher Mann ist,
Mancher Mann manchen Mann manchmal vergisst.

تتصف هذه الحكاية بكافة صفات الحكاية الشارحة التى وضعت لتشرح أصل قواف شعبية ، أو لعلها وضعت لتشرح بعض القوافى ذات الأصل الأدبى ، والتى نسينا مصدرها الأدبى الأول .

ومن السخف أن نبحث عن النواة التاريخية فى هذه القصة كما انه سخف وعبث أن نبحث عن شجرة الكرز المنسوبة الى جورج وشنطون .

وتضاف الى الحكايات التاريخية ـ على نحو من الانحاء ـ تلك القصص التى تدور حول ازياء الحرب وشاراتها ، ونداءاتها واسلحتها ، ذلك أن هذه الحكايات جميعها حكايات شارحة ، أريد بها أن تفسر جانبا لم يعرفه العامة ، أو خفى عنهم ، لضعف معرفتهم بالتاريخ .

ولعلنا لا نجد أصلا آخر ، غير هذا الأصل . لمشهد الحديقة الشهير فى بدء « حرب الوردتين » .

وتتعلق خرافات شارحة أخرى ، بالتماثيل والنصب . ومنها تمثال الكونت جلايشن فى مدينة ايرفورت من أعمال تورينجنيا ، حيث أقيم هذا التمثال فى كنيسة صغيرة .

وعلى جانبى النصب تمثالان لامرأتين ، وهما فى وضع الضراعة نحو الفارس ، وقد استنتج العامة منها ، أن الفارس كان متزوجا من اكثر من امرأة ، وشاءوا أن يفسروا هذه النتيجة التى لا تقرها الأخلاق الأوروبية والأمريكية ، فزعموا أن الفارس وقع اسيرا فى يد أعوان صلاح الدين ، وكان ذلك فى الأراضى المقدسة ، ثم انه استطاع أن يهرب من الأسر لأن ابنة السلطان وقعت فى حبه ، وكان الفارس الأسير قد وعدها بالزواج ولم يصارحها بأنه متزوج من امرأة تنتظر عودته الى المانيا أو لعله اعترف لها بالحقيقة ، كما تقول صيغة ثانية للحكاية المذكورة .

ولم تر ابنة السلطان بأسا فى ان تتزوجه ، لان الأسلام يبيح تعدد الزوجات .

وهكذا اتفق الطرفان ، وسارت الأمور على خير ، ووصل الرجل وزوجته الى ايطاليا ، وهناك دبر « البابا » الأمور بطريقة ترضى الطرفين .

وتقول الحكاية ان الزوجتين لم تفارا الواحدة من الاخرى .

ويجدر بنا أن نضع تحت قسم الخرافات التاريخية ، حكايات الكنوز ، وحكايات الخارجين على القانون .

أما حكايات الكنوز فشائعة فى انحاء العالم ، تنتشر بين الفلاحين المعاصرين قدر انتشارها بين العرب ، حين استكملت الف ليلة وليلة سمتها النهائى .

والسبب الجامع وراء نشوء هذه الحكايات ، أن أمنا الأرض كانت اكثر الخزائن أمنا ، قبل أن تظهر النظم التجارية الحديثة ، ولم يكن الناس يترددون فى أوقات الاضطرابات فى أن يخفوا نقودهم ونفائسهم فى باطن الأرض . فاذا مات اصحابها الشرعيون أو اغتيلوا قبل ان تتاح لهم فرصة استرجاع نفائسهم من الأرض ، نقب عنها انسان آخر ، واستخرجها .

وأما ترويج كيفية تحديد أماكن الكنوز ، وطرائق اخراج نفائسها ، هذا الترويج فيعزى الى انتشار الأفكار وهجراتها .

غير أن الممارسات التى تصاحب عملية التنقيب عن الكنوز ، جاءت كلها ــ أو اغلبها ــ من الشرق ، والأصل فيها أنها كانت محاولات علمية زائفة ، ظهرت فى مرحلة متأخرة شيئا من التاريخ .

ولدينا نوع آخر من الحكايات التى اندثرت ، باستثناء بعض المناطق كايسلندة ، وجزيرة كورسيكا ، وشبه جزيرة ايبريا ، وشبه جزيرة البلقان .

وهذا النوع ، هو حكايات اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون .

ويعود اختفاؤها ، الى أن « قاطع الطريق » اختفى ، وصار فى ذمة الماضى ، فى غرب أوروبا ووسطها .

وحين كان بعض هذه الحكايات منتشرا فى انجلترا ، أثناء القرن الثامن عشر ، لم يعن أحد بتدوينه حبرا على ورق .

غير اننا نستطيع أن نعرف عنها القليل ، من الشذرات التى تظهر فى سياق الأدب الحديث وخاصة ، ما جاء عنها فى قصص سير والتر سكوت .

وتدل النظم القضائية فى ايسلندة على أن الخارجين على القانون ،

كانوا يلعبون دورا كبيرا فى آداب تلك الجزيرة وحياتهـا ، الى نهاية عصر السير العائلية ، على أقل تقدير .

ونحن نلاحظ أن جانبـا كبيرا من حـكايات اللصوص الحديثة ، فى أيسلنده ، انما هـو حكايات جان خرافية ايرلنـدية . ذات أصـل سلتى ، وانها هاجرت الى الجزيرة المنعزلة فى الطرف الشمالى (٩٦) .

ولسنا فى حاجة الى أن نعود بالحديث الى الدور الذى لعبته حكايات اللصوص الكورسيكية والألبانية فى الأدب بفضل كتابات بروسبر ميرمييه ولورد بايرون . فهذا الدور من الوضوح بحيث تستغنى عن البيان .

وتدين مجموعة كبيرة من الخرافات المحليـة بوجـودها الى علم الأسماء الشعبى : وهو الذى يقدم تفسيرات خاطئة لأسماء أماكن ، نسى الناس أسباب تسمياتها الحقيقية .

ولقـد أدى علم الأسماء الشعبى الزائف الى اختـلاق حكايات تفسيرية تشرح الأسماء الغريبة .

وسأذكر بعض هذه الأسماء :

فى مدينـة « فرتمبرج » تقوم قلعـة قـديمة (تحصينات قوية من العصـور الوسطى) اسمها « أخالم » وهـذه التسمية ، مشتقة ــ بدون شـك ــ من جـذر لاتينى هو « الماء » « اكوا » ــ الذى نجده فى اللغات السلتية والتيوتونية واللاتينية والاغريقية .

وهـذا التفسير الذى يرجع فقط الى أيام فرانز بوب فى القرن الماضى ، ما يزال متاحا للقلة المتعلمة .

أما حين كان الاسم غامضا ، والتفسير العلمى مجهولا ، فقد سبب ذلك كله ، نشوء خرافة مسرفة فى تخيلاتها .

تقول هذه الخرافة :

هاجم قطاع الطرق مسافرا ، فى هذه البقعة ، فلما أثخنوه بالجراح ، أراد أن يصيح « يا الهى القادر » "Ach, Allmächtiger" ، لكنه لم يستطع أن ينطق بأكثر من المقطعين الأولين ، فنشـأ عنهما ، اسم المكان الذى وقعت فيه الحادثة .

ويوجد فى أتيكا الحديثة مكانان ، يحملان اسم ستاماتا وسشيكو .

وحتى يعطى النــاس تفسيرا لهــذين الاسمين ، ربطوا بينهمــا وبين حكاية عداء المسافات الطويلة الذى يقــال أن سيدة صاحت به عنـــدما بلغ المكان الأول Ozauàra ــ قف ! (ستاماتا) ، وعندما بلغ المكان الثانى كان قد أوشكت نفسه (سشكو) على أن تزهق (٩٧) .

ويروى ستيفن البيزنطى عن فيلو البيلوسى ، أن لاوديشـــيا سيراياكا ، كانت تسمى فى الأصل Ρόμιθα هزامثا فقـــد حدث ذات مرة ، أن صعق البرق راعيا ، فصاح Ραμόνθας (هرامانثوس وليس أمرا لازما ، أن تكون تغيرات الأسماء زائفة) .

ومثال ذلك أننا نجد فى منطقة مكلنبرج قرية تحمل اسم « سمرت » وتلحق بها حكاية عن الطاعون الرهيب الذى قتل سكان القرية جميعا .

ونحن نعرف أن كلمة سمرت Smrt كلمة ســـــلافية ، تعنى الموت ، واذا ، فالحكاية تعود الى وقت أن كان أهل مكلنبرج يتكلمون اللهجة السلافية ، أى أنها ترجع الى قرون عديدة ماضية ، ذلك اذا لم نشأ أن نفترض أن أحد البولنديين الجوالين ، قد فسر للأهالى الألمان ، تلك الكلمة ، فأنشئوا الحكاية على أساس هذا التفسير .

والخرافة المحلية قصيرة ، كما قلنا ، وهى تشترك مع الحكاية المرحة ، فى صفة أساسية ، وتلك أن بناءهما استطرادى .

وأما الخرافات الدائرة حــول الخارجين على القانون ، فلها طابع السير الشخصية ، كما أنها تلتقى فى هذا المنحى ، مع الملاحم النثرية التى سنتناولها ــ بعد ذلك ــ بالحديث المفصل .

وتنحو هذه الخرافات منحى ميلودراميا ، ولا تقتضى ــ سلفا ــ أن تنتهى نهاية سعيدة بل أن الكثير منها ينتهى نهاية مأسوية ، ومثال ذلك حكاية فرس البحر التى تغرق البطل ، وكذلك فحكايات الكنوز ، لا تؤدى عادة الى نهاية ناجحة .

وحين يكون الموضوع موضوع لقاء بين انسى وجنى فالعادة أن يهرب الانسى ، أو ينجو ، لكى يقص القصة ، غير أن حيــاته لا تطول كثيرا بعد نجاته ، وأيام عمره تصبح اياما معدودة .

وينطوى تحت هذه الخاصية ، ذلك الاعتقاد الذائع ، بأن رؤية الكائن الجنى ، تعنى الموت ، وهو اعتقاد نجد آثاره فى العهد القديم .

ولا تخلو الخرافات المحليـة من غاية الارشـاد والوعظ والتعليم الأخلاقى ، شأنها فى ذلك شأن انواع القصص الشعبى الأخرى .

ويجوز أن نقول أن رواة الكثير من هذه الخرافات ، يفرضون عليها آراءهم الأخلاقية ، وغايتهم الأخلاقية .

واما الأحكام الأخلاقيـة ، التى تتضمنها تلك الحكايات فليست هى الأحكام التى وردت فى الانجيل بل هى أحكام مختلفة عنها ، وأمعن فى القدم منها .

ومن الجرائم الأخلاقيـة الكبرى ، افساد الطعام أو تبديده . وللعقاب على هذه الجريمة ، تحولت « فراوهعط » التيرولية الى حجر صلد ، ونال احد رعاة الغنم عقابا انكى واشد . وما من شك فى أننا نحس هنا بالعواطف الدفينـة فى نفوس طبقة الفلاحين التى تكره الاسراف والتبذير .

واما الخطيئـة الكبرى التى اقترفها أهل فنتـا ، فكانت خطيئة البذخ الشديد ، ذلك أنه قيل عنهم انهم رصفوا شوارعها بصفائح الفضة والذهب .

ومثل هـذه الخرافة ، تصور الكراهية الطبقية ، التى يشعر بها الفلاحون ، ازاء ما يعتقـدون ــ صوابا أو خطأ ــ انه ترف سـكان المدن الباذخ .

ويجازى على عقوق الوالدين بالعقاب القاسى ، فاليد التى تضرب أبا أو أما ، تمتد خارج القبر ، فلا يستطيع احد أن يواريها التراب ، مهما بذل من جهد .

ويعتبر القسم أمرا بالغ الخطر ، وسبب ذلك ، بلا ريب ، هو أن الفلاح يؤمن ــ لا يزال ــ بأن الذى يحنث بالقسم تحل عليه اللعنة .

وأما شهود الزور ، فينبغى ان تلازم أرواحهم ــ بعد الموت ــ جسم جريمتهم ، ــ وهو فى العادة ــ قطعـة الأرض التى زوروا الشهادة لاغتصابها .

ويستنكر المعتقـد الشعبى ، جريمة قتل الأطفال ، ولعلنا نذكر فى هذا الصدد ما حل بالنسـاء اللائى أصبحن جنيات غسالات كما أنه يرتب عقـابا صارما على جريمة « التسبب فى العقم » ، والجـريمة

الأخرى المسرفة فى خطيئتها ـ وهى جريمة استخدام الوسائل السحرية لمنع النساء من الحمل ، ذلك أن « الحيلولة » بين المرأة وبين انجاب العدد المقدر لكل امرأة أن تنجبه من الأبناء ، يعتبر خطيئة فادحة . وبعض الحكايات لا يدع لنا مجالا للشك ، فى هذه النظرة البدائية التى يعتنقها الفلاح الأوروبى ، ولو أن هذه الحكايات من نوع الحكاية المهاجرة ، لا الخرافة المحلية (٩٨) .

وتتصف « العفة الجنسية » أو قل تتصف « العذرية » بميزات سحرية ، أكثر مما تتصف بميزات أخلاقية . فالفتى ، يستطيع أن يعرف فتحة الكنز فى الجبل ، ما بقى عفا ، فاذا فقد العفاف ، عمى عن طريق الكنز .

وأما جزاء الذين يخالفون شريعة أيام السبت ، بأن يشربوا أو يرقصوا ، أو يلعبوا الورق ، فالزجر والتوبيخ .

ولا عقاب على اداء الأعمال النافعة والضرورية فى أيام الآحاد ، خاصة بعد وقت الصلاة فى الكنائس .

لكن الصياد الوحشى ، ينال عقابه ، لأنه اصطاد ، أثناء وقت القداس من يوم الأحد ويقع العقاب بانسان القمر لأنه عمل كذلك فى هذا الوقت ، أو لأنه اقترف جريمة سرقة أثناء وقت القداس ، على حد ما تذهب اليه رواية أخرى .

ويرجع السبب فى التغاضى عما سبق من مخالفات ، الى أن أيام الأحد البيوريتانية حديثة التاريخ فى أوربا ، بل كانت مجهولة فيها حتى عصر الاصلاح الدينى . ويقال ان ضيفا ، رأى كلفن ـ ذات يوم أحد ـ وهو يسرى عن نفسه ، بلعبة الدبابيس التسعة ، وكلفن ـ فيما نعرف ـ يعتبر مؤسس المذاهب الأفانجيلية .

وقد يكون أمرا غريبا أن نجد بعض الخرافات المحلية تدعو الى اعتبار أيام بعينها ، اياما حرما ، ومثال ذلك الخرافات المعروفة عن أيام الجمع واليوم الثالث عشر من الشهر . وأرى أن هذا الاعتقاد يشير الى انه انبعث من اصل مثقف . غير أن الخرافات المتعلقة بأول حيوان أو انسان تقابله ، قد تركت أثرا على الخرافات المحلية .

وفى مقابل هذا نجد أن تحريم العمل فى الساعات المبكرة من الصباح أو بعد نهاية النهار ، أو فى الظهيرة ـ هذا التحريم نلقاه المرة بعد المرة

فى الخرافات المحلية . ويزعمون ان الفلاح الذى يجترىء ، فيخالف هذه التحريمات ، يواجه المحن ، حين يتقابل مع كائنات شريرة . والظن أن الأوقات المحرمة ، تخص القوى العليا السامية . وان هزيود ليقول :

ــ تخرج الراكشا بالليل .

وتردد الفيدا : ــ ان الليل يخص الكائنات العليا .

وكان الناس فى روسيا يستنكرون الاستحمام بعد غروب الشمس ، لأنهم كانوا يعتقدون أن ماردا ، يقلقه ذلك ، لأنه هو نفسه ، يستحم فى هذا الوقت .

وكانت ساعات الظهيرة ، فى بلاد الاغريق ، تخص الاله بان كما كان عفريت القيلولة ، فى أوروبا على عهدها الوسيط ، قاب قوسين او أدنى يظهر فى خلاء أرض الغابات ، ووحشة البرك أو كان اقدر عند ذلك على الحاق الأذى والضرر . وأما الاحسان . فيجازى عليه خير جزاء ، وأما الذين لا يحسنون بأموالهم ، فيعاقبون ، بأن يفقدوا ممتلكاتهم .

وثمة اعتقاد متخلف عن الماضى ، نلقاه كثيرا فى الخرافات المحلية ، وتألفه المجتمعات البدائيــــة ــ وذلك هو الظن بأن عصيان القـــانون الأخلاقى ، يوقع بالطبيعة اضرارا بالغة .

وهذه الفكرة هى التى انشأت الاعتقاد بأن كل شىء يزدهر فى الأرض اذا تولى العرش ملك صــــالح ، أما اذا تولاه ملك شرير ، انتشرت الأوبئة ونقصت المحاصيل ، وهكذا ، يفسرون أســباب الجفاف الذى أصاب اشجار البلوط فى غابة من غابات شرق بروسيا . على أساس الخيانة التى ارتكبها احد الأهالى ضد جماعة من فرسان الألمان (٩٩) . ذلك ان جرائم الخيانة والقتل والغــدر وسرقة ممتلـكات الكنائس والمعابد ، والجرائم الجنسية ، تعتبر فى مقدمة الخطايا التى توقع الضرر بالطبيعة .

واذا ألقينا نظرة عامة على الخرافات المحلية الأوروبية ، وجدنا أنها تعبر تعبيرا صادقا عن أخلاق الفلاحين الذين يمتازون بالفضائل العملية الملموسة ، لا المثل العليا والمبادىء المطلقة التى تفقد حيويتها حتى بين جمهرة تزعم أنهــا على قــدر أكبر من المعرفة . وحظ أوفى من التعليم .

وتركيب الخرافات المحلية بسيط للغاية ذلك انها تفضل استعمال ارقام بعينها ، ومواصفات بذاتها ، ويحتل العدد «٣» مكانة ظاهرة بين أرقامها . فاذا دارت الخرافة حول افتداء الأسرى ، استعين بثلاثة فرسان ، واذا مات فقير ، شهق ثلاث مرات ، والكنز تحرسه ثلاثة كلاب ، عين أولها فى حجم طبق الفنجال ، وعين الثانى تشبه عجلة الطاحون ، وعين الثالث فى حجم البيت . الخ .

واذا فطريقة بناء الخرافة ، لا تختلف كثيرا عن بناء حكاية الجان ، غير أن نطاقها أضيق ، ومستواها أقل .

واهم شيء فى الخرافات المحلية الايمان بالجان ولا غرابة فى أن تدور حول الموضوعات التى تتناولها حكايات الجان الذائعة فى منطقة معينة .

ولكن ينبغى ان نضع نصب اعيننا أن الجان انتقل من الخرافات المحلية الى حكايات الجان وليس العكس . فاذا كنا قد اكتفينا أثناء حديثنا عن حكايات الجان ، بالاشارة الى الايمان به ، فينبغى لنا أن نولى هذه العقيدة عناية أكبر ، ونحن نتحدث عن الخرافات المحلية .

ولقد سبق أن قلنا عن العمالقة أنهم كانوا ثمرة استدلالات محددة ، بناة صروح شغلت أذهان المعاصرين من أهل بلد أو آخر . أو أن الناس استدلوا من العثور على حفريات ضخمة ، ترجع الى عصور ما قبل التاريخ ، أنها عظام العمالقة الذين كانوا يسكنون تلك الأرض فيما سلف من أيام (١٠٠) .

ولا ينفى ذلك كله أن كلمة العمالقة أطلقت على أقوام غرباء ، اغلب الأمر أنهم كانوا يجاورون أهل تلك المناطق ، أو كانوا جيرانا لأسلافهم ، وكانوا مصدر خوف لهم ، أكثر مما كانوا موضع كراهية منهم .

ومثلنا فى ذلك ، كلمة Hüne الألمانية ، التى تعنى العملاق ، والمشتقة ــ بلا ريب ــ من كلمة Hun وهذه تعنى ليس فقط اتباع « اتيللا » بل اهل المجر فى العصور الوسطى .

ويبدو أن كلمة « بورز » purs النوردية القديمة ، « وبيرز » Pyrs الانجلوسكسونية (١٠١) . تلحقان بكلمة Tυεδηνοι تورزا ، التى تعنى أهل اتروسكا ورايتا ، التى ينبغى أن يضاف اليهم « الأجاديريون » Aγαδύρσοι لهيرودوت (١٠٢) .

وليس بنا حاجة الى القول بأن تفسير الأسماء يدل على أن تصور العمالقة يدين بوجـوده الى اوهام أهالى منطقة بذاتها عن أسلافهم الغابرين ، أو أنه اذا لم يظهر شـواذ فى الخلقة ، لما ذكرت الأساطير العمالقة .

واصعب من هذا ، واشد تعقيدا ، مشكلة الأقزام التيوتون (١٠٢) والعفاريت واقزام الجن السليتين .

ولقد ظهرت ثلاث نظريات فى تفسير وجودهم . وأما النظرية الأولى فتقول انهم الموتى ، وأما الثانية فتذهب الى أنهم الارواح الأولية ، وأما الثالثة فتقول انهم أعقاب سكان قدماء زاحمهم السكان الجدد وحملوهـــم على ان يلتجئوا الى الجبـال ، أو الى المناطق القريبـة من سواحل البحار .

وليكن رأينا ان كثرة كثيرة من هذا النوع ، توافق الراى الاول ، وان بعض خصائص هـذه الحكايات تفسرها النظرية الثانية خيرا من سواها ، وأما النظرية الثالثة فلا تستند الى أساس متين .

وتقول حكايات اقزام كثيرة ، ان القزم كان طفـلا ، لقى مصرعه بطريقة غامضة ، منذ سنوات ماضية .

ولقـد تنتهى الحـكاية المذكورة ، أو سلسلة الحكايات ، فتزعم أن هيكله العظمى اكتشـف ، عندما هدم البيت أو القلعة ، أو أعيد بناؤهما .

وتوصف الاقزام التيوتونية ، كما يوصف الجن السلتى ، بأنهم « رجال طاعنون فى السن » ، لان اجسامهم لاتزيد عن اجسام الاطفال .

ويغلب الاعتقاد انهم يتخـذون مساكنهم فى باطن الارض ــ شأن الموتى ــ وانهم يشغفون بأن يجذبوا الاحياء الى أسفل ، حيث توجد مساكنهم المظلمة ، وهم فى ذلك يشبهون كل الكائنات السفلية ، ثم انهم يمتازون بالحكمة الفائقة شأن الاسلاف والاقدمين .

وهم ــبعد ذلك ــ يلازمون مواضع محددة ، بيوتا بذاتها ، وعائلات معينة ، يرتبطون بهـا اوثق رباط ، ويهتمـون بامورها ، وكل ذلك نستطيع تفسيره ، على ضوء الاعتقاد بانهم كانوا ــ ذات يوم ــ من اهل هذا البيت ، وكانوا ينتمون الى تلك العائلات ، ومعنى ذلك ، فى جلاء

انهم الأسلاف الموتى . بل انهم ــ كالأسلاف ــ موضع طقوس وشعائر منتظمة . يتوقعون أن يحصلوا على الطعام فاذا منعوه الحوا فى طلبه ، وانتقموا .

ويسميهم أهل ايرلنده « الناس الطيبون » ــ الامر الذى يذكرنا بالترجمة الحرفية لكلمة manes اللاتينية التى تعنى الاسلاف واما اسكتلندة فلدينا عنها شهادة واضحة ، كتبها القس البرسبتارى كيرك ، الذى عاش فى القرن السابع عشر ، وقال :

« توجد اماكن كثيرة ، تسمى تلال الجان ويظن سكان الجبال انهم يخالفون الدين أن يتعرضون للأذى اذا هم اكتشفوها ، أو استخدموها ، فأخذوا منها التراب أو الخشب . ذلك أنهم يتوهمون ان ارواح اجدادهم تسكنها . ثم يقولون ان تلالا أو مرتفعات من الارض ، قد تركت بجوار افنية الكنائس ، لتستقبل الأرواح التى تنبعث من الأجساد ، ولهذا السبب ، أصبحت تلك التلال تلال العفاريت » .

ولدينا كذلك ، سلسلة من الحكايات الشعبية ،تروى لنا كيف أن نوتيا ، طلب اليه أن يحمل اقزاما فى سفينته فيعبر بها مجرى مائيا ، على حين تقول أقدم تلك الحكايات وهى التى ذكرها بروكوبيوس ، أن النوتى طولب بالعبور بأرواح الموتى .

واذا قيل لنا أن الاقزام تكره حبوب الكراوية ودقات النواقيس ، جاز لنا أن نذكر أن الكراوية كانت من النباتات الكثيرة التى جلبها الرومان الى المانيا ، فاستحقت كراهية الأجداد بالطبع ، واما نواقيس الكنائس ، فكانت تعلن عن ظهور ديانة جديدة ، فاستحقت أن تبغضها اشباح الأسلاف لهذا السبب .

وسيكون خطأ فى منهاجنا ان نضع خطأ حادا فاصلا بين عبادة الأسلاف وعبادة الأرواح الأولية . فهذا المنهاج من التصنيف ، لم يخطر ولا يخطر على ذهن الجماعات البدائية ، ولو انه منهج مقبول فى الأبحاث العلمية الحديثة .

وأما الكائنات السفلية : اى الموتى ، فذات فعالية فى انبات القمح والفاكهة . ونحن نعرف كيف كان الاغريق القدماء ، يسترضون أرواح الموتى ، أما الذى يقتل ، ويهدر دمه ، ولا يؤخذ بثأره ، فينتقم من

المجتمع ، بأن يحدث نقصا فى المحاصيل ، كما جاء ذلك على نحو واضح ــ فى مسرحيات سوفوكليس .

ولقد تلبس أرواح الموتى الأشجار ، فلا تستطيع أن تميز بينها وبين ارواح النباتات كما أنها تتخذ اللون الأخضر ــلون التربة التى تحمل اشجار الفاكهة ــ ويكون هذا اللون ــ اذن ــ لون الموت للكائنات السفلية .

ولقد أبرزت النظرية التى تحاول أن تلحق الأقزام والعفاريت واقزام الجان بالمجتمعات البدائية فى عصور ما قبل التاريخ غير أن هذه النظرية تقوم على أساس واه متهافت .

واذا نحينا جانبا ان التكوين الجسمى للعفاريت والاقزام ، يحملنا على الظن بأن المجتمعات البشرية البدائية التى تخيلتها كانت تتألف من اقزام ، ــ وهذا الظن لا نجد له أدنى اساس فأهل اوروبا البدائيين فى عصور ما قبل التاريخ لم يختلفوا فى خلقتهم عن التيوتون والسلتيين ــ اذا نحينا ذلك كله جانبا ، لم نستطع أن نعقد أية اهمية على « المقدرات » المنسوبة للأقزام ، والعفاريت أو ابة أهمية للحكايات ايرلندية الدائرة حولTuatha Dé Danann « تاوتا المقدس »

ولقد ينسب الوافدون الجدد على مكان ، الى أهله الأصليين انهم يملكون قوة سحرية ، وذلك لأنه من المفروض ان يكون لكل أرض كائنات خفية تحميها ، وأن الأهالى الأصليين اقدر على معرفة هذه الأرواح الخفية من القادمين الجدد .

وعلى هذا الأساس ، يظن أهل اسكنديناوة أن الفنلنديين يمتازون فى أعمال السحر ، ويعتنق الفنلنديون الفكرة ذاتها عن القبائل اللابية .

غير ان تعبير « المقدرات الخارقة » يشوبه الغموض الشديد ، وأسلافنا الموتى يملكون تلك المقدرات ، كما رأينا فيما مضى .

ولا تعرف الحكايات الألمانية والايرلندية شيئا عن زيارات الأناسى للأقزام ، والعفاريت ، بقصد أن يتعلموا منها أعمال السحر .

ولا يؤثر فى الموضوع الذى نناقشه ، ما ترويه كتب التاريخ الأيرلندية عن « تاوتا » المقدس .

ولقد يحق لنا ، أن نزعم على السواء ، أن ما قاله سنورى فى الكتاب الأول من Heimskringla يدل على أن أوتين وآزر كانتـــا أسرتين من اسر ما قبل التاريخ أو أن نزعم أن قصة أوتيموروس الضائعة تدل على أن زيوس واهل الاليمب هم الذين بنوا قصور كريت .

وبعض أنواع الحكايات الواردة فى سلسلة « المطاردة الوحشية » و « جناز الأشباح » تصور هـذا المزيج من عبادة الأسلاف والايمان بالقـوى الخفيـة للنبـات . فالفارس الشبح ، يوصف بأنه يطارد الصـياد ، والشخصيات الأنثوية التى تتعرض للمطاردة فى المعتقـد الألمانى ، هى أرواح نباتات ، واسمها Moosweiblein ، اى أرواح اناث نبات الطحلب ذاته يشير الى هذا .

وأما الأشـباح التى تقودها القديســة هولى ، فهى اطفال ماتوا فى الرضاع ، بغير أن تؤدى لهم مراسم القداس والتعميد . والقديسة هولى ، قديســة تيوتونيــة تقابل برسفونى الاغريقيــة ، وبوناديا الرومانية ، وهى كذلك ، آلهة الخصب فى الأرض ، فحيثما يمر موكبها ، تعطى الحقول ضعف محاصيلها المعتادة .

ويتفرع من عبــادة الأســلاف ، شخصية « روح الأســلاف » الايرلندية و « السيدة البيضـاء » الألمانية وهما اللتان ، تلاحقان الأسر الملكية ، كما قلنا .

والفكرة البسيطة الكامنة وراء هـذا المعتقد ، هى أن الأسلاف الراحلين ، يقيمون على ابداء اهتمامهم ، بمصير عائلاتهم ، ويحذرون أحفادهم من الكارثة أو الموت الموشك الوقوع ولا يكون هذا الهاتف بالنذير ، من جنس النساء دائما ، ولو أن الدور السلبى الملقى على كاهل هـذا الهاتف ، يدعم الظن بأنه « امرأة » ، خاصة بالنسبة لأزمان ، كان الرجل فيها ، يزهو بحياته الايجابية . ولقد قلنا أن الأسلاف آلهة قديمة ، اضطرت بعد انتشار احدى الديانات الجديدة ، أن تترك معابدها ، وتحتمى بباطن الأرض ، أو تختبىء فى الكهوف ، أو تمضى بعيدا ، الى أعماق البحار . ومثال ذلك « تاوتا » الايرلندى ، وودان التيوتونى ، الذى يقود المطاردة الوحشية .

وأما القديسة هولى ، التى كانت آلهة زرع عظيمة ، فقد تضاءلت وقنعت بأن تظهر فى شكل شخصية شعبية فى الخرافات المحلية .

وثمة اسباب قوية تحملنا على الظن بأن شخصية الملك النائم فى قلب الجبل ، كملوك ايرلندة المختلفين النائمين فى جزيرة ايرلد والملك ارثر فى ويلز ، وفردريك بارباروسا فى المانيا - هذه الشخصية ليست الا الصورة البشرية لكرونوس ، ومما يؤيد هذا الظن ، أن الأقدمين ، لم يكونوا فى معزل عن هذه التصورات ، والخرافات ، بل كانوا يعرفون أن كرونوس كان منفيا فى جزيرة موحشة بالأطلسى ، ولا نستطيع أن نقرر - فى كافة الحالات - ما اذا كانت التيارات الثقافية قد ساعدت أو لم تساعد ، على تشكيل هذه الحكايات فى أواسط أوروبا وغربها .

ولعلى أميل - شخصيا - الى هذا الراى . فحكاية الفلاح الذى استدرج الى داخل الجبل ، ليبيع مخزون غلاله لسكان الجبل من الجن ، - هذه الحكاية تجرى فى أيرلندة ، وتذيع فى ويلز ، وتظهر فى المانيا وبوهيميا ، وتؤكد فكرة هجرة الحكايات . غير أن هذه الحكايات ، تحتاج الى دراسة خاصة تعالجها .

ونحن نلقى حكايات العمالقة والأقزام والمردة والعفاريت منتشرة على مساحات شاسعة ، تمتد من سواحل الأطلنطى ، الى نهر القستولا ومن الأطراف الشمالية الى جبال الألب ، ونستطيع أن نتحدث عن ذيوعها وتواجدها فى اوربا على الرغم من اننا نعرف القليل ، عن تفاصيل انتشارها . وينطبق هذا الكلام على كائنات الفربان وطير النار التى يقال أنها تحمل نفائس الكنوز الى من تخدمهم ، وذلك على حساب جيرانهم سيئى الحظ . ولقد سبق لنا أن أشرنا الى هذا المعتقد فى الحديث عن طائر النار فى قصص فنزبرج . غير أنه ينبغى أن نناقش كذلك ، تلك الأشباح التى تتعلق بمناطق محددة . واولها مجموعة الحكايات التى تدور حول « النساء المتوحشات » الموجودة فى مناطق الألب الشرقية ، والتى تمتد من مقاطعات سويسرا الشرقية الى شرق مناطق الحدود النمسوية ، وكذلك هى موجودة فى جبال البرانس (١٠٥) .

وهاته النساء يوصفن بأنهن متوحشات ، لا يصففن شعرهن ، وانهن يعيشن فى المناطق الخالية من الناس فى غابات الألب ، لا يوقعن ضررا بأحد ، الا اذا اعتدى عليهن ، ويقال - فى بعض الأحيان - انهن يسكن فردوسا يقع على قمم الجبال . وأما أصل هذه الكائنات ، فغامض تماما

ذلك أن الدلائل المتاحة لنا تقطع بأنهن لسن كائنات تيوتونية أو سلافية أو لاتينيــة ، بالرغم من أن كلمــة Silvaticum ســكان الغابات أو البرابرة تســتخدم فى الدلالة عليهن وذلك فى المنــاطق الرايتيــة الرومانيـــة .

ويبدو أن هـــذه الكائنات انحــدرت من موروث أهــل الباسك الذين صبغوا بالثقافة اللاتينية قبل مجيء التيوتون والسلاف . ولعل أحدث سماتهم الرئيسية ــ وهى سمة الاثداء الطويلة ــ كانت من ملامح مجتمعات قديمة سابقة ، ويرجح هذا الظن لدينا ، ان المناطق الجبلية، هى الأماكن التى يأوى اليها أمثال هؤلاء الناس من المجتمعات القديمة ، ولست أريد أن أغامر فأتمادى فى التعليل والشرح ، بحيث أتجاوز حدود القول بأن هذا الظن مجرد احتمال لا يزيد .

ومن عفــاريت الجبــال ، التى لهــا مغزى محلى ، ذلك الجــان « Rübezahl » (١٠٦) وهو ساكن جبـــال سيليزيا ، أو هو ــ على الاحرى ــ العفريت الهائم فى جبل منها .

وقد استعصى اسم « روبزال » على كل عالم لغة حاول أن يفسره . ولعله ليس اسما تيوتونيــا ، أما كيف نشأ هــذا الاسم ، فنستطيع أن نعرف ذلك ، مما حــدث لاسم الاله زيوس الأوليمبى ، الذى كان مجرد عفريت من عفاريت الجبال ، يحمل اسما قبل آرى .

واما الاعتقاد بأن الكابوس « جنيـــة » نستطيع أن نأسرها ، ثم قد تستطيع هى أن تباشر حياة الزوجات « الجنيات » ، فاعتقاد غريب نادر فى سواحل المانيا على بحر البلطيق وخاصة فى منطقة بوميرانيا .

غير أن هــذا المعتقد ، سلافى ــ لا ريب ، كما أن الكابوس « مصاص دماء » سلافى يحمل اسما المانيا .

أما العفـــريت Loreley الراينى ، الذى يعرفه أغلب قراء اللغــة الانجليزية ، فمن مستحدثات الحركة الرومانسية ، وعلى ذلك ، فهو يعود فى نشأته الأولى ، الى فترة متأخرة (١٠٧) .

ويضارع أرواح البرية ، فى أهميتها ، أرواح الماء . وسبب ذلك واضح تماما ، ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على خريطة اوروبا بأنهارها وبحيراتها وشواطىء بحارها ، لنتبين هذا السبب .

وهكذا نجد كائنات الماء المقدسة فى كل ديانة قديمة نشأت على تلك الأرض ، ونحن نعرف أن الميتولوجيا الاغريقية أو الرومانية حافلة بهذه العفاريت المائية ولا يقل عن ذلك ، مأثور الكلديين وأهالى ايبريا ، وأهل فنلنـــدة .

والحق ان الكتابات الدالة على معبودات المـاء ، فى بلاد الغـــال ، واسبانيا ، كثيرة العدد ، وافرة .

وتبدو « أرواح النهر » فى شكل جياد أو ثيران . وقد يغرى الانسى ، بأن يركبه أو يشـــده الى محراث ، ثم يندفع بالانسى الى أعماق النهر أو قاع البحيرة .

أو قد يجعل انسية تحمل منه ، وتلد أطفالا من الجان ، حين يفاجئها وهى على شاطىء النهر .

وخرافات الكلت والتيوتون حافلة بمثل هذا القصص . ومثال ذلك قصة الجد الأول لأهل ميروفيا ، أو قصة تيدورل الكلتية .

ومن القصص الخرافى الذائع ، ما يقول ان كل روح مائية . تحتاج ــ بين الحين والحين ــ الى ان نقدم لها قربانا بشريا . ويرتبط بهذا النوع من الخرافات ، ذلك المعتقد الخرافى القائل بأن شيئا لا يستطيع أن ينقذ الانسان الذى اختاره جنى الماء . ولهذا تحكى خرافات شتى ، كيف أن سائرا سمع صوتا ينادى من الماء :

ــ حانت الساعة ولم يأت الرجل ! .

ثم رأى رجلا ، يندفع صوب الماء ، ليلقى بنفسه فيه ، فيمنعه السائر من اغراق نفسه ، ويدعوه الى أن يشرب معا كأسا من النبيذ ، فاذا لمست شفتا السائر النبيذ ، سقط ميتا ، وعلى هـذا النحو ، ينال جنى الماء بغيته منـــه .

وقد يغرى جنى المـاء ، امرأة ويجبرها على أن تعاشره تحت سطح الماء . وتحمل المرأة ، وتلد أطفالا ، ثم لا تستطيع أن تترك أبناءها منه ، وتعود الى الدنيا .

والخرافات المشابهة ، قد أنشأت قصصا شعريا كثيرا (١٠٨) .

وقد يلتقى جنيان منجن الماء فىسوق قرية ، ويرقصان ، ثم لا تحدث فضيحة على حد قول الشاعر الألمانى من أنه قد :

صمتت آلات الكمان وانتهى الرقص .

وافترق الراقصان فى أدب .

ومن المؤسف أنهما يعرفان بعضهما بعضا .

لكنهما يحاولان ــ الآن ــ أن يتحاشى كل منهما الآخر (١٠٩) .

غير أنه ينبغى ان ننبــه أولَ ما ننبــه الى حقيقــة بعينهـا وتلك هى أن الشيطان ذائع أكثر من أنواع الجن الأخـرى ، بل لعله يضارع بعض القديسين فىذيوعه (١٠٩) ، وأن كان الفرق بين الشيطان والقديسين ، هو ان شهرة القديسين تأثرت بمعارضة زعماء حركة الاصلاح الدينى ، فى حين أن شهرة الشيطان زادت ، وتضاعفت . فمارتن لوثر نفســه كان مقتنعا تماما بوجود الشيطان ، وقد قيل عنه أنه قذف الشيطان بمحبرة ! (١١٠) .

وهكذا يروج فى زماننا هذا القصص الدائر حول الشيطان ، بقدر ما كان رائجـا فى العصور الوسطى ، بل أن بعض ما كان موجـودا منه فى الامثولات لم يبرح رائجا ، على السنة الفلاحين .

ولعل بعض الأمثلة ، أن تعين على الشرح والتفسير .

لدينا قصة عن الشيطان الذى يقوم بدور الكاتب فيدون ثرثرة بعض النساء . بينما يؤدى القسيس قداس الفداء .

واذا كان لنا أن نصدق الشيطان الكاتب ، لكان عمله بالغ الصعوبة ، بل لكان أقسى عليه من تدوين المناقشات البرلمانية .

ولدينـا قصــة الشــيطان وقد بدا فى شكل لاعب ورق ، وانضم الى جماعة من الفلاحين يلعبون « البوكر » أثناء الصلاة .

ولقد يظهر الشيطان فى هيئة عازف يدعو الفلاحين للرقص فى بعض أيام الصوم . أو قد يظهر فى شكل راقص يراقص عذراء جميلة ويرفعها فى الهواء ويطير هاربا بها آخر الأمر .

وتروى قصص اخرى أن الشيطان ظهر فى هيئة امرأة تراود رجلا ، يتصف بالضعف ، شأن السيد ثورنهيل .

ولقد تنتهى هذه القصص ، نهاية سعيدة أو نهاية فاجعة .

وأحيانا ما نعرف أمر الشيطان الشرير ، وقد فضحته ساقاه وقدماه

المشلولتان ويظهر الراهب ــ فى مدخل البيت ــ ويطرد الشيطان بأن يتلو عليه أسماء الله .

وكثيرا ما يهرب الشيطان بضحية واحــدة ، أو أسير واحد على الأقل ، ليكون عبرة لغيره .

ونبرة الوعظ ، واضــحة فى هــذا النوع من القصص ، مما يحملنا على الظن بأن رجال الكنيســة حبذوها ، ولعلهم ساعدوا على ترويجها واذاعتها على أوسع نطاق مستطاع .

ولقــد يثير انتباهنا ، أن نلاحظ كيف « تؤقلم » هــذه الحــكايات نفسها ، فى البلاد البروتستانتية ، حيث يفتقر القسيس ــ كما نعلم ــ الى ملكة تلاوة الأســـماء الحسنى لطرد الشــياطين ــ وهى تلك الملكة التى يختص بها الراهب حتى عند أتباع المذهب الكاثوليكى .

وهكذا ، نسمع أن هذا القسيس الأعزل ، يخطىء الشيطان ويحسبه امرأة شابة ، ويطارده الشيطان ، ويحتمى القسيس بصومعته ويمسك بقيثارته ، ويروح يعزف عليها لحنا لوثريا ، يكفى لطرد الكائن الشرير .

والى أصــول كنسية ، تعود تلك القصص الدائرة حول الشياطين التى يروجهــا الماسون الأحــرار ، فى القــارة الأوروبية ، لا المناطق الكاثوليكية وحدها .

وينبغى ان نتذكر أن « الصداقة » لم تعد تجد قبولا عند اللوثريين اكثر مما تجد عند الكاثوليك فى المانيا . فالحكاية المعروفة التى تقول أن الشيطان طار بمارتن لوثر ، هى من اختلاق الكاثوليك الروميين ، وحتى لا ينهزم اللوثريون ، اختــرع قــس بزنزويك ، تلك الحــكاية التى تقول أن أعظم محررى المانيا ، ومؤلف « ناثان الحكيم » قد حملته الشياطين . وطارت به .

والرد خالص .

غير أن هناك حكايات شياطين لم يشجعها رجال الكنيسة كما سنرى .

ويرد فى احدى هذه الخرافات الذريعة الانتشار أن الشيطان سكن بيتا ، واستدعى الراهب ليطرد الشيطان . لكن الشيطان قاوم جهود الراهب وظل يرد عليهــا ، ويفضح عيوب رجل الدين الصغيرة ، عيبا بعد عيب . وينهزم الراهب شر هزيمة ويؤثر أن ينسحب متخذا مظهر الوقار والكبرياء .

وكثيرة هى الحكايات التى تروى كيف أن الشيطان خانه انسى ، كان قد أبرم معه ميثاقا .

وعندما نسبغ لونا كنسيا على هــذه الحكايات ، تصبح خرافات من طراز خرافة ثيوفيليس اليونانية أو خرافة فاوست الجرمانية .

واما صور هذه الخرافات فى القرى ، فاشد بساطة . وأيسر تركيبا ففى أكثرها ، تجد زوجة البطل مخرجا وعذرا للخروج على الميثاق ، أو يقوم أحد مزارعيه بنصيحة طيبة ، أو لعل البطل نفسه يضمن الميثاق شرطا يعلم أن الشيطان سيعجز عن تحقيقه ، كأن يشترط على الشيطان أن يحصى المقابر والأضرحة الواقعة فى المنطقة .

ولسنا نعرف معرفة يقين كيف نشأت هذه الحكايات .

وأما اتباع المدرسة الأسطورية ، فيرون وراء كل شيء ، آلهة ومقدسات وثنيــة ، ويرون أن الشيطان ، هو خليفــة الكائن النوردى المقدس القديم « لوكى » .

غير أن هذه المزاعم ، تهافتت واعرض عنها الناس ، فاذا زعم زاعم أن هناك صلة بين مقدسات ما قبل المسيحية والشيطان ، فعليه يقع عبء اثبات هذا الزعم .

اما نحن فنرجح أن تكون هذه الحكايات صورا متدهورة من الخرافات المسيحية كخرافة ثيوفيليس وفاوست ، وقد انتقلت الى بيئـــات الفلاحين ، فتبلوها بالسخريات الفلاحية .

ولقد نعرف الأصل الذى نشأ منه نوع من هذه الحكايات . ونعنى بهذا النوع الحكايات التى تصور الشيطان بصورة البناء الأعظم .

وتقول تلك الحــكايات أن الشيطان وعد أميرا بأن يشيد كاتدرائية معينة ، أو يقيم كوبريا معينا ، بشرط ان يوهب له أول انسان يدخل الكاتدرائية أو يعبر الكوبرى . غير أن الأمير يغلب ذكاء الشيطان بحيلة بسيطة ، فيجعل أول من يدخل هــذه الكنيسة أو أول من يعبر هذا الكوبرى حيوانا .

وأساس هذه الخرافة ــ الغريبة ــ اذا هو الاعتقاد بان أول من يدخل بيتا جديدا ، أو يعبر كوبريا جديدا ، سيلاقى حتفه فى خلال سنة ، ذلك أن البناء أو التشييد يحتاج الى تقديم قربان بشرى .

وأما استبدال الحيوان بالكائن البشرى ، فيشير الى شعائر « القرابين البدائل » أو الفدو .

ولقد أشرنا ـ فيما قبل ـ الى دور القديسين فى الخرافات المحلية .

وهذا الدور ـ كما هى حالة فى الحكايات المرحة التى سبق لنا أن تكلمنا عنها ـ لا يحيط به الوقار والاحترام . فالقديس بطرس ـ مثلا ـ يظهر فى هذه الخرافات ، حيثما تنشب المعارك . وليس بنا حاجة الى أن نشير الى أن الفلاحين لم يتعمدوا الاهانة .

غاية الأمر أن القديسين المسيحيين ، يمثلون الميثولوجيا الدارجة التى تذيع فى الخرافات المحلية .

وكلما اتجهنا شرقا لم نلق مقدسات الديانة الهندوكية أو الزرادتشية وقد احتلت المراكز المحورية من الخرافات المحلية ، بل نلقى أبالسة الديانات الغابرة ، ونلقى الجن والشياطين ، وتلك هى مقدسات دارجة ، وأهميتها أهمية محلية خالصة .

ولا يخالجنا شك فى أنه من المتعذر علينا أن نلتمس صفات المقدسات ـ كما نعرف أى شىء هى هذه المقدسات ـ فيما ينشىء الخيال الشعبى ، من تصورات متواضعة ، فلا يجوز لنا ـ اذن ـ أن نتحدث عن الحادهم أو عدم توقيرهم للمقدسات . فالديانات الحديثة ، التى تطهرت بالتجريدات الفلسفية المتصلة والمتوالية ، من الأوهام البدائية المكونة لما نسميه بالميتولوجيا ـ هذه الديانات ، عالم مختلف تماما .

ومن بقايا المأثورات الشعبية الغريبة ، خرافات الثنائيات ، التى تتنوع من مكان الى مكان .

هذه الخرافات ، موجودة فى مناطق عديدة من القارة الأوروبية ، وان كانت تكثر فى ألمانيا وسويسرا والالزاس ودوقية بادن سابقا ، ومملكة ورتنبرج سابقا .

واشد نماذج هذه الخرافات ذيوعا ، هى حكايات التوائم الأعداء ، الذين يتشاجرون ، ويتنازعون على اقتناء امراة ، والذين يلقون مصرعهم فى وقت واحد ، وقد صرعتهم السهام التى يطلقها بعضهم على بعض . أو هى تلك الحكايات التى تقص قصة فارسين يلبسان ثيابا بيضاء ، ليحذرا من وقوع خطر يوشك أن يقع .

ولا نزاع فى أن الحقيقة الأساسية فى هذه الخرافات ، تعود بذاكرتنا الى الأوهام القديمة المتصلة ببلاد التوائم ـ وهى تلك الأوهام التى نعرف أنها انحدرت من الماضى الى العصور الوسطى .

ومن ناحية ثانية ، نجد نوعا آخر أشد ذيوعا وأكثر انتشارا ، يرجع الى الأصول المسيحية ، ويدور حول فكرة « تحضير الأرواح » التى تنتمى الى القرون الوسطى .

فقد نسمع أن أحد المزارعين التابعين لصاحب أرض قاسى القلب ، غليظ الطبع ، قد دفع ايجار الأرض ، لكن صاحب الأرض مات ، ولم يستطع الفلاح أن يقدم ايصالا يدل على أنه أدى الايجار . وتأتى الزوجة ، البالغة القسوة ، فتطلب من الفلاح أن يدفع الايجار للمرة الثانية ، وحين تضيق الدنيا فى وجه الفلاح البائس ، يستجير بعرافة ساحرة ، فتستحضر روح صاحب الأرض . وتظهر روحه وقد غطتها ألسنة اللهب ، وتجبرها الساحرة على أن تعطى الفلاح الايصال . فيحمله الفلاح الى زوجة صاحب الأرض ، ويسلمها كذلك رسالة بعث بها زوجها ، ولم تكن رسالة رضاء ومدح .

ولسنا فى حاجة الى أن نشير الى أن مثل هذه الخرافة تنتسب الى أوروبا المسيحية أثناء عصرها الوسيط . ذلك أن التأثيرات الكنسية واضحة تمام الوضوح فى هذا النوع من الحكايات . وهناك خيط يتسلسل ويمتد من قسيس العصور الوسطى المعذب فى الجحيم ، والذى قضى عليه بأن يتعذب فيلبس عباءة ثقيلة ، منسوجة من نفاقه ـ ولعلنا ، نقول أنها كانت فى ثقلها كالعباءات المصنوعة من الرصاص التى يلبسها المنافقون فى جحيم دانتى ـ الى شبح مارلى الذى قضى بعذابه بأن يجر سلسلة ضخمة تنتظم أثقالا من حديد ، كخزائن المال ، والمفاتيح ، والأقفال ، ودفاتر الحسابات ، وقوائم الأعمال .

وهكذا يتضح لنا تنوع العناصر التى تدخل فى تكوين الخرافات المحلية . ويبقى بعد ذلك أن توضع دراسة مستقلة عن كل نوع منها ، فالنتائج التى تتحقق من تطبيق هذا المنهج ، أجدى كثيرا من آلاف التعميمات .

والأمر المحقق كذلك أن الخرافات المحلية ، تمتاز على سائر ما ذكرنا من الحكايات الشعبية ، بأنها تخدم مزاعم المدرسة الانتروبولوجية ،

ولعلها اقدر ، على أن تقدم لاتباع هذه المدرسة ، من الرواسب المتخلفة عن الموروثات القـديمة ، اكثر مما تستطيع ان تقدمه حكايات الجان او الحكايات المرحة . لكن الأمر الغريب حقا أن المدرسة الانتروبولوجية ، غضت النظر عن الخرافات المحلية ، بسبب شكلها العادى المألوف .

ولقد عرفنا فيما سبق اكثر هـذه الموروثات ، كالقرابين البشرية التى تقـدم للأنهـار والبحيرات ، وقرابين تشييد الأبنية ، والجدث الحى مصاص الدماء ، وموكب الشبح ، والصيد الوحشى ، وكلها توحى بأنه قد سبقتها الى الوجود عقيدة التناسخ و « حلول الروح فى الجمادات والحيوان » .

وأهم من هذا لا يزال ، اننا نجد فى الخرافات المحلية ذلك الاعتقاد فى الشياطين ، الذى يضارع أى عقيدة وثنية مماثلة تعود الى ما قبل عصر هومر ، وتأباها اية ديانة قائمة على أساس فلسفى . وليس معنى هذا ، أن يكون لكل خرافة محلية ، تاريخها الطويل ، بل لعل اكثرها لا يستقيم له مثل هذا التاريخ .

أما الأسـاس النفسى لهـا جميعا ، سواء كانت حديثة أو قديمة — فهو أسـاس فطير ساذج ، ولقد يزعم هـذا النوع من الحكايات لنفسه ، عراقة تتعذر على حكايات الجان أو الحكايات المرحة .

(*) يلاحظ اننا ترجمنا كلمة Celt بسلتى او كلتى وهو امر جائز . والمعروف أن الجغرافيين الاغريق اطلقوا كلمة كليتين Keltoi منذ القرن السادس قبل الميلاد على القبائل التى كانت تسكن مناطق فى الألب وشبه جزيرة ايبريا ثم تبعهم فى ذلك الكتاب اللاتين الذى اطلقوا كلمة Celtae على تلك القبائل البربرية بحيث انتشرت التسـمية الى سكان ما بين الألب والراين — المترجم .



الخرافة المهاجرة

تعريفها وخصائصها . امثلة للخرافات المهاجرة .الخرافات الهندية المهاجرة والاغريقية والسيلتية . الوثنية والمسيحية . تحليل لأهم امثلة الخرافات المهاجرة القديمة والوسيطة مع بيان صدورها عن مواطنها الأصلية وتماثل نصوصها وطرق هجراتها .

● الخرافة المهاجرة :

اصطلاح « الخرافة المهاجرة » ترجمة للكلمة الالمانية Wander age — ونعنى به الأحدوثة التى يكون لها شيء من « الطول » — وهى أقصر من حكاية الجان فى العادة . وهذه الأحدوثة منثورة ، وموجودة فى قليل من النصوص المستحدثة ، ولعل بعضها — ان لم يكن سائرها — مستقر فى أماكن متفرقة .

وأما عدد الجزئيات ، فكثير غالبا ، وترتيب هذه الجزئيات ، يتصف بقدر من الثبات ، يكفى لتدعيم نظرية « تعدد أصول الجنس الواحد » .

غير أن عدد النصوص المستحدثة المعلومة لنا ، لا يسمح — عادة — بأن نجرى عملية تحليل أو نعقد دراسة مقارنة على أساس من المنهج التاريخى الجغرافى .

ومعنى هذا ، أنه ينبغى لنا أن نفترض أن مثل هذه الخرافة قد نشأت أول ما نشأت فى موطن معلوم ، وتاريخ محدد ، وذلك بالرغم من أننا نعجز عن أن نحدد أيهما تحديدا جازما . ولا تفترض الخرافة المهاجرة ، أن يسبق وجودها ، أصل ، نشأت عنه فى الظن او العوائد الشعبية فلعل هذه الخرافة ذاتها ، أن تتخلق من معتقدات أو عادات غير شعبية .

ولقد رأينا أن الخرافة المحلية ، خرافة مقيمة فى مكان بعينه ، ولو أن الجزئيات التى تؤلفها قد تهاجر ، بل هى ترتحل بالفعل ، فى منطقة محددة .

وأما الخرافة المهاجرة ، فقد ترتحل على مدى مساحات شاسعة من الأرض . ولعل حكاية « آخر كلمات الضحية » فى أوروبا أن تكون من خير أمثلة الخرافة المهاجرة ولعلنا نضيف أنها من الأمثلة القليلة التى نستطيع أن نعرف تاريخها ومصدرها ، معرفة يقين فهناك طفل . يوشك

ان يدفن تحت حائط كقربان لارساء الأساس . وهذا الطفل يبدى بعض الملاحظات التى تستدر الدموع من الذين يشهدون مصرعه .

وفى الشرقى الأدنى ، يقتل هـذا الطفل ، لأن الملك يريد أن يشفى من مرض أصابه (هو الجذام غالبا) بأن يستحم فى دم الطفل .

ويقدم الطفل أبواه اللذان يرتشيان بمبلغ كبير من المال ، وعندما يواجه الموت ، يضحك واذا سـألوه عن سبب هذا الضحك المريب ، قال ان الأطفال العاديين يلتمسون الحماية لدى آبائهم واذا كانوا يتامى التمسوها عنـد الملوك . أما هو ، فقد تحالف الوالدان والملك ، على أن يسلبوه الحياة .

واذا أمعنا شيئا فى الاتجاه ناحية الشرق ، وجدنا الطفل فى حكايات الهند ، وقد قدم ضـحية للمردة ، وأن والديه والملك يمسكون به ، بينما يعده الراهب للذبح أو الفداء .

ثم يتبع ذلك هذا الضحك المريب ، والتفسير الذى يقال عنه ، فالآباء والملك والراهب ، يتصرفون على خلاف العادة ويصفون كيف ينبغى ان يكون سلوكهم . وذلك جميعا لكى ينقذوا حياتهم الراهنة الشقية التعسة ، ولا يلقون بالا الى بعثهم من جديد ، وهو ما يعتمد على سلوكهم فى هذه الحياة .

وفى اسلوب آخر ، تعتبر هذه الحكاية ، واحدة من تلك الحكايات الموضوعة لتشرح مبادىء المذهب البوذى .

هاجـــرت تلك الحـــكايات من الهنـــــد الى بلاد الشرق الأدنى اول ما هاجرت . ثم أصابها شىء من التحوير ، ثم وصلت الى أوروبا من الشرق الأدنى ، حيث صيغت على أســـاس فكرة « قربان ارســاء الأساس » وفقدت هدفها الأصلى ، حين نزلت الى مستوى ثقافـة الفلاحين الهابطة .

وتاريخ ما نسميه بـ « سيرة ســيكوندوس » لا يقل دلالة عن تاريخ الحكاية السابقة .

هذه السيرة هى سيرة ذلك الفيلسوف الذى يستميل أمه ، ليختبر صدق الفكرة القائلة بأنه لا أمان لجنس النساء وعندما تستجيب الأم للغواية ، يعرفها بنفسه ، فتموت من هول الصدمة .

ترد هـذه الحـكاية فى الجاتاكام الهنـدية ، حيث يتوزع الحـدث شخصيتان هما : المعلم والتلميذ .

ونزولا على رغبة المعلم يغازل التلميذ أم استاذه العجوز ، ويغريها بأن تقتل ابنها وعندما تحاط علما بالخديعة التى حيكت لها تسقط جثة هامدة فى مكانها ، ويقتنع التلميذ ، بأنه لا قيمة البتة للنساء ، ويلزم نفسه ـ كما يفعل سيكوندوس الغربى ـ بقسم رهيب .

وليس ثمة شك فى ان هذه الحكاية الهندية قد هاجرت الى الغرب ، وأن احداثها اصبحت أكثر بساطة . وانها اندمجت فى الحكاية اليهودية عن « الامبراطور والفيلسوف » .

وحين تضـاءلت الشـخصيتان الرئيسيتان فأصبحتا شـخصية واحدة ، حلت جزئية « الزنا » محل القتل المتعمد .

وحتى لا يتهمنى أحد ظلما بتحيزى لنظرية بنفى الهندية ، أستشهد بخرافة مهاجرة لا سبيل الى الشك فى صدورها عن أصل من الشرق الأدنى . وأعنى بهـذه الخرافة ، حكاية الحكيم أهيكار
التى تجمع كافة الدلائل المتاحة لنا على انها ذات أصل سامى .

يخسر أهيكار ـ كما نعلم ـ ثقة الملك ، بسبب وشاية ابن أخيه ، العاق : نادان .

ويهرب أهيكار ناجيا بحياته ، ويختفى فى بيت صديق مخلص .

ويتلقى الملك انذارا من ملك ثان ، سـمع بموت أهيـكار ، فتقدم يطلب مطالب يستحيل تحقيقها .

ويظهر أهيكار ، وينزل الفشل بالملك الثانى ، ويستعيد ثقة وليه ، وينال ابن الأخ العاق العقاب الذى ينبغى أن ينال .

ولقد وقعت حادثة شديدة الشبه بهذه القصة ، فى بلاد الهند اثناء عصرها الوسيط . وأن كانت شخصية ابن الأخ العاق ، اختفت وظهرت شخصية الملك مكانها .

وهذه الأفكار الميسـاوية التى انبعثت أول ما انبعثت فى بابل ، السحيقة ، ومنذ قرون كثيرة سابقة ، هاجرت غربا أثناء الفترة الأخيرة من الحروب الرومانيـة الأهليـة وكان جـديرا بها أن تغذى جوهر ،

هذا العقد الغريب من الخرافات ، المشهورة فى كافة انحاء أوروبا ، من أيرلندة الى بوهيميا ومن جنوب ايطاليا الى الدانيمرك .

وقد مهد لانتشارها ، التطلع الخيالى الانسانى ، الذى يبحث عن « العصور الذهبية » فى الماضى الغابر ، والذى يربطه باسم حاكم ، يكون الأخير من اعضاء الأسرة الحاكمة ، ويرمز الى العظمة الوطنية . واما أن يكون هذا الملك مغرورا فخورا أحمق ، كشارل الشجاع ملك بورجانديا أو ان يكون مستبدا شريرا كنابوليون الأول ، فهذا يدل على الحماقات البشرية الذائعة .

والى الشرق الأدنى كذلك ، تنسب حكاية معروفة عن الانسان الذى « سخط » وصار ذئبا .

والبطل فيها يتحول الى ذئب ، بفعل زوجة شريرة ، تمارس الوان السحر ، ويجترىء الزوج فيراقب اعمالها السحرية .

واذهو فى صورة الذئب ، ينقذ طفلا من أبناء ملك .

ويكون هذا العمل الطيب ، سببا ، فى استرداده انسانيته وانزال العقاب بالساحرة .

والحكاية ذائعة أشد الذيوع فى المناطق الكلتية من اوروبا ، غير أن ورودها فى نص مستحدث سودانى ، حيث تندمج مع عناصر من الشرق الأدنى ، لا يترك مجالا للشك فى أن أصلها شرقى . وشرقية كذلك ، خرافة بوريدان Buridan العالم الضليع الذى يكشف سر الملكة التى اعتادت أن تقتل عشاقها بعد أن تنال غايتها ، من حبهم .

يرجع أصل هذه القصة الغريبة ، الى خرافة « عشتارت » البابلية ، فحب هذه الآلهة يعنى الموت لمن تغريهم بارتكاب الفاحشة .

ويبدو أن هذه الأحدوثة انتشرت فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وفى ايطاليا على نحو خاص . ثم حملها العلماء الرحالة ، اثناء فترة ازدهار الجامعات الايطالية الى فرنسا والمانيا ما فى ذلك شك . فيوريدان ــ البطل ــ هو نفسه عالم نموذجى فضلا عن أنه شخصية تاريخية (١١١) .

والخرافة المعروفة ــ خرافة اليهودى التائه ــ والتى يحيط الغموض بمصادرها الأولى حتى الآن ، خرافة شبه مثقفة .

وأما شخصية الخضر ، أحـد الأنبيـاء العرب ، فتعتقـد أنه لبث يرتحل ، مخلد الحياة يجازى المحسن على احسانه ، ويعاقب المسىء على اساءته (*) .

وعندما حـدثت الحروب الصليبية ، أتيح للأوربيين أن يعرفوا هذه الشخصية الأسطورية ، وأن تنشأ منها شخصية Ahasueras Isaac Laquedam

ولا سبيل الى الشك فى أن « اليهودى التائه » قد صار . بفضل تأثيرات مثقفة رمزا لليهود ، الذين كانوا مطاردين مضطهدين حتى وقوع الثورة الكبرى (*) .

ولقـد يذكر سائر القراء الانجليز القصة الألمانية ، قصة « هاتو اسقف منز » الذى أكلته الفئران عقابا له على قسوة قلبه .

بهـذه الصيغة تنتسب الخرافة الى مادستورم Mauseturm « برج الفئران » القـريبة من « بنجن » Bingen على « ضفاف الراين وهى تدين بتحـديد موطنهـا ذاك الى تسمية شعبية فكلمة Mautturm اى « مكتب الجمـارك » قد أخـذت على أنها كلمة Maüseturm ، هذا فى حين أن الحكاية ذاتها . أقدم تاريخا من مكاتب

(*) أخطأ المؤلف وخلط بين شخصية خرافية هى شخصية اليهودى التائه وبين شخصية دينية لها وقارها : ولا سبيل الى المقارنة بينها وبين النماذج الخرافية الدائرة حول اليهود . وقد جانب الصواب المؤلف ، حتى من الناحية العلمية لأن علماء الفلكلور يميزون بين المعتقدات الدينية الثابتة التى يدعون البحث فيها لعلم الأديان وبين المظان الاعتقادية أو الخرافات الشعبية التى تناقى التوحيد وتحمل اسم خرافة أو اسطورة اعتقادية ، وهذه الخرافات يدرسها علم الفلكلور ليتبين منها ، نفسية الشعب ، ورواسب العصور التاريخية الأولى ودلالات هذه الرواسب .

وقد استدرك المؤلف نفسه فقال ان الطبيعة الرمزية لقصة اليهودى التائه مرفوضة ، وأنه لا سبيل الى الأخذ بالتفسير القائل بأنها ترمز الى اليهود (ص ١٠٤ من النص الانجليزى) وخلاصة القول ، ان حكايات اليهودى التائه حكايات موضوعة بينما قصة الخضر ، قصة دينية يقينية .

وعلم الفلكلور لا يتعرض للقصـص الدينى الوحدانى وانما هو يناقش فى العادة المعتقدات الخرافية ذات الأصل الوثنى (المترجم) .

الجمارك ، ثم انها ذائعة في اثنى عشر مكانا على الأقل - في أوروبا الوسطى والغربية (١١٢) .

ولسنا نعرف كيف انتشرت هذه الحكاية ، غير انها تشتمل في أساسها على المعتقد القديم القائل بأن روح الانسان ، تتجسد في فأر ، بعد الوفاة .

وهكذا فالفئران التى تأكل الأسقف القاسى ، هى أرواح الأبرياء الذين امر الأسقف بحرقهم وهم أحياء ولا سبيل الى الحديث ، عن تعدد مصادر النوع الواحد فيما يخص هذه الخرافة ذلك أن عناصر « حرق الجائعين » و « انتقام أرواحهم ممن يصب عليهم العذاب » هى من الاكتمال والاصالة بحيث لا تسمح لنا ، بأن تظن أنها نشأت من تخيلات متفرقة ، وفى أماكن متباعدة ، وأزمان مختلفة .

ويصدق نفس الرأى - فيما أعتقد - وعلى القصة الشهيرة التى يحكيها جريجورى التورى عن الملك الفرنكى Guntcharm فبينما ، يكون الملك نائما فى الهواء الطلق ، يرى الجندى القائم بحراسته ، فأرا يخرج من فم الملك ويجرى الى خندق ضيق ويضع الجندى سيفه فوق الفأر ، ويمر الفأر الى ركام مقبرة فى الناحية الأخرى .

وبعد لحظة يخرج الفأر مرة ثانية . ويعبر « كوبرى السيف » .

وينزلق ثانية الى فم الملك الذى يصحو من النوم ويخبر الجندى بحلم رآه . وهو انه رأى فى المنام أنه عبر كوبريا من الصلب ودخل « بيت كنز » وعندما يزاح ركام القبر ، يكون بداخله كنز هائل .

هذه الحكاية ترد فى عديد من النصوص المستحدثة فى أوروبا والهند على السواء (١١٣) .

وفى دراسة أخيرة ، يميل الدكتور هانزنومان الى تفسيرها على أساس نظرية تعدد مصادر الجنس الواحد .

وينبغى أن نعترف بأن المعتقد الأساسى الذى تقوم عليه القصة وهو - تشكل الروح بشكل الفأر - معتقد موجود فى كل مكان لكنى أرى أن التفاصيل وبخاصة العثور على الكنز - تتصف بالوضوح الذى يدحض التفسير السابق .

لقد نشأت الحكاية فى مكان واحد ومنه انتشرت سريعا فى سائر الاتجاهات وأعان على ذيوعها أن فكرتها الرئيسية ، يمكن أن تفهم أينما كانت ، أو قل هى ممكنة الفهم حيثما بلغ الانسان مرحلة الاعتقاد فى التناسخ ، من تطور المعتقدات .

ويحدث ـ فى بعض الأحيان ـ أن يمدنا ايراد اسم بشكل عابر ، بمعلومات قيمة متى لحق هذا الاسم بالقصة فى مختلف صورها وصيغتها .

وهكذا ، يبدو أن قصة « حلم الكنز الموجود فوق الكوبرى » قد رويت فى انجلترا أول أمرها ، ولو انى ابعد ما أكون عن أن أشاطر سير لورانس جوم أراءه فى هذا الصدد .

وايا كان الأمر ، فالاحدوثة مثل جيد للخرافة المهاجرة ، ذلك أنها ذائعة فى أكثر البلاد الأوربية ونستطيع ـ فى حالات قليلة ـ أن نفسر بعض النصوص المستحدثة من خرافة ، على أساس الهجرات التاريخية ، بينما يبدو أن خرافات أخرى ، قد نشأت من مصادر مختلفة وخير مثال تمدنا به ، خرافة « زرزور سرنستر » وفكرة احراق مدينة محاصرة ، عن طريق ربط مواد مشتعلة بالطيور التى تأوى الى اعشاشها الموجودة فوق منازل المدينة ـ هذه الفكرة فى صورتها تلك ـ احدى الأفكار الصريحة التى كانت تنتسب الى حيل النورمانديين الحربية حين كانت أوروبا جميعها تخاف غاراتهم القرصانية ، ولا نقول حين كانت تفزع منها أشد الفزع .

وهذه القصة لها جذران : هما الاعتقاد القديم فى الطير حامل النار ، وهو المعتقد الذى أورده بلينى والذى ند عن الاعتقاد فى الطير الذى حمل النار السماوية الى الانسان .

وأما الجزء الثانى ، فطقس نعرفه من قصة شمشون والثعالب ومن ثعالب كارسيولى التى ذكرها أوفيد .

واذا رويت حكاية الحيل الحربية عن زعماء النورمانديين ،كما جاء فى المآثر الدانيمركية Gesta Danorum لساكو ، وفى بعض المصنفات الوسيطة ، أو اذا كانت هذه الحكاية رائجة فى بلاد ـ كانجلترا ـ وظلت واقعة تحت التأثير النورماندى لسنوات كثيرة ،

فأجدر ببعض هذه العلاقات التاريخية أن تفسر لنا أسباب هجرة هذه الحكاية .

ولاشك فى أن النورمانديين الذين لابد قد شعروا بالرضاء الشديد . عن امتداح ذكائهم والاطناب فى براعتهم ، قد رحبوا بهذه الحكايات ، ولم يحجروا عليها .

وحيثما ترد هذه الحكاية ، او حكاية أخرى تشبهها ، فى بوهيميا بالمجر ، أو فى غرب أفريقيا ، فان نظرية تعدد مصادر الجنس الواحد ، كفيلة بأن تفسر لنا هذا الأمر ، خاصة ونحن نعرف معرفة يقين ذلك الطقس ، الذى تقوم عليه قصة شمشون ، الذى لم يستخدم الطير ، بل استخدم الثعالب فى انزال الويلات بأعدائه الفلسطينيين . وفى كثير من الأحيان ، تنم خرافة ما عن أصلها الأجنبى ، وذلك لأنها تتسم بطابع شاذ ، ولو أنها تجرى فى موطن محدد . ولعل القراء الانجليز ، يذكرون حكاية الشاعر الألمانى تانهاوزر Tannhäuser وهو شخصية تاريخية من شخصيات القرن الثالث عشر ، وكذلك مغامراته فى جبل فينوس وفى البلاط البابوى ، واعترافاته بين يدى الأب المقدس ، وهى اعترافات لا تتصف بالروية ، اذا جاز لنا أن نصدق الشاعر الألمانى (*) .

والخرافة ليست ألمانية ، قطعا ، وليست شعبية . واما أنها ليست المانية ، فذاك ان الميتولوجيا التيوتونية لم تعرف شيئا يقابل أفروديتى الكلاسيية — فالالهة فرايا Freya معروفة فى السويد وحدها —

(*) ترجمة الابيات عن الالمانية كما يلى :

« السيدة فينوس امراة جميلة
فاتنة وساحرة شبيهة بضوء الشمس
وعطر الزهور
ان صوتها رقيق
ولو امتلكت السماء كلها لأهديتها لها
اذا لاعطيتها الشمس والقمر والنجوم
فالشيطان الذى يسمونه فينوس أسوا شيطان
واذا فلست استطيع ان انقذك أبدا من مخالبه الجميلة

ولم تعرف تلك الميتولوجيا فردوسا أرضيا فى داخل جبل ، ولو أن حكاية أيسلندية تتحدث عن أحد الجبال باعتباره مستقرا للأرواح بعد الموت .

وأما انهـا ليست شـعبية فذاك ان تانهـاوزر لم يكن معروفا ـ فيما يبدو ـ خارج دائرة البلاط البابوى (١١٤) ولأنه يرتبط بالبابا اربان الرابع الذى كان يعيش ـ بالفعـل ـ فى زمانه ، ثم لأننا لا نجد خرافة مشـابهة ، فى البـلاد التيوتونيـة ولو أن هنـاك الكثير من Venusberge (جبل فينوس) فى ألمانيا .

ولو كانت الخرافة تيوتونية أصيلة ، لاحتل تانهاوزر مكانة شبيهة بهذه المكانة التى نالها فالهول Valhol فى عصر الفايكنج ، ثم لو كانت الخرافة شعبية ، لما قام تانهاوزر بالمغامرة بل لقام بها شخص آخر أكثر شعبية ، وليس أديبا بالتأكيد .

وقصة قريبة منهـا أشد القرب ، يحكيها « أنطوان ده لاسـال » الفرنسى ، فينسب موطنهـا الى ايطاليـا مع أن البطل هنـا فارس المـانى أيضـا .

وينبغى أن نذكر أن جوهر هذه الحكاية يروى عن الشـاعر الاسكتلندى توماس أوف أركلدون Thomas of Erceldoune المعـروف « بوزان الشعر » حيث تبـدو « فينوس » « وحورياتها » فى شـكل الجنيات الكيلتية الأصيلة .

والحق أن مملـكة فينوس الرائعـة ، ليس لها نظير فى الديانات الاغريقيـة والرومانية القديمة أو فى العصور الوسـطى التيوتونية ، بل هى تشبه ـ بعض الشبه ـ مملكة الشباب الايرلندية ، حيث يمضى الأبطال أوقاتهم ، فى سعادة قصوى ، متجاهلين القول السائر . وهو أنه « بين متعة الحواس وسلام الروح لا يبقى للانسان الا الاختيار المؤلم الصعب » (*) .

وأما فينوس ، فليست بالطبع افروديت الاغريقية التى سخر منها هومر سـخرياته الرقيقـة ، ولا هى أم اينـاس ، ذلك الشخصية

(*) Zwischen Sinnenglück und Seelenfrienden Bleibt dem Menschen nur die bange wahl.

التى تتصف أساسا بالجد البالغ ، بل ليست هى عشتارت الشرقية بطقوسها الخشنة الفجة . وانما هى فى جوهرها هذه الآلهة العظيمة ، التى تغنى بها لوقريطس فى غنائية من أبرع وأروع الغنائيات التى جاد بها الزمن .. ، انهــا المقابل لفيزيس الاغريقية ، والتجسيد للطبيعة واهبة الحياة .

واذا ، فلا مجال للشك ، فى أن خرافة تانهــاوزر الجرمانية كلتية فى اساسها . وانها هاجرت من انجلترا الكلتية الى ألمانيا ، وأن شخصية الشــاعر توماس الذى تجهله القــارة ، قد حلت محلهــا شخصية تانهاوزر .

ولما كانت الجنيات الأيرلندية مجهولة بالمثل عند الألمان ، فقد حلت محلها فينوس ووصيفاتها . واصبحت المقارنة بين الثلاث tertium comparationis هي ، مقارنة بين صفات جمالهن المذهل ، وخصالهن العذبة المحببة الى القلوب ومن اذن ـ أجدر بأن يحمل تبعة التبديل الذى حدث ؟ .

الاجابة واضحة وتلك أن الأسماء وحدها تستطيع أن تدلنا عليهم .

لقــد كان هؤلاء ، قطعــــا ، هم العلماء الرحــل (Vagantes) ، الذين أنشئوا الأشعار الغنائية اللاتينية فى العصور الوسطى ، وهم أولاء الذين جابوا أوروبا من اقصاها الى أقصاها ، وهم الخليقون بأن يختاروا واحدا من طبقتهم ـ رجل ادب ـ ليكون بطل حكايتهم .

واذا استمتع الانجليز بأوبرا فاجنر ، فلعلهم يواسون أنفسهم بأن يظنوا أنهم يستردون ما كان لهم ـ ولو جزئيا على الأقل .

ويكاد نفس الأمر يصح بالنسبة لحكاية « فارس البجعة » التى لا تقل شهرة عن الحكاية السابقة ، ولو أن مذيعى الحكاية ـ فى هذه الحال ـ ليسوا هم العلماء بل رجال الدين .

والأسطورة الجميلة ، فى صيغتها الحاضرة ، هى فى أساسها من ابداع المنطقة الواقعة بين الميز والراين .

والحق أنها تدين بانتشارها وشعبيتها بغير شك ـ لمطامح الشرف عند أسرتين نبيلتين هولنديتين هما « اشراف » بولونى « واشراف بواللون » .

وحين احتفت أوروبا بالعائلة الثانيــة ، على أثر الحرب الصليبية الأولى ، ترامت الأسطورة الى دوائر أوسع مدى ولفتت اليها الشعراء ورواة القصص .

وهذه الخرافة ، فى ملامحها الرئيسية ، مزاج غريب يتألف من حكاية الجان المسرفة فى طابعها الميلودرامى ، وعاطفتيها وهى حكاية « الملكة البريئة المضطهدة » ثم الخرافة المهاجرة خرافة « زوجة المارد » .

على أســاس من هاتين الحـكايتين انشئت حـكاية « أبنــاء لير » الايرلندية المتعة .

وهؤلاء الأبناء « سخطتهم » زوجة أبيهم فصاروا بجعا ولكن كيف وصلت هذه الخرافة الى البلاد الواطئة ؟ .

ليس من الصعب أن نجد الاجابة فقد امتاز القرن العاشر ، بالغزوات الدنمركية التى أدت الى تدمير الأديرة الايرلندية تدميرا شاملا ، وأدت كذلك الى اغتيال الرهبان والقسس الايرلنديين .

وكانت هذه الكارثة سببا فى أن يهاجر رجال الاكليروس الايرلنديون على نطاق واسع وأن يحتموا بأديرة القارة وصوامعها وذلك فى فرنسا والبلاد الواطئة والمانيا .

وكان هؤلاء ، بلا نزاع ، هم الذين روجــوا الحـكاية الايرلندية عن الأطفال الذين تحولوا الى بجمع والذين حكم عليهم بأن يعيشوا على هذا النحو ، الى أن يحررهم جرس مسيحى وقس مسيحى .

ويجمع عقــد كامل ، بين الخرافات المهاجرة والخرافات المحلية ، ويؤلف سيرة « الملك فى الجبل » (١١٥) .

ومن المعلوم أننا نجـــد أنه استقرت فى البلاد الكلتية والتوتونية والسلافية حكاية الملك السجين فى أعماق الجبل ، والذى سيشق طريقه ذات يوم ، ويعيد بلاده الى سابق مجدها .

وفى المانيا ، حيث ترتبط الحكاية أصلا باسم فردريك الثانى ، فانها تنبعث من تصورات تيوتونية قديمة ، خلاصتها ان عالم الموتى يقع فى داخل جبل ، ونحن نجد آثارا لهذه المظان فى جزيرة أيسلندة البعيدة .

ومثل هــذا الأساس أقل من أن يكفى لتفسير الســيرة الخرافــة التى نناقشها ، وذلك للأسباب الآتية .

لقد كان فردريك الثانى أول ملك فى المانيا ، يرتبط بهذه المجموعة من الخرافات بيد أن هذا الملك لم يكن مكروها من الشعب فحسب بل لم يكن الألمان يعيرونه انتباها .

وكان السبب القوى وراء هذا ، أن فردريك الثانى وقف معظم جهده على ممتلكاته الايطالية حيث خاض معاركه ، ولم يمنح المانيا عناية مذكورة .

وكان من نتائج ذلك ، أن ترك وراءه ، اسفا قليلا على موته شمالى جبال الألب ، على حين اسف لموته الكثيرون فى ايطاليا ، ثم فشل انصاره ، وفقدوا كل سلطان بعد عام ١٢٦٦ ، وعاش اكثرهم فى المنفى .

واذا فعودته ثانية ، جديرة بأن تكون هبة الهية فى نظر الجبليين الايطاليين الذين ناصروه وليس بالنسبة للألمان الذين ناصروا الهوهنزلين .

وينبغى ان نضيف الى هذا الاعتبار حقيقة ذات صفة تاريخية خالصة فقبل أن نسمع بخرافة الملك فى الجبل ، فى المناطق الواقعة شمال الألب ، كان الايطاليون يعرفون الملك آرثر الذى يعيش فى داخل جبل أتنا .

وكانت العودة الثانية ، للملك آرثر ، يترقبها باشتياق شديد ، العالم الكلتى فى ويلز وكورنوول ، وبريتانى ، حتى لقد وجد الملك هنرى الثانى انه من المفيد أن يدعم هذه الشائعات والآمال ، فأمر بالكشف عن المقبرة الحقيقية للملك البريطانى القديم .

ويعتقد ، حتى يومنا هذا ، ان الملك آرثر ، نائم فى أكثر من جبل فى ويلز فاذا تساءلنا وكيف دخل الملك آرثر فى جبل اتنا ، وجدنا الرد يسيرا ، فقد كان النورمانديون ، هم الذين حملوا هذه الخرافة الى تلك المنطقة ، وحملوا معها بقية السيرة الأرثرية .

والذى حدث بعد ذلك ، ان الجبليين فى صقلية ، وتلك هى مملكة فردريك الثانى التى منحها كامل عنايته اسندوا الى وليهم الراحل القصة التى كانت موضوعة من قبل عن الملك آرثر الذى كان فى اعتقادهم ملكا من ملوك الجان . ثم أذاع الجبليون الايطاليون هذه القصة فى شكلها الجديد بين الألمان المناصرين للهوهنتزتاوفن Hohenstaufen

الذين خدم كثيرون منهم فى جيش مانفريد بن فردريك وخاضوا معركة بنفنتو Benevento عام ١٢٦٦ .

ولعلنا نرى أن الاعتقاد فى عودة ملك عظيم قديم الى الحياة ، ليسترد شعبه عصره الذهبى ـ هذا الاعتقاد يضرب بجذوره فى النفس الانسانية بما يكفى أن نفترض نشوءه تلقائيا فى أماكن متباعدة وفى عصور مختلفة .

ومما يدعم هذا الرأى ، ذلك الظن الموروث العجيب ، الذى يطالعنا من المكسيك ، وخلاصته أن الأهالى هناك يرون فى السفاح كورتيز واتباعه من قطاع الطرق ـ ملكا الهيا عائدا عبر البحار .

ولو عاد كورتيز ورجاله ، لما كتب على شعب من الشعوب ، أن يقاسى شقاء اشد من شقاء أهل المكسيك وأيا ما كان الأمر ، يرتبط هذا الاعتقاد فى أوروبا بكثير من التفاصيل مثل الشجرة اليابسة تتفجر بالحياة من جديد ومثل الموقعة الأخيرة ، وغير ذلك ، مما يحملنا على أن نطرح جانبا ، كل الأفكار المتعلقة « بالأصل المستقل » أو « المصدر المستقل » .

بل نجد هنا الأسطورة اليهودية الميساوية فى شكلها الجديد ولا سبيل الى الشك فى انبعاث هذه المعتقدات من مصادر شرقية .

على حين أن من يسميهم المؤرخ الاسكتلندى ماجور بـ « العقلاء » الذين كانوا يعرفون أن هذا المعتقد لا أساس له من الصحة ، لم يرغبوا فى أن يعارضوه ، حتى لا يدمرهم الجهلاء فى سورة من غضبهم (١١٦) .

ولا شك فى أنه قد خطرت على بال ماجور تلك الكلمات التى قالها آلانوس آب انسوليس Alanus Ab Insulis عن أهل ويلز من أنهم كانوا على استعداد أن يشنقوا أى انسان على جذوع الشجر ، اذا أنكر خلود « آرثر » أو انكر عودته ثانية ، ليحرر الكلتيين البريطانيين من قبضة السكسون .

وتوجد فى ألمانيا الغربية ، وخاصة فى مناطق الراين ، مجموعات من الصخور تسمى بمخدع برونهايد أو مقعد برونهايد .

ولقد رأى العلماء الألمان كافة ، وبغير أن يبذلوا جهدا فى الاستقصاء ، أن هذه التسميات اشارات واضحة الى سيرة نبلنجن Nibelungen

غير أن الموضوع أشد تعقيدا مما يبدو ذلك أولا لأنه كانت توجد ملكة هى برونشيليديس Brunechilidis وكانت تحكم بالدقة ، تلك المنـــــاطق من مملكة الفرنك ، التى تنتمى اليهــا ، ـ ولو اسميا ـ مناطق الراين وجنوب ألمانيا وغربها .

كانت هــذه الملكة ، احــدى هذة الشخصيات التى تترك طابعها وتلقى بظلالها على تاريخ بلادها ، لقرون عديدة ، ولعلها كانت السبب فى نشوء هــذه الأسماء التى نناقشها ، شأنها شأن الزوجة الأسطورية للملك جنتر .

وادعى من هــذا الى العجيب ، ان نجد فى أيرلنــدة مجموعة مماثلة من الصخور تحمل اسم مخدع درمات وجرانيا (Dermat and Grania) وهذه الصخور ، مسرح لطقوس نماء واخصاب .

فاذا تذكرنا أن بلاد الراين كانت محور نشاط الارساليات الايرلندية فى العصر الميروفى ، وان الملكة برونشيلديس الفرنكية لم تكن على وفاق مع واحــد من أعضاء هــذه الارساليات على الأقل ونعنى به القــديس كولومبانوس Columbanus ، جاز لنـــا أن نظن أن هنــاك ثمة علاقة بين الحقائق التى أوردنا آنفا .

غير أننا لا نستطيع أن نجزم برأى قاطع فى هذا الموضوع ، قبل أن نقوم بمزيد من الفحص والتحليل ونفيــد فائدة دقيقــة من كافة المــواد المتصلة بالموضوع .

واشارتنا الى برونشيلديس الفرنكية التى كانت موضع اتهام وريبة بالتأكيد (كما قال الشــاعر الألمانى الوســيط عن كريمهيلد Krimhild والتى كانت ترتبط بالشيطان فى ذهن القديس كولومبانوس على الأقل ، هذه الاشارة تردنا الى قصة زوجة المارد أو قل الى حكاية عقد زواج قاتل مع زوجة من عالم الكائنات الخارقة للعادة .

هذه الفقرة ، قد تأتى فى ثلاث صيغ واشكال مختلفة . فقد توافق الزوجة على الاقتران به . بشرط ان يلتزم « تابو » معينا .

فاذا كسر هذا (التابو) تركته على الفور .

هذه الفقرة هى الحادثة المركزية فى حــكاية جان معروفة وذائعة

أشد الذيوع ، وقد ثبت أصلها الهندى أخيرا ، بطرائق البحث الجغرافية التاريخية .

وفى الصيغة أو الشكل الثانى ، لا ينتهى كسر التابو الى رحيل الزوجة فقط بل يتسبب عنه موت الزوج أو فقده البصر .

وبهذه الصيغة ، تذيع قصة فى جزيرة صقلية ، من الأوقات القديمة ، وفيها يصاب « عاشق الالهة » بالعمى ، جزاء له على عمل من أعمال الغدر ذلك هو عشقه لامرأة من « الانس » .

وخير نص مستحدث من العصور الوسطى ، هو حكاية بطرس ، الذى كان من أهالى ستاوفنبرج ـ وزوجته الجنية الخفية . فعندما ، يخالف تحذيراتها ، ويتزوج أنسية ، تظهر له ، للمرة الأخيرة ، تحذره من أنه سيموت بعد قليل .

ويبدو أن هذه الصيغة ، تعود فى أساسها الى تراث البحر الابيض المتوسط ، فهى لا تعدو أن تكون اشتقاقا من الفقرة القديمة كما توردها حكايات أياسون ودمتير وحكايات أنشيسز وفينوس وخلاصة هذه الفقرة ، أن من يواقع آلهة ، يصاب بالموت أو العمى .

ويروى شارون من لامبزاكوس ، قصة من أمتع القصص ، وقد حفظها لنا ـ لحسن الحظ ـ أحد الشراح فقال ان ريوكوس السنديانى أنقذ حورية من حوريات اشجار البلوط ، بأن يسند شجرتها ، فمنحته حبها فى مقابل هذا ، واشترطت عليه بألا يجامع امرأة أخرى ، بعد ذلك الوقت .

وتكون نحلة ، وسيطا ورسولا بين الاثنين .

وذات يوم ، كان ريوكوس ، يلعب « الدامة » وطارت اليه النحلة ، لكن الفلاح الفظ ، فضل اللعب على أن يقضى ساعة مع حبيبته ، وأساء استقبال النحلة التى نقلت خبر الاهانة الى الحورية ، وعاقبته الحورية ـ الغاضبة ـ بالشلل جزاء وفاقا .

تتسم هذه الرواية ، بكافة الملامح التى تدل على وقوع تحوير فيها .

فالشرط الواضح ، أن يظل الفلاح على ولائه للحورية ، يبدو غير ذى موضوع ، لأن الحورية الجميلة انما تغضب لسبب آخر ذلك

هو غلظة الفلاح وسوء أدبه ــ بل ان هذا السبب الثانى نفسه ــ لا يتمشى مع فضل الفلاح ، وطيب شمائله ، حين انقذ شجرة البلوط .

واذا فلن نخطىء كثيرا اذا افترضنا أنه فى نص الحكاية الضائعة لم تكن جريرة الفلاح ، أنه أساء التصرف وأساء الأدب ، بقدر ما كانت انه أخلف وعده ونقض عهده .

وليس هذا النمط من الحكايات بمجهول فى اسكندنياوه . فسيرة « أولاف تريجفازون Olaf Trygguason تحكى لنا كيف وقع البطل هيلجى توريسون فى قبضة الحسناء انجبورج من جليترنج وواضح أن هذه الحسناء من العالم السفلى .

وتحرره صلوات الملك « أولاف » لكن صاحبته الجنية ، تصيبه بالعمى حتى لا تتمتع بعشقه بنات النرويج أى حتى لا يقع فى حب انسيات ، فالعيون ، حسب الفكرة المعروفة الذائعة فى العصور الوسطى هى اهم « وسائل » أسر القلوب .

وفى ثالثة الصيغ التى ذكرناها آنفا ، لا يكون لزوجة الجنى من هدف سوى أن تدمر عائلة زوجها وخاصة أبناءه من الزوجات الأخريات ، وذلك بوسائل تشبه « مص الدماء » .

(ولا نزاع فى أن لهذا النص المستحدث أصلا هنديا ، ففى الهند تتردد حكايات من هذا النوع فى أقدم مجموعات القصص الشعبى ، كما أنها موجودة لا تزال ، فى المأثورات الشعبية المعاصرة وأما فى الغرب ، فهذه الحكايات متناثرة غير متصلة ، وان لم تنقصها بالتأكيد زوجات الأب الشريرات .

وأحسب أن حكاية « فارس البجع » أحد النصوص الأوروبية المستحدثة من هذه الصيغة الثالثة .

وارتحال حكاية من هذا القبيل ، يؤثر عليها ما فى ذلك شك ، فهى اذ تروى ، ويعاد روايتها واذا يحسن رواة القصص ترديدها أو يسيئون روايتها ، يصيبها تغيير دائب ، تصعب ملاحظته .

وثمة مثل طيب لهذا تقدمه القصة الفرنسية «الفتاة وكونت بونتيو» .. فهناك زوجان فى طريقهما الى الحج يعترضهما اللصوص ويقيدون الزوج الى شجرة ويغتصبون الزوجة وعندما يرحلون ، تأخذ الزوجة سيف زوجها تريد ان تقتله به ، ولكنها تخطىء فتقطع الحبال وتطلق سراحه .

ولا تعطينا القصة تفسيرا لسلوكها الغريب بينما يزعم الباحثون المحدثون اغرب التفسيرات وأبعدها عن الواقع ذلك أن الحدث القصصى يتضح لنا ما أن نتبين أن الحكاية موضع بحثنا ليست الا صورة من صور حكاية « الزوجة الخائنة » الهندية ففى الانموذج الاصلى تعشق الزوجة قرصـــانا أو شيخ منسر ، وتريد أن تقتل زوجها ثم تفشل فى قتله .

والقصة انموذج للخرافة المهاجرة .. ولدينـا نصوص هنـدية مستحدثة لها بل لدينا حكايات من الشرق الأوسط تقوم مقام حلقة الاتصال التى تفسر تاريخها .

وأما القصـة الفرنسية التى ذكرناها ، وما يماثلهـا من قصص ، غربية كانت أو شرقية فليست الا نمطا واحـدا من حلقات كاملة ، جديرة بأن نسميها حلقات « الزوجة الخائنة » .

وفى عام ١٩٠١ ، وقبل وفاة جاستون بارى بقليل ، عالج نمطا آخر من انماط هذه الحلقـات فى دراسة متفردة ، انتهى فيها الى اثبات أن النمط ينحدر من أصل شرقى .

وفى نمط ثالث ، شـديد التـأثر بالخرافة المهاجرة عن الآلهـة الساحرة التى تبدل الطبيعة البشرية لعشاقها ، تقوم الشريكة فى زواج ناجح بتحويل شركائها الى حيوان ، وكلاب ، وذئاب وحمير .

وفى نص مستحدث ايسلندى ، تحولهم الى «كراكى» و « غرانيق » . وذلك بدافع من الحقد المحض أو لأن الأزواج يرونها أثناء قيامها بعمل من أعمال السحر .

ويستعيد الزوج المنكوب شكله الانسانى عندما يتدخل ساحر آخـر من الجنس اللطيف أو حين تقع حادثة مواتيـة . ويشرع عنـدئذ فى تحويل شكل زوجته السابقة بدورها .

هذا النمط ، ذو أصل شرقى ، بلا نزاع ، لكنه وصل الى جزيرة ايرلندة ، بل أيسلندة ، فى مطالع العصور الوسطى . ولم يحظ هـذا النمط حتى الآن ، بدراسات منشورة جيدة .

ولدينا قصة ، تناولتها نظرية « نشوء الجنس الواحد من مصادر متعددة » وان كانت فى نظرى خرافة مهاجرة مثلى ، وتلك هى قصة أندرومنـــــدا Andromenda (١١٧) فقد حاول سير جيمس فريزر

أن يشتقها من عادة تقديم القرابين البشرية ، التى تؤدى للأنهار على نحو خاص ، وأورد مثلا عليها ، قصة من أواسط افريقيا ، وفيها يكون « الوحش » الذى نناقش موضوعه ، مجرد تمساح من هذه التماسيح الكثيرة التى تروع النهر .

ولعلنا نذكر العادة المصرية الخاصة بعروس النيل كما يقال (*) .

ولعلنا نسلم بصحة هذه الملاحظات جميعا ، ولكنا نشك فيما ذهب اليه العالم الريطانى الكبير عن انتمائها الى جنس بعينه . فالقصة — أولا — موجودة فى سائر انحاء الأرض ، حتى انها متوافرة فى بلد كاليابان ، ليس فيها تماسيح والسبب الثانى ، انه يجدر بنا أن نفترض ، بناء على هذا العدد الضخم من نصوص الحكاية ، أن الأمم فى زمانها الغابرة ، كانت سواء فى اعتناقها فكرة تقديم الضحايا البشرية كما كان الأزدك القدماء يفعلون .

والأمر الثالث ، أنه فى العالم الجديد ، حيث لم توجد هذه الحكاية فى الأصل ، ولم تعرف عادة مماثلة ، كانت التماسيح الأمريكية (**) اقل اثارة للعاطفة من تماسيح العالم القديم ورابع الأسباب اننا نعرف جيدا ، كيف يسلك بعض الناس المصابين بالهوس بازاء تقديم هذا النوع من الضحية . فبعض الناس ، فى وقتنا هذا ، وفى قلب أوروبا ، يرفضون أن ينقذوا غريقا ، وهم يعتنقون — مخلصين — سببا وجيها ، ذلك أنه

(*) اثبتت الشواهد العلمية الحديثة بطلان تلك الفكرة التى راجت طويلا ، عن تقديم قرابين بشرية للنيل قبل الفتح العربى . وذلك انه لا يستقيم مع تقدم الحضارة المصرية القديمة ، وارتفاع مستواها الفكرى والعلمى ، استمرار ذلك السلوك الوحشى .

والأمر المرجح أن المصريين القدماء كانوا يلقون « دمى » وليس بنات صغيرات كما زعم أصحاب الفكرة التى نعترض عليها .

(راجع كتابنا عن الآداب الشعبية العربية — فصل الظاهرات الطبيعية) — المترجم .

(**) كلمة Alligator ترجم بـ « اللغطير » وهو نوع من الزواحف من مرتبة التماسيح لكنه يختلف عن التمساح الافريقى مثلا ، بتقعر فى الراس ، ووجود مغاوز فى الفك الأعلى تدخل فيها انياب الفك الأسفل وقد آثرنا أن نستعمل كلمة التمساح الأمريكى — المترجم .

لا ينبغى أن يحرموا النهر من فريسته . ولو اتيح لرجل أن يكون شجاعا مثل برزيوس وحال دون اتمام هذه العادة ، لتعرض لخطر أن يقتله العامة قبل أن ينال فرصة القتال ضد الوحش .

وآخر امر ، نبديه ، هو كيف تكون الضحية صبيا ـ وليس فتاة ـ فى بعض البلاد كالهند وباكستان ؟ هل نفترض أن الضحية كانت فى هذه البلاد ذكرا على الدوام على حين كانت أنثى فى بقية أنحاء العالم القديم ؟ انى أميل الى الظن ، الى أن الحكاية نشأت فى مكان معين أول ما نشأت ـ فعدد عناصرها قليل جدا ـ ثم انها هاجرت من هذا الموطن الى سائر انحاء العالم القديم ، ولكنا لا نستطيع أن نحدد ذلك الموطن الأصلى .

ولا نزاع عندى ، فى أن القصة الشديدة البساطة ، والتى لا تحتاج الى أكثر من أن يتوفر رد فعل فيزيقى ـ هو فكرة شهامة الذكر ـ هذه القصة نشأت أول أمرها ، فى عصور ما قبل التاريخ .

ولعل القارىء أن يتساءل ـ وقد بلغنا هذه النقطة ـ كما تساءل بديه لماذا تهاجر الحكايات من بلاد بعينها الى بلاد أخرى بذاتها ؟ أو قل لماذا تمتاز بلاد بعينها بانتاج القصص ، التى تستخدمها بلاد أخرى ؟ .

لقد حاول ف . بنفى أن يجيب على هذا السؤال ، حين ربط بين نظريته الهندية ونشاط المبشرين والدعاة البوذيين . فقال ان الحكايات ذات الطابع التعليمى ، والدعائى الأخلاقى ، تناثرت وانتشرت اينما عمل دعاة البوذية سواء فى الشرق الأقصى او فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ومن العبث ان ننكر ما فى هذا الافتراض ، من صواب غير قليل . فلا نزاع فى أن الدعاة البوذيين هم الذين روجوا فى فارس قصة بارلام وجوزافات Barlaan & Josaphat ، وهى ذات الطابع الأخلاقى ، فى جوهرها .

كما انه يعزى الى هذه الحركة الدينية ذاتها ، نقل الكثير من عناصر الآداب السنسكرتية القديمة الى الصين وفارس .

واذا اجترأت فخالفت بنفى ، وأيدت بديه ، فالسبب هو أن بنفى يبالغ شيئا فى تقدير المأثورات الشفاهية على حساب المأثورات المكتوبة المدونة . ذلك أن ترجمة مجموعات الحكايات المكتوبة بالسنسكرتية

الى اللغات الصينية والفهلوية ، كان له من الآثار الواسعة ما يضارع الآثار التى خلقهـا ترويج المواعظ والأخلاقيـات الشفاهية ، خاصة فى شعب متعلم ، يحسن القراءة والكتابة ، كالشعب الصينى القديم .

وخطأ بنفى الأكبر ، فى راينـا ، هو انه ينسب الى الهنـد ، كل الحكايات الهامة والجوهرية التى أمتعت البشرية منذ اقدم العصور التى تحيط بها معارفنا التاريخية .

كان هذا « الزعم » ، نوعا من التهويل والمبالغة المسرفة ، فالهند كما راينا موطن هام لرواية القصـة وانشائها ، لكنها ليست الموطن الوحيد على الاطلاق .

وكذلك فلا يجوز لنـا أن نعزو دائمـا ذيوع الحكايات الشعبية وانتشارها الى بعض الحركات الدينية فهناك أسباب اخرى أشـد عمقا ، تستطيع ان تفسر لنا هذه الظاهرة .

ان رواية القصة جزء لا يتجزأ مما نسميه فى الأدب بانشاء النثر القصصى . وأما أن بعض أنواع هـذا النثر يحتاج فى نشره الى قلم ومحبرة ، بينما تروج انواع أخرى بالتناقل من الأفواه الى الآذان ، فليس له من اثر ، الا الاختلاف فى درجة « الاكتمال » بين نص ونص .

ونحن نعلم ان « كتابة النثر القصصى الجيد » لا تواتى كل الناس ، كما أن رواية القصـة الشعبية ، ليست موهبـة تواتى كل فـرد من الأفراد . فبعض الناس يمتازون فيها ، على حين أن بعضهم الآخر لا يبالون بها ، أو يعجزون دونها فمثلا كان أهل الجزر اليونية يملكون ناصية هذا الفن ، على حين كان هذا الفن فى أتيكا مجلوبا من الأيونيين .

وأما أهل اسبرطة ، فـكانوا يفتقرون الى هذا الفن ، ويعترفون بافتقارهم اليه ، ويمجدون جفاف الموهبـة ، اذا شئنا أن نستخدم الايجاز اللاكونى .

وكذلك امتـاز قدماء العبريين فى فن رواية القصـة ، ويكفى أن نذكر العهد القديم والتلمود والميدارش — ولم تلد روما ، فى مجدها ، راوية جيـدا واحدا ، فبترونيوس Petronious كان عالميا متشربا للثقافة الهيللينية ، وأبوليوس Apulcius كان ساميا .

وبالمثل كان أساتذة رواية القصة فى العصور الوسطى ثلاث أمم

هى الامة الفرنسية ، والايرلندية ، والايسلندية ، ونستطيع أن نضم اليها ، الأمة اليونانية البيزنطية شبه الشرقية والأمة العربية .

وكان من أثر ذلك أن راح الـذين يملـكون هـــذا الفن يعطون من لا يملكونه ، ويتبادلونه مع الآخرين ممن ينشئونه .

وتتبـادر الأمثلة المختلفـة على الذهن ، فحين ذهب هـيرودوت الى اثينا ، قوبل بالاعجاب على حين لم يكن ينـال مثل هذا الاعجاب فى وطنه أيونيـــا .

ولقـد سلب الرومان الميتولوجيـــا الهيللينية على نطاق واسع ، ولم يفعلوا ذلك لأغراض دينية بالتأكيد .

واستعار الاغريق ــ وخاصة الاغريق المتأخرون ــ قصص أهيكار من الساميين ، وكتاب السندباد من السوريين ، وقصة الامبراطور ورئيس الدير من العبريين السـكندريين . وقصـة رئيس المنسر من المصريين .

وأخـذ العبريون عن الاغريق قصة منيوس وسـكيلا (Minos & Scylla) . ناسـبين مخاطرها الى موسى والأمـيرة السـودانية واستعاروا من السـامين الفارسيين قصة استر ، ومن الهند قصة البراهمة الذين كانوا يحيون السباع من الموت وقصص حلقات سليمان .

وفى العصور الوسطى ، سـاد القصص الفرنسى ، انحـاء القارة الأوروبيـة بل ترجمت القصص الفرنسـية الى اللغـة التشكية والأيسلندية . وليس فى استطاعتنا ان نتصـور فن القصـة فى أدب الانجليزية الوسيط أو فى أدب الألمانية الوسيط المتأخر ، بغير التأثيرات الفرنسية التى انتشرت فى هذين الأدبين .

ولم تترك القصة الايرلندية النثرية طابعها العميق فى أدب ويلز ، بل هاجرت رأسا الى انجلترا وفرنسا وأيسلندة وترامت الى اسبانيا وايطاليـا .

وكان القصص النوردى النثرى القديم ــ الذى مارسته أيسلندة ــ قد أتاح موضوعات فنيـة للايرلنديين والانجليز والألمـان والمقيمين فى القارة الأوروبية .

وكانت الموضوعات البيزنطيـة والعربية ــ فى ذلك الوقت تفيض

على أوروبا ، وتصل الى الغرب والشمال من ثلاث طرق رئيسية ــ عبر اسبانيا ، وبواسطة الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية ثم عن طريق روسيا .

ويساعدنا على شرح العبارات السابقة أن نورد بعض الأمثلة ، من غرب أوروبا وشمالها ــ على نحو خاص ــ وذلك مع اخراج الهند من الحساب .

لقد سبق لنا أن أشرنا فى فصل سابق الى الحكاية الغربية التى تتحدث عن بطل يتخيل أنه قام بكافة أنواع المخاطرات ، وامضى سنوات عديدة فى العالم الآخر . ثم يكشف ــ فى النهاية أن ذلك كله كان وهما من الأوهام ، وأن دقائق معدودات هى التى انقضت عليه فى وهمه ذاك .

يرجع أصل هذه القصة فيما نعلم ، الى أحلام الحشيش «*» الشرقية غير أنها وصلت الى ايرلندة فى مطالع القرون الوسطى ، واتخذت قالبا ايرلنديا هناك وفيه يستدعى بعض الرسل من الجان ، البطل من حفل مقام ، ويطلبون اليه أن يناصر فريقا من الجان ضد فريق آخر فى معركة ب « تيرناتوج » المشرقة . وتنتهى الحرب ، ويعطى البطل جنية لتكون زوجة ، ويعيش معها راضيا ، وينشىء عائلة ، وبعد سنوات كثيرة ــ فيما يظن ــ يريد البطل أن يعود فيزور أيلندا ، فاذا ما عاد ، وجد أصحابه جالسين حول المائدة ، حيث تركهم .

(*) يخطىء المؤلف فى تعليل هذه القصة حين يعمد الى التبسيط المسرف ، والتجريج غير القائم على استقراء كاف وتأمل ثاقب . فالموضوع الذى أشار اليه المؤلف ، يتعذر تفسيره بالطريقة الفجة التى أخذ بها المؤلف ذلك أن تخيل قطع المسافات الشاسعة » و « الأزمان الطويلة » والتشوق الى معرفة العالم الآخر ــ كل ذلك ملأ خيال الانسان وروحه فرمز اليه وعبر عنه بأساليب شتى ــ وليس أدعى من الخطأ فى ظننا من أن يعتسف المؤلف تخريجا ساذجا يفرضه على هذا الموضوع .

ونحن نعتقد أن فكرة الزمن و « الوجود » فى المأثورات الشعبية جديرة بأن تنال تفسيرا فلسفيا . وليس تفسيرا ماديا .

فالانسان لا يفرز الأفكار والتصورات ، ذات الدلالة والقيمة ــ لانه يأكل ويشرب ويلبس ويتواجد بل لانه يستخدم حصيلة معينة من طرائق التأمل والتخيل التى تهديه الى ارتياد الآفاق الجديدة بل الغامضة ــ المترجم .

ترامت هـذه القصـة الى ايطاليـا ، واندمجت فى مجموعات «أحدوثاتها » وأن كان الايطاليون قد ادخلوا عليها تعـديلا طفيفا ، ففيروا الحفل الايرلنـدى وجعلوه مأدبة يقيمها الامبراطور فردريك الثانى وغيروا الجنيات الايرلندية ــ فجعلوهن ساحرات .

وأما القصص الشرقية المشـابهة والمنبعثة من هذا المصدر نفسه ــ ونعنى به مصدر احلام الحشيش ــ فتختلف عن الحكايات السابقة أيما اختلاف ، بحيث لا توجد صلة بينها وبين القصص الايرلنـدية التى تقوم بدور الناقل أو الوسيط .

ولا غرابة فى هذه الحقيقة ، فالفزوات الدانمركية والانجلوسكسونية قد ساقت امامهـا ايرلنديين كثيرين ممن ارادوا أن يقيموا فى مواطن جديدة فى القارة الأوروبية .

بيد أن هنـاك ما ينبغى أن يقال عن هذا الموضوع الفنى الغريب الذى نناقشه فقـد وضع الأمير الأسبانى « خوان مانويل » فى القرن الرابع عشر مجموعة من الحكايات التى نستطيع أن تقارن بينها وبين حكايات « ديكاميرون » .

وتقع واحدة من هذه الحكايات ، فى مدينة « طليطلة » المشهورة بفنون السحر التى درج العرب على تلقينها للطلاب .

وأما بطل القصة فيطلبه رجل دين مسيحى طموح يريد أن يكون عالما ضليعا بالسحر . واذ يجلسان فى خلوة الساحر ، يتوالى الرسل وهم يعلنون أن رجل الدين تقلد مناصب سامية ، ونال ترقيات هامة .

وكلما طلب اليه الساحر طلبة ، أعرض ورفض فاذا الح الساحر ، هدده رجل الدين بمحاكم التفتيش .

ثم يصيح طالبا ديكين من الدجاج التركى ، كان قد أمر بشيهما ، عند بدء الاجتماع ، ثم تبين الراهب الطيب أن كل الذى رآة كان وهما وأن فترة قصيرة من الزمن ، هى التى انقضت ، وأن الساحر لم يبغ شيئا سوى أن يختبر طبائعه وقد نجح الساحر فيما أراد .

ويميل الانسان ــ لأول وهلة وبغير تردد ــ الى أن ينسب هذه الحكاية الى الفن الشرقى والى احلام الحشيش بلا نزاع .

غير أن هناك ما ينبغى أن يضاف الى تفسير هذه الحكاية .

فالنص الايسلندى ، يروى الوقائع التالية وهى أن رجلا من الفايكنج كان يرسو بأسطوله فى بعض الموانى وكانت ظروف حياته غير مواتية ، واكرم ســاحر وفادته ، فحياه وعرض عليه أن يتم زواجه من الأميرة المطلقة التى كانت تحكم هذا الميناء .

وفى مقابل هــذا ، حصل الساحر ، على « مقابل » صغير ، وسر الفايكنج ، ووافق على اقتراح الساحر .

وظن أن كل شيء ، يســير كما ينبغى ، فتزوج الأمــيرة ، وحصل على الثروة ، وحرص على الوفاء بوعده لبعض الوقت .

غير أنه ـ بعد قليل ـ يضيق ذرعا بالساحر ويطرده ، ليجد نفسه آخر الأمر ، فى سفينة الفايكنج بالميناء ، رجلا فقيرا لم يتزوج .

ولم يكن الوقت الذى ظننا أنه طال سنوات كثيرة ، غير حلم استمر دقائق قليلة ، صنعه الساحر الذى أراد أن يختبر البحار .

ومن الواضح ، اننا لا نستطيع أن نفصل هذه الحكاية عن الحكاية الاسبانية التى أشرنا اليها من قبل ، أو الحكاية الايرلندية التى هاجرت وذاعت ، وترامت حتى ايطاليا .

وحكاية البحار ، تشترك مع الحكاية الاسبانية ، فى جزئية « اختيار البطل ونكرانه الجميل » بينما تتفق مع الحــكاية الاسبانية فى عنصر « الزواج الوهمى » .

ولا شــك فى أن بيئــة هذا النوع من الحكايات ، ليست ايرلندية او شرقية ، بل اســكنديناوية خالصة . ولن نخطىء كثيرا اذا افترضنا أن هذه الحكاية الشرقية الأصل (وأساسها احلام الحشيش) قد صاغها الايرلنديون ، ثم نقلوها الى الأسبان من ناحيــة ، وأهل أيسلندة من ناحية ثانية .

ونحن نجــد ، فى أيسلندة أثنــاء عصرها الوسيط ، تلك الحكاية الغريبة التى تدور حــول رجل حكيم يفرض خــدماته أن يكون مؤدبا لابن الملك .

ويثق الملك به ثقة بالغة ، تدعوه الى أن يفرد بيتا خاصا لابنه والحكيم ويعيشان سنوات ، لا تقلقهما ضجة الدنيا . ولا ينطق الأستاذ بكلمة ، كما أن التلميــذ لا يلقى سؤالا . وفى النهاية يعطيه الأستاذ درسا بالغ الأهمية ، كبير القدر .

هـذه القصة ، لا تعرفها بقيـة البلاد الأوروبيـة ، وان كانت ترد فى الطبعة المصرية من « الليالى » وفى حكاية فولكلورية مصرية حديثة . ومن الثابت ، أن ذيوع هـذه القصة ، يعود الى النساخ الذين جلبوها من الشرق الى فرنسا ، ومنها انتقلت الى ايسلندة .

والمعروف عن الناشر الأيسلندى الذى أصدر الكتاب المشتمل على هذه الحكاية ، انه كان طالبا فى السوربون .

ونحن نقطع بأن الهند كانت مصدر التفكير فى صياغة عدد من الحكايات فى قالب واحد ، تحقيقا للتناسب والاتساق فيما بينها ، وابتغاء لزيادة اهتمام القارىء بها . والكتب الخمسة (البانشاتانترا) ليست خير مثل نسوقه ، ذلك أنها لا تستخدم هذه الوسيلة ، بل تدمج حكاية ما فى حكاية ثانية وهذه تندمج فى ثالثة وهكذا .

وهـذا السياق ، يجعل من العسير على القارىء ان يتابع شكلها العام ، كما يجعل من المستحيلات ، أن يتابعها السامع .

وهكذا يتضح على نحو كاف أن هذا التصنيف والتجميع ، يعودان الى زمن متأخر وان كانت « المواد » قديمة للغاية .

ان « حكايات العرش » و « الفيتالا بانشافنساتى Vitalapanchavincati » اشد بساطة من البانشاتانترا ، وهى لهذا السبب أشد منها بدائية ، حتى بالنسبة لأقدم « صيغ » البانشاتانترا المقطوع بصحتها .

وتنتمى حكايات « الوزراء الأربعين » و « توتى نامة Tuti — Nameh » وكتاب السندباد الى النماذج الهندية ، وكذلك تنتمى اليها ــ فى نهاية الأمر ــ تلك المجموعة الضخمة ، المؤلفة من عناصر شتى غير متجانسة ، والتى تحمل اسم « الف ليلة » .

وفى الغرب ، تحذو « التعاليم الاكليركية Cisciplina Clericalis » حذو النماذج العربية ، غير أن الطابع التعليمى لهذا الشكل من الحكايات ، تأثرته بقية أوروبا ، ولم تكن كتابات خوان مانويل الاسبانية التى سبق ان أشرنا اليها ، الا اشتقاقا واحدا من اشتقاقات هذه النماذج .

وأما الطريقة البسيطة ، التى تؤدى الى ادماج « حكاية قصيرة » أو « استطراد قصصى » فى رواية او ملحمة ، وذلك بأن توردها على لسان

احدى الشخصيات ـ هذه الطريقة تمعن فى القدم ، وترجع الى الفن القصصى الأيونى والهومرى .

ولا حاجة بنا الى ان نزعم اصلا شرقيا ، لصيغ بوكاشيو بما فيها من بساطة وعفوية .

غير أن الغرب واوروبا الكلتية ، كانتا هما اللتان ، اضافتا الى الصيغة الشرقية ، فاستخدمتها الطريقة البسيطة والمجهولة لغيرهما ـ طريقة تضمين هـذه الصيغة ، تلك المغـامرات التى تشتمل عليها مختلف الحكايات وذلك حين تكشف فى نهايتها عن أن بطل هذه الصيغة ـ أو احد أبطالها ـ هو نفسه بطل بعض المغامرات التى ترويها تلك الحكايات او هو بطلها جميعا .

هذه الاضافة غير معروفة فى الشرق ولعل المثل الوحيد الذى يمكن الاحتجاج به ، هو ذلك التماثل الآلى بين المتحدث الذى يروى القصة ، وبين بطل القصة المروية ، كما نلقاه فى « الجاتاكام » [illegible] الهندية غير ان هذه المجموعة من القصص ، لم تكن معروفة لأوروبا فى عصورها الوسطى ، وينبنى على هذا ، أن تلك الحيلة الفنية ، التى نناقشها كانت من صنع رواة القصة الأوروبيين ، الذين كانوا أول من استخدمها ، ونعنى بهم القصاصين الايرلنديين .

ولعل مثالا ، يعين القارىء على أن يفهم هذه الاضافة .

بينما يتوب لص قديم عن السرقة ، ويصلح أخطاءه ، يسدى النصح الى ابنائه أن يبتعدوا عن مهنته السابقة .

ويظن الأبنـاء ان الرجل العجوز « يهرف » فلا يصـغون اليه . بل يسرقون خيلا حكومية ، تملكها الملكة ، ويقبض عليهم .

وتسأل الملـكة الأب ـ الذى تقدم لافتداء ابنائه ـ أن يقص عليها أشد مخاطراته ترويعا .

ويحكى الأب حكايات مختلفة ، منها انه ـ ذات مرة ـ انقذ امراة وطفلها من وحوش ضارية .

وتكشف الملكة عن سرها آخر الأمر ، فاذا هى هذه المرأة ، ثم تطلق سراح الأبناء .

هذه الحكاية من مجموعة قصص غرب اسكتلندة لكامبل ، مشتقة قطعـا من الدولوباتوس Dolopathos الوسـيطة ومعناها النازعة او العاطفـة المضللة الخـداعة ، وأن لم يذكر شيء فيها ، عن التماثل بين الملكة والمراة المطاردة التى انقذها اللص .

هذه اللمسة الصغيرة اذن ، اضافة صنعها الراوية الكيلتى .

أما بقية أوروبا ، فكانت بطيئة جدا فى الأخذ بهذا الاتجاه ، وكان ينبغي أن ننتظر حتى القرن التاسع عشر ، لنرى تحقيق هذا الاتجاه ، فى مجمـوعة حكايات الجـان التى نشرها و . هـوف W. Hauff .

* * *

والقصص النثرى الايرلنـدى ، هو المنبع الذى صدر عنه نوع كامل من الأدب الأيسلندى المسمى بـ « Utilegumannasögur » أى قصص الخارجين على القانون .

وتروى حكاية معروفة من هذا النوع أن ابنة فلاح ايسلندى تختفى دون أن تترك أثرا ، وبعـد قليل من الزمن ، يختفى قطيع الخـراف الذى يملكه هذا الفلاح ، بنفس الطريقة الغامضة . ويمضى الفلاح باحثا عن ماشيته ، وتفاجئه غمامة سحرية ، وعندما تنجاب الغمامة ، يجد نفسه فى واد بالغ الجمال ، لم تر عيناه مثيلا له من قبل . ثم يرى خرافه وابنته التى أصبحت زوجة لمجرم ، التجأ الى هذا المكان . السحيق ، وأن الوادى يسكنه خارجون على القانون يمارسون فيه حياة الفلاحين الايسلنديين .

* * *

بلغ الايمان بوجود هذه الوديان درجة بعيـدة ، حتى لقد ظلت البعوث ترسل ـ الى القرن الثامن عشر ـ لاكتشاف تلك الوديان .

غير أن الوقائع المذكورة ، بعيدة عن الحقيقة ، فليس ثمة وديان ، كهذه ، فى الجزيرة الموحشـة التى يحيط بهـا الجليد من كل جانب ، وأما النادرة الخاصة بالغمامة السحرية ، والوقائع الأخرى ، فتشير الى أن هؤلاء الخارجين على القانون هم ـ فى الحقيقة ـ أصحاب قوة خارقة ، وبأس يفوق بأس البشر ، وانهم جديرون بأن يحملوا أهـل ايسلندة على الحذر منهم والحيطة ازاءهم .

والحق كذلك ان هذه الوديان ، ذكريات خافتة ، لأرض الشباب ، التى نعرفها في الملاحم النثرية ، وأما الغمامة السحرية ، فهى السحابة المعجزة المعروفة عند السيلتيين المنحدرين من أصول غالية والذائعة كذلك فى الفن القصصى الايرلندى .

وأما الخارجون على القانون ، فهم المردة الايسلنديون فى حكايات الجان الايرلندية .

والأدب الأيسلندى ، والفولكلور الأيسلندى ـ اذا ـ يمتلئان بالعناصر الجزئية (الفقرات) ذات الأصل السيلتى اى ذات الأصل الأيرلندى فلدينا الحكاية الأخاذة المعروفة التى تحكيها زوجة باث وخلاصتها ان عجوزا شمطاء ، تمارس بعض الأعمال السحرية ، فتصبح امرأة بارعة الجمال ، وهذه الممارسة السحرية لا يقرها المتطهرون . (البيوريتانيون) .

تنتشر هذه الحكاية فى ايسلندة ، قدر انتشارها فى انجلترا واوروبا ، او قدر ما كانت منتشرة فيهما أثناء العصور الوسطى .

ولدينا كذلك حكاية « العجوز الشمطاء القتالة » التى تبعث الحياة فى المحاربين الذين يقتلون من فريقها ، ـ وبهذه الطريقة ـ تحمل العدو ، الذى نال منه التعب ، وهده الارهاق ، على أن يمضى فى المعركة الدامية ، يوما بعد يوم ، الى أن يكتشف خدعتها ، محارب جديد يرجح أن يكون وراء هذا الأمر ، سحر ساحرة ، فيرقب أرض المعركة بالليل ، ويصرع العجوز الشمطاء .

ولدينا المشاهد الأخيرة ، فى معارك ملحمة طويلة .. وفيها نرى أن البطل « جريتر القوى » يقاوم كل الهجمات التى يشنها عليه الأعداء ، ثم يستعين هؤلاء الأعداء بسحر الساحرات ، ويقدمون الرشاوى لساحرة عجوز ، طالبين اليها أن تدمره بسحرها الأسود .

ولقد نفهم من احدى النوادر الأخيرة ـ ان لم تكن تلك بالتحديد هى النادرة النهائية وفى ملحمة « درمات وجرانيات » النثرية الايرلندية ، أن المربية العجوز الفنلندية هى النمط الأصلى الذى نسجت على منواله ، صورة المربية « توريبورن آنجل » العدو القاتلة لجريتر .

وهناك حكاية الزوج المسحور الذى يقتل زوجاته ، واحـــدة بعد واحـــدة ، الى أن يأتى دور الزوجة الأخيرة ، يتكشف لها فى الحلم ، طريق النجـــاة بنفســـها ، تدلهـــا عليه احـــدى الزوجات الســابقات العاثرات الحظ .

وهذه الحكاية ، بشكلها المعـــدل ، وبنهايتها الفاجعة ، هى نقطة المحور فى ملحمـــة « كامورى » النثرية ، وهى تؤلف كذلك جانبـــــا من utilegumannasaga الأسلندية .

وأما الحـــكابة المتفردة ـ حكاية الســاحرات النســاجات اللائى يعلن عن فاجعة « كلونتارف » فهى حكاية متفردة فى ادب الشمال النوردى ، وحكاية عادية فى الخرافات الايرلندية .

ونستطيع أن نضع كتابا كاملا فيما يدين به القصصى الأيســـلندى لأدب أيرلنده فى عصرها الوسيط .

وليس هناك بأس فى أن يصدر مثل هذا الكتاب ، فى وقت قريب ، ولو أن مثل هـــــذا العمل ، لا يساير الهدف الأعلى لتيار « التأمرك » التقدمى ، الذى يغمر ، غرب أوروبا ، بعد حدوث اعظم حماقة فى التاريخ البشرى (*) .

غير أن أيرلنده لم تكن البلد الوحيد الذى أمد الشمال السكنديناوى بالحكايات المتفردة الكبيرة . ففى العصور الوسطى ، كانت هناك علاقات بين سكنديناوه وبلاد الشرق الأدنى ، وذلك عن طريق بيزنطة .

وهكذا ، نجـــد أن الحكاية القديمة التى يرويها لنا « بارثنيوس » بأسلوب جميل ، عن « ســـيانيبوس » الذى يهجر زوجتـــه ، ويغرم بالصيد والطراد ، ـ نجد أنها تظهر فى النرويج أثناء عصرها الوسيط ، فتبدو فى نادرة من ملحمة « بيركس » . وذلك بالرغم من انه لم يتم بعد اكتشاف « وسيط لاتينى » بينهما حتى اليوم .

زد على هذا أن ملحمة Friôpjofs النوردية ، بنوادرها الغريبة ،

(*) لا يفصح المؤلف عما يريده بعبارة « أعظم حماقة فى التاريخ البشرى » . غير اننا نرجح ان يكون قد اراد السخرية ، من تقليد غرب اوروبا لاسلوب الحداثة الامريكية ، ذلك انه يقدر الموروثات القديمة ـ المترجم .

عن ملك عجوز يبعث بزوجته لصديق وعن المحرمات الجنسية فى معبد بولدر ـ هذه الملحمة ليست من أصل شمال أوروبى بل هى مشتقة مباشرة من الشرق العبرى ، كما دلل على ذلك بحق ، الدكتور جولد ، فى دراسة أخيرة له .

وينبغى الا نظن كذلك ان أهل اسكنديناوه ، أخذوا ولم يعطوا ، وتأثروا ولم يؤثروا ، فحكاية « تريستان » السلتية ، التى تولدت من ملحمة درمات Dermat وجرانيا Grania الايرلندية ، لم تبلغ سمتها ، أو تستكمل شكلها فى العصور الوسطى الا بعد أن تفاعلت مع خرافة سيجورد النوردية .

وفيما يلى تلخيص للموقف الذى تطرحه علينا القصص الثلاث :

فى قصة درمات وجرانيا ، نجد أن البطلة تأسرها قوة صاحبها « نقطة الحب » فتدع نفسها ، لاغرائه ، ومن هنا ينشب الصراع القاتل بين زوجها « فن » « Finn » وعشيقتها درمات .

وفى قصة « سيجورد » النوردية ، نجد أن البطل ، يخلص لامرأة واحدة ، لكن الشراب يدير راسه ، فيتصل بامرأة ثانية ، وينشأ عن ذلك صراع مرير بين الملكتين ، ثم ينتهى هذا الصراع بموت البطل .

وفى خرافة تريستان «Tristan» نجد أن نقطة الحب الايرلندية قد حلت محل الجرعة النوردية .

ولا نجد انفسنا بازاء حالة هجر كما تقول القصة النوردية ، بل بازاء حالة هيام قوى ، ووجد شديد ، كما تقول الحكاية الايرلندية .

وفضلا عن ذلك ، فنحن لا نجد مشكلة « زنا » فى حكاية درمات وجرانيا ـ بما لكلمة الزنا من معنى منطقى ـ وذلك ما دمنا قد منحنا المراة حق فسخ الزواج متى شاءت ، وحق عقد زواج آخر متى أرادت ، وهو هذا الحق الصريح الذى يكون للرجل ، فى المجتمعات الشرقية (*) .

(*) ننبه مرة اخرى الى ان المؤلف يقع أحيانا فى أخطاء فادحة ، لا تليق بالعلماء وذلك لانه يجرى وراء التعميمات . ويغفل عن الحقائق التى يجدر بالعلماء ان يعرفوها . فالاسلام ينظم حالات الطلاق ، تنظيما دقيقا ، بحيث يجعل هذه الرخصة ، خاضعة لقيود محددة ـ المترجم ـ

وليس هنـــاك ذكر للزنا فى حكاية سيجورد النوردية فبرونهيلد تصارح سيجورد بانها لا تعترض على وجود رجلين فى القاعة . وعند المقارنة ، تبدو حكاية تريستان وكأنها ملحق لخرافة سيجورد ، فايزولت «Isolt» تعيش مع رجلين فى القاعة .

ويشعر المرء بأن المؤلف الانجليزى ــ بالمعنى الواسع لهذا الاصطلاح ــ قد اخذ نفســه بأن يستفيد من الموقف الذى اشارت اليه الأصول النوردية .

والحق ان التــأثيرات الايرلنــدية ــ السكنديناوية مجتمعـــة ، او التأثيرات السكنديناوية منفردة ، لذات نفوذ ملموس فى القــارة الاوروبية .

واليك بعض الأمثلة :

فى قصيدة ملحمية فرنسية ، ترجع الى أوائل القرن الثانى عشر ، وتوجد فى شكل اجزاء متنــاثرة نلاحظ أن فيها قصة غزو نورماندى لمنطقة بونتييه فى شمال فرنسا .

وقادة هذا الغزو ، يمثلون تمام التمثيل ، نماذج الغزاة النورمانديين فمنهم ذئب بحر عجوز اســمه جورموند ــ وهو اسم نوردى معــروف لذلك العهد ــ وربيبه الفرنسى ازمبـــار ــ واسمه كما نرى تيوتونى ــ وهذا الربيب قد صار مرتدا ، فخرج على المسيحية ، واعتنق ديانة أوثين « Othin » .

وأما المعركة التى تنشب عندئذ ، فثابتة من ناحية التاريخ .

وقد انتهت المحاولات التى رمت الى تحــديد شــخصية القــائد النورماندى الى مشكلات تاريخية (١١٨) .

وعنـــدما نأتى الى تحـــديد شخصية المرتد ــ او Margarit بالأسلوب البيزنطى ــ نجـد أنفسنا وقد ضربنا فى متاهات كالبحار فلسنا نعرف نبيلا فرنسيا ترك دين آبائه ، ليعتنق وثنية التيوتون ، ودعك من ذهابه الى سكنديناوة ، للزواج من اميرة نرويجية .

غير أن هناك بعض النقط التى لم تلق انتباها كافيا من قبل .

ومنها أن المرتدين من هذا الطراز كانوا كثيرين فى ايرلندة ، وان لم يكونوا كذلك فى فرنسا . فلم يحدث فقط أن كان السكنديناويون الذين

يدخلون المسيحية ، يرتدون عنها الى دينهم القديم ـ ومثال ذلك برودر النوردى الذى صرع الملك بريان بورو «Brian Boru» بل كان نفــــر من أهل ايرلندة الأصليين ، يعتنقون الوثنية ، سائرين على القاعدة التى تقول أن اله المنتصرين هــو الاله الأقوى ، وأن الاله الأقــوى هو الأحسن .

ومن ناحية ثانية ، فمن كان يريد أن يصبح سكنديناويا فى ذلك الوقت ، لم يكن ليتكلف الذهاب الى النرويج ، بل كان يكفيه الذهاب الى مدينة دبلن أو مدينة يورك وهما أقرب اليه من النرويج .

والأمر الثالث ، ان ملوكا اسكنديناويين كثيرين لم يكونوا يملكون موضع قــدم فى النرويج ، بل كانوا يملــكون امارات فى ووتر فورد أو ليمريك «Limerick» أو فى دبلن .

وآخر اعتبــار نذكره ، هــو أن النصوص الفرنســية حرصت على أن تذكر الأرواز «Irois» ـ ولعلهم كانوا مزيجا من الايرلنديين والســكنديناويين ـ ضمن القوات الغــازية التى انعقـــد لواؤها ، لجروموند وربيبه .

ودعنا نضيف الى الاعتبارات الموضوعية السابقة ، اعتبارا ذاتيا آخــــر .

تمتاز الملحمــة التى ذكرناها ، برقة غريبة فى نبراتها ، لا نجدها فى أغانى البطولات لذلك العهد . فالبطل المرتد ، يقيم على حبه لأرض بلاده ، ويتمنى ـ فى سره ـ أن ينتصر الملك الفرنسى ، واذا كان قد كفر بالاله الأب ، فقد رفض التخلى عن ايمانه بالعذراء .

وهــذه النبرات العاطفية الرقيقة ايرلنــدية فى جوهرها ، ولعل الذى أنشأها كان راهبا ايرلنديا متصلا بدير القديس ريكوييه الواقع بالقرب من سكورث حيث دارت الموقعة .

واما اسماء الأبطال ، فكان فى وسع اى مؤرخ أن يقدمها ، بل ليس لدينــا شــك فى أن بعض المؤرخين هم الذين زودوا الحــكاية بهذه الأســــماء .

أما حكاية المرتد المؤثرة ، واما العواطف التى كانت تمزق قلبه ، بينما يده تضرب بالسيف ، فلم تنشأ جذورها فى فرنسا ، ذلك انهــا حكاية

خرافية مهاجرة ، نشأت فى أيرلنده أثناء حكم الفايكنج . واذا ، فهى تنتسب الى العديد من خرافات الفايكنج التى ظهرت فى الجزر البريطانية وتألفت من عناصر انجلو سكسونية واسكنديناوية وسيلتية ، ومن أمثالها خرافة تريستان التى ذكرناها والسيرة النثرية « هافلوك » وسيرة «هورن» النثرية ، وخرافة هملت ، والحكاية الشهيرة عن راجنار لودبروك وأبنائه .

وفضلا عن هذا ، احتلت بلاد سكنديناوة مكانة كبيرة فى العصور الوسطى ، وكانت مكانتها تلك جديرة بأن تجعلها تؤثر تأثيرا مباشرا على فولكلور القارة الأوروبية ، دون حاجة الى الوسيط الايرلندى الانجليزى ، الذى يبدو واضحا فيما ذكرنا من حكايات .

ولعل تقديم بعض الأمثلة أن يكون نافعا .

لدينا حكاية عن عفريت يسكن طاحونة ويثير حنق الطحان .

غير أن مدرب دببة جوالا يضع دبة فى الطاحونة ، ويسىء الدب معاملة العفريت ويحمله على ترك الطاحونة وبعد وقت قليل ، يعود العفريت ويسأل الطحان عما اذا كان « القط الرمادى الضخم » لا يزال على قيد الحياة . !

ويحرص الطحان على أن يقول للعفريت أن القط الرمادى الضخم موجود على قيد الحياة وانه انجب ثلاثة قطط صغيرة .

وعندها يختفى العفريت ، الى الأبد .

ونحن نرجح أن تكون هذه الحكاية قد نشأت فى اسكنديناوة ثم حملت منها الى أواسط أوروبا حوالى عام ١٠٦٠ ، وكان ذلك بمناسبة زيارة اندون «Andun» الأيسلندى ومعه دب قطبى ، أهداه هارد ريد للملك السويدى شفاين .

ثم حملت الحكاية بعد ذلك الى مواضع مختلفة من القارة الأوروبية وصارت الآن جارية فى انحاء كثيرة من أوروبا ، وذائعة فى نصوص تيوتونية وسلافية ورومانثية .

ولقد سبق لنا أن اشرنا الى حكاية عصافير سير نستر التى أذاعها اهل اسكنديناوة ونشروها فى أوروبا الغربية والشمالية ، ابتداء من انجلترا الى روسيا .

وثمة جـــوهرة ادبية أخرى ، منسوبة الى النورمانديين الذين اذاعوها ، بلا شك ، خدمة لوجهة نظرهم ومصلحتهم ، وتلك هى حكاية القبطان الذى تظاهر بالموت بينما نجح رجاله فى أن يحصلوا على حق دفنه بالكاتدرائية فى المدينة المحاصرة وعندما فتحت أبواب المدينة انبعث الميت صاحيا ، ولم تتوان جمـــاعته فى الاستيلاء على القلعة والفتك بسكانها .

ويذهب المؤرخون الفرنسيون النورمانديون الى أن الحكاية تنتسب الى منطقـــة لونا «Luna» المدينـــــة التوســـكانية التى اجتاحها الفايكنج ، على حين يذكرها ساكسو النحوى ...«Saxo Grammaticus» فى معرض الحديث عن غزوة دانيمركية ، وقعت فى الولايات البلطيقية .

وهنـــاك حكاية أخرى ، نورماندية من حيث انتشارها وذيوعها ، وان لم تكن كذلك من حيث أصلها ومصدرها الأول .

وهذه الحكاية ، لها أشباه فى الشرق وهى تقص قصة أمير ، يدير رءوس أهل مدينة اجنبية ، بترفه الشديد ، فيأمر بأن ينتعل حصانه حدوات مصنوعة من الفضة .

تقال هذه الحكاية عن أمراء نورمانديين مختلفين ، منهم روبرت اكبر أبنـــاء وليـــام الفاتح ، ومنهم كذلك ، الملك سيجورد النرويجى الصـليبى .

وفى عديد من الخرافات المحلية التى عرضنا لها حتى الآن ، نستطيع أن نتعرف على الفئة التى نشطت فى ترويجها .

هذه الفئة تتألف من العلماء الايرلنديين الذين يعيشون فى المنفى ، والجنود النورمانديين الذين يحبون أن يغرروا بالنـــاس ، والشعراء السكنديناويين أو الانجلوسكسون الذين يبحثون عن موضوعات وموارد جديدة ، والأبطال والجنود الصليبيين العـــائدين ، ورجال الكنيسة ، والأدعياء الكذابين .

نحن اذن نلمس أثر هؤلاء جميعا ، فى الحكاية المختلفة .

وليس بوسعنا أن نتخيل ان حكاية العفريت والدب ، قد أنشأها عالم علامة ، كما لا يسعنا أن نقول ان حكاية تانهاوزر «Tannhausar»

والبابا اربان «urban» الرابع قد صدرت عن راهب من رهبان الكنيسة ، اذا لم يكن هــذا الراهب مطرودا من رحمتها ، مفصولا من عـــداد رجالها ، واذا لم يكن قد انحــدر الى مصاف الأفاقين الصعاليك .

غير أن دور رجال الكنيسة يبرز ـ لا نزع ـ ويحتل مكانة كبيرة ، بالنسبة لترويج الحكايات المهاجرة .

ولا تثير هذه الحقيقة الهامة ، دهشتنا ، ذلك ان رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، كانوا وحدهم الفئة المثقفة ، ذات الملكات الأدبية ، وكانوا الفئة التى يتيسر لها قراءة المأثورات المكتوبة ، اكثر مما كان يتيسر لها معرفة المأثورات الشفاهية .

ومن الطبيعى أن تخدم طبقة رجال الدين الكنيسة أول ما تخدم غير أن الفولكلور لا يفقد خصائصه ، اذا ما صيغ باللاتينية الصحيحة أوشبه الصحيحة ، أو حين يرتبط بقديسى الكنيسة .

وواحد من أغرب هؤلاء القديسين ، هــو القــديس أيوستاكيوس « Eustachius» أو هو بلاسيداس «Placidas» . كما كان يسمى فى معرض الحياة الخاصة .

وتبدى رواية قديمة حقيقة لا غناء فيها ، وتلك أن هذا القديس قد استشهد هو وعائلتــه أثناء حكم تراجان ـ فى موجة اعــدامات رومانيـــة .

ونحن لا ندرى الى أى مدى تصدق هذه الواقعة ، غير انها لا تجدينا كثيرا ، ذلك انها فى شكلها ذاك ـ أى فى شكلها كنواة للحكاية ـ تدل على أن أيوســتاكيوس بلاســيداس ، ليس الا اســما من الأســماء ، أما الحقيقة الجوهرية التى لا نستطيع اغفالها ، فهى استشهاد أناس كثيرين ، رفضوا الاستسلام ، واستمسكوا بمبادئهم الدينية .

ولقد رأى بعض رجال الكنيسة أن هذا الخيط القصصى ، لا يكفى ، وشاءوا أن يجعلوا القصــة أشد تشويقا ، فأضافوا اليها ، ووسعوا فى رقعتها .

وحتى يصلوا الى هدفهم ، أخذوا حكاية هندية ، ذات طابع بوذى ـ ان لم تكن ذات أصل هندى ـ تدور حول محاكمة ملك يدعو للسلم ، ومحاكمة زوجته وعائلته التى تتألف من توائم .

أخذوا هذه الحكاية الهندية ومزجوها بحكاية كلمنت التى تنتسب الى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والتى انشقت من قصة اغريقية .

واقتضى عنصر الاستشهاد أن يكون البطل مواطنا عاديا ، وأوحت الحروب التى طردت الملك الهندى من عرشه أن يكون قائدا حربيا .

وعلى هذا النحو ، صلحت الخرافة للحلول محل بعض الشعائر الوثنية المجهولة .

وعندما استنفد هذا الفرض ، حاولت الكنيسة جهدها أن تمحو الآثار الوثنية من الخرافة لكنها لم توفق الى ذلك .

وبقيت حكاية التوائم ذات الأصل الهندى ، وان كانت قد استمرت فى شكل ابسط ، وأقل رواء ، من حكاية القديسين الكنسية ثم طفت على السطح من جديد اثناء العصور الوسطى ، واتخذت اشكالا ادبية فى تصنيفات عديدة موضوعة باللغة الفرنسية القديمة أو باللغة الانجليزية الوسطى ، أو اللغة الألمانية .

وهكذا ، يتضح أن الكنيسة لم تكسب المعركة مع عنصر التوائم أو الثنائيات .

ولقد كان جهدى هنا ان الخص تلخيصا شديدا للغاية ، تاريخ تلك الحكاية المسرفة فى تشويقها ، ذلك أنها عاشت ثلاث آلاف سنة تقريبا ، وارتحلت فى مناطق شاسعة تترامى من السليبس الى اسبانيا . وتعادل الحكاية السابقة فى تشويقها ، وان قصرت عنها فى طموحها ، حكاية القديسين المحاربين اميكوس Amicus واميليوس Amelius وأصلها الأول ، قد يكون أى شيء الا أن يكون أصلا مسيحيا .

لقد كان اثنان من الآلهة السيلتيين القدماء ، يتسميان باسم بوريادس وقد صرعهما هرقل ـ فيما نعرف ـ حين لقيهما وهما عائدان من ألعاب جنلز بلياس .

وفى العصور الوسطى ، عمد أميكوس واميليوس ، وأصبحا قديسين محاربين ، وكانا لا يزالان يعبدان فى المنطقة الأصلية ، وهى التى لا تبعد كثير عن مورتارا بلومباردى .

بل أن قصة مصرعهما بقيت بدون تغيير ، ولو أن هرقل استبدل ياوجير الدانيمركى ، وهو بطل السيرة الخرافية الكارولنجية .

ولما كان المقام يقع قريبا من طريق الحج الكبير الذى يصل فرنسا بايطاليا ، فقد جذب هذا المقام وأبطاله ، انتباه الصعاليك الفرنسيين ، والشعراء الجوالين ، فراحوا يروجون الخرافة ، وينشرونها ، فيما وراء موطنها ، حتى أصبحت معروفة لأوروبا من أدناها الى أقصاها .

ومن القصص ذى الأصل الكنسى كذلك ، تلك القصة المؤثرة الدائرة حول البابا جريجورى الذى دعا بالغفران لروح الامبراطور تراجان .

هـذه الخرافة ـ او كل هـذا الجزء من الخرافة ـ كان معروفا للشرق الأدنى فيما قبل الاسـلام وأما البطـل الذى يستطيع بدعائه أن يحمل روح ميت مات منذ أمد طويل ، وصار من أهل النار يتعذب فى جحيمها ، على أن تعود فتدخل جسم انسان وتعيش مرة ثانية ، وتتلقى التعميد ، ثم تموت وهى مؤمنة ، راضية ـ نقول ان هذا البطل هو المسيح نفسه .

والحق ان النص المسيحى مفقود ، لكن النص الاسلامى المعلول لنا ، لا يترك مجالا للشك ، فى أن النص المسيحى كان موجودا ذات يوم .

ولا يخالجنا شـك فى ان يكون الرهبـان قد حملوه من الشرق الى الغرب أول أمره ، ثم نسبوه الى البابا الشهير .

واما خرافة «Bocca della Verita» « فم الحقيقة » كما تسمى ، فهى نصف مثقفة ، ان لم تكن كنسية تماما .

وتتركز الخرافة حول تمثال يصور حيوانا متوحشا فاغر الفم ومن يريد أن يحلف اليمين فعليه أن يضع يده فى فم التمثال ، فاذا كان اليمين كاذبا ، فالمعتقـد أن يقفل التمثال فمـه ، ويعض يد من يحلف كذبا .

وتمضى الحكاية ـ عادة ـ فتحـكى كيف ان مكائد امرأة نجحت فى السيطرة على التمثال المسحور ، فأبطلت مفعوله ، وكف عن العمل للاسف الشديد .

ولا ترتبط الحكاية فى أوروبا باى تمثال ، تستطيع ان نزعم انه مسئول عن انشائها ولو من بعيد .

واما فى آسيا ، فترتبط الحكاية بالامبراطور جوليان المرتد ، وبتمثال

الالـــه ميكحرى (اله البلاغة) الذى يعاقب الامبراطور بالطريقـة السـابقة .

ونحن نجـد فى آسـيا كذلك ــ وان لم يكن ذلك قاصرا عليهـا وحدها ــ تماثيل صغيرة لحيوانات مفترسة ، تحمل فى أفواهها الفاغرة ، اطراف بشرية ، كالأيدى والأقدام والسيقان .

ويجوز اذا أن نفترض ان هـذه الحكاية نشأت أول ما نشأت حول احـد هـذه التماثيل ثم نسبت الى الامبراطور جوليان ، ثم هاجرت الى ايطاليا ، يعينها فى ارتحالها هـذا ، رجال الكنيسة ما فى ذلك شك .

ولما كانت تلك الحكاية أدبية أو نصف ادبية ، فقد ذاعت بين الناس وانتهت الى هذه الحكايات التى نعرفها ، فى أكثر من اثنى عشر صورة ، تتواتر جميعا فى ايطاليا .

وتنتمى الى النوع السابق ، تلك الحكايات الكثيرة التى تدور حول الطلاسم ، المعروفة فى العصور الوسطى .

والطلسم فى معنـاه الضيق ، وفى المعنى الذى توافق عليـه أهل العصور الوسطى ، عبارة عن تصوير أو رسم أو تمثال ، يرتبط به مصير جماعة من الناس ، أو مصير مدينة ، أو امبراطورية . فبلاديوم طروادة اذن ، طلسم بهـذا المعنى ، وعنـدما أخذه العدو ، سقطت المدينة ، ولقيت نهايتها .

وليست هذه الفكرة ، هيللينية ، بل هى أسيوية .

وعندما استولى العرب على نصف شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، انتشر عنهم هذا الظن انتشار النار فى الهشيم .

ونحن نذكر فيما بعـد قليلا من اشهر هـذه الخـرافات المرتجلة التى صدرت عن هذا الأساس .

حين سقطت مملكة القوط فى اسبانيا قبل الغزو العربى ، وحين انهارت بسـبب تغلغل الفسـاد فيها ، واستشرائه ، قيل أن لوزريق المنكوب ، كان قد اسـتباح برجا قديما فى طليطلة ، وكان ذلك طلسم المملكة القوطية . وقيل أنه اقتحم المبنى وفتح صندوقا معينا ، فوجد فيه رسما يصور المغاربة ، أو وجد فيه كتابة تشير الى الكارثة الوشيكة الوقوع ، أو أنه وجد الشيئين كليهما .

ونفس الحكاية معروفة فى الصين حيث يحكى عن الطاغية تسن تشى هوانج الذى يقال انه نبش قبر كونفوشيوس ولقى نبوءة مماثلة .

والحكاية ، تمتد الى تاريخ قديم ، فقد قيلت فى العصور القديمة ، حول معبد بابلى يسمى برج بلوس ، وملك فارسى يسمى اكزركس .

بل لقد عاشت فى بلاد العراق حتى العصور الوسطى ، حيث يرويها لنا المؤرخ الفارسى الفردوسى فى كتاب الملوك ، ونسبها الى الملك هرمزد الرابع الساسانى ، وصندوق سرى ، ورثه الملك عن ابيه .

اما القسطنطينية ، حيث أخذت ذكريات الماضى الذهبية تخف وتتلاشى ، والروح الشرقية تقوى وتشتد ، فقد اضفت على الرسوم والتماثيل القديمة ــ التى لا نفهم اكثرها ــ صفات الطلاسم .

وذاع الظن أن بعضها لا يرتبط فقط بمصير الامبراطورية عامة ، بل يرتبط كذلك بحادثات أصابت الامبراطورية ، أو قد تصيبها فى المستقبل .

وهكذا قيل فى تفسير رسم حائطى بارز يصور قياس حائط من سفينة راسية تحته بعد سنة ١٢٠٤ انه نبوءة للغزو الفرنكى .

وهناك تمثال آخر ، دمره العامة لأنهم ظنوا أن تعابير وجهه ، ترحب بقدوم الصليبيين من أوروبا .

وظن مؤرخ بيزنطى أن تمثالا آخر يصور صراعا قاتلا بين تمساح وفرس بحر ، أنه رمز للمعارك الدامية والجهاد المرير للصليبيين الفرنك .

ولعل الذى رآه الرجل المثقف مجرد رمز ، كان يعنى للعامة أكثر من ذلك بكثير .

ولا نزاع فى ان ظنا من هذا القبيل ، كان يؤلف اساس قصة المعركة المعروفة بين التنين الأبيض والتنين الأحمر التى وصفها نينوس وجفرى المنموثى .

واما معارك الثعابين ، فعناصر معروفة من مأثورات الشرق الادنى ويرد ذكرها فى عديد من النصوص التى يرجع تاريخ بعضها الى مرحلة ما قبل الاسلام . واذا سلمنا بهذا ، قلنا أن هذه الخرافة لم تكن

سلتية ، ولا كانت تيتونية ، بل كانت خرافة مهاجرة ، استوردها الغرب من آسيا . ونحن نجد الاعتقاد فى الطلاسم ، وراء الخرافات المختلفة الدائرة حول الساحرة فرجيل الذى صنع ذبابة نحاسية ليطرد سائر الذباب . شأنه فى ذلك شأن موسى الذى صنع حية من نحاس ، ليتقى شر الثعابين . واقام فرجيل برجا فيه تماثيل او أجراس لتسرع فى الانذار بالغزوات المعادية وجعل كل تمثال أو جرس يمثل شعبا أو قبيلة .

ولا نزاع فى أن شخصية فرجيل هذه من مبتكرات الفولكلور الايطالى ، بمعناه الواسع ، ذلك أن التيارات المثقفة ، والشبيهة بالمثقفة ، والشعبية الأصيلة كانت تجرى هناك جنبا الى جنب ، وكان بعضها يمازج بعضها الآخر فى أحيان غير قليلة .

لكن الحكايات المنسوبة اليه ، كانت اقدم من ذلك بكثير ، وكانت غير ايطالية . فهى تنتمى ــ باستثناء القليل منها ــ الى ما يسميه أزوولد شبنجلر بروح السحر ، ولو أنها اقدم كذلك مما سماه بدورة السحر فى الحضارات .

وأيا كان الأمر ، فموطنها الأصلى هو الشرق الأدنى .

وانه لأمر ذو مغزى ، أن يكون الكثير منها قد قيل عن هبقراط ودايدالوس وهما من الشخصيات الاغريقية . قبل أن ترتبط هذه الحكايات باسم فرجيل .

ولعل ذبابة فرجيل المسحورة ، والمصنوعة لتطرد الذباب ، لا تذكرنا فقط ، بحية موسى النحاسية ، بل هى تذكرنا أيضا بعادة أهل قرطاجة فى دفن صور معدنية للحشرات السامة تحت بيوتهم ، واخص هذا الهوام العقرب .

وكان القصد من ذلك حماية أهل هذه البيوت من أمثال تلك الهوام ، او كان غرضها المنشود ان تسرع فى القضاء على الهوام .

وفى القسطنطينية ، قيل نفس التفسير عن كرسى له ثلاثة اقوائم من البرونز ، على شكل ثعابين ملفوفة (وهذه وحدة زخرفية معروفة فى النحت) واشيع ان الثعابين عاودت الظهور فى المدينة حين أخذ محمد الثانى هذا الكرسى .

وينبغى أن ندرج تحت طائفـة الخرافات المهاجـرة ذات الأصل المثقف أو الشبيه بالمثقف ، ذلك القصص الكثير الذى يلتصق بديانة كبيرة . هى الموسـوية ومن اشهر هـذا القصص ، قصة سقوط الشيطان وخطيئته .

لقد كان اليهود السـابقون على مرحلة الخروج من مصر ، يجهلون هذه القصة ، ومن المعروف أن فكرة الشيطان ظهرت أول ما ظهرت بين يهود الفرس الذين كانوا يعيشون بالقرب من الرافدين . وبالقرب ــ ايضا ــ من اليهود المستوطنين حديثا .

ويقال أن اسم الشيطان جاء فى سياق تفسيرات خاطئة للنصوص الدينية (*) (١١٩) .

ونفس الشيء يمكن ان ينطبق على الديانة البوذية وهى ديانة غير وحدانية . وأنا اشير بالطبع الى الحكاية المؤثرة التى تروى عن امير ، عرف الشقاء الانسـانى والموت ، عندما ترك بذخ الأمراء لأول مرة فى حياته . والفكرة الأساسية ــ فكرة أنه لا غناء فى كل ما تحمل الأرض من أشياء ــ قد جاء ذكرها فى نصوص قصصية مختلفة ، واستخدمها قدماء الهنود بعد أن أوفت حضارتهم على الغاية ، واستنفدت أغراضها ، وكان ذلك فى زمن بوذا أو نحوه .

غير اننا نستطيع ان نقع على هذه الفكرة ابدا ... فهناك حكاية تروى كيف أن اميرا ضاق بحياته المترفة الباذخة ، وكيف انه رأى فى عذارى المغنيات اللائى أرسلن للتسرية عنه ، طبيعـة البشر ، التى كتب عليها القدر أن تفنى ، ورأى فيها الشيخوخة العاجزة ، والموت المبكر .

(*) اهتم علماء الديانات المقارنة والانتروبولوجيا الثقافية والفولكلور بالقصص الدينى وذهبوا الى تفسيره مذاهب شتى فراح بعضهم يعللها على أساس التسليم بالمعتقدات ، وراح بعضهم الآخر يؤولها تأويلات لا تثبت على حال : ولا تستقر على اساس راسخ .

واما علماء الفولكلور فيعنيهم تأثير هـذا القصص الدينى ، فى خيال العامة ، وما نشأ عن ذلك من قصص موضوع هو ادخل فى الخرافات (المترجم) .

ولا يعرف الغرب ، ونحن تكتب هذا الكتاب ، الكثير من ذلك القصص ولكن لا نزاع ، فى أن هنـاك قصصـا آخر وافر العـدد فير ما ذكرنا .

ومنـذ وقت ، كنت أقرأ للمؤرخ السـاسـانى الطبرى فوقعت على الحكاية التاليـة . كان الأمير العربى النعمان ، قد هزم الكثيرين من جيرانه ، وغزا ولاية سوريا الرومانية ، وذات صباح أطل من نافذة قصره ، فرأى كرمة يانعة أشـد ما تكون الكروم نضارة وازدهارا فى فصول الربيع بالعراق .

وسره المنظر وسأل وزيره :

ـ هل لاح لعينك منظر كهذا من قبل ؟ .

ـ كلا ! ذلك اذا كان يدوم .

وسأل الأمير :

ـ وما الذى يبقى ويدوم اذن ؟ .

ـ قال الوزير :

ـ يبقى الذى فى ملـكوت السماء ، ولن تصل اليه الا اذا هجرت هذا العالم الدنيوى . وقيل أن النعمان هجر امارته فى ذلك اليوم ، وخلع عنه ثياب الملك ، وترك قصرة ، ولبس الرقاع ، ومضى يضرب فى الأرض الواسـعة ، وكأنه حاج فقـير وحيد ولـم يرجع سـيرته الأولى بعد ذلك .

وهذه الحكاية ، صورة مستحدثة من الحكاية القديمة التى تدور حول الأمير جواتاما الذى ما أن خرج من قصره الملكى حتى رأى المرض والبؤس والموت ، ثم ضـاق بحياته ، وسخط عليها ، ولقد حمل الدعاة البوذيون هذه الحكاية الى فارس ، ثم نسبت الحكاية الى هذا الأمير العربى البارز الذكى الشجاع ، وكان سبب ذلك هو نفسه هذا السبب الذى جعل كتاب اليهود ينسبون الى الاسكندر الأكبر أنه ذهب الى الجنة ، فأرى كيف أن العين البشرية تستطيع أن ترى الكون لولا ان حفنة صغيرة من التراب تغطيها ولم تكن فارس معرضة وحدها للتاثير ان البوذية فنحن تقرأ فى بعض الكتابات الفهلوية القديمة ، القول السائر التالى :

ـ اذا اردت ان تجلس على كرسى فى حفل زفاف ، فلا تتخذ مقعدا عاليا ، حتى لا يشدوك عنه ، ويجعلوك فى مجلس ادنى منه بكثير .

وهذا القول السائر ، وهـذا التصـور والخيال ، تشبه نظائرها فى الحكمة المنسوبة الى لوقا .

ونحن نشك أعظم الشــك فى أن يكون كتاب الفهلوية الاقـدمون على علم بالاصحاحات . أما الأمر المرجح ، فهو أن النص الفهلوى ، وحكمة لوقا ، يرجعان الى اصل أول كان ذائعا فى البلاد التى كانت تتكلم الأرامية .

وينبغى الا نفرط كثيرا ونبالغ فى تاثير الأدب القصصى اليهودى الثرى ، على الأدب المسيحى والاسلامى . ومن خير الأمثلة التى نضربها فى هذا الصدد ، قصة « الملاك والمسيحى القديم » التى خلدها فولتير . لقد راودت الشكوك القوية ، مسيحيا قديما ، وتساءل عما اذا كان كل شىء قد خلق لخير علة ، وفى خير ما يستطاع من الدنى ، كما يريده دينه الكامل أن يعتقد . وقد صحبه ملاك فى رحلته ، ليحل له المشكلة ، ويجلو له الغوامض ، واثناء هذه الرحلة اتى الملاك باعمال تخالف منطق العقل . وخلاصة التفسير الذى يرد فى الحكاية اليهودية ان الأمر كان حريا بأن يكون اسوأ مما هو ، لولا اعمال الملاك . ذلك أن ادراك الانسان أضعف من ان يحيط بعلل الأشياء ، واسباب توالى الأعمال ونتائجها . وحين نناقش الخرافات المهاجرة الآسيوية والأوروبية ، يصعب علينا — ان لم يكن مستحيلا علينا تماما — أن نفصل بين المأثورات القديمة والكنسية . فهذه وتلك ، كانت تذيعها ادوات مثقفة ، او قل كانت تنتشر بواسطة رجال الكنيسة او بواسطة رجال لهم دراية او معارف كنسية .

والبلاد البروتستانتية لا تدرك كثيرا هذا العامل الفعال ، غير أنه حقيقة واقعة ، قائمة منذ أن شرعت الديانة المسيحية الجديدة ، تجذب نحوها مفـكرين ومثقفين من العـالم الرومانى الاغريقى ، وتحتويهم فى صفوفها .

وكل فولكلور كلاسى نلقاه فى شمال فرنسا أو فى الجزر البريطانية او المانيـا او شبه جزيرة اسكنديناوة وايسلندة ، انما قد حمله من المواطن الكلاسية ، رهبان الـكنائس الرومانية . وبثوه فى انحاء تلك البلاد . وما ان تأقلمت هــذه المواد الكلاسية حتى استطاعت أن تتخذ اشكالا مختلفة ، أو قل انها أصبحت جزءا اصيلا من الفولكلور

الأوروبى الغربى والشمالى . وبوسعنا أن نتمثل هنا بالكثير من حكايات فرجيل التى أشرنا اليها غير أن المواد من الكثرة بحيث يصح أن نقول أننا فى حيرة من كثرتها وثرائها . وتحدث خرافة اغريقية عن البناء الأعظم ديادالوس وغيرته وهى صفة تنسب الى المثقفين فى سائر انحاء الأرض وهى بلا شك ، تقوم على استقراء صحيح وقد ساقته غيرته الى أن يقتل ابن اخته .

ونحن نجد هذه القصة ذاتها فى بلاد اليونان أثناء العصور الوسطى ، وقد نسبت الى الطبيب هبقراط .

وبهذه الصيغة ، هاجرت القصة الى غرب أوروبا ، أثناء الحروب الصليبية أو قبلها . واندمجت فى الفرع أو الجانب الغربى من كتاب السندباد ، تحت اسم حكماء روما السبعة . ولكنها راجت فى أيرلنده ، حيث ألحقت بالطبيب ديان شيشت المتهم بارتكاب نفس الجريمة . وفى مسرحية « السحب » لارستوفان يوضع سقراط فى سلسلة ويظل معلقا ، وهو يتأرجح فى الهواء ، ونفس القصة ، تواترت فى أوروبا أثناء عصرها الوسيط ، لكنها دارت حول فرجيل الساحر الأعظم ، الذى قيل أن امرأة حسناء صنعت به هذا الصنيع .

ولقد حظيت القصة بذيوع شديد ، وتواترت فى عدد كبير من النصوص القصصية الموضوعة .

وأما خرافة ايريفيل الاغريقية القديمة فقد عاشت طويلا فى سوريا واندمجت ـ اثناء العصور الاسلامية ـ بقصة بلعام الانجيلية الذى قيل أن زوجته حرضته على أن يلعن اليهود ، وكان ملك بلقا قد رشا هذه الزوجة لأنه كان ألد أعدائهم .

وتعرضت خرافة أوديب لتحويرات شديدة فى الغرب . ولما كان الناس هناك قد نسوا تفسيرات شخصية أبى الهول فى الأسطورة ، فقد جعلوا بطلها قائدا يحرر مدينة أمه ، من جيوش أعداء تحاصرها ، ثم تزوج من أمه ، جزاء وفاقا . وأما الحكاية الكلاسية التى تدور حول ـ ماياجر ـ هو الذى قضى ـ ما دراى ـ بأن تصبح حياته جذوة من لهيب فقد حملت بالمثل شمالا الى أيسلندة فى عصرها الوسيط ، حيث حل النورن السكندناويون محل ـ المادراى ـ الهللينيين بينما أطلقوا على البطل اسم نورناجست . وكانت هذه الحكاية جديرة بأن تتأقلم فى البلاد

التيوتونية بغير عناء ، لأن فكرتها الأساسية وهى مقارنة الحياة بجذوة النار ، تبدو من أقدم مواد الفولكلور التيوتونى .

وليس بذى أثر ، أن يستخدم العنصر الأساسى فى القصة الاغريقية لرواية هـــذا الصراع الرهيب الذى نشب فى قلب أم البطل ، وموته المبكر ، بينما جعل السكنديناويون البطل يعيش عمرا طويلا ، يوازى ثلاثة أمثال عمر الانسان العادى ، وذلك ليجعلوه يقص بأسلوب مقنع ، قصة هذه الأشياء الغريبة الكثيرة التى رآها ، وسمع عنها ، ثم لكى يقص علينا قصة لقائه مع أغلب الأبطال المعروفين فى الأزمان الغابرة . وينبغى أن نذكر أن هـــذا الجزء القصصى الأخير ، عنصر محبوب أثير فى فن القصص . وأن الاغريق كانوا يعرفونه حق المعرفة ويكفى أن نضرب مثالا بالبطل الثرثار القديم : نستور ـ ولقد نجد رابطة بين هذا العنصر القصصى وبين اطالة عمر البطل النرويجى ـ ستاركاور ـ كما أننا نفهم ـ على ضوء هذا ـ السبب الذى دعا القديس باتريك يحيى فى الملحمة النثرية الايرلندية ، شاعرا يلقى الملاحم الفنلندية . وأما الحكاية الغريبة عن الملك ميداس وحلاقه ، ذات الأصل الفريجى كما نعرف ، فقد صارت شعبية ذائعة فى بريطانيا السلتية وايرلندة ، والفضل فى ذلك يرجع الى نص هذه الحكاية الذى تضمنته شروح سرفيوس وأوفيد .

غير أنها هاجرت شرقا ان لم تكن قد أمعنت فى هجرتها الى الشرق ، وهى توجد فى منطقة شاسعة من الأرض .

وفى غرب أوروبا على الأقل ، لقيت نفس المصير ، تلك النـــادرة التى تقال عن الشراع الأبيض والأســـود الذى يرد فى قصة ثيسيوس الخرافية الكلاسية .

صـــــارت هذه القصة شعبية ذائعة فى الغرب ، عن طريق تعليقات سيرفيوس أيضا ـ حتى انها أخذت فى خرافة تريستان مكان النهاية القديمة التى كانت تختم تلك القصـــــة المحزنة ، والتى كانت تتلخص فى أن يصرع الزوج العاشق ، بضربة من حربته المسمومة ، أو رشقة من سهمه المسموم . ذلك ان هذه النهاية القديمة كانت تبدو متوقعة من سياق القصـــة .

وضريب هذا حدث فى القصة الايرلندية درمات وجرانيا . غير أنه من الخطأ المنهجى أن نزعم أن ارتحال وهجـرات القصص الـكلاسية

الى شمال أوروبا لم يكن ليحـدث قبل اسـتقرار المسيحية نهائيا فى الغرب . ذلك أن بعض الأمثلة ـ على قلتها ـ تدل على عكس هذا .

ومن ذلك أن الشخصية التيوتونية للحداد وايلاند ، مزيج غريب من شخصية ديادالوس وفولكان (*) ، على حين أن اسمه ، فى اللهجات التيوتونية المختلفة ، يحوطه الغموض ويتعذر تفسيره على ضوء قوانين علم النطق . واذا كانت قصـته مسيحية ، ومزيجا كلاسيا وعصر وسيط ، لظلت قريبة من الأصل الأول الذى صدرت عنه . وهكذا ، لا يكاد الشك يساورنا فى أنها ملحمة شبه مثقفة ، من ملاحم الحرف ، والصنائع ، وقد حملهـا الى الشـمال بعض الصـناع ممن يشبهون « السمكرية » الجائلين فى الأزمان التالية . ولقد نقول ذات القول عن خرافات لوكى Loki النوردية ، ولا ريب فى أن شخصية لوكى تدين بعض الدين لشخصية الشيطان المسيحية ، غير أنها تحمل دينا أكبر من هذا ، لشخصية بروميتوس Prometheus الكلاسية .

ومثل هذا المزيج ، لا يتصور ، الا فى نطاق الفكر المسيحى الخالص ، ومن المحتمل اشد الاحتمال ، أن يكون هذا المزيج من صنع فرق المتصوفة ممن كانوا يسـكنون مناطق الحـدود الهللينية الايرانية ، ويمزجون الكلاسيات القديمة بالعناصر الزرادشتية .

والكثير مما سبق ينطبق كذلك على قصص راجناروك Ragnarök ، وبولدر النوردية .

وأما القصـة الأولى ، فيدور حول فكرة دمار العالم بواسطة حريق مروع ، حدث قبل عصر المسيحية بلا ريب .

غير ان هذه الفكرة معروفة للديانات السامية التى لم تكن المسيحية أول من استعار منها ، فقد سبقتها السفسطائية الى الأخذ عن هذه المعتقدات السابقة .

وأما قصة بولدر النوردى ، فقد ثبت أنها مزيج من خرافات تنتمى الى معتقدات الغوامض المعروفة للشرق الأدنى والتى كانت ذائعة غاية الذيوع فى القرون الأولى من عصرنا (١٢٠) .

(*) انظر فولكان فى فهرس المصطلحات والأعلام ـ المترجم .

ولعلنا نرى ان مثل هذه الهجرات تمت فى عصور ما قبل التاريخ ، خاصة اذا ما تذكرنا أن التاريخ المعلوم لنا بدأ متأخرا بالنسبة لشمال أوروبا .

وليس لدينا شك فى أن المخالطة بين الأجناس البشرية ، كانت كافية فى عصور ما قبل التاريخ أن تمكن لهذه الخرافات من الانتشار .

وحسبنا ان نضرب مثالا بخرافة أندروميدا Andromeda التى سبق أن اشرنا اليها ، وخرافة الفتاة السامة التى وصلت كريت من الهند . وكذلك الشأن بالنسبة للقصة الرومانية الخاصة بكرتيوس Curtius الفارس الذى القى بنفسه الى أعماق الأخدود لينقذ مدينته والتى كان موطنها الأصلى فى آسيا الصغرى ، ثم حملها اهل اتروسكا الى ايطاليا .

وكذلك الشأن بالنسبة للأسطورة الرومانية الخاصة بتاربيا Tarpeia — وهى مشتقة من مجموعة قصص هيللينى يشير — هو موضوعه الرئيسى — عن الروح الخارجية — الى ان موطنه الأصلى هو شواطىء غزة . فهناك فيما يبدو ، اتخذت الأسطورة شكلها الشعبى الذائع ، بل سمتها الخشن الأول .

ولعل خير مثال نستطيع ان نورده هنا هو قصة حياة ترزياس التى ذكرها هزيود ، وأشرنا اليها فيما مضى .

ولقد يحسن بنا قبل أن نختتم هذا الفصل أن ننبه القارىء الى حقيقتين هامتين حتى لا يظن القارىء خطأ أن كل شىء فى ميدان الفولكلور الشفاهى الممتع ، معروف جد المعرفة ، يقينى ثابت ، وانه لا توجد زوايا خافية ، تحتاج أشد الحاجة الى الايضاح والتفسير .

اما الحقيقة الأولى فهى أنه يجب الا نظن اننا نعرف الآن التاريخ الدقيق لكل الخرافات المهاجرة أو اغلبها .

واما أن يغلب على الخرافات التى ذكرناها فى دراستنا ، أنها ترجع الى عصور ما قبل التاريخ فينبغى أن يدلنا ذلك على أن هذه الصفة لا تنطبق على كل خرافة مهاجرة ، ولن تنطبق عليها جميعا .

والأمر الثانى أن التمييز بين الخرافات المحلية والخرافات المهاجرة ،

الذى رسمناه هنا لأغراض عملية ، ليس على هذا القدر من الوضوح الذى قد يتصوره القارىء .

ولهذا ، فقد يحسن بنا أن نقول شيئا عن الأمرين السابقين . فبين الخرافات التى تحتاج الى بحث وتمحيص ، مجموعة القصص الخرافية التى ترتبط عادة بأسماء السحرة مثل الدكتور فاوست ونحن لا نستطيع أن نعتبر أن هذه الخرافات ، أو معظمها ، قد نما من أصول تاريخية ، لأن هذه الخرافات نفسها كانت ترتبط ، فيما قبل عصر فاوست وفترة الاصلاح الدينى ، باسماء سحرة ايسلنديين كبروس Perns ، او سايمندر Saemundr ، بل كانت ترتبط باسم البابا سلفستر الثانى .

وفى معرض التدليل ببعض الحكايات نجد ميثاق الشيطان ، ونجد خدعا تقوم على أساس التنويم المغناطيسى كالايهام بأن حزمة من القش قد صارت حصانا ، أو أن الماء يجرى حيث توجد ارض جافة فى الواقع ، وهذه الحكاية قد قيلت عن الملك سليمان وملكة سبأ .

ثم نجد فيها حيل فقراء الهنود كانبات الزرع فى لحظة عين . ومن اغرب الحكايات ، تلك التى تصور كيف أن ساحرا يحكم عليه بالموت ، فيغير شكله بشكل الجلاد ، وينفذ الاعدام فى الجلاد ، ويكتشف المشاهدون ــ ونحن منهم ــ وكذلك القاضى ــ هذه الحيلة بعد فوات الأوان .

اقول ان هذه الحكاية غريبة ، لأننا نجد فى بعض الكتابات الغنوصية أن مؤسس المسيحية قد نسب اليه أنه صنع هذا الصنيع بسيمون السايرينى .

ولسنا ندرى ما هى الطرق التى سلكتها تلك الحكايات فى هجراتها . ذلك انه فى العصور الوسطى ، ازدهرت جماعات تحترف السحر الأبيض ، وكانت هذه الجماعات تماثل الفرق الالحادية الوثنية ، الأمر الذى يجعل من العسير على الانسان أن يعرف معرفة يقين كيف انتشرت حكاياتها بين طرق اوروبا .

واذا كنا قد وضعنا حدا فاصلا بين الخرافات المحلية والخرافات المهاجرة ، فلا يجوز لنا ان نقول ان الخرافات المحلية لا تستطيع ان تتأقلم

وتستقر فى أماكن محلية ، فترتبط بمواضع محددة من الأرض ، وبأشخاص محددين . بل ان العكس هو الصحيح . كما ظهر ذلك جليا ، فى أكثر من مثال مما أشرنا اليه سابقا .

وانى أورد هنا ، مثلين آخرين :

تروى خرافة فايدروس Phaedrus — وهو الرقيق الذى اعتقه صاحبه تبريوس — الأحداث التالية : تنافس اثنان — أحدهما غنى قبيح اشعث والآخر فقير حسن الهندام والطلعة — على حب فتاة جميلة ووافق والد الفتاة ، على تزويجها من الرجل الأول ، طمعا فى ماله .

واستأجر أهل العروس حمارا لنقلها ، وشاءت المقادير أن يكون هذا الحمار ملكا للرجل الثانى الذى فشل فى خطبته لها .

وبدأ موكب الزفاف يمضى فى طريقه . لكن فينوس ، تشفق على العاشقين ، فتشتت موكب الزفاف ، بأن ترسل عليه عاصفة مفاجئة ويعود الحمار المفزع بالعروس الى مأواه المعتاد ، ليجد سيده جالسا الى كئوسه يغرق أحزانه بالخمر ، بينما يعلن العريس انه سيجزل العطاء لمن يجد عروسه الغائبة ويردها اليه وأما منافسه « المحظوظ » فقد أعطته الزوجة الجميلة قدر ما أعطته لزوجها وسوت بين الرجلين الغزلين (dulce perficit — Aequalitatis inter plausus nuptias)

التقط هذه القصة ، قسيس فرنسى فى العصور الوسطى هو « هون روا » وكانت مواهبه أغزر وأقوى من مواهب فايدروس ، فكان ان انتقلت هذه الحكاية الى حياة النبلاء وبيئتهم . وصار الغريمان عما وابن أخيه ، وقد انتصر الأول على الثانى بواسطة خيانة وغدر لا نجد لهما أثرا فى الحكاية القديمة ، وأما الحمار المسالم ، فقد تحول الى حصان مطهم (١٢١) .

وفى هذه الصورة ، هاجرت الحكاية من فرنسا الى المانيا ، وقد حملها اليها شعراء جوالون ، ثم أضيفت الى مكان محدد ، والحقت بقلعة فى مناطق الراين (١٢٢) .

واغلب الأمر ، أن يكون ارتباط خرافة مهاجرة باسم محدد نتيجة لتحوير الألفاظ والتلاعب بالكلمات فحكاية طيور أبيكوس مثلا ، وهى انموذج الخرافات المهاجرة المنتشرة فى العالم القديم ، لم يكن لها أدنى صلة

بالشاعر الأغريقى القديم . وانما نشأت الصلة بينهما ، من تحريف كلمة الطير ذى العنق الطويل الاغريقية (*) .

ولقد يحسن بنا أن ننبـه القارىء الى المسألة التى لا يسهل دائما أن نبت فيها برأى فاصـل وتلك هى مسـألة هل نقول أن الحكايات المتشابهة أصلها خرافة مهاجرة أم تراها قد نشأت من أصل واحد ثم افترقت فى نموها ، واختلفت فى كيفية استوائها .

فى الحقيقية ـ لا نستطيع أن نفضل نظرية على أخرى من هاتين النظريتين . بل لعلنا نميل الى الأخذ بالرأيين كليهما .

واليك مثلا لما نقول .

سبق أن أشرنا الى حكاية زوجة ـ بات ـ بما فيها من نادرة تحويل عجوز شمطاء الى حسناء فريدة الحسن ، بارعة الجمال .

هذه الحكاية سيلتية ما فى ذلك شك ، لكن العصور الوسطى فى أوروبا ، كانت تعرف حكاية مناقضة ، وفيها تتحول الحسناء الجميلة ، فجاة الى عجوز شـمطاء ، تروع الناس بمرآها ، وتحزن عاشقها ونحن نسمع فى الأصـل الكلاسـيكى للبـالادة الدائرة حـول مغـامرات توماس الأركلدونى أن :

« توماس اتخـذ موقفه ذاك ورأى السـيدة وهى مرحى ! » .

وقد جمعت شعرها فوق رأسـها وبدت عيناها وكأنهما تجحظان وثيابها جميعا شعثاء تختلف عما رأى من موقفه ذاك واحدى ساقيها سوداء والأخرى رمادية وجسمها كالرصاص .

ولمـا كان جيرالدوس كامبرنسـيس (Giraldus Cambrensis) قد عرف حكاية كهذه ، قيل انها حكاية رجل من ويلا يدعى مايليريوس فقد يحمل ذلك المرء على أن يظن أن هذه الحكاية سيلتية .

ولكنا نجـد قصيدة باللغة الألمانيـة الوسطى ، نظمها كرنراد فون فوزبورج (**) ، وقد يحملنـا هذا على أن نظن أن هذه الحكاية ترادف

(*) = 1 B voxos

(**) Konrad würzburg

خرافة تانهاوزر وجبل فينوس . بيد أن هذا الاستنتاج ، سيكون خاطئا . ذلك أن هــــذه الحكاية بذاتها تقال عن سيدة الغابات التيوتونية سواء فى وسط أوروبا أو فى السويد بل نجدها فى حكايات الشرق الأدنى وفارس والهند . واغلب الظن اذن أننا بازاء خرافة هاجرت من مكان الى مكان بل نحن بازاء حكايات متشابهة نشأت عن أصل واحد ـ وذلك هو الفكرة المزدوجة الخاصة بجنيات الأماكن الموحشة .

وكذلك فلا يجوز لنا أن نقول أن موضوع الجنية الحسناء هو موضوع سيلتى بحت . بل هو موجود حيث يوجد الاعتقاد فى جنيات الأماكن الموحشة ، أى انه موجود فى الجانب الأوفى من العالم القديم ، وموجود كذلك فى مناطق واسعة من العالم الجديد . ثم أننا لا نتوقع ، غناء كثيرا فى اتجاهها الوعظى ، ونبرتها المثيرة ، التى تنتحلها الحكاية القديمة ، أينما جرت فى مختلف البـلاد . فمما يطيقــه العقل ، أن يبادر رجال الكنيسة ، كلما سنحت بادرة من الفلســفات الجماليــة أو العقــائد الجماليــة ، الى أن يقرنوا بين الجنيــات العاشقات وفراوفلت (*) أو سيدة العالم أو قل الشيطان بشخصه فى لغة العصور الوسطى (١٢٢) . ولعلنا نقول ـ بعد هذا العرض الطويل ـ أن الخرافة المهاجرة ، تكاد تدور حول أمتع العناصر ، فى أمتع موضوع .

وعلى خلاف حكايات الجان ، والحكايات المرحة ، وحكايات الحيوان ، لا نستطيع أن نزعم أن للخرافات المهاجـرة أساسا انسانيا مشتركا ـ أى أساس واسع شامل يساير كل شعب وكل معتقد بدون تمييز . أما عناصر الخوارق فى حكايات الجان ، فقد تسحر خيال الناس جميعا ، بصرف النظر عن لون أبشارهم وقد تغلغلت حكايات الجان الأوروبية أيما تغلغل ، بين هنود امريكا الشمالية . وكذلك نجــد أن الحكايات المرحة ، بروح دعابتها العريضة التى لا تستلزم أكثر من وجود علاقات انسانية أولية قد كسبت أصدقاء فى كل مكان ، وقد يكون خير أصدقائها أكثر الناس تدينا ونقاء قلب .

وحكايات الحيوان ، بشكلها البسيط ، موجـــودة فى كل قارة ، والملونون لا يتريثون فى انشائها الى أن يأتى الرجل الابيض .

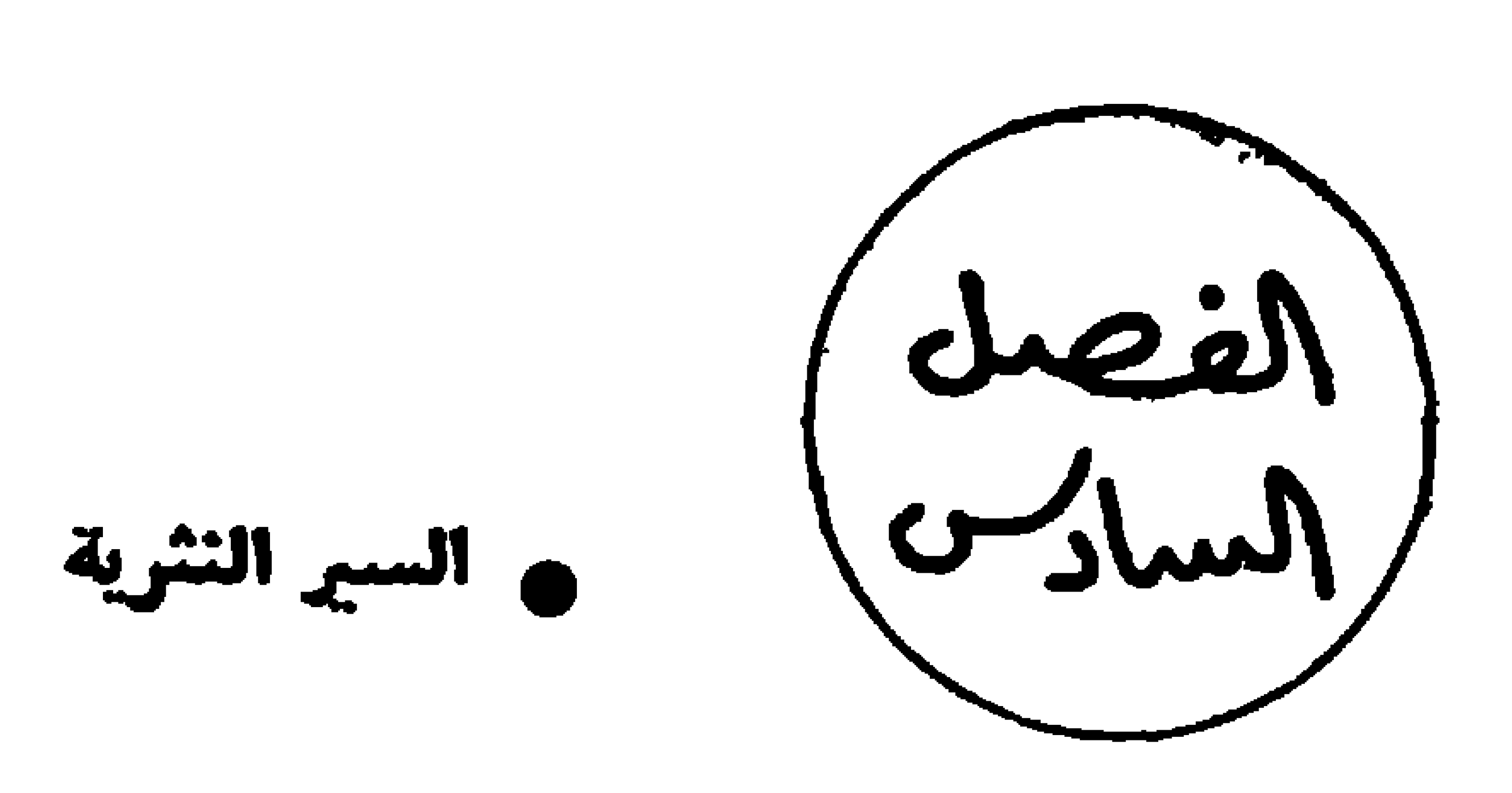
(*) Frau Welt

ولذلك فتبادل هـذه الحكايات يسير سهل ، ولا يشكل صعوبات اساســـية .

ولكن ما أشد ما يختلف الأمر ، حين نلقى نظرة عابرة على الخرافات المهاجرة .

انها تنشأ فى مكان واحد ، وتنمو فى ظل ظروف محددة ، وممارسات أو عقائد بذاتها ، تكون ــ فى غالب الأمر ــ جزءا لا ينفصل من نظام دينى ناضج ، لكنها تجد قبولا ورواجا فى أماكن أخرى كثيرة ، ولعلها تلقى خير القبول ، والاستيعاب من نظم دينية أخرى ، مخالفة . ويبدو انه يجب أن يتوفر لهذه الخرافات شرط جوهرى واحد هو أن تكون حكايات متقنة جيدة ، ممتعة ، منطقية فى بنائها ، تحمل الى الناس غاية أخلاقية ، بصرف النظر عن محلية هذه الغاية .

والخرافات التى مرت بنـــا فى ســـياق هذا العرض ، والتى تتدرج من الضحكة الغامضة يطلقها الصبى البرهمى ، الى خيانة دليلة وحفيدتها تاربيا الجميلة ، وحكاية تيريزياس ، جديرة بأن تثبت النقطة السابقة ، بغير أن يدعونى الأمر ، الى أن اتخذ موقف الواعظ فى العصورالوسطى، حين كان يلقى الموعظة ، ويجد لزاما عليه ، ويشعر أن من واجبات عمله أن يتحمس لها ويعيد شرح تفاصيل القصة بعد أن يرويها ! .



● السير النثرية

رواية الأخبار والسير العائلية النثرية . خصـــائصها الجوهرية . مشكلة الرواية والتواتر شفاهيا .

• السير النثرية

قبيل منتصف القرن الماضى ، كتب المؤلف الانجليزى سير جورج مى لويس Sir George C. Lewis جزئين كبيرين ، حاول فيهما أن يبرهن أنه لا يمكن الوثوق بمعلوماتنا عن التاريخ الرومانى أثناء عصـــور الملكية والمرحلة الأولى من عصر الجمهورية ، ذلك أن كتاب التقاويم التاريخية الأول ، كانوا يلجئون الى الذاكرة ويعتمدون عليها ، وذاكرة الانســـان قاصـــرة .

ولما كان الجانب الأوفى من هذه الوثائق القديمة ، ان لم تكن كلها ــ قد دمر حين أستولى الغال على المدينة ، فلا مفر لنا من أن نعتبر أقدم أجزاء التاريخ الرومانى ، روايات ملفقة ، وأخبارا مختلفة ، وليست « تاريخا » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة (١٢٤) .

ولا يشوب دعوى لويس خطأ من الناحية المنطقية ويبدو أنها صادفت قبولا ، عند واحد على الأقل من علماء التاريخ المعاصرين ، ومن خبراء الأثريات الايطالية . ذلك هو الدكتور ايتورى بايس Ettore Pais اما ت . مومسن Th. Momsen فيبدو أنه لم يتأثر بهذه الآراء ، أيا كانت الأسباب التى دعته الى ذلك .

وكان بى جى نيبر B.G. Niebuhr قد تبين هذه الصعوبات ، قبل زمن لويس بوقت طويل ، ذلك ان نيبر ، الذى انتبه الى قصور الذاكرة البشرية الذى شرحه عالم الآثار الانجليزى ، لجأ الى النظرية القائلة بأن المعلومات التى نشير اليها ، قد تواترت ووصلت الى أقدم مؤرخ ، من خلال التآليف الشعرية ثم ذهب نيبر الى حد أنه حلل الكتب الأولى لليفى (Levy) بهدف أن يعثر على شواهد من هذا الشعر .

وكان لا مفر من أن يجد هذه الآثار الشعرية ، ما دام قد تفـــرغ للبحث عنها .

غير أن الكثيرين لم يشاطروه رايه ذاك ، منذ أن كان حيا .

والصعوبة فى هذه المشكلة ، تكمن فى أننا نعجز عن أن نتخيل مجتمعا ، أميا فى جوهره وأعماقه ، يستطيع ـ برغم هذا ـ أن يتوارث المأثورات ، من جيل الى جيل ، دون أن يدخل عليها تحويرات أساسية أثناء عمليات التواتر والتوارث .

بيد أن مثل هـذا المجتمع كان موجودا بالفعل فى الأزمان التاريخية الغـــابرة .

ولا حاجة بنا الى ان نقول ان الكتابة ليست سوى وسيلة واحدة من الوسائل الميكانيكية التى تؤدى الى تحقيق هذه الغاية النافعة .

ولعل طريقة « الكويبو » التى استخدمها أهل بيرو القدماء ، أن تكون وسيلة ثانية لا تقل اهمية عن الكتابة ، ذلك اذا صدقنا الأخبار التى قصها علينـا الكتاب الأسبان ذلك أن الاستظهار والحفظ عن ظهر قلب وسـيلة أخـرى .

ولا نزاع فى أنه اذا اهمل تدريب الذاكرة الانسانية ، أصبحت مرشدا لا يطمئن اليه فى معرفة الماضى .

غير أن الأمر يختلف تماما ، بالنسبة للذاكرة المدربة فالمجتمع الذى لا يعرف القراءة والكتابة يعتمد على مجموعة من العقول المدربة ، فى حفظ تاريخ ماضيه .

ولعل بعض الأمثلة العملية أن تفسر لنا هذا . فأهل نيوزيلنـــدة الأصليون ، لديهم ـ أو بالأحرى كان لهم ـ طبقة من الرجال المحترفين الذين تخصصوا فى حفظ أنساب هذه العائلة أو غيرها مما كانت تؤلف ارستقراطية قبائل الماورى .

وهذه الأنساب ، تواترت وانتقلت من الآباء الى الأبناء وهى ترجع الى القرن السابع عشر حين هاجرت هذه القبائل من الجزيرة النائية الواقعة فى بعض الخلجان الى الشمال .

ولا يتصور الانسان ، رجلا أوروبيا يحفظ فى ذاكرته ، أنساب عائلة من النبلاء ، وهى تتسلسل من أيام كرومويل ، بما فى ذلك من أســماء ، ونسب صحيح .

والسبب فى ذلك أن الكتب المطبوعة ، بل المخطوطات المكتوبة ، تجعل

طريقة قبائل الماورى ، غير ذات موضوع ، ثم ان العقل الذى لم يدرب على الحفظ ، لا يصل الى درجة الصواب والتيقن التى يصل اليها راوى السيرة النثرية المحترف ، وهذا بصرف النظر عن شدة الدافع أو الوازع الذى يزع العقل غير المدرب .

وفى الناحية الأخرى ، من العالم ، نجد ضربا دقيقا ، لطريقة الماورى فى ترويج المأثورات الشعبية ، وهذا الضرب نلقاه فى السيرة النثرية الايسلندية .

وقد يجاوز نطاق هذا الكتاب أن أحاول وضع تاريخ للقوالب الأدبية ، التى تنتمى الى ميدان التاريخ الأدبى ، لا الفولكلور (١٢٥) .

ويكفينا أن نقول ان السير التاريخية لم يتم تدوينها قبل القرن الثالث عشر ، مع أن الأحداث التى ترويها تعود الى القرن العاشر أو الحادى عشر أو الثالث عشر .

وبالرغم من ان هذه المأثورات كانت تنتشر بالرواية الشفاهية الا أن الأخطاء فى التواريخ والوقائع ، قليلة العدد وليست أسوأ من الأخطاء التى تردى فيها كتاب التقاويم فى العصور الوسطى ، ممن استخدموا طريقة التدوين .

ولدينا مثل آخر نسوقه فى هذا الصدد ، وهو مأخوذ من ايرلندا فى عهدها الوسيط ، خاصة اذا تذكرنا أن العصور الوسطى استمرت فى ايرلندا حتى أواخر القرن الثامن عشر .

فبالاضافة الى المأثورات المكتوبة ، درجت طبقة من العلماء المحترفين على أن تنقل الى الأجيال التالية ، السير النثرية القديمة ، التى عاش بعضها بعد أن اندثرت تلك الطبقة ، وكانت تلك السير جارية فى البلاد الغربية حتى القرن الماضى ، حين جمعها الفولكلوريين من أمثال لارمينى W. Larminie وجيريميا كرتن Jeremiah Curtin والدكتور دوجلاس هايد Douglas Hyde بل ، بعد أن صدرت التشريعات الجنائية واخذت الأمية فى التلاشى السريع من الجزيرة ، ظلت المأثورات الشفاهية كما يمارسها رواة السير ، تزدهر وتفيض ، وكانت ــ بلا شك ــ عاملا اقويا فى انهاض الشعب الغالى ، بعد اظلم قرن عرفه فى تاريخه .

ولقد ذاع الظن ، لفترة من الزمن ، بأن السير النثرية الايسلندية ،

كشكل من أشكال الفولكلور ، مستوردة من البلاد الكلتية ومن ايرلندة بخاصـــة (١٢٦) .

ولا يبدو أن هذا الرأى ، يستند الى أساس قوى ، كما أن النظر قد انصرف عنه فى السنوات الأخيرة .

ومن أهم الأسباب التى دعت الى اسقاط ذلك الرأى ، الكشف عن سير نثرية أصيلة بين الفلاحين فى بعض الأودية المعزولة ، والواقعة فى جنوب النرويج ..

وجانب من الأحداث الواردة فى هذه السير ، يعود الى عام ١٦٠٠ ، وهكذا يتضح لنا تاريخ هذه السير ، وضوحا كافيا .

ولقد طفت « جزئيات » بعينها ، على مادة السير ، لكنها لم تكن اكثر من نفس الجزئيـــات التى يشتمل عليهـــا بعض من أقدم الســـير الايسلندية النثرية .

ولنبحث بعد ذلك ، تلك الخصائص الجوهرية التى تتسم بها السير النثرية .

السيرة النثرية ، هى بادىء ذى بدء ، سيرة عائلة ، تعنى بالأنساب ، وتعنى ــ على نحو ما ــ بعبادة الأسلاف ، بالمعنى الواسع لهذا المصطلح . وينبنى على هذا الافتراض ، أن تزدهر السيرة النثرية ، حيثما نستطيع القول بوجود عبادة للاسلاف ، فى معناها الأسمى أى فى المجتمعـــات الارستقراطية .

ويجب أن نقول ، وللمرة الأخيرة ، أن الصـــفات التى ننســـبها الى مصطلحات الثقافة والتربية ، لا دخل لها البتة بمسائل معرفة القراءة والكتابة . فقبائل الانكا فى بيرو ، بطريقتها فى حفظ المأثورات الشفاهية ، وبطون العائلة الماورية (*) العريقة وعائلات الاستورلونجا الأيسلندية التى لم تعن بتدوين أنسابها حتى وقت متأخر ، كانت اشد تربية وثقافة ، من المنتجات الحديثة التى ينتجها التعليم بالجملة والتى تصوغها كليات وجامعات متهاونة ، وكأنها نماذج كثيرة متشابهة من سلعة واحدة .. أما الرجل المهــذب ، المثقف ، فهو الذى يعرف نسبه ، ولو لم ينشر النسب فى كتاب .

(*) القبائل الماورية هى من قبائل سكان استراليا الأصليين ــ المترجم .

ولعلنا نقسم المجتمع الأمريكى المعاصر الى طبقتين : طبقة الذين يعرفون انسابهم وطبقة الذين يجهلونها .

وكانت الحكومة ، فى صدر تاريخ الجمهورية ، فى يد الطبقة الأولى ، وهى الآن فى يد الطبقة الثانية وتحدد الحرب الأهلية ، حدود هذا التغير .

ولعلنا نعود الآن الى نقطة البدء فنقول ان الدولة الرومانية ، أول ما نلقاها فى التاريخ ، تقترب أشد الاقتراب ، من نموذج الدول الارستقراطية فاذا افترضنا أن مثل هذا المجتمع الذى لم يأخذ بتدوين الأنساب ، واثباتها بالكتابة . كان يستطيع كذلك أن يستغنى عن السير النثرية فى حفظ انساب عائلات مجلس الشيوخ ، فاننا نفترض المستحيل بلا نزاع .

ويجوز لنا مع هذا ـ أن نشك فى أن تكون روما القديمة قد عرفت السيرة النثرية الكاملة ، على غرار السيرة الايسلندية .

غير اننا لا نستطيع أن نتصور كذلك أن انساب بطارقة النبلاء الرومان ، وأن أعمالهم الكبيرة قد محتها تماما الغزوات الغالية حين دمرت الوثائق المكتوبة .

ولا يجوز أن نعتبر أن كل ما جاء فى كتب ليفى الشعرية الأولى ، هو من قبيل الاختلاق والتلفيق أو أنها جميعا ، خالية من تلك العناصر التاريخية التى قد نضفيها على رواية تاريخية جيدة .

واما أن السيرة النثرية ، سيرة عائلة ، فذلك أنها تعنى أكثر ما تعنى ، برواية أنساب عائلة من العائلات مع بيان ما يطرأ على كل جيل من أحداث ، ولعلها تقتصر على التأريخ لما يطرأ على أقدم فرع من فروع هذه العائلة ، أو أكثرها أهمية .

وتعرض السيرة النثرية ، للحياة العامة بالقدر الذى اشتركت به هذه العائلة فى تلك الحياة العامة . ولما كان التاريخ فى المجتمعات الارستقراطية، تصنعه تلك العائلات ذاتها ، كان الجانب الأوفى من السير النثرية تاريخا موثوقا به .

ولا نزاع فى أن الكثير من الخرافات ، يدخل فى هذه السير ، وذلك فيما يتصل بتقديس الأسلاف وأرواح الأجداد ، وحكايات الأشباح وما يعرف بالنظرة الثانية الى غير ذلك .

وهذه الصفات التى تتسم بها موضوعات السير ، تحتاج الى قوالب ، وأشكال محددة .

وأهم هذه القوالب ، من وجهة نظر « التكنيك » هى ـ بالطبع ـ « الوسائل المساعدة » سواء من حيث ترتيب عناصر الموضوع أو من حيث « نص » السيرة ذاته .

وهذه الأشكال والقوالب تختلف باختلاف المجموعات البشرية ، غير ان توافرها ، لدى كل مجموعة بشرية أمر مقطوع به .

وطابع رواية الأنساب ، يفرض نوعا من الاختصار ، بل الجفاف فى الأسلوب . وهو ما نلقاه حتى الآن فى المقدمات التى تؤرخ للأنساب ، وتمهد لسير ايسلندة القديمة التاريخية . ثم أن خاصية رواية الأنساب ، تجعل من الأمور الصعبة علينا ، أن نميز بين ما هو ضرورى ، وما هو غير ضرورى أو قل ، ان ما يلزم السيرة ، وما يعتبر جوهريا لها ، ـ ونعنى به موضوع رواية الأنساب ـ قد يبدو فضولا ، وتزيدا ، لا قيمة له ، ولا غناء فيه ، بالنسبة للقارىء الحديث .

غير أن هذا الأمر ، ليس خطأ الانسان الذى وضع السيرة النثرية .

واخيرا ، فهناك خاصية « النظرة البيوجرافية » للأشياء التى ترى كل « شىء » من الزاوية التى تمليها التقاليد العائلية . هذا ، مع أن هذه النظرة ، يواكبها قدر كاف من الموضوعية ، فالعقلية الارستقراطية ، لا تغرم بقذف الطين .

وتشغل سيرة الأنساب فى الفولكلور ما تشغله تراجم الأشخاص فى التاريخ الأدبى ، ولو أن السير أميل الى التفرد .

وكما قد تتحول الترجمة التاريخية للأشخاص الى قصة ادبية طويلة تدور حول حياة شخص ، فكذلك قد تصبح سير العائلات ، على مر الزمن ، سيرا رومانسية تفتقر الى الأساس التاريخى الواقعى وتغدو أداة يستخدمها الخيال الشعبى وينسج خيوطها .

وتستطيع أن نلحظ هذا التحول . فى ايسلندة القديمة ، حيث أصبحت سير العائلات تشتمل على الخرافات الغريبة utilegumannasaga (١٢٧) وحكايات العفاريت ذات الأصل الشرقى ، وهى أبدا ، عناصر غريبة على أيسلندة .

وهذا التحول ، تدريجى للغاية ، ويعتمد أكثر ما يعتمد على استيعاب عناصر حكايات الجان ، والحكايات المرحة .

وبعض السير الايسلندية المتأخرة زمنا ، تبدو وكأنها خيط من هذه العناصر التى ضمت بعضها الى بعض بطريقة تعسفية .

والقيمة الأدبية لأمثال هذه السير ضئيلة فى العادة .

ولكن ينبغى الاعتداد بقيمتها الفولكلورية ، فكثير من هذه السير ، يمدنا بنصوص مستجدثة لها وزنها التاريخى ، بالنسبة لانتشار الموضوعات وذيوعها .

وأهم ما يدعو الدراسات الفولكلورية الى العناية بالسير انما يكمن فى مشكلة « التواتر » الشفاهى وهى احدى مشكلات علمنا المحورية .

ولقد أكد م . بدييه وغيره من علماء زماننا ، ان المأثورات الشفاهية ، تعتمد أساسا بعضها على بعض ويرتفق بعضها على بعض .

ونحن نعترف بأن الخرافات المحلية ، غالبت الزمن ، وعاشت ، لأن ذاكرة الانسان ، أعانها على التذكر وجود أثر محلى ترتبط به هذه الخرافات . وحيثما لا توجد أمثال هذه الآثار ، تظهر آثار ، الخرافات المحليـــة .

وتبرهن السير بوضوح على ان العائلات البشرية ، التى تمتاز بالتعاطف العائلى ، وبالروح العائلية ـ أو قل ان العائلات الأرستقراطية ـ(*) هى هذه الآثار عينها ، الا أنه بينما تكون الآثار صماء صامتة ، وبينما لا يكون لها أى دور ايجابى فى بقاء قصصها ، يكون للعائلة غرض حيـــوى فى القصص الموضوعة عنها ومن ثم فهى تعين على ترويجهـــا وتواترها ، قدر ما تستطيع . وما أن تتيح سير الأنساب (الأشكال) و « الطرائق »

(*) يستخدم المؤلف تعبيرات « الجماعة الارستقراطية » و « الذهنية الارستقراطية » و« الارستقراطية » ـ للدلالة على ثقافات بعينها ، وانظمة اجتماعية أو سياسية ، كانت تخضع لسلطة القلة ذات الامتيازات » ومنها بطارقة الرومان لكن المؤلف يتعاطف مع هذه الجماعات ، الى الحد الذى يفسد تصوره للتاريخ ـ المترجم .

حتى يستطاع استخدام هذه الأشكال والطرائق فى موضوعات لا تندرج تحت اسم ترجمة سيرة العائلات ، ولقد تفسر هذه الحقيقة ، وجـــود مأثورات ، وتواترها حتى وقتنا الراهن ، مما لا يكون شرحه ســـهلا يســـيرا .

ولقد تجاهل م . بدييه ـ فى كتابه العام عن الملاحم ـ هذا المصدر الفنى للمأثورات الشفاهية ، التى كانت ـ دون شك ـ .

ناشطة غاية النشاط ، فى مجتمع اقطاعى وارستقراطى كامل ، كمجتمع فرنسا فى عصرها الوسيط .

الفصل السابع

المثل

● المثـــل

تعبيره عن الحقيقة . بالأسلوب المختصر . باســـلوب المبالغة والتهويل ـ واستخدام الاستعارة . الطابع التعليمى وخاصية التركيز ـ المثل فن من انتاج الابداع الفردى ـ تقارب الأمثال الجارية فى مجموعات لغوية مختلفـة . اثر الهجرة فى هذا التقارب . التحوير فى صيغة المثل . التصرف فى اسلوبه ومجازاته عنـد تداول العامة له . تاثير الأمثال اللاتينية فى ماثورات الحكم الدارجة .

المثـــل

يعبر المثل ، فى شكله الأساسى ، عن حقيقة مألوفة ، صيغت فى أسلوب مختصر سهل ، حتى يتداوله جمهور واسع من الناس .

وقد يعبر المثل عن الحقيقة بطريقة حرفية ، فيكتفى بترديد هذه الحقيقة كما هى الحال بالنسبة لأمثال المواعظ ومن ذلك قولنا .

« صل واعمل ـ اعمل وتمن » . Ora et labora, Fac et spera
وكذلك الحال بالنســبة للأمثــال التى تتضمن شرطا لم يتحقق كقولنا « لو استطعنا أن نصنع الشىء مرتين ، لاستقام كل أمر » .

وأمثال كثيرة اخرى .

وقد يعبر المثل عن هذه الحقيقة ، بأسلوب التهويل والمبالغة ـ اى عن طريق ابراز التناقض كقولنا « حيث لا سبيل الى أخذ شىء يخسر الامبراطور سلطانه »(*) أو هو يعبر بالمجاز عن هذه الحقيقة كقولنا « كل عصفور يرى أن عشه جميل » أو قولنا « الصقر لا يصـــطاد الذباب » «Aquita non capit muscas» ولقد يلجأ المثل الى استخدام الاستعارة كقول الألمــان « الغرور يسبق السقوط والحرص رأس الحـــكمة »
Hochmut Kommt vor dem Fall Vorsicht ist die Mutter der Weishcit

وأمثال كثيرة أخرى .

والخاصيتان الأساسيتان فى المثل ـ اذا ـ هما الطابع التعليمى من حيث الموضوع ، والاختصار والتركيز من حيث الأسلوب .

وهذا التركيز تزيده عوامل مساعدة كالجناس اللفظى والتقفية .

(*) أقرب المعانى لهـــذا المثل الانجليزى قول العـــامة عنـدنا « المفلس غلب السلطان » ـ المترجم .

ولقد تكون هذه العوامل المساعدة ذات فائدة ، لكنها ليست أمرا لازما، لا غناء عنه .

وأما طابعه التعليمي ، الذى يكون مباشرا فى أغلب الأحيان ، فيدل على أن المثل ابتكار تصنعه العبقرية الشعبية ، وانه يثبت اكثر مما تثبت الأنواع الأدبية الأخرى ، قرابته وصلاته ، بحكايات الجان وقصص الحيوان ، والخرافات المحلية والمهاجرة .

ثم أن الطابع التعليمى الأخلاقى ، هو السبب فى ذيوع الأمثال فى سائر الأنحاء ، ذلك أن انتشارها بين الأمم غير الأوروبية لا يقل عن انتشارها بين الاغريق القدماء والرومان أو بين أهل ايرلندة وايسلندة فى العصور الوسطى ، أو بين الأمم الحديثة التى تأخذ بأسباب الحضارة الغربية .

ولعل قبائل الماورى التى تسكن زيلندة الجديدة ، ان تساعدنا على ايضاح هذه النقطة ، فمأثور أمثالها المتواتر شفاها بلا نزاع ، مأثور فائق ، يطاول حصيلة الأمثال القديمة التى وصلتنا من حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط .

وليس فى وسعنا أن نعتبر المثل ــ كما لم نستطيع اعتبار الحكاية ــ انتاجا جماعيا بل لقد صيغ كل مثل ذات مرة ، وفى مكان واحد ، وزمن محدد ، وصاغة عقل فرد ، مجبول على صياغة الحكم والأمثال .

وحيثما نجد مأثورا ، يلقى ضوءا على هذا الجنس الأدبى ، فانه يثبت صحة الراى الذى ابديناه . ففى سيرة « جريتر القوى » (Gritter the Strong) النثرية الايسلندية ، يتصف البطل بصفات فائقة ومنها انه يضرب مثلا او يروى كلمة مأثورة فى كل مناسبة .

ولقد حرص منشىء السيرة النثرية على أن يضيف أن الكلمة المأثورة ظلت عالقة بأذهان الناس يتذكرونها ، فيما جاء من أيام ، وانها صارت مثلا .

وقد نشك فيما اذا كانت تلك الكلمة تاريخية ــ اى فيما كان جريتر قد قالها بذاتها واسلوبها ــ وذلك لأن جريتر كان من هذه الشخصيات الجذابة ، التى اجتذبت اليها فى الأزمان المتعاقبة ، شتى انواع القصص ، ومختلف الأعمال الخطيرة .

وجدير بهذا كله أن يدلنا على أن أهل ايسلندة ، فى عصور

تاريخهم المعلوم ، كانوا على علم بخصائص المثل ، وبأن الأمثال صاغها شخص واحد اول الأمر ، ثم صادفت رواجا عند سائر الجماعة البشرية (١٢٨) .

وهذا النوع من الأمثال لا يخص أهل ايسلنده وحدهم ، بل نجد شواهد عليه عند السيلتيين فى ايرلندة ، وعند اهل أسبانيا ، وهولندة ورومانيا والشرق بل زيلندة الجديدة (١٢٩) .

ولو كانت صيغ الأمثال بسيطة ، لأخذنا بنظرية نشوء الأمثال من مصادر مختلفة لكن يكفى أن نلقى نظرة عابرة على الأمثال الموجودة ، لنرى أن هذه النظرية تنطبق فقط على عدد قليل منها .

ذلك ان الصيغة الأسلوبية ، والاستعارات ــ حيث توجد ــ والاستعمال الشخصى فى انشاء العبارة ــ كل ذلك يكفى للقول بأن ابداع القول السائر ، كان ابداع أفراد ، فى الأصل .

واما انه ينبغى ان نستنتج من المثل قدرا من الحكمة ، فأمر لا نزاع فيه . غير أن تواتر نفس الفكرة أو المبدأ فى مختلف الأمثال ، لا يدل على وجود قرابة بينها . فالفكرة التى يتضمنها المثل الانجليزى « حيث الدخان ، تكون النار » ــ مثلا ــ يعبر عنها المثل الايطالى الذى يقول « لا تمدح الذئب حتى لا يعوى الكلب » Non si grida al lupo che non sia can bigio وهنا نجد أن الاستعارة اختلفت ، لأنها مأخوذة من حياة الرعاة ، ولهذا لا نستطيع أن نزعم أن هناك صلة بين المثلين .

ومثال آخر نراه فى المأثور الانجليزى « الطيور على أشكالها تقع » والمأثور الفرنسى . « لكى تتزوجى قردا ، ينبغى أن تكونى قردة »
Pour épouser un singe il faut être guenon

غير انه من الصعب ان نفصل المأثور الانجليزى السابق عن المأثور الأسبانى الذى يقول Todas las aves con sus pares الذى نجد له مقابلا قريبا منه للغاية فى الساميات (١٣٠) .

وفى بعض الأحيان ، نجد أن الاستعارات ــ تتقارب فى امثال تتواتر فى مجموعات لغوية مختلفة ــ غير ان تقاربها ذاك ، لا يكفى لأن نعتبرها صادرة من أصل حكمى واحد ، خاصة وان الأفكار الأخرى التى تتداعى مع هذه الأمثال ــ أفكار غاية فى السذاجة والبدائية .

ومثال ذلك المأثور الالمانى « كلاب كثيرة ، ارنب ميت « Viele Hunde sind Hasen Tod الذى يطاوله المأثور الأسبانى Si tantos halcones la garza combaten à fé que la maten. والمأثور الأول – كما سنرى – مأخوذ من صيد الارانب ، والثانى مأخوذ من صيد طائرابى الركب بواسطة الصقور (وقد كان هذا الصيد من أنواع الطراد فى العصور الوسطى) .
وانه لمن الصعب علينا – ان لم يكن من المتعذر – أن نقول – بغير أن نملك المواد اللازمة – هل هناك صلة ما بين المأثورين أم أنه لا صلة بينهما .

وكذلك فليس من شك فى أن هناك علاقة بين القول الفرنسى
Etre comme une souris dans un formage de Hollande

« مثل فأر فى « جبنة هولنـــدة » والقول البرتغـــالى : Estar como rato no queijo.

على حين أن المـــأثور الفـــرنسى : كالفـــأر فى القش Etre comme un rat en paille. « يلبد فى الصوف »

مستقل تماما عن المأثور الالمانى : In der wolle sitzen

والحكمة الانجليزية . where nothing is to be had the Empror looses his right « حيث لا شيء يفقد الامبراطور سلطانه » تقرب من الحـــكمة الألمانيـــــة : Wo nichts-ist, hat der Kaiser sein Recht verloren « حيث لا شيء تضيع سطوة القيصر »

ولما لم يكن لقب القيصر معروفا لبريطانيا فى عصرها الوسيط ، فان المثل – بلا نزاع – ترجمة من الألمانية .

ويجوز أن نرى قرابة مشابهة بين الحكمة الانجليزية :

Those who eat cherries with grelt persons shall have their eyes squirled out with the stones.

« من يأكلون الكرز (الفراولة) مع العظماء ، تفقـــأ نوايات الكرز عيونهم » .

وبين الحكمة الألمانية : « لا تأكل الفراولة مع العظماء » Mit grossen Herren ist nicht gut Kirschen essen ولو أنه من المتعذر علينا ان

نقول أى الصيغتين أسبق زمنـا ، الانجليزية ام الألمانية ؟ او ان نقول بأنهما معا ، يرجعان الى صيغة لاتينية وسطى ضائعة . ولعل الافتراض الثانى أن ينطبق على المثل الايرلندى القائل : « يرمى سمكة الاسبرط ليصطاد سمكة حوت سليمان » To throw a sprat to cach a salmon

والمثل الألمانى : قلب السجق من جانبه السمين Ein wurst nach der Speckseite werten

واذا وجدنا مثلا بذاته ، وجوهره ، شكلا وموضوعا ، فى سائر لغات أوروبا ، كان السبب فى ذلك ، أنه انتشر بواسطة الهجرة ، الا اذا كانت الفكرة ، والاستعارة ، من السذاجة ، بحيث نستطيع أن نفترض نشوء الصيغ المختلفة لهذا المثل ، من أصول متفرقة .

وتلك هى حال المثل الفرنسى الذى يقول : مهما ذهبت الجرة الى الماء فنهايتهـا أن تتكسر Tant va la cruche à l'eau qu'à la fin elle se casse.

الذى يعادله المثل الانجليزى : « ما كل مرة تعود الجرة سالمة من البئر (١٣١) »
Not every time does the pitcher come home safe from the well.

ولقد ينطبق نفس الكلام على المثل الانجليزى « الطفل المحرق يخاف النار « الذى نجد له مرادفات سامية شبيهة وللمثل الايرلندى « مهما طال النهار جاء الليل فى النهاية » مرادف فى الشعر الألمانى : « مهما طلعت الشمس فلابد من الغـروب » ,Scheint die sonne noch so schon Einmal muss sie untergehm غير أن الفكرة الموجودة فى المثلين بسيطة ؛ بحيث نستطيع أن نفسر التشابه بينهما ، على أساس انهما صدرا من أصلين مختلفين .

والمثل الايرلندى القائل « من يقهر نفسه يقهر عدوا » نجد له ضريبا فى الألمانية الوسطى التى تقول « أعظم الجهاد جهاد النفس وهزيمتها أكبر انتصار » غير أن كل مثل يتيح لنا نظريا أن نتقصى تاريخه وفقا لمنهج المدرسة الجغرافية التاريخية لكن المسألة أصعب عمليا منها فى حالة حكايات الجان أو بالنسبة للخرافات المهاجرة ، ذلك أن « جسم » المثل العادى ، يعطينا شواهد ضئيلة ، ومعلومات قليلة ، على حين أن الصور التاريخية لهذا المثل غير كافية ، ولعلها تتركنا نتخبط فى الظلام بالنسبة

لبعض فترات التاريخ ومع هذا ، فقد استطاع الباحثون أن يصلوا الى بعض النتائج فى هذا المضمار ، وان بقى الكثير ليصنعوه . فالثابت ــ أولا ــ أن معظم الأمثال اللاتينية ، لا تعدو أن تكون ترجمات عن الاغريقية . فالمثل الذى أوردناه آنفا وهو : « حيث الخير يكون الوطن » وهو ubi bene ibi patria ما هو الا ترجمة حرة لفقرة قالها يوريبيدس وهى « خير ملك هو الذى يملكه الانسان فى وطنه ».

وبفضل انتشار المنحى التعليمى الأخلاقى فى العصور الوسطى ، استطاع أكثر الأمثال اللاتينية أن يعيش بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، ثم احتضنت هذه الأمثال اضافات عديدة ، ذلك أن اللغة اللاتينية لبثت لغة « التعليم الأخلاقى » لقرون تالية .

ولسنا نعرف الآن كم من هذه الأمثال اللاتينية ، اصطنعه رجال الكنيسة ، وكم منها ، مجرد ترجمات من اللغات البربرية (الوثنية السابقة) .

اما الأمر المؤكد فهو أن ادب الأمثال اللاتينية مارس تأثيرا قويا للغاية على مختلف اللهجات ، وأن أغلب الأمثال الفرنسية والألمانية والانجليزية والسكندناوية ، ترجمات ظاهرة عن اللاتينية . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وحين كان التأثير الفرنسى سائدا فى أوروبا ، تركت الأمثال الفرنسية ــ أو قل الصيغ الفرنسية للأمثال ــ بصماتها على آداب الأمثال فى سائر انحاء أوروبا .

ولسنا نعرف الآن ، كم تدين الأمثال الايرلندية القديمة للاتينية ولكننا نرجح أنها تدين لها بالكثير .

وعلى ضوء ما قلناه آنفا ، عن الدور الذى قام به السيلتيون الغربيون فى نشر الحكايات لا يخالجنا شك فى قيام الايرلنديين بنقل جانب كبير من فولكلور أمثالهم الى أهل ايسلندة .

والأدب الايسلندى غنى من حيث الأمثال ، ولو أن كمية الدراسات الخاصة بهذا الميدان الممتع لم تزل قليلة .

ويبدو أن الشرق السامى قد ترك تأثيرا قويا فى فولكلور الأمثال الأوربى ، ولم يكن ذلك قاصرا فحسب على التوراة . بل ان المثل القائل «الانسان يجب أن يكون مطرقة أو سندياناً» الذى جعله فولتير مشهورا ،

له مقــابل قريب للغــاية فى المأثورات العربية ، حتى لقد نظن أن ثمة صلة كانت قائمة بين الشرق والغرب .

واذا كانت العقول الفرادى هى التى صاغت الأمثال ، فان جمهــرة الشعب والعامة ، هم الذين أذاعوها وروجوها وتواتروها . ولهذا السبب ظهرت التحوير والتصرف فى أساليب الأمثال . وعلى حين لم تكن هذه التحويرات متعمدة فيما يخص الحكايات الشعبية ، بل كانت نتيجة للنسيان أو قصور الذاكرة فان الأمثال تعرضت للتحويرات المقصــودة ، والتصرف المتعمد .

وقد ينبغى لنا أن نشير الى بعض النماذج ذلك ان عددا من الأمثال المعروفةما يزال يكشف عن نشأته الأولى فى البيئات الاجتماعية العالية . وقليلا ما يستخدمه العامة والفلاحون ، أو بعضهم لا يستخدمونه البتة .

وقد يعــــرف الفلاحون هــــذه الأمثال أو يسمعون عنها ، لكنهم يفضلون ـ بالطبع أن يستخدموا أمثالا دارجة .

وتبدو هذه « العملية » واضحة اشد الوضوح فى امثال المجازات . فالأسلوب المجازى البليغ ، الذى يصاغ فيه المثل الأصلى ، يتحــــول الى أسلوب أدبى ، بل يقارب هذا الأسلوب أساليب السوقة . والأمثال غير المقفاة قد تصبح امثالا مقفاة ، واذا ظلت الصيغة عسيرة على الذهن العامى ، خففها شيئا ، لتناسب المستوى الاجتماعى الأدنى الذى أصبحت تتواتر فيه (*) .

وثمة ايضاح ، يقدمه لنا هذا المثل الانجليزى الذى يقول « كلما علا القرد اظهر ذيله » وهو مثـــل غير مقفى ، ومحتشم فى اســـتعماله للاستعارة .

ويقابله مثل المانى ناشىء فى بيئة اجتماعية أدنى ، وذلك واضــــح من تقفيته ومن سوقية استعارته .

(*) نخالف المؤلف فى نظرته الى تصـــاعد الأمثال فى بلاغتهـــا ، وفقـــا للتصاعد الاجتماعى . ذلك اننا نجد فى أمثال العوام ، والفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة ، ما يصل الى قمة البلاغة . ولكن الخلاف بيننا وبين المؤلف وغيره ، هو : ما هو مدلول هذه البلاغة . وما هى معاييرها ؟ اننا نحيل الى رأى ابن خلدون فى أن البلاغة موجودة فى كل لسان ، وأن مقاييسها نسبتها الى أهل زمانها ، ولغاتهم ـ المترجم .

والمثل الألمانى يقول : « كلما ارتفع القرد بان استه »
Je höher dass der Affe steight je mehr er seinen Hintern Zeight

وكذلك فالمثل اللاتينى : اليوم ملك وغدا ميت .
Hodie rex et cras morietur

أضيفت اليه التقفية عند ترجمته الى الألمانية الدارجة فأصبح : اليوم على العـرش وغـدا فى الرمس Heute rot, morgen tot. .

ولكن اذا كان المثل أو القول السائر ، مقفى فى الأصل ، فلا يسهل الاستغناء عن القافية . فالمثل الفرنسى القديم الذى يقول aller à la queue leu leu قد استبقى كلمة « الذئب » Leu القديمة والصحيحة من حيث النطق ، على حين حلت كلمة lupus المنزوعة من الكتب محل كلمة loup فى اللغة الفرنسية الحديثة .

ومما يلفت النظر فى دراستنا لما يطرأ على الأمثال من تغييرات تلك الاضافات الشعبية ذات المعنى الساخر والتى تدل على شيء من عدم المبالاة بالنسبة للحقيقة المطروحة فى الأمثال .

واليك المثل الألمانى القائل : « ساعة الفجرية فى فمها ملعقة ذهبية ورصاص فى ... » .

Morgenstunde hat Gold im Munde (und Blei im A...)

لكن هذه الاضافات الساخرة ليست من صنع العامة دائما . فلقد سمعت فى فرنسا المأثور التالى ، الذى لا شك فى أن أصله مثقف « الانسان على الانسان ذئب والمراة على المراة اذاب ,والقسيس على القسيس اذاب واذاب » .

Homo homini lupus, femina Feminae lupior, clericus clerico luppissimus.

ويقودنا هذا الى أن نناقش فى اختصار الطابع التعليمى الوعظى للأمثال .

لقد قلنا ان المثل يعبر عن حقيقة عامة أو صدق عام . ويقدر ما تخفف الأمثال من الاتجاه الدعائى فانها تحبذ أو تمدح الفضائل أو تنوه بالمواقف من المشكلات والفكرة الغالبة هى بالطبع فكرة التحذير من الشطط .

والفكرة الغالبة عليها هى أن « خير الأمور الوسط » أى أنها تحذر من التطرف والشطط .

واذا لم نفهم هذه الفكرة الغالبة تعذر علينا أن نفهم حقيقة غريبة وهى أن بعض الأمثال يمكن أن تطرى موقفا معينا ، على حين تحبذ أمثال أخرى موقفا مناقضا (*) .

وهذه الحقيقة الهامة تلقى أضواء شارحة على الاخلاقيات التى تشتمل عليها الأمثال . ولعلنا نكرر هنا ما سبق أن قلناه عن العناصر الاخلاقية فى حكايات الجان .

والحق أن هذا الأمر ينطبق على الأدب الشعبى جميعا . ذلك أن الأمثال لا تنحو نحو مثل عليا صعبة المنال ، بل هى تردد خلاصة التجربة اليومية التى صارت ملكا لمجموعة اجتماعية معينة ، والتى صـــــارت كذلك جزءا لا ينفصل من سلوكها فى حياتها اليومية الجارية ، وذلك بصرف النظر عن سمو المبادىء الأخلاقية أو الدينية التى تلقى من فوق منابر الكنائس فى أيام الآحاد .

ولعل المثل الانجليزى القائل أن « الصدقة تبدأ بالبيت » والمثـــل الفرنسى القائل « كل انسان لنفسه والله لنا جميعا » أن يصدما داعية الأخلاق الفاضلة ، ولكن اذا تذكرت الفكرة السابقة وهى فكرة أن « خير الأمور الوسط » رأينا أن هذه الأمثال ليست أنانية مسرفة ، كما قد تبدو ، بل هى تشتمل على « صدق » ينبغى أن يتمثله بعض دعاة الاصلاح الثوريين قبل أن يجأروا بالشكوى من قلة حماس الناس لهم .

وعلى الرغم من أن الأمثال مجهولة المؤلف ، وشعبية الأصـــل ، فلا ينبغى لنا أن نفترض ــ ولو للحظة ــ اننا نستطيع أن نفصل المثل المثقف عن المثل الدارج الشعبى .

نحن لا نستطيع هذا الفصل ، أكثر مما نستطيع أن نفصل العناصر

(*) يعترض بعض علماء الفولكلور على الطريقة التى يفسر بها أمثال هذا المؤلف تناقض الأمثال الشعبية . لان المؤلف يرى أن تناقض الأمثال « حقيقة غريبة » فى حين أن الأمثال تختلف ، وهذا أمر طبيعى ــ باختلاف البيئات الاجتماعية التى أفرزتها فالأمثال التى تحبذ التصاعد الاجتماعى أفرزها مجتمع اقطاعى ، والأمثال الداعية الى انصاف العامة ، أفرزتها بيئة العامة ــ المترجم .

المثقفـــة عن الدارجة ، فى سائر جوانب الفولكلور التى عرضنا لهـــا حتى الآن .

وبالنسبة لفولكلور الأمثال ، كانت هناك دائما عملية أخذ وعطاء بين المأثورات الشعبية والمثقفة . وليس بنا حاجة الى أن نبين الاستعارات التى أخذها من الأمثال الشفاهية ، كتاب عديدون فى شتى العصور ، ومختلف البلدان . ولعل شكسبير وحده أن يمدنا بمجموعة كاملة من الأمثـــال .

غير أن العكس صحيح كذلك ، والكثير من الأمثال ترجع بأصـــولها وتدين بوجودها الى المقطوعات الأدبية . ويكفى أن نذكر المثل المشهور يولد الجبـــل Parturient montes المشتق من خرافة أيسوب . كما أن المثل الفرنسى الذائع : لنعد الى قطيع خرافنا Revenons à nos moutons

يرجع الى مهزلة « المحامى باتلين » Pathelin « والمثل الالمانى : « الضمير السليم وسادة مريحة » Ein gut Gewissen ist ein sanfles Ruhekissen لم يكن ليتصور عقلا ، اذا لم يوجد القصة المرحة التى رواها ماكروبيوس والتى تحكى كيف استولى الامبراطور أغسطس على « وسادة » رجل مات لتوه ، بعد أن عاش ســـنوات عديدة ، غارقا فى الدين .

واذاأردنا أن نعرف الى أى مدى تبرهن الأمثال ــ وهى من أساليب الفولكلور العريقة لانزاع ــ على صدق مزاعم المدرسة الانتروبولوجية ، لكان علينا أن نعترف أن بعض الأمثال تصور ــ بالطبع ــ عادات اجتماعية ومعتقدات دينية ، عفى عليها الزمن ، خاصة فى الأوساط العليا من المجتمعات المتحضرة . فالمثل اللاتينى « اليوم سلطان وغدا جثمان » Rex hodie es et cvas morietur قد يرجع الى ذلك النظام الاجتماعى الذى كان يقضى بتنصيب الملك مؤقتا ، ثم قتله بعد فترة اقصيرة .

وكذلك فمثل « الشيطان له ما تبقى » اشتقاق مؤكد من عادات التضحية التى نملك الكثير من شواهدها الأخرى (١٣٢) .

وقاعدة « لا خير يرجى من الميت » De mortui nil nisi bonum لم تنشأ بالتأكيد من عاطفة السخاء والكرم أو عاطفة الاشفاق ، بل نشأت هذه القاعدة من الخوف من شبح الميت أو روحه مصاصة الدماء .

والقول المـأثور « فى النبيـذ توجـد الحقيقـة » In vino veritas انما يشير الى أسلوب فى التقديس له آثار ظاهرة فى بعض الأجزاء القديمة من التوراة .

والمثل الفرنسى « الأطفال المجانين مرفوع عنهم الحجاب » يبرهن على علو المكانة التى شغلها المجانين دائما فى المجتمعات البدائية .

ولقـد تصبح الأمثـال قصصـا ، ويتم ذلك التحـول بطريقتين متداخلتين ، أشارت الى احداهما دراسة المانية صدرت أخيرا ، على حين ظلت الطريقة الثانية ، ارضا غير مطروقة .

وأما المثـل المـأثور ــ وتلك هى ترجمتى لاصطـلاح Sagwort الألمانى ــ فيشتمل على مثل او قول مثلى ، يتواتر بين الناس ، ويشير الى المتحدث به ، والى المناسبة التى قيل فيها .

وبالنسـبة لانجلترا ثبت أن الأمثـال المـأثورة ظهرت منـذ القرن الثامن ، فبيد Bode يحكى لنا كيف أن الملك الانجلو سكسونى اوزولد ملك نورثمبريا ، حين غلب على أمره ، وشارف الموت ، أخذ يستنزل الرحمات على أرواح رجاله ــ كما يقول المثل ــ من أن ازولد قال وهو يسقط على الأرض :

ــ الهى ! نزل على أرواحهم الرحمة .

والمثل المأثور العادى ، قليل الحظ من البلاغة والتأثير ، لكنه يهدف دائما الى اثارة روح المرح ومن ذلك قول الانجليز :

« قال الرجل وهو يسلخ الفرس بالمثقاب :

ــ الأداة الجيدة ، تؤدى عملا جيدا !

وكذلك قول الألمـان : IK will hoch h'rup, säd den Buren sin Sohn un Keem an'n Galgen.

والأمر الثابت هو أن الأمثال المأثورة تدلنا على أصل معظم انواع الأمثال التى عرضنا لها .

لكن ليس مهما ان تصبح نسبة المثل الى مكان محدد ، كما هى الحال فى نوادر التاريخ الكنسى لبيد . بل يكفى أن نعرف ان العامة كانوا يتيقنون

من اصل المثل أو من المناسبة التى قيل فيها ، وانهم ظلوا يذكرون هذا الأصل وهذه المناسبة ، كلما قالوا المثل .

والنوع الثـانى من الأمثال القصصية ، يتألف من حكايات تتنوع اشكالها ، ترمى الى تفسير أصل مثل من الأمثال أو اقول مثلى .

وقد لا نستطيع لأول وهلة أن ننكر الحادثة التى يرويها المثل ، على حين نجد أنفسنا فى معظم الحالات الأخرى ـ بازاء حكايات شارحة ، موضوعة ، بهدف تفسير أصل المثل أو القول المثلى ، الذى لم يعـد معلوما .

والقسم الثالث ، يتألف مما اخترع كتاب القصص ، ولهذا نعتبره أدبـا .

ومن اقدم الشواهد ما جاء فى التوراة من أن العبرانيين كانوا يقولون « لا يدخل البيت أعمى أو أعرج » وهو قول سائر مبنى على الاعتقاد الخرافى فى أن الذين أعجزهم الله يجلبون النحس وسوء الطالع .

وارتبط هذا القول بقصة استيلاء الملك داود على اورشليم ، فقد كان الظن أن قلعة اورشليم تستعصى على الغزو ، حتى شاع أن الذين كانوا يحمـونها ، ويدافعون عنها ، كانوا حراسا شدادا ، من العميـان والعـرج .

وروى أهل القلعة المحاصرة ، تلك الشائعة لداود وهم يسخـرون منـه .

وعندما استولى داود على القلعة ، قيل أنه أمر بقتل العميان والعرج وهكذا انقلبت السخرية على أهل القلعة المحاصرة أنفسهم .

ولهذا نشأ المثل القائل ـ كما تزعم القصة ـ من أنه « لا يدخل البيت أعمى أو أعرج » .

ولا نزاع فى ان الصلة بين الملك داود والتعبير المثلى ، صلة متهافتة غير قائمة ، وان القصة ليست الا حكاية موضوعة ملفقة هدفها أن تشرح أسباب نشوء هذا المثل .

غير أن هذا الأمر ، لا يصح فى كل حالة ، ويكفى أن نذكر القـول

الفرنسى « اعمل فى خدمة ملك بروسيا » الذى نعرف أن فولتير صنعه بعد أن عاش فترة من الزمن فى بلاط فردريك الثانى .

ولقد تتيح لنا ، تقلبات حظ الأديب الفرنسى فى بوتسدام ، ومعاركه العديدة الأدبية والقانونية ، التى وصلت الى قمتها فى نقده اللاذع لمابرتيوس ثم اختلافه مع ولى نعمتـه الملـكى ، وحادثة فرانكفورت الشـهيرة ـ كل ذلك يتيح لنـا اقاصيص مثلية ، أصيلة ، لا سبيل الى الشك فى صدقها التاريخى .

والعصر الكلاسى ، لهذا النوع من المثل القصصى ، هو عصر النهضة الايطالية . الذى شهد ميلاد مجموعات كاملة من هـذا القصص ، واسبقها زمنا ، مجموعة « أصل الأمثال » (*) لانطونيو كورنازانو من بياسـنزا .

وهذه المجموعة تتألف من عشر حكايات ، منظومة باللاتينية الصقلية، على غرار « الدمبيت » وقد اقيلت عام ١٤٥٥ ، ثم نشرت عام ١٥٠٣ ، بعد وفاة المؤلف . ثم ترجمت بعد ذلك الى الايطالية بعنـوان « الأمثال فى الحقيقة » .

وأحرزت ذيوعا أكبر ، فى شكلها ذلك .

ولم يكن لانطونيو كورنازانو فضل السبق الى الفكرة الأسـاسية فى هذه الناحية، فقبله انتشرت فى ايطاليا منظومة قصصية بعنوان « قصة ماريا ورافينا » (**) .

وكانت ترمى الى تفسير التعبير المثلى القائل « لنبحث عن ماريا فى رافنـا » (***) .

أى أن الانسان يطلب المتاعب لنفسه ، أو يطلب لها العار » .

وفى أواخر القرن الخامس عشر أنشأ فرانسسكو بللو الذى يسمى ب « شيشرون فرارا » قصة منظومة ، ترمى لنفس الغاية (١٣٢) .

وفى القرن التالى ، وصل هذا الفن الى قمته فى مجموعة معروفة

(*) De Proverbiorum origine

(**) Istoria de Maria per Ravenna

(***) Cercare Maria per Ravenna

تتألف من حكايات مشابهة ، وتلك هى التى جمعها شنزيودى فابريزى Cinzio de' Fabrizi وتركت تأثيرا قويا فى الآداب الأوربية (١٢٤) .

وواضح مما نقلناه عن أصل الكثير من الأمثال والأقوال المثلية ان هذا الأصل ، يصبح مجهولا ، ما أن ينسى الناس القصة الموضوعية لتفسيره .

وهكذا نجد فى ايرلنده ــ حيث ضاعت حكايات خرافية كثيرة ــ عددا وافر من هذه الأقوال الغامضة الأصول .

ولقد سبق لنا أن قلنا أن هذه الصيغة التى تقع فى منطقة الحدود بين الفولكلور والأدب ، قد نالت اهتماما قليلا ــ وهو اهمال يدعو الى الأسف ، ذلك أن المواد التى تناقشها ، ذات أهمية قصوى بالنسبة لمن يدرس الفولكلور والأدب الأوروبى فى شتى مظاهره .

وعلى الحافة بين الفولكلور وعلم اللغويات ، تقع كثرة التعابير المثلية والتشبيهات والموازنات ، التى تملأ جنبات كل لغة متحضرة .

والمتشابهات موجودة فى اللغات المختلفة ، لكن ليس سهلا علينا ، ولن يكون سهلا ، أن نعرف هل نحن بازاء موروثات عن اللاتينية ، أم نحن بازاء أساليب نشأت تلقائيا من ذات نفسها ، أم انها استعارات متبادلة بين اللغات .

ولقد نرجح مثلا أن القول الفرنسى « اصعد وتعجب » (*) (وهو الذى يعد به الانسان عشية الانتخاب) والقول الألمانى « الجبال الذهبية » (**) مشتقان من القول اللاتيتى « اصعد واسمع » (***)

غير انه فى حالة المثل الفرنسى القائل « ينام كالسنجاب » والمثل الايطالى dormire come un ghiro لا ندرى ما اذا كان التشبيه موجودا فى اللاتينية ــ حيث نجد كلمة glis لكنها لا تدل على شكل الحيوان ذاك ــ أو ان التشبيه ــ وهذا اشد احتمالا ــ قد صيغ فى مناطق الألب ، ومنها هاجر وتعمق ايطاليا وفرنسا .

(*) Monts et merveilles

(**) Goldéne Berge

(***) Montes auri

واذا نحينا جانبا مسألة الهجرة والانتشار ، فان جانبا من هـــذه التعابير ، صار غامضا ، اما بسبب التغييرات التى طرات على اللغـة ، أو بسبب التحويرات التى أصابت النصوص . فالمثل الألمانى القائل « يشـــترى الخنزير فى غرارة » (*) لا يدل على معنى ، لأننا لا نشترى فى غرارات . ولعله كان فى الأصل « يشترى الأرنب فى غرارة » ثم صار الأرنب قطا ، الأمر الذى يثير ثائرة المشترى .

وثمة نوع هام للغاية من أنواع الأمثال ، جدير بأن نذكره آخـــر ما نذكر — وذلك هو الصيغ القانونية التى تؤلف جسم القانون المتوارث فى كل مجتمع أمى .

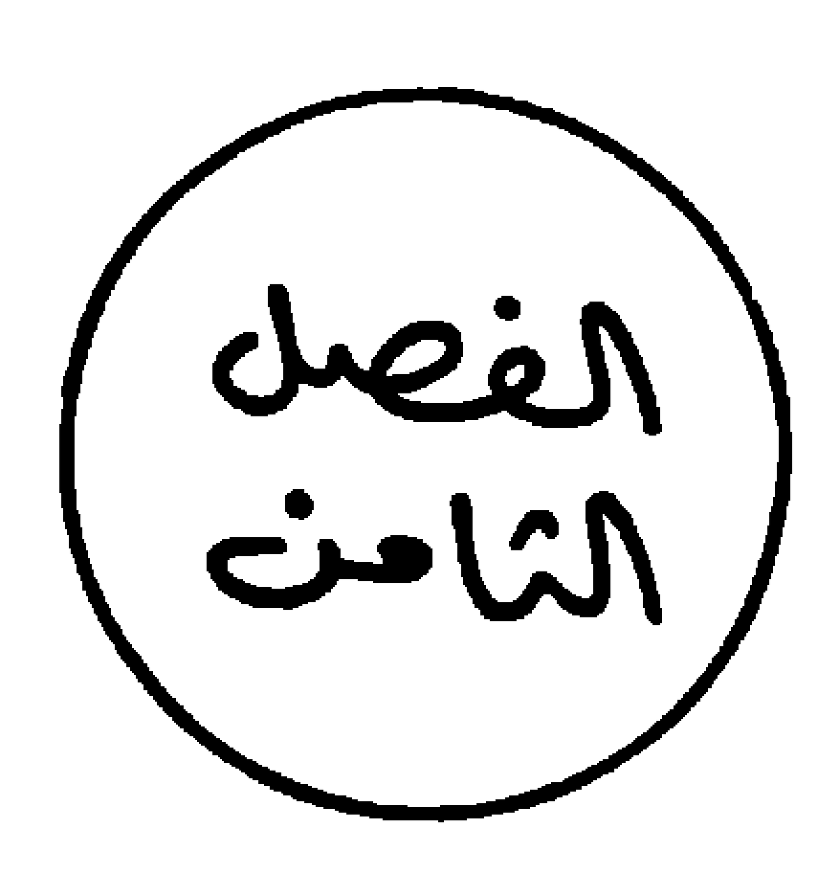
وجانب كبير من القانون الانجليزى العام ما يزال حتى يومنا هـذا ، يشتمل على ذخائر من هذه الاقوال الحكمية ، المتواترة شفاها عن آجيال ماضيـــة .

ولقد نشأ القانون الرومانى على هذا النحو كذلك .

وكان بوسعنا — حتى وقت غير بعيد — أن نلاحظ سريان هذا النظام عند الماوورى وأهل زيلندة الجديدة .

وليس بنا كبير حاجة أن نمضى فى مناقشة هذا الموضوع على نحو أوفى ، فقد عالجه من قبيل مؤسس الفولكلور التيوتونى نفسه ويعنى به يعقوب جريمة فى كتابه Rechtsaltertümer .

(*) Die Katze im Sacke haufen



الاغنية الفلكلورية

● الأغنية الفولكلورية :

الفرق بين الأغنية الفولكلورية والأغنية الشعبية . اثر استعمال الشـعراء لمقاطع من الأغانى الفولكلورية . اغانى الشعراء الطروبيين . انتشارها وذيوعها فى مناطق واسعة برغم الحدود الجغرافية أو اللغوية .
خصائصها ـ العنصر الذاتى أو الغنائى ـ العنصر الميلودرامى ـ الانفعالية .

اسلوبها . الحانها وتاثرها بالمؤلفات الموسيقية المثقفة .

اثر الحركات الدينية على الأغنية الفولكلورية فى اوروبا .

انواعها . اغانى الحب . أغانى الزيارة الليلية وتعبيرها عن نظام زواج كان موجودا قبل العصر الآرى .

ـ اغانى الفراق أو الوداع ـ الأغانى الرعوية . الأغانى المصاحبة للرقص البالاتا ـ الاسترامبوتو ـ اغانى الشكوى (البكائيات) .

أغانى العمل عند المرأة ـ أغانى الغزل ـ وانتزاح الماء ، والطحن على الرحى .

اغانى الزوجات التعيسات .

اغانى انامة الأطفال .

أغانى العمل عند الرجال وكتاب كارل بوخر النغـم والعمـل .

اغانى المناسبات العائلية والشعائر .

أغانى الشرب ـ الرمى فى الأغانى ـ الأغانى الفولكلورية ابداعات فردية .

● الأغنية الفولكلورية

الأغنية الفولكلورية أغنيـــة (أى قصيدة غنـائية ملحنة) مجهولة النشأة ، ظهرت بين أناس أميين ، فى الأزمان الماضية ولبثت تجـــرى فى الاستعمال لفتـــرة ملحوظة من الزمن ، هى فترة قرون متوالية فى العادة .

وهكذا ، تتميز الأغنية الفولكلورية عن الأغنية الشعبية ـ أى تلك الأغنية ذات الأصل الأدبى البحت (ولو أننا لا نعرف هذا الأصـــل بتفاصيله الكاملة) والتى ذاعت بين اناس أميين ، لم يهتموا بأمر مؤلفها أو ملحنها .

غير انه يصعب غالبا ان نضع حدا فاصلا فى الحياة الواقعيـــة بين الاغنية الفولكلورية والاغنية الشعبية ، ومن السائغ عقلا ، أن نجد ان الـكثير مما نعتبره أغانى فولـكلورية ، كان فى الأصل أغانى شعبية ، غير أنه ليس لدينا كتابات تدلنا على مؤلفهـــا ، أو المناســـبة التى وضعت فيها .

وفى هذه الحالة ، يكفى ذيوعها واستمرارها فى التداول ، لاعتبارها اغنية فولكلورية . فأغنية « كنتكى هوم » الأمريكية ـ اذا ـ أغنيـــة فولكلورية أصيلة للبيض والسود على السواء ، وذلك بالرغم من أننا نظن انها نشأت أول ما نشأت كصيحة سوداء ، فى بعض بيئات المجتمـــع الأمريكى .

وأما أغانى « أولد لانج سن » و « هوم سويت هوم » و « لفز سويت سونج » (*) فأغانى شعبية لا غير .

(*) آثرنا أن ننقل مطالع هذه الأغانى دون ترجمة وهى فى الانجليزية

Auld Lang Syne, Love's sweet song & Home, sweet home.

لكن اذا أضاعت كارثة الكتابات الخاصة بهذه الأغانى بينما لبثت الأغانى تجرى بين الأميين ، فانها تصبح أغانى فولكلورية أصيلة .

وعلى هذا ، فالتمييز بين الأغنية الفولكلورية والأغنية الشعبية ، تمييز عارض ، وليس ناشئا من طبيعها نوعهما .

ومن الحق ، أنه فى حالة الاغنية الشعبية ، يرافق الكتابات الأدبية ذات الطابع التاريخى ، نوع من التحديد والثبات فى الشكل والمحتوى ، ويدعمه توالى الطبعات.

ويصدق هذا الأمر كذلك على الأغانى الشعبية الأصيلة ، فى الأزمنة الحديثة على الأقل ، حيث نالت ذيوعا أكثر مما كان لها فى الماضى ، وذلك بسبب الحركات الوطنية المختلفة . غير أن التداول كان شفاهيا خالصا ، فيما مضى ، فلم يخطــر على بال أحــد فكرة تثبيت النص وتدوينه .

ولقد تتعقد المشكلة فى حالات اخرى ، ذلك أن بعض الشعراء ، عمدوا فى القرن الثامن عشر ، الى اعادة نظم الاغانى الفولكلورية ، فكسوها مسحة ادبية . وكانت النتيجة ان استطاعت النصوص الجــديدة ، التى ظاهرتها الطباعة والقيمة الفنية ــ أن تزحزح النصوص الفولكلورية القديمة ، الى أن أختفت تماما .

وخير مثال انجليزى ــ أو على الأحرى خير مثال اســكتلندى هو الشاعر روبرت بيرنز (Robert Burns)

وفى ألمانيا نجد أن أغنية « وردة المروج الصغيرة » Heidenröslien لجوته ، والمبنية على أساس أغنية الزاسية قديمة ، هى النص المعتمد ، ليس فى ألمانيا وحدها ، بل فى منطقة الالزاس أيضا .

ولقد يزيد تعقيد المشكلة ، حتى ليتعذر علينا الآن ان نعرف نصيب الاضافات الأدبية من الأغنية .

وهكذا ، نجد أن قصيدة Lenore لبورجر Bürger منظومة على أساس قصة شعرية قديمة ، لكن تأثيرها ملموس فى أغلب الأغانى التى تعالج هذا الموضوع .

ونستطيع أن نقول ذات الشىء عن أغنيــة الزفاف Freischutz لوبر (Weber) التى أحرز لحنها ذيوعا شديدا نادرا فى ألمانيا والنمسا ، منذ قرن تقريبا .

ولا يكفى أن تكون المؤلفة الغنائية مجهولة الأصل لتحويل الأغنية الشعبية الى اغنية فولكلورية . فمن المعروف أن النشيد القومى البريطانى شائع المؤلف او مجهوله ، ولكنا لا نستطيع أن نعتبره أغنية فولكلورية .

ومن ناحية اخرى نجد ان للمارسيليز مؤلفا معروفا هو روجيه ده ليل غير أنه يكاد يعتبر اغنية فولكلورية ، ما بقيت الفكرة الكامنة وراءه حية .

غير ان الأغنية الفولكلورية الأصيلة تفترض الا يحيط بها الرسميات ، او التأثيرات المفروضة من سلطة أعلى .

ولهذا فسائر الأناشيد الوطنية من صميم الأدب ، وتقع فى مجال مؤرخ الآداب . فاذا لم تبلغ هذه الأناشيد منزلة فنية عالية ، فذلك شأنها الخاص ، وما على الفولكلور الا أن يتخفف منها .

ومن الأمور الواضحة كذلك ان جانبا مما نعتبره الآن أغانى فولكلورية قديمة نشأ أصلا ، ـ فيما نرجح ـ عن أصول أدبية ، ثم ضاعت الشواهد التى تدل عليها .

ويجب ان تكون الحقيقة التالية ماثلة فى أذهاننا وتلك هى انه اذا كان على العامة أن تختار بين اتباع ما يناسب غرضا خاصا وبين انشاء أدب جديد يناسب هذا الغرض ، فان العامة يؤثرون اليوم كعادتهم الطريق الأول ، سائرين على المنوال الذى يكلفهم أقل جهد .

وهكذا ، يهبط الانتاج الأدبى فى فترات النشاط الأدبى الشديد ، من الطبقات التى وضع لها هذا الانتاج الى الطبقات الدنيا التى تشمل الرجل العادى .

وحين كانت اغانى الشعراء الطروبيين فى العصور الوسطى تسحر ألباب الفرسان والسيدات بل حين كفت عن اثارة اعجابهم لبثت تستهوى الفلاحين وما زلنا نستطيع أن نسمع فى المناطق البعيدة من ايرلندا ومن أفواه العامة بعض تلك القصائد الأدبية الرفيعة التى أنشأها فى القرن الثامن عشر شعراء مثل يوجين أوسليفان (*) وبريان ماريان (**) ولو أنه من الخير لنا الا نتحدث عن التغييرات التى طرأت عليها (١٣٥) .

(*) Eugen O'Sullivan

(**) Beriam Merriman.

وكانت تلك هى الحال أيضا فى العصور الوسطى وهناك قصة متداولة فى أماكن كثيرة من أوربا ومنسوبة الى شعراء مختلفين منهـــم دانتى الليجيرى نفسه وتقول هذه الحكاية أن شاعرا سمع حدادا يغنى احدى اغانيه بطريقةسيئة للغاية فقلب الشاعر أدوات الحداد رأسا على عقب ، وحين سأله الحداد المذهول عما دعاه الى ذلك قال له الشاعر انه حريص على انتاجه حرص الحداد على أدوات عمله وأخذ عليه عهود الا يغنى اغانيه الا اذا تأكد أنه يستطيع غناءها بطريقة صحيحة .

وهذه الحكاية الصغيرة لا تدع لنا مجالا للشك فى وجود عـــلاقات متبادلة بين الفئات الاجتماعية العالية والدنيا كما لا تدع لنا مجالا للشك فى أن الطبقات الدنيا كانت تستعير الكثير من الانتاج الأدبى الذى تنشئه الطبقات العليا .

وأما فى عصرنا الحديث فقد أصبحت الأغنية الفلكلورية جنسا أدبيا لا حياة فيه ، وذلك لأن رجال الأدب يتجهون الآن الى تزويد فئات المجتمع الحديث بشتى أنواعها بحاجاتهم والحق أنهم فعلوا ذلك طـــوال المائتى سنة الأخيرة .

وتنتشر الأغانى الفولكلورية والأغانى الشعبية بأســـهل مما تنتشر الحكايات ، ذلك أن الأنغام تفرد لها أجنحتها ، بل أن الحدود الوطنيـــة واللغوية لا تؤلف حواجز تستعصى على العبور . وهكذا نجد أن اغنيـــة المانية سياسية وضعت عام ١٨٤٨ وكان بطلها القائد الديمقراطى الألمانى هكر وهو رجل مثالى متجرد من الأغراض الشخصية أراد اقامة جمهورية المانية ــ قد ذاعت فى سويسرا .

وبوسعنا أن نسمع أغنية « بلدى نورمانديا » الفرنسية ، بلحنهـــا الفرنسى الأصلى ، ذائعة فى أغلب الأجزاء من شمال المانيا ، وقد ترجمت ترجمة أدبية لا نزاع .

وأغرب من هذا أن نجد الأغنية الهولندية المعروفة عن بيت هاين Piet Hein والتى تقول :

Piet Hein, Piet Hein,

Zijn naam is Klijn,

Zijn daden zijn daden zijn groot,

Hij heeft genomen de zilvervloot.

والتى تعود الى أيام أن كانت هولندة دولة عظمى ، نجـدها ذائعة حتى يومنا هذا فى دوقية أولدنبرج العظمى سابقا .

واذا شئنا الدقة فى حديثنا قلنا اننا نفترض نشوء شعر فولكلورى أصيل ، متى تهيأت له ظروف محددة ، أى حين لا تكون العامية جارية على السنة الطبقات العليا ، أو حين لا تكون لغة أدبية اطلاقا ، أو حين يصبح الانتاج الأدبى مفتعلا جامدا ، بحيث يحتاج فهمه واستيعابه ، الى تعليم خــــاص (*) .

وأول نوع من هذه الظروف أتيح للغة الانجليزية فيما بين الغــزو النورماندى وعهد تشوسر ، وأتيح كذلك للغات الرومانثية فيما بين سقوط الامبراطورية والحرب الصليبية الأولى .

واما النوع الثانى من هذه الظروف فيصدق على اللغة الألمانية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وينطبق على اللغة الفرنسية بين عصر شعراء البالادا وفترة الثورة الفرنسية العظمى .

واذا ، توفر توازن بين هذه الظروف وتلك ، ألقت آداب الطبقات العليا بظلالها على فولكلور الطبقات الدنيا .

والأغنية الفولكلورية ، غنائية فىجوهرها ، أى انها ذاتية فى المقامالأول.

وهى تتناول موضوعها بطريقة جادة ، ولقد تنقصها ظلال العواطف أو تنويع درجاتها ، ثم ان ألوانها جهيرة ، شأن الألوان فى الصناعاتالريفية.

ومزاجها العام ، ليس فرحا ، أو قل أنه ليس مزاجا يستخفه الفرح .

بل أن الكثير من الأغانى الفولكلورية « ميلودرامى » وبعضها الآخر يرفرف عليه جو من قسوة الحياة ومرارتها ان لم يكن من مأساتها .

(*) يتمادى المؤلف فى الحاق الادب بالطبقات العالية وحدها . فما لم تستخدم هذه الطبقات لغة الشعب ، فان اللغة الشعبية تصبح فى رايه لغة غير أدبية .

وهذا الراى باطل من اساسه ويناقض كل المناقضة خصائص الفن والأدب . فليس الأدب ادبا لانه صادر من فئة اجتماعية رفيعة . بل يكتسب الخلق الأدبى مقوماته ، من معين المجتمع على اتساعه ، ومن قيم انشائه الفنية ـ المترجم .

والأغنية الفولكلورية انفعالية للغاية . غير أن انفعالاتها بسيطة ، فليس فيها « مشكلات » أو « صراعات » ودع عنك التحليل النفسى الذاتى أو التأمل الذاتى .

وهناك اغان عديدة ، تفصح برقة انغامها ، عن أنها من صنع المرأة .

واذا كان كله ينطبق ــ بعامة ــ على الأغانى الفولكلورية الأصيلة ــ التى غاب عنها أصلها الأدبى ، فانه لا ينطبق هذا الانطباق على الأغانى الفولكلورية التى نملك أسبابا للظن بأنها هبطت من مستويات اجتماعية عليا ، ثم لايكاد ينطبق على الأغانى الشعبية .

وهذان النوعان : الأغنية الشعبية والأغنية الفولكلورية المنحدرة من مستويات اجتماعية عالية ــ تفصحان عن الاتجاهات والميول التى لاحقت عالم الأدب الذى أنشئت له تلك الأغانى أول ما أنشئت .

غير أننا نجد أن عملية هبوطها من مستوياتها العالية ، قد رافقتها عمليات تحوير وتنسيق واعادة صياغة .

ولقد لوحظ مثلا ان العديد من الأغانى الشعبية التى كانت رائجة فى المانيا أثناء القرن التاسع عشر ، كانت تختلف فى نبراتها عن الأغانى الفولكلورية التقليدية بل كانت تختلف عن الشعر الغنائى للحركة الابتداعية ــ ذلك أن هذه الأغانى الألمانية ــ كانت جياشة بالعاطفة المفتعلة ، والرقة المسرفة وان لم تكن متحررة من كل ما يسميه الفرنسيون برفاهة الحس .

وعند فحصها فحصا دقيقا ، نرى أنها فى أصلها قصائد ترجع الى القرن الثامن عشر ، وانها عند نشوئها كانت تعاصر جان جاك روسو وحياة الرعى للتويلرى ، التى وجدت مجالها المناسب فى انغام موزارت ولوحات جويا .

وهذه الأغانى تشبه الزهور التى تنمو فى حديقة فلاح عصرى . وكانت تعتبر ذات فائدة طبية كبيرة ، كما يدلنا على ذلك أسماؤها اللاتينية الدارجة .

غير أن علوم الطب اعرضت عنها ، لكنها عاشت بعد ذلك بين أناس لا يرون معنى لكلمة العلم .

وأسلوب الأغنية الفولكلورية بسيط جدا .

انه أسلوب المربعات المفضلة . ويعقب الدور المربع ، مذهب فى العـــادة .

وقد يكون الايقاع منضبطا لكن النظم لا يكون صحيحا فى العادة .

وفى بعض من أقدم الأغانى الفولكلورية ، يكفى التوافق الصوتى .

وما يصدق على نصوص الأغانى يصدق على الحانها . التى قد لا تكون اصيلة فى بعض الحالات ، بل مأخوذة من ألحان مؤلفات موســـيقية مثقفة (*) .

ولعل الأغانى الفولكلورية الأحـــدث عمرا أن تتبنى الحان أغان أقـــدم منها ، يعرفها المغنى .

ولعل نغمة دارجة تضاف الى لحن متقن .

وبوسعنا أن نميز ألحان اغانى القرن الثامن عشر ، وخاصة ألحان موزارت فى بعض الأغانى الفولكلورية الألمانية التى كانت ذائعة فى القـــرن التاسع عشر .

ويخطر على بالنـــا كذلك مثـــال اغنيـــة (Home, Sweet home) الانجليزية.

واغلب الأغانى الفولكلورية الذائعة الآن فى أوروبا ، تغنى على ألحان مختلفة ، تتفاوت مع انتقالنا من لهجة الى لهجة . واذا قارنا هـــذه الألحان المختلفة بعضها الى بعض ، استطعنا أن نعرف النمط الأصلى للاغنية ، واتيح لنا كذلك أن نحيط بتاريخ انشاء الأغنية ومكان نشوئها .

ولعل التغييرات التى تظهرها الصيغ المختلفة أن تزيد على التغييرات التى تطرأ على حكايات الجان . فالأبيات التى تشتمل على تعابير ، صعبة غامضة ، تخلى مكانها لأبيات أخرى .

واذا كانت ضوابط الشعر تفرض نفسها على الخيال ، فان التغييرات تصبح سخفا وهراء فى بعض الأحيان .

(*) يلاحظ اننا نقابل بين مصطلحين ـ ونحن نترجم عن المؤلف ـ الأول مصطلح « الفن المثقف » Cultured Art ، والثانى « الفن الدارج » Popular art والفرق بينهما يكون فى مستوى التعليم والتحضر ـ المترجم .

ونحن نفهم استياء دانتي على ضوء الاعتبارات السابقة .

ولم يكن انتشـــار الأغاني الفولكلورية في حاجة الى تفاعل الأمم الحديث الذي نعرف انه لم يكن موجودا في الأزمنة الغابرة . بل كان انتشارها ، منوطا بجماعة قليلة من الناس ، لا تمتاز باستقرار في أماكنها. فأكثر هؤلاء الناس كانوا يرتحلون ويتنقلون ، يحترفون الغناء وعزف الموسيقى ويتفاوتون في المستوى والطموح .

ولم ينقرضوا بانتهاء العصور الوسطى ، بل لعلهم لم يختفوا بعد ، وليست ثمة مبالغة في أن نقول ان اكثر الفضل في انتشار هذه الأغاني ، يعود اليهم .

وفي القرن التاسع عشر وحين ظهر الاهتمام بالأغاني الفولكلورية التي أولتها الطبقات العليا في الأجيال السابقة قليل عنايتها ، رأينا مختلف بلاد أوروبا ممثلة في هذه الأغاني .

وكانت اوروبا الكاثوليكية ـ باستثناء ايرلندة ـ قد استبقت من الأغاني الفولكلورية أكثر مما استبقت أوروبا البروتستانتية وذلك اذا نحينا جانبا السويد وفنلندة .

وكانت المانيا الكاثوليكية تحتفظ من هذه الأغاني ، بقـــدر اكبر مما احتفظت به المانيا البروتستانتية .

ولقد يتساءل الانسان عما اذا كانت حركة الاصلاح الديني هي السبب في اختفاء الأغاني الفولكلورية من بعض المناطق . فالأغنية الفولكلورية كانت ما تزال مزدهرة مثلا في انجلترا واسكتلندة أثناء القرن الثامن عشر، كما يدل على ذلك أعمال روبرت بيرنز ، والاشارات العديدة في كتابات سير والترسكوت .

ومعنى ذلك أنها عاشت بعد الارهاب الكرمولي .

ويبدو ان الذي قتل الأغنية الفولكلورية في الجزر البريطانية ، هو التمرد الشديد على اتباعية البروتستانت الذي ظهر في القـــرن الثامن عشر ، وبلغ غايته في القرن التاسع عشر ، وكذلك التطـــور الصناعي السريع ، بما أحدثه من تهجير للسكان من الريف الى الحواضر والمــــدن .

وينبغي ان نعرض بعد ذلك لأنواع الأغنية الفولكلورية التي تعـــرف انها وجدت أثناء التاريخ المعلوم لنا .

وأقدم أنواعها ، هو أغنية الحب ـ هذه العاطفة التى لا يختص بها الانسان بل يستوى معه فيها ، كل الكائنات الحيوانية السامية .

ومع تقدم الحياة الاجتماعية ، ظهرت فروع سائدة ، وانبثقت منها اغصان فرعية .

ونتحدث الآن عن هذه الأغصان فنقول ان من أقدمها ، أغنية الزيارة الليلية (serenata) التى تظهر بأوضح ما تظهر فى كلمات بيرنز :

يا حبيبتى !! هل انت نائمة ؟
ام يقظى ، انى لأتساءل !
فقد قيدنى الحب يدا الى قدم !
وانى لأتشوق لأن ازورك وأدخل البيت !

وعلى هذا النحو أعاد الشاعر الاسكتلندى صياغة أغنية زيارة فلاحية بالليل كانت ذائعة فى اسكتلندة اثناء القرن الثامن عشر .

وكان ذلك جديرا بأن يغضب رجال الكنيسة .

على أن ذلك النوع من الغناء معروف فى أنحاء أوروبا ، ولا نستطيع أن نفصله عن غيره من أغانى الزيارات بالليل المسماه Kiltgang ولم تزل عادة هذه الزيارة سارية فى مناطق الألب التيرولية وسويسرا ومؤداها أن يزور العاشق بيت حبيبته ليلا .

ولقد عارضت الكنيسة هذه العـــادة كما عارضت أغانيها ، ولكن بلا فائدة . بل لقد ازدهرت هذه الأغانى فى اسبانيا أثناء قرنها السابع عشر، على الرغم من اننا نعرف أن سلطة الكنيسة كانت قوية هناك ، ليس فقط بين الطبقات العليا بل بين الفلاحين بالمثل .

وتعتبر العادة التى أشرنا اليها ، وأغانيها ، موروثات باقية تخلفت من مرحلة اجتماعية ، سابقة على العصر الآرى . لم يكن الزوج والزوجـــة يعيشان فيها تحت سقف واحد ، بل كانت الزوجة تبقى فى بيت أهلها ، ويسمح للزوج أن يزورها فى أوقات معلومة .

وهذه المرحلة نعرفها جيدا ، فى كثير من المجتمعات البدائية والبربرية الموجودة حتى اليوم .

وعلى حين نستطيع أن نحدد تاريخ الأغانى الفردية ، نرى أن أنواعها الثانوية وانماطها ترجع الى مرحلة ما قبل التاريخ .

ومن أغانى الزيارات الليلية التى كانت جارية فى جنوب فرنسا ، نشأت أنواع الـ serenata فى العصور الوسطى ، تلك التى نماها الشــعراء الطروبيون ، وكان ذلك على غرار نشوء قصيدة روبرت بيرنز التى أشرنا اليها ، من أغانى الفلاحين فى زمانه .

وثمة نوع قريب من النوع الثانوى المذكور ، وذلك هو أغنية الوداع Aubade (Alba) (١٣٦) يغنيها العاشق فى الفجر ، وتكون أحيانا حوارا بين رجل وامرأة .

وأغنية الوداع تضارع أغنية الزيارة الليلية ، فى عراقتها ، وانتمائها الى نفس المرحلة الاجتماعية ونفس العلاقات بين الرجل والمرأة .

وحين تناول الشعر الغنائى البروفنسالى ، هذه الفكرة أدخــل موضوعا جديدا على شكلها القديم ، وكان الموضوع هو حب الفروسية أو الغزل المحرم . وفيه أصبح الرجــل عاشق المرأة ، وشاعرها ، ولم يصبح الاعداء الذين ينبغى أن يتحاشاهم هم أهلهـا ، بل صــاروا زوجها الغيور .

وبالرغم من ذلك ، لم تطرد الأشكال الفنية الجــديدة ، الشكل أو القالب الفنى القديم .

ويكفى أن نذكر أشهر اغانى الوداع عند الفجر فى اللغة الانجليزية وهى فراق روميو لجولييت .

أكان يجب أن ترحل ؟ النهار لم يقترب بعد.
لقد كان ذلك هو البلبل الصداح ،
وليس طائر النهار .
الذى اخترق سمعك الخائف !
وانه ليغنى كل ليلة ، فوق شجرة الرمان .
صدقنى يا حبيبى ! لقد كان ذلك صوت البلبل .

ولقد تفرع من هذا الأصــل كذلك ، نوع ثانوى ثالث هو الأغـانى الرعوية ـ(pastourelle) (١٣٧) التى نملك شواهد على وجودها فى العصور

القديمة فاشعار ثيوقريطس وبيون المنظومة على أساس ستة تفاعيل فى البيت الواحد ، أبعد ما تكون عن الأغانى الفولكلورية ، غير أنها كانت تنحو فى أعماقها ، منحى الشعر الطروبى فى العصور الوسطى ، أى أنها كانت تستخدم نماذج ريفية بدائية ، ثم تعيد صقلها وانشاءها .

ولم يكن من قبيل الصدفة ، أن يتواتر اشهر نماذج الأغانى الرعوية وأقدمها ، وهو أغنية الوردة الغضة Rosa fresca المعروفة ، من نفس المنطقة : أى من صقلية .

وأما الأغانى الرعوية ، فأساسها تشبب الرجل ، وتغزله ، نهارا وفى الحقول الرحبة الطليقة .

وأما قطعان الخراف ، وصليل أجراسها ، فتزاويق ، واضافات تكتسب أهميتها ، كلما ابتعدت الأغنية عن جذرها الفولكلورى .

وتأتى العاطفة ، خاصة فى الحوار ، سهلة واضحة حتى فى قصائد حجرات الاستقبال وكذلك أغنية Rosa Fresca (الوردة الغضة) التى نظمها بيون فى أواخر عمره التى قد نظن أنها لم تكن شعبية خالصة .

ولعل العاطفة كانت أميل الى القوة منها الى الضعف فى الأغانى الريفية القديمة التى كانت أصل أغانى الرعاة ثم ضاعت .

وأما فى فرنسا أثناء عصرها الوسيط — أو بالأحرى فى العصر البروفانسى — فقد حدث أن امتد هذا النوع الثانوى الى أغراض الغزل والتشبب الفروسى وذلك فى سلسلة متزايدة من القوالب والأساليب المتشابهة ، وكان ذلك بفضل التصورات الاقطاعية للأشياء ، والتى لم تكن موجودة فى الأصول الشعبية لهذه الأغانى فالفارس يأتى وحده على صهوة حصانه ويرى راعية فى حقل قريب ، ويشرع يغازلها ، فتعرض الراعية عن غزله اعراض المتكبر المتعالى ، وحين يلح عليها ، يأتى زوجها أو أخوها ، ويطرد الفارس بعيدا .

ويندر أن نجد نهاية مخالفة لهذه النهاية .

ولقد استطاع هذا الأسلوب أو الشكل الفرنسى ، أن يطرد الأشكال القديمة الشعبية فى فرنسا الحديثة ، غير أن نوعها الأدبى ، لم يندثر من فرنسا الى يومنا هذا ، ويذكر رينيه بازن فى روايته « الأرض التى تموت » أغنية رعوية أصيلة ، ما تزال تغنى فى مصاحبة الرقص .

وهذه الأغنية تقول :(*)

عندما كنت طفلة
صغيرة فى البيت
كنت اذهب الى النافورة
لأقطف الزهور المتسلقة

ولعل شكلا شعبيا ، كان هو الجذر فى أغانى الحروب الصليبية ، وان كانت القوالب الأدبية والفنية ، سادت هذه الأغانى فى فترة قصيرة .

ولكن يبدو أن روح الصيغة الشعبية ، استمرت تعيش بعد ذلك ، حتى لنجد أن الكثير من القصائد ، المتأخرة زمنا والتى يسميها الألمان بالأغانى التى تتحدث عن اللقاء والفراق
Von Scheiden und Meiden und Wieder sechn
اى أغانى الوداع ، ترجع الى أصل شامل هو أغانى الحروب الصليبية .

وينبغى أن نقول على نحو عام أنه مع تزايد الروح الفردية ، تلاشت الأغنية الفولكلورية .

واما الأغنية الجميلة المنظومة باللغة الألمانية القديمة والتى تقول :

Dü bist mîn, ich bin din :
des solt dû gewis sîn,
dû bist beslozzen
in mînem herzen,
verlorn ist daz sluzzelîn ;
dû most immer dar inne sîn,

ـ أنت لى .. أنا لك
هذا ما ينبغى ان نتأكد منه .

(*) quand j'étais une fille
Pour cueilliv du cresson
M'en fus à la fontaine
Petite à la maison,

أنت ساكن فى قلبى
ضاع المفتاح وينبغى أن تبقى فيه

فأشباهها الشعبية غير نادرة ، لكنها ليست شعبية خالصة ، بل هى اغنيات انحدرت من مستواها الفنى والاجتماعى الرفيع الى المستوى الدارج .

وتضفى هذه الصفة الخالدة التى تتصف بها الأشعار الغنائية الفنية على أغان كثيرة ــ لونا شعبيا ، غير أنها لا تجعلها أغانى شعبية أصيلة .

وتعتبر أغانى الرقص من الأغانى الشعبية الأصيلة وخاصة فى موروثاتها الحديثـــة .

وهذه الأغانى ، أشعار غزل ذاتية .

وتفصح أسماء بعض الأشكال الأدبية عن هذا الأصل ، ومن أشهرها وأكثرها ذيوعا البالاتا Ballata الموجودة فى جنوب أوروبا . فالبالاتا الأدبية مشتقة من بالاتا شعبية ، أى من أغنية وضعت أصلا لتصاحب الرقص.

وعلى الرغم من اسمها اللاتينى ، فالرقصة تعود بأصلها الى ما قبل عهد الرومان على الأرجح ، وتنتمى الى شعوب غرب البحـــر الأبيض المتوســـط .

ويصدق هذا الكلام أيضا على strambotto الايطالية وهى قالب غنائى اشتهر فى عصر النهضة الايطالية لكنه يرجع الى أصول دارجة .

وتعتبر schnadahûufl (وهى أغنية شعبية المانية رباعية الأبيات) البافارية الموجودة فى أوروبا الحديثة ، موروثا هاما ، كما أنها مثل جيد ، وتفسير كاف لمسألة أخرى فى هذا المجال ، ونعنى بها مسألة الارتجال .

وال schnadahüpfl مقطعات تتألف كل واحدة منها من أربعة أبيات تتوالى قوافيهـــا على نحو : أ ــ ب ــ د ــ ب وفى كل بيت منها اربع تفاعيل ، وتسكين بين التفعيلتين : الثانية والثالثة .

ولهذا كان القالب المصطلح عليه ، أنسب ما يكون للارتجال ، وأقرب ما يكون الى الاستعمال الدارج .

وكان أغلب هذه الأغانى قليل البقاء ، ولم تكتب الحياة الا لخيرها وارفعها .

وأما التاليف الفردى ، فكان ينطوى فى النسيان السريع ، لا تعلق به أهمية ولا يكون له دور ، وذلك بالرغم من اننا نعرف أنه كان ثمة مؤلفون محترفون ينظمون هذه الأغانى .

وأما ارتجال هذا النوع من الأغانى فيفسر لنا كيف انه لم يكن لها نماذج أدبية تنحو على منوالها ، وكان سبب ذلك بالغ البساطة وهو أنه لم يكن هناك أدب .

ومن اقدم أنواع الشعر الشعبى ، منظومات الشكوى التى تعود بجذورها الى مراسم الجناز المقطوع بوجودها فى كل نوع من أنواع النظم الاجتماعية .

ولا يخالجنا أدنى شك ، فى أن الفكرة الكامنة وراء مراسم الجناز ، هى الخوف من الموتى ، ولهذا قيل « لن تحصل على خير من الموتى » (De morluis nil nisi bonum) ، وعلى أساس هذه القاعدة قامت أغانى الشكوى ، وكذلك المراثى الجنائزية الحديثة ، ثم صارت أغنية الشكوى بكائية على الميت .

والـ Coronach الغالية والبالاتا الكورسيكية ليستا الا موروثتين أوروبيتين من العادة القديمة التى ينبغى أن نعتبرها أهم جذور الشعر الملحمى كله .

وقد تركت آثارها ــ بوصفها صيغة غنائية خالصة ــ على أقدم آداب أوروبا ونعنى به الأدب البرفنسالى القديم . واما الشكوى الأدبية فاشتقاق لا نزاع فيه من المراثى الجنائزية . والغالب أن تكون الشكائيات من ثمار الارتجال ، وذلك بالرغم من أن مرتجليها محترفون ، ومثالها « الندابات » الكورسيكيات (*) .

والذى لا شك فيه أن النساء اخترن لهذا العمل ، لقوة خيالهن الملحوظة ويقودنا هذا الى الحديث عن أنواع أخرى من الشعر ارتبطت بالمرأة وتلك هى أغانى النسيج ، وأغانى انتزاح الماء وحمله بواسطة النساء .

وأما اغنية النسيج ، فاغنية عمل فى المقام الأول . اى أن موسيقاها

(*) Corsican voceratrici

الشعرية موضوعة لتصاحب ايقاع عمل معين ، وسوف نعود للحديث عنها فيما بعد .

وكانت هذه الأغانى تغنيها النساء وهن جالسات أمام الأنوال حين كان الغزل والنسج من الصناعات المنزلية الملقاة على عاتق الزوجات والبنات والأماء من أهل البيت .

ولقد شهد الكتاب القدماء بأن ذلك كان هو الشأن فى العصور الغابرة ، بيد أن النماذج التى وصلتنا من هذه الأغانى تعود الى العصور الوسطى .

وتصور اغانى الغزل والنسج البطلة بصورة المرأة الحامل التى هجرها زوجها أو حبيبها .

وتستدعى هذه الحقيقة ، كما يستدعى هذا الموضوع بعض التفسير .

فمنذ سنوات ، وضع لويس دراسة ممتعة حاول فيها أن يفسر الناحيتين على ضوء تأثير الكتابات اليهودية المنحولة فى أغانى النسيج التى تحكى أن مريم كانت تنسج - فى ظروف مشابهة - ستارا فى معبد باورلشليم .

وهذه النظرية على سذاجتها تخطىء أساسا فى انها تحاول أن تفسر المجهول بالمجهول ، فليس لدينا أدنى تفسير لقصص الكتابات اليهودية المنحولة التى تخالف أفكار اليهودية ومأثوراتها فيما يخص المعبد الثالث .

ثم أن لأغانى النسيج ، وهذه المأثورات اليهودية والمسيحية فيمابعد، جذروا مشتركة تعود الى عصور ما قبل التاريخ والى تلك النظم الانسانية التى كانت تسمح للزوج بأن يعاشر زوجته ثم يتركها لتعيش مع أهلها ، فى حين يعيش هو مع أهله وأقربائه .

وعندما اختفى هذا التقليد سريعا فى العصور الآرية علقت هذه العادة ببعض الطقوس الدينية ، وصاحبتها قصص عبادة الأسلاف ، ومنها قصة بيرزيفون Persephone التى كانت تغزل أو تنسج فى كهفها ، ثم ولد الاله الطفل زاجريوس Zagreus وعاشت هذه الموروثات كذلك فى الشرق الأدنى ، حيث كانت راهبات بعض المعابد - ممن لم يعرف

عنهن التمسك بالعفة الجنسية ــ تعملن فى نسج الاردية للمقــدسات ، التى صارت عند انتقالها الى القصص اليهودى ــ ستائر المعبد .

وهكذا ، نجد لدينا تسلسلا متماثلا فى الشرق والغرب .

وأما فى الشرق ، فينتهى هذا الاضطراد الى الأخبار التى ترويها مأثورات ــ اليهودية المنحولة واما فى الغرب ، فينتهى هذا الاضطراد الى اغانى النسيج فى العصور الوسطى .

وتقتــرب أغانى النساء حاملات المياه فى موضــوعها من أغانى النســيج .

ونحن هنا بازاء اغنية عمل ، ما فى ذلك ريب .

وكانت مهمة جلب الماء وانتزاحه من آبار القرى ، تقع على كاهل نساء البيت ، فى الشرق ، ماضيه وحاضره .

وكانت آبار القرى ــ كما هى الآن فى الشرق ــ انسب الأماكن للقاء الرجال والنساء ، ونجد فى التوراة قادمين يفدون على الآبار ، ينتظرون مجىء الفتيات ، ليلتقطوا منهن ما يريدون من معلومات . فاذا وصفت الفتاة فى اغانى الآبار نفسها بانها امرأة حامل هجرها زوجها أو حبيبها ، فان هذه الصورة المختلفة ، لم تكن الا نسخة دقيقة ، لتفاصيــل كثيرة واقعيــة .

والكتاب الأقدمون لا يتركون لنا مجالا للشك فى أن حادثات خطف النساء وسبيهن من أماكن الآبار ، كانت شائعة فى عالم البحر الأبيض المتوســط أثناء مراحله الأولى .

وهناك نوع آخر ، من اغانى العمل صنعته المراة خاصة ، وهــذا النوع تمثله أغانى الطحن بالرحى Cantilenae molares ، كما يسميها كتاب العصور الوسطى .

وكانت أقدم الطواحين ، واكثرها بدائية ، تعود الى العصر الحجرى، وهى الرحى الصغيرة التى تدار باليد وتطحن المرأة عليها القمح ، فتدقه وتطحنه بمهراس يدوى .

واذا كانت الرحى كبيرة ، أو كانت تسع عمــل نســاء البيت ، أو العشيرة ، تولت العمل جماعات من النساء ، وصاحبنه بالغناء فاشرن

فى اغانيهن الى نوع عملهن . ولهذا كانت النساء فيما غبر من تاريخ ، تغنى اغنية عن الملك بيتاكوس Pittakos الذى قضى عليه بأن يطحن بالرحى لسبب لا نعرفه .

وارتبطت أغانى طحن أخرى باسم كيزيكوس Zyzikos ، وقد كان ملكا أسطوريا لميزيا ، اقترنت باسمه كذلك حكايات مختلفة عن العصور الذهبيـة .

غير أن هذه العصور الذهبية ، أنهتها فجأة ، غارة ــ معادية جاءت ــ من ناحية البحر ولبثت النساء تغنين وهن يدرن الرحى وينشجن بأصوات جنائزية ، على المجد الغابر . والأيام المشهودة الماضية .

ولا تعوزنا الأمثلة النظيرة فى الشمال الأوروبى . فنحن لا نجد أصلا آخر غير هذا الأصل للقصة ، الأسطورية عن منجا وفنجا ، (*) العملاقتين اللتين ، أجبرهما الملك فروكى ــ وكان من ملوك العصور الذهبية ــ على أن تطحنا له السعادة والثراء ، وقد جلب هذا الملك على نفسه الهلاك فى النهاية .

وكانت اغنية جروتى Grotti اغنية طحن فى الأصل ، تغنيها النساء . ومن هنا كانت الحقائق ذات الدلالة الخاصة بالعملاقتين اللتين كانتا بمثابة محور الأحداث ، واللتين يرتبط بنشاطهما ازدهار مملكة فروكى ثم انهيارها .

ومن الأغانى النسائية أساسا ، أغانى الزوجات التعيسات فى حياتهن الزوجية ، التى يعرفها القارىء الانجليزى بفضل قصيدة روبرت بيرنز الشهيرة :

ماذا تستطيع الزوجة الشابة ؟

وماذا يمكن أن تفعل ؟

ماذا تستطيع الشابة أن تفعل مع رجل عجوز ؟

ما أشأم المال الذى اغرى أبى أن يبيع ابنته البائسة لمن يدفع الثمن ؟

انه دائم الشكوى من الصباح الى المساء .

(*) Menja & Fenja

يسعل ويلهث طول النهار .

يتثاءب وينام ، وتتثلج اطرافه .

ما اقسى الليل الموحش مع رجل عجوز مجنون !

انه يهمهم ويتلعثم ، يسب ويشتم ولا أستطيع أن أرضيه أبدا ، مهما صنعت ... انه أحمق غيور ، يغار من الشباب .

ما أبشع اليوم الذى قابلت فيه الرجل العجوز !

لقد رثت لى خالتى كاتى .

وسأبذل جهدى وانفذ حيلتها .

سأغضبه وأعذبه حتى احطم قلبه .

وبوسعنا أن نقارن كذلك الاغنية الايرلندية التى تقول :

أحبنى رجل عجوز وخطبنى .

خطبنى رجل عجوز ، صدقونى اذا شئتم .

خطبنى رجل عجوز ، وتزوجنى وا أسفاه !

أيتها العذارى ! لا تتزوجن رجلا عجوزا مهما طالت بكن الحياة .

وأيا كان الأساس النفسى لهذا النوع الغريب من الأغانى ، فمصدره الأصلى شعبى ، ولو أنه تطور فى العصور الوسطى ، فأصبح جنسا أدبيا راقيا ، محددا ، نعرف نماذج عديدة له فى اللغة الفرنسية والبروفنسالية .

ولعل هذا الجنس الأدبى ، قد نما فى أصله ، من أعياد النساء وممارستهن وهى التى لم يكن يشترك فيها الرجال ، والتى انحدرت فيما يبدو — الى العصور الوسطى ، من عصور ما قبل التاريخ ومن الأزمان القديمة .

وتنتمى الى القوالب الأدبية السابقة ، — وان كانت تقترب كذلك من السيرة النثرية — تلك الأغانى التى تقص قصة ما نسميه بالزوج المخدوع .

ولا أجد خيرا من ايراد مثل الأغنية الألمانية التى تقول :

اختار رجل من الأعيان فتاة ليتزوجها .

لكنها رغبت عن الزواج منه .
جسمها الجميل الفتان .
جعلها ترفض الزواج منه .
وطلبت اليه أن يغرب عنها (*) .

والقصيدة بأسلوبها ذلك ترجع الى القرن السادس عشر .

ولقد أخفت معانى القصيدة ، كلمات كثيرة انقرضت من الاستعمال فلما كان القرن الثامن عشر أعاد الشاعر لانجباين Langbein صياغتها ، وما تزال الأغنية ، فى صيغتها المستحدثة تلك ، تغنى فى مناطق الراين ، وأما لانجباين نفسه فكان من منطقة الألزاس .

والقصيدة فى شكلها المتطور هذا ، تجرى على النحو التالى : (٢١٨)

Ein ehrsamer Graukopf, ein Landmann, erkor
Die Krone des Dorfs sich Zur Frau ;
Doch zog sie bald einen Soldaten ihm vor,
Und drang in den Alten einst schlau,
Er sollte doch Fuhren ins Heu,
Er sollte doch Fahren ins...
Ha, Ha, ha, ha, ha, Heidideldci,
Juchlei, tralaleil.
Er solte doch Fahren ins Heu.

اختار رجل شريف من الأعيان أصلع الرأس .
أجمل فتاة فى القرية ليتزوجها .

(*) Es het ein biderman ein weib,
jr tück wolt sie nit han.
Das nacht jr grader stolzer leib,
dass sie but iren man,
und dass er führ ins hew,
nach grumat in das gew.

لكنها سرعان ما فضلت عليه جنديا .
وراحت تقنع العجوز أن من الأفضل له أن يموت .
من الأفضل له أن ..
ها ! ها ! ها ! ها ! ها ! الأفضل له .
أن يموت ... أن يموت ... (*)

غير أن « الحادثة » تتماثل في الصيغتين اللتين أشرنا اليهما ، فالشك يراود الفلاح، ويتظاهر باطاعة « مقترحات زوجته » لكنه يختبىء في بعض أنحاء البيت . ولا يطول الوقت حتى يأتي جندي طلعة ويخرج الزوج من مخبئه في اللحظة الحاسمة يفاجىء الزوجة وعشيقها أو كما تقول الفقرة الأخيرة من قصيدة لانجباين :

يا للكارثة أحتى لو كنت في قبري جثة هامدة لمنعت هذا المزاح السخيف .
فليهلك الشيطان !
فليذهب ! فليذهب الشيطان !

وتعتبر أغاني المهد من أغاني النساء ، أو لعلها كانت من أغانيهن اذا تحرينا الدقة .

ونحن نرجع أنها نشأت من ألحان الهمهمات ، التي تشبه أغاني المحراث الفرنسية ، وأن أكثر ما نملك من نصوص ، أميل الى الأدب منها الى الفولكلورية . وينبغي أن نفرد جانبا منها ، للارتجال .

(*) Potz Donner und Hagel ! und wär ich auch weit
Fefahre nins heu oder Gras,
Verbat ich, zum Henker ! doch während der Zeit
Mir solchen verwetterten Spass !
Da fahre der Teufel ins Heu,
Da Fahre der Teufel ins....
Ha, ha, ha, ha, ha ! Heidideidei,
Juchhei, tralalei;
du Fahre der Teufel ins Heu !

ولقد تواجه اية دراسة فاحصة دقيقة عقبة شديدة ، وتلك هى ندرة المـــواد .

ولقد سمع كاتب هذا البحث ، أن العصور القديمة كانت تفتقر الى اغانى المهد .

وإذا أخـــذنا بقاعدة « الصمت يثير المناقشـــة » لقلنا أن العصور القديمة كانت تفتقر الى أكثر أنواع الأغانى الفولكلورية التى ناقشناها . فيما سبق . والحق أن لدينا بقية من أغنية مهد لاتينية ، وأشارات الى أغانى مهد أغريقية ، هذا كله وصلنا عن طريق الصدفة على نحو عام . ذلك أنه نظرا الى تقسيم العائلة الاغريقية الى جانبين : نسائى ورجالى ، والى أن النساء قضى عليهن بالتزام الصمت ، فلسنا نتوقع أوضاعا مختلفة عما ذكرنا .

ويســـهل الانتقال من أغانى النساء ، الى أغانى العمـــل للرجال كما رأينا .

وفى أواخر القرن الماضى راى فيهما العلامة الألمانى كارل بوخر ، اشد أنواع الأغانى الانسانية بدائية وسذاجة .

ولا تخلو هذه النظرية من المبالغات فالحب اقدم بكثير من العمـــل . وقد ترجع أغانى العمل الى بدايات تاريخ العمل المنظم .

ونحن نعرف ــ بالطبع ــ نموذج البحارة الذين كانوا يدفعون السفن بالمجاديف ، على أنغام النايات .

والاغنية المعروفة التى يقال أن الملك كنوت لحنها ، على ضربات المجاديف للماء ، وأصوات الكهنة المنشدين من بعيد ، والتى توصف خطئا بأنها سيرة شعرية ، لم تكن الا أغنية عمل .

وكانت الأغانى ــ أو الصيحات على الأحرى ــ ترتفع من أفواه الملاحين على صفحة نهر المسيسبى حين كانت الملاحة فى هذا النهر لم تزل فى طفولتها ، ولقد استعار أعظم كتاب السخرية الأمريكيين اسم شهرته من هذه الصيحات . ويرجع الكثير من أغانى الملاحين فى أنحاء العالم الى هذا الأصل ، وكثيرا ما يصاحب بناء المنازل أغانى العمال ، فى الشرق والدول السلافية سابقا .

وكانت بعض الأغانى تؤدى اثناء جمع « الدريس » فى نورمانديا ،

ونستطيع أن نجد شيئا من هذا فى زراعة الطباق بفرجينيا وماريلاند ، حيث نجد أن العمال ، رجالا ونساء ، من الملونين .

وليس هناك شك فى انبثاق أغانى الحرف والصنائع من المصدر ذاته . فقد كان للنساء الغسالات أغانيهن ، وقد أخذ أميل زويد ، احدى هذه الأغانى ، واستخدمها فى بعض قصصه فقال :

Pan, pan ! Margot au lavoir,

Pan, pan ! à coup de battoir,

Pan, pan ! va laver son cœur,

Pan, pan ! tout noir de doleur.

بل لقد قال ان الجنيات الغسالات اللائى تحدثنا عنهن فى فصل سابق ، يصاحبن الغسل بأغانى من هذا القبيل .

وهكذا تعتبر اغنية العمل متأصلة فى الطبائع البشرية ، حتى لقد تمتنع على الاندثار والموت . وتعتبر الأغنية التالية المعروفة ، اغنية عمل من بعض أنحائها ، وأغنية نصر من بعضها الآخر ، وقد كانت تغنى تعبيرا عن الشعور بالفرح وهى تقول .

زد مياهك ايها البئر ! وغن !
البئر الذى حفره الأمراء .
وغسل فيه النبلاء صولجاناتهم !

ولا نزاع كذلك فى أن جانبا من أقدم أجزاء التوراة وقد نجد له نظائر فى العربية الحديثة ـ يتألف من أغان ترافق الرقص ـ وهذه الحال تقرب هذا النوع من اغانى العمل ، والأغانى الطقسية .

وقديمة كذلك ، بل لعلها أقدم من أغانى العمل ، تلك الأغانى التى يسقطها الباحثون فى هذا الميدان ـ والتى تستطيع أن نسميها الأغانى الطقسية .

ومن العسير ان نميز بينها وبين أغانى الرقص . من الناحية النظرية، اما من الناحية الواقعية ، فمن السهل علينا أن نضع خطا فاصلا بينها وبين اغانى الرقص ، ذلك أن الرقص موجود فى المجتمع الأوروبى،

لغاية واحدة ، هى الغاية الدنيوية أو الحسية ، ولا نكاد نجد أثرا لرقص الطقوس والمعتقدات فى أوروبا .

ولقد كانت أغانى الطقوس تصاحب فى أصلها ـ رقصات الطقـــوس والمعتقدات. أو كانت ترافق المراسم الاعتقادية ، كما هى الحال فى المجتمعات البدائية .

غير أن أغنية الطقوس الأوروبية يمكن أن توجد الآن فحسب ، فى شكل أغنية الزفاف ، التى تغنى كثيرا فى ريف فرنسا والمانيا والسويد، وشرق أوروبا ، حين يدخل الزوجان بيت الزوجية لأول مرة .

ولقد كان الزفاف فى الريف أشد تعقيدا مما هو الآن ، وكانت أغانى مراسم الزواج تحتل مكانة ظاهرة منها . ثم قضى عليها تدخل الكنيسة ومعارضة رجالها وأن الأغنيةالفولكلورية التى أشار اليها وير ، فتعطينا فكرة غير دقيقة عن طبيعة أغنية الزفاف . فمن وجهة النظر الحديثة ، كانت تلك الأغنية خشنة جافية الأسلوب ، وكانت اشاراتها الى «اخصاب» الزوج والزوجة ، نابية ، كما تنبو كثيرا تلك الاشـــارات فى الأغانى الروســـية . ولكن ينبغى أن نتـــذكر أن ما يبدو فاحشا ، لنا نحن الذين نشأنا فى المدن ، قد لا يكون كذلك عند أهل الريف ، بل هو ـ ـ قطعا ـ ليس كذلك فى نظر المجتمعات البدائية .

وكانت أغانى الطقوس ذائعة فى مواسم البذار . ذلك أن فكرة الخصوبة ، كانت تستبد بعقل الانسان ، وكان القصد من غناء هـــذه الأغانى ، تنشيط نمو الزرع الجديد .

ولقد نطيل الحديث فيما بعد عن بعض هذه الطقوس ، لكن يجب أن يتضح لنا أن الساتورناليا الرومانية ، والكرميس الهولندية ، لم تكونا الأصل الذى نتحدث عنه .

ولقد نستطيع أن نعرف ـ فى سهولة ـ ماذا كانت « الكرميس » فى القرن التاسع عشر اذا راجعنا كتابات الرحالة .

واذا كان اغلب اغانى الكرميس الهولندية تلك قد اندثر فسبب ذلك أن فحشها كان شديدا ، وبذاءتها كانت خشنة جافية !

ومما يشبه هذه الأغانى فى خصائصها أغانى أعياد الميلاد الانجليزية فى العصور الوسطى التى وصفها المؤرخون وسلطات الكنيسة ، بانها

« فاحشة » ويتضح سبب ذلك — اذا تذكرنا أن أعياد الميلاد كانت بل ما تزال فى بعضها — مواسم للمارسات والطقوس الخاصة بالاخصاب.

وآخر أغانى الطقوس الموروثة — وان كان خيرها بلا شك — هو ما ذكرناه عند الحديث عن أسواق الموالد الكنيسة فى ايرلندة . التى لم تلق العناية الواجبة حتى الآن .

ولقد اشرنا — فى غير هذا المكان — الى الطقوس الفاحشة المصاحبة للأغانى فى مناسبات الجناز ، لكنا لم نقدم تفسيرا شافيا .

وانى أميل — شخصيا — الى الظن أنه من الصعب علينا أن نفصل هـــذه الممارسات عن الطقوس والأغانى التى تؤدى فى مواســـم البـــذار .

والذى قاله القديس بول من انها بذرت فى الخطيئة ونمت فى الطهارة، وبذرت فى الضعة ونمت فى العزة وبذرت فى الضعف ، ونمت فى القوة . يشير الى أنهـــا اقدم من المسيحية ، ونستطيع ان ننسبها الى مصر القـــديمة .

ولعل هذا الأمر ، أن يطرأ من تلقاء ذاته على أى امة زراعية .

وقد يكون أمرا هاما لنا أن نلاحظ أن الصور الخيالية التى ارتبطت بفكرة الموت والنشور ، مأخوذة من حياة الزراع والزراعة . ويبـــدو أن الممارسات والأغانى التى أعرض عنها الناس ، حين أعرضوا عن السحر البدائى — هذه الممارسات والأغانى وجدت حصنها وملاذها ، فى احتفالات الموالد الايرلندية ، بل تحصنت هناك ، كما لو كانت قد احتمت بالقلاع ، فقاومت هجمات الكنيسة والـ Aufklärung ، أى عصر التنوير .

ونرجح كذلك أن يكون لأغانى الشرق أصل طقسى . وهذه الأغانى هى التى يسميها الايطاليون « البرنديزى » ويسميها الألمان « برنج ديرز » .

ولم تزل العربدة والفحش ، — لكثرة الشرب — تقترنان — حتى اليوم بممارسات الديانات الطبيعية ، وخاصة بتلك الديانات الطبيعية ، التى تستبعد النساء . والحق أن لهذا النوع ، تاريخا نعرفه من جماعات الصعاليك والطلبة ، ولا نقول شيئا عن نقابات الحرف فى العصـــور الوسطى ، وممارساتها الخارجة على الأدب ، واغانيها البالغة الفحش ، والبـــذاءة .

ولقد توصف أغنية الشرب ـ وغالبا ما تكون كذلك ـ بانها اغنية « رمى » ، ولو انه ينبغى أن نذكر أن اغانى الرمى ، ليست أغانى شرب بالضرورة .

ونحن نعنى باغنية الرمى انها مؤلفة ، يضيف اليها المغنون مقاطع جديدة ، ارتجالا وهم يتتابعون فى الغناء ولعلها تزيد حجم الأغنية الى الحد الذى لم يخطر على بال مؤلفها أو مغنيها الأول .

وكان القدماء الاغريق ، أغان من هذا النوع ، وصلتنا احداها ، وهى أغنية شراب لا نزاع .

وانا أشير الى الأغنية الأثينية عن هارموديوس Harmodios وأريستوجايتون Aristogeiton وهى التى تقول : (١٤٠) .

سأخفى سيفى فى دوحة أشجار فينوس .
كما فعل هارموديوس وأريستوجايتون .
فى يوم أن ضربا الطاغية وصرعاه .
وجعلا أثينا مدينة الأحرار .
لم يمت العزيز هارموديوس بل يقال انه فى جزيرة المباركين .
حيث أخيل خير الراحلين .
وديوميد الطيب ابن تيديوس .
سيختفى سيفى فى دوحة من أشجار فينوس .

كذلك فعل هارموديوس وأريستوجايتون عندما صرعا الملك الطاغى هيباركوس .

فى يوم الأضحيات .
ستضىء شهرتهما وتبقى
شهرة العزيزين هارموديوس وأريستوجايتون .
فهما اللذان اسقطا الطاغية .
وجعلا أثينا مدينة الأحرار .

ولا تعوزنا الأمثلة من العصور الوسطى أو الحديثة . فلدينا ـ مثلا أغنية « زفاف الطير » من شرق أوروبا ووسطها (١٤١) .

وفيها يحتفل طائران بزواجهما ، ولكل منهما عمل يؤديه فى حفل الزفاف ، ويمكن أن تطول الأغنية الى غير نهاية .

وكانت اغنية مشابهة ذائعة فى أمريكا أثناء القرن الثامن عشر ، أو كانت ذائعة فى ولايات الأطلنطى على الأحرى ، وما تزال تغنى فى قفار جبال الأبالاش ، والمناطق السحيقة من نيوانجلاند وهى تقول .

« وقال طائر الجنة وهو يطير .
عندما كنت شابا اخترت أثنتين .
فاذا لم تحبنى الأولى ، أحبتنى الثانية .
الا تظن أن نواياى كانت طيبة ؟

قالت البومة وراسها أبيض جدا « هوتس » كنت أظن أن الفتاة الجميلة .

وحيدة فى ليلها ونهارها .
لكنها تغازل بالليل وتنام بالنهار التالى !

ومن الممكن ــ كما نرى ــ أن تضاف فقرات جديدة ، بقدر ما يعدد المغنى من أنواع الطير .

وتوجد أغنية فى شمال المانيا عن « بقرة القسيس » (١٤٢) . وتقول أن بقرة قسيس لوثرى فارقت هــــذه الحياة الدنيا . وتمضى تعـــدد كيف استخدم أهل القرية كل عضو وجزء من أعضاء البقرة المسكينة ، وأما روحها فقد قصدت مباشرة الفردوس ، لأنها بقرة قسيس !

وتوجد أمثلة أخرى لأغانى الرمى ، فى النكات ، العديدة ، التى يضعها أهل قرية ويطلقونها للسخرية من آخرين . وتلك عادة معروفة فى وسط أوروبا وأسبانيا .

وتوصف كل حماقة يرتكبها الفلاحون من الفريق الآخر ، فى المقاطع الجديدة ، وذلك بالحديث عن الخدعة التى يقع فيها عمدة القرية ، أو كاتب المدينة ، أو الطحان أو خباز القرية وهكذا دواليك .

ولقد ينشىء الفلاحون بعض هذه الأغانى الساخرة على حساب قادتهم الروحيين والدنيويين ، من عمدة القرية وكاتب المدينة الى كاهن الابرشية أو القسيس .

ولدينا شواهد على أن السخرية في هذه الأغاني كانت عنيفة مما دعا السلطات الى وقفها ، ومنعها ، وفرض الغرامات على من يغنونها ، أو وضعهم فى السجن .

وتعتبر أغنية النساجين السيليزيين ، التى اقيلت عام ١٨٤٩ ، مثالا لهذا الفن ، وان كانت تعتبر كذلك نقطة الافتراق بين الأغانى الفولكلورية والأغانى السياسية .

وسأضرب صفحا هنا عن الأغانى السياسية والأغانى الدينية ، ذلك أن هذه الأغانى جميعا ، تضرب بجذورها البعيدة فى أعماق التاريخ ، مما يجعل التصدى لها فى كتاب كهذا الكتاب ، يقصر بالضرورة عن الدقة العلمية الواجبة . ويكفى أن نقول أن التأليف الفردى لا الجماعى ، أمر مؤكد فى هذه الأغانى وتلك . فأغانى الفروسية وملاحم البيوريتان ، لثورة كرومويل (الثورة الانجليزية) لا نستطيع أن نردها - فيما نرى - الى التأليف الجماعى ، أكثر مما نستطيع أن نرد نشيد المارسيليز الى هذا النشاط الجماعى . وليس لدينا شك - لحسن الحظ - فيمن وضع نشيد المارسيليز ، وذلك بغض النظر عما يقال عن أصل لحنه المجيد .

وتنطبق الملاحظة ذاتها على الأغانى الدينية . ولقد نقول ، واثقين ، أن الأغانى الدينية ، تستوى مع الأغانى السياسية ، فى أنها تزدهر فحسب فى فترات الحماس الروحى ، كفترة حركة الفرانسيسكان فى ايطاليا أثناء القرن الثالث عشر ، وحركة البروتستانت فى المانيا ، اثناء حرب الثلاثين (١٤٣) .

وبالنسبة لحركة البروتستانت نجد أن جميع مؤلفى أغانيها الدينية ، معروفون لنا ، وكذلك الشأن فيما يتصل بالظروف التى انشأت كل قصيدة مفردة منها . ولم يحلذلك كله دون أن تصبح هذه الأغانى الدينية ، أغانى فولكلورية أصيلة ، وبعض هذه الأغانى الدينية أعمال كبيرة ، من الناحية الفنية الخالصة .

ولقد ينبغى أن نضيف الى ما سبق أن القليل النادر من الأغانى الدينية ، يستطيع أن يزهو بألحانه المبتدعة غير المسبوقة .

وكان من أثر الاسراع فى وضع هذه الأغانى ، وانتشارها فى بيئة لا تقيم وزنا لكلمة الابتداع أو الاصالة ، أن استخدم مؤلفو الألحان الدينية ، ما كان

يصادفهم من ألحان الأغانى الشعبية ، وأغانى الشارع . بل شـــذرات من « الأوبراكوميك » .

ولقد تنطبق هذه الحقيقة ، سواء بسواء ، على ألحان الفرنسيسكان فى العصور الوسطى بايطاليا ، وألحان المتطهرين فى فترة الانبعاث الدينى بالقرن الثامن عشر ونختتم هذا الفصل بكلمة أخيرة عن تأليف الأغنية الفولكلورية ، فقد نعود الى مناقشة هذا الموضوع فى الفصل التالى .

نحن نقول ان مؤلف الأغنية الفولكلورية فرد ، بمعنى أن الذى وضعها أول أمرها كان فردا واحدا ، أديبا معروفا فى بعض الأحيان ، أو رجلا من العامة ظل اسمه مغمورا يطويه الغموض .

وقد يرجع تأليفها الى الارتجال ، لكن ذلك ليس شرطا دائما . ثم أن الأغنية الفولكلورية جماعية ، اى أن نصها لا يثبت دائما ، بل تطرأ عليه تحويرات ، وتعديلات واضافات .

ثم أنها جماعية من حيث أن بعض أنواعها ، ومنها اغنية الرمى ، يضعها مؤلفون متعددون ، يضيف كل منهم مقطعا أو أكثر (*) .

(*) ينبغى التفريق بين عملية انشاء الاثر الادبى الشعبى بواسطة فرد أو أفراد ، وعملية استعماله وانضاجه والتوافق عليه ، واجرائه مجرى المأثور .

هذا الأمر الثانى ، يتم بواسطة الجماعة الشعبية وهو الذى يجعل دارسى الفولكلور يقولون ان الاثر الادبى الشعبى ، لا يؤلفه مؤلف معلوم لنا — المترجم .

الفصل التاسع

الانشودة القصصية الشعرية الشعبية

الأنشودة القصصية الشعرية الشعبية
أو
● القصة الشعرية الشعبية :

تعريفها ـ الفرق بين الباللاتا الايطالية والبالاد الانجليزية . الصلة بين القصة الشعرية الشعبية والملحمة . أقسامها وتوزيعها جغرافيا فى أوروبا ـ هجراتها فى المناطق المختلفة . صلتها بالرقص والأغراض السياسية والدينية والاجتماعية واحداث الفيضانات والزلازل والحروب وتنفيذ أحكام الاعدام فى القصص الشعرى والعادات والمعتقدات الشعبية . خصائص المادة التى تستخدمها الأغنية الشعبية القصصية .

نظرية جومير الخاصة بالقفل (الجزء الأخير من الأغنية القصصية) ومعارضة لويس بوند .

نظامها الشعرى فى عدد من البلاد الأوروبية .

الانشودة القصصية الشعرية الشعبية

أو

القصة الشعرية الشعبية

القصة الشعرية الشعبية ، قصيدة قصصية بسيطة تروى أحداثا ملحمية ، كما يراها مزاج شعرى غنائى ، وهى شعبية من حيث أصلها ، أو من حيث تواترها ، وصالحة للتداول شفاها .

ولقد كثر الظن بأن كلمة « بالاد » ذات الأصل اللاتينى ، تعنى أن هذا الشعر القصصى الشعبى كان يغنى فى مصاحبة الرقص .

غير أن معنى التسمية ـ لا يسمح بهذا الظن ، فقد اطلق هذا الاسم على ذلك النوع الأدبى ، فى مرحلة زمنية متأخرة ، أى فى بعض فترات القرن الثامن عشر على ما نرجح ، بعد أن كانت التسمية قد لحقت بنوع معين من أغانى الرقص الأصيلة .

ومن الخطأ أن نخلط بين الأنواع الأدبية أو الفولكلورية الشفاهية التى تدل عليها كلمة بالاد الانجليزية ، أو بين الأنواع الغنائية الذاتية الخالصة (والتى كان أصلها أغانى الرقص) والتى نسميها باللاتا فى اللغة الايطالية والبرفنسالية .

وليس بين هذه الأنواع وتلك ، عناصر مشتركة اللهم الا حين صاحبت البالاد الرقص فى مرحلة تاريخية متأخرة ، وفى مناطق محدودة ، فكان ذلك سببا هاما ، فى شيوع التسمية .

وانه لأمر له دلالة أن يكتفى أهل اسكنديناوة باصطلاح Folkevisor التى تعنى فحسب « الأغانى الفولكلورية » أو « الألحان الفولكلورية » ، على حين يطلق الأسبان والفرنسيون ، على هذا النوع ، كلمة رومانس (فى صيغة التذكير) التى كانت تدل ـ أول أمرها ـ على أى مؤلفة مكتوبة بالعامية فى مقابل اللغة اللاتينية .

وأما كلمة Ballade الألمانية ، فكلمة مستعارة من الانجليزية فى القرن الثامن عشر .

وينبغى ــ اذا ــ الا نخلط بين القصيدة الملحمية القصيرة الغنائية وهى المسماة Lied بالألمانية ، أو ما نسميه Lay ذات الأصــــل السيلتى . فالقصيدة الملحمية القصيرة المغناة ــ نوع من القصص الملحمى الخالص ، ولهذا فهى فن موضوعى بقدر ما فى الالياذة (١٤٤) من موضوعية ، لكنها ــ أقصر من الالياذة بالطبع وأقل بلاغة ورواء .

والمثل الجيد لها ، هو Hildebrandslied فى اللغة الألمانية القديمة .

وأما القصيدة الملحمية القصيرة البريتانية فأحدوثة ملحمية قصيرة خالصة ، وأصلها أدبى ، لكنها تضم من العناصر الفولكلورية أكثر مما تضم الأغنية الملحمية . ذلك أن الأغنية الملحمية تقع فى أول طريق تطور الملاحم ، ولعلها نشأت أول ما نشأت من البكائيات الجنائزية .

وأما محتواها ، فيقبل اعادة التشكيل والصياغة ، ويقبل تجميل أسلوبها .

بيد انه ليس من حقنا أن نعتبر أن الملحمة تتألف من أغان ملحمية ، موصولة بعضها ببعض ، ذلك أن تكنيك الأغنية الملحمية ، يختلف فى أساسه عن تكنيك الملحمة .

ولقد كان غرض الدراسة التى وضعها العلامة القطالونى ميــــلائى فونتانالز Milà y Fontanals (١٤٥) ، أن يثبت هذه الحقيقة ، ثم ينسف تلك النظرية التى رأت فى البالاد المادة التى تألفت منها الملاحم الكبيرة .

ويتعذر علينا أن نتصور وجود قسم كبير من البالاد الحالية ، بدون أن تكون الملاحم الكبيرة قد سبقتها الى الوجود .

وهكذا نرى أن الكثير من البالاد الدانيمركية تشتق من حلقات ملاحم نبلونجز Nibelungs المتحللة ، والمرتحلة من المانيا الى الدانيمرك . وكذلك فبالاد السيد الأسبانية ، وبالاد أطفال لارا ، تفترض أن يكون قد سبقتها الى الوجود ملحمة « قصائد السيد » و « أغانى أطفال لارا » العديدة .

وتدين القصص الشعرية الشعبية الاغريقية الدائرة حول ديجنيس اكريتاس بأصلها الى الملحمة البيزنطية الكبيرة (١٤٦) .

وليس معنى هذا بالطبع ان نرد كل قصة شعرية غنائية الى ملحمة

كبيرة . فمن السخف أن نصنف ملحمة انجلوسكسونية عن روبين هود ، على أساس القصص الشعرى الذى يدور حول هذا البطل . فما أن نشأ هذا النوع الأدبى حتى أصبح من الممكن أن نعالج ــ فى اطاره ــ أى موضوع صالح للمعالجة القصصية الشعرية .

وليس صوابا كذلك أن نقول أن القصص الشعرى الغنائى فى غرب أوروبا ، لم يوجد كنوع ، بغير الملاحم الكبيرة التى سبقته .

ويبقى حديث طويل ، نديره حول هذا الموضوع .

واما فى أوروبا الشرقية ــ أى فنلندة وروسيا ــ فنجد انه لم يكن ثمة ملاحم بالمرة ــ ولا غناء فى الاستدلال بأغنية ايجور Igor فهى مثل مفرد كما أن ملحمة كاليفالا(*) لم تكن ــ فيما يبدو ــ أكثر من حلقات من الأغانى القصصية .

قد نجد هذا ، أو نجد أن الأغانى القصصية ، لا تتصل بالملاحم بأدنى صلة .

وتلك هى الحال بالنسبة لأغانى السلاف الجنوبيين القصصية .

والواقع ، أن الملاحم الشرق أوروبية التى تحللت الى اغان قصصية هى فحسب الملحمة البيزنطية عن ديجنس اكريتاس التى ذكرناها سابقا ، والملحمة الضائعة عن الملك سليمان .

ولقد بدأ تأليف القصص الغنائى القصير فى أوروبا ، شرقها وغربها معا ، فى القرن الثانى عشر . ولم تزل الأسباب التى دعت الى انشائه ، غارقة فى الغموض . شأن الأسباب التى دعت الى حدوث التطور الملحمى المفاجىء والعالمى ، قبل ذلك بقرن . ومثال هذا التطور الملحمى ، ظهور الشاهنامة فى نفس وقت أغنية رولان وكانا ساريت ساجارا .

ولقد اعتبر النوع الأدبى الجديد سوقيا دارجا ، لا يستحق التدوين ، ولهذا لا نعرف قصة شعرية غنائية قصيرة ، تعود الى ما قبل القرن الخامس عشر .

غير أن لدينا اشارات فى التقاويم اللاتينية ، تشير الى وجود البالاد ثم أننا نملك ــ فى حالة واحدة ــ النص اللاتينى لأغنية شعرية قصصية ، شعبية ما فى ذلك شك .

(*) أنظر فهرس المصطلحات والأعلام ــ المترجم .

ونحن ندين بهذا النص الى خرافة مهاجرة ــ هى خرافة الراقصين الذين أصابتهم اللعنة ــ وقد رأى كتاب التقاويم أنها تستحق الكتابة حبرا على ورق ، للعبرة الأخلاقية المستفادة منها .

والأغنية التى يغنيها الراقصون قصة شعرية شعبية بلا نزاع وهى تقول :

Equitabat Boso per silvam Frondosam,

Ducebat sibi Mersuindem formosam,

Quid Stamus ? cur non imus ?

واذا ما ألقينا نظرة فاحصة على أوروبا ، وجدنا فيها ، أربعة أقسام لموضوعات البالاد ، على نحو عام ، وقد اختص كل نوع منها بمنطقة جغرافية .

وأما أهمها ، وأكبرها فيما نرجح ، وهو المجموعة اللاتينية فتضم مناطق فرنسا وقطالونيا ، وقشتالة والبرتغال ، وشمال ايطاليا .

وأما المجموعة الثانية من حيث الأهمية والمكانة ، فهى التيوتونية التى تضم مناطق الجزر البريطانية وألمانيا والأراضى الواطئة واسكنديناوة وجزر فارو وايسلنده ، وأجزاء من بولندة وبوهيميا . وأما المجموعة الثالثة فتشتمل على الرومانس الفستالية وتتألف المجموعة الرابعة من البلاد الاغريقية والبلينى الروسية .

وهناك صلة وثقى بين المجموعتين الأولى والثانية ، وتتردد موضوعات بذاتها ، فى القصص الشعرى فى كل من فرنسا والدانيمرك مثلا .

لكن الصلة واهية بين المجموعات الأخرى ولو أن بعض موضوعات الأغانى الملحمية الشعبية الفرنسية دخلت الأغانى الملحمية القشتالية ، على حين أن بعض الأغانى الملحمية الروسية ، كانت معروفة فى شمال ألمانيا ، على ما يبدو ــ ونعنى بذلك هذا القصص الشعرى الدائر حول اليا الورومى (Ilya of Moroum) .

وفى داخل المجموعة التيوتونية ، نجد أن هناك صلات وثيقة بين بالاد انجلترا واسكتلندة من ناحية وبين بالاد الدانيمرك والنرويج ثم بين الجزر البريطانية وألمانيا من ناحية أخرى .

ويقف جنوب ايطاليا ووسطها بعيدا عن التطور البالادى ، ذلك أن هذه المناطق أنتجت فحسب أغانى فولكلورية ذاتية .

وفى المانيا ، يزيد عدد الأغانى الفولكلورية الذاتية على عدد القصص الشعرى الغنائى ، بينما يقع عكس هذا فى بريطانيا واسكنديناوة .

وينبنى على ما قلنا آنفا أن ترتحل البالاد ، كما ترتحل الحكايات الشعبية والأغانى الفولكلورية .

واذن فقد هاجرت جميعا ، فى مناطق معلومة ، بصرف النظر عن الحدود اللغوية ، حتى انها غزت — فى بعض الحالات — مناطق بالاد مجاورة. واذا دققنا النظر فى المناطق التى تشغلها كل مجموعة ، لم نملك من أمرنا الا الاعتراف بأن ما ظهر لنا — أول الأمر — على أنه حدود لغوية ، ليس الا خطوط تحديد بين اللهجات المختلفة . وهكذا لا تختلف لغة قطالونيا كثيرا عن لغة البروفنسال ، وان القرابة الشديدة بين اللهجة الغالية (التى تنتمى اليها اللغة البرتغالية) والفرنسية تأتى من التأثير العظيم الذى تركه الشعر الغنائى الفرنسى على الشعر الغنائى البرتغالى أثناء العصور الوسطى .

ثم أن اللهجات الايطالية الشمالية ، لهجات رومانية غالية ، ولذلك فالحدود اللغوية بين ايطاليا وفرنسا ، تتعمق صوب الجنوب .

وشىء كثير من هذا ينطبق على اللغات الانجليزية والسكنديناوية واللغات الألمانية والهولندية بل يغلب أن يتساوق هذا « الايقاع » فى مسيرة الترجمة .

ولقد يقال ذات القول عن الصلة بين الروسية والسلافية الجنوبية، ولهذا تكررت ترجمة القصص الشعرى الغنائى على نطاق ضيق ، ومثال ذلك انتقال « موضوعات » بعينها من فرنسا الى الدانمرك ، ومن بلاد الاغريق البيزنطية الى السلافيين الجنوبيين ، أو أهل رومانيا ، والروس .

ونستطيع غض النظر عن الحالات القليلة التى تمت فيها الترجمات من الألمانية الى اللهجات السلافية .

أما ما نستطيع أن نلاحظه على الفور ، فهو هذا التقابل الذى يقع بين التيارات الأدبية وهجرة « موضوعات » القصص الشعرى الغنائى ،

فالترجمات الأدبية من اللغة الفرنسية القديمة الى اللغة النوردية القديمة تضطرد منذ القرن الثالث عشر .

وتنطبق نفس الحقيقة على الصلة بين الآداب البيزنطية واللغات السلافية والرومانية .

واذا ، فقد كان أجدر بمهمة الترجمة أن تقع على عاتق اناس يعرفون هذا النوع من العمل — ونعنى بهم الكتبة .

ولقد سبق لنا أن قلنا أن القصة الشعرية الغنائية قد تكون — فى بعض الأحيان — اغنية رقص .

وكان الرقص الذى يغنيه رقص مجموعات — يطلق عليه اللغة الانجليزية الوسطى اسم كارول Carol وتمارسه الفئات العليا من المجتمع على الغالب .

ومن الخطأ أن نستنتج من هذه الحقيقة ، أن القصة الشعرية الغنائية تولدت من أغنية الرقص ، فليس لدينا أى شاهد يدل على أن هذا النوع من الأغانى القصصية ، استخدم لهذا الغرض الجديد سواء فى انجلترا أو أسبانيا أو البلاد السلافية .

ويبدو أن مصاحبة الاغنية القصصية للرقص ، قد بدأت فى فرنسا الشرقية ، ثم ترامت بعد ذلك من هناك الى المانيا والدانمرك . حيث لبث الرقص وأغانى القصص الشعرية ، من ملاهى البلاط الملكى ، الى أن كانت حركة الاصلاح الدينى .

وقد بدىء فى جمع أول مجموعة من الأغانى القصصية الشعرية ، نزولا على رغبة أبدتها احدى الملكات .

ثم قلد العامة بعد ذلك ، ملاهى البلاط والنبلاء .

ولم يزل الرقص وأغانى القصص الشعرى ، موجودة فى اشكالها الأصلية ، فى جزر فارو .

وأما القارة الأوروبية ، فقد اختفى منها الرقص الأصلى ، على اثر استيراد الأشكال الجديدة من فرنسا والمانيا .

أما القصص الشعرى الغنائى فعاش مدة أطول ، ولاحظ عالم الفولكلور الدانيمركى كريستنسن E. T. Kristensen أن القصص الشعرى الغنائى ،

كان يغنى ــ أثناء القرن التاسع عشر ــ فى شتى المناسبات ، بل كانت تغنى أحيانا كأغانى مهد .

ونحن ندين باستمرارها فى الدول السكنديناوية الى هــذه المرونة وما أن رسخت قوائم هذا الفن القصصى الشعرى الغنائى ، حتى استخدم أداة لأغراض اخرى مختلفة مثل القصص الشعرى الغنائى الذى يلقى على قارعة الطريق ، والقصص الشعرى الغنائى الدائر حول اللصوص وقطاع الطرق ، ورواة القصص المتسولين . وكانت حركة الاصلاح الدينى قد جرت الى مشكلات الحياة العامة ، أقساما اجتماعية تضطرد اتساعا ، ووجدت حركة الاصلاح الدينى أن القصص الشعرى الغنائى أحسن وسيلة لنشر الأخبار ، لأن الصحف لم تكن قد ظهرت بعد .

والكثير من هذا القصص ، أنشأه محترفون ، كانوا يلقونه فى الأسواق والموالد والأماكن العامة ، ويشرحون وقائعه ــ أحيانا ــ بالرسوم الساذجة المرسومة على القماش (١٤٨) . فى القرن السابع عشر ، ثم القرن الثامن عشر وكانت اخبار الحروب ، والفياضين ، والزلازل ، تذيع على الألســــــنة بهــذه الطريقة .

ولم يكن تنفيذ احكام الاعدام علنا يخرج على دائرة الموضوعات التى تتصدى لها أغانى القصص الشعرى .

وهكذا ، ظل رواتها الصعاليك ، موجودين الى ما بعد ظهور الصحف حتى فى البلاد التى يكثر عدد قرائها ففى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا كانت كل فاجعة وفيضان ، وعاصفة ، وحادثة تصادم فى السكك الحديدية، تستتبع انشاء حصيلة من هذا القصص الشعرى الغنائى الذى يتصف بالسوقية والافراط فى المبالغات ، الأمر الذى يجعله رائجا عند العامة .

وفى أسبانيا ، لبثت قصص شــعرية غنائية من هذا النوع ، تؤلف ، فى القرن التاسع عشر ، وكان أبطالها ــ فى العادة ــ قطاع طرق ومصارعى ثـــــيران .

وعلى حين يحيط الغموض بأصل القصص الشعرى الغنائى بعامة الا اننا نرجح وجود صلة بين هذا النوع من الشعر والممارسات العقائدية . فخرافة راقصى كولبيج تشير الى أن اغنية الرقص هذه ، كانت تلقىعشية العيد ، أو عشية أيام الصوم الكبير الكنسية . ولعلنا نضيف مثالا آخر ، هو خرافة الشيطان الذى يخالط الراقصين فى احدى المناسبات المذكورة. ولقد حاول رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، أن يحرموا هذه العادة،

وتلك حقيقة جديرة بأن تفند ذلك الافتراض الذى يقول أنها نشأت فى حجر الكنيسة . فلعلهاكانت من الموروثات المتخلفة من فترة زمنية سابقة ، حين كانت ترتبط ببعض الشعائر الوثنية ، وكانت تلك القصص تروى أحداثا دارجة من حياة الالهة ، ونستطيع أن نعتبر ان بعض الحكايات التى رواها سنورى Snorri التورى ، ولوكى ، كانت ــ فى أصلها ــ اغانى اعتقادية ترتبط ببعض مراسم الخصوبة .

ومن الجدير بالملاحظة أن القصص الشعرى الغنائى ، ما يزال يرتبط حتى اليوم ، بعادات الحج ، الى الأضرحة المحلية ، ولدينا شواهد غير قليلة ، على وجود هذا الأمر فى بريتانى « أرض الغفران دون منازع » . وايا كان الأمر ، فعصر هذا النوع من القصص الشعرى الغنائى ، لا يتصل بعصر القصة الشعرية الغنائية التى ألفها شاعر فرد ، والتى لا ترجع الى ما قبل القرن الخامس عشر ،بالرغم من هذه الحقيقة الصارمة الدامغة ، حاولت المدرسة الاسطورية تحت قيـــادة علماء من أمثـــال اندرو لانج Andrew Lang وليون بينو (١٤٩) Léon Pineau ان تخلق تاريخا عريقا ــ غاية العراقة ــ لهذا القصص الغنائى الشعرى القديم ، غير أن هـــذه المزاعم تقوم على أساس واهن متهافت . وينتهى بنا هذا الحديث الى أن نناقش ما نلقاه من مخلفات الماضى ، فى القصص الشعرى الغنائى .

وبقايا الماضى هذه موجودة فى القصص الشعرى الغنائى ، وجودها فى الملاحم وحكايات الجان ، ففى الأغنية القصصية الشعرية الدانيمركية ايرل براند Earl Brand التى اكتسبت شهرتها عن جدارة ، نواجـه « قوة الاسم » .

ويظل البطل فيها عزيز الجانب لا تناله الهزائم ، الى أن تناديه حبيبته باسمه ، لكى ينقذ أصغر أخوتها ، وعنـد ذاك يسقط البطـــل ميتا ، مثخن الجراح .

وتقع الحادثة ذاتها فى بعض النصوص القديمة لخرافة ارماناريا التى كانت بلا شك جزءا من معتقد قائم . غير أننا لا نملك الدليل القاطع على أن هذه القصة الشعرية الغنائية ، لم تكن ــ عند انشائها ــ من الموروثات المنحدرة من الماضى ، ذلك أن صفاتها الشعرية التى لا سبيل الى انكارها ، تدل على أنها منقولة عن بعض القصائد الشعرية السابقة أو السير العائلية النثرية ، أو لعلها كانت منقولة عن أوهام العامة الدارجة . ولعلنا نقول ــ على

ضوء ما سبق ــ ان عادة بتر الأصابع الهمجية كانت تمارس ــ لا تزال ــ فى أوروبا الوسطى ، أثناء القرن الثالث عشر ، وذلك لأن هذه الحادثة ترد فى ملحمة Die Rabenschlacht الموضوعة باللغة الألمانية الوسطى القديمة.

ويحتل ابن الأخت ، فى الشعر الغنائى القصصى ، مكانة قريبة من مكانة الخــــال .

ولقد اضاف بعض العلماء هذه الحقيقة ، الى اشارات أخرى رواها تاسيت وقفزوا من ذلك الى القول بوجود آثار لنظام العائلة المبنية على الحق الأمى . (أو قل نظام العائلة القائم على سلطة الأمومة) (١٥١) .

ولعلنا نلاحظ كذلك أن هذه الآراء قيلت عن الملاحم التيوتونية . غير أن الاشارات السابقة ، تدل ــ فى الحقيقة ــ على وجود تركيب ملحمى ، استعاره الشعر البلادى من الملاحم السابقة عليه زمنا . ولسنا نستطيع ان نتيقن من كيفية نشوء هذا التركيب الملحمى كما أن ذلك خارج عن موضوعنا الحــالى .

وفى بالاد سفند دارنج Svend Dyring الدانيمركية ، تخرج الأم من قبرها ، لتعتنى بطفلها الصغير الذى أهملته زوجة أبيه . وترد الفكرة ذاتها فى صيغة حكايات جان ، وفى شكل خرافات محلية وخرافات مهاجرة، وضعت الأغانى القصصية على غرارها . غير ان مثل هذه المعتقدات ، على قدمها ، لم تصبح دارسة حتى فى زماننا ، بل هى جديرة بأن تكون جزءا لا يتجزأ من الأوهام الذائعة .

وتفضل امرأة ــ فى قصة غنائية اسكنديناوية أخرى ــ أن تموت على أن تسمح لعاشقها بأن يساعدها فى ساعة الولادة . ويكمن وراء هذا ذلك التحريم « التابو » الذى يقضى بأن لا يشهد ذكر عملية الولادة ، وهو نوع من التحريم موجود فى مجتمعات بدائية عديدة . كما انه موجود ــ بقوة ــ بين الفلاحين والفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة فى أوروبا المعاصرة .

ولا زلت اذكر الفزع الذى أثرته حين أشرت ــ فى مناسبة ميلاد مماثلة باستدعاء طبيب كفء ، والاستعانة به ، بدلا من قابلة ، قليلة الكفاءة .

ولو اعتمدنا هــذه البقية الباقية من الممارسات القــديمة . لقلنــا ان القصة ، ترجع بجذورها الى القرن العشرين . وفى بالاد ، اسكنديناوية ثالثة ، يبدأ طفل يتكلم وهــــو فى المهد ، ويتنبأ بوقوع حادثة أخــذ ثأر فى المستقبل .

وأما عادة أخذ الثأر فلم تندثر حتى فى زماننا ، وأما عنصر «حديث» الرضاع وهم فى المهد فعنصر ذائع اشد الذيوع فى الآداب الشعبية .

وانى لأميل الى اعتبار هذا العنصر – فى الحالة المشار اليها وفى عديد من الحالات الأخرى – مرتبطا بفكرة « حادثة احقاق الحق » التى تعود الى أصل هندى (١٥٢) . وخلاصتها أن ما يبدو لنا مستحيلا ، يقع ، ويؤكد صدق كلمة ، قالها أحد الأشخاص القائمين بعمل ما . ولدينا حادثة نمو وردة وشجرة زهر برية ، من قبرى مارجريت الحسناء ، ووليام الوسيم ، التى اعتبرها المتحمسون ، دليلا واضحا على الاعتقاد ، فى حلول أرواح الموتى فى أشياء أخرى ، غير البشر ولكن المتحمسين يتغاضون عن الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحادثة ، اكتسبت ذيوعها الشديد ، لورودها فى قصة تريستان ، التى ترجمت الى معظم اللغات الأوروبية فيما نعلم .

وهذه الحادثة ، ليست جزءا من مادة الخرافة القديمة ، فى قصة تريستان وانما هى اضافة مستحدثة ، بل هى واقعة عامة ، تصلح لتزويق اية حكاية ذات نهاية مأسورية . واما الذى لم يلاحظ فى هذا الصدد ، فهو ورود حادثة ثبايس Thebais لستاتيوس ، وهى حادثة مطابقة ، او مقابلة . ففيها نسمع كيف أن السنة النار المندلعة من أكوام الوقود الجنائزى ، المخصصة لحرق الجثث ، والتى التهمت جثتى الأخوين المتعاديين وهما ايتوكليس Eteocles وبولينسيز Polynices قد انقسمت قسمين وكأنها تشير الى ان الكراهية والحب ، يستطيعان أن يعيشا بعد الموت .

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض العلماء ، لم يروا فى هذه النادرة أكثر من أنها اختراع انتحله بعض أدعياء الشعر وصناعه . على حين أن ورود هذه الحادثة فى القصص الهندى ، جدير بأن يدل على اننا بازاء قطعة من الفولكلور الأصيل .

ولدينا بالاد بنورى Binnorie الاسكتلندية السلافية المبنية على حكاية « العظمة المغنية » والتى يمكن أن نعتبرها ، بشىء من المنطق ، مثالا للاعتقاد فى حلول الأرواح فى الجمادات (١٥٣) . غير أن هذه الحكاية ، حكاية جان خالصة ، وصلتنا فى صيغ مختلفة كثيرة ، وكانت قد نشأت فى موطن واحد هو الفلاندرز كما يقول الدكتور لوتز ماكنسن أو هو الهند، كما نرجح . وأيا كان الأمر ، فالأغانى القصصية الشعرية ، لا تثبت شيئا

بالنسبة للاعتقاد المذكور فيما يخص أوروبا الشمالية . وتفترض البالاد الشهيرة التى خلدتها « لنور ، Lenore » لبورجر وجود معتقد سابق عليها ، فى الجثث الحية ، أو مصاصة الدماء .

غير ان هذه البالاد واحدة من القصص الغنائى الشعرى الذى نشأ فى أوروبا الشرقية ومنها انتشر فى العالم التيوتونى ، حتى جــزيرة ايسلندة .

وبوسعنا أن نطيل قائمة الأمثلة ، بل أن نضع مجلدا كاملا ، عن أوهام المدرسة الانتروبولوجية ، ولقد تكون الفائدة الوحيدة لمثل هذا ، أن ندلل على صدق كلمات فرانسيز بيكون عن قصور العقل البشرى .

وليس من همى أن أقلل من مكانة العلماء من أمثال الفقيد اندرو لانج الذى يساويه فى عبقريته ، القليلون من الأجيال المعاصرة ، ولا يتفوق عليه أحد منهم .

ولقد اسدت المدرسة الانتروبولوجية خدمة باهرة للعلم ، بأن نسفت الأوهام اللامعة التى قالها مكس موللر Max Müller واتباعه من أنصار المدرسة الأسطورية الشمسية .

ولا غرابة فى أن تتجاوز المدرسة الانتروبولوجية حدها ، ولا يراودنى أدنى شك ، بل لعلى آمل ، فى ان يحل منهج أصوب ، محل المنهج الأدبى الخالص ، الذى طبقناه فى هذه الدراسة .

ولعلنا نبحث بعد ذلك فى خصائص « المادة » التى تستخدمها الأغنية الشعبية القصصية .

وللرد المباشر تقول ان الشعراء الذين نظموا هذه الأغانى القصصية من أمثال شكسبير ــ كانوا يأخذون موادهم حيثما يجدونها .

اما حيث تنمو الأغانى القصصية من الملاحم القديمة ، فهى تتلقى ميراث مادتها من الملحمة ، كما هو الشأن بالنسبة للبالاد الأسبانية التى تولدت من « أغانى القصص البطولى » Cantares de gesta والبالاد الدانيمركية التى نشأت من ملحمة نيبلونجز الألمانية ، أو الأغانى الاغريقية عن ديجينس اكرتياس التى تولدت من الملحمة البيزنطية ، أو البلينى الروسية عن سليمان وسالمونيا الغادرة التى نشأت من ملحمة بيزنطية تدور حول هذا الموضوع .

اما حيث لا توجد ملاحم ـ كما هى الحال فى فنلندة وعند السلاف الجنوبيين ، فقد استخدمت الأغانى القصصية مواد الخرافة مباشرة ، بدون الاستعانة بوسيط ملحمى .

وفى سائر الحالات ، كانت هذه المواد ، تزيد حجما ، وتتضخم بما يضاف اليها من الاضافات الجديدة الآتية من مصادر جد مختلفة .

وهكذا نجد ان الأغانى القصصية الأسبانية ، تستخدم موضوعات مأخوذة من قصص الفروسية الفرنسى ، أو الأحدوثة الايطالية أو قصص الحب المغربية ، وهذه بدورها ذات أصول شرقية .

كما نجد أن المواد القديمة اتخذت شكل الأغنية الشعرية القصصية فى أوروبا الجنوبية والشمالية .

وهكذا تتهافت قصة الحب القديمة بين هيرو ولياندر الى البلاد الألمانية Es waren Zwei Königskinder(١٥٤) ووصلت اسطورة اورفيوس Orpheus ويوريديس Eurydice الى انجلترا ، من خلال وسيط سيلتى جعل Hades ملكا من ملوك الجان ، يخطف امرأة ، ثم يصبح موضوع ، اغنية قصصية انجليزية .

وتؤلف خرافة القديس ايوستاكيوس Eustachius موضوع اغنيتين قصصيتين بريطانيتين ، وواحدة ألمانية واخرى دانيمركية .

واعيدت صياغة prymskvida(١٥٥) ، لتصبح اغنية قصصية ، وكذلك أعيدت صياغة قصة هاجبارد Hagbard وسيجنى Signy ، التى رواها ساكسو النحوى (١٥٦) بأسلوبه المؤثر . وتقوم أغنية « ابنة الملك لويس » القصصية على أساس خرافة مهاجرة ، من أصل بيزنطى على ما نرجح .

وهذه الخرافة ، هى موضوع أغنية « اماداس وايدوان » الفرنسية القديمة ، واغنية اودفروا لوباتارد المسماة « ايدوان الجميلة » وهى كذلك موضوع اغنية اروتوكريتوس Erotokritos الاغريقية التى وضعها فنسنتيوس كورناروس الكريتى Vincentius Cornaros فى القرن السادس عشر (١٥٧) .

وقد قلنا أن أغنية لنوره القصصية مستمدة من أصول شرقية .

وفى نصوص الملحمة الاغريقية نجد ان الأخ : كونستانتين هو الذى يبعث من قبره ، ويرجع أخته الى أمها (١٥٨) تحقيقا لعهد أخذه على نفسه.

وأما فى اللغة الروسية ، فتتخذ الحكاية مظهرا أشد جهامة ، اذ يأتى

العاشق ويخطف خطيبته ، ويركب واياها ، صهوة الخيل ، ويذهبـــان الى المقبرة .

ونجد حكاية مارى دوفرانس البريطانية ـ والمسماة Le frêne فى شكل اغنية قصصية كما أن حكاية فرد جونده وعشيقها لاندريتش التى ترد فى كتاب تاريخ الفرنك Liber Historiae Francorum موجودة فى شكل بالاد اغريقية حديثة ثم أن بعض الأغانى القصصية تشترك فى الموضوع وحكايات الجان ومن أمثلة ذلك الأغنية القصصية بنورى التى أشرنا اليها من قبل ، وأغنية « اللحية الزرقاء » القصصيةLa Maumariée vengée par ses frères بل لم تكن مواد التوراة ، خارجة على الغرض ، ولنذكر الأغنية القصصية الفلمنكية Her Halowyn التى نشأت ـ بالتأكيد ـ من قصة جودث وهولوفيرنس (١٥٩) ولقد صيغت الأحداث التاريخية فى شكل أغان قصصية ، قبل أن يظهر رواة القصص الغنائى بوقت طويل، ومن ذلك حلقات البالاد التى تدور حول مصرع الملك الدانيمركى ديريك جليبنج .

وكان المثقفون ، وانصافهم يستوحون الملاحم والتقاويم التاريخيـة ـ فى بعض الأحيان ـ ويضعون أغانى قصصية على منوالها .

ويبدو أن تلك هى الحال بالنسبة لأغنية « دونا لومباردا » القصصية الايطالية والمعروفة كذلك فى ألمانيا والمشتقة ـ بلا نزاع ـ من حكاية بول راعى الكنيسة اليرسبتارية . وكذلك فهى الحال بالنسبة للأغانى الأسبانية الموضوعة عن لوذريق آخر ملوك الأسرة القوطية القديمة وأما الأغـانى القصصية الروسية الدائرة حول الملك سليمان وزوجته الخائنة فهى مشتقة ـ كما قلنا ـ من ملحمة بيزنطية مفقودة وهذه الملحمة كانت تروى انقلاب حظ ملك عجوز ساحر ، وقد صاغها مؤلفون يهود ، واستخدموا فيها مواد هندية .

وأشد مما سبق تشويقا ، واثارة للاهتمام ، تلك الأغانى القصصية الروسية الموضوعة حولدوبرينيا نيكيتش Dobrynya Nikitich قاتل التنين والساحر مارينا اجناتيفنا Marina Ignatievna واما ماريا فهى هـذه الالهة التى سارت فى الأرض ، فى صورة بشر ، وهى الالهة السامية القديمة التى يصاحبها حمامها المقدس ، وكانت تقتل عشاقها بعد أن تعاشرهم أو تسخطهم وتجعلهم حيوانات متوحشة . ولا يخالجنا شك ، فى أن هذا الموضوع ، ترامى الى روسيا من بلاد الشرق الأدنى مباشرة حيث كان ذائعا

فى هذه المنطقة أثناء العصور الوسطى ، واذا كانت الأغنية القصصية ــ حسب تعريفنا لها ــ شعبية من حيث أصلها ، أو من حيث تداولها ، فقد نتوقع أن نجد فيها أغلب الملامح ــ ان لم يكن سائر الملامح التى نلقاها فى كل فن شعبى ونلقاها فى حكايات الجان على سبيل المثال .

وانها لكذلك ، ومن هنا كان التشابه بين تكنيك الأغنية القصصية وتكنيك حكايات الجان ، يلفت النظر حقا . فالأغنية القصصية ، تؤثر كحكاية الجان ، التصنيفات الثابتة والتكرار . فالحدث الواحد قد يتكرر ثلاث مرات متعاقبة .

من ذلك مثلا أن العذراء ــ وقد انقذت من المشنقة ــ تستنجد بأبويها أولا ، وباخوتها ثانيا ، وآخر الأمر بحبيبها الذى يصنع الحل فيحررها ، بعد أن يرفض الآخرون ذلك .

وصياح الديكة الذى يطرد الأشباح يصنف هكذا .

يصيح الديك الأسود أولا ، فينبه الأشباح أن تأخذ حذرها لكنه لا يطردها ، ثم يصيح الديك الأحمر ، فلا يحقق نتيجة أفضل من سابقه، وحين يصيح الديك الأبيض معلنا شقشقة النهار ، ينتهى سلطان الأشباح، ويتم انقاذ البطل أو البطلة ... ولقد يظهر موكب من نساء بارعات الجمال ، ويظن أن الملكة بينهن . ولكن يقال لنا انها لم تظهر بعد وان هذه النسوة الجميلات ، لسن الا وصيفاتها .

ثم يقبل موكب من نساء أبرع جمالا ، ولكن الملكة ليست بينهن .

وأخيرا ، تأتى الملكة نفسها ، فاذا هى أجمل آلاف المرات من سائر الجميلات .

ولكن يبدو من المثلين الأخيرين كيف يقع مركز الثقل فى القصة ، فى المرحلة الثالثة ــ مرحلة « الأفضل » كما يقال وفى كلمة أخرى ، نجد هناك تكنيك حكايات الجان (١٦٠) .

وتحب الأغانى القصصية ــ كحكايات الجان ــ أن تضع الملوك فى مسرح الأحداث ، فاذا تعذر عليها ذلك ، زينت أبطالها بالرداء الملكى ، ولو كان هؤلاء الأبطال من قطاع الطرق ، أو خيرا منهم قليلا . وجعلت قصورهم ذهبا ورخاما ، وثيابهم من حرير ومخمل ، وطعامهم على موائد من ذهب، وشطرنجهم من الابريز وقطعه من العاج ، وخيلهم أحسن الخيل العربية التى تنتعل ذهبا أو فضة .

وأما العذارى فأجمل الجميلات ، والتشبيهات والمجازات المستعملة، شديدة المبالغة ، والأطناب .

ولا عناء فى أن نفحص عن علة هذا الاطناب ويكفينا أن نقول أنه صفة عامة سائدة ، ولقد يمارس معها الفلاح البسيط فى الريف الانجليزى ، نفس الخيال ، الذى يمارسه بالنسبة لقصر بكنجهام .

وحيث تكون الأغانى القصصية ملحمية فى نبراتها ، ومقســـمة الى حلقات ، نجد أن الملك فيها ، يشبه أشد الشبه ، الملك الملحمى فى أغانى شارلمان أو آرثر ، فهو شخصية رياسية ، يتسيد مجموعة من الأبطال ، لكل منهم شهرته التقليدية ، وحكاياته الخاصة .

وأما الملك نفسه ، فلا يصنع شيئا ، كما أنه يبدو ــ فى حالات عديدة ــ فى صورة الطاغية الانانى ، أو الأحمق .

وهذا ما نلقاه فى بعض الأغانى القصصية الدائرة حول شارلمان . وفى اغلب الأغانى الروسية القصصية عن فلاديمير .

وقد اراد علماء من امثال ليون جوتييه Leon Gautier ان يروا فى هذا الملمح ، تعبيرا عن احتقار أصحاب الاقطاعيات لسلطان الملوك .

وقد يكون ذلك حقا ، فلعل الاقطاعيين الذين كانوا يستمعون الى هذه الملاحم والأغانى القصصية كانوا آخر من يعترض على هذا التصوير للأمور .

غير أننا نتساءل عما اذا لم يكن تصنيف مادة الملحمة ذاته ، كان حريا بأن ينتهى الى هذه النتيجة فاجاممنون فيما نذكر لم يكن ملكا على أكايا ، اكثر مما كان جودفرى سلطانا على الصليبيين ، ولم يكن لهومر من دافع شخصى يدعوه الى التقليل من شأن اجاممنون . ومع ذلك ، فلا مفر من ان نعترف بأن دوره فى الالياذة ، لم يكن أشرف الأدوار .

وينبغى لنا أن نتحدث قليلا عن عنصر النصيب أو الحظ فى الأغانى القصصية (١٦١) . ذلك العنصر الذى يحتل مكانة ظاهرة ــ دون شك ــ فى الأغانى القصصية الاسكتلندية والانجليزية والسكنديناوية ، ويحتل مكانة ضئيلة فى الأغانى القصصية الألمانية والفرنسية ، ويفتقده ــ بعد ذلك ــ فى الأغانى القصصية بقسطلة . كما أننا لا نزعم انه ظاهر المكانة فى الأغانى الروسية واليونانية .

ومن الخطأ ــ اذا ــ أن نعتبره ملمحا جوهريا فى الشعر البالادى . كما انه لا يصعب علينا تعليل ذلك وان كان من الخير أن نأخذ بعض الأمثلة

التوضيحية فالنبوءات ـ وخاصة الأحلام ـ تلعب دورا هاما فى بعض القصص الشعرى الغنائى .

وهذا الملمح لا تختص به البلاد ، بل هو شائع فى الشعر الملحمى من أول ملحمة فارساليا (Pharsalia) الى أغنية رولان الى أغنية ميوسيد الأسبانية (Cantar de Mio Cid) .

ومن المرجح كثيرا ، ان يكون القصص الشعرى الغنائى قد أخذ هذا الملمح من الملاحم .

ونسمع فى قصص شعرى غنائى اسكنديناوى عن ذئبة تهاجم امرأة حبلى ، وعن طائر الليل ـ وهو بلا شك ـ طائر « الطيرة » ، ولا تختص الأغانى القصصية بأيهما ، فكلاهما يرد فى الخرافات الدانيمركية المحلية .

وكذلك فالأشباح مصاصية الدماء فى القصص الغنائى الاغريقى والروسى ، جزء من الفولكلور الحى الموجود فى بلاد اليونان الحديثة ، والأجزاء السلافية من أوروبا .

وكثير من هذا ، يقال عن EllerKonge الدانيمركى وهو النموذج الأصلى لملك العفاريت ErlKôring لجيته(*) .

ولسنا نعرف سبب قلة هذه العناصر نسبيا فى القصص الغنائى لأوروبا الوسطى .

غير أن السبب ، ليس ـ كما يزعم هاينى ـ من أن شدة ضوء الشمس ، تقضى على الأشباح . فالهند وحدها بعربات الراكشا المفزعة ، جديرة بأن تفند هذه الفكرة .

وأغلب الظن ، أن السبب هو أن التقاليد الأدبية العريقة ، التى تعود الى أيام الحضارة الرومانية ، تعادى مثل تلك التخيلات والأوهام .

ثم أن أسبانيا ، شبت عن مرحلة التوحش ، قبل الدانيمرك وايسلندة، بنحو ألف عام .

(*) مطلعها :

« من الذى يركض هكذا سريعا

فى الليل والريح

انه الوالد ومعه ولده

ولقد يبحث الانسان عن ملمحين آخرين فى الفن الشعبى ، يفتقدهما فى القصص الغنائى القديم ، ونعنى بهما عنصر الوعظ ، والنهاية السعيدة.

واما العنصر الأول ، فلم يلبث أن دخل القصص الغنائى ، وصار رواة هذا القصص ، يبالغون فيه .

وهكذا ، نجد راوية المانية للأغانى القصصية ، فى القرن الثامن عشر، يصف اعدام فتاة قتلت طفلها الوليد ، فيجعل الجلاد يخاطب الجمهور قائلا:

Hochverehrtes Publicum, Bringt doch Keine Kinder um !

« أيها الجمهور المبجل » .

« لا تقتل الأطفال »

لكن الأغانى القصصية القديمة كانت أميل الى التحفظ ، ومما له مغزى ، أن نجد أن الشاعر بورجر هو الذى اقحم عنصر الوعظ والارشاد على الأغنية القصصية القديمة لنور فقال :

« تعلم الصبر ولو شقى قلبك »

« ولا تطلب السيطرة على قضاء ربك » .

ومن الخير أن نتريث فيما يخص النهاية المأسورية التى قيل انهــا ملمح أساسى فى القصص الغنائى الشعبى . فالقصص الغنائى ذو النهايات السعيدة ، ليس نادرا ، بل لعله شائع فى أسبانيا وفرنسا .

ولو سلمنا بما سبق ، لقلنا ان الروح المليودرامية غريبة على القصص الشعرى الذى نشأ أول ما نشأ فى بيئات غير تلك التى أنشأت حكايات الجان والخرافات المحلية ، فكانت من ابداع العامة الذين يعرفون انسابهم ومثلها فى ذلك مثل السيرة العائلية النثرية .

أما النهاية المأسوية ، والنبرة المأسوية الأساسية ، فتربطان الأغنية القصصية الى الملحمة . ذلك أن الملاحم الكبرى جميعا ــ من الألياذة الى أغنية رولان الى بيولف الى نبلونجن ــ تنتهى بنهايات مأسوية .

والسبب عندى أن الملحمة صيغة شعرية أرستقراطية ، وان القصة الشعرية الغنائية فرع شعبى من الملحمة . ثم أن القلة السعيدة هى التى تدرك الحقيقة المحزنة من أن :

« كل سفينة صائرة الى قاع .

« وكل فرن الى احتراق
« وكل عيد الى ضياع
« وكل ضحكة الى زفرات

ولم يكن مؤلف كتاب Koheleth البديع من العامة ، وذلك اذا لم يكن مؤلفه الملك سليمان أو ملكا على الاطلاق .

ودعنا الآن ننظر فى جنس « البالاد » الشعبية .

هناك نظريتان سائدتان ، فى الوقت الذى نكتب فيه هذا الكتاب .

أما الأولى فيتعهدها فرانسزيى جومير Francis B. Goomere ، وأما الثانية فنظرية الدكتور لويس باوند Louise Pound .

بدأ الدكتور جومير من المادة التى قدمها تشايلد وجرنتفيج ، وانتهى الى القول بأن أقدم أجزاء جسم البالاد هو القفل ، أو المرد . وانه كان يغنى بمصاحبة الرقص وأن القصص اضيف اليه بعد ذلك ، عن طريق الارتجال ، وبمعاونة مجموعة الراقصين .

وخلافا لهذا ، يرى الدكتور باوند أن البالاد من صنع مؤلف فرد ، وينفى ـ وهو على حق ـ كل صلة بين نشأة الرقص والبالاد .

واما نحن فنرى أن القفل أو المرد على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للقصص الشعرى الغنائى البريطانى والسكنديناوى بل لقد لاحظ وجود الارتجال جامعو النصوص . من أمثال بيترى G. Pitré فى ايطاليـــا ؛ واولريكس H.N. Ulrichs فى اليونان الحديثة .

وفى حكاية الانسى الذى يسمع اتفاقا رقصة الأقزام ، ويكمل أغنيتهم ، فيكسب رضاءهم ـ فى هذه الحكاية مثل غريب يبين الرغبة الشعبية فى ادخال زيادات على نص كان بسيطا أول أمره .

وهذه الحكاية ، تمثل ـ بلا نزاع ـ عماية النمو العضوى .

ولكن ينبغى أن نتذكر أن النمو العضوى لا يعنى ما يعنيه ارتجال الشعر ذلك انه ليس خلقا من عدم ، وانشاء من لا شىء كما يعتقد الأستاذ جومير فيما يبدو .

وفضلا عن هذا ، فالاشعار المرتجلة ليست شعرا قصصيا ، بل

هى اقرب الأشياء الى جيشان شعر غنائى ، يشبه كثيرا ، المراثى المعروفة ، للندابات الكورسيكيات .

واذا نحينا جانبا هذه الاعتبارات وجدنا ان رأى جومير تعترضه حقيقتان :

أولاهما أن المرجع أو القفل ، موجود فى غير القصص الغنائى الشعرى ، ومن ذلك بعض الأشعار الملحمية .

والثانية ان جانبا كبيرا من القصص الغنائى الشعرى فى أوروبا الجنوبية ، يخلو من المرجع أو المرد .

ولقد يثار فى دحض الاعتراض الأول ــ ونعنى به وجود المرد أو المرجع فى الغناء الملحمى الفرنسى القديم كجرد موند وازمبار واغنية ويليام ــ قد يثار الزعم بتأثير الشعر القصصى الغنائى على هذه الملاحم غير أننا نستطيع أن نجد شواهد ، على هذا الزعم بعيدا عن مشكلة المرد أو المرجع فيما أظن .

واما الاعتراض الثانى فيقضى على رأى جومير فمن المتعذر تماما ، أن نشتق الاغنية القصصية الروسية أو الاسبانية ، من المرجع او المرد ، الذى لا نجده فى هذا النوع أو ذلك . وليس بنا حاجة أن نتحدث كثيرا عن جميع القصص الغنائى الشعرى الانجليزى أو الاسكتلندى ، ما دمنا نرجح أن القارىء على علم بهذا النوع . كما أن القصص الغنائى السكنديناوى ــ يبرز ــ أساسا ــ الشكل ذاته .

وأما بحور القصص الغنائى الفرنسى والسلافى ، فقصيرة كذلك ، فى حين نجد أن الشعر الاسبانى الملحمى ، المنظوم على بحور طويلة بشكل غير عادى ــ والذى نجد البيت الواحد منه يتألف من (١٤ تفعيلة الى ١٨) ــ هذا البيت ينشطر شطرين متساويين . ونتيجة لذلك ، تتفق الأبيات الزوجية فى الجرس أو التقفية ، وان كان الغالب اتفاقها فى الجرس .

ونلاحظ وجود الظاهرة نفسها فى اليونان ، حيث انشطر الشعر السياسى الطويل كما يسمى ــ الى شطرات .

واما فى أوروبا الشرقية ، فيذيع النظم على البحور الطويلة ، ولقد ندع لدارسى اللغات السلافية ان يقرروا ما اذا كانت تلك الخاصية ترجع

الى تأثير الفنلنديين على الروس ، فقد كان الفنلنديون يقطنون روسيا قبل السلاف .

ولعلى اضيف أن الافتراض الأخير بعيد عن الترجيح ، ذلك أن السلاف الجنوبيين يستخدمون هذه البحور الطويلة .

وما يصدق على الحكايات الشعبية والأمثال ينسحب بالمثل على القصص الشعرى الغنائى ونستطيع أن نفرز بعض أنواعها بالذات استنادا الى خصائص موضوعها .

ولقد يحدث فى بعض الأحيان كما قلنا أن تتشابه اغنية قصصية شعرية مع حكاية جان فاذا أردنا ان نؤرخ لأيهما وجب علينا أن نأخذ فى اعتبارنا نصوص حكاية الجان المختلفة ونصوص الاغنية القصصية الشعرية . وعند تقصى تاريخ أنواع الأغانى القصصية الشعرية ينبغى أن يرافق المنهج الجغرافى التاريخى قدر من نقد النص وتحليله .

والحق أننا اذا قارنا قوافى نصوص الأغانى القصصية المختلفة بعضها الى بعض استطعنا أن نستنتج منها شواهد على العلاقة القائمة بينها .

وكثيرا ما يوضح القالب الشعرى أن الأغنية مترجمة . وهكذا تخلو الأغانى القصصية السكندناوية من المسائل الخطابية وتخلو كذلك من كلمات قال وقالت الخ . فاذا ما وردت هذه الكلمات فى أغنية قصصية شعرية دانيماركية رجحنا أنها مترجمة عن الألمانية .

هذه المقارنة النقدية تفضى بنا حتما الى تقرير النمط الأصلى على حين قد تفضى بنا الأحداث التاريخية أو ترديد أسماء تاريخية بذاتها الى أن تكتشف تاريخ النص ومكانه الأصلى . هذا العمل أنجزه بدقة علمية شديدة العلماء الدانيماركيون سفند جرونتفج (*) واكسل اولريك (**) والعالم الأمريكى ف . ج . تشايلد(***) والعالم الفرنسى دونسيو (****) ويقوم الأستاذ ليستول (*****) بمتابعة هذا العمل فيما يخص المادة النرويجية .

(*) Suend Grundtvig

(**) Axel Olrik

(***) F.J. Child

(****) G. Doncieux

(*****) Liestöl

ولم تقم الأغنية القصصية الشعرية بدور (سندرلا) المتواضع الذى قامت به حكاية الجان لفترة طويلة من الزمن ففى القرن السادس عشر أعجب سير فيليب سيدنى ببلاغة شعر بعض القصص الغنائى الاسكتلندى والانجليزى وانجزت أول مجموعة من الأغانى القصصية من الدانيمارك أثناء القرن ذاته وحوالى ذلك التاريخ أو بعده بقليل تحدث خوان دياز دى رينفيجو (*) حديثا طيبا عن الأغانى القصصية الأسبانية القديمة . وفى القرن السابع عشر عارض موليير ألحان السونيتات المستحدثة والذائعة فى ذلك الوقت باللحن البسيط لأغنية « لو ان الملك أعطانى » غير أن اثارة الاهتمام العلمى بهـذا الفرع من الفولكلور استغرقت مرحلة انبعاث الرومانسية . فظهور « المأثورات الباقية » سنة ١٧٨٥ للاسقف پرسى تميز مرحلة فى تاريخ الآداب الانجليزية غير انه مضى أكثر من نصف قرن بعد ذلك حتى بدىء فى تصنيف أول مجموعة منهجية من الأغانى القصصية الشعرية وتعتبر أسماء لوكهارت ويعقوب جريمة وفردناند نولف(١٦٢) وجرونت فيج أعلاما على تاريخ اكتشاف المواد الأسبانية والبرتغالية والسكنديناوية .

ونشر فوريل (**) فى نفس الفترة تقريبا أول مجموعة من القصص الشعرى الغنائى اليونانى مترجما الى الفرنسية وفض العالم النمسوى فردريش كراوش كنوز السلاف الجنوبيين بينما كان جامعو النصوص الروس يتعمقون أرض الغابات فى الولايات الشمالية الشرقية ليدونوا القصص الغنائى الشعرى كما كان يغنيه الصيادون على شواطىء البحيرات الروسية الكبيرة . وينبغى لنا الا ننسى اسم يوليوس (***) كرون فيما يتصل بمواد الأغانى القصصية الفنلندية الشعرية ولا يجوز أن نعدد هنا مناحى الالهام التى منحتها هذه الأعمال للأدب بل يكفى أن نقول انه ما كان لروبرت بيرنز اوسكوت ان يصيرا الى ما صارا اليه لولا الأشعار الشعبية فى سهول اسكتلندا ولا نزاع فى أن بيرون قد استوحى كثيرا من أغانى البحر الأبيض المتوسط القصصية خاصة ما كان منها باللغة اليونانية ثم أن نظام شعر الملحمة الأمريكية وهى الملحمة الوحيدة الموجودة أخذ من ملحمة كاليفالا « الفنلندية » .

(*) Juan Diaz de Renfigo

(**) Fauriel

(***) Julius Krohn



الرقى والتعاويذ
والاسجاع والالغاز

● الرقى والتعاويذ والأسجاع والألغاز

الصـــلاة بينها وبين السحر . والطب . الرقى الوثنية والرقى والتعاويذ المسيحية . الاهابات بالقديسين ــ الاهابات الخاصـــة باستطلاع الغيب ــ المنظومات السحرية واغانى اللعب ــ والخرافات .

الألغاز ــ المنهج الفنلندى فى دراستها .

● الرقى والتعاويذ والأسجاع والألغاز

تنطوى الرقى والتعاويذ تحت عالم السحر ، وأما ما يتصل بأساسها الروحى ، فسوف نعود لمناقشته فى فصل قادم .

ولكن يحسن بنا أن ننبه ــ هنا ــ الى اننا اذا طرحنا جانبا معناها السحرى ، ودلالتها السحرية ، وجدناها جزءا من المأثورات الشفاهية ، فهى خلق ابتدعه الذهن الشعبى ، ارضاء لدوافع فنية محددة ، شأنها فى ذلك شأن الأغنية الشعبية والأغنية الشعرية القصصية .

غير انه ينبغى أن نستدرك فنقول ان أكثر الرقى والتعاويذ الموضوعة لاتقاء الأمراض ، ورد اللصوص ، والمجموعة فى الفترة الأخيرة ، والمنشورة (ولقد نتساءل لماذا نشرت) خالية من الصياغة الفنية خلوها من الفعالية ، ولعلنا نضيف كذلك ، انها خالية من النزعة العلمية الأصيلة . ذلك انها تمثل توليفات حمقاء وتركيبات لم يعد أحد يفهمها ، حتى الذين يلقونها . ونستبعد أن تكون احداها قد نشأت بين العامة ، أو فى أوروبا بل يبدو واضحا انها مادة مثقفة تهافتت وهبطت ، وانها مأخوذة من مجموعات البحر الأبيض المتوسط ، التى ترجع الى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية التى استشرى فيها السحر ، ولقد تفصح ــ فى أكثر من حالة ــ عن قرابتها لقبالة اليهودية .

وهى تدل ــ فى خير حالاتها ــ على صحة نظرية هـ . ناومان عن الاستيعاب وخلاصتها القول بتهافت المادة المثقفة وهبوطها من الفئـــات الاجتماعية العليا الى الفئات الدنيا . ومن الخطأ أن نضع سائر الرقى والتعاويذ تحت هذا القسم ، كما يتضح ذلك بقليل من التفكير ــ ذلك انها ، تقوم على أساس الفكرة الساذجة ، التى طالما رحبت بها البشرية ، وهى فكرة « فعالية الكلمة » التى سخر منها جيته بلباقة فقال :

« على العموم . . سيروا وراء الكلمات وعندئذ تدخلون من الباب الأمين الى معبد اليقين فبالكلمات يحسن الناس العراك والمشاحنات ! وبها يقيمون النظم وبها يؤمنون اطيب الايمان

ومحال ــ اذا أن (*) ننزع حرفا من كلمة » .

وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن تقال هذه النصيحة الذكية فى القصيدة الألمانية العظيمة ، لشاب يوجه نفسه لدراسة الطب وقد لا نأتى بالكثير حين نقول أن كل فنون الطب تولدت من السحر .

τοὺς μεν μαλακατς ἀμφέηων
τούς δέ ηρσανέα ηίνοντος ἢ γυίοις ηεραητωυ ηαντοθεν
φαρμακα τοὺς δὲ τομαῖς ἔαταοευ δρθους,

فالرقى والتعاويذ السحرية تحتل المكانة الأولى ، ويحتل الطب ، ومشرط الجراح المكانتين الثانية والثالثة .

وعلى هذا فعراقة الرقى والتعاويذ ، مفترضة سلفا . وما كان للناس أن ينتظروا حتى يذيع طب الحركة السرى ، فى أوروبا لعهدها الوسيط ، لكى يداووا أمراضهم ، بل كان عليهم أن يعمدوا الى القاء الرقى والتعاويذ لوقف النزيف وعلاج الأدواء وتضميد الجراح .

وتكشف محتويات هذه الرقى والتعاويذ ، عن تداع بسيط للأفكار السحرية ، يسمح لنا بأن نفترض ــ بلا تردد ــ وجود أصل مستقل فى الأماكن المختلفة ، والأزمان المتفرقة . فاذا كنا نقرأ رقية ميرزبورج الثانية المستخدمة فى علاج ورم مفاصل الحصان ، على النحو التالى :

bên zi bêna, blout Ziblouda,
Lid zi geliden, sôse gelîmida sin

(*) نص من فاوست لجيته ــ الاستهلال الاول .

Im ganzen — hatet euch an Worte
Dann geht ihr durch die sichre Pforte
Zum Tempel der Gewissheit ein.
Mit Worten lässt sich trefflich streiten,
Mit worten ein System bereiten,
An worte lässt sich trefflich glauben,
Von einem Wort lässt sich kein Jota rauben.

فان رقية اخرى من الأثارفاڤيدا (*) السنسكرتية ، تضارعها ، وهذه اترجمها فيما يلى :

« انضم أيها النخاع الى النخاع
« وانضم أيها الطرف الى الطرف
« ولينم ثانية ما فقدته من لحم وعظم
« انضم ايها النخاع الى النخاع
« وانضم ايها الجلد الى الجلد الأعلى .

وقد يرى انصار النظرية الآرية فى هذه المطابقة القريبة ، شاهدا آخر على الارث الآرى الذى انتقل فى سياق مشابه ، الى مؤلفى الفيداس والألمان القدماء .

واذا اخذنا فى اعتبارنا ، عراقة التعاويذ والرقى ، التى ترجع الى العصور الهند أوروبية ، تعذر علينا أن ندحض هذه النظرية ابتداء ، ولكنا نرجح وجود أصل مستقل لها .

ويساعدنا الشعر الڤيدى على أن نهدم نظرية من أشـــد النظريات المستحدثة فسادا ، واذا صدقت فى بعض مداها ، فهى تجانب الصواب فى تعميماتها الجريئة .

تزعم هذه النظرية أن كل التعاويذ والرقى من هذا النوع ، شرقية مشكوك فى مسيحيتها . لكن هذا الزعم ، ميكانيكى مفتعل ، فالرقية الوثنية التى تتحدث عن ودان وبولدر ، هى النموذج الوحيد من نوعه ، بينما تذكر الرقى المماثلة الفنلندية . والانجلوسكسونية والسكنديناوية شخصيات اسطورية مسيحية .

ثم أنها فاسدة ، لأن كل شىء كان ضد استبقاء أشعار السحر الوثنية ، وكل شىء كان مواتيا لصبغها بالصبغة المسيحية .

ولعلنا نتساءل ــ بحق ــ ما الذى كان خليقـــا بأن يحمل قسيسا مسيحيا ، على أن يضع أسماء وثنية محل الأسماء المسيحية فى رقية أو تعويذة أصلها مسيحى .

(*) Atharvrveda

واذا تغاضينا عن هذا الاعتبار وجدنا ان تداعى الأفكار المستعملة ــ ومنها كما عالج الرب اصابة الآلهة ، فكذلك فلتشف اصابة السيد (فلان) بذات الطريقة ــ هذا التداعى ساذج بسيط ، لا يحتاج الأوروبيون معه الى ان ينتظروا حتى تأتيهم هذه الأفكار من حوض البحر الأبيض المتوسط ، أو حتى يقع الموضوع المسيحى ، على مثل هذه الأفكار .

وارجح الاحتمالات ــ كالعادة ــ ان يكون قد حدث نمو متوازن فى بلاد البحر الأبيض المتوسط وفى أوروبا الشمالية والوسطى ، ومعنى ذلك أن نستبعد احتمال تقارض المادة وتبادلها .

ثم ان المادة القديمة ، زيدت فى العصور الوسطى ، بما أدخل عليها من اضافات صادرة من الكتابات الشبه علمية التى انتحلها اليهود أو تلك التى ظهرت فى بلاد البحر الأبيض المتوسط .

ولكى اشرح بدقة ، نظام هذا النوع من الشعر السحرى ، أذكر هنا بعض الأمثلة ، الجارية لا تزال فى الريف الانجليزى فاذا أريد اخراج شوكة القيت الرقوة التالية :

سعيد هو المسيح الذى ولد

وقد كلل بالشوك

وخرم جلده

لكى يتعمق السم

ولكن جراحه الخمسة فيما قالوا التأمت قبل ان يموت

فليتعمق الشفاء ويخرج الشوك

وسعيد هو المسيح الذى ولد

واذا أريد لشكة الشوكة الا تحدث ورما ، لجأ العامة الى تداعى أفكار مشابهة ، واليك المثل التالى :

ولد المسيح لعذراء

وشكته شوكة

ولم تحدث جرحا أو ورما

وايمانى بالمسيح الا يحدث هذا

والاهابات المنظومة قريبة من الرقى والتعاويذ بل انها تنطوى تحتها وأكثرها مرتبط بفعالية السحر .

ومن ذلك مثلا انه اذا ارادت فتاة ان ترى زوجها المقبل فى الحلم ، فى ليلة القديس فالنتاين او القديس لوقا ، فما عليها الا أن تهيب بالقديس قائلة :

حنانك ايها القديس فالنتاين الطيب
دعنى ارى فى المنام حبيبى

وتنتمى ادعية طائر « الروقوق » الى النوع ذاته فيقال له :

طائر الروقوق !!
شجرة الكرز
ايها الطائر الطيب قل لى
كم قدر لى من عمر

والاهابة بشجرة التفاح التى تقول

ايها الفتاح !! التفاح .. والجنة . !
قول لى اين ينام حبيبى
افى الشرق ام الغرب ؟
ام الشمال ام الجنوب ؟
وهل هو يقترع ضد بريج أم كوكرماوث

وللخفاش يقال :

ايها الفار الهوائى ! ايها الفار الهوائى
طر فوق راسى
وخذ كسرة من خبزى
وعندما يختمر عجينى واخبزه
ستأخذ قطعة من كعكة زواجى .

وينبغى ان نضم الى اشعار السحر ، تلك الاهابات التى تقال عند استطلاع الغيب فيما يخص الحبيب — ومثلها :

اوراق شجرة لسان العصافير الملساء فى يسارى
واول رجل القاه سيكون زوجى

أوراق شجرة لسان العصافير فى قفازى
وأول رجل ألقاه سيكون زوجى
أوراق شجرة لسان العصافير فى صدرى
وأول رجل ألقاه سيكون الأثير عندى
أوراق شجرة لسان العصافير الملساء فى يمينى
وأول رجل ألقاه سيكون لى
يا ورقة شجرة لسان العصافير
انى أقطفك
لأنى سأرى حبى الحقيقى الليلة
انه لا يأتى فى زحام ، ولا يتأخر
وليس فى أثمال أو كومة ثياب
بل فى الزى الذى يلبسه كل يوم

وقراء « فاوست » لجيته يذكرون ـ لا محالة ـ تلك المنظومات التى تمثل بها جرشن فى مشهد الحديقة الشهير .

والمنظومة التالية معروفة فى أنحاء انجلترا .
انها تقول :

يا أزهار البلسم ، وأول ما وجـــدت باسم المسيح عيسى اقطفك من الأرض
وكما أحب اليسوع مارى الجميلة وجعلها الأثيرة عنده
فكذلك أرجو أن يظهر لى حبى فى منامى الليلة

وهى منظومة كما نرى على غرار الرقى الموضوعة لعلاج الأمراض . وأما أنها تلقى عند اقتلاع النبات من الأرض ، فتدخلها ضمن أشعار السحر التى تقال عنـــد اقتلاع نباتات الشفاء ، وغرضها أن تزيد من تأثيرها وفعاليتها .

ويكفينى أن أذكر أنموذجا واحدا ، كعينة كاملة :
سلاما ، لك يا زهور الفربينا
أيتها الحشائش الطاهرة جميعا
التى تخرج من الأرض
فى جبل كالفارى

هناك وجدوك أول مرة
وكم من الأحزان خففت ؟
وكم من الجراح شفيت ؟
فباسم يسوع الحبيب
أنزعك من الأرض

ويرافق المراسم السحرية كذلك هذه المنظومات التى تلقى فى مناسبات احتساء الخمر لشجر التفاح ، وغرضها زيادة المحصول السنوى .

واليك المثل التالى :

فى صحتك .. يا شجرة التفاح الطيبة
حتى تحمل اغصانك ما يملأ الجيوب والقبعات والمكاييل والجوالات
أو اليك مثلا آخر اشد ذيوعا :
مات روبين وهو ممدد فى قبره
هم ها ! ممدد فى قبره
ضعوا شجرة تفاح فوق رأسه
هم ها ! فوق راسه
واذا نضج التفاح وآذن بالسقوط !
جاءت عجوز تريد أن تجمعه
هم ها ! تريد أن تجمعه
وقفز روبين من قبره وضربها ضربة
هم ها ! وضربها ضربة

وتعطينا اغنية السكر الثانية مثلا جيدا للتدهور المستمر ، حتى فى هذا النوع من الأغانى ، فهذه الأغنية أصبحت الآن من أغانى الأطفال (*) وأسجاعهم .

قادت هذه الحقائق المدرسة الأنتروبولوجية الى الظن بأن هـــذه

(*) من الآراء التى أبداها انصار علم الانسان الثقافى فى أغانى الأطفال ، انها نشأت أول ما نشـــأت كأغانى اعتقادية أو أغانى سحر ، ثم اندثرت الممارســـات الاعتقادية والسحرية ، وتدهورت الأغانى وتحول مدار استعمالها ، من الأغراض الجادة الى أغراض اللعب والتسرية ــ المترجم .

المنظومات جديرة بأن تفصح ـ بطريق مباشر ـ عن ثقافة مندثرة ، كانت لها عاداتها التى درست ونسيت منذ أمد طويل .

واذا لم نتريث كثيرا فى ابداء هذا الراى ، وقعنا فى الشطط .

وخذ مثلا اغنية الشرب الآنفة ، تجد ان عاداتها ما تزال جارية فى انجلترا فى القرن العشرين ـ على ما أعلم . وان كانت مستعملة فى نطاق ضيق .

وليس من الاسراف أن نفترض انها كانت ذائعة فى القرن الثامن عشر ، ومن أدنى هذه الجزيرة الى أقصاها . ومن الطبيعى ، أن يكون الأطفال قد التقطوها ، وحولوها الى منظومة أطفال عادية ومسجوعة . وبعضهم التقطوا معها ـ وكثيرا ما يفعلون ـ بعض اجزاء الروايات الأوبراكوميك التى ظهرت فى القرن الثامن عشر .

وبوسعى أن اذكر ـ فى تدعيم هذا الراى ـ نموذجا المانيا ، نعرف اصله الحديث معرفة يقين .

وأنا اشير الى سجع الأطفال القائل :

روبنصون ! روبنصون ! طار فى منطاد هوائى الى اعلا ! الى أعلا مع العذراء سالومى (*) .

وقد يضاف اليه مرجع أو مرد يتألف من بيتين ، يميل معناهما الى الغموض .

وأما بطل هذه المنظومة فمن اسلاف ملاحى الهواء المحدثين ، واسمه روبرتسون وقد قام بمحاولته عام ١٨٩٤ .

ولم تكن البطلة على صلة به البتة ، بل كانت على علاقة بزميله ومعاصره بلانشارد وكان اسمها الحقيقى سيمون .

ولا نزاع فى ان الأغنية نشأت ، فى بعض المسارح الاستعراضية من الطبقة الثالثة !

(*) Robinson, Robinson
Fuhr in einem Luftballon
In die Höh; in die Höh,
Mit der fungfrau Salome,

وليس ادعى الى اقناعنا من تلك الأمثلة التى أوردتها اللادى جــوم صاحبة مجموعة « أغانى المهد فى اللغة الانجليزية » وهى مجموعة مرموقة وممتازة .

وتعبر رقصة Babbity Bowster الأسكتلندية القديمة عن مطاردة العريس عند نهاية حفل العرس ، وتلك عادة بدائية ما فى ذلك ريب . غير اننا نستطيع ان نرى العادة ذاتها ، فى افراح العرس بالقارة الأوروبية ولعلها كانت ذائعة فى بريطانيا اثناء قرنها الثامن عشر .

وتفسر لعبة « الجوز فى مايو » على أنها تعبير عن الزواج بطريق السبى او الخطف والأسر ولقد تكون كذلك من بعض الوجوه ــ ولكن ما أبعد الشقة .

والذى حدث حقا ، هو أن الزواج بطريق السبى صبغ عادات الزواج بطابعه ــ الذى استمر قرونا بعد اندثار هذا النظام ، وقلد الأطفال عادات الزواج المذكورة ، ولعلهم لم يفعلوا ذلك الا فى فترة متأخرة من الزمن .

ويقال أن « الفرسان الثلاثة من أسبانيا » تعبر عن نظام الزواج بطريق الشراء . وانى لاتساءل عما اذا كان النظام المذكور ، على ذلك القدر من الوضوح الذى تظنه المدرسة الانتروبولوجية . وهل عن لأنصارها أن يقرؤا رواية هاردى الموسومة « عمدة كاستربريدج » المتعة والعميقة فى مأسويتها ؟

وتشير « سيدة الصنعة » الى ماضى عادة استئجار الخدم فى الأسواق السنوية . وهذه العادة ثبت وجودها فى انجلترا الى القرن الثامن عشر ، وفى ايرلندة الى ما بعد ذلك . والمثل جيد للغاية ، ذلك اننا نعلم عن يقين أن الخدم فى ايرلنده قبل المســيحية (بل ولفترة غير قصيرة بعــد قيام القديس باتريك بالدعوة للمسيحية) لم يكونوا هم الذين يستأجرون بهذه الطريقة ، بل كانت الزوجات ــ شأنهن شأن الخدم فيما بعد ــ هن اللائى يستأجرن أو يستبقين لعام ويوم على هذا المنوال .

وكان ينبغى لهذه العادة ــ وهى نوع من المخادنة الحديثة ــ أن تندثر، لكن بقيت المنظومة التى تقول :

« لسنة ويوم » .

« وعدت بأن ابقى » .

غير أن الذى يقول هذه المنظومة ليس ــ بالطبع ــ الزوجة الشرعية

أو المحظية او العذراء (اذا شئنا أن نحسن الظن) بل تقولها زوجة الجنى فى قصص الخرافات المحلية .

وهكذا ، تورد المدرسة الانتروبولوجية حقائق كافية ، وتفترض ما يلزمها من حلقات وسطى ، وتقيم ــ آخر الأمر ــ شاهدا طيبا ، على أن كل شيء يضطرد ويتوالى ، وأن تاريخ تطور الانسان العقلى (أن كان ثمة شيء كهذا) لا يفصح عن توقفات أو قفزات فجائية .

اما الأمر الثابت فهو أن أكثر العاب الأطفال وما يصاحبها من اغان ، ان هى الا اشكال متدهورة لرقصات الحلبة القديمة ، وقد يثير الأسف الا تفرد اللادى جوم بعض المساحة لهذا الموضوع الهام . ذلك ان هذه الرقصات كانت ــ كما نعلم ــ ذائعة فى انجلترا حتى القرن الثامن عشر ، وقضت عليها المجاعة العظمى فى ايرلنده حوالى منتصف القرن الماضى ، واذا كان اصطلاح « مورد ثابت » يستخدم فى هذه الحالة ، فيحسن بنا أن نذكر انها موروثات من النوع الهين الطريف .

واود أن الم بفكرة بالغة السخف قراتها اخيرا فى رسالة دكتوراه ظهرت منذ وقت قليل ــ وذلك حتى لا ارمى بأظلم انواع الجحود نحو اللادى جوم التى وضعت ــ متفضلة ــ تحت ايدينا ، تلك المواد التى نقيم عليها نقدنا لنظرياتها .

دللت هذه الرسالة على الغزو الانجلو سكسونى لانجلترا ، بأن بعض منظومات العد فى انحاء من هولشتاين قد توحى ، بحدوث هذه الغزوة من ناحية البحر .

ونسى المؤلف ان انجلترا توصف فى شمال المانيا بانها «ارض الملائكة» او « العالم الآخر » أو هى الأرض السحيقة ، وذلك بسبب تورية ، كتلك التى اطلقها بيديه على البابا جريجورى الاكبر ولهذا ، فقد تسمع فتاة فى الخرافات المحلية البومارانية ، واثناء كابوس ــ قد تسمع أمها تناديها من انجلترا « يامارى كاترين اظهرى عفاريتك » .

Marie Catherine
Treib aus deine Swîne.

ولم تفسر بعد ، بعض وجوه الشبه والاتفاق ، الموجودة بين أغانى الأطفال المسجوعة فى كل من بريطانيا والقارة الأوروبية . ومثال ذلك ، الاغنية الانجليزية التى تقول :

هل لك أن تعلم كيف يصنع الفلاح ؟
هل لك أن تعلم كيف يصنع الفلاح ؟
هل لك أن تعلم كيف يصنع الفلاح ؟
فى بذر الشوفان والقمح ؟
وانه هكذا .. هكذا يصنع الفلاح
وانه هكذا .. هكذا يصنع الفلاح
وانه هكذا .. هكذا يصنع الفلاح
هكذا يبذر الشوفان والقمح

هذه الأغنية تكاد تطابقها اغنية ألمانية تقول :

هل تريدون أن تعرفوا كيف يحصد الفلاح شعيره هل تريدون أن تعرفوا الخ .. اذا فانظروا هكذا يحصد الفلاح شعيره فى الحقل .

Wolt ihre wissen, wie der Bauer seinen Hafer aussät ?

Seht so, so sät der Bauer Seinen Hafer aussat.

فهل هى من المأثورات الانجاوسكسونية المتخلفة عن الموروثات الماضية أم تراها استعارة ؟

اعتقد أن هذا السؤال جدير بأن يترك بلا جواب لقصور معلوماتنا الراهنة ، ولو أن كلمة « الفلاح » المستخدمة فى الكتب ، قد تشير الى استعمال ادبى ، لمعنى اوروبى .

وفى حالات اخرى تفصح التناقضات ، والتهافتات بل الاطناب عن الخاصية الثانوية للمنظومة .

ومثال ذلك المنظومة الفرنسية التالية : « لو أبصر الأعمى وسمع الأصم لما عاش أحد » .

وهى تعطى معنى جيدا ، اذا تذكرنا ان كلمة Sourd تعنى السمندل وهو حيوان اشتهر فى مأثورات العصور الوسطى بانه سام لدرجة بعيدة .

لكن المنظومة الانجليزية المقابلة التى تقول :
اذا استطاعت الحية أن ترى وتسمع
والدودة البطيئة أن ترى
لما خلت انجلترا من الثعابين .

* * *

هذه المنظومة ليس لها معنى على الاطلاق .

ويجدر بنا ان نتذكر كذلك ان هذه المتقابلات موجودة فى أوروباالوسطى واسكنديناوة ، ولنقارن مثلا المنظومة الألمانية :

ياطائر الروقوق قل لى وحياتك قل لى بوضوح كم سنة سأظل عذراء.

Kuckucksknecht,

Sag'mir recht

Sag'mir Klar

Wieviel fahr

Als ich noch eine Jungfrau bin ?

بالمنظومة السويدية :

Göck, göck, sitt pâ quist,

Säg mig vist

hur mânge âr

fag ôgitt gâr.

وبالمثل ، فليس طريق الهجرة ــ اذا افترضنا وجوده ــ واضحا فى كل حالة . فلعبة « جاك حى ويبدو انه سيعيش » المشهورة ــ والتى اصبحت بدعة قديمة ــ والتى يشار اليها شعرا فيقال :

جاك حى ويبدو انه سيعيش

واذا مات فى يدك فعليك غرامة تدفعها أو يقال :

جاك حى وصحته جيدة

واذا مات فى يدك فعليك أن تأخذ حذرك

التى تقابل اللعبة الفرنسية « الرجل الطيب الصغير سيعيش » هى عبارة عن نقل شمعة مشتعلة من يد الى يد وهى لا تقابل اللعبة الالمانية الجنوبية .

« اذا مات الثعلب حسن فراؤه » .

Stirbt der Fuchs, so gilt der Balg.

حيث توصف الشمعة ــ كما هو واضح ــ بانها ثعلب ، لكنها تشبه لعبة Lütje tawt nog المعروفة فى شمال المانيا .

ويقتضى الاشارة الى هذه اللعبة أن نناقش مناقشة عابرة ، تلك النظرية التى أعلنها الراحل ادوارد ب . تايلور Edward B. Taylor حين ربط الدمية ومنظوماتها الى فرقة الملاحدة المعروفة فى العصور الوسطى باسم « الناس الطيبين » .

لقد كان المتمسكون باهداب الدين يتهمون اتباع هذه الفرقة الهرطقية ورجالهم الدينيين ، بارتكات أفظع الطقوس ، اى بقتل الأطفال الصغار ، وتداولهم بين الأيدى يدا بيد ،وهم يلفظون انفاسهم ،وكانت الفكرة المفترضة من وراء ذلك أن تحل روح الطفل المقتول على الشخص الذى يموت هذا الطفل بين ذراعيه .

وينبغى لى ان اقول انى عاجز عن ان أتصور نظرية أشد تهافتا من هذه النظرية ، وذلك بالرغم من تقديرى الكامل للعالم الكبير ، ومؤسس المدرسة الانتروبولوجية . فالهراطقة الذين اطلقوا على أنفسهم « الناس الطيبون » كانوا فحسب طلائع المذهب البروتستانتى الحديث ،ولم يمارسوا من الطقوس ما هو أبشع مما نراه أيام الآحاد فى كنائس النظاميين أو العماديين العادية الصغيرة (*) .

وتحمل الخرافة السخيفة ، ملامح الاختلاق الاكليروسى ، وينبغى أن تضاف الى الاتهامات المشابهة التى أطلقها الرومان الوثنيون على مواطنيهم المسيحيين ، أو هى جديرة بأن تضاف الى الزعم الاكليروسى الذى يحكى أن شتذنجر الألمانى ، وهو من أبناء القرن الثالث عشر ،قد قبل الاجزاء المحتقرة ، من قط اسود ضخم ، هو فى الواقع « جلالة الشيطان » متجسدا الاقنوم الثانى ــ وموجودا فى هذه الصورة ، فى سائر اجتماعاتهم .

(*) ترجمنا الميثوديست بالنظامى وتطلق على من يشايع هذه الفرقة المحتجة المسيحية .

اما Baqrist فترجمناها بالعمادى وتطلق على من يعتنق هذا المذهب المسيحى القائل بأن التعميد ينبغى ان يقتصر على البالغين وأن تكون المعمودية بالتغطيس ــ المترجم .

واذا كانت ثمة علاقة بين هذه اللعبة وانصار المذهب الالبى (٢) فى العصور الوسطى فهذه العلاقة هى ان الأولى ناشئة فى الحكاية الوهمية السخيفة التى وضعها رجال الدين الرومانيون عن انصار المذهب الألبى (*) .

ونظرا الى أن الشيعة الالبية كانت ذات نفوذ اقليمى محدود ، فقد يجدر بنا أن نشك حتى فى وجود هذه العلاقة الواهية ذاتها .

واذ ، نقلل من شأن الاوهام الانتروبولوجية التى تثار عند الحديث عن هذه المنظومات ، فليس لنا أن ننسى أن الكثيرمنها يحمل مسحةتاريخية محددة لا تخطئها العين ولا فائدة فى انكارها .

واذا قالت اغنية الأطفال التالية وهى من اغانى المقاطعات الجنوبية :

كان تافى من ويلز
وكان تافى لصا

فانها تصور بوضوح ، الموقف الذهنى المتفهم الذىاتخذته ـ ذاتيوم ـ غالبية المتحدثين باللغة الأنجليزية من أهالى البلاد الأخرى الوطنيين ، ولا يضارع هذا الموقف المتفهم الا موقف « الأباء الحجاج » من اليهود وقد وصفه كاتب فى القرن الثامن عشر فقال :

كانوا ـ بادىء ذى بدء ـ يخرون على ركبهم

ثم يسقطون على الأهالى الوطنيين بعد ذلك

أو حين تقول أغنية المانية :

صل ياولدى صل ... غدا يأتى السويدى وغدا يظهر برج الثور الذى يعلم الأطفال الصلاة .

Bet, Kindlein, bet
Morgen Kommt der Schwed,
Morgen Kommt der oxestern,
Der wird die Kinder beten lern,

(*) ترجمنا Albigensian بانصار المذهب الألبى وهم شيعة مسيحية ، يسمون كذلك بالبلغاريين ويقال انهم قدموا من الشرق الى ايطاليا فى القرن الحادى عشر وكانوا يدعون الى الرجوع الى تعاليم المسيحية الأولى ويوصفون بأنهم هراطقة لانهم لم يعترفوا بسلطة البابا عليهم ـ المترجم .

فانها تصور ــ لا نزاع ــ اهوال حرب الثلاثين .

وبوسعنا أن نضاعفمن ضرب الامثلة ولكن يكفينا أن نقول انكرومويل كان فى نظر الاطفال الالمان الذين يسيئون الآدب مثل المستشار السويدى اوكزنستيرنا .

واذا أشارت احدى الدراسات الآخيرة الى وجودعديد من بقاياعادات التقاضى الاقطاعية فى العاب الاطفال ، ومنظماتهم المصاحبة ، فليس ثمة ما يدعو الى ان نفترض أن لهذا النوع من ابداعات الخيال الشعبى ،تاريخا عريقا معلوما وواضحا . ففيما يتصل بالقوانين والتشريع ، استمرت عصورها الوسطى حتى عشية الثورة العظمى فى القارة ، وحتى أيام جيريمى بنتام فى انجلترا ، والى يومنا هذا فى الولايات المتحدة الامريكية .

غير اننا نجد ــ فى حالات اخرى ــ أن هناك علاقة واضحة بين هذه المنظومة والخرافات أو القصص .

وتعطينا المنظومة الانجليزية التالية التوضيح المناسب فهى تقول :

طر أيها الطائر
وعد الى بيتك
فبيتك يحترق
واطفالك ماتوا

ويقابلها كثيرا المنظومة الفرنسية

Vole au firmament bleu,
Ton nid est en feu,
les Turcs avec leur épée
vont te tuer ta couvée,
Hanneton vole, vole,
Hanneton vole,

طر فى مسارك السماوى الأزرق
فعشك يحترق
والا تراك بسيوفهم
سيدمرون عشك
طر ! هانتون !
طــــر !

او المنظومة الألمانية :

Maikäfer, fliege,
Dein Vater ist im Kriege,
Dein Mutter ist in Pommerland,
Pommerland ist abgebrannt,
Makäfer, fliege ?

طر « يا نطيط » !
ابوك فى الحرب !
وامك فى بلاد اليومر
وبلاد اليومر احترقت
طر يا « نطيط » !

وينبغى أن نقارن بين المنظومات السابقة بمنظومة السحر البرتغالية الموضوعة عن حظيرة الخنازير والتى تقول :

حذار لقد شبت النار
فى بيت الخنازير

وكذلك ينبغى أن نقارن بينها والحكاية الذائعة التى تحكى انه تم التخلص من بعض الأرواح الشريرة ، بالصياح عليها بأن مساكنها تحترق .

وقبل ان ندع جانبا هذا القسم من الشعر الشعبى ، يجدر بنا ان نتحدث شيئا عن حيويته الظاهرة ، التى تتعرض للاهمال ، بسبب تجرد هذا الابداع المتواضع للخيال الشعبى ، من المغزى .

تبدو هذه القصائد وقد انتصرت على كل العواصف ، والكوارث الوطنية ، بل لقد تبدو وكأنها عبرت البحيرة العظمى ، بدون أن تضيع وتتبدد على الطريق . ففى العالم الجديد أى فى الولايات المتحدة وكندا ، ما تزال هذه الأشعار جارية على الألسن ، ذائعة فى التداول ، كما كانت شائعة فى بريطانيا العظمى ، بالرغم من ان المسافات ، الفاصلة بينهما ، شاسعة للغاية .

وهذه الأشـــعار تترك بصماتها على الأدب المعاصر ، وقد لا تفهم المعارضات الشعرية الساخرة ، لقصائد بايرون أو شكسبير ، فى أمريكا الحديثة ، بينما لا تخطىء قصيدة هزلية تعارض هذه المنظومات المتواضعة، فى أن تحقق هدفها .

ومما يبدعه الذهن الشعبى ، هذه التفسيرات أو الشروح الشعرية العديدة الموضوعة عن صياح الحيوان والطير . واغنية « قبرة السماء » الانجليزية ، جديرة بأن تمدنا بمثل ممتاز لهذا . فهى تقول :

ارتفعنا عن الأرض ، الى الطبقات العليا
تى هى ! تى هى ! تى هى !
ليس فى الأرض اسكافى
يستطيع أن يصنع حذاء لى .. لى !
لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟
لأن اصبع قدمى مثل عقبى فى الطول .

وثمة قصيدة معروفة لفردريك ركرت مبنية فيما نعرف على صيحة السنونو وهى تقول :

عندما قلت وداعا
عندما قلت وداعا
كانت الصناديق ملأى
وعندما عدت ..
عندما عدت
كان كل شىء فارغا

Als ich Abschied nahm, als ich Abschied nahm,
Waren Kisten und Kasten voll,
Als ich wiederkam, als ich wiederkam,
war alles Leer.

وقصة الحيوان الفرنسية الشارحة ، الدائرة حول العندليب والدودة العمياء ، اريد بها أن تفسر شجو الطائر على النحو التالى :

سأبنى عشى مرتفعا
مرتفعا .. واطئا
حتى لا تعثر عليه

Je ferai mon nid si haut, si haut, si haut, si bas !
que tu ne le trouveras pas.

واوفى من ذلك ، على الغاية السابقة ، صيحة طائر المكاء الأمريكى ، الذى يهوم أبدا حول هنود بنسلفانيا ، معلنا اسمه الهندى « ديكوليس »

لينبه الهنود الى مبقات الزرع وكأنه يقول لهم « هاكى ! هاكى ! » اذهبوا وازرعوا الأذرة .

ويقابل أغانى « الرص » أو « الرمى » التى تقولها مجموعة من الناس ، لا تكن لهم كبير حب ، ـ يقابلها بعض هذه المنظومات الشعبية ، القصيرة والمباشرة والتى ليس لها من هدف آخر الا النيل ممن لا تكن لهم ذلك الحب . ومثال ذلك المنظومة الانجليزية القائلة :

كونجلتون نادر المثال ،
كونجلتون لا يدانى ،
باع الانجيل واشترى دبا !

والتى تعود بنا ـ لا نزاع ـ الى الأيام المجيدة لمطاردة الدببة بالكلاب !

والحق ان التعليق الموضوع على هذه المنظومة ، يقول لنا فى لهجة جادة ، ان الصفقة المذهلة التى أشرنا اليها ، حدثت فعلا عام ١٦٠١ .

ولقد يواصى أهل مدينة تشساير ويسرى عنهم اذا كانوا يعرفون هذه المنظومة حتى اليوم ـ ان القصة ذاتها كانت ذائعة ـ أو لعلها ما تزال ذائعة ـ عن مدينة كليفتون فى دربك فكلمات تلك المنظومة تقول :

كلفتون الواقعة فوق دنزمور فى واريكشاير
باعت الانجيل لتشترى دبا

ويجب أن نضمن هذا الفصل ، تلك النقوش المنزلية المختلفة ، التى جمعت فى أوروبا ـ على الأقل ، بطريقة منهجية .

وسأضرب مثلا هنا معروفا فى ولاية سيليزيا البروسية ، حيث وجدته متراميا فى منطقة واسعة . وهو يقول :

الانسان يحتاج الى مكان حتى ولو كان ضئيلا يستطيع أن يقول عنه :
أنا هنا فى بيتى
هنا السكن
هنا مقامى

هنا راحتى

هنا وطنى (*)

وانتشار مثل هذا الشعر ، فى منطقة محددة ، أمر يسهل علينا أن نفهمه اذا قدرنا ذلك الاتجاه الملحوظ بين الفلاحين حيثما كانوا ، الى أن يقلدوا جيرانهم .

غير أننا قد نشك فى أصالة المنبع الشعبى لهذه المنظومة ، خاصة فى منطقة كسيليزيا ، يزدهر فيها الشعر الاقليمى منذ نهاية حرب الثلاثين .

وأما حين يستعان بالأمثال ، لتدعيم النقوش المنزلية ، فالأمر يختلف . فهنا نجد مادة شعبية ومادة مثقفة تتجاوران الواحدة والأخرى . ولعلهما تتداخلان فى أكثر من حالة ، لكنهما تظلان « شعبيتين » من حيث أنهما تعبران عن وجهة نظر العامة ، بصرف النظر عن منبعهما الأصلى .

ولعل خير استشهاد على ما نقول فى هذا الموضوع ، هو المنحى التعليمى او الوعظى ، الجهير ، الذى يتضح فى الكثرة الكثيرة من النقوش المنزلية .

وآخر قسم فى الفولكلور الشفاهى هو هذا الذى نسميه بالألغاز ونستطيع أن نتبين مدى شعبية بعضها ، ومن المثل التالى الذى ثبت أنه يرجع الى القرن العاشر وهو يقول :

يطير سريعا بلا اجنحة .. ويجلس كالشجرة العادية من الأوراق ويمشى

(*) Der Mensch braucht ein Plätzchen
Und War's noch so klein,
Davon er Kann Sagen,
Hier bin ich her daheim.
Hier wohn'ich, hier bleib'ich
Hier ruhe ich aus,
Hier ist meine Heimat,
Hier bin ich zu haus.

كرجل بلا يدين ويتسلق الشجرة بلا قدمين ويقطف ثمارها بلا أظافر ويلتهما بلا فم (*) .

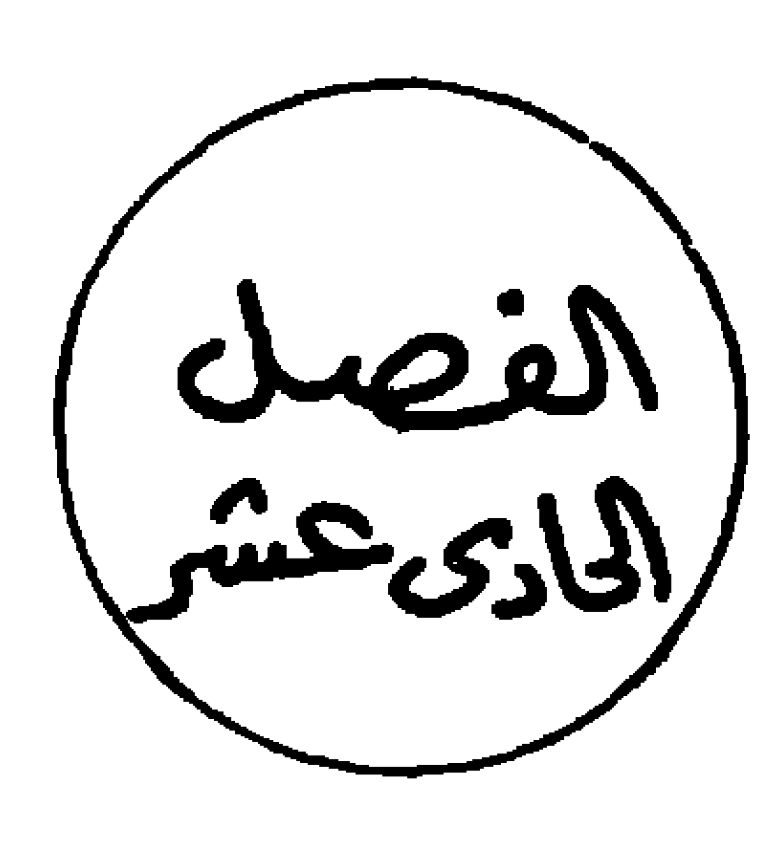
وأما الألغاز ، وحل الألغاز فذائعة فى أساليبها الكثيرة ، فى عديد من لهجات القارة الأوروبية ، وشاملة لأكثر أوروبا الوسطى والشمالية ، وموجودة فى بلاد القوقاز .

ولما كانت جمهرة الألغاز ، تتيح نقطا كثيرة للمقارنة والمقابلة ، فقد استطاع آنتى أرى A. Arne أن يتتبع تاريخها ويتقصاه بدقة كافية ، وبناء على الدراسة التى نشرها ، يبدو ان الألغاز نشأت أول ما نشأت فى وسط أوروبا ومنه انتشرت ، فى اتجاه شرقى على نحو أساسى .

ولقد درس العالم الفنلندى ، بطريقته ومنهاجه هذين ، الألغاز القديمة عن الكتاب والقلم (وأصلها مثقف لا شك) وألغاز السنين والشهور ، ودرس كذلك لغز أبى الهول ، المعروف ليس فقط فى أوروبا والشرق الأدنى ، بل المعروف أيضا فى لويزيانا ، وأمريكا الجنوبية ، وفيجى ، حيث حمله المستوطنون الأوروبيون .

(*)

Volavit volucer sine plumis,
Sedit arbore sine foliis,
Venit homo absque manibus,
Conscendit illam sine pedibus,
Assavit illum sine igne,
Comedit illum sine ore



المعتقدات الخرافية

● المعتقدات الخرافية :

خصائصها وغايتها النفعية . محاولات الذهن الشعبى فى تفسير الغوامض وصلة ذلك بالمعتقدات الخرافية ـ الظاهرات الطبيعية والخرافات ـ التوائم والخرافات ـ استطلاع الغيب ـ تحضير أرواح الموتى ـ القرائن والبدائل دلالة الاعداد ـ الاعتقاد فى خواص الدم ـ الشارات والمعتقدات ـ الأيام المشئومة ـ التقاويم واحوال الجو ـ واعياد القديسين والأعياد الزراعية ـ مراسم الانتقال ـ الجنيات والأرواح وظل الانسان والخرافات المنزلية .

● المعتقدات الخرافية

تدل المعتقدات الخرافية ، فى حديثنا العادى ، على هذه المعتقدات والممارسات التى يباشرها الآخـــرون ، وتكون مختلفة عن معتقداتنا وممارساتنا . فما نعتقده ونمارسه نحن انما هو الدين .

وعلى هـــذا النحو استخدم تاسيت Tacitus كلمة (الشعبذة أو المعتقد الوثنى) Superstitio حين كان يتحدث عن المسيحيين . الذين لم يكن يعرف شيئا عن معتقداتهم وممارستهم ، ولم يكن أشد من ذلك اهتماما بأن يعرفها . فاذا أخذنا المصطلح اللاتينى ، وفحصنا عنه ، وجدنا أنه مشتق من الفعل Stare (يقف ــ يتخلف) وانه المرادف الدقيق لتعبير « الموروث المتخلف من الماضى » الانجليزية والفرنسية وكلمة Ueberbleibsel الالمانية (ومعناها بقايا الماضى أو مخلفاته) .

وليس مهمـــا أن نفترض أن الرومان كانوا معنيين بالأنثروبولوجيا الاجتماعية حين صاغوا هذه الكلمة . ويكفينا الموقف العقلى الذى استقبل قصيدة لوقريطس (*) العظيمة بكاملها ، وان الكلمة نشأت او على الأقل اتخذت معناها السائر فى الحلقات الأبيقورية (**) . غـــير أن ترجمتنا Superstitio بكلمة موروثات متخلفة لا تساعدنا كثيرا . والسبب فى ذلك أن تصورنا للموروثات المتخلفة شديد الالتصاق بفكرة « التقـــدم » أو « التطور » المقاربة ، والتى لا يسهل معها وضع تحديد « موضوعى » فالموروث المتخلف ــ عند التحليل النهائى ، قد يكون أى شىء . فالنظام الملكى البريطانى موروث متخلف فى نظر الرجل الأمريكى العادى ، وكذلك شأن البابوية ، عند البروتستانتى العادى .

ولقد نحاول أن نجد مقياسا افضل من هذا ، بأن نرجع الى علم التشريح الذى يعرف ان ثمة زوائد أو أعضاء لم تعد لازمة للجسم العضوى

(*) Lucretius

(**) Epicurean

الحى ، وانما هى موروثات من الماضى ، تخلفت عن حالة سابقة من التطور العضوى ، ومثال ذلك الزائدة الدودية ، والعضلة التى تتحكم فى حركة الأذن .

وعلى هذا الأســـاس ، نستطيع أن نعتبر من الموروثات المتخلفة (أو الزوائد) كل مالم يعد جزءا من المعتقد الحى ، أو البنيان الاعتقادى غير اننا نخشى ــ اذا تبنينا ذلك الأساس ــ أن نكتشف موروثات متخلفة أخرى كثيرة ، بل اقوى مما يجب ان أقول مما نستطيع الالمام به مقدما . فهل من الخير مثلا ــ أن نعتبر الموروثات المتخلفة ــ التشاؤم من السفر بالبحر يوم الجمعة أو فى اليوم الثالث عشر من الشهر ، وحين لا تغادر سفينة ركاب ميناءها فى مثل هذين اليومين ؟ واذا استثنينا هذه المعتقدات ونحيناها بعيدا عن قسم المعتقدات الخرافية فأين يمكن أن نضعها ؟ هل نضعها تحت اسم الدين ؟ أخشى أن يعترض المتدينون على هــذا التصنيف . واذا فالمعتقدات الخرافية تشتمل على المعتقدات والممارسات.

وقصدا منى الى التيسير فقد عالجت الممارسات فى باب منفصل ، كما انه قصدا منى الى عدم الاخلال بين حجم هذا الفصل وحجم الفصول الأخرى ، فقد عالجت المعتقدات الخرافية المتصلة بالحيوان والنبات ، تحت اسمين خاصين بهما هما « فولكلور الحيوان » و « فولكلور النبات » على التوالى .

وعندما صاغ ستاتيوس البيت الذى ظل شهيرا منذ انشائه وهو « وفى البدء خلق الرب الخوف على الأرض » فقد كان يقارب الحق ــ أى الجــذر الرئيسى للديانات ــ أكثر ممـــا يشـــاء الكثيرون من دارسى هذا الموضوع الأخاذ ان يعترفوا . ولو أنه استخدم كلمة الدين religionem او مرادفا آخــر لهـــا ، بدلا من كلمـــة الرب deos ، لأصاب الحق تماما . ان الانسان لذو حاسة يقظى ــ حتى فى مدارجه الأولى ــ للعادى والخارق من الأمور ، ولو انه لا يدرك ــ بالطبع ــ التمييز المنطقى بينهما . أما « العادى » فيمضى غير ملاحظ ، واما الخارق فهو وحده الذى يثير انتباه الانسان . والانسان يقاسم الحيوانات الراقية ، فى هذه الخاصية فقد لوحظ ان الكلاب تبدى الكثير من الدهشة الممزوجة بالخوف حين تشاهد شيئا ساكنا يتحرك بدون سبب ظاهر . فمن العبث ــ اذا ــ أن نجد فى مجتمع متوحش ، شيئا يشبه عبادة الشمس أو القمر أو النجوم . فأهمية الشمس ، لا تبدو الا حين يصل المجتمع الانسانى الى مرحلة الزراعة ، واذا كان من الحق ، أن يفرض القمر نفسه على عقل

الانسان فى مرحلة سابقة ، الا أن ذلك يتحقق له ، لأنه يعتبر وسيلة نافعة لمعرفة الوقت بالطريقة البدائية ، ذلك أن القمر هو ساعة الانسان الأولى .

ونستطيع أن نقول الكثير فى هذا عن تحديد أبراج النجـــوم من السماوات المشعة بنورها ، فبالرغم من انشاء آلاف الأساطير عنها ، فالغاية الملموسة من وراء ذلك كله ، انما هى غاية نفعية عملية . ومن المحقق أن الشمس والقمـــر ، لا يثيران ، هذا الذى يرضينا ان نسميه بالمشاعر « السامية » واذا كان من حظ توهمات القرن الماضى الرومانسية ، أن توضع فى غير موضعها ، فهذا الميدان بالذات يناسبها ، ولقد كان جديرا بمكس موللر أن يبدأ فيفهم الحقيقة الأساسية التى تنبنى عليها قصيدة مواطنه الذكى ، وذلك قبل أن يمضى قدما فى نظرياته المخبولة عن دور « الفجر » فى الديانات الآرية الأولى .

وقصيدة مواطنه الذكى تقول :

وقفت الفتاة على الشاطىء
وراحت ترسل الزفرات الطوال
وقد غلبها الانفعال
وهى ترى الشمس تغيب
يا فتاتى ! هونى على نفسك
فهذه حكاية قديمة . .
فالشمس تغرب أمامك
ثم تعود فتشرق من خلفك (*)

وتتخذ المشكلة وجها آخر ، حين نجاوز مسرى الأجرام السماوية الطبيعى الى ظاهرة الخسوف . ونحن نعلم أن حساب الخسوف من انجازات الرياضيات العامية ، وهى ـ لهذا ـ من انجازات الحضارة .

(*)
Das Fräulein stand am Meere
Und seufzte lang und bang,
Es rührte sie so schre
Der Sonnenuntergang
Mein Fräulein ! Sei'n Sie munter,
Das ist ein altes stück ;
Hier vorne geht sie unter
Und Kehrt von hinten züruck

واما الرجل المتوحش الهمجى فكان يجهل أسبابه ولا يعرف السر فى انتظام حدوثه ويملؤه الخوف رعبا وفزعا منه .

تلك حقيقة نعرفها جيدا ، فيما كتب المؤرخون والرحالة ولا غرابة فى أن يشعر الجيش الأثينى ــ جنوده وضباطه ــ بهذا الخوف عندما كانوا فى صقلية واما الذى يثير الدهشة ، فهو أن يستبد هذا الفزع بقائد اثينى مثل نيكياس Nikias ولو أنه لم يكن رجلا مثقفا .

والتعليل السائد هو أن الأجرام السماوية تطاردها بعض الوحوش الضارية التى توشك أن تتلفها ومن المعتقد اذن أنه من واجب الانسان أن يفزع هذه الوحوش ويطردها ، بأن يحدث ضجة جهنمية . ولقد ثبت وجود هذا المعتقد الخرافى ــ ان لم تكن الممارسة الخرافية ذاتها ــ فى جزيرة ايسلندة القديمة قدر وجودها فى بلاد المكسيك الحديثة ، واذا لم يذكر الرواة دائما أخبار هذه الممارسة ، فسبب ذلك أنه لم يتح لهم ان يروها ، أو لعل طقوسها ماتت واندثرت قبل فكرتها الاعتقادية وذلك أمر ليس نادر الوقوع .

وثمة ظاهرة طبيعية خارقة ــ فيما خلا بعض المناطق الاستوائية ــ وتلك هى ظاهرة الرعد والبرق ــ التى تولدت عنها كثرة كثيرة من الاعتقادات الخرافية المتصلة بالعواصف الكهربائية ، وتولدت عنها كذلك كثرة كثيرة من آلهة البرق والرعد التى ثبت أنها تزيد ــ من حيث العدد ــ على آلهة الشمس بنسبة عشرة الى واحد . واما علماء الميثولوجيا الطبيعية ، فى القرن التاسع عشر ، وهم الذين اطنبوا فى الحديث عن الصواعق والبرق ، كالعالم ف . ب . شفارتز (*) والعالم ادلبرت كون (**)
الى حد ما ، فقد كانوا أميل الى الصواب من علماء ميتولوجيا الشمس من اتباع مدرسة ماكس موللر (***) .

ولقد يميل المرء الى أن يعتبر الريح من هذه الظاهرات ، متى زادت سرعتها عن معدلها الأقصى .

ولسنا على يقين من أن هنود ميدل وست الأمريكيون ، قد وصلوا

(*) F. L. W. Schwartz

(**) Adalberl Kuhn

(***) Max Müller

الى حد انشاء عبادة آلهة العواصف ، وهم الذين تهيأت لهم خير الظروف لهذا الغرض .

وأما دور آلهة الريح ، فى بلاد الاغريق ، فدور غير محسوس ، وينبغى أن نعتبر جهود روشه Roscher لاثبات ان هيرميس كان « اله الريح » جهودا فاشلة .

بل لقد كان قدماء النرويجيين يظنون ان العواصف يحدثها طائر عملاق يحط عند القطب الشمالى أو قريبا منه ، ويرفرف بجناحيه ، وكأنه الشيطان فى جحيم دانتى .

وأما أسباب عدم وجود اله للريح ، بين آلهة الأوليمب ، البدائيـــة والحديثة ، فهى أولا أن العاصفة ذاتها ، قليلة الايذاء ، اذا لم تجد شيئا تدمره ، وهى ثانيا ان هناك علاقة دائمة بين الريح العادية والريح الجبارة غير العادية ولقد تستدعى العاصفة المفاجئة انشاء أسطورة شارحة ـــ ومثال ذلك أسطورة الطير العملاق النرويجية ـــ لكنها لا تستدعى انشاء اله للريح .

وما يصدق على العواصف والزوابع يصدق كذلك على الزلازل ، ولعل المكسيك وأواسط أمريكا ـــ هى وحدها البلاد التى ثبت وجود اله للزلازل فيها على ما أظن . وان كان للاله الاغريقى بوزايدون Poseidon بعض هذه الصفة .

وأما فى المناطق الأخرى ، فنجد قصصا شارحة ، تحكى عن حيوان ضخم يحمل الأرض ، ومن عاداته السيئة أن يغير موضـــعها من حين الى حين .

وقبل أن نترك المجال الأعلى ، للظاهرات السماوية والجوية ، ينبغى أن نستعيد ما سبق أن ألمحنا اليه بأسلوب مألوف يسير ، وما قد يبين خير تبيـين ، تلك الموروثات المتخلفة عن الماضى ، من خشـية الظاهرات الخارقة . وأنا أشير الى الخوف الذائع من النجوم المذنبة ، ذلك الخوف الذى لم يندثر بعد ، والذى يعتبر ثمرة خالصة ، للشذوذ فى مسار هذه النجوم .

فاذا ماجدد علم الفلك الحديث مسارها وبين أفلاكها ، وأذاع نتائج ذلك التحديد بين الناس ، تلاشى هذا الخوف الى الأبد ..

واذا نزلنا من الطبقات العلى ، وجدنا أن الأمر الشاذ غير المألوف ، يسترعى الانتباه ايما استرعاء ، وأن الخوف الذى يلازمه ، يثور بنفس الدرجة .

ومن خير الأمثلة التى قد نضربها فى هذا الصدد ، ذلك الخوف المقترن بولادة التوائم .

كان علماء كثيرون قد لاحظوا هذه الظاهرة ، حين اكتشف الدكتور ندل هاريس الطريق ، وسار فيه ليتقصى هذا الخوف فى شتى أنحائه ، وتعبيراته . من معتقدات الأجناس المتوحشة والمتبربرة ، الى أشد الحضارات تقدما ورقيا .

ومن الحقائق الغريبة ، بل من الأدلة الجيدة على صدق ما قيل من أنه « لا كرامة لنبى فى قومه » أن كتاب رندل هاريس هذا قد أثار فى بلده بريطانيا اهتماما أقل من الذى أثاره فى سواها .

غير ان الحقائق الأساسية ، فيه ، لا تحتمل أدنى شك فميلاد التوائم خروج على المألوف بما للكلمة من معنى والناس الذين يعيشون فى مستوى ثقافى منخفض كانوا ينظرون اليه فى فزع وخوف الأمر الذى أدى — ويؤدى فى مناطق كثيرة الى القضاء على التوائم او الأم أو قتلهم جميعا . بغية تجنيب المجتمع ، العواقب الوخيمة التى يخافونها ، وللحيلولة دون انتشار الأذى .

وكان ينبغى هدم الكوخ الذى ولد فيه التوائم ، أو الذى اعتادت الأم ان تسكنه .

واذا ظن ان الموت وحده لا يكفى لمحو آثار هذا الميلاد المشئوم ، أو اذا ظن أن الموت سيزيد الأمور سوءا ، فقد كان ينبغى أن تنفى الأم والأبناء الى مكان بعيد ، لا يصل اليه الناس ، وهـذا المكان كان بعض الجزر فى العادة .

ونتيجة لذلك تحولت هـذه الأماكن الى مأوى للكثيرين الذين كان لديهم من الأسباب ما يجعلهم يخافون سطوة القانون . أو الأخذ بالثأر ، أكثر مما يخافون التوائم .

هكذا نشأت مدن التوائم واشهرها روما نفسها التى تحيط قصة اسطورية ، بتأسيسها ، كهيكل للتوائم .

وفى المجتمعات الأمية كانت العقوبة الصارمة ، الصادرة ضد التوائم جميعا ، تصيب العم ، فاذا كان العم ميتا ، اصابت اخ المراة المنكوبة .

ومن هنا ، نشأت كثرة الأخوال القساة ، فى القصص الخرافية الدائرة حول التوائم ، فى أنحاء الدنيا ، وامتدت من ليكوس الطيبى الى اموليوس الرومانى وأرمانارتش التيوتونى وما يلحق بهما فى امريكا الجنوبية وبوليتيزيا . وليس هناك حاجة ــ فيما يخص أوروبا ــ أن نفترض أن هذه القصص الخرافية ، تعود ــ واحدة واحدة ــ الى عصور ما قبل التاريخ . فيكفى أن نقول ان هذه الصيغة الملحمية نشأت أول ما نشأت لتشرح الموروثات المتخلفة التى أشرنا اليها ، وما أن نشأت هذه الصيغة ، حتى صارت صالحة للاستعمال على انحاء شتى ، واصبحت تكفى كل غرض على حدة .

وقد ظهر استنتاج خاطىء من اليسير علينا أن نفهمه ــ وادى بدوره الى الزعم بأن للأخوين التوأمين ، ابوين مختلفين ، وان كل اب منهما مسئول عن ابنه ثم أدى هذا الزعم الى استنتاج آخر هو أن الأم ارتكبت جريمة الزنا .

غير أن ابرز فكرة تتبناها خرافات التوائم ، هى تلك الفكرة السمحة التى تقول ان والد أحد التوأمين كان كائنا خارق القوة ــ او قل أنه كان الها ــ بل لقد تذهب بعض الخرافات أحيانا الى القول بأن والد التوأمين ، « اب مقدس » . وهكذا أتيح لنا « الأصل المقدس » لتوائم هرقل ، وتوائم اسبرطة ، والديوسكوريين المسينيلين ، وكذلك عرفنا الأصل المقدس لموليونس وبلياس ، ونيوليوس ، وروموولوس وريموس ، وكثيرين غيرهم .

وما دام الأمر كذلك ، فقد نميل الى الظن ان مجتمعات البحر الأبيض المتوسط ، فى عصور ما قبل التاريخ ، كانت أشد سماحة ، فى معاملتها لأم التوائم فكما قال موليير :

« اذا كانت القسمة مع ابى الآلهة جوبيتر ، فلا مجال للعار ! »

ومع ذلك ، فقد نقع فى خطأ جسيم ، حين نسلم بهذا الوهم . ذلك ان القصص الخرافية التى تلحق بالتوائم ، لم تدع لنا شكا ، فى أن الأصل المقدس . لم يمنع من تعذيب أمقيون ، وزيتوس ، وبيلياس ، ونيليوس . ودعك مما حدث للتوائم الرومانية . وأن الشرف الذى يتحقق من الزواج بزوج مقدس ، لم يحم انتيوب **Antiope** او تيرو **(Tyro)** ، من سوء

المعاملة ، ولم يدفع عن ريا سيلفيا Rhea Silvia ، الميتة المفزعة . ذلك أن العصور الوسطى لم تنظر الى الموضوع نظرة فيها سماحة .

ولقد تلخص قصائد الشاعرة الفرنسية القديمة ــ ولعلها كانت ابنة الملك هنرى الثانى ــ وجهة نظر الرأى العام فى العصور الوسطى بالنسبة لهذا الموضــوع .كما أن القصص الخرافية التى تروى وقائع التنكيل بالتوائم وامهم وتعذيبهم ، تكثر فى أوروبا على عهدها الوسيط ، كثرتها فى بلاد البحر الأبيض المتوسط أثناء حضارتها القديمة .

والحق أن ذلك كله لا يوفى الموضوع حقه . فاذا بحثنا عن شرح لأبيات ستاتيوس التى اوردناها فيما سبق ، وجدنا أن التوائم السماوية ، هى الكفيلة ، بان تمدنا بهذا الشرح . فالتوائم الذين كانوا يضطهدون ويخافون، كانوا يتمتعون بشرف « التأليه » ! فكاستور Kastor وبوللوكس Pollux الاسبرطيان ، الهان مكتملان ، شأنهما فى ذلك شأن التوأمان اشــفنز الفيديان .

ويتعذر أن نضرب مثالا خيرا من هذا المثال ، على صــدق الحقيقة الهامة ،وهى أن الخوف من الخوارق لم ينتج المعتقدات الخرافية السوداء فقط ، بل انتج كذلك كائنات اوليمبية أصيلة .

ولعلنا نفهم لماذا لم ترحب بعض الأوســاط بنظرية دكتور هاريس العظيمة ، ذلك أن ايحاءاتها شديدة الخطر .

وقد ظهرالخوف مما يخالف الطبيعة والقياس ،عند ميلاد كائن بشرى، نأى انسان ملم بالحقائق الطبية يعرف ، أن بعض الأطفال يولدون احيانا، واسنانهم نامية ، أو يولدون وفى أفواههم نتوءات تشبه الاسنان . وهذه الظاهرة ، نادرة الحــدوث ، حتى لتبدو خارجة على المألوف ، وترد فى مسرحية الملك ريتشارد الثالث لوليام شكسبير ، حين يقال عن البطل الذليل « ذلك الكلب الذى ظهرت أسنانه قبل عينيه » !

وقد لا تفكر جماعات بدائية كثيرة فى أن تمنح ذلك الطفل فرصة لكى ينمو ويكبر ويصبح مثل ريتشارد الثالث ، بل تؤثر ان تقتله على الفور .

غير أن السطور الشكسبيرية ، توضح لنا ، كيف أن هذه المعتقدات عاشت حتى أزمان متحضرة نسبيا .

ويعتبر « الأشعل » شاذا ، ولا يسمح له فى مجتمعات بدائية كثيرة فى العالم ، بأن يستمر على قيد الحياة .

ويظهر هذا المعتقد الخراف فى قصة خرافية معروفة وانا اشير هنا الى تاريخ حياة البطل الايرانى الذى حدثنا عنه الفردوسى فى كتاب الملوك وتكلم عنه مؤرخون فارسيون آخرون ، نسجوا على منوال القصة الخرافية .

ولا نزاع فى أن الخوف من الشذوذ والخروج على المألوف ، كان أساس ذلك الوضع العجيب الذى حظى به البلهاء فى المجتمعات البدائية ، أيان كانوا من العالم . فهم يوقرون ويعتبرون أنبياء وعريفين ! وبلاهتهم ـ وهى بلا ريب نوع من الخروج على المألوف ـ تمنحهم قدرا من الاعتبار، لا يتمتع به الناس العاديون .

واظن أن نجاح بعض الساسة المعاصرين لنا ، يرجع قطعا الى أن مجتمعنا يفكر بنفس الطريقة .

وثمة عاهة جسيمة ثانية ، كان ينظر اليها فى الضوء السابق ، وتلك هى « العمى » .

ولقد يلفت النظر عدد العميان الكبير فى بلاد الاغريق القديمة ومنهم كاساندرا و هلنوس وأشهرهم جميعا تيرزياس .

والهوة ليست شاسعة بين العريف والشاعر ذلك أن كلمة **Vates** اللاتينية وكلمة **Faith** الايرلندية يمكن أن تدل على أيهما .

ولا غرابة كذلك فى ان يزيد عدد الشعراء العميان ، على عدد العريفين العميان ومن المسلم به ، أن العمى يؤدى الى ارهاف حاسة السمع ، لأن ملكة السمع ، تستوفى غايتها ، وتبلغ جماع قوتها الأمر الذى يجعل العميان يؤدون « المهام » التى توكل اليهم أول مايحملهم الخوف من القوى الخفية على القيام بها ثم أن الخوف من الشذوذ يكمن وراء الاعتقاد الذائع فى العين الحاسدة وليس هناك شك فى ان هذا الاعتقاد الخرافى ، يعود فى أصله ، الى وجود « تشويهات » وعيوب خلقية فى بعض العيون البشرية . غير أن هذا المعتقد اتسعت دائرته ، ولحق تأثيره السيىء تلك الأعين التى لا نلاحظ فيها تشويها أو عيبا .

ومما له مغزى ، ان نلاحظ ان العين الحاسدة فى بلاد البحر الأبيض المتوسط تكون عيونا زرقاء ، على حين ينسب الحسد الى العيون السوداء فى شمال أوروبا .

وسبب ذلك واضح فيما تظن (*) ووراء تحاشى صاحب الشعر الأحمر، نلمس الخوف من الشذوذ ايضا . فالمثل الالمانى يقول :

Rotes Haar und Eisenholz
Wächst auf Keinem guten Boden,

« الشعر الأحمر وخشب أشجار الجنيات لا ينموان فى أرض طيبة »

قد يستقيم مع المنطق الا يكون هذا التحاشى قد نشأ بين الايرلنديين او اليهود أول ما نشأ وانما يصور المثل مشاعر الرجال التيوتونى العادى حين واجه جاره أو عدوه السيلتى أو حين واجه التاجر اليهودى الذى كان يسكن محلات اليهود وأحياءهم فى مدنه .

ولقد أوحى هذا الخوف ذاته ، بالحذر من كل من أصابه تشويه جسمى ، أو عيب فى خلقته ، كالأعرج مثلا والكلمة السائرة عند اليهود هى « أن الأعمى والأعرج لن يدخلا البيت » تعبر عن فكرة مماثلة وترجع الى تاريخ قديم . ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا الموقف الذى اتخذه المجتمع، قد ترك تأثيرا سيئا على الأشخاص الذين أنزل بهم عقابه ، ولعله جعلهم اشرارا وان لم يكونوا كذلك قبل تجنب المجتمع لهم .

وفى اسكنديناوة القديمة ، كان الرجل الذى يتصل حاجباه وينعقدان يعتبر انسانا غرا ساذجا . وكان يعتبر فى القارة الأوروبية ، انسانا تلبسته روح الذئب ، ولم يزل يعتبر فى بلاد اليونان « وحشا خرافيا يمص الدماء بعد موته » .

ولا يقتصر الخوف من هذا الشذوذ على الكائنات البشرية فلوقا خادم الطاحون يتحدث عن الأرانب ذات الأذان الطويلة المتدلية فيقول :

« لا بارك الله فى الأشياء التى تشذ على مألوف الطبيعة فالله تعالى يكرهها ولقد خلق سبحانه آذان الأرانب لتمتد الى الوراء ، أما سقوطها الى أسفل كآذان الكلاب الضالة ، فخروج على المألوف » .

والديك نذير شؤم اذا صاح بعد الظهر ، وكذلك كأكأة الدجاجة « فلا

(*) لعل المؤلف يشير الى أن سكان البحر الأبيض ذوو عيون سوداء ، وأنهم ورثوا الخوف من أصحاب العيون الزرقاء ــ وقد كانوا من القبائل التى أغارت مرات على مناطق البحر الأبيض (المترجم) .

خير لله أو الناس فى فتاة تصفر او دجاجة تصيح » . ومر قول يرادفه المثال الألمانى القائل :

« يجب أن يكسر المرء رقاب البنات اللاتى يصفرن والدجاج الذى يكاكىء » .

Den Mädchen, die da pfeifen, und den Hühnern da Krähen, denen muss man bei Zeiten den Hals umbrehen.

وينبغى أن نضيف ان اصطلاح « شاذ » يجب أن يؤخذ فى معناه النسبى . لا المطلق . فما يعتبره فريق من الناس شاذا ، قد لا يكون كذلك فى نظر فريق آخر .

وهكذا ، نفهم الأشارة المعروفة الواردة فى سيرانودى برجراك الى جاكسون الصامت الفطن ذلك ان الفكرة الأساسية هنا ، بالغة القدم .

ومن أغرب الأمثلة ، ماقيل فى « التعاليم الكنسية » لبيده ، عن الملك اوزوين الانجلوسكسونى ، من أنه كان ملكا شديد التواضع ، حتى استحال أن يعمر طويلا بل اغتيل بعد قليل .

وتبدو الفقرة المشار اليها ، وكأنها سخرية جارحة ، لكن المؤلف لم يكن يقصد هذه الغاية .

والطيرة ، تمثل الكثرة الكثيرة من الأمثال التى تعبر عن الخوف من الشواذ ، كما انها تنتشر ايما انتشار فى المعتقدات الخرافية . وأغلب اسباب هذا الأمر ، أن الديانات العليا ، انكرت استطلاع الغيب ، ونهت عن الايمان بالتفاؤل والتشاؤم وهكذا قضت قاعدة فى السفر الثانى من أنه لن يكون « منكم من يؤمن بالعرافة » . فنهت هذه القاعدة عن معتقدات وممارسات كانت ذائعة بين قدماء بنى اسرائيل ، بل كانت مشروعة فى مرحلة ما قبل النبوءات . وأقرت المسيحية والاسلام هذا التحريم ، ونحن نجد أن المتنبئين بالغيب ، يعاقبون فى جحيم دانتى ، فتنقلب وجوههم الى الخلف .

ومع ذلك ، ازدهر الاعتقاد فى استطلاع الغيب ، وتوالى فى شتى العصور ، بل لا يزال فاشيا حتى يومنا هذا ، ولعله يتستر تحت اردية اعتقادية رفيعة .

ونستطيع ان نقسم الطيرة الى قسمين : أحدهما هذا الذى يرد فى بعض الديانات السامية . والقسم الثانى هو الذى لم ينل هذا الشرف ان جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة .

ويشتمل القسم الأول على التفاؤل بالطير ، واستطلاع الغيب بالاستعانة بمدلولات أحشاء الحيوان ، واستطلاع الغيب فى المنام ، وتحضير الأرواح وممارسات خرافية أخرى ، أهمها التنجيم .

وينطوى تحت القسم الثانى ، تلك المعتقدات الخرافية العـادية ، كالايحاءات المختلفة التى نستنتجها من أول انسان أو أول حيوان ، نلقاه عندما نبدأ السير .

ومن الواضح ان نبوءات القسم الأول ، لم يخترعها رجال الدين بل غاية جهدهم ـ ان كان لهم جهد فى هذا المضمار ـ انهم طوروا هذه النبوءات .

واقصى ما يقال عن التنجيم أنه نشأ من أصول علمانية ، ولو أن الاعتقاد فى تأثير النجوم على الظاهرات الطبيعية ، اعتقاد منتشر فى أنحاء الأرض جميعا . كما أن التنجيم البابلى ، يرجع بأصوله ، الأولى الى التفكير البدائى ما فى ذلك ريب .

وقد أدى وجود نظام للعرافة عند الرومان ، الى دعم هذا المعتقد الخرافى بين سكان حوض البحر الأبيض المتوسط وترسيخ جذوره فى اسبانيا بخاصة وفى جنوب فرنسا أثناء العصور الوسطى . فقصيدة « السيد » لا تتحرج من أن تقص كيف أن البطل « اهتم » بصيحات الديك ، وأقدم النوادر الايطالية تصف نبيلا بروفنساليا أو أرجوانيـا فتقول انه يدمن ـ كأهل بلده ـ ممارسة الطيرة .

واما استطلاع الغيب بالاستعانة باحشاء الحيوان ـ فلم يذع فى أوروبا ، وسبب ذلك ان هذه الشعبذه البابلية الأصل ، التى حملهـا أهل اتروسكا الى الغرب ، كانت قاصرة على رجال الدين .

اما التنبؤ بما توحى به قوادم الدجاج ، فاعتقاد خرافى ذائع فى أوروبا ، أيا كان مصدره .

وشبيه بما تقدم ، تاريخ نبوءات الميلاد ـ وهى فرع من «اليازرجة» ـ

بلغ ذروته فى بلاد ما بين النهرين . وليس لدينا دليل مباشر على وجود هـذه الممارســات فى أوروبا ، غير ان الأسماء الرومانية الغربية كاسم Dentatus Agrippa ، (أى الطفل الذى نزل من بطن أمه بقدميه قبل جسمه وكذلك فعادة الرومان فى تسمية أبنائهم بالخامس والسادس والعاشر ، والتى تعود الى فترة من الزمن ، كان الرومان يطلقون فيها على أبنائهم أسماء مشـتقة من المواقيت التى يولدون فيها ــ نقول أن الأسماء الغربية ، وعادة الرومان تسمية أبنائهم بأسماء المواقيت ، ترجح لدينا أن تكون نبوءات الميلاد ، قد عرفت فى ايطاليا ذات يوم . ولعل أهل أتروسكا كانوا هم الذين حملوها الى غرب أوروبا .

ويدخل فى نطاق استطلاع الغيب بعض الممارسات الخاصة بمعرفة المهنة التى يشتغل بها الطفل عندما يكبر ، ولو أن هذه الممارسات قد انقرضت الآن فى أكثر بلاد أوروبا .

ولا أجد مثلا اضربه خيرا من النوادر الساخرة التى اطلقها سـكان بوهيميا الناطقون بالألمانيـة على جيرانهم من التشيك فقـد زعموا أن التشيك كانوا يقدمون للطفل ربابة وكيس نقود فاذا أمسك بالربابة صار موسيقيا واذا تشبث بكيس النقود صار نشالا .

ويبدو لى أن هذه النادرة قد قيلت عن الغجر الرحل ، ثم الحقت بعد ذلك ، باقوام أكثر استقرارا من الغجر وهم التشيكيون ، وكان الوازع اليها عاطفة الصداقة والود التى تحملها الأمم الأوروبية نحو جيرانها !

وكان نوع آخر من نبوءات استطلاع الغيب ــ لا تدخل فى نطاق نبوءات الميلاد ــ وكان هذا النوع منتشرا فى الولايات الشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية بل لعل هذا النوع موجود هناك حتى اليوم .

ولقد قيل أن رجلا هولنديا من ولاية نيويورك ترك على المائدة كيس نقود ، ونسخة من الانجيل ، وزجاجة « ويسكى » وانه أخذ يراقب من مخبئه تصرفات ابنه الصبى الذى أوفى على الخامسة عشر . وان الرجل العجوز قال فيما بينه ونفسه :

ــ اذا أخذ الصبى كيس النقود اصبح رجل مال ، واذا أخذ الانجيل صار قسيسا ، أما اذا أخذ زجاجة الويسكى فسيصبح سكيرا .

لكن الصبى دخل الحجرة فوضع الكيس فى جيبه وجلس فوق الانجيل واحتسى شيئا من زجاجة الخمر فصاح الرجل العجوز :

يا الهى : سيصبح الولد رجل سياسة !

وأما عادة استطلاع الغيب أثناء النوم فكانت ذائعة فى العالم القديم ، لا تقتصر على الامبراطورية الرومانية ، بل تمتد الى ايرلندة القديمة كذلك . ولم يقض ظهور المسيحية عليها ، فبدلا من النوم فى المعابد الوثنية ، أخذ الناس ينامون فى الكنائس المسيحية ، وهم يريدون أن يستطلعوا الغيب فى نومهم . كما أن هذه الممارسة معروفة عند القبائل المتوحشة حيث يتناول النائم مخدرا ، ويظن بعد أن يتناوله ، انه سيحلم الحلم الكاشف للمستقبل .

ولم تنقرض هذه الممارسة فى وقتنا الحديث . فهناك عديد من الحشائش والزهور ، المخدرة ، توضع تحت الوسائد ، ويقال أن لها هذه الخواص الكاشفة .

واما ممارسات التفاؤل ،فكانت معروفة فى بلاد الاغريق وايطاليا ، وكان العرب يزاولونها فى العصور الوسطى ، على نطاق واسع ويسمونها « الفأل » ــ وقد عرفت بهذا الاسم فى شمال أفريقيا ،ويبدو انهم حملوها الى اسبانيا ، فقد يجوز لنا أن نستنبط هذه الحقيقة من تحليل كلمة ارفيل الاسبانية ــ وهى تحوير لكلمة الفأل العربية .

واما استطلاع الغيب من مياه الينابيع فكانت وثيقة الصلة بعبادة الآبار والينابيع المقدسة . ومن الثابت وجود هذه العادة فى الحضارات السيلتية والتيوتونية القديمة . ولم يستطيع التنجيم ــ لأسباب ظاهرة ــ أن يتنكر لمصادره العلمانية . ومع أن كتب النجوم والكواكب المتداولة بين أيدى الناس ،والمعروضة للبيعفى الأسواق ،كانت كبيرةالعدد ،الا اننا ندهش ، لأسلوبها المتحفظ غير الصريح .

هذه الكتب ، تشتمل أساسا ، على طرائق فى التفكير ، وكلمات سائرة ، هى ذاتها التى صنعت التنجيم القديم ، وهى التى كان الناس يسلمون بها فى عهد كرومويل .

وينطبق نفس الكلام على كتب تفسير الأحلام المنتشرة الآن قدر انتشارها فى الماضى . واذا قارناها الى اعمال ارتميدورس Artemidorusوجدنا فيها تماثلا فى المادة وتماثلا فى التفسيرات .

ويسبق علم الأرواح الحديث ، تلك الممارسات التى اشتهرت باسم « نيكروماسى » اى تحضير أرواح الموتى ، وكلمة « نيكروماسى » كانت فى

اصلها الاغريقى ، تعنى استطلاع الغيب بواسطة أرواح الموتى ، ثم أصبحت فى أوروبا بعد أن استعملها العرب ، خلاصة فنون السحر .

واقدم مثل معروف هو مثل نكايا فى الأوديسة ، لكن الممارسة نفسها لم تنقرض من بلاد اليونان بعد ذلك ، ويكفى أن نشير الى قصة ساحرة فيساليا الواردة فى فارساليا للوكان .

كما أن هذه الممارسة تجاوزت القدماء فقد يثبت استمرارها فى قصة ساحرة اندور Endor وسحر اوتين Othin فى فولوسبا النوردية ، وقصة أخرى مشابهة تؤلف جزءا من سيرة هرڤاڤار .

ولا حاجة بنا الى البحث عن تفسير خاص لهذه الممارسات ، ذلك أن ـ أساسها الصريح هو الظن المنتشر بين الناس ـ من أن الموتى يعرفون اكثر مما يعرف الأحياء .

وفى مقابل هذه المعتقدات الخرافية الموروثة عن طبقات عالية فى المجتمع ، والذائعةبينعامة الناس أيضا ، نجدالعديد منشذرات المأثورات الشعبية التى تشير الى أول انسان او أول حيوان تقابله عند مغادرة البيت فالمراة العجوز تنبىء عن سوء الطالع ، لارتباط العقم والجدب بشخصيتها . واذا خرج الرجل لصيد السمك أو الوحش حاذر النساء جميعا ، بصرف النظر عن اعمارهن .

والفكرة الكامنة وراء هذا ، فكرة تقسيم العمل بين الجنسين ، التى تسم المجتمعات المتوحشة والمتبربرة . التى ترى أن تدخل المرأة فى عمل الرجل ، أو تدخل الرجل فى عمل المراة ، يدعو الى التشاؤم .

وكذلك ، نجد أن فكرة الجدب والعقم ، كامنة وراء تحاشى الرهبان فالقسيس فى الكنيسة الأيرلندية القديمة كان « الرجل الضعيف» وكان الالتقاء به فى عمل من أعمال الرجال كالطراد وصيد السمك ـ ينذر بسوء الطالع .

ومن الغريب ان هذا التشاؤم انتقل الى القسس البروتستانت فى البلاد التى اعتنقت مذهب المحتجين بالرغم من أن السبب الذى دعا الى نشوء هذا المعتقد الخرافى ، كان قد انتهى وتلاشى .

وقد كان محرما فى الهيبريديز البروتستانتيين النطق بكلمة قسيس أو بما يرادفها من كلمات سيلتية .

وأما الخرافات الدائرة حول مقابلة الحيوان وخاصة الذئب والارنب ،

فينبغى أن نعرض لها فى سياق حديثنا عن مأثورات الحيوان ، ذلك أنه يتعذر علينا ان نفصل هذه الخرافات ، عن الصفات التى ينسبها الذهن العامى اليها .

وأما نبوءات الحب الجارية الآن فى أوروبا جريانها فيما مضى من زمن ، فهى أدخل فى الشعائر منها فى المعتقدات .

لكن يجب أن نشير الى المعتقد الخرافى الذائع الذى يقول اذا راقبنا كنيسة القرية فى ليال معينة من السنة ـ كليلة راس السنة ـ نستطيع أن نرى موكب « اشباح » أو « قرائن » الأشخاص الذين سيموتون قبل أن ينتهى العام الجديد .

وهناك حكاية لاذعة تتصل بهذا الظن الخرافى وتقول ان رجلا راى شبحه أو « قرينه » يسير فى موكب الأشباح فمات لتوه ـ فرقا وفزعا .

واذا نظرنا نظرة فاهمة وتذكرنا كيف يلهب الوهم بالخيال ، قلنا ان لهذه القصة أصلا من الحقيقة الواقعة .

وما أن نشأت القصة حتى انتشرت وراجت بواسطة الهجرات .

ويشبه هذا الظن ، ما يعتقده العامة من ظن ـ لا يقتصر على سكان هذه الجزر ـ وخلاصته أنه فى ليلة عيد الميلاد تكتسب الحيوانات المنزلية القدرة على أن تتكلم بلسان البشر ، وتتنبأ بما سيقع بعد ذلك من أمور وتحكى القصة الناشئة من هذا الظن الخرافى كيف ان فلاحا سمع فى اللحظة الحاسمة ، حيواناته تتنبأ بموته .. وكانت نهايته كنهاية البطل فى الحكاية السابقة .

ويعتقد أنه عندما تعلن الساعة منتصف الليل فى ذلك المساء ، تتحول مياه الآبار جميعا الى نبيذ . لكن الذين يندفعون فى طلب هذا النبيذ ليوفروا من أثمان نبيذهم ، يلقون نهاية سيئة .

ويتصل المعتقد الخرافى الخاص ببعض الأعداد اتصالا وثيقا بالاعتقاد فى استطلاع الغيب وبعض هذه المعتقدات يضرب بجذوره فى التاريخ فتواتر العدد تسعة بكثرة فى المأثورات الشعبية ، ان هو الا نتيجة لتقديس هذا العدد . فالأسبوع القديم ـ اى الأسبوع القمرى ـ كان يتألف من حساب الليالى ، لا الأيام وكانت الليلة الأولى تدخل فى عدد ليالى الأسبوع القمرى فى العصور الرومانية . ولعلنا نضيف هذا الى رصيد المدرسة الأسطورية القمرية .

ومن المؤكد ان العدد تسعة ، يدين بتأثيره الظاهر ، فى أحيان كثيرة ان لم يكن فى غالب الأحيان ــ الى انه ثلاثة أضعاف العدد ثلاثة .

ويؤيد هذا الرأى ان العدد ٢٧ يحظى بذيوع شعبى ، خاصة فى ايرلندة . وسببه هذا فيما نظن ان العدد ٢٧ حاصل جمع تسعة ثلاث مرات .

غير ان السبب الذى دعا الى انتشار العدد ثلاثة فى انحاء الأرض ، ليس واضحا لنا .

أما الشيء الثابت فهو ان هذا العدد يحتل مكانة ظاهرة فى القصص الخرافى ، اذ يقترن بعدد الليالى التى يختفى فيها القمر كل شهر .

ويعزو سالومون رايناخ السبب فى اضافة صفات سيئة الى العدد ١٣ ــ يعزون الى ما جاء فى خبر العشاء الأخير . غير ان هذا التعليل ليس مقنعا . فمن المعروف ان واحدا من المجموعة التى تتألف من ثلاثة عشر شخصا كان ينبغى أن يموت قبل نهاية العام ، فى حين ان الخبر الوارد فى العشاء الأخير ، يقول ان اثنين يلقيان نهايتهما قبل أن يمضى العام .

ثم انه من الخطر أن نفصل عدد ١٣ عن عدد ١٢ الذى كان ذائعا فى المأثورات الشعبية فى عصر ما قبل المسيحية .

ولا نستطيع أن نجزم حتى الآن ما اذا كان العدد ٧ يدين بأهميته الى عدد الكواكب ، كما نظن غالبا .

والأمر اليقينى ان هذا العدد موجود بين شعوب وفى حضارات تجهل تمام الجهل ، نظم الكواكب .

وللعدد اربعين ، شيء من الأهمية فى المأثورات الشعبية السلافية والاغريقية والسامية .

وترتبط بعض المعتقدات الخرافية بالعطس . فمن المعتاد أن نقول « يرحمك الله » ــ وهذه الكلمة نتاج ظن بدائى مؤداه ان هناك خطرا فى ان تهرب الروح من الجسم الى الأبد أثناء العطس غير ان هناك عددا من المعتقدات الخرافية الغريبة ، ليست واضحة تماما لنا . فالفكرة السائدة التى تقول أن عطسة انسان ، تدل على صدق كلمة قالها أحد الحاضرين ، هذه الفكرة لا نستطيع أن نعزلها عن الفكرة القديمة القائلة بأن شعاع برق ، أو رعدة رعد ، تنبىء عن قبول الدعاء .

واما القول بأن البرق أو الرعد هو جواب جوبيتر ، فيحمل كل صفات الحكاية التعليمية الشارحة .

وتتصل معتقدات خرافية كثيرة ، بأفعال شخصية خالصـــة ، كالفواق ، وصفير الأذن الخ .. والتعليل المألوف ، ان هذه الأفعال تقع فى مجال تراسل الأفكار . وكونها أفعالا شخصية ، لا يسمح لنا بالفحص عنها لو تحليلها خاصة وان هذا الموضوع ، موكول جميعا ، الى أدعياء .

والرد العلمى السائغ عندنا هو أن نقول « لا ندرى » .

ومن المعتقدات الخرافية الهامة والغامضة كذلك ، تلك التى نسميها فى هــذه البلاد بالنظرة الثانية ، والتى يسمونها فى فرنسا intersignes ، ويطلقون عليهــا فى المانيا كلمة Vorspuk . ومعنى ذلك ، القدرة على رؤية الأحداث التى تقع فى المستقبل ، وكأنها رؤيا ، أو اضغاث احلام .

أما أن نسخر منها ـ وننفض أيدينا دونها ، فأمر لا يجيزه النظر العلمى ، بل لعله يعبر عن قلة اكتراث عالم الفولكلور ، أو رجل الثقافة الذى ينبغى أن يتمثل بالقول السائر « ما أنا الا انسان ولا يستطيع ان يغير الناس » .

ونحن نأمل حقا ، أن تمدنا الدراسات العلمية فى المستقبل ، بتفسيرات سائغة .

وبعض هذه التفسيرات العلمية ، قد قيلت فى شرح طبيعة الأحــلام فنظرية العقل الباطن التى لا تعنى الآن اكثر من اصطلاح علمى ـ تمدنا بطريقة مقبولة ، لتفسير ظاهرة الأحلام .

وفى المنطقة الواقعة بين المعتقدات الخرافية والتجارب النفسية ، نجد المعتقد الذائع وهو ان الرجل الذى يحتضر ، يوهب القدرة على التنبؤ ومعرفة الغيب ويقترن بهذا الظن ان دعوات المحتضر أو لعناته ذات فعالية شـــديدة .

ولسنا ندرك هل سبب هذا المعتقد ان طبيعة الموت غامضة ، أو أن بعض الناس ، تظل قواهم العقلية سليمة ، وقبل ان تخبو كالشمعة الخابية ، تستطيع فى ومضة اخيرة ، وفى استجماع كامل لقدراتها ، أن ترى رؤية لم تكن تستطيعها اثناء حياة صاحبها .

ومما يلفت النظر كثرة ورود هذه الجزئية فى آداب العالم . فتنين طيبة المحتضر ، يتنبأ لقاتله كادموس بنهايته المحتومة وتحوله . وبنفس الأسلوب يتنبأ فانفير التنين الثوردى بمستقبل الشاب سيجورد .

وقد يخطر على بالنا ، الرؤية الرائعة التى رواها تنهاوزن المحتضر فى « ويلهيلم تل » .

كما اننا نذكر ان هيكتور المحتضر فى الالياذة ، يتنبأ بموت غالبه .

وهناك معتقد خرافى ، على قدر كبير من الغرابة ، ولم نعرف له تفسيرا حتى كتابة هذه السطور ـ وهو أن بعض الموتى ، يشاهدهم فى لحظات الاحتضار ، أناس آخرون ، فيرونهم فى أماكن اخرى على حين انهم لا يعرفون شيئا عن مرضهم او وفاتهم .

وقد استخدم سير والتر سكوت بعض هذا الظن فى « عريس لامرمور » لكن هذا الظن يظهر كذلك فى عديد من الخرافات المحلية المتواترة من شتى انحاء اوروبا .

وقد يبدو ان الانتقال يسير من التفاؤل والتشاؤم الى العقاقير التى تدفع حسد العين . ذلك ان هذه الادواء قديمة قدم الايمان بالحسد .

وفى مقدمة هذه الأدواء بصقة الانسان ، ولهذا نشأت عادة البصق لدفع حسد العين ، وهى عادة نعرف أنها كانت موجودة فى العالم القديم ، ولكننا لا نعرف الأصل الذى انشأ هذا المعتقد الخرافى واذا جاز لى أن اغامر بابداء راى ، قلت ان لبصاق الانسان خواص الأنزيما ، اى انه يسبب « التخمير » الأمر الذى دعا الى استخدام البصاق بكثرة فى صناعة الجعة فى الأزمان الغابرة .

وكان من المستطاع اذا ، أن يستنتج القدماء من هذه الخاصية ، ان البصاق يرد الأذى عن الانسان وان ينسبوا اليه خواص تنفع فى رد القوى الشيطانية .

وما ينطبق على البصاق ، ينطبق كذلك على الدم سواء كان دم انسان أو دم حيوان . وخواصه الدافعة للشر ، قديمة قدم خواص البصاق ان لم تكن امعن منها فى القدم . فالساحرة تعجز عن ايقاع الأذى ، اذا استطاع المرء أن يفصد قطرات دم من جسمها . ويستطيع الانسان المسخوط الى ذئبه ، أن يسترد هيئته البشرية الماضية ، اذا استخدم الوسيلة الناجحة السابقة .

وليس لنا أن نعزل عن مجموع هذه المعتقدات الخرافية ، ما يظن من خواص الدم البشرى الشافية وهى التى أنشأت المعتقد الخرافى المفزع القائل بأن الأبرص يشفى اذا اغتسل فى حمام دم بشرى .

وكان الظن ان دم الأطفال الصغار ، أشد تأثيرا ، وادعى الى الشفاء .

وهناك فكرة مشابهة تكمن وراء الظن الخرافى القائل بأن الدم البشرى الطازج ، يشفى أمراضا بذاتها ، ومنها شلل الأطفال ــ وهو اعتقاد مفزع تسبب فى حدوث مناظر مروعة فى كافة انحاء أوروبا حين كانت أحكام الاعدام تنفذ علنا .

وقد شاع القول بأن الجلادين كانوا على قدر من المعرفة الطبية ، لكن طبائع الأشياء تجعلنا نقول ان الجلادين كانوا على قدر من الفراسة فى تشريح الجسم البشرى ، وان هذه الفراسة لم تكن تتسنى لمدارس الطب ، لأن الكنيسة كانت تستنكر تشريح الجثث وتنهى عنه .

وأما الاعتقاد فى أن دم رجل القبيلة المسفوك يصيح فى وجه قاتله ، واذا ترك بدون أخذ ثأره ، أنزل أضرارا جسيمة بالمجتمع ــ هذا الاعتقاد ادى أول الأمر الى تحريم سفك مثل هذا الدم . وأما الخوف من دم « الطمث » فأنشأ المحظورات الأولى التى تنظم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة . بل انشأ عدم المساواة بينهما . وكان ذلك ظلما يستطيع رجال السياسة المحدثون بما لهذه الفئة من المصلحين من قدرة ــ أن يجعلوه عدلا وذلك بأن يصدروا شيئا من تشريعاتهم فى هذا الصدد ! (*) .

وقد انشأ مجتمع الدم ، نظم القرابة فأمكن بذلك اعتبار الشخص الغريب عضوا فى القبيلة ، اذا ما أجريت له مراسم مواثيق الدم . ثم ان هذه المراسم تحدث مع شعائر الزواج الأخرى فى حالات الزواج من خارج العشيرة . وهكذا نشأ بالمثل وجوب استخدام نقطة الدم ، بدل نقطة الحبر ، فى التوقيع على ما يسمى بميثاق الشيطان .

(*) يشير المؤلف الى فكرة شعبية ، منتشرة وهى ان المراة ، أقل كمالا من الرجل لأنها تحيض . ولكنه ينتهى منها الى القول بأن الطمث قد ادى الى عدم المساواة الاجتماعية بين الجنسين وهــذا فى رأينــا اسراف فى التأويل . لأننا نعرف ان المجتمع البشرى مر بمراحل ، كانت فيها السلطة للمراة . (المترجم) .

وقد استلزمت خواص الدم الخفية القيام ببعض الشعائر المطهرة حتى اذا كان القتيل غريبا أو عدوا . وهكذا ، نشأت شعائر « النير » الرومانية والمحرمات المرتبطة بأنصاب النصر ومختلف شعائر التطهير فى بلاد الاغريق وروما .

وقد أدى الحاق هذه الخواص الواقية بافرازات الجسم البشرى الى نشوء معتقدات خرافية وممارسات ذائعة بين المجرمين الذين يعتقدون انهم يستطيعون أن يفلتوا من ملاحقة البوليس لهم اذا هم دنسوا بغائطهم الأماكن التى يقترفون فيها جرائمهم وذلك قبل أن يغادروها .

ويعتقد كذلك ان الخواص الواقية والشافية توجد فى نباتات بعينها ، وفيما يستخرج منها من عقاقير . وسوف ندرسها فى فصل آخر نعقده بعد ذلك .

وأبسط من هذا ، استعمال الشارات المختلفة التى يظن انها تقاوم التأثيرات الشريرة ، وتأثير العين الحاسدة على نحو خاص .

ومن أمثلة هذه الشارات ، شارات « التين » و « القرون » ، وهى المعروفة ــ لا تزال ــ فى جنوب أوروبا .

وأما الشارات الأولى ، فبذيئة وقائمة على الظن ، بأن للأعضاء التناسلية ، ــ وهى مواضع الخصوبة ــ من القوة ما يكفى لرد هجمات القوى الشيطانية .

ونحن نجد التأثيرات الشيطانية ، والخوف من أذاها ، تؤلف أساس المعتقدات الخرافية الخاصة بالزمن .

يقول سنى Seni أحد شخصيات مسرحية شيللر الكبرى : « ڤالنشتاين » يا بنى ! ليس فى العالم شىء يستحق الاستخفاف به غير ان أول الأشياء الأرضية وأهمها هو مكان الشىء وميقاته .

Mein Sohn, nichts in der Welt ist unbedeutend,

Das erste aber und haupts ächlichste

Bei allem ird'schen Ding ist ort und Stunde,

لكن من الخطأ أن تقرن دائما بين هذا الرأى والتنجيم . فالواقع أن

الاعتقاد فى ان بعض الأيام والفصول حسنة الطالع ، وبعضها أقل حظا ، ــ هذا الاعتقاد أقدم بكثير من ملاحظة النجوم .

ومن اظهر النتائج المترتبة على هذا الظن ، نشوء « الأيام المشئومة » التى نعرفها من التقويم الرومانى . ذلك ان الرومان ، فكروا على نحو ساذج ، فى ان يطلقوا اسم « الأيام الكريهة » على تواريخ هزائمهم ابتداء من هزيمتهم فى موقعة Allia الى هزائمهم فى كاناى وكاراى وتدمير فاروس .

غير ان هذا الأمر ، تعميم لعادة مقدسة لا تقتصر على الرومان وحدهم ، بل هى أقدم تاريخا من الجمهورية الرومانية ، فالسبت اليهودى ليس له أصل غير هذا ، وكذلك فالأحد البيروئانى ، يتصف بسائر الصفات التى تميز « الأيام الدينية » ثم ان الأيام الدينية كانت ثلاثة هى الرابع والعشرون من شهر أغسطس والخامس من شهر اكتوبر والثامن من شهر نوفمبر عندما كان يظن ان العالم الآخر ، يفتح أبوابه .

وقد يكون منطقيا أن يخصص الجزء الأخير من السنة للموتى بعامة ، وعلى هذا الأساس ، نشأ فبراير الرومانى (وهو الشهر الأخير من السنة الرومانية القديمة) ومرادفه من السنة الهندية الفيدية ، وكذلك كان تخصيص الأحد الأخير من السنة الكنسية للموتى فى ألمانيا البروتستانتية .

وقد حل عيد « الأرواح كلها » محل عيد آخر كان قد نشأ فى مرحلة ما قبل المسيحية ، وكان مخصصا لأرواح الأجداد وما يزال هذا اليوم فى أوروبا السيلتية حافلا بالعادات والمعتقدات الوثنية ، ذات الطابع القاتم .

ولسنا نعرف السبب الذى جعل شهر مايو يكتسب سمعته المقبضة فى العصور الرومانية ولكن المعتقدات الخرافية الخاصة بهذا الشهر لم تزل جارية الى ايامنا هذه فى مناطق أوروبية لم تطأها قدم رومانية . والأمثال صريحة ، فى تناولها للزواج الذى يقع فى شهر مايو .

لكن يبدو ان هذا الاعتقاد الخرافى لا يظهر فى بعض أنحاء ايرلندا ، وخذ مثلا الأغنية الشعبية الايرلندية التالية :

اذا قدرلى أن اتزوج فسأتزوج فى شهر مايو .

حين تخضر الحقول وتمرح المراعى

واستطيع وحبيبى أن نلهو ونجلس
وحدنا بين خمائل الورد

ومع استعمال الأسبوع السكندرى ، كان لابد من أن تتخذ بعض الأيام او احدها صفات «اليوم السيىء الطالع» ولا نعرف لماذا اختير يوم الجمعة، دون غيره ، ولماذا ذاع التشاؤم فيه فى انحاء كثيرة ، ولا نقول انه ذاع كذلك فى انحاء الأرض جميعا .

واقرب التفسيرات الى العقل ، يربط بين صفات هذا اليوم وأيام المسيح . واذا اعتبرنا فكرة الأيام السعيدة والأيام المشئومة والأيام السيئة الطالع ، خارجة على منطق العقل ، فلا يسرى هذا على جماع المعتقدات التى نسميها « مأثورات الطقس » . ذلك انها مبنية على الملاحظة الدقيقة التى ابدتها أجيال متعاقبة من المشتغلين بالزراعة .

واذا بدا ان بعضها غير مقبول عقلا ، أو اذا وجدنا بعض حالات الطقس تخالفها فى انحاء شتى من أوروبا ، فسبب ذلك ان اصلاح التقويم قد قلب قواعد قديمة راسا على عقب ، ثم ان فروق المناخ واسعة جدا ، بين مناطق بحر الشمال والبلطيق من ناحية ومناطق البحر الأبيض من ناحية ثانية ، بحيث ان القاعدة الصحيحة فى بريطانيا ، لا تصلح أو تصح فى فرنسا .

لقد كانت حكمة الطقس أو مأثوراته تتداول فى الماضى ، بالرواية الشفاهية . فاستعمال التقاويم المطبوعة المتاحة لنا فى بعض انحاء أوروبا ، وفى سائر المناطق الزراعية الأمريكية استحداث متأخر زمنا .

أما القواعد التى كانت تحكم حالات الطقس فكانت تصاغ شعرا ، ليسهل على الذاكرة استيعابها وترديدها .

والكثير من هذه المنظومات ، بشكلها الراهن ، قد لا تكون بالغة القدم ، لكنها فيما يبدو ـ حلت محل منظومات اخرى اقدم تاريخا منها .

ولا نزاع فى ان فكرة مأثورات الطقس أو حكمة الطقس ، أمعن فى التاريخ من الشاعر هزيود الذى تفيض قصائده باشـــارات من هذه المأثورات .

واحب أن اذكر بعض قواعـــد الطقس الانجليزية ، بهدف الشرح والتبيين . فالبدر ، فى ليلة راس السنة او قبيلها ، يعتبر فالا سيئا ، ولهذا يقال :

وراس السنة مضيئا .. سنابل القمح خفيفة
وراس السنة مظلما .. سنابل القمح ثقيلة
وزارعو الدينار يتمثلون بالمثل القائل :
الى ان ياتى عيد القديس جيمس وينتهى !
قد يكون هناك دينار أو لا يكون .

والقاعدة التى تحكم قطع حشائش الشوك تقول :
اذا اجتثت حشائش الشوك قبل عيد القديس جون !
نمت حشيشتان بدل الواحدة !

ومعنى هذا ، ان حشائش الشوك تنضج بعد يوم ٢٤ يوليو ، واذا لم تجتث ، بذرت بذورها فى الأرض الزراعية .

ويعزى الى القمر أن له تأثيرا على النبات ، ولهذا يقال :

ابذر اللوبياء وفول الصويا فى المحاق فمن يبذرها قبل هذا ، يتسرع !

ابذرها والقمر فى محاقه حتى تلازم الكوكب ، وتطلع معه ، وتزكو بما تحمل ، وتعطى حصادها وفيرا .

وهناك قاعدة اخرى تقول :

عندما تكون شجرة الخوخ بيضاء كالملاءة البيضاء .. ابذر شعيرك سواء كان مبتلا أو غير مبتل .

وقاعدة غيرها تقول :

عندما تكتسى السنديانة باكمام ورقها الصغيرة الرمادية .. ابذر شعيرك ليل نهار .

وقاعدة اخرى تقول :

عندما تكون أوراق الدردار فى حجم آذان الفئران ، فلا تخش بذر شعيرك .

وعندما تكون اوراق الدردار فى حجم عيون الثيران فانى انادى :

هيا أيها الفتيان اسرعوا !
وهذه المنظومة تطابقها منظومة المانية مشابهة .

ومن الأقوال التى تندرج تحت هذا القسم منظومة تقول :

اذا كانت قشرة البصل رقيقة
كان الشتاء القادم معتدل البرودة
واذا كانت قشرة البصل سميكة
كان الشتاء القادم باردا عنيفا .

وبعض هذه المأثورات يرجع الى عصور قديمة فمثل « افقر كرمك يجعلك ثريا » ومثل « قصر فروع العنب ، يغزر محصوله » — يرجعان الى فترة كانت فيها الكروم تزرع فى بريطانيا .

واغرب من هذا ، القول المأثور فى بريطانيا وهو انه اذا خلت اشجار الدردار من البذور والأغصان ، فلن يكون هناك ملك فى الاثنى عشر شهر القادمة . ولكن اشجار الدردار ، تحمل أغصانا ، على الدوام ، ولهذا يدل المثل على استمرار نظام الملكية فى انجلترا . ولكن قد يلفت نظرنا الى أن المثل يحدد فترة سنة ، فهل يعود ذلك بنا الى نظام الملك السنوى ؟

ويدين مأثور الطقس بوجوده الى أهمية الطقس فى الحياة الزراعية . غير أنه ، مع جريان الأفكار وانتشارها ، امتد الى مختلف الشئون البشرية ، ذلك ان النبوءات والنذر كانت تستنبط من احوال الجو ولذلك أعتبرت ديانات كثيرة ان سقوط المطر فى يوم العرس ، نبوءة سيئة ، على حين اعتبرته ديانات أخرى ، بشيرا ينبىء عن الخصوبة .

وتراعى حالة الجو فى مناسبات الجناز بالمثل . فيظن ان المطر نبوءة على أن الجثة مباركة ، وهناك قصة ايسلندية من العصور الوسطى تقول لنا ان جناز رجل طيب ، لازمته العاصفة ، لكنه كوفىء بالراحة والسعادة ، على حين لقيت زوجته الشريرة ، مصيرا مناقضا لهذا فى الحياة الثانية ، برغم ان يوم جنازها كان مشرق الشمس صحوا .

وقد سمعت قصة فى مناطق الراين عن مراب ، حمل الفيضان المفاجىء جثته واضاعها . والفكرة الكامنة وراء هذه القصة ، انه ما كان للرجل الشرير أن يحظى بدفن جثته فى أرض طاهرة اشتراها بأموال الربا.

ويقودنا سياق الأفكار ، الى مختلف الخرافات المتعلقة بشعائر « المراحل » ، كما هى مذكورة بالفرنسية فى كتاب فان جنب الموسوم بـ « شعائر الانتقال » .

هذه الخرافات ، سنعرض لها فى فصل مقبل ، لكن بعضها جدير بأن نشير اليه هنا . فحادثة الميلاد تحمل معها فكرة « النجاسة شعائريا » التى نشأت عنها التدابير الاحتياطية والمحظورات التى ينبغى مراعاتها الى أن تتم « كنسية الأم » أى ذهابها أول مرة الى الكنيسة بعد الميلاد .

وعلى أساس هذا الظن ، يعتقد ان الأم وطفلها ، كليهما معرضان لعاديات الشياطين ، ولذلك ينبغى الاحتفاظ بشمعة مشتعلة بجوار المخدع ذلك ان النار معروفة بدفعها للضرر . وخرافة استبدال طفل بطفل ، تستمد اغلب اسبابها ، من هذا الخوف ذاته .

واما عادة تعريض الطفل الحديث الولادة للنار ، التى نشأت منها العادة الاغريقية المماثلة ، وأما الشعائر المقابلة لها ، والتى تعتبر ان للمياه خواص النار النافعة والدافعة للضرر ، فهذه جميعا أشكال ، اكتستها أوهام بدائية سابقة .

وترتبط مجموعة من الخرافات بعملية التسمية ، وهى حادثة على جانب كبير من الأهمية ، وتأثير بالغ فيما يقع بعد ذلك من أمور .

وكانت العادة السارية فى أغلب الأحيان — عند البابليين القدماء وأهل أتروسكا والرومان — أن تستعمل طوالع ميلاد خاصة فى تحديد اسم الطفل فاذا قال ساكو النحوى مثلا ان رجلا أراد أن ينقذ طفلين ملكيين فأطلق عليهما أسماء الكلاب ، لينجو من الظلم ، فاننا نذكر عادة الياكوت فى أن يسموا الطفل ، الذى مات أخوته الكبار باسم « الأوهوتو » أى « الجرو » لينقذوه من اضطهاد شياطين الأوبئة والأمراض (*) .

ولعلنا نجد أفكارا مشابهة ، فى عادة البكاء عند ميلاد الطفل ، وهى من عادات أهل تراقيا ، وقد رواها لنا هيرودوت ، مع كثير من التأمل الفلسفى ، الغريب ، — بلا شك — على عقول هؤلاء البلقانيين الأجلاف .

وأما الاعتقاد فى أشباح الموتى فيمثل له بالبكائية التى تقول :

أما ان كنت قد قترت وغللت يدك الى عنقك فى حياتك .

(*) نجد شيئا من هذه العادة فى بعض قرى الصعيد حين تنذر الأم — التى لا يعيش لها أبناء — أن تسمى جنينها باسم « ضبع » أو « وحش » اذا ولد سليما وعاش — المترجم .

واغتصبت الكنوز من رحم الأرض فهامت روحك بعد الموت عقابا وجزاءا كما يقولون .

فتكلم !

اى أن الروح ــ فيما يظنون ــ تعاقب فتكفر عن خطيئة (لا تكون دائما خطيئة كبيرة ، وتحوم فى المكان الذى كان صاحبها يسكنه .

ولقد تحكى القصص كيف ان الأحياء ــ وهم احفاد صاحب الشبح فى غالب الأمر ــ يؤدون عملا ، فيكفرون عنه . وقد تكون الكفارة بسيطة ، وكلامية فى جوهرها .

والأشباح حارسة الكنوز ، ذائعة غاية الذيوع فى أوروبا ، وقد تحاول الحكايات الشعبية ان تشرح لنا العلاقة بين الكنز والشبح .

والمأثورات الشعبية الدائرة حول ظهور الأشباح ، كثيرة العدد ، ونحن نرجح أن يكون للشعراء ــ المعروفين والمجهولين ــ دور كبير فى انشائها شأنهم فى هذا شأن هومر القديم فى انشاء اهل الأوليمب .

وينطبق هذا القول على أشباح شكسبير انطباقه على أشباح ديكنز .
وهكذا يخفت النور عند اقتراب الشبح ، الذى يظهر للحيوانات دائما ، حتى ولو لم يظهر لعين الانسان . فتنبح الكلاب ، عند مروره بها ، وتتوقف الجياد عن سيرها عندما تقابله على الطريق . ولقد يمر ــ يسيرا ــ من الأبواب والبوابات الكبيرة ، مهما كانت مغلقة ومحكمة الرتاج .

وكثيرا ما يظن أنه من الخطر ، الاستجابة اليه ، أو الرد على سؤال يوجهه . ولعل الرجل المتعلم والعلامة ، أن يكونا خيرا من الرجل العادى فى التعامل معه .

وأما قبضته فخطيرة غاية الخطورة وينبغى تحاشيها . فاذا مد يده فمن الخير أن تمد له عصا ، فستجدها محترقة بعد ذلك .

وان ميقاتا بعينه ، ليحدد ظهوره . فاذا صاح الديك ، هرب عائدا الى مسكنه الجهنمى ، وهو فى هذا يشبه سائر كائنات العالم السفلى .

وليس بوسعنا أن نناقش الأصل الذى صدرت عنه هذه المعتقدات فعلى قدر ما نعتبرها جزءا من التعبير عن مذهب الحيوية ، فانها تدخل

فى نطاق تاريخ الأديان ، وعلى قدر اعتبارها ظاهرة عقلية ، فهى تقع فى دائرة العلوم الطبيعية .

ولقد لقى « الشبح مصاص الدماء » بعض اهتمامنا فى فصل سابق . وهو يختلف فى جوهره عن الأشباح العادية فمن حيث انه يتبدى فى هيئة جسمية محسوسة فلا يستطيع أن ينفذ من الأبواب المغلقة ، لكن عنـــد اقترابه ، ينفتح له الأبواب من تلقاء ذاتها وتدعه يمر .

ثم انه لا يعزم عليه كما يعزم على الأشباح العادية . بل يحتاج الأمر الى القيام بجهد بدنى للتخلص منه .

وفيما عدا ذلك من صفات ، فهو لا يختلف كثيرا عن الشبح العادى .

غير انه لا يسهل علينا دائما أن نضع خطا فاصلا بين الشبح مصاص الدماء والشبحالعادى . فاذاسمعنا ان الشبح قتل ذات مرة ، فلعلنا نفترض ان هذا الشبح العادى كان فى الأصل شبحا مصاصا للدماء ذلك ان الأشباح مصاصة الدماء ، لا الأشباح العادية ، هى الجديرة بأن تخشى ميتة ثانية فى هذه الحياة الدنيا .

وينطوى تحت قسم الأشباح العادية والأشباح مصاصة الدماء ، تلك الخرافات الدائرة حول « الهولندى الطائر » .

وعند دراسة هذه الخرافات وما يتصل بها من أوهام ، ينبغى ان نحذف منها ما اختلقته الحركة الرومانســية وما خلقه هنريك هاينى وريتشارد فاجنر ، ولا تقول شيئا عن رواية كابتن ماريات العجيبة .

أما جوهر القصة الخرافية ، فيحمل طابع تاريخ هولنــدة الماضى المجيد ، ويعود الى القرن السابع عشر .

فالحضارات القديمة والوسيطة لم تعرف مركبات الهواء الشيطانية ، بل يجب ان نبحث عن منبعها ، فى التخيلات الخاصة بالطيران الهوائى ، المعروفة باسم Fata Morgana (انعكاسات الهواء) .

وهناك معتقد آخـــر ـ أو قل مجموعة من المعتقدات ـ تنطوى ، عادة ، تحت مذهب الحيوية ، وترتبط بفكرة « بديل » الشخص أو قرينه .

ولا نزاع فى أن هذا الظن يعود الى ظاهرة نفسية غير مجهولة لعلم الطب .

وبين هذه الفكرة ، الساذجة ، و « المحايدة » وبين الظن بأن للبديل

او القرين خواص خارقة ، وانه ملاك حارس ـ نقول ان بين الأمرين ، مسافة قصيرة ، ولذلك فنحن نلاحظ ان كثرة من الشعوب ، قطعت هذه المسافة القصيرة ، وانها فعلت هذا ، فى انحاء شتى من الأرض ، ينفصل بعضها عن بعض .

وحيث انتشرت الثنائية ـ كما هى الحال فى فارس . فانه يجوز أن نزعم لأنفسنا وجود زوج من البدائل أو القرائن . فهناك قرين للشر وآخر للخير ، مسئولان عن أفكار الانسان الخيرة والشريرة ، وأفعاله الطيبة والخبيثة .

وبشىء من التوسع ، يجوز أن ينسب الى مجموعة الأفراد ، او أسرة من الأسر ، أو الى شعب ، ان له روحا حارسة ، وهكذا نسمع فى الوثائق الأيسلندية القديمة ان ارواح البلد الطيبة ، افزعتها رءوس التنين المعلقة فى مقدمة سفينة الفايكنج . وان جنى الامبراطور ، وروما ، كان تصورا هاما ، منذ عهد أوغسطس .

ويوحى الاسم اللاتينى ان هذا البديل أو القرين يرتبط بالقدرة على الانبعاث والتشكل فبلجيا النوردى يظهر فى شكل حيوان ، ويدلى بالنذير فى الأحلام . لكنا نجد فى أيسلنده ان الفيلجيا ، ينبغى أن يكون من جنس يختلف عن جنس صاحبه ، وهذه الفكرة ، فيما يبدو ، هى أساس القصة النوردية عن كارا وهلجى ، واساس قصة فرفاشى الفارسية .

وما تزال هذه المسألة قضية مفتوحة للمناقشة ، غير ان « البديل » أو الروح ، ارتبطت دائما بظل الانسان ، فكان ذلك سببا فى نشوء العديد من الخرافات الدائرة حول ظل الانسان فاذا شوهد ظل الانسان ، فى موقع بناء أقيم أساسه ، فان ذلك يكفى للدلالة على ان صاحب الظل سيموت خلال السنة . ومن امثلة هذه الخرافات الغريبة الظن بأن الانسان الذى يبيع روحه للشيطان ، لأى سبب ، يفقد ظله ـ وهذا الظن الخرافى يظهر فى القصة الأسطورية السويدية عن آنا التى خلدها لنياو ، وفيها ان البطلة ، عقمت نفسها بوسائل سحرية ، ففقدت ظلها .

لكن أكمل تعبير عن هذا الوهم فى الآداب نلقاه فى القصة المأســـوية « بيتر شلمل » وان كان الشـــاعر قد ملأ الشكل الجديد ، بمحتوى قديم ومادة قديمة فالرجل الذى ليس له ظل ، هو نفسه الرجل الذى فقد وطنه ، وهو شاميزو فى هذه القصة . ذلك ان أمر الانسان مع وطنه

كأمر الانسان مع ظله فلقد يستهين الانسان بوطنه أو ييأس منه فى لحظات الضيق ، وقد يغضب من حماقاته الصغيرة لكنا آخر الأمر نشعر اننا مرتبطون بترابه بألف جذر خفى ، كما نرتبط بظلنا .

ولقد يقول أولبرت فون شاميزو (*) ما يقوله شاعر أكبر منه ، جاء بعد ربع قرن ، فقال :

اصيب أحدهم للأسف بالشلل
ولم يعد الى بيته ثانية
ها هو ذا يمد ذراعيه فى لهفة
لعل الله أن يرأف به

وثمة خرافات أخرى ، تختلف فى طبيعتها ، وتمعن فى قدمها ، ولا نجد اسما نطلقه عليها خيرا من اسم « الخرافات المنزلية » . ولقد عرف هزيود بعض هذه الخرافات ، واذا فحصنا عنها فى المصنفات الأحدث عهدا ، وجدنا انها لم تندثر بل هى باقية . ويكفى أن نشير الى بعضها ، فمما يدعو الى التشاؤم أن نبعثر الملح لأن ذلك يسبب معارك عائلية . ولا ينبغى أن نضع السكين المكسورة على المائدة وحدها الى أعلا ، وذلك حتى لا تجرح « الأرواح » الطيبة نفسها وينبغى لهذا السبب ، الا نترك لحم الخنزير ، يغلى ساخنا بجوار المدفاة .

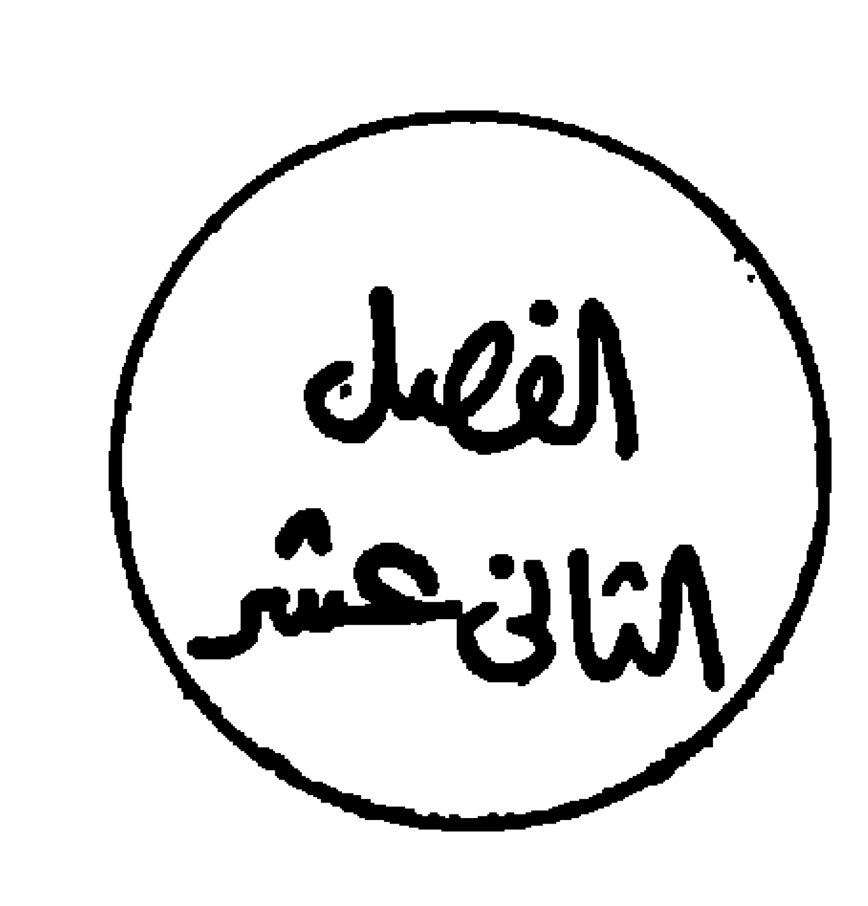
ولقد حذف فيثاغورس بعض هذه الخرافات من فلسفته الدينية ، وكان ذلك لأسباب لا نعرفها ، لكن بعض قدماء المؤرخين ، الذين عاشوا فى عصـــور تالية ، وكانوا منعزلين عن خرافات الفلاحين ، حاولوا أن يفسروها ، لكن شروحهم لها دلت على جهلهم بها .

ولا يجوز لنا أن نسخر من هؤلاء المؤرخين القدامى ، فقد يصعب علينا ان نشرح الأصل الحقيقى لهذه المعتقدات الخرافية ، فما يقال عن « الأرواح الطيبة » لا يعدو أن يكون حكايات شارحة .

ولقد يستخف المحدثون بمثل هذه المحظورات ، لكنها لعبت دورها ، فى التاريخ الأخلاقى والاعتقادى . فمن المسلم به ان كل القواعد الأخلاقية ،

(*) الكاتب الرومانتيكى الالمانى فون شاميزو .

بدات اولياتها فى مثل هذا الحظر والتحريم . فمن العسير أن تتصور وجود افلاطون وارســـطو ، بغير فيثاغورس وتخيـــلاته ، والصيغة الحالية لـ Decalogue برغم عجزها وقصورها ، أكثر أخلاقية من نصها البدائى الأول الذى ما يزال يشع فى ثناياها ، وكأنه الحروف الأولى التى كتبها كاتب ، رسم حروف القانون الموسوى .



مأثورات النبات

مأثورات النبات :

الاعتقاد فى أن للنبات صفات حيوية (روحا) ـ اتحـاد روح النبات بروح الأجداد ـ والمنتحرين ـ العلاقة بين حياة الانسان والشجرة التى تزرع عند مولده ـ الشعارات المأخوذة من أشكال النبات ـ الاعتقاد فى شجرة الكون ـ والأشجار المقدسة ـ والأرباب الوثنية ـ الخواص الشافية للنبـات ـ الأحلام والنبات ـ الجان والنبات ـ الأسماء الشعبية للنبات.

ماثورات النبـــات

تتداخل الحياة البشرية فى كل مكان من هذه الأرض مع حياة النبات ، وتعتمد عليها كثيرا .

واذا اندثرت خضرة النبات الأرضى ـ لسبب من الأسباب ـ قدر على الانسان أن يعيش حياة لا تفضل كثيرا حياة الاسكيمو أو سكان تيرادلفوجو .

وأما علم النبات ، فابتكار محدث نسبيا ، يقتصر ادراكه ، على القلة السعيدة .

وليس غريبا ، اذا ، أن يظهر قبل نشوء الأسلوب العلمى فى النظر الى حياة النبات ، وأن يرافقه كذلك ، أسلوب آخر أكثر تواضعا منه . ذلك اذا جاز لنا أن نطلق هذه التسمية على مجموعة المعتقدات أو الخرافات التى يعتنقها الانسان بالنسبة لموضوع مملكة النبات .

ومن أبرز هذه المعتقدات ، ان لم يكن أبرزها على الاطلاق ، أن ينسب الى النبات صفات حيوية (*) ، ففى المرحلة الحيوية من التطور الدينى ، ترادف الحياة الروح ، وتكون الروح صورة للنفس الانسانية على نحو من الأنحاء . وعندما بلغت عقيدة الحيوية ، مرحلة الاعتقاد بأن للآلهة صفات البشر ، صارت روح الشجر فى بلاد الاغريق جنية الأحراج . أو جنيـــة الشجرة ، تحيا معها ، وتموت بموتها . أو أصبحت روح الشجر فى الشمال ، امراة المراعى (Moosweiblein).

وليس هذا التطور ، هو وحده الذى حدث ـ فقد يعادله فى الأهمية اتحاد روح النبات ، بروح سلف مات .

ولعل اللقاء المفجع بين اينياس Aeneas وبوليدورس Polydorus فى الكتاب الثالث من الاينيادة ، أن يقدم لنا خير ايضاح .

(*) خلاصة هذه الصفات الاعتقاد بأن للنبات روحا أو نفسا ، وان هذه النفس هى علة نموه ، وحركته ، وردود افعاله ـ وليس علة ذلك كله ، قواه العضوية أو المادية ـ المترجم .

ثم حدث تضييق ــ لم يكن غريبا على هذا الميدان ــ فاقتصر هــــذا المعتقد على ارواح المنتحرين ، وعلى هذا النحو ، أتيحت لنا الخـــرافة الطيبية التى رواها باوزانياس Pausanias عن انتحار منيوسيوس الذى دخلت روحه شجرة رمان كانت تنمو على قبره .

والى نفس الفصيلة تنتمى الخرافة القديمة عن فيليس Phyllis الذى قتل نفسه فتحول الى شجرة لوز .

هذه الحكاية ، كما رواها سرفيوس فى تعليقاته على فرجيل ، كانت مصدر الايحاء بالفكرة الخلاقة العظيمة ، التى يقوم عليها النشيد الثالث عشر من جحيم دانتى .

والشقة ليست واسعة بين تصور الروح الراحلة وتصور الروح الخارجية .

وترتبط الروح الخارجية فى حكايات جان كثيرة ، بشجرة ، فاذا تلاشى هذا التصور مع نمو الحضارة ، حل محله تصور آخـــر على الفور ، والشجرة التى كانت من قبل مستقر الروح الخارجية تصبح شجرة حياة لشخص من الأشخاص .

ولقد ظن ان هناك علاقة غامضة بين الانسان والشجرة التى تزرع عند ميلاده فاذا اجتثت الشجرة ، أو أتلفت ، مات هـــذا الشـــخص ، أو اصابه ضرر .

وبوسعنا أن نفهم ــ فى يسر ــ كيف أنه حين تتعمق جذور هـــذا المعتقد ، يكون للحادثة التى تصيب الشجرة ، ــ وعن طريق الايحـــاء الذاتى ــ نتائجها البالغة عند من يعتقد أنه مرتبط بالشجرة .

ومع تهذيب الفكر الانسانى ، تحولت شجرة الحيـــاة الى ما أصبح الآن ، طالع شخص ما أو طالع العائلة بكاملها ، ــ وبالطبع تعيش الشجرة مدة اطول من اى كائن بشرى .

وهكذا نصل الى المعتقد الغريب الذى يربط بين طالع اشراف ونشلزيا فى كنت ، ودغل السنديانة العجوز فى ايستول .

وعندما اجتثت الدغل ، انتهى « حظ » العائلة النبيلة .

وكان هذا القسم من المعتقدات معروفا خير معرفة فى روما القديمة

افسويتونويس يتحدث عن سنديانة ارتبطت بها حيـاة أسرة فلافيوس ارتباطا غامضا .

وكانت هذه السنديانة ، تنبت غصنا جديدا ، مع كل ميلاد يحدث فى هذه العائلة وكان التنبؤ بمستقبل الطفل المولود ، يستوحى من هيئة هذا الغصن .

وأشد شهرة مما سبق ، وأكثر ذيوعا فى أوروبا ، السنديانة العملاقة القائمة على الطريق بين هانوفر وازنابروك والتى لم تكن سوى شـجرة حياة أسرة هانوفر ذاتها .

وعندما وقعت هذه الشجرة فجأة فى أوائل صيف ١٨٦٦ ـ بدون سبب ظاهر ـ انذرت بقرب نهاية الأسرة ، ـ وتلك كارثة لم يتأخر حينها .

وآخر ما نشأ من هذه المعتقدات استعمال الشعارات من النباتات والرمز بالشجرة ـ كما تمثلها الأشجار المنقوشة على الأسلحة ـ ورمز الشجرة فى حلم هارلوت الذى انذر بمولد وليام الفاتح فجاء فى هذا الحلم .

« سيدى لست أدرى ما معنى هذا ؟ ان شجرة خرجت من جسمى ونمت صوب السماء وألقت بظلها فاستظلت به نورمانديا كلها » (*) .

وفى عرضنا لهذه النوازع والظنون الغريبة ، استخدمت ـ على الدوام ـ مصطلحات المذهب الحيوى ، وما من شك فى أنه حين يرى مفكر مثل امبذو قليس ان أرواحا بذاتها تدخل الأشجار ، فان نظرته تلك تكون مبنية على الظن بأن للأشجار نفوسا ، أو أرواحا .

غير أنه يجوز لنا ان نشك فيما اذا كانت تلك المعتقدات تعنى أنه قد سبقتها الى الظهور مرحلة الحيوية فى التطور الفكرى ، وكذلك يجوز أن نشك فيما اذا كانت عقيدة الحيوية ـ ان صح افتراضنا السابق ـ قد حلت محل مجموعة من الأفكار الأخرى ، أيا كانت طبيعتها .

(*) Sire, dist ele. io ne sai
Se n'est pur ceo ke sungie'ai,
Ke un arbre de mun cors isseit.
Qui uers le ciel amunt creisseit.
De l'umbre ki entur alout
Tute Normendie aumbrout.

والحق أن هذه الشكوك ، لها تبريرها السـائغ . يكفينا أن نتذكر حكايات العالم القديم الكثيرة عن تحول الانسان الى حيوان أو جماد وكيف أن الكائنات البشرية صارت أشجارا ، أو نتذكر أن الشجرة فى قصـة بوليدوروس الواردة فى الانيـادة ، تنمو من قبـر البطـل ـ يكفينا ذلك لنتبين أن وراء فكرة الحيوية ، تهوم فكرة أخرى أقدم منها ، كانت فكرة الروح فيها موجودة لعدم وجود هذه الفكرة ، أى كان النبات ينمو ـ طبقا لها ـ من جسم الميت مباشرة ، كما يحدث ذلك فى الواقع بالفعل .

والتسلسل المنطقى فى هذا ، يشمله الظن بأن الرابطة الجسـمية تقتضى وجود قدر من التماثل بين الانسان الذى تدفن جثته فى الأرض ، وبين النبات الذى ينمو من القبر .

ولم يستطع معتقد الحيوية أن يحل محل الفكرة القديمة ، فقد سبق لنا أن أشرنا الى فقرة بالادية تقول :

ومن صدرها ، تفتحت زهرة .

وفى صدره ، تفتحت نجمة الشوك

ونمت الزهرتان وارتفعتا الى ما فوق قبة الكنيسـة

وهناك انعقدتا فى عقدة الحبيبين الحقيقية .

والاعتراض الوحيد الذى أثير على استنتاجات المدرسة الانتروبولوجية هو أن نطاق الفكرة التى نناقشها ، كان جديرا بأن يضيق فى أوروبا ، لولا ورودها فى قصة تريستان الواسعة الانتشار .

ثم أن هذا الظن ، يعيش فى العقل الباطن حتى يومنا هذا ، فى شكل أقل جهارة ، وأشد بساطة ، فحوليات توربين القديمة تحكى لنا كيف أن الورود العطرة كانت تنمو من جثث شهداء المسيحيين . وأن الأشواك البرية وأمثالها كانت تنمو من جثث جنود صلاح الدين (*) ويقال أن وردة برية نمت فى أرض معركة توتون .

واذا ساغ لنا أن نبدى شكوكنا فى هذه الأقوال المتواترة ، فليس لنا

(*) يشير المؤلف الى استمرار الفكرة التى يناقشها وظهورها فيما روى عن الحروب الصليبية ـ المترجم .

أن نشك فى زهور الخشخاش فى أرض معارك واترلو والفلاندر . بل ان لقصة توربين القديمة مرادفا فى انجلترا فدانيال ديفو يشير فى « رحلة فى بريطانيا العظمى » الى الزهور البرية الدانيمركية فى باروهيل — واذا بالوثنة السكاندناويين قد حلوا محل جنود صـــلاح الدين المذكورين فى التقاويم الفرنسية .

وليس عسيرا علينا دائما أن نميز فى نص معين بين تحول الانسان الى حيوان أو جماد وبين تناسخ الأرواح (الذى تتضمن صورته المتطورة فكرة الحيـوية) .

وما كان العامة بمناطقة أو بفلاسفة ميتافيزيقيين ، وما كان للشكل الحديث أن يحل فجأة محل الشكل القديم . بل هو نمو مستمر بطىء ، واستيحاء وليس فكرا مطلقا مجردا ، واذا كان علمنا (أى الفولكلور) يعانى من عيب جوهرى فى طرائقه ، فينبغى أن نبحث عن هذا العيب (الذى أخشى الا يكون منه مفر) فى اتجاهات علماء الفولكلور التى تدعوهم الى أن يترجموا الى لغة المنطق ، ما لم يوضع على أساس نظر منطقى أصلا. وفضلا عن صفة الغموض فى حياة النبات التى أذهلت الانسان منذ البداية بلا ريب ، فهناك خاصية أخرى اثرت فى خياله ، وهى أن بعض الأشجار تعمر طويلا ، وان سائر النباتات تخضر أثناء نموها . وان الانسان يفنى ، والشجرة تبقى ، وانه محدث ، وهى قديمة باقية .

ويبدو أن هذه الفكرة ، وتجسيدها ، كانتا الأساس الذى قام عليه الظن بأن الانسان ينحدر من الأشجار أو انه مخلوق منها — وهو ظن كان موجودا فى بلاد الاغريق القديمة ، وفى جزيرة ايسلنده أثنـاء عصورها الأولى ، بل ما زال باقيا هناك حتى اليوم .

وتعتنق هذا الظن قبائل وامارات فى جنوب أفريقيا ، وقبائل مختلفة فى أرخبيل اندونيسيا ، بل انها لتؤمن به ايمانا اشد من ايمان فيرجيـل أو مؤلف Voluspá اذ ان هذا المعتقد انتقل اليهما فى شكل خرافة .

ولا يجوز أن نفصل عن هذا القسم من المعتقـــدات ذلك القصص الحديث الدائر حول الأطفال الذين يولدون من الأشجار أو نبات الكرنب.

ان الشجرة تثبت فى مكانها على حين يختفى الانسان ، جيلا بعـــد جيل . وكثيرا ما شيدت بيوت الأسر حول الأشجار ، كما نستنتج ذلك من فقرة واردة فى سيرة « فولوسبا » العائلية النثرية السكندناوية .

وكانت الشجرة عند ذاك تقوم مقام العمود ـ وبشيء من التوسع ، ظن أن العقد السماوى يستقر على عمود أو اعمدة ، ومن هنا نشأ الاعتقاد فى شجرة الكون . وقد ثبتت عبادة أعمدة الأشجار فى أوروبا فى عصورها القديمة . وتعتبر سنديانه جســـــمار فى هس التى اجتثها بونيفاس وشجرة ارمنسول الانجلوسكسونية ـ امثلة لهذه الأشجار المعبودة .

وكان للدكتور أ . ب . كوك فضل تنبيه الباحثين الى هذه العبادة التى انصرفت عنها الأذهان منذ أيام يعقوب جريمه .

وليس الانتقال صعبا من عبادة شجرة واحدة ، الى عبادة دغل كامل. ومما يسترعى النظر أن نجد فى اللغة اللاتينية القديمة واللغة السيلتية ، كلمة واحدة بذاتها ، تدل على هذا الهيكل الطبيعى المقدس .

ثم تحولت الأشجار المقدسة التى تميز مرحلة الديانات المؤمنة باتخاذ الآلهة هيئة الشجر ـ الى آلهة تتخذ هيئة البشر .

وأظهر مثال على ذلك زيوس ـ جوبيتر وشجرة السنديان .

وقد ثبت احصائيا أن أشجار السنديان ـ دون سائر اشجار الغابات الأوروبيةـهى التى تجتذب البرق ، الأمر الذى أدى الى أن تصبح شجرة البرق والرعد بلا منازع . ثم صارت اله الرعد بذاته . وعندما بلغت الديانات مرحلة الاعتقاد فى أن الآلهة تتخذ هيئة البشر ، ارتبط اله الرعد ـ بالطبع ـ بشجرة السنديان ، وصارت السنديانة شجرته . وهكذا كان الربط بين زيوس ـ جوبيتر والسنديانة ، وجهفه (وهو اله رعد قديم) الذى ظهر تحت سنديانة ممر ، وكذلك ، صارت سنديانة جسمار مقدسة عند دونار ـ اله القارة الأوروبية ـ الذى يضارع « تور » النوردى .

ومثل آخر جيد يشرح هذا التطور نجده فى مأثورات شجرة الدردار (لسان العصفور) .

اقترنت هذه الشجرة ، بالبرق ، بسبب لون ثمرها الأحمر . وحين نشأ الاعتقاد فى أن آلهة الرعد تتخذ هيئة البشر ، نالت شجرة الدردار خاصية الصلة بهذا الاله ، وهكذا صار شجر الدردار فى اسكنديناوة هو شجر الاله تور شأنه فى ذلك شأن السنديان فى ألمانيا .

ولما كان الاله تور والرعد ـ بعامة ـ عدوين لدودين لكافة قوى الشر،

فقد صارت شجرة الدردار الهة أرضية شهيرة ، ومن هنا ، كانت الأبيات الشعرية القائلة :

ان شجرة الدردار والشعاع الأحمر

قد جعلا الساحرات يلذن بالفرار

ثم رويت الحكايات الشارحة ، فى تفسير هذه الصلة القائمة بين الالهة والشجرة ، وذلك فى وقت نسيت فيه الأسباب الحقيقية لهذه الرابطة ثم عرفنا ــ فى الادا ــ أن الاله تور تعلق بشجرة الدردار عندما داهمه خطر الغرق فى تيار عنيف ، ولذلك سميت شجرة الدردار بأنها « مخلصة تور ».

وهناك احتمال ان يكون عطارد الهلليني ــ بالرغم من أن شخصيته مركبة ــ قد نشأ أول ما نشأ مقترنا بشجرة الصفصاف وان أبوللو وبولدر كلاهما قد اقترنا منذ البداية بعبادة شجرة التفاح الذائعة ــ وهى أقدم أشجار الفاكهة فى أوروبا الوسطى والشمالية .

وما يصدق على الأشجار ، يصح ــ بعامة ــ على النبات .

وحق أن الأعشاب لا تعيش أكثر من موسمين ، لكن هذه الحقيقة التى يعرفها عالم النبات الحديث ــ كانت مجهولة للعقل غير العلمى القديم . ذلك أن النبات كان دائم الخضرة ، والحياة ، فى نظر الانسان الأول ، كما هو كذلك ، فى نظر العامة اينما كانوا . وكما تعبر عن ذلك الأغنية الألمانية التى تقول :

فى كل عام يأتى الربيع ويمضى الشتاء .

أما الانسان فيحيا ربيعا واحدا (*) .

وينبغى أن نضيف الى الاعتبارات السابقة ، خواص العقاقير او قدرتها (بالمعنى الايطالى) التى تتصف بها بعض النباتات ، والتى عرفها الانسان لأزمان طويلة ، وقبل أن يصبح علم النبات علما . وكانت صناعة السهام المسمومة من أول الاستعمالات ، التى استخدمت فيها السموم النباتية .

(*) Alle Jahr Kommt der Frühling,
Geht der winter vorbei,
Der Mensch aber hat nur
Einen einzign Mai.

هذا السلاح ــ يعتبره العاطفيون السذج ــ غير جائز أو لائق ــ اذ هم يتعلقون بالرأى الغريب القائل بأننا نستطيع أن نخفف من أهوال بعض ما اخترع الانسان من نظم ــ ونعنى به الحرب .

غير أن هذا السلاح لا يستخدمه المتوحشون والبرابرة المعاصرون فحسب ، بل كانت تستخدمه كذلك كل الجماعات المتبربرة فى عصور الحضارات القديمة .

ولدينا دلائل ظاهرة تشير الى استخدامه ، فى النصوص التى اضيفت الى الالياذة ــ كما بين هذا الدكتور جلبرت مورى ــ ولدينا كذلك اشارة اليه فى الأوديسة (الفقرة ٢٦٠) .

واذا كانت أشجار الاكونايت قد سميت « تيرجالم » وأشجار الميزريون سميت (تيفيور) فى اللغة النوردية القديمة ، فسبب ذلك أنها ـ كنباتات سامة مستخدمة فى انتاج السهام المسمومة ــ كانت توهب لاله الحرب النوردى : تير Tyr .

والاحتكام الى السم ــ فى تبرئة البرىء وتجريم المذنب ــ يعود الى عصر التوحش من التطور البشرى .

وقد شرح سير جيمس فريزر هذه العادة شرحا وافيا ، فى دراسة قوية له ، ولا حاجة بنا أن نضيف هنا ، شيئا آخر ، فى بيان هذا الموضوع والى بدايات الحضارة ترجع « بساتين الساحرات » ــ كالبستان المنسوب الى ميديا فى قصيدة ابولونيوس رودريس ، ولم تكن تلك البساتين قد تلاشت من الاستعمال ، فى عصر شكسبير ، ولو أن مساحيق التوارث ــ أو زرنيخها ــ قد جعلتها لغوا غير ذى موضوع .

ولقد احتفظت خواص العقاقير الموجودة فى النبات ، بمكانة لها ، فى عالم الطب من بدايته الأولى . فأغلب العقاقير المنزلية المستعملة الآن ، تركيبات بسيطة ، من الأعشاب ، اعتبرها علم الطب المتأخر زمنا ، عقاقير نافعة ، لكن الناس انصرفوا عنها ، لأن علم الكيمياء الحديث ، اكتشف مواد أخرى . أشد فعالية منها وارخص ثمنا .

وبعض الخواص التى نسبت الى النبات كانت محض خيال من بدايتها ، ولا يعنى ذلك ، أن مجرد الايمان بها ، لم يكن دواء شافيا .

وقليل من هذه النباتات ، يستحق التنويه السريع .

وفى مقدمة الأعشاب الطبية للعصور الغابرة ــ أعشــاب ارطمازيا إفولجاريس ــ المسماة بالشفاء الشامل فى اللغة الانجليزية ــ والتى ترتبط أوثق ارتباطا بارتميس وتضارعها فى القدم ــ فى الشرق على الأقل ــ نبات اللفاح ــ الذى جاء ذكره فى سفر التكوين ، على أساس انه يهب المرأة العاقر القدرة على انجاب الأطفال . ولهذا السبب ، ارتبط اللفــاح بالنموذج السامى الأصلى لافروديت .

وارتبط اللبلاب بديونسيوس ، وقد برهن الدكتور رندل هاريس على ان ديونيوسوس نشأ من اللبلاب نشأة زيوس من شجرة السنديان وابوللو من شجرة التفاح .

ولا نزاع فى أن غصن اللبلاب كان شارة الحانات البريطانية ، بسبب هذه الرابطة ، وقد نشأ من ذلك المثل القائل « أن النبيذ الجيد يستغنى عن اغصان اللبلاب » .

وتحكى بعض الحكايات كيف أن رجلا يجهل خاصية النبات الشافية، قد منحته الكائنات غير المنظورة هذه المعرفة ، ومثــــال ذلك ما تقوله جنية البحر :

« هل تترك الصبية الجميلة تموت على ساعديك .

ونبات الارطميزيا يزهر فى الأرض » .

وهذه القصة لا تقل عن ذلك انتشارا فى القارة الأوروبية .

ومن علم الطب الأول ، نشأت شعبذة اختلطت بالآراء الدينية وتلك هى الايمان بشارات النبات . أى الاعتقاد بأن لكل مرض عشبا يستطيع أن يداويه ، وان هذا العشب يحمل شارة أو علامة تشير الى نوع المرض الذى يستطيع أن يشفيه .

والغالب ألا تكون هذه الشارة أكثر من صفة يوحى بها شكل النبات أو لونه أو اسمه . فالزهرة الصفراء ، جديرة بأن تعتبر دواء لليرقان ، وبذور السرخس جديرة بأن تجعل الانسان خفيا ، لأنها هى ذاتها تدق على العين أو هى مشهورة بذلك .

والزهرة المعروفة باسم خاتم سليمان تضمد الجراح وزهرة لسان الكلب السلوقى مشهورة بشفائها لجراح الكلاب . وأما القطط فتدلك

(*) أرتمسيا ــ نوع من النباتات يشبه الأفسنتين وهو من فصيلة نباتية مركبة .

اجسامها بنعناع القط أو تبلعه . ذلك انه يعتقد ان الحيوان ــ بعامة ــ تتعرف هذه الشارات وتداوى أمراضها بها .

ولقد تقرن كتب الأعشاب المليئة بمثل هذه المأثورات الغريبة ، بين النبات والخصائص المختلفة التى تزعم هذه الشعبذة أنها من صفات الكواكب .

وهذه الحقيقة وحدها ، تبين لنا ، أن الفولكلور الخالص يختلط بالآراء المثقفة ، وانهما يتداخلان معا فى هذا الميدان كله ومن العبث أن ننكر ما لكتب الأعشاب والنباتات من تأثير على المعتقدات والممارسات الشعبية .

وهكذا ، تواكب المأثورات الدارجة ، المأثورات المثقفة ، تؤثر فيها ، وتتأثر بها ، تعطيها وتأخذ منها على التوالى .

وفى ذلك العصر الذى لم يكن فيه العلم متميزا على السحر ، بل ولم يكن من المستطاع فيه أن نميز بينهما ــ ادت « القوى » المنسوبة الى الأعشاب ، الى نشوء الظن بأنها ذات فعالية كذلك ، فى اتقاء الشر بعامة ، وتأثير الجان والشياطين بخاصة .

ويتضح المعنى الكامل لهذا ، اذا تذكرنا أن المرض فى المعتقد البدائى ، لم يكن الا نتيجة لهذه التأثيرات الشيطانية الشريرة .

ومن الوسائل الشائعة ، لمواجهة التأثيرات الشيطانية ، والسحرية ، استخدام الروائح النفاذة القوية ــ وطبقا لقصة قديمة عن حياة سانت لوسى ــ يجد الحاكم الرومانى أنها ذات جذور ضاربة فى الأرض ، ويتعذر اقتلاعها ، فيأمر بصب روائح كريهة عليها .

وتعتبر النباتات ذات الروائح القوية النفاذة ، ذرائع وقائية جيدة ، الأمر الذى يفسر الدور الذى ينهض به نبات الثوم فى معارك جنوبى أوروبا ضد الساحرات ، ويفسر لنا تجنب الأقزام الجرمانية والعفاريت الكلتية لخبز الكمون . ويفسر لنا بالمثل النصيحة التى أسداها للفلاح الألمانى ــ بعض من له مصلحة فى ازجائها ــ وهى تقول :

لا تسلخ الأشجار

ولا تقص الأحلام

ولا تضع الكمون فى الخبز .

يجعل الله لك مخرجا من الضيق .

وتدور أمثلة مشابهة حــول زهـــرة البربينا والذاب ، واعشاب الاوريجانوم والدورانت فى ألمانيا .

وهناك حكاية تقال عن عشب الدورانت وكيف أن فلاحة خطفها جنى قزم ، وأثناء مرورهما فى بستانها نصحها قائلا :

« ارفعى ثوبك حتى لا تسقطى بين أشجار الدوستن والدورانت » .

ومن لغو القول ان نذكر أن المراة الذكية داست فوق هذا النبات عن عمد ، فنجت من الجنى .

وينطبق هـــذا التعليل على تفسير القوة الواقية لزهور البربينا والشمار والحشائش الملائكية البرية وغيرها من نبات الحدائق .

ولا يجوز أن نفترض أن تاريخ ظهورها فى الفولكلور الأوروبى الشمالى، يرجع الى ما قبل التاريخ ، ذلك أن الجانب الأوفى من هذه النباتات ، جلب الى بلاد شمال الألب ، فى العصر الرومانى أو العصور الوسطى ، وكان الرهبان البنديكتيون هم الذين اجتلبوه .

أما ما كان موجودا قبل ذلك ، فهو الظن بأن الروائح النفاذة جديرة بأن تطرد المردة وتفض أعمال السحر ، فمن المستطاع اذن أن يستعان بأى نبات ، له هذه الخصائص اللازمة .

ولدينا نباتات أخرى ، تعزى ميزتها الوقائية ، الى لونها الأحمر ، فمن المعروف لنا جيدا ، أن النار تطرد الأرواح ، ومن هنا ، نشأت عادة اشعال الشموع الى جوار الأم وطفلها حديث الولادة .

وصارت شجرة لسان العصافير وقاء ممتازا .

ولسنا نعرف كيف اكتسبت أشجار السنداب البحرى والقنب مثل هذه الشهرة ، ولكننا نستطيع أن نزعم أن للكتان صلة ما بالأرض التيوتونية القديمة ، على أن السنداب البحرى ــ كان نباتا مقدسا ــ فيما يبدو ــ عند السيلتيين .

وتعتبر شجر الديش (أو لسان العصفور) ـ دون الأشجار الأخرى ـ ذات قوة ناجزة ، ضد السحر ، وذلك ظن تلقاه فيما ذكره بلينى عن تجنب الثعابين لأشجار الديش .

وبعض النباتات ، نافذة التأثير ، فى رد الحسد ، ومثالها نبات الربة الايرلندى وبقلة ابوليوس .

وتوحى خواص النبات كذلك بوجود صلات مباشرة بين الأعشاب وعالم الشياطين فبعض الأشجار مشهورة بأنها مقام المردة والجنيات . ومنها شجرة التين فى البلاد الممتدة من الهند الى البلاد الأوروبية ، واشجار الجوز فى البلاد الأوروبية التى تنبتها .

وتذكر الشياطين فى قسمين من حكايات الجان المنتشرة للغاية ، ويقال انهم يجلسون تحت فروع الأشجار أو يجتمعون تحت ، الأشجار ذاتها ، وان بشرا يسمعون حديثهم من هذا الموضع .

وشجرة « البو » الشبيهة بأشجار السرو ذات قوة خارقة كذلك . وفى حكاية « سيراوربفو » الموضوعة باللغة الانجليزية الوسطى ، يخطف سلطان الجان الملكة وهى جالسة تحت شجرة « البو » .

ولبعض النباتات ، خاصة قاضيةجعلتها محرمة منذ عهد فيثاغورس وأظهر مثال عليها ، نبات اللوبيا والفاصوليا ولا نحتاج فى تفسير أمرها الى افتراض نظم طوطمية أو ما شاكلها ، فما يزال هذا البقل ، يسبب الكابوس فى الفولكلور الأوروبى ، وينذر بالشر .

وعلاج ذلك لا يقع فى ميدان الفولكلور أو تاريخ الديانات ، بل يقع فى مجال علوم الطب .

وبشىء من التوسع ، المقبول نستطيع أن ننشىء القاعدة التى تقول اذا أردت أن تدهمك الأحلام المفزعة فى نومك ، أو أردت أن تفقد عقلك ، فنم فى حقل بقل الليل بطوله . والواقع انه لا حاجة الى اتخاذ هذاالاجراء اليائس ، فأيسر من ذلك أن تتناول طبقا من طعام بوسطون أعده لك فى هذه المدينة الجميلة ، طاه لا يحسن صنعته .

وكانت زهور النرجس البيضاء ، ذات خاصية مميتة عند القدماء ،

برغم أن أريجها هادىء شيئا ، ولسنا ندرك سبب ذلك . فرائحتها الزكية، لا توحى بالموت . وأما قصة برسفون التى كانت تقطف زهرة نرجس عندما داهمها اله العالم السفلى ، فلا تعدو أن تكون حكاية شارحة ، وليس لها قيمة غير هذا .

وتتصف زهرة اكليل الجبل الشهيرة بأنها زهرة مميتة فى المانيا وانجلترا كما يبدو ذلك من الأغنية الألمانية التى تقول :

حلمت الليلة حلما ثقيلا ان شجرة أكليل الجبل قد نمت فى بستانى .

* * *

كان البستان فناء كنيسة وحوض الزهر كان هو العبير ومن الشجرة الخضراء تساقط التاج والزهرة .

* * *

الأوراق رحت اجمعها فى جرة ذهبية سقطت من يدى وتناثرت الى قطع شظايا .

* * *

واصبحت شظاياها لآلىء تنساب
وقطرات صغيرة فى حمرة الورد :
ما عسى أن يدل عليه هذا الحلم ؟
آه ! يا حبيبى هل مت ؟ (*)

(*)
Ich hab die Nacht getraumet
Wohl einen schweren Traum,
Es wuchs in menem Garten
Ein Rosmarienbaum

* * *

Ein Kirchhof war der Garten,
En Blumenbeet das Grab,
Und von dem grunen Baume
Fiel Kron und Blute ab.

* * *

Die Blatter tatich Sammeln

ودخل هذا النبات أوروبا ، قادما من الشرق ، بعد الحروب الصليبية، ولسنا نعرف كيف نال شهرته ومكانته .

واذا كان للمقدونس خواص مقبضة للنفس فى بريطانيا الحديثة ، فنحن نعلم ــ علم اليقين ــ ان هذا النبات حمل معه « سمعته » تلك حين هاجر بادىء أمره ، الى ما وراء جبال الألب .

ولا نزاع فى أنه كان نباتا مشئوما فى بلاد اليونان القديمة ، والقول السائر « هو فى حاجة الى المقدونس » يعنى انه على حافة الموت .

والشمار نبات آخر مشئوم ، وبذاره يساوى بذر الأحزان .

ويبدو أن هذا النبات كان يتصف بهذه الصفة المقبضة قبل أن يبرح شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

وبعض النباتات تلحق بقسم آخر من المردة والجان ــ ومثالها النبات القطنى (rawort) وهو حصان الجن فى ايرلندة .

غير أنه من الخطأ ، أن نستنتج حصيلة كافية من المعتقدات ، من أسماء النباتات وحدها . لقد تسمى أعشاب **Cuscuta epithymum** العادية بـ « كتاب الجن » فى المناطق السلتية كما تسمى أعشاب **Cuscuta vulgaris** بكتان العفريت فى المانيا . ويطلق اسم « كتان المرأة السوقية » على الليناريا فولجاريس **Linaria vulgaris** فى المانيا .

ولعل ما أثر فى خيال الفلاح هو هذا التشابه العارض بين هذه النباتات البرية ، والكتان المستأنس ، فكان من اليسير ان يظن أن

In einen golden Krug,
Der fiel mir aus den Händen,
Däss er in Stücke schlug.

* * *

Draus sah ich Perlen rinnen
und Tröpflein rosenrot:
was mag der Traum bedeuten?
Ach Liebster, bist du tot ?

« كائنا » ما يستخدم هذا النبات ، وان هذا الكائن هو جن البرية ـ سواء كان جانا وثنيا أو شيطانا مسيحيا .

ثم اخترع الخيال المحض أسماء غريبة مثل « كستبان الجن »
و « قفاز الثعلب » وشوكران الماء .

وكان لخواص النبات دخل فى اختراع التسميات الأخيرة .

والحق أن هذه التسميات الغريبة ، تقودنا الى مناقشة موضوع أهم من الأسماء ذاتها . فالأمر المسلم به أن سمات القالب الخارجى التى تحدد هيئة الزهرة وشكلها ـ انما توحى بايحاءات غريبة .

وكثيرا ما تطلق أسماء الحيوان على النبات فيقال لزهرة ophioglossum vulgatum« لسان الأرقم » فى الانجليزية ويقال لزهرة Toraxacum vulgare « سن الأسد » فى الألمانية والفرنسية .

وقد تتخذ بعض النباتات السامة أسماءها من أسماء الحيوانات التى تقتلها فزهرة الأكونايت تسمى « سم الذئب » فى الانجليزية و « قاتلة الذئب » فى الألمانية و « خانقة الذئب » فى الفرنسية وهى gramen pardalianchen فيما قال سولون .

وقد لا يكون الاسم شفافا موحيا ، ومثال ذلك تلك الأسماء التى درج الانجليز والألمان على اطلاقها على أنواع النبات البرى ، ـ وهى تؤخذ من أسماء الكلاب ـ تمييزا للنبات البرى على النبات المستأنس ونبات البساتين .

وينبغى ان نقول كذلك أن دراسة أسماء النبات لم تزل فى طفولتها ـ ومع ذلك ، فالتماثل الكبير فى أسماء النبات فى أوروبا جميعا ، يدل على انها كانت قد هاجرت من بلد الى بلد ، أو أنها تولدت من أسماء أصول لاتينية واغريقية ، لم تضمهاالقواميس القديمة .فالهندبة البرية dandelion الانجليزية ماخوذة من اللغة الفرنسية ، على حين أنLöwenzahn الألمانية ترجمة مستعارة وكذلك شأن كلمة Tysfiola الايسلندية ترجمة مشتقة من viola martis اللاتينية ، وفيها حل « تير » اله الحرب النوردى القديم محل مارس الرومانى .[٦]

ومشكلات صياغة الأسماء الشعبية الدائعة فى أسماء النبات تدخل

فى نطاق علم اللغة وليس فى مضمار علم الفولكلور . والأسماء اللاتينية التى اطلقت على بعض نباتات الحدائق ، والتى أدخلها فى البلاد التيوتونية، الغزاة الرومان أو الرهبان البندكتيون أثناء العصور الوسطى ، لم تكن غير ذات معنى عند المتحدثين باللغة السيلتية فحسب بل كانت عسيرة عليهم عند النطق بها . لهذا السبب نشأت التصحيفات الشعبية ومنها كلمة نبات عجمى feverfew واصلها Febrifuga وكلمة gladden واصلها Gladiolum وكمة حشيشة الدينار hop واصلها Humulus و lovage وأصلها Lubestica و mallow واصلها malva و Liebstöckl واصلها Levisticum . وكلمة Baldrian واصلها Valeriana وكلمة bibernell Pimpinella

والتسمية الانجليزية أكليل الجبل rosemary والألمانية rosmarin ليست الا تحريفا للاسم الفارسى لهذا النبات الشرقى .

غير أن أسماء بعض النباتات ، المعقدة ، استعصت على كل محاولة لتفسيرها وتعليلها ومنها الاسم الانجليزى « قبلنى خلف باب الحديقة » و « لا احد على هذا القدر من الحسن » و « البقر والعجول » و « اللوردات والسيدات » و « الدجاجة والكتاكيت » و « الديكة والدجاج » و « اللقمة المغموسة فى النبيذ » و « الكاهن فى المحراب وقيثارة داود » والأسماء الألمانية «كلما طالت العشرة زاد الحب» و «جريتيش فى الأخضر» Je länger je lieber و Gretchen im Grünen .

وقد فسر الاسم الألمانى الذى يطلق على البنفسج مثلث الألوان stiefmütterchen ــ و « الحماة الصغيرة » ، على أساس شكل الزهرة الخاص ــ وذلك على غرار التسمية الانجليزية لهذا النبات وهى «وجوه ثلاثة فى عباءة الراهب» بينما نجد أن « لا أحب أن تلمسنى » Noli me tangere اللاتينية ، اسم شفاف ، يفصح عن معناه .

وبعض هذه الأسماء ــ ومنها الاسم الألمانى je länger je lieber على سبيل المثال ــ جدير بأن يبين بوضوح المكانة التى تشغلها أسماء بعض النباتات فى لغة الرمز .

وسواء كانت هذه الرموز ذات اصيل شعبى أصيل ، أو كانت

ــ وهذا هو الأرجح ــ قد تواترت الى العامة من فئة اجتماعية أعلى مكانة ، فان أهميتها فى فولكلور عصرنا أمر مسلم به ، لا نزاع عليه ، ولا مطعن ، ولكن يجدر بنا أن نستطرد فى الحديث عن هذا الموضوع فنقول ان الوردة كرمز للحب لم تكن معروفة فى الغرب ، قبل انتقال « البساتين » من الشرق الى أوروبا .

وليس للزيتون ــ كرمز للسلام ــ كما جاء ذكره فى التوراة ــ أصل آخر غير هذا الأصل . .

وزهرة أكليل الجبل rosemary للذكرى . كما تقول اوفيليا ولكنا لا نعرف هل اكتسبت هذه الزهرة ، معناها الرمزى ، وذاك فى الغرب ، وفى حالات أخرى ، يكون الرمز المقطوع بأنه غربى ــ شفافا دالا على المقصود منه . فاذا كانت زهرة البنفسج رمزا للتواضع ، فأصل هذه الفكرة ، موجود فى اتجاه هذا النبات الى الانكماش ، واذا دلت شجرة الحور الرجراج aspen على معنى الخوف ، فتعليل ذلك نجده فى اهتزاز أوراقها .

والملاحظة ذاتها تنطبق على اللبلاب (ivy) رمز الاخلاص . واحيانا ما تكون العلاقات التاريخية معلومة لنا . فالغار Laurel المرتبط بابوللو الاغريقى ، أصبح بسبب ذلك رمزا للمجد ، فى العصور الكلاسية وما بعدها الكلاسية ، على حين لم يكن لابوللو البدائى دخل بالشعر أو الأدب .

وبالمثل ، تفسر الصلة بين الريحان (myrtle) و أفروديت المعنى الرمزى لهذا النبات . أما الصلة بين البندق والاخصاب البشرى فأقل وضوحا من ذلك . ولم يتيسر لنا الحصول على تفسير مقبول لهذا المعنى الرمزى حتى اليوم .

وبعض أغانى جمع البندق وثمار الجوز الفخارية لا تزال فى وسط أوروبا ، لا تترك مجالا للشك ، فى أن قدرا كبيرا من الاباحية كان يمارس فى مواسم جمع ثمر الجوز ، وذلك قبل أن تشتد قبضة الأخلاق المتطهرة فى هذا البلد ، أو فى قارة أوروبا .

ونستطيع أن نرى أى دور لعبته « مواسم جمع الجوز فى حياة القرية الانجليزية من الصفحات التى كتبها توماس هاردى بعنوان « تحت شجرة الغابة الخضراء » .

وأما النباتات الغنية ببذورها والتى صارت رمزا لذات الخاصية فلا تحتاج لمزيد من الشرح ، وتعتبر عادة القاء الارز على العروسين أثناء زفافهما ، بعض هذا النوع من الرموز .

وقبل أن نترك هذه المجموعة الغريبة من المعتقدات . ينبغى لنا أن نذكر أسماء نباتات ، أنواعها غير واضحة لنا ، ويحتاج كل منها الى دراسة منفصلة ، ذلك أن القليل النادر منها قد حظى بمثل هذه الدراسة حتى اليوم .

وهذه النباتات ، معروفة بقواها الخـــارقة ، مما جعلها تحتل فى الديانات البشرية ، مكانة أكبر بكثير من أهميتها الحقيقية .

وسأبدأ بايراد أسماء نباتات وأعشاب ، كان الظن أنها تجعل حاملها خفيا . فبذور السرخس فى أوروبا الشمالية والوسطى وعباد الشمس فى أوروبا الجنوبية ، تحظى بهذه الشهرة . ولا يقتصر الأمر عليها وحدها . ففى حالة بذور السرخس ، قد نواجه منطقا بدائيا ذلك أن بذور السرخس (والأسم غير صحيح من زاوية علم النبـــات) تدق على العين أو تكاد ، وتستطيع ــ اذا ــ أن تجعل غيرها خفيا .

وأما عباد الشمس فمن نبات الشرق ، والمعتقد الخرافى المشار اليه ، هاجر ــ بلا ريب ــ من الشرق الى أوروبا .

واهمية « يعسوب الضباب » الفولكلورية ــ وهذا النبات لقى اهتماما كثيرا فى السنوات الأخيرة ــ انه من نباتات غرب أوروبا ووسطها وبلاد البحر الأبيض المتوسط على السواء .

ونحن نعرف مكانته من ديانات قدماء الجـرمان والسـيلتين ، من الفقرات التى ، أوردها بلينى ، وأسطورة بولدر النوردية القديمة .

غير أن دراسات سير جيمس فريزر ، رجحت الظن بأن يكون « الغصن الذهبى » لاينياس ، هو من هذا النبات ، وقد يكون من نوع مختلف منه .

وأما الصولجان المقدس ، بخواصه السحرية ، المبنية ــ لا نزاع ــ على أسس نفسية خالصة فكان يؤخذ من عدد قليل من الأشجار ، أكثرها ذيوعا شجر البندق العادى .

وسبق لنا أن أشرنا الى اللفاح ، وهو نبات أضيفت الى صفاته خواص

جد مختلفة ، وكلها ذات طبيعة فائقة . وفى مقدمة هذه الصفات ، الظن بأنه ينفع المراة العاقر ، كما جاء ذكر ذلك فى سفر التكوين .

وفضلا عن هـذا ، فقد ينسب الى نبات القولبح أنه قادر على أن يفتح المداخل الى الكنوز المطمورة ، او قد ينسب اليه احيانا القدرة على رد البصر .

ولا جدال فى قدم المعتقدات المتعلقة به ، فقد ذكره بلينى الأكبر . بيد أنه يجوز لنا أن نشك فى أن أصله غربى ، ويزيد من شكنا أن للقصة التى تروى كيفية الحصول عليه ، أول أمره لها ، قصة نظيرة فيما يروى عن سليمان ، حيث حل حجز معجز محل الجذر النباتى المعجز .

وقد لا نشك فى أن شجرة التفاح وثمارها ، قد احتلت مكانة بارزة ، حتى قبل زراعة تفاح البساتين . فتفاحات اندون ، والعلاقة العجيبة بين الشجرة وابوللو الهيللينى وبولدر النوردى ، تؤكد ما ذهبنا اليـه ، والافالون السـيلتية ، كانت — فيما نرجح — هى الانسـولا بوماردم Insula Pomarum التى تحدث عنها مؤلفو أواخر العصور القديمة ، ومؤلفو العصور الوسطى ، بأسلوب استخدم من قبل فى الحـديث عن الاليزيوم فيما سبق العصر الهللينى .

ولا حاجة بنا أن نسرف على أنفسنا فى البحث عن تعليل لمكانة بعض النباتات فى الديانات السابقة . فأغلب الظن أن الانسان استخدم أبدا أقرب الوسائل اليه ، واكثرها سذاجة وسخفا ، ولا ريب فى أن النبات والزهور لم تغب عن ملاحظته .

وهكذا نجد عددا وافرا من استنباءات الحب — تتدرج من الأقحوان الى زهر الربيع الأصفر وزهر المستنقعات وأوراق الأكاسيا (الطلح) .

ثم ان الممارسات المقدسة المرتبطة بما يسمى ببساتين أدونيس ، تقتضى فحسب وجود نبات تكون بذوره سريعة التلقيح .

ولا نستطيع ان نفصل بين الخصائص الطبية المنسوبة خطأ أو صوابا الى بعض النباتات ، وبين استعمالها ، أو استعمال ثمارها وزهورها ، فى صنع بلسم الحب وعقاقيره .

والموضوع كله ، فى حاجة الى دراسة مستقلة ، يكتبها عالم نبات ، يكون عالم فولكلور فى ذات الوقت .



مأثورات الحيوان

• ماثورات الحيوان :

الظن بقدرة الحيوان على التنبؤ بالاخطار قبل وقوعها ـ الحيوانات المنذرة والحيوانات المرشدة ـ قدرتها على رؤية الجان ـ عراقة هذا الظن ـ الطوطمية ـ قصـــة رمولوس ورموس ـ جزئية رضاع الطفل من ثدى الحيوان ـ الحيوان الأب ـ حكايات الحيوان واشتقاقها من الخرافات المهاجرة ـ القديسون والحيوانات ـ محاولة تفسير طبائع الحيوان •

الخرافات المتعلقة بوحيد القرن ـ العنقاء ـ ملك الثعابين دودة القز العنكبوت ـ البومة ـ الطاووس ـ الديك ـ القط ـ الثعلب ـ ابن عرس ـ الأسد ـ الخفاش •

عادة الكناية عن الحيوان الخطر أو السام •

القصص وفولكلور الحيوان ـ القردة ـ الخفافيش فى اغانى الأطفال ـ القط والأرنب السنجاب ـ الفار حيوان روح ـ الخيل ـ الفيل ـ عجل البحر ـ الدرفين •

ماثورات الطير والكهانة ـ النسر ـ البازى ـ الصقر ـ الغراب ـ الحمام ـ الروقوق ـ الرن ـ طائر « ابو الحسن » ـ ناقر الخشب ـ ديك البحر ـ طائر اللقلق ـ البجع والأوز ـ

فولكلور الزواحف ـ الثعابين ـ التنين ـ معرفة الانسان للغة الحيوان ـ الضفادع ـ السمك ـ العنز •

• ماثورات الحيــوان

يقال ـ فى غالب الأحيان ـ أن الحيوان والجمادات تبدو للعقل البدائى كما بدت للقديس فرانسز ، وكأنها تتصف بملكات ، اذا لم تكن مماثلة لملكات الانسان ، فلا تقل عنها كثيرا .

وفيما يتصل بالحيوانات العليا ، لا نستطيع أن نقول أن هــذه النظرية باطلة ، فمن المعروف أن هذه الحيوانات قد تظهر من البصيرة فى حل المشكلات التى تتصل بسلامتها ، ورفاهيتها ، أكثر مما يظهــر الانسان .

غير انه لا جدوى فى ان نرجع كل معتقد فولكلورى عن الحيوان ، او ان نرد كل ماثور حيوان ، الى الحقيقة السابقة ، ذلك أن هذه الحقيقة تشمل فحسب ، قسما صغيرا من جماع المعتقدات التى نناقشها .

اما القسم الآخر ، فينبغى ان نفسره ، كالعادة ، بأن نغامر فنبسط رقعة الحقائق المعترف بها الى ميدان ليس بينه وبينها صلة ، وبمعنى آخر ، ينبغى أن نستخدم قياسا مغلوطا أو منطقا مغلوطا فى تفسيرها .

ومن اشد المزاعم ذيوعا ، الظن أن الحيوانات قادرة على أن تتنبأ بالأخطار التى توشك ان تقع . والمثال المالوف لهذا الظن أن الجــرذان تترك السفينة اذا أشرفت على الغرق .

والمثل الثـانى أن طيور اللقلق فى أكويليـا تركت اعشاشها قبل أن تستولى قبائل الهون على المدينة وتحرقها وأن طيور اللقلق والستونو حين تهجر أعشاشها القائمة فوق بيت من البيوت يكون ذلك ايذانا بأن يحترق هذا البيت .

والغراب الذى يحذر فتاة صغيرة فى حكاية ايسلندية من كارثة موشكة الحدوث ، انما ينتمى الى هذه الفصيلة . والحق أن عــدد الحيوانات المنذرة فى الفولكلور العالمى ، كبير للغاية ، كما أن صــفات التنبؤ التى تنسب الى الحيوان ، تؤلف أساس هذه الحكايات .

ولا يقل عن ذلك ، تلك الحكايات العديدة ، التى تقص علينا كيف أن حيوانا أرشد كائنا بشريا ، ومثال ذلك ثعلب أريسطومينيس وحيـــوان رحلة السندباد أو كيف انه أرشد جيشا بكامله ، ومثاله مختلف القصص الخرافى الايطالى القديم ، وقصة الطائر الذى أرشد شارلمان الى الطريق الصحيح ، حين أخذ على عاتقه القيام بالحملة الخرافية الى الأراضى المقـــدسة .

وأيا ما كان الأمر ، فليس مما يؤمن جانبـــه أن نبنى نظرية عن الطوطمية البدائية ، ونفسر بها هذهالحكايات ، دون أنيتوفر لدينا مزيد من التفصيلات . فالحيوان فى هذا القسم من الحكايات ليس الا مرشدا موثوقا به ، ولقد يتعذر علينا أن ننكر على الحيوان ، أن يكون هـــذا المرشد الأمين ، فى ظروف خاصة وبذاتها .

ويتضح هذا ، أكثر ما يتضح ، فى جملة الحكايات التى تروى لنا ان حيوانا أرشد جيشا مهـــزوما مطاردا الى مخاضة ماء ، يستطيع أن يعبرها . وان هذه القصص الخرافية ، كانت جزءا من قصة تأسيس مدينة فرانكفورت .

ونستطيع أن نرى امتداد هذه المجموعة من المعتقدات التى لم تبتعد كثيرا بعد عن الملاحظة الدقيقة ــ وذلك فى الظن بأن الحيوانات تستطيع أن ترى الأشباح والعفاريت التى تكون خافية على الانسان .

والحيـــوانات التى تتردد الاشارة اليها كثيرا فى هـــذه الحكايات هى الكلاب والخيل ــ وأما الكلاب فتعوى عندما ترى شبحا يمر أمامها . على حين أن الخيل ترفض أن تسير قدما اذا رأت شبحا . وهكذا ترى الكلاب أثينا فى الاوديسة ، ويتبين حمار بلعام ، يهوه ، قبل أن يراه سيده بالرغم من أن يهوه متنبىء وساحر ورجل علم ومعرفة .

والفكرة الذائعة التى تقول ان نباح الكلب نذير بموت قريب الوقوع نتاج طبيعى لهذا المعتقد ذلك أن « النباح » يحدث عند ظهور ملك الموت، الذى لا يراه الانسان ، ويراه الحيوان . ولقد استعين بالمعتقـــدات الطوطمية لتفسير ما يقوله هذا الجانب الكبير من الحكايات عن بطل أو بطلة أرضعه حيوان أو حيوانات .

ولا نزاع فى أن هذا الجانب من الحكايات يضرب بجذوره الى الماضى البعيد بل الى عصر ما قبل التاريخ .

وبالرغم من هذا ، ينبغى ان نعيد القول انه ما لم تتوفر لدينا معلومات اخرى ، فلا نستطيع ان نقبل هذا الافتراض أو نطمئن اليه .

نحن نعرف أن الطوطمية تعنى الاعتقاد فى انحدار مجموعة بشرية ما من حيوان جد . وينبنى على هذا ، أن يلعب البطل دوره فى اضطراد النسب وتسلسله فيكون له احفاد حقيقيون وغير حقيقيين والا كان تسلسله من أسلافه من « الحيوان » بدون مغزى أو اهمية .

وينبغى أن يكون الحيوان والد البطل ، وليس ربيبه أو حاضنته لاغير .

واذا سلمنا بهاتين القضيتين ، وضح لنا ، أن الجانب الأوفى من هذه الحكايات ، تسلسلات انساب لا أكثر .

ويبدو أن أساس قصة رومولوس ورموس ، انما هو فكرة طوطمية فمع أن أحدا من التوءمين لم ينجب ذرية ، الا أنه يجوز ان نعتبرهما ـ وقد كانا يعتبران كذلك بالفعل ـ الأب الأول للأمة الرومانية ، وقيل أنهما ينحدران من ذئب . وثابت ان أمهما كانت ذئبة (*) قبل أن تصبح الهة العذرية والطهر (**) .

غير أن مثل هذه النماذج نادر قليل ، كما أن الحقائق التى تشير الى الطموطمية ، غير قائمة . أما الذى ينبغى أن نتذكره ـ بادىء الأمر ـ فهو فعالية تسلسل الأنساب ، فاذا ما وضعت قصة ناجحة عنه ، نسجت على منوالها قصص كثيرة ، كأنها نبات الفطر ، وأصبحت الحكايات التى تنطوى تحت هذا القسم ، مشتقات ثانوية . ومع ذلك ، فلا حاجة الى الطوطمية ، لتفسير الحكاية « الجذر » ذاتها . فلدينا أسباب مختلفة ، تفسر لنا سبب رضاع البطل بلبن ذئبة أو دبة او لبوة .

واهم هذه الأسباب الظن بأن هذا اللبن جدير بأن يكون ذا تأثير على ملكاته العسكرية أو البدنية .

ونفس الملاحظة تنطبق ـ فيما اظن ـ على جزئية « الحيوان الأب » التى ترد فى حكاية الجان الدائرة حول « ابن الدب » التى أشرنا اليها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

(*) Lupa

(**) Silvia

ولا يندر ان نجد حكايات عن حيوانات سارقة ، تنكشف جريرتها بعد أن تكون عقوبه الموت قد نفذت فى شخص برىء .

ولما كان الحيوان المذنب فى سائر هذه الحكايات ، طائرا ـ أو كان طائر الزاغ الصغير فى الغالب الأعم ـ فالأمر الواضح ان ادراك طبائع الحيوان - هو الاصل فى انشاء هذه الحكايات .

ولعلنا نظن ان العديد من هذه الحكايات ، عبارة عن صور مشتقة من الخرافات المهاجرة ، وانها تستحق أن تفرد لها دراسة مستقلة . والقصة التى أذاعت شهرتها قصيدة شيلر عن كراكى ابيكوس ، خرافة مهاجرة بالمثــل

ومن المألوف أن نجد فى بعض النصوص ان جريمة القاتل ، لا يكشفها الحيوان ، بل تفضحها الشمس .

غير أن الحيوانات ، تصلح لاظهار بأس القديسين والأطهار البررة . فهى لا تطيعهم احيانا حين تصدع لهم بالأمر ، بل لقد يطردها قديس من مكان معين لأن سكانه طلبوا اليه هذا أو لأن الحيوانات المذكورة ضايقته وهو يؤدى واجباته الروحية. ومثال ذلك ثعابين القديس باتريك وضفادع قرية شفانت فى مقاطعة برندنبرج التى حكم عليها بأن تصبح خرساء .

وليست هذه القصة مسيحية أو يهودية فديدور الصقلى ، والمصنف اللاتينى سولينوس ، يقصان علينا فى نبرة جادة ، ان صراصير رجيوم خرست (ولعلها لا تزال كذلك) لأنها ضايقت هرقل وهو نائم فزجرها وامرها بأن تصمت الى الأبد .

بل لقد يأمر الولى فى غير ذلك من قصص يحاكى قصة اروديوس ، الحيوان ، ويخضعه لارادته ، فاذا الذئب أو الدب الذى تجرأ فقتل حصان القديس أو حماره . قد أجبر على ان يجر مركبة القديس . وواضح فى هذا ، طابع الترجمة لحياة القديسين غير انه من الخطأ منهجيا ، ان نستبعد هذه الحكايات من ميدان الفولكلور ، على زعم انها تدخل فى ترجمة حياة القديسين .

ثم أن وجود المأثورات المثقفة والمأثورات الفولكلورية ، جنبا الى جنب، واضح كذلك فى ميدان مأثورات الحيوان كله . ذلك أن دراسة طبائع الحيوان ليست حديثة ـ بما لكلمة الحداثة من معنى محدد ـ فارسطو

وبليني والمصنف اليان ـ أو كتاباته الضائعة بالأحرى ـ انما هى مقدمات وارهاصات ، سبقت علم الحيوان ، ولو أن الكثير ممـا قالوا ، ينطوى الآن ، تحت الخرافات وعندما توقفت الدراسات العلمية فى العصور الوسطى . اكتفى الجامعون والمصنفون المختلفون ، بالنقل عن الحقائق التى تم جمعها فى العصور الكلاسية وأواخر الحضارات القديمة فنشأت من ذلك مختلف معارف الحيوان والفسيولوجيا ، التى جرت فى اللهجات الدارجة فى اوروبا .

ولم تكن هذه التصانيف بغير ذات أثر ، على المعتقد الشعبى خاصة وان رجال الدين فى العصـور الوسطى ، استخـدموا طرائق التورية والتشبيه ، تحدوهم فى ذلك ، رغبتهم الشديد ، فى أن يستنبطوا المواعظ، مما كان يتاح لهم من مواد تخدم اغراضهم .

وهكذا نجد أن حيوانات خرافية كوحيد القرن والعنقاء ، مألوفة فيما يتواتر من مأثورات العامة ، ومألوفة كذلك فيما كتب المثقفون عن الحيوان .

وأما وحيد القرن ، فقد دخلفىحكاية الجان الموسومة باسم «الخياط الشجاع » كما يظن أن حكاية « الطائر الذهبى » لا تعدو أن تكون من ذواكر العنقاء الخرافية القديمة التى كانت صورة حيوانية ، للشمس .

ثم ان الكتابات السابقة عن الحيوانات العـادية ، قد روت غرائب الحكايات التى لم تظل فى حوزة رجال الدين ، بل تغلغلت بين العامة ، ولم تزل تبدو حتى يومنا هذا ، فى كثرة كثيرة من الأقوال السائرة ، والأمثال الدائرة ، والتشبيهات .

ولعلنا نضرب مثالا بالدبة التى سوت أجسام صغارها بلسانها والنعامة التى أخفت رأسها فى الرمال ، وأغنية البجعة ، وبكاء التمساح ، وعين الثعبان الخرافى (*) . أو عين ملك الثعابين القتالة .

ويدل على قدم هذا النوع من الحكايات ورود عدد منها فى كتابات هيرودوت وقد كانت معروفة كذلك فى الهند القديمة حيث نسمع عن مصرع

(*) Basilik ـ ثعبان الثعابين أو ملك الثعابين الخرافى ـ وكان الظن أنه ثعبان هائل له رأسان فى طرفيه ، اذا فح فحيحا ، ذعرت منه الثعابين وولت هاربة ، واذا نظر بعينيه الى انسان قتله على الفور ـ المترجم .

السرطان على يد ابنه ، ونهاية دودة القز فى شرانقها ، وانبعاث العنكبوت من بيته المتهدم الى بيت جديد (الحياة) الخ .

وبالاضافة الى هذا الميراث المثقف الذى تلقاه العالم الوسيط والحديث عن الحضارات الكلاسية القديمة ، نجد أن مأثورات شعبية كثيرة ، تجمعت حول أشكال الحيوان ، ومن العسير علينا ، أن نقطع دائما ، بأن معتقدا ما، يعود بأصوله الى أوروبا الغربيـة أو الوسـطى ، اى أن يدين بوجوده للمأثورات الكلاسية .

وتلك هى حالنا ، عندما نجد معتقدا خرافيا حديثا ، واردا فى الصفحات التى كتبتها ارسطو اوبلينى . فهل تقول ــ على سبيل المثال ــ ان السمعة السيئة التى لحقت بالبومة ، نشأت فى أوروبا التيوتونية والسيلتية ، نشأة مستقلة ؟ ام نقول أن التيوتون والكلتيين أخذوها فى العصور الوسطى عن كتب الأقدمين ، الذين كان لهذا الطائر عندهم نفس « السـمعة » و « الشهرة » ؟

هذا السؤال لا نستطيع ان نرد عليه ردا سريعا حاسما ، اذ ينبغى أن نضع فى تقديرنا ، اعتبارات اخرى . وخذ مثلا ، المعتقد الخرافى الخـاص بما يصنعه ريش الطاووس من شؤم وسوء طالع ــ وهو معتقد كان معروفا منذ الحضارات القديمة .

نحن نعرف ان الطاووس جاء الى أوروبا من الهند ، فى مرحلة ما بعد الهومرية ، وواضح أن الاعتقاد فى أن لريش الطاووس خواص غريبة ، كان قد نشأ فى الهند ــ أو قل انه نشأ فى الشرق ، لا نزاع .

ولنا أن نقول القول ذاته ، عن صفات الديك المشئومة .

فالديك ، النذير ، موقظ الصباح يوقظ اله النهار ، بصوته الرنان الصـداح .

واذا ارسل نذيره ، فى البحر او النار أو الأرض او الهواء ، آوت الروح المذنبة المتكبرة ، الى مستقرها الأخير .

هذا الطائر ، وافد حديث نسبيا ، على أوروبا ، ومأثوراته ــ رافقته بلا ريب ــ وهو يهاجر من الشرق الى الغرب وهكذا يقال :

« خلق الديك عدوا للمردة والساحرات وحليفا للكلب » .

واغلب الفولكلور المنسوب الى القط المستأنس ، ليس اقدم من القط

نفسه ، الذى لم يكن معروفا فى أوروبا القديمة ، أو بلاد البحر الأبيض المتوسط القديمة ، باستثناء مصر الفرعونية .

وجدير بنا ، أن نضع فى حسابنا ، امكانية حدوث هجرة أو انتقال . فقد سبق لنا أن لاحظنا المرة بعد المرة أن العديد من الحكايات الدائرة حول الثعلب ، تنسب كذلك الى ثعالب الهند ، وهو دليل كاف ، على أن طرفا قد أخذ عن الآخر ولا اهمية لما قد نقوله من أن أوروبا كانت السابقة الى الأخذ عن الهند أو أن الهند كانت الآخذة عن أوروبا .

ونحن نلاحظ تقارضا مماثلا فى الحكايات التى تروى لنا كيف أن ساحر ثعابين أصيب بكارثة حين كان يلقى « التعازيم » على الثعابين لتقتحم نارا ، وتحترق ، فينجو سكان المنطقة المجاورة من شرها ، لكن ثعبانا أبيض ، يظهر فى النهاية ، ويقتل الساحر ملقى « التعازيم » .

لكنا نجد فى حكايات قليلة أخرى ، أن « الحيوان » ليس ثعبانا ، بل ابن عرس .

ولعل الثعابين أن تكون أقدم تاريخا ، لأن الحكايات الدائرة حولها اكثر عددا ، ولأن توزيعها الجغرافى أوسع مدارا ، ولأن الحكاية جميعا ، ذات أصل هندى ثابت ، مأخوذ من حكاية قرابين أندرا من ثعابين قبيلة ناشا الهندية .

وثمة عنصر هام آخر ، ذلك هو التوزيع الجغـرافى لحيـــوان من الحيوانات ، فجماع الفولكلور الدائر حول شخصية الأسد ، يعود الى أصل غريب على أوروبا لأن هذا الحيوان اختفى من قارة أوروبا ، منـــذ عصر اليونان القديمة البطولى .

أما المكانة المرموقة التى يشغلها الأسد فى القصص الخرافى ، أو فى شارة النبالة على الدروع ، فترجع الى اصول مثقفة ـ بلا نزاع ـ ولعلها انتشرت بين العامة فى العصور الوسطى ، بحيث صارت سماحة الأسد وذكاؤه وشجاعته حقائق يألفها أولئك الذين لم يروا أسدا واحـــدا فى حياتهم .

ويذكر بعض الفولكلوريين الألزاسيين عادة تعليق الخفافيش على أغصان الشجر لطرد الجراد .

وقد يعجب الانسان ، ويتساءل كيف صار الجراد خطرا داهما يهدد هذه المقاطعة الفرنسية ، ويقتضى اتخاذ هذه الاجراءات العنيفة . لكن

يتضح لنا الأمر حين نقرأ ما كتبه المصنف العربي القزويني من أنه « اذا علق خفاش على شجرة قرية مر الجراد فوق القرية ولم يتوقف » . وما دام بليني أو غيره من مصنفي العصور الوسطى لم يذكروا هذه الواقعة الغريبة من مأثور الحيوان ، فقد نجد أنفسنا بازاء أثر قادم من الشرق ففيه وفي شمال افريقيا يغدو الجراد مصدر فزع ورعب للفلاحين ويصبح الخفاش ألد أعداء الجراد .

وجانب من مأثور الحيوان ، هو في حقيقته قسم من جماع المعتقدات والأوهام الخرافية — وذلك هو الخوف المعروف من أن القاء أسماء الحيوانات الخطيرة أو السامة ، جدير بأن يجذبها ، مما يؤدي الى اجتناب هذه الأسماء قدر المستطاع ، واستبدالها بأسماء مترادفة أو كنايات . ولهذا نجد أن الذئب لا يسمى باسمه في قسم واسع من أوروبا الوسطى واسكنديناوة ، بل يشار اليه باسم « الصامت » أو « سباق الغابة » كما أن سيليفيا — امرأة الغابة — كانت كناية لاتينية قديمة عن الذئبة ، التي اشتق منها اسم أم التوائم الرومانية .

واذا كانت الكلمة التيوتونية التي تطلق على الدب تختلف عن الكلمة اللاتينية ، على حين تعني الكلمة الروسية حرفيا « آكل العسل » واذا لم تكن اللغة الايرلندية القديمة تشتمل على كلمة مقابلة لكلمة Lupus اللاتينية بل كانت تستخدم تعبير « الكلب الوحشي » فمن الواضح أن سبب هذه الاختلافات يرجع الى ذلك المعتقد الخرافي ، ثم أن الكنايات ، حلت محل الكلمة الأصلية على مر الزمن .

وينطبق نفس الكلام على ابن عرس الذي أطلقت عليه مختلف الكنايات في أغلب اللغات الأوروبية ، ولعل التسميات التي نجدها في قصة الثعلب ، مثل Reginhard للثعلب ، و Bruin للدب ، و Isengrin للذئب — تستند الى هذا الأصل ، وان كنا نسلم بأننا نستطيع ان نطبق هذه النظرية فحسب على اقدم نصوص هذه القصة ، على حين تفسر المقارنات بقية الأسماء التي ترد في حلقات الشعر الدارج الواسعة .

ولنمر الآن مرا سريعا بأهم الحيوانات التي تعلقت بها معتقدات فولكلورية مختلفة ، دون أن نقرر ما اذا كنا نجد تفسيرها فيما توهمته العامة أو نجده فيما تركته المأثورات المثقفة من أثر .

وطبيعي أن يكون عدد القصص الموضوع حول القردة في أوروبا عددا

محدودا وان يكون اغلب هذا القصص مثقفا . لكن الوضع يختلف عن ذلك في أفريقيا واندونيسيا ويعتبر الظن بأن القردة اناس يرفضون أن يتكلموا حتى لا يضطروا الى أن يعملوا — هذا الظن جزء أصيل من الفولكلور الزنجى . وأما ما يروى فى أوروبا عن مختلف طبائع القردة وصفاتها ، فيرجع بجذوره الى ادب الخرافات للعصور الوسطى وقد تكون قصص أخرى ، قد نشأت — على نحو من الأنحاء — مما كان الصيادون الافريقيون يذيعونه من روايات — وقد كان بعض هذه الروايات موجودا فى أيام نيرون . بل لعله كان ذائعا كذلك منذ عصر امبراطورية الفراعنة المصرية .

اما فولكلور الخفاش والأوروبى . فليس غزير المادة وحسب ، بل هو فولكلور اوروبى اصيل . ومنه الاعتقاد بأن الخفافيش تأكل لحم الخنزير المقدد المعلق فى المداخن ، أو الاعتقاد بأنها تشتبك بشعر المراة ، وهو ظن لا يمكن أن يكون قد نشأ — لأسباب ظاهرة — وقت كتابة هذا الكتاب ثم اننا لا نفتقد هذا الحيوان فى منظومات الأطفال ، واليك الانموذج التالى ؛ المجموع من منطقة كورنول .

يا فأرة الهواء ! يا فأرة الهواء طيرى فوق راسى
وخذى كسرة من خبزى
وعندما اصنع البيرة وأخبز .
ستأخذين قطعة من كعكة زفافى

وتعتبر ذات أصل مثقف تلك الخرافة المعروفة الدائرة حول خفاش اختار ان يتخذ الموقف الذى ينبغى لأن رجل عاقل أن يتخذه ، وكان ذلك فى حرب دارت بين الحيوانات الثدبية والطير .

اما الظن بأن القنافذ انما تثبت التفاح فى مكانه ، حين تتمرغ على الأرض ، ثم تحملها الى جحرها ، فبعض من الفولكلور البحت ، بغير اساس علمى .

وكذلك فالظن بأن الخلد الأوروبى (ذا الفراء المخملى) أعمى ، يقوم على ملاحظة باطلة أو سطحية ، وقد أثبت بطلانها العلم الحديث . وأما مكانة الكلب المستانس من المعتقد الفولكلورى ، فضئيلة نسبيا ، وسبب ذلك ، بلا ريب هو أن هذا الحيوان لبث صديق الانسان الأليف والدائم ، لآلاف من السنين .

وعكس هذا صحيح ، فيما يتصل بالذئب أينما كان . فقد يرتبط باله الموت أو الموت ذاته أوثق ارتباط ، ومنظره يبعث على الصمت كمنظر شبح الميت . واسمه ينبغي ألا يقال ، حتى لا يحضر عند سماعه . كما أننا لا نستطيع أن نسقط من حسابنا ، كثرة الأفكار الخرافية عن الانسيات اللاتى تحولن الى ذئبات .

واذا لاحظنا أن الثعلب ذائع فى الفولكلور الأوروبى ، فسبب ذلك ، راجع الى المؤثرات الثقافية ، فى أوروبا بخاصة . بل لعلنا نقول ـ بغير خطأ ـ انه لولا قصة « رنار » ولولا الخرافات الدائرة حول الثعالب ، لما أتيح لنا عشر حكايات الثعالب المألوفة لنا اليوم . ويتضح مغزى هذه الحقيقة . أكثر ما يتضح ، اذا قارنا بين هذه المكانة ، والمكانة التى يشغلها الثعلب فى فولكلور الشرق الأقصى والصين واليابان ، والتى لا ترجع فى أصلها الى تأثيرات مثقفة . ذلك أن هذه المكانة هناك تشبه مكانة ثعابين قبيلة الناغا فى الهند . فالرجال يتزوجون من عذارى الثعالب المتخذات هيئة البشر ، وهم لا يعرفون حقيقتها أو هم يدخلون مدن الثعالب ، حيث تجرى الحياة كما تجرى بين البشر .

وبكلمة أخرى ، يختلف ثعلب آسيا الشرقية تمام الاختلاف ، عن الثعلب الأوروبى ، وذلك على أساس النظر الفولكلورى . وتتضح طبائع القط باعتباره آخر ما استأنسه الانسان من حيوان ـ من مكانته المرموقة البارزة فى المعتقد والخرافات الشعبية . فالقط حيوان فائق القوى ، يرتبط بالساحرات والشياطين ويقدم قرابين لها ، فى بعض الأحيان . والساحرات بخاصة يستطعن أن يغيرن أشكالهن ، ويصبحن قططا . ولعلهن يركبن القطط ، الى اجتماعاتهن الشيطانية . ولقد تستبدل الساحرات أو القوى غير المنظورة أماكنها مع القطط فى حكايات أخرى . ومثال ذلك ما جاء فى الحكايات الأوروبية المختلفة لقصة موت بان التى يعرفها القارىء الانجليزى خير معرفة مما رواه بلوتارك . وكثير من صيغ هذه الحكاية تتواتر من مناطق تسكنها السيلتيون او تسكنها أقوام ذات ثقافة سيتلية فى جوهرها ، ثم اننا نجد فى أوروبا السيلتية بخاصة القط الوحشى الذى ينبغى ان يقاتله البطل ، قتال البطل للتنين ، وقضائه عليه ، فى غير ذلك من أنحاء العالم . ومما يروى عن الملك آرثر انه صارع قطا وحشيا . وكل فولكلور يدور حول الأسد ـ فى أوروبا على الأقل ـ هو نتاج المؤثرات الثقافية ، وكثير منها قديم وليس غريبا أن يلعب

النمر فى الهند الدور الذى يلعبه الذئب الشمالى أو يكاد ، بل أن انثى النمر الخرافية (التى كانت امرأة ثم سخطت فصارت نمرة) معروفة فى الهند ايضا .

ومن الحيوانات الثدييه آكلة اللحم نجد أن ابن عرس بخاصة موضوع مخاوف خرافية ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك ، الأمر الذى ادى الى استعمال الكنايات فى الدلالة عليه بدلا من استعمال اسمه الحقيقى .

ولا نعرف معرفة واضحة لماذا احيط الأرنب بسمعة « خاصة » ولماذا يبعث هذا الحيوان خوفا خرافيا ــ وهو اشد الحيوانات فرقا ــ ذلك أن الأرنب يرتبط بالساحرات وأعمال السحر ، ويعتبر من نذر الشؤم . ولسنا على يقين مما اذا كان الدور الذى يلعبه الأرنب فى الفولكلور الأوروبى المعاصر ، يرتبط بما يقوله قيصر عن « التابو » الذى يضمه وأسلاف البريطانيين القدماء . وسبب شكنا ، أن المنطقة التى تنتشر فيها هذه الخرافات ، تزيد كثيرا على المنطقة التى كان قدماء السيلتيين يسكنونها وأما السنجاب فحيوان نار أساسا ، اى انه يرتبط بحكايات تشرح لنا كيف أن النار اجتلبها حيوان الى الأرض لخدمة الانسان ومنفعته . وسبب ذلك بلا شك ، نجده فى لون الحيوان الغريب .

وأما القط المستأنس فيضاف الى الهوام بعامة ، ويعتبر « آلة » فى يد الروح الشريرة .

ونجد فى بوميرانيا ــ وهى بلد ذو ثقافة سلافية ثابتة ولو أنه يستخدم اللغة اليونانية ــ ملك الجرذان ــ او قل هو تجسيد الروح الشريرة ــ يتسيد على القطط كما يتسيد على الهوام الأخرى التى تقلق حياة الانسان .

وأما الفأر « فحيوان روح » فى غالب الأمر ــ أى أن روح الانسان تتخذ هذا الشكل حين تفارق الجسم أثناء حياته أو حين تتركه نهائيا عند موته .

ولا شك فى أن جرذان الأسقف هاتو ، كانت فى أصلها أرواح الضحايا الأبرياء . ومع أن الحيوانات المستأنسة كالماشية والغنم ، والخنازير ،

والخيل . قد ارتبطت بعادات خرافية مختلفة الا انها جمعت القليل من هذا الفولكلور الذى تستطيع أن تضعه فى قسم « مأثورات الحيوان » والسبب فى ذلك ، هو ذاته هذا السبب الذى يفسر لنا قلة مادة المأثورات الدائرة حول الكلاب . غير أن الخيل كالكلاب ، تملك القدرة على أن ترى اشباح الموتى الخافية على عين الانسان .

ويستطيع الكائن الذى يصنعه السحر ان يتخذ هيئة بعض الحيوانات المستأنسة ويظهر فى القرية بالليل ويعلن - فى الغالب - عن وباء يوشك أن يقع . كما تستطيع عفاريت الماء ان تتخذ هيئة الخيل - ومثالها جنى الماء الاسكتلندى . أو تتخذ هيئة الثيران كما جاء فى القصة الخرافية المعروفة عن أصل المرونجيين وهذا المعتقد قديم لا نزاع ، يدل عليه شكل « الثور » و « الحصان » الذى تبدى فيه بوازيدون .

وتنبنى شهرة الفيل الهندى بالحكمة - وهو الأمر الذى نجده فى حكايات هندية كثيرة - على حقيقة علمية ثابتة وعلى قدر من الخيال الشعرى ، والمبالغات .

وشىء كثير من هذا ينطبق على الصفات الموسيقية المنسوبة الى عجل البحر فى أوروبا الشمالية الغربية ، وعلى الصفات المنسوبة الى الدرفين فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ومثالها الخرافة المعروفة باريون المرتبط بعبادة ابوللو فى هذه المنطقة .

ويتصل مأثور الطير أوثق الصلة ، بممارسات الكهانة المختلفة التى اشرنا اليها آنفا .

وأغلب الظن أن سبب نشوء هذه المنتقدات هو هذه الملاحظة الساذجة وهى ان الطير اقرب من غيرها ، من عنان السماء .

والأمر المؤكد أن هذه المعتقدات فى شكلها الخرافى غير المنظم اقدم بكثير من الشعبذة التى نشأت منها ، وتمثلها فى شكلها منتظم ، على اننا لا نستطيع أن نتصور حدوث تفريعات وتوليدات منها ، الا اذا افترضنا حدوث قدر كبير من الكهانة .

وطبيعى أن تحتل بعض الطيور فى الكهانة ، مكانة أكبر من مكانة غيرها . ولقد ينبغى للطيور الوحشية ان تلفت اليها نظر الانسان ، بسبب بطشها،

واحجامها ، ومن ثم نلاحظ ، مكانة النسر والبازى ، والصقر فى العبادات العالمية . ولو أن النسر لم يكن طائر جوبيتر . للسبب الذى ذكرناه . بل لعله ارتبط بأكبر الهة العبادات القديمة فى مناطق البحر الأبيض المتوسط، لأنه « طائر رعد » بل لعل زيوس نفسه كان هو النسر فى مرحلة الديانة التى كانت تؤمن باتخاذ الالهة هيئة الحيوان .

وينبغى لنا أن نذكر أن النسر ـ كشارة للجيوش الرومانية ـ قد ظهر فى مرحلة متاخرة من عصر الجمهورية وانه كان مجرد تقليد للنسور الشرقية غير أن النسر الرومانى كان هو الأساس الذى قلدته شارات الدول التالية زمنا ، وعندما أصدر المؤتمر الوطنى فى فيلادليفيا ، عام ١٧٧٦ ، قرارا باتخاذ هذا الطير شارة للعالم الجديد ، بقى فى حدود التقاليد السابقة ، وان كانت سخريات القدر قد شاءت أن يكون نسر امريكا ادخل فى طائفة الصقور منه فى طائفة النسور . . !

ونستطيع أن نقول مع الشاعر عن هذا الطير الذى يزيد على أمثاله الأوروبية فى شراسته ونهمه :

أنت أيها الطائر القبيح آه لو وقعت يوما فى يدى فسوف أجردك من ريشك وأقلم مخالبك (*) .

ويقال أن بنيامين فرانكلين اقترح اتخاذ « ديك عيد الفصح الرومى » رمزا ، وطنيا ، لكن « الأجداد » رفضوه ، برغم ضخامة جسمه !

ولعل « النسور الجارحة » قد نالت دلالتها فى المعتقد الرومانى الخاص بالتفاؤل بالطير ، من عادة نهشها للجيف . فطبقا للمنطق البدائى ، يكتسب النسر ناهش الجيفة ، بعض ملكات الانسان ومنها حكمته .

وتقوم الصفة المفزعة فى البومة على أن شكلها غامض مهوم ، وطيرانها بالليل ، وصيحتها غريبة غير مألوفة .

ولا تقل عائلة الأغربة عن ذلك شأنا فى تاريخ الديانات القديمة ، وسبب اهميتها انها تأكل الجيف، ثم انها تستطيع أن تحاكى اصوات البشر .

(*) Du hässlic Sher Vogel, wirst du inst
Mir in die Händ Fallen,
So rwpte ich dir die Federn aus
Und hacke dir ab die Krallen.

ولسنا نعرف لماذا يجلب الحمام سوء الطالع . فالطائر ذاته غريب على أوروبا ، ويظن انه حمل معه هذه الصفة من بلاد الشرق الأدنى ، ومن الهند قطعا ، حيث كانوا يفرقون منه ويخافون ، اذ كان عندهم نذير الموت » .

ويصدق هذا الكلام على الطاووس وهو طير نعرف انه جاء الى بلاد البحر الأبيض المتوسط قبيل القرن السادس الميلادى . وان مأثوراته ، جاءت معه من الهند الى أوروبا . وكذلك الشأن بالنسبة للديك ــ وهو بالمثل قادم جديد على أوروبا ، ولا شك فى أن الغيلان والعفاريت كانت تفزع منه قبل أن يهاجر من الهند أول مرة .

وقد نظن ان أغلب الخرافات الدائرة حول وكنات الفراخ ، كانت موجودة فى بلاد آسيا ، قبل أن تنتشر فى أوروبا ، وتذيع مع اتساع تربية الدواجن .

ويتصل قسم كبير من المعتقدات بطائر الروقوق ونحن نجد أمثلة لها فى سائر مجموعات الفولكلور . وليس من اليسير أن نفسر أسباب نشوئها، واكثرها لا يعود الى فترة تاريخية حديثة . فنحن نعرف أن الفلاح اليونانى القديم كان يوليه تقديرا ظاهرا ، ويبدو أن هذا الطائر قاسم النسر فى حكاية آرجوس الشرف فى أن يبدو لزيوس فى صورته وهيئته ، وتتجمع حول جسم طائر « الرن » الصغير الصداح مأثورات غريبة كثيرة . غير اننا لا نستطيع ــ بغير مزيد من الاستقصاء ــ أن نجزم بأن صيد هذا الطائر ، فى الجزر البريطانية ، بقية موروثة من طوطمه ، أو من عادة تقديمه قربانا ولو اننا لا نقطع كذلك بعدم صحة هذا الموروث .

ولسنا ندرى الأصل الذى نشأت منه القصة الخرافية المؤثرة والقائلة بأن من صفات طائر الرن وطائر « أبو الحسن » أن يغطيا الجثث التى يجدان فى ارض المعارك ، وهى خرافة يرويها الشاعر جون وبستر فى كلماته التالية :

ناد طيور « الرن » وأبا الحسن وذوات الصدر الأحمر .
فهى تهوم فوق الأيكة الخضراء .
وتغطى بأوراق الشجر والزهور .
جثث الموتى المتروكة بلا أصدقاء أو قبور .

ويجب أن تقارن بهذا ، وظيفة طائر « باروندا » فى المأثورات الهندية فهو الذى دفن الهيبوريين عندما لقى هؤلاء الرجال المخلدون نهايتهم بعد حياة امتدت احد عشر الف سنة . ويقال أن هذه الطيور كانت تحمل الجثث بمناقيرها القوية ، وتدفنها فى الكهوف .

وفصيلة « ناقر الخشب » لا تقل عن ذلك اهمية فقد اقترن ناقر الخشب الأحمر بزيوس وكان سبب ذلك ، بلا ريب ، أن هذا الطير بتاجه الأحمر ، كان « طائر نار » نموذجيا .

ويبدو أن القدماء كانوا يعرفون ديك البحر أكثر مما يعرفه المعاصرون. والقصة الخرافية عن « أيام ديك البحر » بعض هذا القصص الوافر الذى كان جديرا بأن يشرف المواعظ الدارجة فى العصور الوسطى عن طبائع الحيوان .

وفى أوروبا بخاصة ، يبدو المعتقد القائل بأن بعض الطير - وبخاصة طائر اللقلق - عبارة عن رجال مسخوطين أو انها تستطيع أن تعود الى هيئتها البشرية ويبدو أن هذا المعتقد ، جزئية طوافه ارتبطت بعادة هجرة الطير ، وقدرتها على أن تجد مسكنها الأصلى ، سنة بعد سنة .

وكثيرا ما تكون طيور البحر رموزا للخصوبة نظرا لصلتها بالماء ، وهذا الأمر يفسر لنا المكانة التى شغلها الأوز أو البجع ، كطيور الالهة الأم ، فى العالم القديم ، سواء كانت ليتو الآسيوية أو جونو الرومانية أو دسكورى التى ولدت من بيضة .

ثم ان الظن القائل بأن الطير ليس الا اشكالا اتخذتها الأرواح البشرية، هذا الظن اساسه قدرة الطير على التحليق والطيران - وهى القدرة التى يرى المعتقد الشعبى ، أن روح الانسان تشارك الطير فيها . والحق أننا نجد طائر الروح فى كل مكان من الارض ، كما أن الظن الخرافى الذى أنشأ هذا التماثل الغريب ، من أبسط ما يستطيع عقل الانسان أن يتوهمه .

ويتفرد الثعبان على سائر الزواحف بأنه لفت اكثر الأنظار اليه أينما كان ، ولذلك أسباب جد مختلفة - أولها قدرة الثعابين على أن تنضو عنها جلودها ، وتلك « عملية » جعلها الانسان الامى ، بمثابة تجديد الشباب والحيوية .

وادى هذا الى الظن بأن الثعابين مخلدة ، وكان الأساس فى أسطورة سقوط الانسان ، حيث أصبح الثعبان العامل الأول فيها .

وليست الأسطورة عبرية الأصـــل ولا هى أفريقيـــة (كما يزعم برج . فريزر) بل نجدها فى ماجناجراشيا ، وايتكا ، وبلاد ما بين النهرين، والى الشرق من ذلك حتى بلاد الهند .

وبقدر ما تسمح المواد المتاحة ، من تحديد ، يبدو لنا أنها نشأت فى بلاد ما بين النهرين ومنها هاجرت غربا وشرقا ، فوصلت الى الهند كما وصلت الى أفريقيا .

وأدت هذه الخاصية ، مع ما أضيف اليها من صفات الثعابين الخطرة السامة فى تلك البلاد الى انتشار عبادة الثعابين ومفتقداتها الدينيـــة فى الهند .

واشد مما سبق انتشارا ، ذلك الظن بأن أرواح الموتى تبدو فى شكل ثعابين ، وهو معتقد ذائع فى جنوب أفريقيا ذيوعه فى الهند وبلاد الاغريق . فاينياس يميل الى اعتبار الثعبان الزاحف من ركام قبر انشيزس ، شبح سلفه ، وقد تجسد واكتسى لحما .

واذا تذكرنا أهمية الكنوز المدفونة مع الموتى ، والتى كان يعتقد انها ملك لهم وأنهم يحرسونها ، لأنهم يبغضون انتهاك مقابرهم ، ــ اذا تذكرنا هذا اتضح لنا كيف انتحل التنين والثعابين دور حراس الكنوز .

وبقايا هذا الظن موجودة فى بلاد عديدة ، نلقاها فى الهند كما نلقاها فى ايسلنده القديمة . ويعتبر كنز فافنير ، والخاتم السحرى المذكور فى حكاية جان شهيرة تناولناها فيما سبق من حـــديث ــ مشتقات وتوليدات ناشئة عن هذا الظن .

والشقة ليست بعيدة بين الكشف عن الكنوز والكشف عن الميـــاه الخفية ، وينبغى أن نتذكر أن الصولجان المقدس ، كان يخدم الغرضين السابقين . ولعل بعض هذه الظنون ، ربطت بين الثعابين والينابيع والماء عامة . ومن هنا ، كانت الحكايات الكثيرة المتواترة من مختلف أنحـــاء المعمورة ، التى تروى كيف أن تنينا يحرس ينبوعا ويمنع الأهالى من ارواء ظمأهم وكيف أنه ــ فى العادة ــ يطلب ضحية بشرية فى مقابل السماح لهم بالاقتراب من الينبوع ، ثم يصرعه بطل من الأبطال .

ولعل الظن القائل بأن الميت سواء ظهر فى شكل ثعبان أو لم يظهر ــ يعرف أكثر مما يعرف الأحياء ــ هذا الظن يفسر لنا المأثورات الفولكلورية الذائعة فى العالم ، والتى تنسب الى الثعابين قدرات فائقة معجزة ،

تستطيع أن تسقطها على الانسان ، كما لو كان الانسان سارية علم وهكذا صارت كاسندرا وهيلينوس ـ وملامبوس عرافين بعد أن ظهرت الثعابين اذ انهم أصبحوا قادرين على أن يفهموا صياح الحيوان ، واصوات الطبيعة.

وتنسب الى الثعابين بخاصة صفة ادراك لغة الحيوان كما جاء ذكر ذلك فى الحكاية الدائرة حول امراة وزوجها الذى يعرف لغة الحيوان ، او كما جاء فى الحكاية الدائرة حول انسان أكل جزءا من لحم الثعبان ، ـ او اكله جميعا ـ الأمر الذى نجده فى القصة النوردية الموضوعة حول سيجورد وفافنير .

ومن الاعتقاد بأن الثعابين تجسد للاسلاف الموتى نشأ نظام « بيت الثعبان » الذى عرفته روما القديمة كما تعرفه أوروبا الحديثة . والثعبان المقصود هنا ، غير ضار ، حتى لقد راى بلينى أنه من الخير ان تؤدى حرائق روما ـ التى كانت تبيد الثعابين من حين الى حين ـ الى تقليل عدد هذه الثعابين أو الى منعها من التكاثر ، على الأقل .

ومع التوسع فى هذا الظن ، الذى يسهل ادراكه ما أن يعتقد بأن الثعبان « حيوان روح » اصبح الثعبان مستقر روح اشخاص على قيد الحياة . اى انه كان يظن أن حياة الكائنات البشرية ، مرتبطة ـ ببعض انواع الثعابين ارتباطا غامضا ـ حتى أن موت الثعبان كان كفيلا بأن يضع حدا لحياة الانسان المرتبطة به .

وقد ثبت وجود هذا المعتقد فى روما القديمة ، وعند قدماء الساميين بالمثل ، وعند الجرمان المحدثين وجرمان العصور الوسطى ، وعند السيلتيين ، والقبائل الفنلندية المنتشرة فيما كان من قبل الامبراطورية الروسية .

وأما السبب فى اقتران الأسلاف الموتى والثعابين ، فملاحظة صحيحة اضيفت الى منطق مغلوط ، وخلاصة ذلك خروج الثعابين زاحفة من المقابر .

والأمر الثابت أن الثعابين وضفادع البر صارت ـ بفضل طريقة حياتها تجسيدا لأمنا الأرض كما أنه من الثابت أن سائر آلهات الأرض ، تبدت كلها ، فى شكل ثعابين . ثم حدث بعد ذلك ، وعندما نفضت الآلهة عن نفسها جلود الحيوان ، ان ظل الثعبان حيوان الآلهة المقدس ، ومن ذلك ثعابين معابد أثينا وديميتر . غير ان الثعابين لبثت تعتبر عفاريت أو أنصاف الهة ، وحين كانت المواد تختفى سريعا بطريقة غامضة أثناء تشييد برج فورتجرن،

زعم امبروسيوس ميرلين انه وجد تنينين احدهما ابيض والآخر احمر في بركة جوفية .

وذات الحكاية تروى فى القارة الأوروبية عن بناء كاتدرائية ، وقد يحل الضفدع البرى محل الثعبان .

وأما الظن بأن الثعابين قد تحول ذواتها الى اناسي ، وذلك بارادتها ، ثم تباشرنشاط اكتشاف الأشباحمصاصة الدماء ــ فظن هندى خالص . ولدينا حكاية عن ثعبان تحول الى امرأة ذات جمال نادر ، وتزوج من راجا ، وجلب عليه وبلاده البائسة الدمار والخراب .

هذه القصة هاجرت غربا . وترامت حتى بلاد القوقاز .

ومن المعتقدات الأوروبية ، التى قد نجدها فى آسيا وامريكا ــ ذلك المعتقد المبنى على ما يسمى بجحر الثعبان أى الجوهرة الثمينة ، التى قد تكون تاجا فى بعض الأحيان ، والتى يظن أن الثعبان (أو ملك الثعابين) يحملها معه ، وقد تخطف منه ، وتسلب ، ولو ان ذلك يعرض الرجل بالشجاع الذى يحاول سلبها ، لأشد المخاطر واقواها .

ثم يجب أن نذكر الوحدة الموجودة فى أنحاء شتى من المعمورة بين الثعابين والأعضاء الجنسية ــ وهو ظن قائم على ترابط من اليسير ادراكه ، وظاهر في جملة من الخرافات وقد يخطر على الذهن مباشرة ، القصة المعروفة عن اوليمبياس أم الاسكندر الأكبر واله الثعابين الذى يزورها ، أو تلك القصص الرومانية التى حذت حذو سابقتها ، ودارت حول حمل سكيبيو افريكانوس الأصغر واوكتافيانوس أوغسطس . وقد يجدر بنا أن نلاحظ ان العنصر الرئيسى فى تمثيليات الغوامض القديمة ، كان يمثل بثعبان .

وتنفرد الضفادع ، دون الحيوانات البرمائية ، بأنها تشترك مع الثعابين فى صفات كثيرة ، ولهذا درج الخيال الشعبى على أن يحمل لهذين الحيوانين حبا خاصا ، أو كراهية خاصة على الأخرى .

وكما ظن أن الثعابين سامة ، فقد نسب الى الضفادع صفات ليست فيها . ويعتقد ان عضة الضفدع أو لمستها ، ضارة .

ولسنا نعرف السبب الذى ادى الى ان يقرن الخيال الشعبى بين الضفدع وعضو التأنيث ، فالجانب الأكبر من الرموز البدائية ، سيبقى كتابا مغلقا بالنسبة لنا ، ما لم نقبل مختلف الأوهام السيكولوجية التى

اذيعت فى السنوات الأخيرة ، وليس فيها من الصواب أكثر مما فى ميتولوجيا الشمس والقمر للراحل مكس موللر .

ومع اننا لا نعرف مأثورات السمك معرفة دقيقة ، الا أن الأقوال المتواترة حوله بالغة القدم . وقد تتيح لنا شيئا من طبائعه ومعنـــاه ، تحذيرات فيتاغورس ، والمأثورات الغريبة الواردة فى صفحات بلوتارك الســـاذج .

ومما يستحق ان نشير اليه هو أن الصيام المسيحى يحظر اكل السمك، غير ان هذا التحريم مشتق من حظر أسماك كانت موجودة فى سوريا ثم ارتبطت بدورها ، بما حرمه فيثاغورس (*) . ولسنا ندرى كم كان هذا الحظر منتشرا خارج سوريا ، وخاصة فى بلاد الغرب أثناء عصور ما قبل المسيحية . وبعض الحكايات التى تروى لنا كيف أن رجالا تحولوا الى أسماك ـ قد تدل على وجود هذه التحريمات فى الأزمان الغابرة . وذلك ان افترضنا أنها لا تدين بانتشارها ، لعوامل الهجرة .

ومع أن الحيوانات الدنيا ، أقل أهمية ، الا أن لها فولكلورها الخاص فالحشرات ـ الفراشات بخاصة تعتبر « حيوانات روح » وتلك خاصية تظهر واضحة فى مختلف الأسماء التى تطلق على الفراش فى أغلب اللغات الأوروبية . وقد يعتبر العنكبوت ، حيوان شؤم ، أو تفاؤل ، تبعا للوقت الذى يظهر فيه من اليوم .

وسبق أن تحدثنا عن المعبودات الوثنيـــة التى ارتبطت بمأثورات الحيوان على نحو من الأنحاء .

وحين جاءت الوحدانية ، الحقت هذه المعبودات بالشيطان المسيحى، فكان من الطبيعى ان تختص بخدمة جـلالته الشيطانية كثرة كثيرة من الحيوانات التى كانت مقدسة من قبل عند أهل الأوليمب والوالهال . ويصدق هذا ـ بخاصة ـ على العنز الذى يقترن بالشيطان بأوثق الصلة .

ولعلنا نلتمس السبب الرئيسى لهذا ، فى تصوير أنصاف الالهـــة ، فى الديانات القديمة بالبحر الأبيض المتوسط بصورة العنز ، ومن هـذه الالهة بان ، وفاونوس ، واتباع ديونيسوس المرحون ، والمؤمنون وكانوا يجسدون قوى الطبيعة التناسلية وكانوا ـ لهذا السبب ـ موضع كراهية

(*) يتزيد المؤلف هنا أيضا فى تفسيره وتعليله ، بدون منطق صحيح او يقين علمى سائغ ـ المترجم .

دعاة الدين الجديد ، وكذلك فالعنز بما لها من صفات العشق ، وما مثلته من قوة أعطاء الحياة ، انتقلت الى خدمة الشيطان ، ما أن اعتبرت الطبيعة ذاتها شيئا شيطانيا .

ولعلى أرى أن هذه الأفكار ، آراء بحر أبيض فى جوهرها ، وان عنزات تور النوردى لا يعتد بها . وأما أن تكون هذه الأنواع من مأثورات الحيوان قد نشأت مستقلة بعضها عن بعض وأما أن تكون قد انتشرت بسبب الهجرة ، فمشكلة ، لا نستطيع ان نحلها بطريقة تلخيصية ، بل يجب أن يفصل فيها بدراسة كل حالة على حدة .

غير أنه من الثابت أن الهجرة تفسر لنا أسباب انتشار عدد وافر منها ، بل لعلها تفسر الجانب الأوفى .

وما نحتاجه ــ حاجة ملحة ــ أن نجد خرائط تبين المواضع الجغرافية لكل منها . ولعلنا نستطيع أن نصل الى بعض النتائج ، بأن نعتقد مقارنة دقيقة بين التوزيع الجغرافى فى المصادر المواد المتاحة وبين توزيعها التاريخى (*) .

(*) يردد المؤلف هنا شيئا من المنهج الفنلندى على الرغم من أنه زعم فى صدر الكتاب استقلاله عنه .


الفصل
الرابع عشر
فلكلور المعادن والنجوم

● فولكلور المعادن والنجوم
والقصص الخرافى عن بدء الخليقة :

الأصنام وعبادتها وانتشارها فى العالم القديم قبل ظهور الأحجار النفيسة والأحجار الخياليــة ـ اساطير النجوم الأصلية ـ الديانات السماوية . فولكلور المعادن وعلم الركة ـ المعادن والأساطير الملفقة حول نجوم غير حقيقية ـ قصص تفســيرية شارحة ـ حـكايات الكواكب والنجوم والقمر والشمس .

فولكلور المعادن والنجوم والقصص الخرافى

عن بدء الخليقـــة

من الخطأ أن نفترض أن فولكلور النبات والحيوان يدين بوجـــوده لغوامض الحياة فمن المرجح أن يكون التمييز بين الطبيعة العضوية وغير العضوية ، هو نفسه ، نتيجة عمليات عقلية تتصف بقدر كاف من التقدم وان الازدراء ــ الذى يساور المبشرين بالعقائد الأسمى ــ ويعبرون عنه فى حديثهم عن البدائيين الذين يقدسون حجرا أصم صامتا ، هـــذا الازدراء فى جوهره ، دليل على جهل هؤلاء المبشرين بتطور الانســـان الروحى . فعبادة الأحجار الجافية كانت منتشرة فى أنحاء الأرض واذا اخذنا مثلا هيروميس الأغريقى وجدنا أنه كان فى الأصل حجرا جافيا . واغلب الظن أن القبيلة الآسيوية ــ كانت على هذه الصورة حين حملت الى روما فى النصف الأخير من الحرب البونية الثانية ، حيث عبدت فيها واستبقت طقوسها الشرقية الى نهاية عصر الوثنية ولا ينبغى لنا أن نفصل حجر بيت لحم المنسوب الى يعقوب ، عن هذه المجموعة من المعتقدات والممارسات الغريبة .

ويعتبر فولكلور المعادن الغريب الذى تمثله صناعة الأحجار الكريمة فى العصور الوسطى ، أعلى مستوى مما سبق ، ذلك أنها تفترض بلا نزاع وجود شىء من النظر العلمى ولو أنه نظر خاطىء فى رأينا .

وعلم الركة المستخدم فى هذه « التواليف » له أصل شرقى ، مثله فى ذلك مثل اغلب علوم الركة . وكان جانب كبير من هذا الفولكلور ، ذائعا فى العالم القديم ، كما يبدو ذلك من الأمثلة التى أوردها بلينى وغيره من قدماء مؤلفى « الغرائب » mirabilia .

وانتقل الفولكلور القديم الى العصور الوسطى ، وأضيفت اليـــه اضافات عديدة نشأت فى عصور شرقية تالية .

والمعادن التى تتناولها هذه المؤلفات اما أن تكون معادن نفيسة معروفة، تنسب اليها خواص اعجازيةمعينة ،كأن تجعل حاملها خافيا على الأنظار ،

او تحميه من النار والماء او تحذره من الأخطار الوشيكة الوقوع أو ان تكون احجارا خرافية لا وجود لها فى الحقيقة اكثر من وجود طائر العنقاء . « وحجر الفلاسفة » واحد من هذه المجموعة الأخيرة . وهو يماثل الحجر الهش أو « حجر القوة الخفية » **Lapis exilis** لولفرام . بل ان مختلف الأحجار دخلت كتب الاقرباذين بالعصور الوسطى باعتبارها عقاقير ناجعة تشفى العديد من الأمراض التى كان أطباء العصور الوسـطى يجهلون طبيعتها جهلهم بالخصائص العلمية لمعدن هذه الأحجار .

ولم يتغير الحال كثيرا فى الشرق الادنى حيث لا يزال الاعتقاد بقدرة هذه الأحجار على العلاج ، عاملا فعالا فى هذه البلاد . اما أوروبا فلم يترك فيها علم الركة أثرا سوى رمزية الأحجار النفيسة التى تعنى ان كل حجر نفيس ، يرمز الى صفة فى الطبائع وترتبط بطوالع الأفـلاك وشارات الكواكب ، التى لم يزل يؤمن بها أولئك الذين يرون أن الايمان خير نواحى العقل .

ولا فائدة فى أن نفترض وجود أساس شعبى للبحث عن الأحجـار الكريمة وصنعها فى العصور الوسطى كما انه ليس هناك من جدوى فى أن نستبعد مثل هذه المعتقدات والخرافات من مجال الفولكلور على اساس انها ذات طابع مثقف لا نزاع فى ذلك . وتنطبق الحالة ذاتها ، على المجال الشقيق ـ وهو مجال فولكلور النجوم . فمن الواضح اننا نستطيع ان نميز فى سهولة بين طبقتين ذلك أن لدينا ـ من ناحية ـ أساطير النجوم الأصلية ولنستخدم هذا الاصطلاح الغامض ومعناه الحكايات الدائرة حول الاجرام السماوية والتى تكون غالبا ذات طابع تعليمى أو شارح .

ولدينا من ناحية ثانية أساطير زائفة عن النجوم ومثلها المذنب المتماثل مع قيصر المتوفى والفلك المسمى بشعر برنيس ـ وكلها من تلفيق شعراء البلاط ـ ومنها فولكلور الكواكب التى تؤلف الجانب الأوفى من التنجيم منذ العصور القديمة الى العصور المتأخرة نسبيا .

وقد اصبحت قصص الكواكب ذائعة بين العامة ذلك لأن علم الركة لسنى Sini وثايكو براهة Tycho Brahe قد تهاوى وهبط اجتماعيا وصار الآن فى متناول اى فلاح ، أن يحصل عليه فى كتيب يبـاع بست بنسات فى الأسواق . ولا حاجة بنا الى أن نتعمق اغلب فولكلور التنجيم فالمجال غاية فى الامتاع ، وغاية فى الأهمية من زاوية تاريخ الثقافة ، ويعتبر

فى حد ذاته كيانا قائما وحده ، ولو أنه وثيق الصلة بتاريخ الأديان وأصول علم الفلك . والدراسات العلمية الحديثة عنه ، ليست قليلة . غير أن فولكلور النجوم الأصيل يستحق منا شيئا من التنويه ، خاصة فى هذه البلاد ، فقد يسأل القارىء الانجليزى ــ وهو على حق ــ ماذا بقى من خيالات مكس مللر ، حتى بالنسبة لراى المختصين الذين لا يستطيعون أن يزعموا انهم ينتسبون الى المدرسة الانتروبولوجية ؟

وحين يقترب المرء من مجموعة الأساطير الفلكية ، يشعر الانسان على الفور انها قصص تفسيرية شارحة . فضوء الشمس يختلف أيما اختلاف عن ضوء القمر ، والشمس تشرق فى النهار ، والقمر والنجوم تطلع بالليل واغلب النجوم ينتظم فى عناقيد نسميها الأبراج وكل هذه الحقائق وكثير غيرها يثير سؤال لماذا ؟ ولقد حاول الانسان بطريقته المعتادة ، أن يجيب على هذا السؤال ، لا عن طريق البحث والاستقصاء العقلى ــ فهذه الأمور تتصل بمرحلة متقدمة من تطوره الروحى ــ بل حاول الاجابة عليه ، باختراع قصة جيدة . ومن هنا نشأت قصص كثيرة عن زواج الشمس والقمر ، الذى ينتهى ــ كالكثير من الزواج البشرى ــ بأن يعتزل أحد الزوجين الآخر ، اذا لم ينته الى الطلاق . وحين قرن الانسان بين منازل القمر المختلفة ، ومنازل النجوم ، آثر أن يضع قصة ممتعة ، جعلها هايني شهيرة فيما بعد ، وخلاصتها أن الاله الطيب حطم القمر الى أجزاء صغيرة ، فنشأت النجوم من هذا الفتات . واذا كان برج Pleiades يذكرنا بوكنة دجاجة وفراخها الصغيرة ، فهذا الخيال ليس مسرفا ، اسرافا شديدا ، واذا شبه الطريق اللبنى الى طريق الحج الكبير ، فمن الممكن أن نفهم هذا الاعتقاد ــ ولو أنه قادم من الشرق ــ بل لعلنا نذهب الى القول بانه نشأ مستقلا عن الأصل الشرقى . واول ما نشأت هذه الخيالات الأسطورية كان من اليسير رفع كائنات أرضية كالناس والأبطال بل الهة الأوليمب الى السماء ، واظهر مثال على ذلك اوريون Orion الاغريقى وتوى Toe of Aurwandil النوردى ، وخير دليل على صحة رايى ، هو وجود قصص شارحة كثيرة حول النجوم ، ليس فيها شىء أسطورى . وعلى هذا الضوء ، تشرح قصة خرافية من الباسك ، حقيقة فلك Dipper على النحو التالى :

ذات يوم كان هناك فلاح غنى وسرق لصان ثيرانه فأرسل الفلاح خادمه ليطارد اللصوص ، وعندما لم يعد الخادم ، أرسل الخادمة فى إثره ،

واذ لم تعد الخادمة ايضا ، فقد ارسل وراءهما كلبه الصغير ــ وبعد أيام قليلة ، لم يعد الخادم أو الفتاة او الكلب ، فذهب يبحث عنهم . وعندما لم يقع لهم على اثر فى أى مكان شرع يسب ويلعن وجزاء له ، تحــولوا جميعا الفلاح والخادمان والكلب واللصوص والثيران المسروقة ــ تحولوا الى نجوم ورفعوا للسماء ، حيث قضى عليهم أن يسيروا فى موكب النجوم الى يوم القيامة . وهكذا ظهر برج Dipper ــ ونجماه الأولان هما الثوران، ونجماه التاليان هما اللصان ، وأما النجوم الأربعة التى تشكل المقبض ، فهى الخادم والفتاة والكلب والفلاح » .

وينبغى أن نقارن القصة السابقة بالأسطورة التى ذكرها هايجينوس والتى تقــول :

« اعطى ايكاريوس Icarius الأثينى ــ وقد علمه ديونيسوس زراعة الكروم ــ بعض عنزه لنفر من الرعاة . وعندما سكروا ظنوا أنه أشربهم السم فقتلوه . وذهب كلبه ، ليأتى بأريجون Erigone واراها المكان الذى استقرت فيه الجثة . وفى يأسها البالغ ، شنقت اريجون نفسها ، بينما ترك الكلب نفسه يهلك بجوار جثة سيده . ثم وضع الآلهة هؤلاء الثلاثة ومعهم عربة النبيذ فى السماء . وصارت اريجون تشكل نجمة العذراء ، والكلب أصبح سيريوس Sirius ، وايكاريوس نجوم قطيع الأبقـــار ، والعربة « الدبر Dipper » .

ولعلنا نقول أنه فى مجتمع يؤمن بتعدد الآلهة ، كمجتمع الاغريق القدماء، كان الآلهة والأبطال اكثر تعرضا للانقلابات الفجائية فى مصائرهم ، من اناس زائلين كأمثال الفلاح الباسكى ومع ذلك ، فما نزال ابعــد مانكون ، عن النظريات الأسطورية الشمسية بالمعنى الذى ذهب اليه ماكس موللر و ا . زيكه E. Siecke وانصارهما .

ولقد تغزو الآلهة الأصيلة السماء ، ويبدو تطور مشابه فى تاريخ الديانة الكلدانية النجمية ,وفيها ان الهة مابين النهرين بل الالهة الهيلينية الأوليمبية ، تؤدى خدمات فى ليالى السماء . ولا يخالجنا أدنى شك فى أنه فى هذه الحالات جميعا ، تحتل العلاقات النجمية بين هــــذه الآلهــــة المرتبة الثانية .

ولا نملك دليلا على أن النقيض هو الذى حدث وان النجوم صارت الهة . بل لدينا الهة للشمس فى مصر القديمة ، والدولة الرومانية المتاخرة

او فى ايرلنده أو عند الهنود واهل بيرو . ولكنا نتعامل ـ فى هذه الحالات ـ مع حضارات متقدمة وشعوب مستقرة زراعية ، أو نجد بين أيدينا معتقدات ماخوذة عن عبادات البحر الأبيض كما يتضح ذلك من حالة ايرلنده .

ولا يختلف الأمر عن هذا ، فيما يخص اله القمر فى بلاد ما بين النهرين . ذلك أن الأمة الزراعية ، التى تعيش تحت نظام حكم ملكى ، لابد من ان تنظر الى الشمس على انها الالهة أو المعبود الواهب للحياة ، ولابد من أن يحتل القمر مرتبة هامة ، أساسها أنه يسبق الشمس ـ فيما يتصل بتحديد الوقت ـ ويعقد السنة الشمسية . ولكن أهم مزاعم أنصار المدرسة الأسطورية القمرية ، وهو الزعم بأن عبادة القمر ، سبقت دائما عبادة الشمس ـ هذا الزعم ليس له أساس ولا تدل ظواهر الأحوال على انه ستثبته الشواهد فى القريب العاجل .

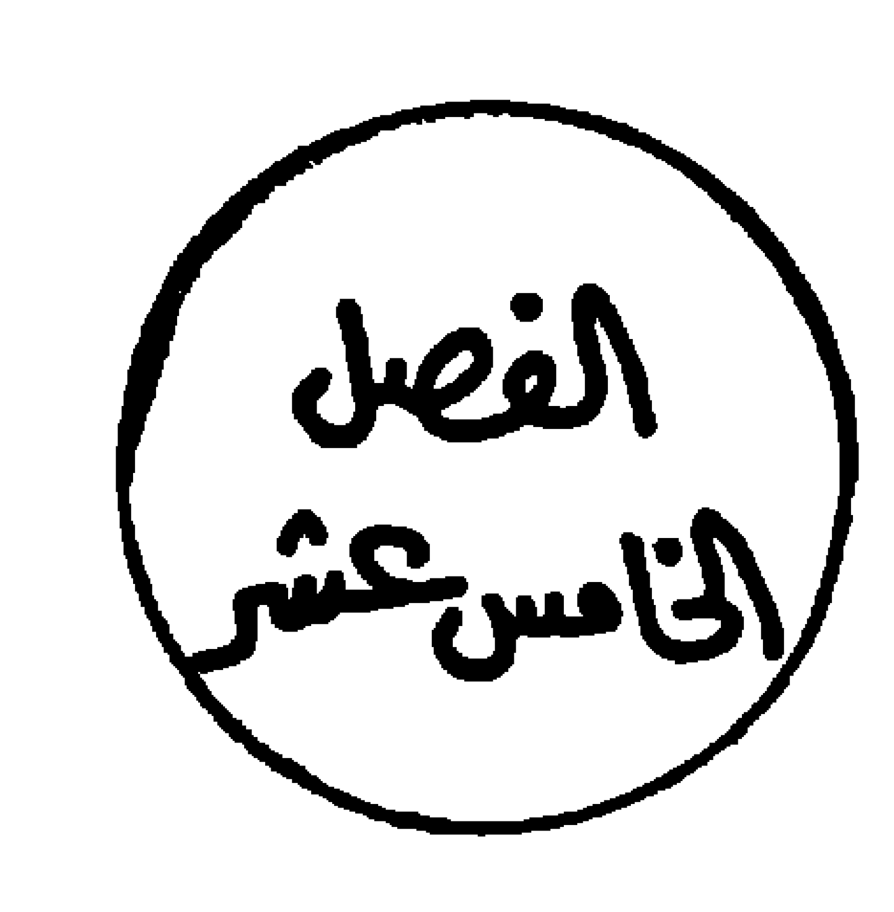
ولقد تؤلف الأساطير الشارحة الجانب الأوفى من الحكايات التى يبتهج لها عالم الأساطير المحترف ، وتغريه بأن يبقى عليها ، نتائج مسرفة فى اجترائها .

لكن هذه الأساطير الشارحة فقدت قوتها الاقناعية ، نتيجة لتقدم العلوم ، ثم اختفت شيئا فشيئا ، الا حيثما تحميها معتقدات دينية ، تتضمنها لعلة من العلل .

واما السؤال الخالد لماذا ؟ فمن السهل أن نوجهه ومن الصعب أن نجيب عليه ومن الممكن أن نبديه ، بل كثيرا ما قيل هذا السؤال فى مختلف ميادين المعرفة الانسانية ، سواء فى علم الحيوان ، أو علم النبات أو علم الفلك ، أو لعله من الأحرى ان نقول ان اتباع المدرسة الأسطورية قد ظهروا للرد على هذا السؤال .

لكن هذا السؤال ، قد وجه فيما يتصل بأصل العالم المرئى ، لا فيما يمس علة وجوده ، وكان من نتائج ذلك ، ما نراه فى مختلف الأساطير الدائرة حول بدء الكون ، والتى انحدرت الينا .

واسطورة بدء الخليقة ، قصة شارحة ترمى الى أن نشرح كيف نشأت الأرض وترمى الى ان نشرح كيف وجدت من العدم أو الفوضى .



العادة والطقس

● العادة والطقس :

استمرار المعتقد الخرافى بعد اندثار الشعائر والعادات التى كانت تصاحبه ـ العكس بقاء بعض الطقوس والشعائر بعد اندثار المعتقدات الخرافية المتصلة بها ـ اقسام الطقوس الثلاثة ـ الطقوس الخاصة بايام معلومة فى السنة الشمسية ـ الطقوس الخاصة بمناسبات عائلية كالميلاد والزواج والوفاة ـ الطقوس الخاصة بدفع الضرر والاحتراس .

عيد أول مايو ـ يوم لاماس ـ عيد بارتولوميو ـ الفصح ـ اعياد وكارنفالات المواسم الزراعية ـ الصوم واربعاء الرماد ـ احتفالات رجم الشيطان ـ ليلة القديس مارتن والخريف ـ عادات الميلاد ـ التعميد ـ الختان ـ مراسم تعميد الفرسان ـ

عادات الزواج ـ وعادات الجناز .

طقوس الانتقال من مرحلة الى اخرى ومن مكانة اجتماعية الى مكانة أعلى منها ـ طقوس دفع الضرر عند انتشار الاوبئة واسترضاء الموتى ـ طقوس الاستشـفاء والتبرك باضرحة القديسين .

● العادة والطقس

درجت مدارس الفولكلوريين والأسطوريين السابقة على أن تتصدى لهذا الموضوع من ناحيته الأدبية الشفاهية .

ولهذا المنهج عيوب محددة . فالجانب الشفهي ، من الديانة الاغريقية القديمة ، يعني هزيود وهومر وما اشتق منهما .

وقد ترتب على ذلك ان بدا جمـــاع الديانة الهللينية ، كنوع من الكرنفالات الرائعة ، أو كمدينة فرساى فى مرحلة ما قبل التاريخ ، حيث اذا لم يكن كل شيء على اتم صورة فيما كان متاحا من العوالم ، فقد كان كل شيء مدعاة للبهجة ، لأهل جبال الأوليمب ومن كان يلوذ برحابهم .

واختفى الجانب المظلم من ديانة ابوللو ، وغض الطرف عن عبـادة الأبطال ، وعبادة الآلهة القديمة ، بما لها من آثار متخلفة بغيضة .

لكن المناهج تغيرت منذ ايام فردريك نيتشه أول من لفت الأنظار الى الجانب الديونى فى الديانة الاغريقية ، وصارت العبادات ــ اى ممارسة المعتقدات ــ تستحوذ على الجانب الأوفى من اهتمام الباحثين .

والحق ان التمييز الذى ذكرناه ــ بين الأسطورة والعادة ــ لا يظهر دائما ، ظهوره فى حالة الديانة الهللينية ذلك أن ظهوره هنا ، جاء نتيجة للشعر الأيونى بشطحاته الخيالية ، التى كان أهل جبال الأوليمب من بين ضحاياها . فاذا انتقلنا الى المعبودات الدارجة صار هذا التمييز أقـل وضوحا ، وسبب ذلك فى بساطة ، أن هومر أعرض عنها ، وتركها وشأنها .

وبرغم هذا ، فينبغى أن نقابل المعتقدات والممارسات ، ألواحدة على الأخرى ، كاجراء وقائى على أقل تقدير .

وهذا عالم ألمانى من الجيل الأخير ، ومؤرخ آداب يتوجس خيفـة من اخطار دراسة الفولكلور ــ شأنه شأن الكثيرين من أقرانه ــ هـــذا العالم الألمانى يقول ان علماء الفولكلور يتحيزون لآرائهم وينكبون عليها ، بحيث يجب الا نبالغ فى دلالة ما اكتشفوه ، وانه اذا كان للرواسب المتخلفة

من الماضى ، تلك الأهمية التى يظن أن علماء الفولكلور يضفونها عليها ، لبدا الريف جميعا ، أشبه ما يكون بمارستانات ضخمة .

والملاحظة صحيحة تماما ، وان كانت مبنية على تصور خاطىء لما يؤمن به علماء الفولكلور .

واما سبب تصوره الخاطىء ، فنستطيع أن نلتمسه فى التمييز بين النظرية والممارسة فقد يعتنق الفلاح معتقدا معينا ، بل ويدلى به الى جامع النصوص فى صراحة قصوى ، فاذا جاء دور ممارسة الطقوس المقابلة لهذا المعتقد ، اختلف الوضع وتباين . ذلك أن المعتقدات فى غالبها الأعم ، تكون راكدة مستكنة ، وفى الظروف العادية ــ لا تجد متنفسا لها فى الممارسة العملية . أو قل انها تشبه « الحلول » التى مارسها الفلاح فى ظروف استثنائية كأوقات الحرب ، والأوبئة ، وغير ذلك من الأوقات العصيبة التى يكون حدوثها قليلا نسبيا . بل ان الرجل العادى ، عند ذاك ، يفضل ان يدفع أجرا لعرافة أو ساحرة ، نظير قيامها بهذا العمل ، بدلا من ان يمارسه بنفسه . واذا لم يكن من سبب يدعوه الى هذا ، فحسبه الخوف من الا يؤديه كما ينبغى .

ومن الطبيعى ، اذا ، أنه حين يندثر مثل هذا النظام ، تكون الممارسة أول ما يتبعه الى الاندثار ، على حين تبقى المعتقدات النظرية الخالصة مدة أطول .

ويجوز لنا أن نقول فيما يتصل بتقديم القرابين البشرية ، أنها لم تمارس لقرون عديدة فى أوروبا الوسطى والغربية ، وان كانت الذواكر الدالة عليها ، موجودة فى سائر الأنحاء . ذلك أن المعتقد الخاص بها ما يزال يعيش ، وان كانت الممارسة قد اندثرت .

ومن ناحية ثانية قد تعيش الممارسة بعد اندثار المعتقد الذى انشأها ، ومعنى ذلك انه قد يستمر الطقس ، أو الممارسة ، بفضل روح المحافظة الغريزية فى الانسان ، بينما ينسى السبب أو الفرض الأصلى لهذا الطقس أو تلك الممارسة .

وكثيرا ما يخترع سبب جديد ، وتبرر به هذه الممارسة .

ومن أمثلة ذلك ، العادة الذائعة ، ــ عادة كشف الرأس عند مرور نعش ــ هذه الممارسة تفسر الآن ، كعلامة على اظهار الاحترام للموتى .

لكن اصلها مختلف عن هذا غاية الاختلاف ، فقد كان النعش

فيما مضى ، يتقدمه صليب ، وكان ينبغى للناس جميعا ان يخلعوا اغطية رؤوسهم ازاء الصليب وعندما جاءت البروتستانتية ، اختفى الصليب واختفت الممارسة ، غير أنها رسخت ايما رسوخ فيما يتصل بالنعش . فبقيت ، ويقال فى تفسيرها انها علامة على احترام الميت ،وليست علامة على احترام الصليب الذى لم يعد يتقدم النعش . ويجوز أن نقسم مجموعة العادات والطقوس الى ثلاثة اقسام هى : ـ

١ ــ الطقوس المتصلة بأيام وفصول معلومة من السنة الشمسية .

٢ ــ الطقوس التى تراعى فى مناسبات محددة كالميلاد والزواج والوفاة .

٣ ــ طقوس خاصة بدفع الضرر والاحتراس .

والنقطتان المحوريتان فى السنة الشمسية ــ فى المناطق المعتدلة ــ هما الاعتدالان ، ومن هنا كان مغزى عيد رأس السنة ويوم القديس جون .

ولقد كان هذان اليومان ، فى مناطق شاسعة من أوروبا وآسيا ، مهرجانات نار ، لأن الناس كانوا يظنون أن للنار تأثيرا سحريا على الشمس ، أو لأنهم كانوا ينسبون الى النار ، خاصية التطهير بعامة .

وكانت تواريخ هذين العيدين ، وطقوسهما ، تراعى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط والمانيا وأسكنديناوة .

أما الكلتيون فى غرب أوروبا فكان لهم تقويم مختلف ، أهم أيامه أول فبراير واول أغسطس واول نوفمبر .

وأما الأساس الفلكى لهذا التقويم ومصدره فأبعد ما يكونان عن الوضوح .

غير أن هذه الأعياد تشبه الأعياد الرومانية والتيوتونية الوثنية من حيث انها طبعت التقويم المسيحى بآثارها ، وذلك فى أعياد كاندلماس ، وولبورجيس ، وأول أغسطس ، وليلة هالو .

ومن الواضح أن مراعاة هذه الأعياد ، تقل يوما عن يوم .

وخذ مثلا عيد أول مايو . فقد كان ذلك العيد ، يوم صوم ، فى انجلترا وأوروبا أثناء العصور الوسطى وكان الناس « يمايون » فيه ،

وقد نذكر أن الامبراطور البرت الأول قد لقى مصرعه على يد ابن أخيه فى عيد من أعياده . وكانت الساريات تقام ، والأسواق تنصب وحلقات الرقص تنعقد .

وظل الأمر كذلك الى القرن الثامن عشر ، حين وضع فولتير قدمه لأول مرة على الأرض الانجليزية ، ومر ــ بطريق الصدفة ــ بهذا الاحتفال الذى كان يظهر بريطانيا القديمة فى تمام صورتها ، فرأى فولتير أن الأمر جدير بأن يقص خبره على فرنسا .

وفى الأعوام الأخيرة ، اعيد الاحتفال فى ايرلندة بعيد لوجنا ساد السيلتى القديم ، الذى يجىء فى أول اغسطس ، ويعتبر هاما بالنسبة للعالم السيلتى كله ، لأن أوغسطس رأى أن يكتفى بصبغ بلاد الغال ، بالصبغة الرومانية ، شيئا ، بعد أن هدأ من ثائرتها . بل ان المنشقين على الكنيسة فى بلاد ويلز ، لم يكونوا قد قضوا تماما على هذا العيد ، حين راح سير جون رايس ــ أواخر القرن الماضى ــ يجمع ما تبقى من مأثورات ويلز القديمة .

واما فى انجلترا ، فظل هذا العيد يمارس تحت اسم يوم لاماس ، حتى عهد شكسبير ، ان لم يكن قد استمر بعد ذلك .

ولسنا نعرف اى الأعياد الوثنية يختفى وراء عيد بارتولوميو (الموافق ٢٤ اغسطس) وهو عيد سوق سميثفيلد ، بخنازيره المشوية .

ومن اللافت للنظر أن نلاحظ ان هذا العيد يحظى بالمكانة ذاتها فى قارة أوروبا .

وحين يأتى عيد بارتولوميو ، يكون حصاد القمح والشوفان قد انتهى ، والريح تهب على الدارس .

وكان الغرض من أيام القديسين والأولياء ــ وهى من عوائد العصور الوسطى ــ أن تحل محل عادات سيلتية وثنية لم تزل باقية حتى الآن . فعيد السادس من يناير ، اثر باق من عيد راس السنة القديم ، الذى صار تاريخه فى القرن الرابع موافقا لليوم الخامس والعشرين من ديسمبر ، وهو يوم ميلاد « النهار الذى لا يغيب » Sol Invictus الذى ارتبط ، فى الأصل ، بافتتاح الملاحة فى فصل الربيع ، ولو أنه ينبغى أن نهمل اشتقاق كلمة « المركبات البحرية » Carrus Navalis

من الهة الملاحة ــ وهى ايزيس فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ونهيالينا فى أوروبا الشمالية .

وينبغى ألا نشك فى الحقيقة الأساسية ــ وهى أن كرونيا Kronia الاغريقية وساتورناليا الرومانية ، قد تركتا طابعهما على المهرجان الوسيط الحــديث .

وأما فترة صوم الأربعين بصيامها الطويل ، فنظام منحدر من عصر ما قبل المسيحية ، ولا نستطيع أن نفصله عن الصيام المفروض على كثير من الزراعالبدائيين ، اتصالا بأوقات البذار . فالمعتقد ان لهذا الصوم ، تأثيرا طيبا ، على المحصول السنوى .

اكتفت الكنيسة باعطاء معنى جديد ، لهذه العادة القديمة ، وعممت استعمالها ما فى ذلك شك ، فأدخلتها فى مناطق لم تكن تعرفها ، من قبل ، أو كانت على معرفة قليلة بها .

ويستحق تاريخ الفصح و Whitsuntide ان تفرد لهمادراسة جيدة كالدراسة التى خصصها اوسنر Usener لتاريخ راس السنة ذلك أننـا نعرف القليل حتى الآن ، عن الممارسات قبل المسيحية ، التى يمكن أن تكون جذورا سابقة لهذه الأعياد المسيحية ، فالالهة الانجلو سكسونية Eostere محض افتراض .

وكقاعدة عامة ، نستطيع ان نستقصى ونفسر ، توالى الأعيـــــاد الموسمية اذا وقعنا على أساس مقبول متماسك .

غير أنه منالحصافةمنهجيا اننضع فىتقديرنا احتمالات الاستحداثات المصطنعة ، والتى أوجدتها أسباب تاريخية ومثال ذلك عيدGuy Fawkes الانجليزى الذى يندثر الآن ، والأعياد الوطنية المختلفة ، وأعياد صلوات الشكر الامريكية .

وأما ان أسبابا مشابهة لما سبق ، كانت ذات فعالية ، فى العصـــور الوسطى ــ مع ملاحظة ان الكنيسة كانت تلعب الدور الذى تلعبه الوطنية الآن ــ فأمر تدل عليه شعائر أعياد كعيد هوليرود Holyrood الموافق الرابع عشر من سبتمبر ، والاحتفال السنوى باســـــتعادة الامبراطور هيرقليوس للصليب الحقيقى .

واما الطقوس ذاتها ، فقليلا ما تتنوع ، وكثيرا ما تخطر على الذهن .

فاشعال النيران وتطهير الناس والحيوان ، كانتا موجودتين فى العـــالم القديم (ومثالها باليليا الرومانية) ، كما هى موجودة اليوم .

وليس هناك ما يحملنا على أن نظن أن هذه الممارسات قد اختلفت فى معانيها أو مراميها عما كانت .

ولم تكن المواكب التى تسير فى الحقول مجهولة للفلاح الرومانى ، اكثر مما هى مجهولة للفلاح المعاصر فى الوسط او الغرب الأوروبى .

وكانت المبارزات بين الشتاء والصيف ، والسباقات ، ذائعة فى العالم القديم ذيوعها فى العصور الوسطى والحديثة . وقد ترك الكثير منها آثارا باقية فى الأساطير والقصص الخرافى .

ولعلنا نشير كذلك الى محاكاة الموت ، المعروفة فى سائر انحاء اوروبا الغربية والوسطى ، وحرق يهوذا أو قل ببساطة ، حرق الساحرات (يوم الساحرات فى بوهيميا) .

وهكذا يمثل الموت ويهوذا والساحرات ، السنة القديمة ، التى ينبغى أن تدمر باحتفالات تقليدية .

ومن هذه الاحتفالات ، طقوس الضرب التى تمارس فى مناســبات عديدة ، أثناء فصل الربيع عادة .

والمعتقد أن لها تأثيرا اخصابيا ومجددا للشباب والحيوية .

وعلى نفس الأساس ، تقوم الاحتفالات الجريئة الخاصة بأشــجار الفاكهة والتى تقع فى وقت دراس الشتاء .

ولقد لبث تبادل التأثير بين الخصوبة البشرية والخصوبة النباتية ، واضح المكانة فى عقل الانسان ــ وهو الأمر الذى يشرح لنا ، كيف أن الكثير من الجماعات المتوحشة والبربرية ، تسند اعمال الزراعة جميعـــا ، أو تسندها فى غالبهـا الأعم للنساء ــ وهو يفسر لنا بالمثل طقوس عقد الزواج البشرى فى الحقول المحروثة حديثا .

هذه الطقوس لم تكن أقل انتشارا فى بلاد الاغريق القديمة عنهـــا فى أوروبا الحديثة .

وهنا ، نجد جذور الأسطورة المعروفة عن ديميتر Demeter واياسون Iason .

وفى كثير من الحالات تقترن طقوس العراك والمبارزة ــ أو كانت ــ تقترن ــ بطقوس عقد الزواج فى الحقول المحروثة .

وكان الأشخاص المشتركون فيها يمثلون امنا الأرض (امرأة ــ وفيما بعد صبى يلبس ثياب امرأة) والسنة القديمة أو الشتاء ، والسنة الجديدة أو الربيع .

وكانت أحداث التمثيلية تجرى على النحو التالى .

تشتبك الشتاء والربيع فى معركة على امتلاك المرأة ، واثناء هذه المعركة يصرع الربيع الشتاء ويتزوج من المرأة .

وكانت التمثيلية تتعقد فى حالات أخرى ، فيصرع الشتاء الربيع ، لكن الربيع لا يلبث أن يبعث حيا ، أو يتلبس جسم صبى صغير (وهو الممثل الرابع) الذى لا يلبث حتى يصرع شيطان الشتاء .

ومثل هذه الطقوس اضطرد حتى أيامنا هذه ، ولا سبيل الى الشك فى وجودها .

وحين تعذرت على الفهم والتعليل ، صارت أساطير ، وهكذا نشأت فى اليونان قصص أوديب الذى قتل أباه وتزوج أمه ، أو قصص بيرزيوس الذى قتل جده ، على حين نجد فى أيرلنده قصة بالور مع العين الحاسدة. واصلها كروتوس الايرلندى ، وقصة مارد الشتاء والسنة الجديدة ، هذا المارد الذى يقتل ابن زوجته ، ثم يقتله حفيده .

وفى بعض الأحيان لم يكن الماردان المقتتلان ، يفسران على انهما اب وابن ، او أب وابن زوجة ، بل كشقيقين توأمين ، وهنا نجد أساطير من طراز الأسطورة النوردية عن بولدر هكور وفاتى الذى أخذ بثأر بولدر ، أو الأسطورة المصرية الدائرة حول اوزيريس وست ، ويكون حورس الابن المولود بعد مصرع ابيه ، هو الآخذ بثأره .

وفى سائر هذه القصص لا تكون المرأة ــ سواء سميناها ايوكاسته Iokaste أو اثنيا Ethnea أو نانا Nanna أو ايزيس Isis ، سوى تجسيد لأمنا الأرض ــ اى الأرض المنتجة للثمر ــ فى المجتمعات الزراعية .

أما الصوم فطقس فصلى ولو انه اقدم تاريخا من الزراعة بلا ريب . ذلك أن القبائل التى تعيش على صيد السمك أو صيد الحيوان تعرفه مثلما يعرفه المشتغلون بالزراعة . وكثيرا ما يواكبه تحقير الذات ، واذلال

النفس ، ومثال ذلك صيام ساكايا البابلى ، وهو احتفال مرتبط بوقت البذار ، وتوقع المحاصيل ، ومثاله كذلك أربعاء الرماد المسيحى .

ولقد عاش موكب السفينة المدفوعة على العجل **Carrus Navalis** الذى عرفته الحضارات القديمة ، فى بلاد أدنى الراين ، اى فى مناطق بلجيكا وهولنده وألمانيا الغربية .

وهذا الموكب نوع من مواكب المركبات المتصلة بالعبادات أو غير المتصلة بها ، ومثلها هذا الذى وصفه تاسيت ـ او هذه المواكب التى نستطيع استخلاصها ـ من عديد من الوثائق ، بالنسبة لبلاد الأغريق القديمة أو بلاد السويد فى عهدها الوسيط .

وهناك امثلة كثيرة لطقوس النزال والعراك ، موجودة فى انحاء كثيرة من أوروبا الغربية أو الوسطى فضلا عن الشرق ومن ذلك موكب **behourdis** الفرنسى الذى يقع فى يوم احد السعف . وقد يحل محل المعركة أو النزال ، سباق عام أو سباق للمشاعل .

وكانت طقوس العراك أو السباق معروفة على السواء للعالم القديم ، وتركت طابعها على القصص الكلاسى الدائر حول كادموس واياسون .

وثمة نوع من طقوس المعركة ، هو احتفالات الرجم التى لم تترك تأثيرا فقط فى القصص الذى أشرنا اليه ، بل تركته كذلك فى القصة النوردية عن أوطين وجنلك (*) .

وينبغى لنا أن نضيف كلمة أخيرة الى بعض احتفالات الخريف التى تبلغ ذروتها فى ليلة القديس مارتن ، والتى تدين بوجودها ، الى العادة القديمة الخاصة بنحر الماشية فى ذلك الوقت من السنة ، نظرا الى ان النظام الاقتصادى السائد عند ذاك ، لم يكن يسمح بوجود غذاء للحيوان أثناء الشتاء ، أو قل انه لم يكن يسمح بتغذية أعداد ضخمة من الحيوان فى هذا الفصل .

وكان فصل الخريف ، لأسباب اقتصادية الوقت المعتاد لاتمام الزيجات وهذه العادة تبدو جلية فى السير الشعبية الايسلندية .

(*) يتمادى المؤلف ويتعسف فى ضرب الأمثلة ، الأمر الذى سبق لنا ان نبهنا الى خطئه المنهجى . والعلمى ـ المترجم .

ولقد تشير هذه الحقيقة الى الصلة الوثقى التى لا مفر من وجودها ، عند الجماعات الزراعية ، بين سنة الأعياد بمواسمها وبين حيـــاة أهل القرية .

ويقودنا هذا الوضع الى أن نناقش مختلف الطقوس والعادات التى تشكل الحياة الريفية . فحادثة الميلاد ، برغم أننا لا نستطيع أن نضعها تحت قسم الحادثات الخارجة على المألوف التى تسبب نوازع الفـــزع او الخوف ، الا أنها تتصف بقدر من التفرد والاســـتثنائية يكفى لاثارة هذه النوازع .

وتغرى باتخاذ الاحتياطات المختلفة. فنجاسة الأم شعائريا قد ترتبط بالخوف من المرأة ومن دم « الطمث » .

وهى اذن ممنوعة من ممارسة مباهج الحياة المألوفة ، الى أن تتطهر بأن تقوم بأول زيارة بعد ذلك للكنيسة .

وفى مناطق كثيرة ، وأثناء القرن الثامن عشر فى أوروبا ، كانت الأم ممنوعة من مغادرة البيت الا بعد أن تذهب مرة واحدة الى الكنيسة ، ويفضل أن تكون زيارتها تلك ، يوم الأحد .

وتعتبر هذه الزيارة الأولى للكنيسة واسمها **Les relevailles** فى فرنسا ، عيدا صغيرا فى ذاتها ، وكان ينبغى تقديم هدية للقابلة فى هذه المناسبة . والى أن تتم هذه الزيارة ، تظل حياة الأم معرضة لأخطـار جمة ، تثير الهواجس على نحو من الأنحاء .

فتكون ــ مثلا ــ معرضة لأن يخطفها الجان ويطير بها ، ومن هنا نشأت عادة اشعال شمعة الى جوار سرير الأم . ذلك أن النار ذات فعالية ، تكفى لطرد العفاريت .

ويؤكد العديد من الحكايات أنه من الخير اتخاذ هذا الاحتياط ، وذلك بأن تروى كيف أن الأم اختفت ساعة أن أبعدت عنها الشمعة المنقذة .

ويعتبر الطفل المولود ، معرضا لشتى الأخطار أيضا ، وأكثر هـذه الأخطار ذيوعا ، خطر اختطافه بواسطة العفاريت المشتاقة الى أن تتبناه وتترك فى مكانه . رهينة أو بديلا .

ولعلنا نرى مصداق هذا الظن ، من الجـــرائم الكثيرة التى وقعت

فى فترة حديثة ، وقد تعرض فيها الأطفال لسوء المعاملة ، على أساس انهم رهائن .

والواقع أن الطفل ، لا يعتبر فى أمان ، الا اذا تمت مراسم ضمه الى الطبقة التى ينتمى اليها (أى مراسم تعميده طبقيا) .

والاحتفال المقصود بهذا فى أوروبا على الأقل ، هو التعميد المسيحى ، الذى بينا مغزاه ، فاختلف أشد الاختلاف ، عن التعليل الذى تذهب اليه سائر العقائد المسيحية ، الخاصة بالتعميد .

وكانت الطقوس المتبعة فى عصور ما قبل المسيحية تقضى بحمل الطفل والدوران به حول موقد البيت ، ثلاث مرات بل تسع مرات .

وتستدعى الحادثات الأخرى ، ممارسة عادات أو طقوس أقل اهمية مما سبق ، وذلك حين تظهر أول سن فى فم الطفل ، أو حين يذهب الى المدرسة للمرة الأولى ، أو حين ينال التثبيت الدينى .

أما فى البلاد الاسلامية ، فهناك احتفال آخر ، اكثر أهمية ، ونعنى به حفل الختان ، الذى يدل على انتقال الصبى من طبقة الى أخرى . وتعتبر المجتمعات البدائية ان هذا الاحتفال ، على أعظم جانب من الأهميــة ، فالذين يختتنون ويباشرون الاحتفال الخاص بذلك ، هم وحدهم الذين يعتبرون رجالا ، ويسمح لهم بالزواج بعد ذلك .

أما فى أوروبا ، فقد تلاشت هذه الطقوس ، أو ضعفت تحت وطأة تقدم الحضارة .

وفى العصور الوسطى ، كان الشاب من طبقة النبلاء ، يمر بسلسلة من الطقوس ، التى تشبه الطقوس السابقة فى مبناها ومعناها ، وذلك حين ينصب فارسا .

وهكذا فالعادة التىسخر منها سيرفانيتس ، ظلت تعيش وتضطرد ، فى القارة الأوروبية ، وتمارس فى فرق الحراسة ببعض الجيوش ، كما هى الحال فى أسبانيا مثلا .

ولسنا نستطيع أن نعزل هذا السياق من الأفكار عن تلك الطقوس والشعائر الخاصة بتثقيف الشباب بثقافة الجمعيات السرية ، كتلك التى تزدهر فى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى .

ولقد يبدو لنا أن بعض هذه الطقوس عمل صبيانى بالغ السخف ،

وسبب ذلك أننا تجاوزناه بنضجنا ولكنا حين ننظر الى الأمر نظرة تاريخية فلا تبدو هذه الطقوس على هذا القدر من الصبيانية . فليس من شك فى أن طقوس الحراسة التى مارسها فارس مانشوا فى ساحة القرية ذات الأسوار ، والتى سخرت منها النادرة الموضوعة حولها ، هذه الطقوس كان أساسها اختبار الشجاعة ففى المراحل الأولى من طقوس تعميد الفرسان ـ وهى طقوس تيوتونية أصلا ـ كان الشاب الذى يريد أن يصبح فارسا ، يفزع بنفس الطريقة التى يفزع بها الشاب فى المجتمع البدائى ، أثناء مراسم ضمه الى طبقة الرجال ووراء مختلف اختبارات قوة التحمل مبررات قوية ومن ذلك مثلا أننا لا نستطيع أن نظن أن هنود اوريونوكو Cucugnan ما يصنعون حين يطلبون الى الشاب أن ينام هادئا ليوم أو اثنين فى غرارة محشوة بالنمل قبل أن يسمحوا له بعقد الزواج ، ولعل طقوسا مشابهة تؤدى الى خفض عدد حوادث الطلاق لو أنها طبقت بين الرجال البيض... !

ويعتبر الزواج فى العالم كله خطوة على أعظم قدر من الأهمية فى حياة الانسان وهى كذلك ولا ريب خاصة فى المجتمعات التى يسود فيها الزواج الوحدانى والتى يصعب فيها الطلاق أو يكون باهظ التكاليف .

أما فى الشرق الاسلامى فقد ضعف ذلك بقدر ما تهافتت وضعفت طقوس العذرية فى أوروبا ونحن نلاحظ وجود نفس الظاهرة فى أمريكا المعاصرة .

غير أن الزواج البشرى فى المناطق الريفية الخالصة لم يزل أمرا معقدا يشتمل على مجموعة كاملة من المراسم والشعائر ، وحين يدرسها الانسان يهيأ اليه أن رجال الكنيسة تركوا آثارهم على عدد وافر من العادات القديمة وان العناصر المسيحية والوثنية قد تداخلت بعضها مع بعض بحيث أصبح من المتعذر علينا فى غالب الأحوال أن نميز بين العناصر القديمة والعناصر الجديدة فيها ، لكنا نستطيع أن نقول على نحو عام ، أن هناك خوفين محددين كامنين فى جذور هذه العادات كلها ، والخوف الأول هو الخوف من المرأة التى تضاف اليها صفات خارقة فى المجتمعات البربرية والمتوحشة والخوف الثانى هو الخوف من القوى غير المنظورة والغامضة التى تهدد العروسين فى هذه المناسبة الهامة ، وقد نشأ عن الخوف الأول عادات غربية كفض بكارة العروس بوسائل اصطناعية أو بالاستعانة بغريب على فض بكارتها .

وهذه العادة اضطردت بعد ذلك فصارت العادة المشهورة بحق الليلة الأولى وظهرت كذلك فى نماذج حكايات الجان التى تذكر التوراة احداها ، وأما الخوف الثانى الذى استغرق اندثاره مدة طويلة فكان سببا فى نشوء طقوس الوقاية او دفع الضرر .

ومثاله خمار العروس الذى قصد به أن يدفع عن العروس العين الحاسدة . وكانت الضجة التى يصطنعها الضيوف وفقا للعادة المرعية فى أوروبا الوسطى وفى الليلة الســـابقة على ليلة الزواج ترمى الى طرد الأرواح الشريرة .

وكان الأصل فى خاتم الزواج ـ الذى أصبح رمزا لا أكثر ـ أن له تأثيرا ملموسا على من تستخدمه وعلى علاقتها بشريك حياتها . واقول علاقتها لأن العادة الانجليزية والأمريكية التى تقضى بأن تلبس المرأة وحدها خاتم الزواج تصور مرحلة اقدم ، أما العادة المنتشرة فى قارة أوربا والتى تقضى باعطاء خاتم لكل من الزوج والزوجة فعادة مستحدثة نشأت بعد ذلكمن الفكرة القائلة بأن الزواج عقديفرض التزامات متكافئة على الطرفين المشتركين فيه ، وهذه الفكرة لم تكن تخطر على بال المجتمعات القديمة ، وهكذا يبدو تطور العادة السابقة موازيا لاشتقاق كلمـــة (متأرمل) وما يرادفها من كلمات فى اللغات الأخرى ، فهذه الكلمات جميعا مشتقة من كلمة أرمل Widow ، وهى الكلمة الأصل لأن موت الزوج كان يفرض على الزوجة التى تعيش بعده التزامات معينة على حين لم يكن موت الزوجة يفرض على زوجها شيئا من هذا ولذلك ميز الزوج الذى تموت زوجتـــه نفسه عن سائر ذكور المجتمع ولم تكن ثمة كلمة أخرى تستطيع أن تحدد وضعه بالدقة .

والمثل الذى سقناه لا يعطينا الموازنة الوحيـــدة بين الزواج والموت وتعتبر الشعائر الأخيرة التى تؤدى نحو الكائن البشرى مساوية فى أهميتها للشعائر التى تصاحب زواج رجل وامرأة ولا نزاع فى ان غموض الموت يكفى لاعطاء هذه الشعائر طابعها الخاص .

والحق أننا نستطيع أن نستخلص عددا من الأفكار الرئيسية من عادات الجناز التى تواترت فى مختلف انحاء المعمورة ولعل أعمها ذلك الظن بأن الجثة نجسة شعائريا وأن الموت يضفى النجاسة الشعائرية على كل أعضاء العائلة ، وهذه الفكرة هى الأساس فى عقائد الموتى ولذلك نجد أن

هناك طقوسا خاصة مفروضة على الأحياء ينبغى أن يمارسوها قبل أن يطمعوا فى معاودة الاتصال الطبيعى بالآخرين من أعضاء الجماعة .

وتتعلق النجاسة ذاتها بممتلكات الميت وأشيائه الخاصة وبثيابه على نحو أخص ، وقد أدى هذا الظن الى تدمير ممتلكاته بعد موته أو أهلاكها ، تلك العادة التى ما زالت الشعوب البربرية والمتوحشــة تراعيها حتى الآن . بل لا يزال الأوروبيون والأمريكيون الى يومنا هذا لا يقبلون فكرة ارتداء ثياب الموتى .

وهناك ظن احدث عمرا وان كان بدائيا لا نزاع وهو الظن بأن الموتى يحسدون الأحياء ولذلك يطاردون ليس فقط أعداءهم السابقين — وهو أمر متوقع — بل انهم يطاردون أصدقاءهم وأقرباءهم ايضا .

وهذا الظن هو الأساس فى الاعتقاد بتحول الانسان الى مارد مصاص للدماء وقد سبق لنا أن ناقشناه فى فصل آخر . ثم كان هذا الظن ذا أثر فعال فى نشوء العديد من الشعائر الجنائزية التى انتشرت ايما انتشار وكان منها الألعاب الجنائزية التى قيل فى تفسيرها فى زمن من أزمان الحضارة النامية ، انها تكريم آخر يضفى على الانسان الميت ، لكن الحقيقة هى أنها نشأت مع المعارك الهازئة التى أريد بها غرض جاد هو أن تفزع الشياطين وتطردها بعيدا .

وفى المجتمعات المتوحشة يقع واجب أداء المعارك الهازئة على كاهل أقرباء الميت ثم تطور الأمر وصارت هذه المعارك تؤدى بواســطة اناس يؤجرون عليها وهذه العادة هى أساس معارك المصــارعين الرومانيين لا نزاع فى هذا .

ونصل الى مرحلة حضارية أكثر تقدما حين يعتقد انه ينبغى استرضاء الموتى وليس تفزيعهم وطردهم ، وقد يكون الاسترضاء جافيا ومثاله أن يضحى لشبح الميت بما كان يملك من أشياء بما فى ذلك من نساء وعبيد ، وقد يكون الاسترضاء أكثر تهذيبا ومثال ذلك ما كان يحــدث فى بلاد تيوتونية — عديدة أثناء تاريخها المعلوم حين كان يخصص لشبح الميت مقعد الصدارة فى الحفل الجنائزى .

وينبغى أن نعتبر من طقوس الاسترضاء تناول الطعام عند قبر الميت وتلك عادة حرمها القديس اندروز لكنها ذاعت بعد وفاته فى بلاد أوروبية كثيرة وخاصة بين السلاف .

وهناك عادة وثيقة الاتصال بهذه الممارسات ونعنى بها عادة اعطاء الميت قطعة من النقود أو وضع هذه القطعة فى فمه (*) .

كانت تلك العادة شائعة فى بلاد البحر الأبيض المتوسط أثناء عصرها القديم ثم ظهرت هذه العادة أثناء العصور الوسطى والحديثة فى مناطق لم تبلغها قط الفيالق الرومانية .

وينبغى أن نعتـــرف صادقين مع انفسنا اننا لا ندرى الطـــريق الذى سلكته هجرة هذه العادة وان كان من المؤكد انها نشأت فى أعقاب استخدام العملات النقدية اى انها ظهرت أول ما ظهرت فى بلاد البحـــر الأبيض المتوسط ثم هاجرت منها فى مختلف الاتجاهات وواكبت استعمال النقـــود .

والتفسير القديم لها وهو أن شارون كان يجمع النقود ليدفع أجر عبور النهر ليس الا نوعا من أنواع القصص الشارح ولقد سخر منه لوسيان Lucian سخرياته البهيجة ، وانا أعتقد ان قطعة النقود هى آخر بقية من ممتلكات الميت وكانت ذات يوم تعطى له بعد موته أو تدمر بعد انتقاله الى العالم الآخر .

أما الصينيون وهم أقل ميلا الى التجارة من الأوربيين وان لم يكونوا أقل منهم حذقا فى امور الدنيا ، فقد آثروا أن يمثلوا حرق ممتلكات الميت بأن يحرقوا عملة من النقود صكت عليها صـــورته وهى طريقة اقتصادية جدا .

ونحن نعرف القليل عن المعنى الأصلى لاعطاء حذاء للميت .

وأما القصص الشائع عن الطـــرق غير المعبـــدة فى العالم الآخـــر التى تشبه طرق الولايات الوسطى الأمريكية اذا صدقنا ما زعمـــه قسيس (ككجنان) Cucugnan من أنه ســـار فيهـــا بنفسه ــ هذه القصص ذات طابع تفسيرى أو شارح ، ولا يسعفنا فى حل هذا اللغز أن نقول أن الحذاء رمز معروف للخصوبة .

وهناك ممارسات لم تزل جارية هدفها أن تمنع شبح الميت من أن

(*) كان أهل بعض القرى والمدن الصغيرة فى مصر ــ الى سبعين أو ثمانين سنة خلت ــ يضعون قطعة نقود فى يد الميت ــ المترجم .

يعود الى مسكنه السابق . ولذلك ينبغى أن تدفن الجثة خارج البيت بطريقة خاصة وان ييسر لخروج الروح من الجسم بطرائق شتى ، وان يحمل شخص آخر عن الميت ذنوبه فكما يحدث ذلك فى حالة آكلى الذنوب . ونحن لا ننصح ولا نجد من الضرورى أن نحاول الاستقصاء خاصة وان ما اذاعته المطابع عن هذه العادات ليس كافيا .

بيد انه من المهم منهجيا أن نلاحظ أن هذه العادات وان اتجهت الى الاندثار والزوال فى حالات الموت العادية . الا انها ستعيش طويلا فى حالاته غير العادية ، ومنها الانتحار والقتل وموت المرأة فى مخاضها ، وكلها تبدو مفزعة رهيبة . فعادة حمل الجثة الى خارج البيت من فتحة خاصة حتى لا يعرف شبح الميت طريقه ، قد أصبحت عادة مندثرة فى أوربا بالنسبة لحالات الموت العادية ، لكنها مازالت باقية الى يومنا هذا تعيش فى قلب الحضارة بالنسبة لحالات الانتحار .

ومن الأمور الغريبة للغاية تلك المعاملة التى يلقاها هنا وهناك شخص يعتقد انه مات ثم يظهر فجأة أنه على قيد الحياة ومثل هذا الشخص نحس كما كان يسمى فى بلاد الاغريق القديمة يعتبر غير طاهر من حيث المراسم وينبغى له فى حالات عديدة أن يمر بطقوس معينة تشبه الميلاد من جديد وذلك قبل أن يسمح له بأن يخالط الأحياء .

وهناك طقس يشبه الطقس السابق كثيرا من حيث المضمون والمغزى ويرتبط بممارسات التبنى وهذا الطقس كالسابق أيضا مبنى على أنه يشبه الميلاد الجديد . ذلك أن الشخص المتبنى اما أن يسحب من تحت عباءة أو دثار الأم أو انه يتظاهر بانه ذاق لبنها .

وينبغى أن نعتبر من طقوس التعميد شعائر التتويج المختلفة فى البلاد التى مازالت فيها التقاليد قوية حية مثل بريطانيا العظمى واليابان . فالتتويج الملكى مثله مثل طقوس الاخصاب وطقوس الزواج البشرى خاصة هو بمثابة تقديم شخص وضمه الى طبقة اجتماعية جديدة ، والصلة بين هذه الطقوس قوية حتى ان بعض حالات الزواج تتسم بصفات من صفات التتويج ويكفى أن نذكر تاج العروس وصلته بالتاج الملكى .

ومن طقوس الانتقال اجتماعيا شعائر الختان التى نشأت كما هو معلوم ليس فقط بين اليهود وقدماء المصريين بل ما تزال موجـــودة حتى اليوم بين الكثير من الشعوب البربرية والمتوحشة . ولما كان الختان

يقع عند بدء البلوغ فمن الواضح اذن انه قد أريد به ان يميز الرجال عن الصبية فى عشيرة من العشائر .

اما الطقوس الخاصة المتعلقة بدفع الضرر والتى تؤلف النوع الثالث فهى بطبيعتها نادرة وهى أشد تأثيرا مما سبق خاصة بالنسبة للغريب ذلك أنها تمارس عند حدوث حادثات سيئة الطالع فى العادة توقع الضرر بالمجتمع البشرى وتستدعى اتخاذ اجراءات لازمة ، وفى مقدمة هذه الكوارث انتشار الوباء بين الناس أو الحيوان ومن الشعائر التى كانت تتبع فى الأزمان الغابرة والتى ما تزال جارية حتى اليوم فى أوربا الشرقية أن يخطط حول القرية بسن المحراث ولما كانت كل قوى السحر تنشط فى الليل لذلك ينبغى أن يتم الحرث ليلا وهناك ملمح اضافى فى هـــذه الشعائر ، هو انه ينبغى أن يجر المحراث نساء عاريات من الثياب . ونحن نجد نظائر لصفة قداسة العرى أى لقوتها وتفوق سلطانها على قوى الشر فى شتى أنحاء الأرض .

واقد يحقق ذات الغرض اى طرد الوباء اجراء مراسم نار الحاجة وهى المراسم المعروفة فى أوربا من أدناها الى أقصاها ومعروفة فى آسيا وافريقيا بالمثل وخلاصة هذه العادة أن توقد نار خابية وتساق الماشية من خلالها بينما تخمد سائر النيران فى القرية ، ثم توقد هذه النيران من جديد من نار الحاجة .

وقد ثبت مؤخرا ان الأسطورة القديمة الدائرة حول نساء لمنيان مشتقة من هذه الشعائر وان قصة العصور الوسطى عن فرجيل الساحر الذى أخمد النيران جميعا ، وأجبر أهل المدينة على أن يشعلوا نيرانهم من بقعة واحدة بعينها ، تقوم على أساس مماثل .

وأما طقوس اخراج جثة من المقابر ، على اعتبار أنها « مصاصة للدماء » ثم حرقها فتقوم على شعائر أخرى كانت ترمى الى وقف انتشار الوباء وهذا هو ما تفسره لنا النظرية الهمجية عن مص الدماء . وكانت هذه الطقوس حتى زمن متأخر مزدهرة فى بلاد اليونان وجزر بحر ايجة . وبرغم فجاجتها هذه ، الا أنه كانت قد سبقها ممارسات أخرى أشد بدائية منها ، ومثلها تمزيق جثة الميت اربا اربا ، بغية منعه من أن يصب جام غضبه على الأحياء . ومن طقوس الاسترضاء ، تضحية كائن بشرى ، باعتبار أنه رسول لدى قوى العالم الآخر .

وكثيرا ما تعطى الرسالة له ثم تعاد تلاوتها همسا فى أذنه بعد الموت ، طلبا للسلامة ولا نزاع فى أن هذه الطقوس الغريبة ، تؤلف جزءا من الأساس الذى تقوم عليه الخرافة النوردية التى تحكى لنا كيف أن أوتين همس فى أذن بولدر الميت برسالة لم يعرفها أحد غيره . وتعتبر ممارسات الاستشفاء التى سبق لنا أن ذكرناها فى سياق الحديث عن أحلام الرؤى والنبوءات ، من الممارسات ذات الطبيعة الشخصية ، ذلك أنها تتبع للاستشفاء من مرض واحد . وكانت تلك العادة فاشية فى العالم القديم ، وكان مركزها فى العصر الهيلينى ، هيكل اسكلبيوس Asklepios فى أبيداوروس Epidauros وعندما تلاشت الوثنية — من الناحية النظرية على الأقل — أخذ القديسون المسيحيون على عاتقهم تلك الواجبات التى كان الآلهة والأبطال يضطلعون بها . وهكذا تحول هيكل التوأمين المنقذين — فى القسطنطينية الى ضريحى القديسين كوزماس وداميان ، وكلاهما طبيب بارع ، ونطاسى معروف ، شأنهما فى ذلك شأن أبناء لدا Leda وازدهرت ممارسات الاستشفاء فى الكنيسة ازدهارها فى الهيكل . وليس هذا المثل بمثل مفرد . وقد يكون غريبا أن نلاحظ فى هذا الصدد كيف ساعدت ممارسات الاستشفاء على نشوء خرافة مسيحية كانت ذائعة فى العصور الوسطى .

يقال أن زوجة بيلات قد توسطت عند زوجها من أجل المسيح — الرجل العادل — الذى عانت من أجله أشد معاناة فى الليلة السابقة . وكان وراء ذلك سلسلة من أحلام النذير ، أو الأحلام المشئومة ، وهى البضاعة النافقة فى المآسى الكلاسيكية .

وكانت كلمة « يعانى » تفسر فى مطالع العصور الوسطى — أن لم يكن قبل ذلك — بطريقة تحتمل الاشارة الى أن زوجة بيرات كانت مريضة ، وتشير الى ممارسة أخرى خلاصتها أن اليسوع قد شفاها بأن ظهر لها فى المنام ، كما كان يظن أن اسكلبيوس والتوأمين ، يظهرون للمريض فى حلمه ، فيشفونه على الفور ، أو يدلونه على دواء لمرضه .

وأما القحط — أو نقص المحاصيل — فيستوى مع الوباء فى خطورته على المجتمعات البدائية . ومن هنا كانت أعمال سحر المطر ، المنتشرة فى أنحاء الأرض ، وحيثما تلعب الزراعة دورها فى الحياة الاقتصادية مهما كانت متواضعة ولدينا طقوس أخرى ، ذات طبيعة وقائية ،

كاحتساء الخمر حول أشجار الفاكهة ــ وهى عادة سبق لنا أن ذكرناها ، أو كشعائر الحصاد المختلفة ، التى يؤدى معظمها ، بهدف وقاية المحصول الجـديد .

ويلحق فزع غريب بأول شىء نقوم به ، أو أول شىء نتلقاه ، وينبغى اتخاذ الوقاية اللازمة لدفع كل شر يمكن أن يقع .

هذا الظن يفسر لنا ، ذلك الاحتفاء بأول خيط من ألياف القطن أو الكتان ، الذى ما لبث أن وهب للآلهة غير أن الخوف ، كان قد ظهر قبل أن يفكر أى انسان فى الآلهة .

ثم لدينا هذه العناية الخاصة التى تمنح لأول مولود ، تلده الحيوانات أو الكائنات البشرية . وقد أدى هذا الظن الى التضحية بأكبر المولودين سنا ــ وهى عادة همجية ، بقيت منها آثار واضحة فى قصص التوراة ، برغم كل ما تبذله الكهنة من جهود لمحو هذه الآثار .

وهذا الظن ، وراء الكراهية التى يبـــديها من يؤمنون بالأوهام والخرافات ، حين يكرهون أن يكونوا أول من يدخل بيتا جديدا ، أو حين ينفرون من أن يكون أحد أقربائهم من الموتى أول من يدفن فى مقبرة جديدة ولقد نشأت عادة سكب الخمـــر أو الزيت على الأرض تكريما للآلهة ، من مثل هذه المعتقدات . واذا كان وضع الأول خطرا ، فوضع الآخر لا يقل خطورة . فالقول السائر يقول « الشيطان يأتى فى المؤخرة » ومن المحقق ، أن بعض الشعائر تستوجب التضحية بمن يأتى آخرا . وما تزال هذه العادة ظاهرة فيما ترويه الخرافة الايسلندية عن مدرسة الشيطان ، حيث يعتبر آخر المريدين من حواريى ، اله الشر ، ويتفوق عليه سايموندر الذكى . واذ نصل الآن الى الوسائل المستخدمة فى هذه الطقوس ، نرى أن النار بخاصة ، تعتبر أقوى وسائل التطهير ومن هنا نشأت نار الحاجة ونار القديس جون .

ولا يقل الماء ذيوعا عن النار فى طقوس الطهارة . وكان الماء يعتبر فى العالم القديم خير وسيلة تطهير القبائل من ذنبه ، أو قل ، من الغضب الذى كان يظن انه يعلق به .

وكان من حق الفرنسى اللبيب أن يقول « من مفارقات الأمثال أن يمحو الماء اثر الجريمة » .

وكان المرور تحت النير ، وسيلة جيدة ، ونحن نعرفها من حوليات التاريخ الرومانى وكان الظن أن الجنود ينسلخون من نجاسة وعفن قتل الرجال ، حين يمارسون هذه الطقوس . وذات المعتقدات يختفى وراء الرعاية القديمة للتماثيل والانصاب التى يظن أنها خطيرة ، وينبغى أن تقام فى هياكل خاصة وقد نشأت طقوس الطهارة المعروفة فى نظم دينية مختلفة، من شعائر التطهير .

ولقد شاهد بترارك هذه الشعائر ودون ملاحظاته عنها ، حين كانت تمارس فى كولونى عاصمة ألمانيا الأكليروسية . وتعتبر بصـــفة الانسان ذات قوة دافعة للضرر ، ولذلك تشيع عادة البصق لرد عادية النذير بالشؤم ، أو لدفع حد العين الحاسدة أو اثر اللعنات .

ولا تقل الضجة والروائح الكريهة ، فى تأثيرها عما سبق ، وذلك من حيث قدرتها على رد الأرواح الشريرة ، وابطال اثر الأعمال السحرية . وترمى أجراس كاهن اليهود ، وأجراس الكنائس فى العصور التالية ، الى تحقيق هذا الغرض ذاته .

ولم تندثر بعد من بعض أنحاء أوروبا عادة قرع نواقيس الكنيسة ، لتبديد جائحة العواصف . وثمة مسألة هامة ، لم نستطع بعد أن نرد عليها ردا شافيا ، وهى مسألة انتشار العادات والطقوس . فهل ترانا نفترض انها نشأت ، مستقلة احداها عن الأخرى أم ينبغى أن نرى أنها انتشرت جميعا من مركز واحد ؟ ولقد يحق لنا أن نسلم ــ فى غير تردد ــ بوجود الاحتمالين كليهما . ولقد تظهر الاختلافات بين الآراء حين نحدد هذا الأمر بالنسبة للحالات الفردية .

ويترتب الكثير على طبيعة العادة أو الطقس .

ولا شك فى أن الطقس الزراعى الذى لم نكتشف بعد سوابق له ، لا نستطيع أن نفصله عن تاريخ الزراعة . ومعنى هذا أن كل الطقوس الزراعية الخالصة التى لا نستطيع أن نفسرها على أنها تحوير لشعائر أقدم منها كانت متداولة فى مراحل صيد السمك والحيوان ــ هـــذه الطقوس لابد وأنها وصلت الى منطقة ما أبان ظهور طرق الزراعة فيها .

ويؤكد هذا الراى ، ما يقال من أن الزراعة لم تخطــــر على عقل الانسان فى شكل اجراءات عقلية بل خطرت له فى شكل سلسلة من

المراسم السحرية ، التى كان من المعتقد ، ان كلا منها يحقق تأثيرا معينا . ثم صارت هذه المراسم تلقن أو تؤدى ، مع الزراعة ذاتها . وسيبقى موضوع شك ، ما اذا كان انتشار مشابه قد أصاب سائر العادات والطقوس ولعلنا نفترض حدوث تقارض للعادة أو الطقس ، فى أزمان سابقة ، غير أننا نستطيع أن نحصل على ادلة حاسمة فقط حين نطبق منهج رسم الخرائط الفولكلورية ، وحين نعلم علم اليقين مجال كل عادة وكل طقس .

ولعلنا نرجو أن تحقق فائدة هذا المنهاج ، وقبل فوات الأوان ، الجمعيات الجغرافية والأثنوجرافية ولعلنا نرجو ان يبدأ بعمل ويصل بنا الى نتائج بعيدة المدى .



السحر

● السـحر :

صلة السحر بالعلم ـ منطقه المغلوط ـ بدائية العلم .

انواع السحر : السحر التوافقى والسحر التعاطفى .

ممارسات السحر . طب الركة ـ الرقى والتعاويذ ـ قداس الشيطان ـ القراءات الانجيلية المقلوبة ـ السحر والعرافة ـ وخواص أصحابها ـ استطلاع الغيب ـ الأدوات السحرية ـ الصور والشخوص ـ منظومات سحرية . استخدام أسماء الجان والأرباب الوثنية ـ قوة الاسم ـ قوة الكلمة السحرية .

الكهانة والسحر ـ الصولجان وعصا الساحر .

السحر

تستوى العلوم التاريخية والعلوم الطبيعية فى أن المنطق أساسها جميعا فالمنطق ملكة العقل البشرى تنسق بين ظاهرات العالم الخارجى، طبقا لقواعد الاستقراء . ولهذا نقول أن العلم ينتهى حيث ينتهى المنطق، وأن كل ما لا يتسق مع المنطق ، خارج على العلم .

غير أن السحر يقوم كذلك على نوع من المنطق ، ولعلنا نراه ـ من هذه الناحية على الأقل ـ قريبا من العلم .

لكن المنطق الذى يستند السحر اليه منطق مغلوط ، لأنه يقوم على علاقات عارضة تطرأ ثم لا تلبث ـ عند التمحيص ـ أن تبدو لنا غير موجودة فى الحقيقة .

وعلى ذلك ، فالسحر ، بدائية للعلم . وذلك من حيث أن منطقة بدائية المنطق الذى تأسست عليه الأعمال العلمية .

بيد أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن يأتى العلم تاليا للسحر ، دائما . فقد يتعايش السحر والعلم معا ، ليس فى المجتمع الواحد (مما قد لا يكون أمرا شاذا) بل لعلهما يتعايشان معا فى عقل انسان واحد . وذلك طبقا لما يتبنى هذا العقل من منطق ، يقوم على الحقائق اليقينية المقطوع بها . أو يقوم على احتمالات مفترضة غير ثابتة ، لا نستطيع أن نجزم بصحتها ولا نستطيع أن نقطع ببطلانها .

ويجوز أن نقسم أنواع السحر ـ بعامة ـ الى نوعين الأول ، نسميه « السحر التعاطفى » ويفترض منطقه وجود علاقات ، لا تكون موجودة فى الواقع . فاذا رفض رعاة الماشية فى شرق أفريقيا أو الاسرائيليون القدماء أن يغلوا اللبن ، خيفة أن يضر ذلك بالبقرة ، فليس من حق أحد أن يرميهم بانعدام المنطق ، ذلك أن لهم منطقا « مغلوطا » ـ مؤداه الافتراض أن اللبن كان جزء لا يتجزأ من البقرة ، ولم يبرح جزء منها ، فأى عارض يصيب اللبن ـ كالغلى مثلا ـ يصيب البقرة بالمثل .

واذا حرص الرجل المتوحش على أن يدفن خصلة شعره وقلامة ظفره ، حتى لا تقع فى يد ساحرة فتعقد عليها عملا سحريا يضر به ، فان هذا الانسان يفترض انه لما كان الشعر والأظافر جزء لا يتجزأ من جسمه . وحيث أنها كذلك لا تزال ، فان أى « فعل » يقع عليهـــا ، سيكون له « رد فعل » يصيب جسمه هو .

وأما النوع الثانى فيسمى بالسحر التوافقى أو المثلى(الهوميوباتى(*)ــ وقد يفسره المثل اللاتينى القائل أن « المثل يبرىء المثل » فاذا أردنا أن نسقط المطر ــ مثلا ــ كان علينا أن نصب الماء على اساس أن هذا الفعل سيحدث مثيله .

وتنطوى كافة أعمال السحر تحت أى من هذين النوعين ، فاذا انتقلنا من هذه الجوانب النظرية الى ممارسات السحر ذاتها ، أذهلنا أن مراسم السحر منتشرة فى سائر مسالك الحياة ، ولا مجال للحديث عن استقصاء هذا الميدان الواسع جدا ، وينبغى لنا حتما ان نكتفى بالقاء نظرة عليه وأن نضرب بعض الأمثلة من الفولكلور المعاش فى زماننا ، والقليل من شواهد الكلاسيات .

وقد سبق لنا أن اشرنا الى سحر المطر على اختلافه ، وكله يقوم على السحر الهوميوباتى ، ومنه عاصفة البرق الخيالية ، المنسوبة الى الملك سالمونيوس القديم .

واذا قفزت العذارى الفلاحات ورقصن فى فصل بذر الكتان ، فالفكرة الكامنة وراء هذا ، انهن يرغبن فى أن ينمو نبات الكتان الى الارتفاع الذى بلغته فى قفزاتهن .

واذا ضاجع رجل امراة بين خطوط حقل جديد الحرث ، فالغرض من ذلك ، أن يكون للفعل الذى ذكرناه ، أثره الفعال فى خصوبة الحقل ، ووفرة نباته .

والمقصود من سباق المشاعل ــ وهو مهرجان زراعى فى جوهره ــ أن

(*) Homoeopathic مأخـــوذة من كلمة Homos الاغريقيـــة ومعناها « المثل » أو « النظير » وكان هاهنمان أول من اســـتخدمها للدلالة على طريقة العلاج (التطعيم) بأمصـــال ، تحـــدث ظواهر شـــبيهة بظواهر المرض الأصـــلى المراد علاجه ــ المترجم .

يؤدى الى الاسراع فى نمو النبات ، لأن السرعة هنا ، مستفادة من اندفاع النار ، وجرى المتسابقين .

وينسب الى السنبلة الأخيرة ـ وبسبب انها آخر السنابل ـ أن لها خاصية متفردة . ولذلك ينبغى استبقاؤها ، وادخالها فى بذور القمح للسنة الجديدة التالية حيث يظن أنها بذور ملقحة .

والشقة ليست بعيدة بين مراسم الحقل ومراسم الحياة المنزلية للفلاح . فأمراضه وأمراض عائلته ودوابه ، تعالج بأدواء كتلك التى لا يرسم حدودها علم الطب الحديث بل يرسم حدودها منطق السحر (المثلى) الهوميوباتى . واذا تصادف وكان للدواء خاصية طبية صحيحة ، ظهرت فائدة الظن الخرافى ، واذا لم يكن الأمر كذلك ، حقق الايمان ـ قدرا من النتائج ـ أن لم يحقق المعجزات .

ومن الحماقة ان نقلل من قيمة هذه النتائج ، فى زمن تتكاثر فيه الأدلة على طبيعة القوى النفسية .

غير أن هذا النمط من التداعى ، جدير بأن يبرز فى سائر الرقى ، التى تبدأ ـ دون استثناء ـ بأن فلانا (ويكون وليا أو الها فى العادة) فعل كذا وكيت ، وبهذا يشفى المرض .

ولقد ترك هذا التداعى العجيب أثره فى كثير من تعاويذ العصور الوسطى المتعلقة بالمقدسات المسيحية . فاذا عددت أعمال يهوه المجيدة (كما ذكرتها التوراة) فى عبارات مناسبة ، كان الهدف الأول من وراء ذلك أن تذكره تذكيرا رقيقا ، لكى يصنع فى الحالة الراهنة ، مثلما كان يصنع .

وليست الأمراض ، هى وحدها الكوارث التى يثبت السحر فائدته فيها . فالنار المشبوبة ، يمكن أن تخمدها الأفعال السحرية ، وتكون عبارة عن مراسم الدوران حولها ، والهمهمة أو الغناء بالرقى والتعاويذ .

وهناك قصص اسطورى كثير يصور مثل هذه المحاولات ، وقد ينتهى بمصرع الساحر الجرىء ذلك أن ألسنة اللهيب وقد اغضبها محاولة اخمادها (والنار فى الظن البدائى تعتبر كائنا حيا) تندفع وراء الساحر لتدميره ، وينبغى أن يكون حصانه سريعا حقا ، لكى يستطيع أن ينجيه من غضبتها .

وهناك تعاويذ أخرى ، يراد بها وقاية الجار من الهوام السامة

ويستطيع القارىء أن يتذكر بسهولة القصة الأسطورية الألمانية الدائرة حول زمار هاملن وليس ذلك كل شيء . فمن المستطاع القاء القبض على اللصوص ، عن طريق الاجراءات السحرية الخالصة وقد تكشف الساحرات ويحبط تأثيرهن .

ولقد ينزل الضرر بالعدو .

ومما يثير الانتباه أن نلاحظ العلاقة الوثيقة بين طقوس ديانة متقدمة والطقوس السحرية التى قد يؤديها السحرة أو الساحرات .

والحق أن بعض القرابين كالعشاء الربانى والتعميد ، وهى السحرية فى أساسها ، ما تزال كذلك عند الكثرة من الناس ، ولقد فشلت محاولات الكنيسة فى أن تملأ الأوانى السحرية القديمة ، بالنبيذ الجديد للعقيدة الأخلاقية ، والتصور الرفيع للمقدسات .

ولقد يحق لنا أن نتساءل صراحة هل كانت المسيحية تنجح فى كسب جماهير الامبراطورية المنهارة الى صفها ، اذا هى فرضت حظرا كاملا ، على العناصر السحرية التى كانت قسمة مشتركة بينها وبين ديانات الغوامض فى الشرق الأدنى ؟

وبصرف النظر عن هذه المشكلات ، فكثيرا ما تشوه القرابين المسيحية كالقداس لخدمة اغراض سحرية وفاسدة ، كما قد يصنع بعض المصليين المسيحيين .

وأنا أشير ــ على سبيل المثال ــ الى ما يسمى بقداس الشيطان الذى يقال بناء على طلب يلقيه كاهن كاثوليكى شرير ، بغــــرض انزال الضرر أو الموت برجل لا يكون ، على صلة طيبة بالشخص الذى طلب القداس .

ولا جدال فى أن كبــــار رجال الأكليروس ، واهل الساطة الكنسية يستنكرون هذه الأعمال ، التى يقال ــ برغم ذلك ــ أنها ما تزال ذائعــة فى جنوبى أوروبا .

ويشبه ذلك من حيث الأساس ، هذا التقليد الذى يراد به تحقيق فاعلية السحر ، بالقراءة المقلوبة للصلوات الربانية وهو تقليد شائع فى البلاد الكاثوليكية والبروتستنتية سواء بسواء .

والفكرة المتضمنة ــ وهى أن العبارات الدينية اذا قرئت مقلوبة ، كانت ذات تأثير سيىء ــ فكرة قديمة بلا نزاع . فالزواج الرومانى المعروف

باسم كونفراسيو Confarreatio وهو زواج بطارقة الرومان القديم ، ما كان لينفصم بما نسميه الآن بالطلاق طبقا للقانون المدنى ، بل كان ينفصم باجراء شعائر كانت تسمى شعائر التفريق ، وكان الانفصال يعتبر شؤما على الزوجين اللذين يستخدمانه .

والاختلاط الغريب بين الدين والسحر يثير مشكلة الاعتقاد فى العرافة أثناء العصور الوسطى .

وعندما تبين يعقوب جريمة ، فى الجزء الأول من القرن الماضى ، تيارين يؤلفان هذا المجال ، من الهوس البشرى ونعنى بهما الموروث الوثنى ذى الطابع التيوتونى والموروث المسيحى ـ أو قل أنهما ـ عند التحليل النهائى ـ الحكمة الشرقية وحكمة البحر الأبيض المتوسط ـ عندما فعل جريمة هذا ، كان مصيبا فى رأيه وما تزال تفسيراته سائغة فى معظمها .

وما ينبغى أن تستدركه عقولنا فحسب هو أنه ليست كل حالات العرافة المذكورة فى المراجع السكندينباوية ، تيوتونية أصيلة ، بل ينبغى أن نعترف بوجود الكثير من العناصر الكلتية والشرقية (التالية للمسيحية) وان جريمة واتباعه المباشرين ، لم تتوفر لهم الا معرفة قليلة ، بمختلف الشيع الغنوصية التى كانت تزدهر تحت سطح المجتمع الاقطاعى بالرغم من سائر أنواع الاضطهاد .

ولا نزاع فى أن الايمان بقوة الضرر التى يتصف بها العرافون ، أقدم من ذلك ، كما أن هذا الايمان يرجع ـ بلا ريب ـ الى العصور الهنداوروية وحسبنا ترنيمة الكراهية الملتهبة المذكورة فى الرجفيدا والأثر فافيدا التى تهيب بالاله أندرا والاله سوما ، أن ينزلا بهم الدمار .

وسأحصر فى الفقرات التالية ، على نحو مقتضب ، أهم القوى المنسوبة للعرافة ، قديمها وحديثها .

ومن اكثر قواها ذيوعا ، قدرتها على الطيران ، وهى القدرة التى يتقاسمها مع العرافات ، آلهة الاوليمب ، والملائكة المسيحيون ، والطبقات المختلفة من غمار المردة الهندوكيين .

وتبعا لذلك ، كان الاتهام المألوف الموجه الى عرافات العصور الوسطى ، انهن يطرن فى يوم راحة العرافات .

وعندما قال قاض انجليزى ، بلهجة التندر ، لامرأة عجوز اعترفت

بخطيئتها انه لا يوجد قانون يعاقب على الطيران ، كانت « النكتة » تعنى أن القرن الثامن عشر ، كان يرى ، كما كان يرى القادة المستنيرون فيما بعد ، من أمثال جون وسلى أن التخلى عن الاعتقاد فى العرافة ، تخــل عن التوراة .

ويتصل بهذه القوة اتصالا وثيقا ، القدرة على منح الجمادات حياة ، تجعلها تخدم اغراضا نافعة أو اغراضا ضارة .

وكانت عرافات العصور الوسطى اللاتى يركبن عصى المكانس ، ومقارع الأنفــام ، محترفات بالمثل . وفى شمال أوروبا ، وبين أهل اسكنديناوة تذكر مراجع العصور الوسطى ، النظام الغريب الذى كان يسمى بنظــام « الرسول » وذلك أن تعلم العرافة جمادا مثل العظمة أو كتلة الخشب ، بحرف من حروف اللغات الدارسة التى كانت ذائعة فى شمال أوروبا ، وتهمهم ببعض الرقى ، فاذا قذفت الرسول الى المياه مضى تلقائيا الى الوجهة التى ارسل اليها ، ولو كانت ضد التيار ، وانزل الضرر بالشخص المقصود به .

والمثل الكلاسى ، على هذا النوع من السحر الغريب ، يرد فى سيرة جريتس الايسلندية وقد حمل السكنديناويون هذه الممارسة الى جزيرة جرينلاند حيث لا تزال معروفة حتى اليوم عند بعض قبائل الاسكيمو ، وذاك شاهد جيد على كيفية هجرة عناصر الفولكلور من شعب الى شعب.

وكان الاصطلاح النرويجى للسحر والعرافة هو Seior وكان الساحر أو العراف يسمى Seior-man ويروى عن الملك النرويجى هارولد فيرهير انه قضى على عدد كبير من هؤلاء السحرة . ولو انه لم يكن يدين بالمسيحية، الأمر الذى يلفت النظر الى أنه من التهافت العلمى أن نضع لوم اضطهاد السحرة كله على كاهل الكنائس ، فلا يلقى على الرأى العــام الغبى ، بأى لوم .

وكان المعتقد أن يستطيع الساحر النرويجى أو العرافة النرويجية أن تجعل الأشخاص خفيين بتغيير هيئتهم وبنيتهم (*) .

(*) يستعير المؤلف اصطلاح التحول الفيزيقى من الجيولوجيا للدلالة على التغيير الذى يصيب هيئة الانسان وجسمه .

ولا تفتقر السير العائلية القديمة الى قصص من هذا النوع .

أما السحابة السحرية التى عرفتها السير العائلية المحدثة ، فليست نرويجية أو تيوتونية ، بل هى مأخوذة من فكرة الغمامة الدرودية الوثنية الذائعة فى السير العائلية الايرلندية ، بل لم تكن الموسيقى السحرية مجهولة فى اسكنديناوة ، وقد روت بعض السير العائلية المتأخرة ، كيف أن عرافا استطاع أن يرقص ـ بموسيقاه ـ كل الجمادات والكائنات الحية الموجودة فى القـــاعة .

ويجب أن نقول ان هذا المثل أدخل فى القصص الموضوع منه فى العقيدة الجارية ، ذلك ان العنصر الجزئى المذكور ، عنصر حـلولى يتبـــدى فى كل مكان .

وفيما يخص المادة الكلتية ، تنشأ المشكلة ذاتها ونعنى بها مشكلة الفصل فيما اذا كانت جزئية بعينها مبنية على حقيقة أم انها مبنية على اختلاق قصصى .

ونحن لا نملك سببا يدعونا الى الشك فى وجود ممارسات سحرية فى البلاد السيلتية ، غير أن المصادر الأم ، متهافتة ، وينبغى تنقيتهـــا بحذر . وينبغى أن نحلل السير العائلية الايرلندية ـ وهى أساليب قصصية فى جوهرها ـ وينبغى أن نفحص عن وقائعها دائما . وما تذكره المصادر التاريخية عن الانجازات السحرية للدروديين ، موضوع على غرار ما وقع بين موسى والسحرة المصريين ، الأمر الذى لا يثير شديد شك .

على اننا نستطيع أن نحصل على مواد خيرا من هذه ، من العرافات الايرلنديات أنفسهن اللائى ما يزال بعضهن يعيشن فى المقاطعات الغربية .

وكثير من الهراء الذى يتكرر فى كل عرافة ـ كاستخدام السحر لقتل أبقار الآخرين أو سرقة زبدتهم وقشدتهم وقمحهم ، أو حسد أطفالهم ودوابهم ، أو بعث الجرذان والفئران والهوام ، أو انشاء العواصف ـ كل ذلك منتشر غاية الانتشار ، وينتمى الى مرحلة ما قبل المسيحية ذلك انه لا يرتبط بعقيدة يمكن أن تتماسك رسميا فى بلد من البلاد .

وكانت آخر عرافة حرقت فى مدينة همبورج أواخر القرن الثامن عشر خادمة سحرت سيد الأسرة الصغيرة ، وجعلته يقع فى حبها ، ولكننا نعلم أن هذا النوع من السحر لم يندثر حتى يومنا هذا ، ولنأمل الا يـنـدثر

، القريب العاجل ، خاصة وان العقوبة التى يقررها القانون ، فى حالات عديدة اخرى ، قد خففت كثيرا .

وينبنى استطلاع الغيب ــ عادة على السحر ، الأمر الذى ضاعف من معارضة الكنيسة لهذه الشعبذة .

والحق أنه من العسير أن نميز بين قارىء الغيب ، والعراف ، وذلك منذ وقت عرافة اندور وساحرة تيساليا ــ ومثال ذلك أنه يتعذر علينا ان نقول هل المرأة السكنديناوية التى تتنبأ فى سيرة ايريكس بأحداث ستقع لأهل جرينلاند ــ هل هى عرافة أم ساحرة . ولعلها كانت عرافة وساحرة فالسيرة تضيف اضافة لها مغزاها وهى أن الأحداث وقعت على النحو الذى تنبأت به المرأة .

ويجب أن نعتبر أنه من السحر ، تلك التعاويذ والرقى والممارسات ، التى لا تقال وتؤدى ، بغرض ضار محدد ، بل تتقلب على الشخص الذى يمارسها ، دون أن يأخذ حذره .

وكانت الساحرات وما يزلن يوجدن بين الملاحين والصيادين ، ويقمن ببيع « الريح المواتية » فى القرب ، على غرار ما صنع أيلوس عندما أراد أن يساعد اوديسيوس المشرد .

غير أن الهدية قد تنقلب ــ كما حدث فى ذلك المثل الكلاسى ــ فتضر البحار اذا هو تغافل عن الأصول التى ينبغى مراعاتها مع استعمال الدواء .

واشد فاجعة وقتاما مما سبق ، بعض هذه القصص المبنيــة على ممارسات عملية ، وان كانت النهاية المحزنة ، قد اضيفت لتحقيق اغراض أخلاقية ــ ونحن نسمع فى هذه القصص عن فتاة أحضرت حبيبها الغائب بين يديها ، بالتعاويذ والرقى ، أو أحضرت الرجل الذى سيصبح زوجها ، وذلك عن طريق القاء « التعازيم » وتنتهى القصــة فتذكر أن الزوج اكتشف ــ بعد مضى بعض الوقت ــ أن زوجته هى التى عقــدت ذلك السحر الذى انزل به آلاما مبرحة واذ تعود اليه ذكرياته يلتقط مدية ويطعن بها شريكة حياته ، الأمر الذى يكون تحذيرا للأخريات ، لا شك .

وقد نجد شيئا من سحر التعاطف منتشرا غاية الانتشار فيما نسميه بالأعمال السحرية الضارة فتحصل الساحرة على عروس أو صورة من

الشمع للشخص الذى يراد الحاق الضرر به ثم تطعنها بمدية أو تصهرها فوق ألسنة النار .

وكما تدمر الصورة على هذا النحو ، فكذلك يمرض الشخص الذى تمثله الصورة ، ويلقى حتفه .

وتشتمل النوادر الرومانية الموضوعة فى العصور الوسطى على قصة معروفة مبنية على هذه الممارسة التى تؤديها – فى القصة – زوجة خائنة وعشيقها .

ولا يقتصر هذا الأمر على القصص فالتهمة التى وجهت الى دوقة جلوسستر أثناء حكم هنرى السادس ، والتى أدت الى سقوطها وزوجها، تبرز هذا النوع من الممارسات والخرافات الكامنة فيها . بل أن تحديد تهمة الخيانة العظمى الشهير ، والذى عفا عليه الزمن ، وان كان مذكورا فى كتب القانون ، والذى يتحدث عن « تخيل مصرع الملك » – هذا التحديد له طابعه القريب ، اذ هو يعيد الى الذاكرة ، ممارسات سحرية من هذا القبيل .

وليست صورة الشخص هى الأداة أو الوسيلة الوحيدة ، لتحقيق الغرض الضار الشرير فقد يكفى جزء من ضحيته كجزازات شعره ، أو قلامات أظافره – على نحو ما يقول شكسبير :

« تطلب بعض الشياطين قلامة أظافر الانسان لا أكثر أو عود حلفاء ، أو شعرة رأس ، أو نقطة دم ، أو دبوس ، أو حبة بندق ، أو نواة ثمرة الكرز » .

وهذا هو السبب فى حيطة بعض الناس بالنسبة لقلامات أظافرهم وجزازات شعرهم .

وكثيرا ما تكفى آثار الأقدام لهذه الغاية .

ولن أقدم خيرا ، من الاشارة الى البالاد الروسية الشهيرة ، الدائرة حول دوبرينا قاتل التنين ومارينا فالبطل يسخر من انجازات هذا الحفيد السلافى المنحدر من الالهة الأم . ثم « تنبعث مارينوسكا واقفة وتمسك بخنجرها ، وتمزق آثار أقدام دوبرينيا وترميها فى فرن ملون بألوان شتى ، وطرق مختلفة ، ويعزم عليها تعزيمة قوية تقول :

احترقی یا آثار أقدام دوبرینیا .
احترقی فی هذا الفرن الملون بشتی الألوان ، المتأجج .
ولتحترق کذلك روحه فی جسده ، من أجلی .
وکما أحرق آثار الأقدام هذه .
فلیتمزق قلب دوبرینیا الصغیر من أجلی » .

ثم یتمزق قلب دوبرینیا البطولی بما هو أقسی من الخنجر . ففی ذلك المساء ، لم یذق دوبرینا طعاما ، ولم ینم عندما انتصف اللیل ، بل راح ینتظر الفجر الأبیض ، ولا شیء آخر » .

ولیس من الضروری أن تکون العلاقة بین الساحر وضحیته ، علاقة مادیة أو جسمیة . فقد تکفی صورة الضحیة ، الأمر الذی یجعل الجماعات المتوحشة تحجم عن التقاط صورها .

وتعتبر الأسماء أشد من ذلك شفافیة ونقاء ، ونفاذا ، وسحر الأسماء ، متعدد الأشکال ، خطیر الأهمیة ، حتی لقد یستغرق مجلدا . ذلك أن الایمان بوحدة الذات بین الاسم وحامله ، ایمان راسخ وطید فی الذهن البدائی ، ولذلك تمیل الجماعات المتوحشة الی اخفاء أسمائها والاحتفاظ بها سرا ، خیفة أن یستخدمها ساحر فی ایقاع الضرر بهم وذلك اذا عرف أسماءهم .

ومن المعتقدات الشائعة کذلك ، الاعتقاد فی ان النطق بالاسم یجذب حامله ، ولذلك کان التردد فی النطق باسم شخص میت .

ولما کانت الآلهة بطبیعتها القادرة تستطیع أن تصنع الخیر أو الضرر ، فقد صار من المحتم ، الا تنادی الالهة ، بغیر مبرر . بل لقد تستطیع الساحرة أو الساحر ، اذا عرف اسم الالهة أن یجبرها علی أن تخدمه لتحقیق أغراضه الشریرة فی انزال الضرر بالآخرین ولهذا نشأت العادة المعروفة وخلاصتها اخفاء أسماء الآلهة والمعبودة ، وابقائها فی طی الکتمان ، وکانت هذه العادة جاریة عند قدماء المصریین ، وکان الرومان ، انبعاثا من وازع مماثل ، یحتفظون بأسماء الآلهة التی کانت تحمی مدینتهم فی أعماق الکتمان ، خیفة أن یستخدمها أعداء الجمهوریة فی اغراء الآلهة وتضلیلها .

ویمتد هذا التحریم ذاته الی أسماء الحیوانات الضارة والخطیرة کما رأینا فی فصل سابق ویمتد بالمثل الی أسماء الأمراض والموت ولهذا نجد

فى الفرنسية تعبير «المرض الجميل» والمرض الطيب وفى الايطالية «المرض الكبير» أو «المرض المقدس» للكناية عن مرض الصرع ، كما كان الناس فى العصور الوسطى يطلقون على المرضى بالجزام أسماء «المرضى» و«المسيحيين» وكما نستخدم توريات شتى للدلالة على كلمة الموت وكلمة يموت ، وهذه جميعا ، ثمار تفكير أقدم من السيدة بيكر أدى بقرون بل بآلاف السنين .

وحتى تكون « الدعوة » أو « اللعنة » نافذة المفعول ، ينبغى أن ترتبط باسم « المدعو عليه » ومعنى ذلك أن يعرف مرسل اللعنات اسم ضحيته على الأقل . وكان ذلك هو السبب الذى دعا سيجورد الى ان يرفض البوح باسمه لفانفير المحتضر ، كما انه أساس الاعتقاد الذى يسميه الألمان بـ totnennug . فتبعا لهذه الفكرة يظل البطل محصنا ، لا ينال ، الى أن يتلى اسمه . والمثل الكلاسى لهذه العقيدة هو هامويسمول النوردى .

والتفسير الخفى الكامن وراء ذلك نشرحه على النحو التالى :

من المعروف أن أمثال البرسكرز النورديين ، لا يشعرون بالآلام حين يكونون فى غيبوبة ، ولدينا أمثلة عن فقراء هنود معاصرين يطعنون أنفسهم بالمدى ولا تسيل منهم نقطة دم واحدة .

ومن الثابت بالمثل أنه حالما ننادى هذا الشخص باسمه ، يصحو من الغيبوبة ويفقد قوته الخارقة التى تتحدث عنها .

ولا نزاع فى أن قلة معرفتنا بهذه الحالات الجسيمة جديرة بأن تقودنا الى أن نبالغ فى أهمية الاسم .

وقد يكون من الخطأ أن نزعم أن العمل السحرى يكفى وحده لتحقيق الأثر المطلوب . فأكثر أعمال السحر تصاحبها كلمات ، هى فى الغالب أغانى سحرية .

واشتقاق الكلمة نفسها من اللفظة اللاتينية incantare (يسحر) يلقى رقوة يثبت هذا الرأى ، كما أنه من اللافت للنظر ان الكلمة النوردية القديمة galdr وجمعها galdar ومعناها السحر ، مشتقة من فعل gala بمعنى يغنى — وهذه الكلمة ، يألفها القارىء الانجليزى ، من كلمة nightingale (البلبل) .

وقد يحل محل الأغنية ، « تركيبة كلامية » يهمهم بها ، بصوت خفيض ، أو يحل محلها منظومة شعرية كما هى الحال فى اسكنديناوة .

وقد تدون هذه الكلمات ، حيثما يراد لها أن تبلغ غاية تأثيرها ، وعلى هذا فبعض المنظومات السحرية المحفورة على السيف ، قد تجعله غير قابل للكسر ، أو تحقق له النصر . وبعض المنظومات السحرية الأخرى التى تكتب على أشياء توضع تحت السرير قد تجلب المرض أو الموت .

وما تحت المخدع أو السرير ، يعتبر أنسب الأماكن لسائر أنواع الأعمال السحرية شأنه فى ذلك شأن عتبات البيوت .

وتروى لنا قصة حكماء روما السبعة كيف أن مرلين اكتشف مثل هذا العمل السحرى تحت سرير الملك ، وقد وضعه أعضاء مجلس الشورى الأشرار .

وفى سيرة اجلز Egils ، نجد أن المنظومات السحرية موضوعة تحت وسادة المريض . كما أن جزئية « الشوكة النائمة » النوردية المعروفة لنا من خرافة فالكيرى المتمرد ، انما تقوم على أساس منظومة سحرية كذلك .

وأما صانعو السحر فيكونون من الرجال والنساء ، فنحن نجد ساحرات ونجد سحرة ، ولو أن عدد الساحرات يفوق عدد السحرة دائما . ولعل وراء هذه الخاصية اللافتة للأنظار ، ذلك الخوف الطبيعى الذى يحيط بالمرأة فى سائر المجتمعات المتوحشة ولعل وراءه كذلك ، أن المرأة تملك قوة فائقة على الحدس ، وغريزة أقوى .

ولا يقتصر اضطهاد النساء الساحرات على العصور الوسطى المسيحية فلدينا شواهد مماثلة من الحضارات السيلتية الرومانية القديمة وقد تخطر الساحرات تيسيليا على ذهن القارىء ، كما قد تخطر له ، الفقرات المعروفة التى يتحدث فيها تاسيت عن المكانة العالية للمرأة ، فى المجتمع التيوتونى القديم .

ولم يكن لتلك المكانة العالية ، اى صلة بآداب الفروسية ، بل كانت — فى بساطة — ثمرة الخوف البدائى من القوى الخارقة التى تتصف بها المرأة .

وليس ثمة أساس للظن بأن الساحرات كن عجائز دائما . فأيسر قراءة عابرة لمحاكمات الساحرات فى العصور الوسطى ، لا تلبث أن تقنعنا بالنقيض . كما أن آخر ساحرة حرقت فى همبورج كانت خادمة صغيرة ، ولعل جان دارك أن تكون شاهدا خيرا من هذا . ولم تكن الساحرة النوردية فى سيرة اركيز ، عجوزا شمطاء .

والمرأة المسيحية التى تلبسها الشيطان وجعلها تنشد أغانى سحرية ما كانت ــ فيما يبدو عجوزا شمطاء أيضا .

وحيثما كان السحر موجودا يمارسه الناس ــ كان « موتيف » العراك بين ساحرين أو مجموعتين من السحرة ، جدير بأن يصبح موضوعا مفضلا .

ومن ثم ، نجد فى الف ليلة وليلة قصة الصراع بين ساحرتين احداهما بيضاء والأخرى سوداء . وأما الساحرة البيضاء فقد حررت رجلا مسحورا كانت الساحرة السوداء قد سخطته وجعلته حيوانا .

ولدينا كذلك القصة الذائعة عن صبى الساحر الذى تفوق على أستاذه ، ثم جلب عليه الموت .

ونسمع فى اسكنديناوة كيف أن الملك هارولد جورمسون يرسل ساحرا الى ايرلنده ليتجسس على أحوال الجزيرة وكيف يتخذ هذا الساحر هيئة الحوت ، وكيف يهزمه أربعة من سحرة ايسلنده فيمنعونه من وصوله الى الأرض .

ولقد ينبغى للساحر أن يعد نفسه لمهمته الخاصة ، فيصوم عن الطعام احيانا ، أو يتبع نظاما معينا فى الأكل أحيانا أخرى . فساحر سيرة ايريكيز ، تتناول قاوب حيوانات مختلفة ، والفكرة فى ذلك ، هى أن صفات الحيوان الحقيقية أو المفترضة تنتقل الى من يأكل قلبه .

وقد تستند الى جذور سحرية تلك التحذيرات المختلفة التى كانت تفرض على نوع معين من الكهنة ، وتتصل بالعفة الجنسية أو الامتناع عن تعاطى المسكرات .

ولعلنا نقول أن الجماهير الايطالية التى ظاهرت جريجورى السابع ، أثناء القرن الحادى عشر ، فى تنفيذ اصلاحاته بالنسبة لعدم زواج القسس ــ هذه الجماهير لم تكن مدفوعة بدافع من المبادىء السياسية والاعتقادية ، قدر انسياقها وراء انبعاث ايمانها فى القوى السحرية للبكارة .

والعلاقة بين الكهانة والسحر تبدو واضحة فى كل مكان تقريبا ، ولم تزل تتبدى فى الملكات المنسوبة للكهنة الكاثوليك ، لا يشذ عن ذلك البلاد البروتستانتية ذاتها .

واذا ظن فى المجتمعات الحديثة أن الكاهن رجل الوساطة الروحية ،

أهمية ووزن ، ففي المجتمعات البدائية ، نجده رجلا يستطيع أن يجبر الآلهة ، بكلمة يقولها أو فعل يأتيه ــ على أن تنزل عند ارادته وتحقق مشــيئته .

وقد لا يكون هناك ما يدعونا الى أن ننزل الى المجتمعات المتبربرة ، بحثا عن هذا الظن . فقد قيل أن بعض حاخامات اليهود ــ فى الفترة التالية لخروج بني اسرائيل ــ كانوا يجبرون ياهوه على أن يفعل ما يريدون . ولا نستطيع أن نفكر فى الساحر أو الساحرة ــ كما تصورهما حكايات الجان ــ بغير أن نفكر فى عصى الساحر فمن كيركه الهومرية ، الى سباكونا النوردية الى ساحر هانزل وجريتل ، نجد أن عصى الساحر هى الأداة الأساسية لكل من يشتغل بالسحر ، واذا أعطى هيرميز الهلليني عصا ، فالفكرة الكامنة وراء هذا ، هى ذات الفكرة ،

ولما كانت التفسيرات اللازمة غير موجودة أو تكاد ، فانى أغامر فأزعم أن هناك صلة بين العصا السحرية والصولجان المقدس . اى أن بعض الخواص النفسية ــ المستقلة عن العصى والصولجان ــ تبدو فى تمامها اذا أمسكت اليد اليمنى بهذه الأداة . ولقد أدى هذا الى نشوء فكرة تجانب الصواب وهى أن العصى السحرية فى ذاتها أو الصولجان المقدس فى ذاته ، له هذه القوى التى يتصف بها الساحر أو الساحرة ، كالمقدرة على اكتشاف الماء الخفى عن الأعين . وبشىء من التوسع ، صارت العصى السحرية الأداة الرئيسية للساحر أو الساحرة أو رئيس الكهنة .

غير أن الصولجان ، لا يمكن أن يكون بديلا للسيف أو غيره من الأسلحة ، وانما هو البديل الذى يستخدمه رئيس الكهنة عوضا عن العصى السحرية .

ولا ضرورة فى هذا الكتاب أن نعيد النظرية الذكية ، التى نرجح صدقها ، وهى نظرية الأصول السحرية للنظم الملكية . فقد نهض بهذا الجهد ، أعظم علماء الفولكلور والمحدثين ، ذلك العلامة الذى تتصف نظرته بالاتساع وقوته التحليلية بالفراسة والعمق ، ولا ينافس هذه الصفات ، الا قدرته ، التى لا تصل اليها قدرة أخرى ــ ونعنى بها القدرة على أن يطوع لغتنا وهى الأداة البالغة الصعوبة ــ كما أنه يتصف بنوازعه الانسانية الشاملة الكريمة .

ومع أن مؤلفاته ، تضرب بجذورها فى تقاليد المدرسة الانتروبولوجية ،

الا أنها من الشمول والاتساع ، بحيث يتعذر علينا أن نقصرها على مدرسة بعينها ، أو مذهب علمى بذاته . ثم أن هذه المؤلفات ، من الضخامة فى ميدانها ، والعمق فى فلسفتها ، بحيث يبدو كل نقد يتناول تفصيلاتها ، نقدا جزئيا ، صغيرا ، لا وزن له .

لكنا نستطيع أن نشير اشارة عابرة الى أن صفة الملك ، التى سقطت مؤخرا فى تقدير الرأى العام ـ الأوروبى على الأقل ـ ليست وحدها الصنعة التى ينبغى أن نبحث لها عن جذور فى السحر ، أو قل انها ليست الصنعة الوحيدة التى يحيط بها دائما جو من الغموض . فهناك صنعة الحدادة ، التى ينظر اليها فى افريقيا ، على أنها حرفة غامضة ، سحرية .

ولدينا فى أوروبا ، مأثورات غير قليلة ، تشير الى هذه الناحية ولقد يخطر على الذهن هفايستوس ووايلاند ، وجونبر السيلتى .

فالخوف الشائع من المعادن المنصهرة الغامضة بالنسبة للانسان البدائى ـ هذا الخوف ، دعمه أن الذين امتهنوا حرفة الحدادة لم يكونوا أعضاء فى العشائر والقبائل ، بل كانوا غرباء أبدا .

وكان الحداد ـ الى عصر النهضة ـ يستطيع أن يحترف الطب ، بالاضافة الى الحدادة ويقص علينا القاص الايطالى فرانكو ساشيتى حكاية كاملة عن حداد كان يعمل طبيب أسنان ثم .. نجد الحدادين فى مرحلة زمنية لاحقة وهم يضمدون الجراح .

ويجوز لنا أن نزعم أن حداد جريتنا جرين كان قد خالف بعض الواجبات الروحية ، فان خطيئته تلك ، أقل فى تمردها ، مما كان ينبغى لها أن تكون .

واذا كانت مهنة الحدادة قد اتصفت بشىء من الصفات السحرية ، فان لها نظائر مشابهة فى المهن التى كانت من صنائع النساء . وانا أشير هنا الى مهنة الغزل وحرفة النسيج . فلدينا عبارات عديدة فى اللغات الاوروبية تذكرنا بسحرية النسيج ويكفى أن نتذكر تركيب كلمة Wyrd الانجلو سكسونية ، المأخوذة من Wurt الالمانية القديمة ومعناها « القدر » و « الموت » والتى تتصل بكلمة wortelen الهولندية (التى تعبر عن حركة النول) والمشتقة هى الكلمة اللاتينية vertere من أصل لغوى هنداوروبى واحد .

وكان الظن أن الغـازلات الاغريقيات والنورديات كن يغزلن مصائر البشر .

ومما له أصل سحرى ، ذلك الظن بأن الجراح يشفيها الذى أحدثها، وهذا الظن قامت عليه الحكاية الاغريقية القديمة الدائرة حول تيلفيوس واخيل وقصة تريستان الخرافية التى تعود الى العصور الوسطى ــ والتى تقول أن تريستان ذهب الى بلاد مورهولت ليداوى الجراح التى أحدثها به مورهولت نفسه .

ويرتبط بهذا الظن ، ظن آخر اغرب منه ، وهو أن الضربة الثانية تشفى من آثار الضربة الأولى ، ولذلك يؤمر البطل فى الحكايات الشرقية والغربية سواء بسواء ، بأن يضرب عدوه ضربة واحدة ، لأن العدو أو الوحش يسترد قوته اذا ضرب مرة ثانية ، وعندها يصرع البطل .

واذا ترجمنا هذا الظن الى لغة سهلة قلنا انه يعنى أن نقص خصلة من شعر الكلب المسعور ونداوى بها الشخص الذى عقره هـذا الكلب .

والحق أن السحر أو قل المنطق المغلوط الذى انكره الانسان الحديث عندما توفرت له التجربة العلمية الحديثة ــ هذا السحر لعب دورا ، مؤكدا ، فى ماضى الانسان ، وكان أشبه بالدور الذى نحب أن ننسبه الى المنطق الصحيح فى حياتنا الحديثة ــ ذلك المنطق المبنى على ما فى العلوم من طرق للاستقراء والاستنباط .

ولعلنا نعتبر السحر ، من هذه الناحية ، أولية سابقة على العلوم الطبيعية .

ولكن يجدر بنا أن نضع فى اعتبارنا أن هناك تحفظا يسرى على المنطق الصحيح كما يسرى على المنطق الباطل ، وهذا التحفظ هو أن الانسان لم تدفعه دائما ، بل لم تدفعه فى غالب أمره ، اعتبارات المنطق ، صحيحة أو فاسدة . ذلك أن العواطف كانت هى التى تملك ناصيته ، والا لما جـاز لنا أن نرى فى التاريخ البشرى ــ على حـد قول سير جيمس فريزر ــ أكثر من سلسلة طويلة من الحماقات والجرائم .

وعلى ضوء هذا ، فانى اميل الى أن أخص بدائية المنطق الحديث ، بمكانة متواضعة ، تشبه مكانة المنطق الصحيح ، ان لم تكن أشـد تواضعا .

ولا يجوز أن يكون موضوع كتابنا الراهن ، أن نشرح كيف أن كان السحر ، المرة بعد المرة ، أداة رجال طموحين ، يتوسلون بها لتأكيد ذاتهم ، وتحقيق مشروعاتهم .

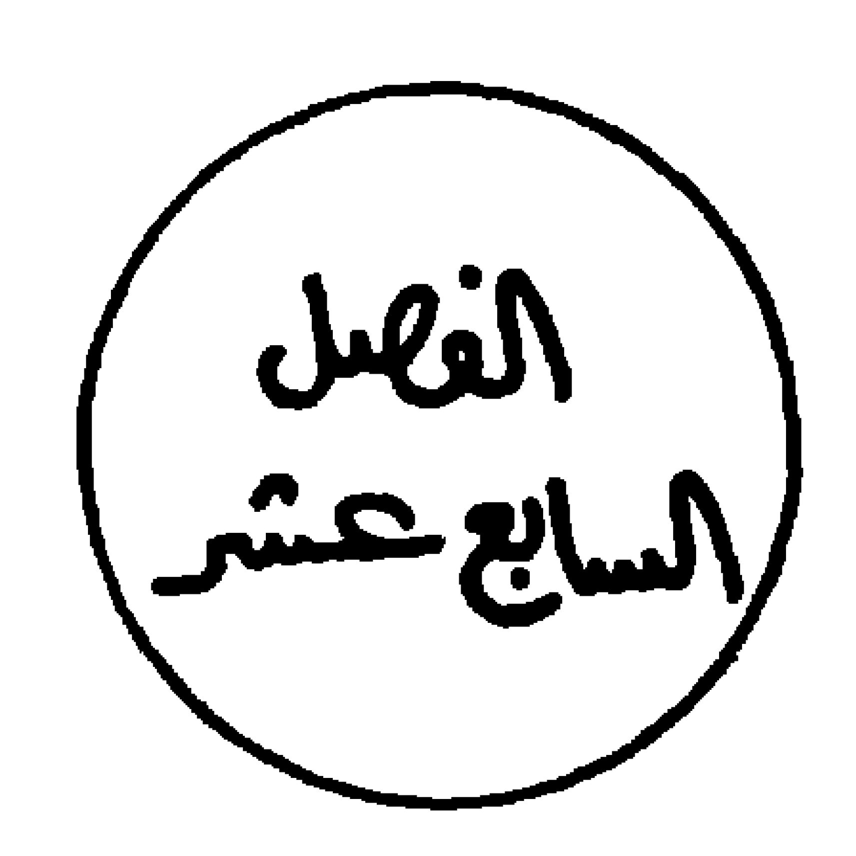
ولقد نتجاوز عن الضرر المترتب على هذا الأمر ، اذا نحن قارناه الى ضرر أكبر منه بكثير ، ونعنى به هذا الضرر الذى تنزله . بالناس روح التعصب التى لا يزعها وازع من المنطق ، صحيحة أو فاسده . بل لقد نجد أنه حيثما استخدم السحر لارضاء نوازع الرجال الطموحين، استخدم العلم الحديث فاسيىء استخدامه لنفس الغاية ، وأسفر عن نتائج لا تقل سوءا عن نتائج استخدام السحر .

والحق أن هناك ما يبرر الظن القائل بأن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا فى القرون المتوالية ، بحيث تمنع من أن يتحول العلم الحديث الى اداة أشد قهرا ، وأسوا أثرا ، من السحر ذاته .

غير ان هذا كله ، يحتاج لتقويمه ، الى سلامة الفطرة ، التى اتصف بها رجل مثل فولتير أو أندور لانخ ، وهى تلك الفطرة التى أثبتت الأحداث الأخيرة انها فضيلة تمتاز بقدرتها على المعرفة (*) .

(*) درج المؤلف على أن يتجاوز نطاق البحث فى الفولكلور الى الاشارة الى أحداث التاريخ الذى عاصر تأليف كتابه ـ (الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينات) وقد يتعمق المؤلف علم المأثورات الشعبية الخالص ، لكنه يخطىء تفسير التاريخ الجارى ـ كما أنه يجانب الصواب فى نظرته الى نوازع النفس الانسانية ذلك أنه يميل الى الأخذ ، بجمود هذه النفس ، طوال التاريخ ، ويسخر من فكرة تطورها وفقا لتغير العصور التاريخية .

ولعلنا نقدر للمؤلف جهده فى دراسة علم المأثورات ولكنا نأخذ عليه فى نفس الوقت ، تفسيره الجامد الخاطىء للتاريخ البشرى ـ فهو لا يبرح يسخر من فكرة اختلاف مراحله ، بينما يجد نفسه وقد حاصرته الشواهد من مأثورات الشعوب ذاتها ، بأن البشرية خلفت وراءها مراحل معينة وانتقلت منها الى مراحل جديدة ـ المترجم .



الرقص والدراما الفولكلوريان

● الرقص والدراما الفولكلوريان :

الفرق بين الرقص الفردى الذى يرتبط بالتوقان الجنسى والرقص الجماعى المتصل بالمعتقدات والشعائر الوثنية الدينية • والسحرية ـ صلة الرقص بالصيد والزراعة ـ الرقص وشعائر التمثيل الصامت والجناز ـ والحرب ـ والخصوبة الرقصات الطقسية الكنائسية ـ وحول الأشجار المقدسة ـ رقصة مخادع العذراء ـ رقصة داود امام تابوت العهد ـ رقصة العجل الذهبى •

ثمة تصـــور شائع ، وأن كان غير صحيح ، وهـــو أن الرقص ، كما نفهمه ، ينبع أكثر ما ينبع من الحب الجنسى (أو التوقان الجنسى).

والحق ، أن الرقص الحديث ، الذى يؤديه ذكر وأنثى ، لم يظهر الا فى زمن متأخر من تاريخ الحضارة .

وهـــذه الحقيقـــة ذاتها ، لا تنفى نفيا سريعا ، الوازع الجنسى للرقص .

ولقد يحق لنا أن نستدرك فى هذا الصدد فنقول أن بعض الحركات عند الحيوانات الراقية ، والطير ، والثدييات ، جديرة بأن نعتبرها بوادر للرقص .

واذا كانت هذه الحركات ، ترتبط ارتباطا ظاهرا ، بالنزوع الجنسى، الا أن الحقيقة الجديرة بالملاحظة فى هذا الصدد ، هى أن الحيـــوان الذكر هو وحده الذى يمارسها فى العادة .

أما رقص المجموعات ، الذى نقطع بقدمه ، فلا ينبع من أصـــل جنسى أو قل انه ليس كذلك فى جوهره . .

ولا مناص من أن يواجه الباحث ـ الذى يتقصى الرقص فيرده الى مراحـــل التوحش والبربرية ـ قول الذين يمارســـون الرقص من أنه « يجعل الأرواح تبتهج مع البشر » أو قولهم أنه « حين يرقص الناس ، تنمو حاصلات الطعام بوفرة ، فاذا قعدوا عن الرقص ترتب على ذلك بالضرورة ، نقص فى المحصول ، وقلة فى المرح ، وندرة فى سائر الأشياء ، وترتبت عليه ـ باختصار ـ مجاعة وتعاسة » .

ومعنى هـــذا ان جانب المنفعة من الرقص ، اســـترعى اهتمام الذين يمارسونه ، ما فى ذلك ريب .

ولا نملك سببا قويا ، يحملنا على الشك فى صحة أقوالهم ، ولو أن العلة الكامنة وراء هذه الأقوال ، انما هى علة سيكلوجية خالصـــة ،

فمن المسلمات أن الأشياء تكون عند الناس كيفما كانت ظواهرها ، سواء كان هؤلاء الناس متحضرين ، أو كانوا برابرة متوحشين .

وليس أفعل في خلق الحالات الذهنية المتفائلة والتصورات المسرفة من التحفز الطبيعي الذى ينبعث من نضج جسمى خالص .

وهذه الحالات الذهنية ، تخلقها الموسيقى ، أو تصنعها بعض الأشياء المثيرة مثل « قنينة » روبرت برنز ذات « البطن العظيمة » أو تستفزها حركات الجسم العنيفة شيئا .

وغالبا ما تجتمع هذه الأنحاء الثلاثة .. وما دامت فلسفة التفاؤل والاسراف في الظن ، هى خير ما وضع الانسان من فلسفات حتى اليوم ، فلا داعى أن ننكر الذرائع التى تعين على تحقيقها ، ولو أنها ذرائع مصطنعة .

ويبدو أن أ . رود كان يرى هذا الرأى وهو يمهد للجزء الثانى من كتابه الكبير عن الفلسفة الاغريقية القائلة بانكار كل ما لا يقع تحت حواسنا ، واختبارنا ، ذلك أنه اقتبس فى التمهيد أبياتا لجلال الدين الرومى ــ أعمق المتصوفة الاسلاميين ــ وهى تقول : ــ

« من يدرى قدرات الرقص يفنى فى الذات ، لأنه يدرى كيف يمكن أن يؤدى الرقص الى الفناء » .

واذا طرحنا جانبا هذه التخريجات لاحظنا أول ما نلاحظ أن الانسان المتوحش ، يستطيع أن يستشهد ببعض الحقائق التى تدعم وجهة نظره وهو يؤكد « الفوائد العملية » لممارسة الرقص . فلا نزاع فى أن لبعض الرقصات ، جانبها السحرى الثابت ، فاذا قلدت هذه الرقصات ، حركات حيوان معينة ، وطابقت آراء الصياد البدائى ، كان غرضها المنشود ، أن تستهوى هذا الحيوان ، وتجعله فريسة سهلة لجماعة الصيادين .

ولا نستطيع القطع بأن رقصة الدببة الاغريقية التى كانت تؤدى تكريما للآلهة أرعيس ــ آلهة الدببة ــ كانت تنبعث من هذا الظن أم أنها لم تكن تنبعث منه .

غير أننى لا أستطيع ــ بعد أن قرأت عن أهالى بعض قرى الاسكيمو وكيف أنهم يحتفلون فيها بقدوم دب قطبى وقتله ، باعتبار ذلك حادثا

مفيدا مجيدا – لا أستطيع أن استبعد من تصورى أن يكون لرقصة الدببة مثل هذا الأصل الذى أشرنا اليه ، وذلك بالرغم من صفات الخطر التى قد يتصف بها الحيوان الذى تم اصطياده .

ولعله من الخطأ أن نظن أن الانسان كان يعتقد أن سحر الرقص ذو فعالية ، أثناء مرحلة معينة من تطوره ، ذلك أن ممارسات كهذه تواترت بعد ذلك ، الى أن وصلت الى مرحلة الزراعة ، فاذا السحر الذى أريد به أول امره أن يستهوى الحيوان المطلوب ، قد صار يرمى الى انماء المحصولات ووفرتها .

واظهر مثل على ذلك رقصة الوثب التى تدل عليها كلمة « سانتارى » اللاتينية ، ونعرفها من اتصالها بطقوس ارفال للخصوبة .

ونجد فى المانيا والسويد ، أنه حين يثب الشباب الى أعلا أثناء بذار الكتان ، تكون الفكرة الكامنة هى ذاتها الظن القديم ، ومؤداها أن ينمو نبات الكتان الى الارتفاع الذى بلغه الواثبون .

ومن الرقصات ذات الهدف السحرى ، الرقصة البرسية (*) التى لم تكن تمارس فى بلاد الاغريق القديمة وحدها ، بل كان الجرمان يؤدونها ، كما قال تاسيت ، وكان أهل السويد يمارسونها فى العصور الوسطى كما جاء فى كتابات أولاوس الكبير – بل هى تعيش حتى يومنا هذا ، فى انحاء عديدة من أوروبا ، بما فى ذلك الجزر البريطانية .

وتحت هذا النوع ، تندرج رقصة الثعبان فى نيومكسيكو وهى التى يراد بها انماء الزرع ووفرته .

لكن الرقص ينشد – فى حالات اخرى عديدة – غايات أعظم من ذلك كله ، فقد يتوهم اصحابه أن الأجرام السماوية فى ارتعاش مسيرتها، تحتاج الى شىء من التشجيع ، حتى لا تبطىء فى حركتها .

وكان الظن قديما أن سباق المركبات فى بلاد الاغريق وايرلندة ، يحقق فعالية السحر ولهذا السبب ، كان هذا السباق يعقد فى الأيام الخطيرة من السنوات الشمسية .

(*) pyrric dances نوع من الرقص أو بحور الشعر ينسب الى بيرس ملك ابيروس – المترجم .

وقد يكون لرقصة المشاعل وسباقها أصل مماثل وان كانت تلك الرقصة نوعا من طقوس الخصوبة منذ وقت مبكر .

ولقد نجد أنه اريد بهذه الرقصات أن تطرد الأرواح الشريرة لا غير، وهذا الأمر يفسر لنا أداء رقصات السيف فى حفلات الزواج والجناز .

وحين اســتأجر الرومان راقصتين من اتروريا القديمة فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ليطردوا عنهم وباء الطاعون ، كانت الفكرة المسيطرة على أذهانهم شبيهة بالفكرة التى نتحدث عنها .

وينبغى لنا أن نولى اهتماما ما لرقصات الجناز بالرغم من أن معلوماتنا عنها ما تزال قليلة حتى اليوم .

ويبدو لنا من الهجمات التى شنتها عليها كنائس العصور الوسطى ، أن الشعوب التيوتونية كانت تدمن هذه الشعائر حينذاك أو لعلها كانت تمارس – على الأقل – ما وصفته دوائر الاكليروس بأنه رقصات شيطانية.

وقد يدل على ذلك أيضا تلك الرقصات التى كانت تؤدى فى ليلة العيد وذلك القصص الفاحش الملفق ، الدائر حول راقصين فى مدافن ، لعنهم القســس ، فحق عليهم العذاب ، وظلوا يرقصون الى آخر الزمن .

ولقد نضيف الى هذا الدليل غير المباشر ، ملاحظة أوردها ساكسو النحوى ، ووضعها على لسان بطله ستاركاءور العجوز وتناول بها الرقص وشعائر التمثيل الصامت ، التى كانت تؤدى عندئذ ، فى مدينة أوبسالا مركز عبادة الفراى السويدية . وكانت تمارس ، فى فترات منتظمة ، فتذكرنا بدورية الألعاب الأوليمبية .

ويبدو لنا أن رقصات الجناز قد اختفت من غرب أوروبا ووسطها ، غير أنها ما برحت موجودة حتى اليوم ، فى أنحاء ايرلنده التى تتكلم اللغة السيلتية ، حيث تواكب الموالد والأسواق ، وتصاحبها بكائيات يعرفها الناس وينفعلون بها ، حتى لقد أغلق فلاح عجوز الأبواب والنوافذ ، حين طلب اليه عالم فولكلورى أن ينشد له أغانى الجناز .

– فعل الفلاح هذا ، لكى لا يثير أشجان أهل القرية .

وأما رقصة الموتى التى ترجع الى أواخر العصر الوسيط ، فيبدو أنها رواسب متخلفة من عبادة قديمة دارسة ، كانت قد سبقتها الى الظهور .

أو لعلها كانت رقصة جنائزية هدفها أن تمنع الموتى من أن ينالوا الأحياء بانتقامهم .

ومن الرقصات ذات الأصل السحرى الصريح ، رقصات الحرب ، التى تمارسها المجتمعات المتوحشة ، فتؤديها قبل أن تتحرك الجيوش للقتال ، أو تؤديها النساء فى بيوتهن والمعارك دائرة على قدم وساق . فلا غرابة اذا فى أن يعتبر هنود المكسيك الرقص ، أمرا بالغ الأهمية شديد الخطر .

ويجوز الا نعتبر الرقص أسوأ عادات التجهيز للقتال . فهو لا يبدد قوة شعب ، ولا يضيع ثرواته لمدة عشرين سنة ، قبل أن تشتعل نار الحرب الفعلية .

ولعلنا نقترح على رجال السياسة فى أوروبا أن يمارسوا رقصات الحرب ، باعتبارها تحضيرا أفضل من الوسائل التى يتذرعون بها فى هذه الأيام .

واذا جاز لنا أن نعتبر هذه الرقصات جميعا ، شعائر سحرية ، كانت الخصوبة وحدها ، وراء مجموعة أخرى من الرقصات المرتبطة بشعائر الحصاد والنصر . التى قد يعقد فيها السباقات ، بل لقد نظم هذا السباق فى عدد من البلاد .

ومن المعروف أنه من الصعب علينا أن نضع حدا فاصلا بين السحر والدين . ومع أنى ابعد الناس عن القول بأن الدين جاء تاليا للسحر — وهذه نظرية شديدة السذاجة — وعاجزة عن أن تفسر لنا الظاهرات المعقدة التركيب الا أنى ازعم أن فكرة الالهة ، ظهرت متأخرة فى الرقصات الطقسية الاغريقية فعادة ارتداء الأقنعة الحيوانية التى كانت ترمى فى الأصل وحسب منطق السحر التقليدى الى اجتذاب الحيوان المطلوب ، — هذه العادة أصبحت تهدف بعد ذلك الى أن تستهوى قلوب المؤمنين بعقيدة الحلول .

وحين كانت ارواح الالهة تتخذ هيئة البشر ، كانت الرقصات السابقة جديرة بأن تعيش كميراث متواتر لا يفهمه أحد ، بل يغدو موضوعا مناسبا لأبحاث الأثريين . فنحن نقول مثلا أن رقصة الدب للالهة ارتيمس كانت موجودة قبل الالهة ارتيمس بوقت طويل ، وحين ظهرت هذه الالهة ، أخذت مكان الهة دبة أقدم منها .

ومن المؤكد كذلك انه حين تنشأ ديانة أرفع واسمى ، فان رقصات المعتقدات تصبح جزءا محددا من الطقوس والشعائر ، وهكذا نسمع عن رقصات متصلة بالالهة ــ ايزيس الشمالية وهى الالهة نيهالينيا .

ويروى لنا ساكسو النحوى ، كيف أن بطلة ستار كاءور عاد من السويد مشمئزا من الرقصات المخنثة التى كانت تؤدى مرة كل ثمانية أعوام فى مدينة اوبسالا . ونجد هنا ، اشارة واضحة الى شعائر ، تعود ــ بلا ريب ــ الى الأصل الذى صدرت عنه بعض الألعاب وتكمن هذه الأفكار ، فى فكرة « رقصات العرج » كتلك التى نسمع فيما تروى قصص التوراة ان كهنة بعل كانوا يؤدونها وبعل اله سامى أو هو رأس الهة الساميين . فقد كان الكهنة يعرجون ، ظنا منهم أن الاله نفسه كان يعرج ، مما يجعله فى هذه الناحية شبيها بهيفايستوس الاغريقى والآسيوى والشيطان المسيحى الذى ورث هذه السمة فيما ورث من صفات ، عن المعبودات الوثنية الغابرة .

ولقد حير الكثير من الباحثين سبب عرج المعبود أو الاله . ولسنا نملك الآن تعليلا شافيا ، يفسر لنا سائر الحالات . فاذا كان هيفايستوس وواىلاند ، اعرجين ، لأنهما اشتغلا بالحدادة ، ولأن الناس فيما سبق من عصور بدائية ، كانوا يتخذون بعض الحرف النافعة كالحدادة ، حين لا يصلحون للحرب ، الا أن هذا التفسير يغطى فئة قليلة من المعبودات .

وأرجح الظنون ، فيما يتصل بشلل أقدام الأقزام والشياطين ، انها أقدام موتى .

غير أننا نستطيع أن نقدم جوابا حاسما ، حين نجمع كل المواد المتعلقة بهذا المعتقد ، من أنحاء المعمورة جميعا .

ولقد تبرر الصفة الدينية للرقصات أن تؤدى فى الهيكل ذاته .

غير أن أى دين ، طهر نفسه من هذه العناصر الأرضية التى لحقت به من تواترها القديم ، جدير بأن يستنكر هذا الرقص ومن هنا كانت اللعنات التى صبها أنبياء اسرائيل ، على هذه الممارسات ، التى توالت ، برغم ذلك ، الى سقوط العاصمة وتدمير الهيكل الأول . ثم اتخذ الاكليروس المسيحى الموقف ذاته ، لكن هذا الموقف لم يستطع أن يحجر على العديد من الرقصات الطقسية الموجودة فى الكنائس المسيحية ،

ذلك أن هذه الممارسة كانت أقوى من الاكليروس المتحمس غاية الحماس للاصلاح الدينى .

ولدينا مثال ظاهر ، هو الرقصة الطقسية التى تؤدى فى كاتدرائية أشبيلية . وهذه الرقصة أثر باق من أيام الجاهلية الأسبانية ، حين كان الفينيقيون يعبدون هرقل الصورى على هذا النحو بل كان مثل هذه الممارسات المتخلفة عن الماضى موجودا فى انجلترا على عهد الملكة فكتوريا . فالرقصة التى ذكرها توماس هاردى فى الفصل الأول من رواية « قس من دوبرفيل » أميل الى أن تنطوى تحت هذا الطراز .

أما فيما يتصل بالرقصات حول الأشجار المقدسة أو الآبار أو الانصاب الحجرية أو كنائس القرى ، فلم تدخل هذه الرقصات الكنائس ، بل ظلت خارج مدار المسيحية .

ولا يغير من هذه الحقيقة ، أن صورة العذراء كانت تعلق فى شجرة هنا أو هناك ، أو أن الصليب كان يوضع فوق الأنصاب الحجرية .

واذا كانت الكنيسة قد اتخذت موقفا معاديا من الرقص فى ذاته ، واذا كان هذا الموقف قد اضطرد أثناء العصور الوسطى ، واعتنقته شيع غير قليلة من المذاهب الانجيلية فى العالم الجديد الا أن مصدرها وثنى وشعائرى .

وما يقال من رفض الكنيسة لرقصة سالومى الشهيرة ، التى يروى أن يوحنا المعمدان فقد رأسه لسببها (ولم يكن يوحنا بالقطع آخر رجل دارت رأسه فى مثل هذه المناسبة) ــ ما يقال من رفض انما يدعم الحجة الرئيسية الا وهى أن هذه الممارسة وثنية .

وقد تذكر الملامح البذيئة ، كذلك ، ومن الحق أن هذا الاتهام ليس متهافتا على اطلاقه ولو أن الذى كان بذيئا فاحشا فى نظر الكهنة الذين امتنعوا عن الزواج ، كان أقل من ذلك بذاءة وفحشا ، فى نظر الفلاحين .

أما الرقصات الفاحشة فكانت تؤدى ، على نحو خاص ، ضمن عبادات وشعائر آلهة الخصوبة ومردتها .

ومن هذا النوع ، تلك الرقصات التى كانت تمارس فى أوبسالا مركز عبادة فراى الوثنية .

ولدينا فى الجانب الآخر من العالم الرقصات والشعائر الخاصة بالاروا فى جزر سوسيتى والتى ترمى الى تحقيق غرض مماثل .

ويبدو أن رقصات كرمس الهولندية التى كانت تؤدى فى مواسم البذار ، قد اشتهرت ببعض هذه الملامح والصفات الفاحشة الأمر الذى أدى الى تحريمها والحجر عليها .

ولا نزاع فى أن الفكرة الساذجة التى تختفى وراء هذه الممارسة ، هى أنه اذا كشف الرجل والمراة عن أعضاء التناسل ، استفز ذلك خصوبة البذور وهيمن على غزارة المحاصيل . وكان ذلك منطقا مغلوطا ، وقد ترتبت عليه تلك الحماقات .

ولكن قد يتساءل الانسان مع ارزمس « ألم يكن هؤلاء الحمقى ، أصحاب عقول أشد طهارة واطمئنانا من اولئك العقلاء الذين فرضوا الحجر والحرمان على تلك الممارسات ، والذين لم يتركوا فى مكانها سوى الفريسية المحدثة ، والخيط الرفيع من غباء الحياة المحدثة » .

غير أن هذه التأملات اللاحقة ، والحاسمة فى مصير تلك الرقصات لم تكن ثمرة اعتبارات أخلاقية دائما . ذلك أن نمو الاحساس بالذات ــ وهو العدو القاتل لكل فن ، قد يؤدى الى هذه النتيجة لا نزاع .

وليس لنا أن نضرب الأمثال من العصور الحديثة وحدها فالتوراة تعطينا بعضا من خير الأمثلة المنتقاة .

وانا أشير ، بالطبع ، الى قصة داود وهو يرقص أمام تابوت العهد . فداود الذى كان من قبل يتعرض للناس فى الطرق ، والذى اختير ملكا على بنى اسرائيل لم ير بأسا فى أن يباشر العادة القديمة ويرقص بين يدى الله بكل قوته .

ولم يستشر زوجته ــ وكانت ابنة ملك ، وكانت قد نشأت فى خير بيئة . ولم تجد الزوجة بدا من أن ترى أن سلوك زوجها لا يصدر عن ملك وصارحته برأيها هذا .

ولم يحدث نزاع عائلى ، بل تمضى القصة تقول قولا ذا مغزى أن ميشال ابنة ساءول ظلت بلا ولد الى يوم وفاتها .

ولعل العصور الوسطى ، استشعرت شجاعة كافية ــ بتأثير قصة

التوراة ـ لكى تختفى برقصة « مخادع العذراء » وهى تلك القصة المؤثرة التى تدور حول مسافر فقير ، من أبناء الطبقة التى نبذها رجال الأكليروس ـ يرى أن يكرم ملكة السماء ، بهذا الأسلوب البالغ التأثير . ولقد فهمت عنه العذراء ـ كما تقول القصيدة الفرنسية القديمة ـ خيرا مما فهم رجال الأكليروس .

وينبغى لنا أن نقول أن التوراة لم تتخذ هذا الموقف المسرف فى توسعه . ففى مقابل مشهد داود وهو يرقص أمام تابوت العهد ، يجوز لنا أن نذكر القصة الشهيرة حول العجل الذهبى التى لا سبيل الى الشك فى صحتها من وجهة نظر التاريخ ، فالرقصة الدائرية المذكورة فى هذه القصة ، لها أشباه ونظائر فى انحاء كثيرة من الأرض .

وقد تذكر أن عودة موسى ـ ذى العقل المتطهر ـ أنهت تلك الرقصة ولو انها ما تزال ـ من حيث المجاز ـ تمارس اليوم كما كانت تمارس فى الماضى .

« المزامير والأبواق والكمان
تصدح داعية لرقصة وثنية .
وبنات يعقوب يرقصن .
ويطفن حول العجل الذهبى .
بروم ـ بروم ـ بروم .
ايقاع طبول وضحكات .

ومن الطبيعى أن يصبح الرقص عنصرا هاما فى شعائر ديانات الغوامض .

وينطبق هذا القول سواء بسواء على الديانات القديمة والشعائر الدينية الموجودة لا تزال عند المجتمعات المتوحشة والذى قاله لوسيان من أن « اغلب الناس يقولون عن الذين يكشفون الغوامض انهم يكشفونها راقصين » قد يردده ، اى رئيس لعشائر الزولو ، حين يرد على سؤال سائل معاصر اوروبى . ذلك أن الرقص الدينى ، يصبح فى جوهره اشراقيا وعلى الأخص ، فيما يتصل بالشعائر والعبادات الغامضة .

وتستطيع طقوس ديونيسوس أن تمدنا بالأمثلة الكلاسية . وقد نجد

بين يدينا براهين على أن بعض انبياء اسرائيل كانوا يبلغون حالة الاشراق، بهذه الطريقة . فاذا وصل الانسان الى هذه الدرجة من التشنج اصبح من المستحيل أن تصيب الجراح جسمه ، وهذا هو السبب فيما نراه عند كهنة الأفريجبين بآسيا الصغرى ، وكذلك فهذا هو سبب بعض الظواهر التى قيلت فى معرض الحديث عن أتباع بعض الشيع فى العصور الوسطى ، والتى كانت بمثابة احياء غريب للممارسات القـــــديمة . ثم نجد فى رقصات الثعابين عند الببلو والزولو التى ذكرناها من قبل ، وكانت ترمى الى انزال المطر - أن الثعابين لا تضر بالراقصين المتشنجين مع انها من اخطر أنواع الثعابين .

وبالرغم من هذا ، راح بعض مدعى الاصلاح والتقدم - وهم أشبه الناس بالعوانس - يضجون ويطالبون حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بأن تحظر هذه الممارسات ، بدعوى أنه ينبغى أن يحمى الهنود الفقراء من غفلتهم واهمالهم .

ومن ناحية الشكل ، لا تنفصل الرقصة الشعبية عن الموسيقى الشعبية أو أغنية الرقص وتبدو الطبول ، أحب آلات موسيقى الرقص وافضلها عند الجماعات البدائية وسبب ذلك انها الآلة الموسيقية الوحيدة الموجودة عندهم .

وكان التصفيق باليد ، يصاحب حركات الرقص ، فى أوروبا ، ومثال ذلك ما كان يحدث فى جزر فارد وفرنسا على عهدها الوسيط .

واقدم اشارة فى الأدب الى هذا الطراز من الرقص - وان كان من النادر ذكرها - اغنية القديس فارد التى تعود الى القرن التاسع . والتى تقول :

شاب شعر كاوتاريو ملك الفرنك .
الذى فرح قلبه بمحاربة السكسون .

وقد كان خطر المحاربين السكسون جديرا بأن يكون خطـــرا داهما .

لولا أن شعب بورجانديا كان يعزز فارو .
وعندما جاء المحاربون السكسون الى أرض الفرنك .
كان فارو ، حاكما عليها .

والله وحده هو الذى جعلهم يعبرون مدينة المدين .

ولولا هذا ، ما اسحقهم ملك الفرنك .

وهى أغنية نصر ، واما الرقصة فسجلها هيلدجاريوس مؤلف كتاب « حياة القديس فارو » الموضوع عام ٨٩٦ . وقد ذكر مؤلف سيرة القديسين أن الأغنية ذاتها ترجع الى العصر المروونجى الفرنسى . لكن هذا القول ، ضعيف الاسناد ، متهافت ، كما دلل بديه على ذلك بحق .

ومن المحقق ، أن هيلد جاريوس وقد أعوزته الأدلة ، قد عمد الى تلفيقها بنفسه ، مستوحيا قصص التوراة .

أما الذى كان متعذرا على تلفيقاته ، فهى واقعة التصفيق باليد التى كانت تصاحب حركات الرقصة ، وكذلك الايقاع المتميز ، الذى كان يشبه ايقاع البالاد فى العصور الوسطى .

وأما الذى صنع ، فهو انه كتب على النص بحور البالاد التى كان يعلم ان معاصريه يستخدمونها للرقص .

وعلى ذلك ، فمن المتعذر الاستدلال باغنية القديس فارو ، على وجود الملاحم الفرنسية فى العصر المروونجى أو حتى فى العصر الكارولنجى . ولكنها وثيقة ثمينة بالنسبة للشواهد الثابتة التى تدل على وجود اغانى الرقص الشعبية .

ولا تنقصنا الأمثلة الانجليزية ولعل أشهر مثل لها ، أغنية النصر التى انشدت بعد معركة بانكبورن والتى تقول .

يا عذارى بريطانيا ستذرفن الدموع .

على الرجال الذين فقدن فى بانوكزبورن .

وسوف تستعيد اسكتلندة ما اخذه ملك بريطانيا .

والدراما الشعبية ، تشبه الرقص ، من حيث أن جذورها دينية وأن الفنون الدرامية جميعا ، مشتقة من الدراما الشعبية .

ويؤكد ذلك أن الدراما بعامة ، ثمرة الدين والشعائر .

ولكن ينبغى أن نبدى استدراكا هنا وذلك انه اذا كانت العبارة

السابقة يشير الى جذور التراجيديا والكوميديا الاغريقية والهندية ، فانها عبارة صادقة تماما .

أما اذا كانت العبارة المذكورة تشير الى درامات العصـور الوسطى الاوروبية ، فينبغى ان نضيف اليها أن تمثيليات الخوارق والمواعظ ، تدين بأسـلوبها والكثير من محتواها لكتب المواعظ والحكم للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولو أن هذه الدرامات شعائرية وشعبية ، عند تحليلها نهائيا . وعلى ذلك كانت هذه الدرامات الشعائرية ونصف مثقفة وقد أصبحت شعبية ، ثم زادت شعبيتها مع توالى القـرون ونحن نستطيع أن نلمح بشكل عام ، كيف كانت الدرامات الشـعبية الأصيلة فى مطالع العصور الوسطى ، وذلك من الاشارات التى تركها كتاب التقاويم التاريخية ، وتلك الاشارات المنسوبة لمن كان يتولى رقابة الأخلاق العامة .

وأما الذى اشار اليه سكسو النحوى فيما يتصل بعقيدة وشعائر الفراى فى أوبسالا فقد كانت تشبه فى أكثر من ناحية النمط الرئيسى للكوميديا الاتيكية التى أرساها أرستوفان ، وذلك من حيث الطبيعة الخصوبية لهذه العقيدة والشعائر .

ولقد تعطينا فكرة عن مثل ذلك التعبير ، تلك البقايا المتخلفة من الماضى فى شعائر الحصاد ، وطقوس الحرث .

وكثيرا ما نكشف فى ضوء هذه الممارسات ، الطقس الأصلى ، لكثير من الأساطير القديمة فى كل من بلاد اليونان واسكنديناوة .

وقد اشرنا على سبيل المثال ، الى أن اسطورة اوديب الاغريقية القديمة ـ واوديب هو الذى قتل أباه وتزوج امه (آلهة الأرض) ـ هذه الأسطورة نشأت ، فيما نرجح ، من دراما طقسية كانت تعبر عن الصراع بين السنة القديمة والسنة الجـديدة على امتلاك الأرض الخصـبة النافعـة .

وكانت السنة القديمة ، تصور فى أماكن أخرى بصورة والد المرأة ، والسنة الجديدة بصورة زوجها ، وكان من نتيجة ذلك نشوء قصص من نوع اسطورة برزيوس فى بلاد الاغريق وأسطورة بالور فى ايرلندة .

وكان الماردان الذكران ، يبدوان فى شـكل ثالث ، فيظهران على صورة توأمين عدوين .

وعلى أساس هذا التصور نشأت قصة بولدر وهكور النوردية ، وقصة ايكوريس وست المصرية .

بيد أنه فى حالات أخرى عديدة ، لم يكن التطور يصل الى هــذا المدى ، فكانت مواكب الطقوس ، تعتبر كافية للاحتفال بمقدم الربيع . ولعل القارىء يذكر مواكب شباب رودس التى أشار اليها اثينادوس وهى عادة لم تختف تماما من بلاد اليونان الحديثة . ولعله يذكر كذلك طقوس الصيد كما كانت تمارس فى جزيرة الانسان الى وقت قريب .

والكثير من هذه الطقوس — بل اغلبها — قد تلاشى ، بسبب عداء كنيسة العصــور الوسطى على نحــو خاص ، ذلك أن طبعها الوثنى والشعائرى ، كان واضحا فضاحا . فى أكثر الحالات .

غير أنه ينبغى أن نشهد للكنيسة بأنها حاولت جادة أن تعطى شيئا فى مقابل ما أخذته ، بحيث نجد أن تمثيليات الخوارق فى العصــور الوسطى ، ملأت الفراغ نوعا ، وذلك بموضوعاتها المثيرة المأخوذة من الكتاب المقدس أو من سير القديسين ، أو المأخوذة فى العصر الوسيط المتأخر ، من موضوعات وطنية مثل قصة جان دارك فى فرنســا وقصة وبليام تل فى سويسرا .

الفصل الثامن عشر

القوائم الفهرسية العامة

بالمراجع والملاحظات والهوامش

وفهرس الأعلام والمصطلحات

القوائم الفهرسية العـــامة
بالمراجع والملاحظات والهوامش
وفهرس الأعلام والمصطلحات

اضفنا هذا الفصل ، وبوبنا مادته تبويبا يساعد القارىء العربى ـ وكان المؤلف قد الحق بكل فصل على حده ثبتـا بالمراجع والملاحظات . لكنا راينا ان نجمعها معا فى باب واحد نلحقه بالترجمة كلها ، وذلك بهدف التركيز والتيسير .

وسيلاحظ القارىء ان بعض المراجع قد تكرر ذكرها ، او ان بعضها الآخر يعتبر من المصـــادر الأساسية فى علم الفولكلور لذلكاستخلصنا قائمة باهمهذه المراجعوالدوريات وافردناها وحدها .

ووضعت فهرسا بالأعلام والمصطلحات سياتى بعد قائمة المراجع والدوريات .

على ان اهم ما شغل المؤلف ، من جوانب الفولكلور ، هو الحكاية بانواعها ـ ولهذا السبب ، غزرت مراجعها ، وزادت عن المراجع الخاصة بفنون الأدب الفولكلورى الأخرى .

ملاحظات المقدمات والتمهيـــد

وفيما يتصل بصفحات المقدمات والتمهيد عنى المؤلف بأن يشير الى كتاب «مناهج البحث فى الفولكلور» للعالم الفنلندى الكبير كرون K. Krohn وهو هذا المرجع الهام الذى صدر فى أوسلو عام ١٩٢٦ .

والمعروف أن علماء الفولكلور الفنلنديون الذين انشئوا المنهج الجغرافى التاريخى ـ المعروف أيضا بالمنهج الفنلندى ـ قد تركوا تأثيرا واسع المدى، وبعيد النتائج ، على جهود سائر العلماء المعاصرين فى أوروبا وأمريكا .

واما كتاب « الفولكلور كعلم تاريخى » للعلامة الانجليزى سير جورج لورانس جوم Sir George Lawrence Gomme ، فيتعرض له المؤلف بالنقـــد ذلك أنه ذهب الى القول بأن للمـــادة الفولكلورية قيمة وثائقية أو تاريخية ـ وهو الرأى الذى عارضه كراب فى أكثر من موضع .

وواضح أن كراب ، استفاد من الدراسات الموضوعة باللغة الألمانية قدر استفادته من الدراسات الموضوعة بالانجليزية والفرنسية والايطالية ـ وهذه جميعا ، تمثل نمو مدارس الفولكلور الكبرى ـ مضافا اليها اللغة الفنلندية والروسية ـ ثم الأسبانية .

ولقد يبدو شغف كراب بذكر المراجع ، نوعا من استعلاء «فقهاء العلم» لكنه ـ فى حقيقته ـ تعبير عن ضرورة ساقها موضوع كتابه ـ فكراب يتحدث عن علم الفولكلور بعامة ، وهذا العلم ، ليس ثمرة ثقافة واحدة ، بل هو ـ فى تطوره واتساعه ـ ثمرة جهود كثيرة ، ظهرت فى الثقافات واللغات الأوروبية الكبرى ـ ولا مفر للمؤلف من أن يرجع الى أصول هذا العلم ، فى لغاتها .

* * *

الفصل الأول

وفى الفصل الأول يذكر كراب كتاب « الحكاية » لتيمه Das Marchen — A Thimme وقد صدر فى ليبزج عام ١٩٠٩ ثم كتاب « **الحكاية الشعبية الألمانية** » لشبيس Das deutsche Volksmarchen - K. Spiess والمؤلف يدعونا الى أن ننظر فى الدراسات الآتية :

- اسم الحكاية الشعبية وخصائصها لبولت ـ وهذا الكتاب صدر فى هلسنجفورس عام ١٩٢٠ Name und Merkmale des Märchens. J. Bolte

- الحكايات الشعبية ـ لجديون هو Les Contes Populaires Gédéon Huet

- الحكاية الشعبية ـ تأليف ف . فون فندر لاين Das Märchen F.V. do Leyen

وفيما يخص المادة البريطانية : الانجليزية والايرلندية والاسكتلندية والوالية انظر :

- حكايات الجان الانجليزية لجاكوبز English Fairy Tales J. Jacobs

واقرأ لنفس المؤلف :

- مزيد من حكايات الجان الانجليزية .
- مزيد من الحكايات « السلية » .

More English Fairy Tales
More Celtic Fairy Tales

- ولهارتلاند

حكايات الجان الانجليزية
وحكايات فولكلورية اخرى

English Fairy Tales and other Folk-Tales
E.S. Hartland.

ـ وللسير جورج دوجلاس

« حكايات جان اسكتلندية وحكايات فولكلورية » .

Scottish Fairy Tales and Folk Tales

Sir George Douglas

ولبرنج جولد

« حكايات جان انجليزية »

English Fairy Tales

S. Baring Gould

ولرايس

الفولكلور السلتى والوالى

Celtic and Welsh Folklore

John Rhys.

ولما كدوجال

حكايات فولكلورية وحكايات ابطال

Folk and Hero Tales

J. MacDougall

ـ ولماك انز

حكايات فولكلورية وحكايات ابطال

D. MacInnes

ـ ولكيرتن

الأساطير والفولكلور

Myths and Folklore

J. Curtin

ـ ولنفس المؤلف :

حكايات الأبطال فى ايرلندة

Hero Tales of Ireland

ولبروير

« الحكايات الشعبية لبريطانيا العظمى »

Contes populaires de la Grande-Bretagne

L. Brueyre

ـ ولدوتن

حكايات وخرافات ايرلندة	Contes et légendes d'Irlande
	G. Dottin

ـ ولنفس المؤلف :

« حكايات ايرلندية	Contes irlandais

* * *

الهـــوامش

(١) كرون Krohn

منهج البحث الفولكلورى

وفيما يتعلق بفهارس نماذج الحكايات انظر كتاب ا . آرنى A. Aarne الموسوم بـ « ثبت بنماذج الحكايات الشعبية » الصادر فى هلسنجفورس عام ١٩١٠ (مطبوعات أصدقاء الفولكلور العدد الثالث) والطبعة الانجليزية المزيدة لستيث طومسون Stith Thompson الصـــادرة عام ١٩٢٨ فى العدد ٧٤ من مطبوعات أصدقاء الفولكلور .

(٢) ما زلنا نأمل فى صدور ثبت شامل جامع لكل « الموتيفـــات » المعروفة ولكنى فهمت أن مثل هذا الثبت يجرى الآن اعداده ، وينهض بهذا العمل ، البحاثة الأمريكى ستيث طومسون . ويكفى الآن أن ننظر فى كتاب ا . كريستنسن « الجزئيات المتكررة والتيمات » الصادر فى هلسنجفورس عام ١٩٢٥ ـ العدد التاسع والخمسون من مجلة أصدقاء الفولكلور .

(٣) اكبر مجموعة من النصوص المستحدثة هى مجموعة ج . بولت J. Bolte و ج بوليفكا G. Polivka فى كتابهما « ملاحظات على حكايات الاخوين جريم » الصادر فى ليبزج عام ١٩١٣ ــ ١٩١٨ فى ثلاثة مجلدات ــ المجلد الرابع تحت الطبع .

(٤) وفيما يتعلق بالمادة الأفريقية ، انظر الثبت الجيد الذى ضمنه آرنى وطومسون فى كتابهما « نماذج الحكاية الشعبية » الصادر فى هلسنجفورس عام ١٩٢٨ ــ العدد ٧٤ من مطبوعات أصـدقاء الفولكلور صفحة ١٨ وما بعدها .

(٥) الطبعة المعتمدة أشرف على نشرها جوزيب روا Giuseppe Rua ــ بولونيا ١٨٩٩ الى ١٩٠٨ ـ بارى ١٩٢٧ .

(٦) هذا المؤلف مكتوب باللهجة النابوليتانية وقد ظل مؤلفا نادرا للغاية الى أن قام كروتشه B. Croce باصدار طبعة نقدية له . وفى هذه الطبعة نشر جزءا واحدا لا غير . والأفضل ــ من الناحية العملية ــ أن ننظر فى ترجمة هذا المؤلف الى الايطالية الحديثة التى قام بها كروتشه . وصدرت بعنوان « الحكايات الخمسون أو حكاية الحكايات » وهى فى جزئين نشرا فى بارى عام ١٩٢٥ .

(٧) تستطيع أن تجد استقصاء جيدا فى المجلد الثالث من حكايات الأخوين جريم التى صدرت لأول مرة عام ١٨٢٦ ثم أعيد طبعها فى طبعة ركلام وكذلك أنظر كتاب شارل دنلن Charles Denlin « حكايات أمى الأوزة قبل بيرو » الصادرة فى باريس عام ١٨٧٩ .

(٨) مضابط الجمعية الانتروبولوجية فى فينا ــ العدد ٣١ ــ من صفحة ٦٢ الى صفحة ٧٠ .

(٩) انظر كتاب الكزاندر هاجرتى كراب (المؤلف) عن العين الحاسدة الصادر فى نيويورك عام ١٩٢٧ ــ صفحات ٤٤ الى ٧٩ .

(١٠) البانتشاترا ليتودور بنفى Th. Benfey ليبزج ١٨٥٩ ــ وعدد من الدراسات التى اضطلع بها هذا العالم الكبير أعيد طبعه فى « الشرق والغرب » الصادر فى جتنجن عام ١٨٦٢ الى ١٨٦٤ ــ ثم أعيد طبع أجزاء منها ــ بعد وفاة بنفى ــ فى مؤلفاته الصغيرة ــ برلين ١٨٩٠ الى ١٨٩٢ .

وهناك حاجة ماسة الى اصدار ترجمة انجليزية منقحة لمؤلفات بنفى الفولكلورية العظيمة ، ذلك أن المؤلفات الألمانية الأصلية ، قد نفدت منذ وقت طويل .

(١١) المجلة الأمريكية للفيلولوجيا العدد ٥٩ صفحات ٢٦٧ الى ٢٧٥ .

(١٢) جوزيف بيديه Joseph Bédier « الفابليو » باريس ١٨٩٣ .

(١٣) انظر ــ بخاصة ــ كتابه « العادة والأسطورة » الصادر فى لندن عام ١٨٨٥ و « الأسطورة والطقس والدين » الصادر عام ١٨٨٧ وكتابه « الميتولوجيا الحديثة » ١٨٩٧ وأصول الديانات الصادر عام ١٩٠٨ .

(١٤) « الفولكلور كعلم تاريخى » وانظر كذلك للمؤلف كتابه « الاثنولوجيا فى الفولكلور » الصادر فى لندن عام ١٨٩٢ .

(١٥) طفولة القصص . لندن ١٩٠٥ .

(١٦) قارن على سبيل المثال ، الدراسة الممتازة لحكاية الزوجة الخائنة التى ظهرت فى العـــدد الثالث عشر من Zeitschrift des Veriens für Volkskunde عام ١٩٠٣ من صفحة ١ الى ٢٤ ومن صفحة ١٢٩ الى صفحة ١٤٩ .

(١٧) دراسات فولكلورية . باريس عام ١٩٢٢ .

(١٨) مجلة المأثورات الشعبية العدد ٢٧ الصادر عام ١٩١٢ ــ صفحات ٣٣٧ وما بعدها و ٣٩٤ وما بعدها و ٤٩٧ و ٥٤٥ وما بعدها .

(١٩) قارن كرون منهج البحث الفولكلورى ــ فيما يتصل بالتطبيق العملى لهذا المنهج ــ قارن الرسائل التالية :

أ . ارنى ــ دراسات مقارنة فى الحكاية ــ هلسنجفورس ١٩٠٧ .

رجل من الفردوس . نفس الموضع ــ ١٩١٥ (مجلة اصـــــدقاء الفولكلور عدد ٢٢) .

ــ الرجل الثرى وزوج ابنته ــ نفس الموضع ــ ١٩١٥ مجلة اصدقاء الفولكلور عدد ٢٣ .

ــ الحيوانات المتجولة ــ نفس الموضع ــ ١٩١٣ ــ عدد ١١ .

ــ الرجل الذى يعرف الحيوان وزوجته المحبة للاستطلاع ــ نفس الموضع ١٩١٤ عدد ١٥ .

ل . مكنزن L. Mackensen « العظمة التى تغنى » نفس الموضع ١٩٢٣ عـــدد ٤٩ .

أ . فيلبسون E. Philippson « نموذج حكاية الملك درسنبارت » (الخناق) نفس الموضع ١٩٢٣ ــ عدد ٥٠ .

ن . ب . اندريف N.P. Andrejew « الحكاية الخرافية عن آثمين » نفس الموضع ١٩٢٤ ــ عدد ٥٤ .

قارن مجلة علم اللغة الانجليزية والجرمانية العـــدد ٢٥ ص ٢٦٣ الى ٢٦٩ .

أ . هـ . كراب « حكاية خرافية عن القديس أويستاكيو — Nuovi Studi Medievali — العدد الثالث ص ٢٢٣ — ٢٥٨ .

يان ديفريز Jan de Uries حكايات الأذكياء الذين يحلون الألغاز — هلسنجفورس ١٩٢٨ — مجلة أصدقاء الفولكلور العدد ٧٣ .

وفيما يتعلق بحياة آنتى أرنى وأعماله انظر ك . كرون فى مطبوعات أصدقاء الفولكلور عدد ٦٤ لسنة ١٩٢٦ .

(٢٠) قارن أ . فسلسكى Wesselski « حكايات العصر الوسيط » برلين ١٩٢٥ .

(٢١) خرافة برزيوس لهارتلاند — لندن ١٨٩٤ .

(٢٢) Neuphilologisch Mitteilungen العدد السادس عشر .

(٢٣) ج . ياكوب G. Jacob « الحكاية والحلم » هانوفر ١٩٢٣ — قارن M.L.N. العدد ٤٠ ص ١١٢ — ١١٥ .

(٢٤) نماذج الحكاية الشعبية — لآرنى وطومسون صفحات ٧٤ وما بعدها وانظر كتاب هارتلاند « علم حكايات الجان » الصادر فى لندن عام ١٨٩٠ .

(٢٥) بورتون Burton الجزء الأول صفحة ١٢٨ وما بعدها .

(٢٦) لغز أبى الهول برلين ١٨٨٩ .

(٢٧) دراسات فى الميثولوجيا والفولكلور الجرمانى لالكزاندر هاجرتى كراب — باريس ١٩٢٨ صفحات ١٢٨ الى ١٣٥ .

(٢٨) Modern Language Notes العدد الأربعون صفحة ١١٤ .

(٢٩) حكايات پيرو والحكايات المشابهة ب . سانتيفز P. Saintyves باريس ١٩٢٣ .

(٣٠) لمتعة القارىء أشير الى كتاب كارل ابرهام المعنون « الأحلام والأساطير » دراسة فى الاحتباس (هكذا !) وعلم النفس نيويورك ١٩١٣ . والكتيب ترجمة عن الألمانية . ومن الواضح أن ترجمة مثل هذا الهراء ،

تدر مالا ، على حين أننا لا نجد مالا لترجمة الكتب ذات القيمة المعتمدة مثل كتب تيودور بنفى وكوسكان وهوت .

(٣١) ج بولت «شواهد عن تاريخ الحكاية» هلسنجفورس ــ ١٩٢١ ــ مطبوعات أصدقاء الفولكلور العدد ٣٩ .

(٣٢) Archivum Romanicum العدد التاسع صفحة ٣٤٧ .

(٣٣) المرجع السابق العدد الخامس صفحة ٣٩٨ وما بعدها والعدد ١١ صفحة ١٦٣ وما بعدها .

(٣٤) المرجع السابق العدد التاسع صفحات ٣٤٧ وما بعدها وقارن كذلك ما قاله هـ جرسمان H. Gressmann بعنوان « أصل قصة يوسف وتطورها » فى مجلة « أوى خارستليون » Eucharisterion وقد اهداها جرسمان الى هـ . جنكل ــ جتنجن ١٩٢٣ ص ١ الى ٥٥ .

(٣٥) ا . هاكمان O. Hachmann « حكاية بوليفيموس فى المأثورات الشعبية » ــ هلسنجفورس ١٩٠٤ .

(٣٦) انظر كتاب « التاريخ الشعرى للميروفيين » لجودفريود كورت Godfroid Kurth الصادر فى باريس عام ١٨٩٣ صفحة ٢٩٤ .

(٣٧) فيما يتعلق بخرافات العصور الوسطى عن جريجور ويهوذا والقديس البان أنظر كيلر جزء ١١ صفحات ١٧٣ وما بعدها وسير جيمس فريزر فى كتابه « فن السحر وتطور الملوك » الصادر فى لندن عام ١٩١١ صفحات ١٠٧ وما بعدها وكتاب فريزر كذلك « الفولكلور والعهد القديم » الصادر فى لندن عام ١٩١٨ الجزء الثانى صفحة ٥٦٥ .

(٣٨) ر . ايزلر R. Eisler « معطف العالم وخيمة السماء » ميونيخ ١٩١٠ .

(٣٩) الفولكلور عدد ٣٤ صفحة ١٤١ الى ١٤٧ .

(٤٠) قارن ــ فيما يتعلق بالحيوان الخادم فى العصور القديمة ــ كتاب ا . ماركس A. Marx الموسوم بـ « حكايات اغريقية عن الحيوانات المعترفة بالجميل » شتوتجارت ١٨٩٨ .

(٤١) ج . هـ . جـيـرولد G.H. Gerould « الميت الشكور »
لندن ١٩٠٨ ـ آرنى وطومسون صفحات ٧٧ وما بعدها .

(٤٢) فيما يتعلق باستراق السمع انظر بولت وبوليفكا الجزء الثانى صفحـة ٤٨١ وما بعدها وتونى وبنزر فى كتـابه « محيط القصص » لندن ١٩٢٤ وذلك فى صفحة ٤٨ من جزئه الأول وصفحات ١٠٧ و ٢١٩ وما بعدها من جزئه الثانى وصفحات ٤٨ و ٦٠ و ٧٢ من الجزء الثالث وصفحات ٧٢ من الجزء السابع .

(٤٣) تونى وبنزر الجزء الثالث صفحات ٤٨ و ٦٠ و ٦٢ والجزء السابع صفحة ٢٣٥ وكتاب ف . أ . ســتيل F.A. Steel وعنوانه « حكايات البنجاب » الصـادر فى لندن عام ١٨٩٤ ـ صفحة ١٦٥ . وأنظر كذلك كتاب « الچاتاكام » لدوتويل Dutoil الصادر فى ميونيخ بين ١٩٠٦ و ١٩٢١ وذلك فى صفحة ٢٩١ من جزئه الرابع وانظـر صفحة ١٤٠ من كتاب « دراسات فى الأدب القصصى الهندى » ليارل شربنتيه Jarl Charpentier الصادر فى اوبسالا عام ١٩٠٨ .

وصفحة ٨٩ من كتاب « حكايات بوذية من الهند القديمة » لـ . أ ليدرز E. Lüders يينا ١٩٢١ .

وانظر فسلسكى ـ فى مرجعه السابق ـ صفحة ٢٠٣ .

(٤٤) صفحة ٢١ وما بعدها من العدد الحادى والعشرين من
The classical Journal

(٤٥) صفحة ٩٩ وما بعدها من آرنى وطومسون .

(٤٦) صفحة ٢٤٩ الى ٢٦٧ من
Rheinisches Museum Für Philologie

(٤٧) سيجد القارىء الانجليزى وصفا جيدا لمثل هـذه المجتمعات فى رواية سكوت الرائعة : فتاة جميلة من برت .

(٤٨) بولت وبوليفكا الجزء الثانى صفحات ١٠٠ و ٥٩٩ .

(٤٩) د . بتش R. Petsch « النهايات التقليدية للحكايات الشعبية » برلين ١٩٠٠ .

(٥٠) ظهور الملاحم الاغريقية ــ اوكسفورد ١٩٢٤ صــــفحات ١٢٠ وما بعــدها .

(٥١) انظر « برزيوس » لهارتلاند وصفحات ١ و ٥٢٨ من الجزء الأول ليولت ديوليفكا .

(٥٢) انظر أ . كوسكان E. Cosquin في صفحة ٦٩ من « مضابط مؤتمر ١٨٩١ الدولى للفولكلور » الصادر فى لندن عام ١٨٩٢ .

(٥٣) أ . هـ . بوست A.H. Post « أصول التشريعات الاثنولوجية» أولدنبرج وليبزج ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥ ــ الجزء الأول صفحة ٣٠ .

و ا . زمتر E. Samter

« الميلاد والزفاف والموت » ليبزج برلين ١٩١١ صفحة ٤٨ .

(٥٤) صفحة ٢٠٣ وما بعدها الجزء الثالث من « برزيوس » لهارتلاند.

(٥٥) آرنى وطومسون صفحة ٥٠ من العدد ٣١١ .

وأنظـــر كذلك ف . برى F. Brie « تشايلد رولاند » نشرت فى « دراسات انجيلية » وكانت قد وضعت تكريما لبلوغ لويس براندل سن السبعين ــ باليسترا عدد ١٤٨ صفحة ١١٨ الى صفحة ١٤٣ .

* * *

الفصل الثـــانى

(٥٦) انظر لجوزيف بدييه J. Bédier « الفابليو » الصادر فى باريس عام ١٨٩٣ ولباربازان Barbazan .

« الفابليو وحكايات الشعراء الفرنسيين فى القرن السابع والثـامن والتاسع والخامس عشر ، مختارة لخير المؤلفين » صدرت فى باريس ١٧٥٦ واعيد طبعها ، وتنقيحها على يد ميون Méon فى باريس عام ١٨٠٨ .

وانظــر

« الفابليو أو الحكايات المختصرة عن النصوص الفرنسية للقرن الثانى عشر والثالث عشر » وقد ترجمها شـــعرا الى الانجليزية . ج ل . ناى G.L. Nay ونشرها فى لندن عام ١٨١٥ .

وانظــــر

ف . هـ فون درهاجن F.H. Von der Hgen « مجموعة قصص المغامرات الكبرى » الصادرة فى شتوتجارت عام ١٨٥٠ غــير أن أهـــم مجموعة من نصوص الحكايات المرحة المستحدثة ، تجدها فى طبعـــة يوها نسبولت للكتاب الذى وضعه پاولى Pauli بعنوان « الهزء والجد » Schimf und Ernst الصادر فى برلين عام ١٩٢٤ .

وقارن كذلك ل . ف . فبــر Weber « الحــكايات والدعابات الفكاهية » وهى رسالة جامعية صدرت فى كيل عام ١٩٠٤ .

(٥٧) فيما يتعلق بالتطبيق العملى للمنهج الفنلندى ــ وبالنســـبة للحكايات المرحة ــ قارن الرسـائل الآتية :

ــ أ . ارنى « دعابات عن ثقيلى السـمع » الصادر فى هلسنجفورس ١٩١٤ « مطبوعات أصدقاء الفولكلور عدد ٢٠ » .

ــ « الرجل القادم من الفردوس » نفس المرجع ــ عدد ٢٢ ــ عام ١٩١٥ ف . اندرسون .

« القيصر وكبير الرهبان »

المرجع السابق عدد ٢٤ ــ لعام ٢٣ .

شتبون D. Steppuhn

« خرافة الحيوان الدائرة حول الراهب المهذب ونصوصها الأصلية » كونجسبرج ١٩١٣ .

ف . زوخير W. Suchier

« نادرة الجثة التى صرعت اربع مرات فى ادب الغرب والشرق » ــ هاله ــ ١٩٢٢ .

(٥٨) انظر صفحة ٧٨ المجلد الأول من «Novellistica» للتراريو دى فرانشيا Letterario di Francia الصادر فى ميلانو ١٩٢٤ .

(٥٩) أ . زارنكه E. Zarnche

« الحكايات المرادفة لحكاية الخطف فى قصة الجندى المجيد »

المنشورة فى صفحة ١ الى صفحة ٢٦ من العدد التاسع والثلاثين ــ الصادر عام ١٨٨٤ من Rheinisches Museum Für Philologie

وانظـــر

أ . هيلكا A. Hilka

« ارتحال قصة الحبيسة المأخوذة من الكتاب الشعبى عن الحكمـاء السبعة » عدد ١٩ من Mitteilungen der Schlesischen Gessels haft für Volkskunde صفحات ٢٩ الى ص ٧٢ .

وانظـــر

ف كونتزه F. Kuntze

« جزئية هزلية متكررة مأخوذة عن بلاوتوس فى الآداب العالميــة » الحوليات الجديدة لعلم وتربية الشباب ــ الجزء الأول (عام ١٩٢٥) من صفحة ٧١٧ الى صفحة ٧٢٨ .

(٦٠) أ . جريزباخ E. Grisebach

« ارتحال الأرملة العاقة فى الأدب العالمى » برلين ١٨٨٩ .

وانظر صفحة ٢١٠ من كتاب شوفان الجزء الثالث .

(٦١) ر . كوهلر R. Köhler

« مقالات عن الحكايات والأغانى الشعبية » صفحات ١١٨ وما بعدهاـ برلين ١٨٩٤ .

(٦٢) أ . ڤانيرايش O. Weinreich

« خديعة فكتانيبوس »

برلين دليبزج ــ ١٩١١

(٦٣) انظر Neophilologus صفحة ٩٠ العدد ١٤

(٦٤) انظر

ــ ت . أ . كرين (T.E. Crane)

ــ د جوزفين فرنكن Goswin Frenken من كتاب « المواعـــظ الدارجة ــ ليعقوب الڤترى Jacob von Vitry الصادر فى ميونيخ ١٩١٤.

وجـــوزيف جـريفن Joseph Greven فى كتـــاب « المواعـظ الدارجة ومواعظ الاحتفالات الدينية » ليعقوب الفترى الصادر فىهيدلبرج عام ١٩١٤ .

(٦٥) انظر كتاب « المواعظ » El Libro de los Enxiemplos الذى نشره د . باستوان دجياندوس فى « كتابات نثرية قبل القـــرن الخامس عشر » مكتبة الكتاب الأسبان من صفحة ٤٤٣ الى صفحة ٥٤٢ .

وقارن فيما يتعلق بمادة ممتـــازة لم يسبق نشر اغلبها ـ كتاب س . ج . ن دفويز C.G.N. De Vooys الموسوم ب « الأنساب والمواعظ الهولندية » .

وانظر صفحة ٦١ وما بعدها من العدد الثالث والأربعين من مجـــلة Modern Language Notes

(٦٦) كان استعمال المواعظ ـ أو الحكايات الشارحة ـ معروفا فى العالم القديم غير ان الحكايات الشارحة كانت تستنبط من الأساطير .

انظر فى هذا الموضوع كتاب « المواعظ الميتولوجية فى الأدب الاغريقى القديم » لـ « ر . اوهلر R. Oehler الصادر فى آراو عام ١٩٢٥ .

وانظر صفحة ٢٢٠ وما بعدها من الجـــزء الرابع من « محاضرات مكتبة فاربورج » لـ « ف . دورنزايف F. Dornseiff » .

(٦٧) أغلبها موجود فى كتاب « جمع قصص المغامرات » لـ « ف . فندرهاجن » .

(٦٨) راجع كتاب « أقاصيص» Novellistica الذى وضعه ليتراريو ديفرانشيا ـ الجزء الأول ـ ميلانو ١٩٢٤ ـ تاريخ الأنواع الأدبية الايطالية Storia dei generi letterari italiani

(٦٩) أنظر : « كتاب مواعظ لوكانور وبترونيو »

El libro de los enxiemplos del conde

Lucanor et de Petronio

وقد نشره هـ . كنوست و أ . بيش هيرشفيلد فى مدينة ليبزج عـــام ١٩٠٠ .

(٧٠) انظر صفحات ١٥١ وما بعدها من كتاب « شعر العصـــور الوسطى » La Poésie de moyen Age الذى نشره جاستون بارى عام ١٩١٣ فى باريس .

(٧١) أشهرها المجموعة التى تحمل عنوان Facetiae التى وضـعها پوجيو براسيولينى سكرتير البابا وكتبها بلغة لاتينية رفيعة .

انظر كتاب ديفرانشيا السابق ذكره صفحات ٥٣٥ وما بعدها .

(٧٢) قارن كتاب أ . اندريه « اضطراد الخرافات وقصص الأنساب ومواد قديمة أخرى » المنشور فى ص ٣٢١ الى ٣٥٣ من العدد ١٦ من « أبحاث رومانية » ــ عام ١٩٠٤ .

* * *

الفصـــل الثالث

(٧٣) ان أوفى مجموعة من قصص الحيوان ، والتى ألحقت بها تعليقات ممتازة ، وتعتبر أنموذجا للوضوح والدقة ، تجدها فى كتاب « الســير الطبيعية » Natursagen الذى نشره دنيهارت O. Dähnhardt

فى ليبزج وبرلين بين عامى ١٩٠٧ و ١٩١٢ .

قارن كذلك لنفس المؤلف

« الحكايات الشعبية المستمدة من التاريخ الطبيعى Naturgeschichtliche Volksmärchen » نفس الموضع ١٩١٢ الى ١٩٢١ .

وانظر كتاب جاستر Gaster « قصص الطير والوحش الرومانية » Rumanian Bird & Beast Stories الصادر فى لندن ١٩١٥ .

وانظر صفحات ٢٢ وما بعدها من آرنى وطومسون .

(٧٤) ك . كرون K Krohn « الدب والثعلب » Bär und Fuchs هلسنجنورس ١٨٩١ .

وارنى وطومسون (صفحة ٢٢) .

(٧٥) الفولكلور فى التـوراة لسـير جيمس فريزر Folklore in The Old Testament صفحة ٤٥ وما بعدها من الجزء الأول .

(٧٦) « اضافات الى البحوث المقررة عن حكايات السير والحكايات بعامه » ليبزج ١٩٠٨ ـ مناهج الدراسة بمعهـد القـديس توماس صفحة ١٠ .

(٧٧) صـفحة ١٣٣ وما بعـدها من كتـاب « فولكلور شكسبير Folklore of Shakespeare — لداير Dyer الصادر فى لندن ١٨٨٣ .

وصفحة ٢٥ من الجزء الثانى من كتـاب « الميتولوجيا الشمالية » Northern Mythology لـ (ب . ثورب (B. Thorpe وصفحة ١٣١ من الجزء الثالث من « السير الطبيعية » لدنهارت

(٧٨) يجد القـارىء مناقشة فريدة لهـذه المشـكلة فى كتـاب Les fabliaux لجوزيف بديه (صفحات ٩٤ وما بعدها) وكذلك خـرافات ايسوب The Fables of Aesop ليعقوب J. Jacobs الصـادر فى لنـدن ١٨٨٩ .

(٧٩) عن نمـاذج الخـرافة الاغريقية والرومانية القديمـة راجع الكتاب الممتـاز الذى وضـعه ف . فينرت W. Wienert بعنوان « نماذج الخرافات الاغريقية الرومانية » وان استقصاء مشابها للخرافة الهندية والسامية ليعتبر أمرا مرغوبا فيه أشد الرغبة .

(٨٠) انظر صفحات ٥١٠ وما بعدها من مجـلة ميركير دفرانس ١٩٠٢ـ بعنوان « حياة الحيوان والغايات الأخلاقية فى خرافات لافونتين » لريمى دجورنمونت .

(٨١) خير دراسة وضعت فى هذا الموضوع هى « حكاية رنيـار » للوسيان فوليه ـ باريس ١٩١٤ .

(٨٢) الثعلب رنيار Reinhart Fuchs برلين ١٨٣٤ .

(٨٣) ف . شرر W. Scherer « يعقوب جريم » برلين ١٨٦٥ .

(٨٤) أ . ڤينشه A. Wünsche
« حكايات النبات الخرافية فى الأدب العالمى » ليبزج وفينيا ١٩٠٥.

(٨٥) صفحة ٤٧١ وما بعدها الجزء الثانى من « الفولكلور فى التوراة ».

* * *

الفصل الرابع

قائمة فهرسية عامة : انظر

ــ « قصص الأنساب »
لـ (أ . ڤيرهان E. Wehrehan المطبوع فى ليبزج عام ١٩٠٨ .
وهذا الكتاب يشتمل على قوائم فهرسية للمواد غير الألمانية .

ــ الأساطير ، والحكايات ، وقصص الأنساب لمؤلفه أ . بيته E. Bethe

ــ المشكلات الأساسية فى دراسة قصص الأنساب الشعبية .
لمؤلفه ف رنكه F. Ranke

(٨٦) ان المرجع المعتمد ، والنموذجى ، لسائر مجموعات قصص الأنساب لهو هذا المؤلف المتفرد الذى وضعه الاخوان جريم بعنوان « قصص الأنساب الألمانية » وقد صدر عام ١٨١٦ ــ ١٨١٨ .

(٨٧) قصص الأنساب الشعبية الدانيمركية لمؤلفه ج . م . تيله Thiele ــ كوبنهاجن ١٨١٣ ــ ١٨٢٣ .

(٨٨) انظر كتاب ك . ماورر Maurer وعنوانه « قصص الأنساب الشعبية المعاصرة فى ايسلندة » ــ ليبزج ١٨٦٠ .

(٨٩) ملاحظات على فولكلور المقاطعات الشمالية من انجلترا لهندرسون Henderson ــ لندن ١٨٧٩ .

ــ ملاحظات على فولكلور شمال شرق اسكتلندة لجرجور W. Gregor ــ لندن ١٨٨١ .

(٩٠) ستجد المواد الانجليزية ، عادة فى مجلات Folklore Record

ما بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ و The Folklore Journal لفترة ١٨٨٣ الى ١٨٨٩ و The Folklore للفترة التالية بعد ذلك .

ـ والمادة الفرنسية تجدها فى مجلة المأثورات الشعبية Revue des traditions populaires لفترة ما بين ١٨٨٦ و ١٩١٤ .

ـ والمادة الايطالية تجدها فى مجلة ارشيف دراسة المأثورات الشعبية Archivio per lo studio della tradizioni popolari عن الفترة ١٨٨٢ الى ١٩٠٩ .

والمادة الألمانية والنمسوية والسويسرية تجدها فى مجلة اتحاد علم الفولكلور Zeitschrift des Vereins für Volkskunde لسنوات ١٨٩٠.

ومجلة علم الفولكلور النمسوية Zeitschrift für österreichische Volkskunde للفترة ما بين ١٨٩٥ الى ١٩١٧ .

وكذلك فى مجلات جمعية الفولكلور السيليزية لعام ١٨٩٩ وما بعده .

وصحف هسن لعلم الفولكلور لسنوات ١٩٠٢ وما بعدها .

والأرشيفات السويسرية لعلم الفولكلور لعام ١٨٩٧ وما بعده .

وتجد المادة الهولندية والبلجيكية فى نشرة الفولكلور Bulletin de Holklore فى الفترة من ١٨٩١ الى ١٨٩٨ .

وكذلك فى مجلة « الفولكسكونده » الصادرة فى جنت منذ عام ١٨٨٨.

وأما المواد السلافية فستجدها فى Archiv für slavische philologie من عام ١٨٧٦ الى ١٩١٣ .

وسيجد القارىء عددا من دوريات الفولكلور مذكورة فى صفحة ٥٦٠ وما بعدها من الجزء الثالث من كتاب بولت . وبوليفكا السابق الاشارة اليه .

وقد نضيف ، للتيسير على القارىء الانجليزى ، أن مادة أوروبية موثوق بصحبتها ، موجودة فى كتاب « الميتولوجيا الشمالية » لصاحبه ثورب Thorpe والذى أصدره فى لندن عام ١٨٥١ .

وكذلك فى كتاب توماس كايتلى وعنوانه « ميتولوجيا الجن » الصادر فى لندن عام ١٨٩٢ .

(٩١) فن السحر وتطور الملوك للسير جيمس فريزر ـ لندن ١٩١١ (انظر صفحة ١٨٠ من الجزء الثانى) .

(٩٢) أ . كرن O. Kern صفحات ١٣٥ وما بعـدها من كتابه « ديانة الاغريق » Die Religion der Griechen

(٩٣) القابلات الشمالية لموت پان . لمؤلفه أ . تايلور A. Taylor

(٩٤) التراجيديات والكوميديات الدائرة حول المعتقدات الخرافية الشعبية Tragödien und Kömodien des Aberglaubens

ـ مغامرات انطون كراتس شارفنشتاين العجيبة والساحر الطـائر والبسـتان .

العدد الثالث صفحة ٦٠ ـ (١٨٩٩) .

(٩٥) من هذه الفقرة ذاتها ، استمد دلتف ليلنكرون قصيدته الصغيرة المعروفة « آه ! لو كنت راعيا ! » .

(٩٦) انظر « دراسات فى الميتولوجيا والفولكلور الجرمانيين » صفحات ١٢٨ وما بعدها .

(٩٧) صفحة ٨٩ وما بعدها ـ العدد ١٧ ـ سنة ١٩٠٦ من «الحوليات الجديدة فى الدراسات الكلاسيكية » لـ (ك . ديترش K. Dieterich ولمزيد من الأمثلة انظر كتاب فى شوف Schoof « اشتقاق الأسـماء الشعبية وبناء قصص الأنساب » .

(٩٨) صفحات ١١٨ وما بعدها من آرنى وطومسون وصفحة ٤١١ من عدد ١١ لسنة ١٩٠٨ من « أرشيف علم الديانات » « لپول كاله B. Kahle » .

(٩٩) ب ڤاجلر P. Wagler

ـ شجرة السنديان فى العصور القديمة والحديثـة ـ الجـزء الثانى ١٨٩١ وقد نشرت فى مجموعة دراسات برلين فى علمى اللغـات الكلاسية ، وعلم الآثار الكلاسية العدد ١٣ المجلد الثانى صفحة ٧٨ وبها أمثـلة أخرى .

(١٠٠) بيتر أ . منش Peter A. Munch « الميتولوجيا النوردية » صفحات ٢٨٦ وما بعدها .

وانظر صفحة ٤٧٢ وما بعدها من العدد العاشر من «حوليات جديدة» Neue Jahrbücher الصادر عام ١٩٠٢ ـ دراسة ج . زيفرت G. Siefert .

(١٠١) صفحة ٤١ من الجزء الأول من « معجم علم الآثار الجرمانية الشمالية » لشرادر Shrader

(١٠٢) صفحة ٧٦٤ الجزء الأول من Real — Encyklopadie لپاولى وڤيسوڤا Pauly — Wissowa.

(١٠٣) ص ٣٧٦ وما بعدها من الجزء العاشر من « حوليات جديدة » لزيفرت ويبدو أنها غير موجودة فى اسكندناوة لكنها من ناحية ثانية ، تجد مقابلا لها فى فقرة أصابع القدمين . كذلك أنظر صفحة ٣٦ وما بعدها من كتاب « الميتولوجيا السكندناوية » لكرون .

(١٠٤) فيما يتصل بالجان الايرلندى أنظر صفحة ٢٧٠ وما بعدها من الكتاب الذى وضعه موخ R. Much بعنوان « دراسات فى علم اللغة الجرمانية » وهو الكتاب التذكارى المقدم للعلامة ر . هاينز فى هاله عام ١٨٩٢ .

(١٠٥) قارن . ج يونجباور « قصة الأنساب التى تدور حول جبال روبتسال » ـ رايشتبزج ١٩٢٣ .

(١٠٦) انظر صفحات ٤٢٦ وما بعدها من كتاب « هيرتس » Hertz « دراسات مجمعة » ـ شتوتجارت ١٩٠٥ .

(١٠٧) قارن ما كتبه ك . شبيس K. Spiess بعنوان « القصص الغنائى الشعرى الألمانى عن عروس انسان الماء وزوجته ڤاسرمان » ـ وذلك فى العدد ٧٢ من Archiv für das Studium der neueren Sprachen und Literaturen .

(١٠٨) انظر ف فيشر
« المردة ومصاص الدماء والانسانة الذئبة فى التاريخ وقصص الأنساب » شتوتجارت ١٩٠٦ .

وانظر كذلك صفحة ٦٢ من الكتـاب الذى وضعه ڤرهان Wehrban بعنوان Die Sage .

وصفحات ٢٠ وما بعدها من كتاب « ناومان » الموسوم بـ « ثقافة الجماعات البداية »

وصفحة ٢١٧ من كتاب Abbot وعنوانه « الفولكلور المقدونى »

وصفحة ٢٠٥ من العدد ٤٩ لسنة ١٩٢٢ ــ من « الحوليات الجديدة » مقال أ . ماص E. Maass

(١٠٩) أنظر كتاب هيرتس Hertz وعنوانه «Der Werwolf» الصادر فى شتوتجارت عام ١٨٦٢ .

(١١٠) أ . فنشه A. Wünche
« مجال قصة الأنساب الدائرة حول الشيطان المخدوع » ڤينيا ١٩٠٥

* * *

الفصل الخامس

التناول الذى أوردناه هنا ، يعتبر أول تناول ــ فيما أعلم ــ للخرافة المهاجرة باعتبار أنها قسم منفصل متميز من الفولكلور الشـــفاهى . والمادة موجودة فى الكتب التى أشرنا اليها من قبل فى فصل الخرافات المحليـــة .

وفضلا عن الدراسات التى ذكرناها فى المتن ، ينبغى التنويه بالأبحاث التالية التى تتناول قصصا مفردة من الخرافات المهاجرة .

هذه الأبحاث هى دراسة ج هو Huct « خرافة تمثال ڤينوس » فى مجلة تاريخ الديانات لعام ١٩١٣ .

و « خرافة ابنة هبقراط » المنشورة فى فهرس مدرسة الوثائق .

وصفحة ٥٢٣ وما بعدها من كتاب « الشـاب الذى تزوج من تمثال » دب . فى بوم Baum

(١١١) يجوز لى أن أضيف الى المادة المذكورة ، صفحة ٢٣٥ من كتاب

« البقايا الاتروسكية فى المأثورات الشعبية » للاند Leland الصادر فى لندن عام ١٨٩٢ .

وصفحة ١٢٩ من كتاب

« خرافات فرجيل غير المنشورة » لندن ١٨٩٩ .

(١١٢) أنظر كتاب بيرنج جولد Baring Gould وعنوانه « أساطير العصور الوسطى الغريبة » .

وصفحة ١ الى ١٦ من كتاب «حول علم الفولكلور» Zur Volkskunde لمؤلفه ف . لبرشت F. Liebrecht

(١١٣) قارن هـ . ناومان Naumann « ثقافة الجماعات البدائية » Primitive Gemeinschaftskultur .

(١١٤) انظر كتاب « تانهاوزر وجبل فينوس » لبارتو
Tannhauser & the mountain of venus — P.S. Barto
الصادر فى نيويورك عام ١٩١٦

(١١٥) صفحة ٢٨ من فيرهان وصفحة ١٧٠ وما بعدها من كتاب « علم حكايات الجان » لهارتلاند The Science of Fairytales

وانظر كذلك كتاب فر . كامبرز Kumpers وعنوانه « فكرة القيصر الألمانية فى قصص الأنبياء وقصص الأنساب » .

(١١٦) صفحة ٦ من الجزء الثانى من كتاب «تاريخ عظماء البريطانيين» Historia Majoris Britanniae الصادر فى باريس عام ١٥٢١.

(١١٧) صفحة ١١٥ وما بعدها من كتاب سير جيمس فريزر
The Magic Art and the Evolution of Kings.

(١١٨) صفحة ١٩ وما بعدها من الجزء الرابع من كتاب جوزيف بديه « الخرافات الملحمية » Les Legendes Epiques

(١١٩) صفحة ٨٣ من كتاب تيودور نولدكه Th. Nöldeke وعنوانه « تاريخ الفرس والعرب فى عهد الساسانيين عن تاريخ الطبرى »

Geschichte des Perser und Arber zur Zeit der Sasaniden, aus arabischen Chronik des Tabari

(١٢٠) أنظر كتاب ج نيكل Neckel «المأثورات الدائرة حول جوتبلدر»

(١٢١)

Les classiques français du Moyen age — A. Langfors.

(١٢٢)

أنظر « عروس راينشتاين » فى كتاب كارل زمروك Karl Simrock وعنوانه « قصص الأنساب الجارية على ضفاف نهن الراين مأخوذة من افواه الشعب والأدباء الألمان » وقد صدر فى بون عام ١٨٦٩ .

(١٢٣) أشار Güntert فى دراسته الأخيرة Kundry الصادرة فى هيدلبرج عام ١٩٢٨ الى أن قصـــة اغراء زرادشت هى أقـــدم نص معروف لنا .

* * *

الفصل السادس

قائمة فهرسية عامة ـ أنظر :

W.P. Ker :
Epic & Romance — London 1897.

W. A. Craigie :
The Icelandic Sage.

(١٢٤) أنظر

An inquiry into the credebility of The Early Roman History — Sir George C. Lewis.

وقارن كذلك أ . شفيجلر A. Schwegler Römische Geschichte « التاريخ الرومانى » صفحات ١ وما بعدها وانظر فيما يخص مشكلة

الذاكرة الشعبية المقال الذى نشره J.L. Myres فى صفحة ١٢ وما بعدها من العدد ٣٧ من مجلة Folk-lore الانجليزية .

(١٢٥) تجد الدراسة النموذجية لهذا الموضوع فى الكتاب الذى وضعه ا . موك E. Moyk بعنوان « تاريخ الأدب النرويجى الايسلندى » Geschichte der Norwegisch — isländischen Literatur.

(١٢٦)
هناك أمثلة جيدة لقصص الأنساب الغالية تاقاها فى الكتاب الذى اصدره كامبل John. G. Campbell بعنوان Clan traditions and popular Tales of The Western Higlands and Islands.

(١٢٧) انظر ك . ماورر ـ فى مؤلفه الذى اشرنا اليه من قبل عن قصص الأنساب الشعبية المعاصرة فى ايسلندة وذلك فى صفحة ٢٤٠ منه وما بعدها .

* * *

الفصل السابع

قائمة فهرسية عامة :

انظر

« الأمثال الألمانية » لزايلر ـ هاله ١٩١٢
Das deutsche Lehnsprichwort — F. Seiler.

قاموس الكلمات الريفية والعبارات غير المستعملة ، والأمثال والعادات من القرن الرابع عشر ـ لهالويل ـ لندن ١٩٢٤ A Dictionary of Provincial Words obsolete phrases, Proverbs & Customs — J.C. Halliwel.

وانظر

« الأمثال الأسبانية القديمة والأقوال السائرة » لـ « ج . هلر ـ ليبنرج ١٨٨٣ .

Altspansiche Sprichwörter und Sprichwortliche Redensarten — J. Haller — Leipzig 1883.

و « الأمثال الألمانية » لزمروك

Die deutschen Sprichwörter — K. Simrock.

(١٢٨) انظر كتاب ماورر

« قصص الأنساب الشعبية المعاصرة فى ايسلندة » صفحات ٦٠ وما بعدها و ١٢١ و ١٣٤ و ١٤١ و ٢٢٣

وأنظر « باتراناس أو قصص أسبانية خرافية ومأثورة » لبسك
Patranas or Spanish Stories legendary and Traditional — R.H. Busk.

(١٢٩) انظر كتاب ج . ف فولف السابق الاشارة اليه .

وكتاب « الحكايات الشعبية فى رومانيا » لشولرز — الصادر فى هرمانشتات عام ١٩٠٦ — Rumänische Volksmärchen — P. Schullerus .

وصفحات ٢٠٠ وما بعدها من كتاب جب وعنوانه « تاريخ الأربعين وزيرا » الصادر فى لندن عام ١٨٨٦ The History of The Forly Vezirs — E.J.W. Gibb. « وألف قصة وقصة عربية » لرينيه باسيه Mille et un contes Arabes René Basset.

(١٣٠) صفحة ٤٣ من كتاب جرونباوم M. Grünbaum « اضافات جديدة الى علم حكايات الأنساب السامية » لسنة ١٨٩٣.

(١٣١) صفحة ١٥٩ من كتاب « الأمثال العربية » لسوسين
Arabische Sprichwörter.

(١٣٢) صفحة ٢٦١ من كتاب « ديانة السيلتين القدماء » لماكلوتش .
The Religion of The Ancient Celts — J.A. MacCuloch.

(١٣٣) صفحات ٥٨٨ وما بعدها من كتاب « أقصوصة مامبريانو عن عريف مدينة فرارا » لروا — Novelle del Mambriano del Cieco da Ferrara — G. Rua .

(١٣٤)
انظر « كتاب أصل الأمثال الشعبية » لالويز تشنسيو . دفابرتيزى
Libro della origine delle volgari proverbi —
Aloyse Cinzio de' Fabrizi — Venice 1526.

وكذلك أنظر صفحة ٣٦٦ من كتاب « القرن السادس عشر » لفلامينى
. Il Cinquecento — F. Flamini.

* * *

الفصل الثامن

قائمة فهرسة عامة :

ا ـ دراسات نقدية :

ـ « الأغنية الشعبية الألمانية » لبرونييه
Das Deutsche Volkslied — W. Bruinier — Leipzig 1904.

ـ « الأغنية الشعبية الألمانية » لبكل
Das Deutsche Volkslied — O. Böckel — Leipzig 1914.

ـ « الأغنية فى العصور الوسطى » لكلف
Het lied in de middeleeuwen — G. Kalff — Leyden 1833.

ـ « الأغنية الألمانية فى القرن الثامن عشر » لفريدلندر
Das deutsche Lied im 18. Jahrhundert.
M. Friedlaender — 1902.

ـ وانظر كتاب « الأغنية الشعبية الألمانية » لزار
Das deutsche Volkslied — J. Shar — 1908.

ـ وكتاب « تاريخ الأغنية الشعبية فى فرنسا » لتيرزو
Histoire de la chanson populaire en France —
J. Tiersot — 1889.

ـ وكتاب « الأغنية الشعبية » لشل

Das Volkslied — O. Schell — 1908.

(ب) مجموعات الأغانى الشعبية :

« بعض الأغانى التقليدية فى الولايات المتحدة » لتولمان

Some Songs Traditional in the U.S.

العدد ٢٩ من مجلة الفولكلور الامريكى .

وانظـــر

« أغانينا الشعبية » لهوفمان فون فالرزليبن

Unsere volkstümlichen Lieder.

Hoffmann V. Fallersleben — 1900.

وكتـــاب

« أغانى الألمـــان الشعبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » لبيمـــه

Volkstümliche Lieder der Deutschen im 18 und 19 Jahrhundert — F.M. Böhme — 1895.

(ح) مجموعات الأغانى الفولكلورية :

ـ اشمل مجموعة هى « كنز الأغانى الألمانية » لارك وبيمه الصادر فى ليبزج عام ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ Deutsche Liederhort.-Erk & Böhme.

وبعض النماذج غير الألمانية متضمنة فى هذا الكتاب برغم أن عنوانه يشير الى عكس ذلك .

غير أن هذا الكتاب ، على ما فيه من امتياز وشمول ، لا يحل محل المجموعة المتفردة ، التى سبقته الى الظهور ، والتى أصدرها العـــالم الشاعر لودفيج اولاند بعنوان « الأغانى الشعبية الألمانيـــة فى اللهجتين القديمة والحديثة Alte hoch — und niederdeutsche Volkslieder Ludwig Uhland.

وأنظر كتاب « الأغانى الشعبية التاريخية عند الألمان »لفون ليلين كردن الصادر فى ليبنرج ١٨٦٥ ــ ١٨٦٩

Die historischen Volkslieder der Deutschen.
R.V. Liliencron.

وأنظر باللغة الانجليزية

ــ بقايا الشعر الشعبى القديم فى انجلترا لهازلت ــ وقد صدر فى لندن عام ١٨٦٤ .

Remains of the Early Popular Poetry of England —
W.C. Hazlitt.

وكذلك

« قصائد قديمة : القصص الشعرى ، وأغانى الفلاحين فى انجلترا » لديكسون

Ancient Poems : Ballads, and Songs of the
Peasantry of England. J.H. Dixon — 1846.

ــ « والبالادا والأغانى الأمريكية » للويز باوند

American Ballads — J. Songs Louise Pound — 1922.

الهولندية والبلجيكية :

انظـــر

ــ « الأغانى الشعبية الهولندية » لهوفمان فون فالرزليبن

Hollandische Volkslieder — H. Hoffmann V. Fallersleben.

و « الأغانى الشعبية فى الأراضى الواطئة »

Niederlandische Volkslieder.

الفرنسية :

انظر

ــ اغانى القرن الخامس عشر لجاستون بارى

Chansons du XVe siecle — G. Paris.

ـ مجموعة اغان شعبية ـ لرولان

Recueil de Chansons Populaires — E. Rolland.

ـ أشعار جاسكونيا الشعبية ـ لبلاديه

Poésies populaires de la Gascogne
J.F. Bladé.

الاسبانية :

انظر

الأغانى الشعبية الاسبانية لرودريج مارتن ـ الصادر فى أشبيليه عام ١٨٨٢

Cantos Populares espanoles.
F. Rodriguez Martin

البرتغالية :

انظر

« الأغانى الشعبية والأغانى العاطفية فى البرتغال » لبلرمان

Portugiesische Volklieder und Romanzen.
C.F. Bellermann.

و « الأغنية الشعبية » لبراجا

Cancioneiro popular.
Th. Braga.

الايطاليـــة :

انظر

كتاب « اغانى ايطاليا الفولكلورية » لبسك

Folk Songs of Italy — R. H. Busk.

وكتاب

« الأغانى الشعبية فى يدمونت » لنجرا

I Canzoni popolari del Piemonte — C. Nigra.

وانظر

مكتبة المأثورات الشعبية فى صقلية لجوزيب پيترى

Biblioteca delle tradizioni popolari siciliane—Giuseppe Pitré.

اليونانية :

انظر

« اغانى اليونان الحديثة » لأبوت Songs of Modern Greece
G.F. Abbott.

و « مجموعة من الأغانى الشعبية اليونانية » للجران

Recueil des chansons populaires grecques.
E. Legrand.

وانظر

« الأغانى الشعبية فى اليونان الحديثة ـ الأصل والترجمة »
لفرمنش ـ ريتشارتز ـ ماتياس

Neugriechische Volksgesänge Original und Uebersetzung.
Firmenich — Richartz — Matthias.

و « الأغانى الشعبية اليونانية مترجمة شعرا الى الألمانية » للوبكة
Volkslieder der Grieschen in deutscher Nachdichtung.
H. Lübke.

وانظر

« الأغانى الشعبية فى اليونان الحديثة » لباسوف

Popularia Carmina Graeciae recentioris.

A. Passow.

(١٣٥) ايرلنده الخفية ـ لكوركرى The Hidden Ireland
Daniel Corkery — 1925.

(١٣٦) انظر

مصادر الشعر الغنائى فى فرنسا فى العصور الوسطى ـ لجانروى

Les Origines de la poésie Lyrique en France au Moyen Age.
A. Jeanroy — 1889.

(١٣٧) فيما يتصل بالزهرة الندية انظر صفحة ٧١ من كتاب :

« تاريخ الأدب الايطالى القديم الى وفاة دانتى » لجاسبارى وقد ترجمه أويلسنر ونشره فى لندن عام ١٩٠١

The History of Early Italian literature to the Death of Dante
A. Gaspary.

(١٣٨) أنظر ص ١٤٠ وما بعدها الجزء الثالث من « قصائد » للانجباين Dedichte — A.F.E. Langbein

(١٣٩) النغم والعمل لكارل بيشر

Arbeit und Rhythmus Karl Bücher. — 1919

(١٤٠) « ميتولوجيا وآثار أثينا القديمة » لجين هاريسون

Mythology & Monuments of Ancient Athen.
J.E. Harrison

(١٤١) أغانى والعاب الأطفال الألمانية لبيمه

Deutsche Kinderlied un Kinderspiel.
F.M. Böhme.

(١٤٢) قارن ما كتبه ك . فرهان Wehrahn عن « الأغنية الألمانية فى لهجة الجنوب ـ عن الراعى سيناكوه » وكذلك ما كتبه بولت J. Bolte وبورخاردى G. Burchardi وفريدريك كون Fr. Kohn فى العدد التاسع والثلاثين من :

« مراسلات جمعية الدراسات اللغوية للهجة الألمانية الجنوبية »

Korresponden zblatt d. Vereins f. niederdeutsche Sprachforschung.

(١٤٣) « أغنيتنا الشعبية الروحية » لبيترش
Unser geistliches Volkslied. H. Petrich — 1920.

* * *

الفصل التاسع

قائمة فهرسية عامة

الدراسـات النقـدية :

ـ « البالادة الشعبية » لجويد The Popular Ballad — Francis B. Gummere.

ـ « المصادر الشعرية والبالاد » للويز پاوند
Poetic origins and the Ballad.

ـ « مقالات مجموعة » لكر Collected Essays. — W.P. Ker.

« نقد البالادة الانجليزية » كتـاب تذكارى بقلم اليوس براندل ، قدمه احتفـاء بالعـلامة أ . هاينزل ونشر فى ڤايمار عـام ١٨٩٨
Zur Kritik der englischen Volksballaden.
Alois Brandl.

(ب) مجموعات مع تعليقات او بغير تعليقات :

ـ البالاد انجليزية واسكتلندية ـ لتشايلد
English & Scottish Popular Ballads.
F.J. Child.

ـ اغانى الجنوب الفولكلورية لكوكس
Folk-Songs of the South — J.H. Cox — 1925.

ـ الأغانى الشعبية العاطفية الفرنسية لدونسييه
Le Romancéro populaire de la France.
G. Doncier.

وانظر

« الأغانى الشعبية لليونان الحديثة » لفوريل

Chants Populaires de la Gréce moderne.
C.C. Fauriel.

والأغانى الملحمية لروسيا لهابجود

The Epic Songs of Russia. – I.F. Hapgood.

– والبالاد البطولية فى روسيا لماجنوس

The Heroic Ballads of Russia. — L.A. Magnus.

وانظر كتاب لوكهارت

« البالاد الاسبانية القديمة التاريخية والرومانسية »

Ancient Spanish Ballads : Historical & Romantic.
J.G. Lockhart.

(١٤٤)

Epic & Romance. W.P. Kera — London 1897.

– « الاغنية والملحمة فى ادب الأنساب الألمانى » لهويزلر

Lied und Epos in germanischer Sagendichtung.
A. Heusler.

(١٤٥) الشعر الشعبى البطولى فى قسـطلة – طيلر ا . فونتانالز

De la poesia heroico — popular Castellana.
Milà Y Fontanals.

(١٤٦) اغانى شعبيـة واغانى حب فى اليونان الحـديثة – للوبكه

Neugriechiche Volks — und Liebes — Lieder.
H. Lübke.

(١٤٧) « دراسات فى ملحمة كاليفالا » لكرون

Kalevalastudien.—K. Krohn.

وقد نشرها فى مجلة أصدقاء الفولكلور فيما بين ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ أعداد ٥٣ و ٦٧ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ٧٦ .

(١٤٨) انظر صفحات ٦٨ وما بعدها من « ثقافة الجماعات البدائية » لناومان ــ الصادر فى يينا ١٩٢١ .

(١٤٩) الأغانى السكندناوية الشعبية القديمة
Les vieux chants populaires scandinaves — Paris 1898.

وانظر كذلك صفحات ٣٨٥ ــ ٤٠١ ــ الملاحظات التشريعية التى نشرها العلامة جاستون بارى فى Journal des Savants عدد ج ١٨٩ .

(١٥٠) صفحة ٩٣ من الجزء الأول من « قصص الأنساب البطولية » لفريشك «Deutsche Heldensagen O.L. firiczek

(١٥٢) انظر فصل « القسم » فى كتاب تونى ــ وبنزر الموسوم ب « محيط القصص » وصفحات ١٦٠ وما بعدها الجزء الأول من كتاب شافان Chavannes وهو « خمسمائة قصة » .

(١٥٣) عدد ٤٩ من مجلة أصدقاء الفولكلور الفنلندية مقال « العظمة التى تغنى » (بالألمانية) للوتز ماكنزن Lutz Mackensen

(١٥٤) أ روزنموللر Das Volkslied. —E. Rosenmüller
« الأغنية الشعبية : كان هناك ملك له ولدان » وهى رسالة جامعية منشورة فى ليبزج عام ١٩١٧ .

(١٥٥) انظر صفحة ٥٠١ ــ الجزء الأول من « مجموعة الأعمال الشعرية الشمالية » Corpus poeticum boreale لفج فوسون Vigfusson وباول Powell

وانظر صفحة ٥٧ وما بعدها الجزء السادس من اعمال أولاند Uhland, Scriften, VI. وصفحة ٥٩٢ الجزء الثانى من « الأصول » Grundriss لباول .

(١٥٦) صـــفحة ٩٦ وما بعـــدها من « دراسات فى الفولـكلور »
Axel Olrik لاكسـل أولريك Folkelige Afhandlinger

(١٥٧) ص ٣١٣ الى ٣٢١ من العدد ٢٥ من المجلة البيزنطية
Byzantinische Zeitschrift

القصة الشعرية الغنائية ترجمها أندرولانج وتجدها فى صفحة ٦٥ من كتابه Ballads & Lyrics of Old France.

(١٥٨) أغنية الأخ المتوفى فى أشعار الشعوب البلقانية
La chanson du frère mort dans la poésie des peuples Balcanì-que — J. Schischmanov.

(١٥٩) صفحة ١٨٧ من « حول علم الفولكلور » للبريشت
Licbrecht — Zur Volkskunde

(١٦٠) ص ١٢ وما بعـــدها من « حـكايات الـكوميديا فى أثينا » لزيلنسكى
Märchen Komodie in Athen — Zielinski.

(١٦١) انظر Folklore in the English & Scottish Ballads — L.C. Wimberly.

(١٦٢) دراســـات فى تاريخ الأدب القومى الاسبانى والبرتغالى — برلين ١٨٥٩
Studien zur Geschichte der spanischen und portugiesischen National — Literatur.

* * *

الفصل العاشر

قائمة فهرسية عامة وملاحظات : انظر « الألعاب التقليدية فى انجلترا »
The Traditional Games of England — Alice Bertha Gomme.

ـ و « العاب واغانى الأطفال الأمريكيين » لنيول
Games and Songs of the American Children — W.W. Newell.

ـ و « اغانى الأطفال والعابهم فى المانيا » لبيمه
Deutsche Kinderlied und Kinderspiel — F.M. Böhme.

ـ و « العاب الأطفال ومباهجهم فى جنوب هولنده » لكوك
Kinderspiel en Kinderlust in Zuid Nederland — A. de Cock.

ـ و « اغانى الأطفال والعابهم فى منطقة اليمانيا » لروتشولز
Alemannisches Kinderlied und Kinderspiel —E.L. Rochholz.

ـ و « كتاب الأطفال الألمانى » لكارل زمروك
Das deutsche Kinderbuch — Karl Simrock.

ـ و « اضافة الى علم الفولكلور فى البرتغال » لاورتل
Beiträge zu rportugiesischen Volkskunde — H. Urtel.

ـ « اغانى الأطفال والعابهم » لكارل فيرهان
Kinderlied und Kinderspiel — Karl Wehrhan.

(١٦٣) ص ٥٨ وما بعـــدها الجزء الأول من « معجم علم الآثار الهندجرمانية » لشرادر
Reallexikon der indogermanischen Altertumskunde —
O. Schrader.

أن قائمة المراجع الخاصـــة بهــذا الموضوع قد زاد حجمها زيادة كبيرة للغاية . قارن التقرير السنوى وقوائم الكتب والمطبوعات الجديدة

فى ميادين اللغات الجرمانية وتحت عنوان « الكلام السحرى » فى الفصل المعنون « الميتولوجيا وعلم الانسان » .

(١٦٤) أنظر ما نشره ر . ت كريستيانزن R. Th. Christiansen فى العدد ١٨ لعام ١٩١٤ من مجلة جمعية أصدقاء الفولكلور الفنلندية تحت عنوان « النصوص الفنلندية المستحدثة من الحكمة الثانية لمرزبورج » .

(١٦٥) أنظر ما قاله ابيرهارد ــ فرايهدفون كونسبرج Eberhard Frh. Von Künsberge عن « التقاليد ولعب الأطفال » مطبوعات جمعية العلوم فى هيدلبرج قسم اللغات والتاريخ العدد السابع المجلد ١١ ــ لعام ١٩٢٠ .

(١٦٦) أنظر ما قاله Petsch فى كتابه « الألغاز الشعبية الألمانية » Das deutsche Volksrätsel وكتاب رولان Rolland وعنوانه « الألغاز الشعبية فى فرنسا » Enigmes populaires de la France ودراسة آنتى آرنى A. Aarne « ابحاث مقارنة فى الألغاز » وهى منشورة فى أعداد ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ من مجلة أصدقاء الفولكلور الفنلندية لأعوام ١٩١٨ الى ١٩٢٠ .

وقارن ايضا ما كتبه هويزلر A. Heusler بعنوان « لغز الطائر الذى ليس له ريش » وقد نشرته « مجلة أرشيف الفولكلور السويسرية » فى صفحة ١٠٩ وما بعدها من عددها الخامس والعشرين .

* * *

الفصل الحادى عشر

قائمة فهرسية عامة وملاحظات :

بالنسبة للمعتقدات الخرافية الألمانية أنظر ما كتبه هوفمان كراير وهانز بتشتولد ستاوبلى فى كتابهما « مدخل فى دراسة المعتقدات الخرافية الألمانية »
Handwörterbuch des deutschen Aberglaubens.

وكانت المعتقدات الخرافية الأوروبية على اختلافها قد لفتت انظار علماء الآثار ومثال ذلك ما كتبه تيير عام ١٦٧٩ وهو « دراسة للمعتقدات الخرافية » Traité des Superstitions ثم ما نشره العالم الانجليزى ج براند بعنوان « الأثريات الشعبية » عام ١٧٠١ . ثم توالت دراسات العلماء ومنهم العلماء الألمان فتكه Wuttke واندريه Andree — والانجليز من أمثال كتاب « العقائد والفولكلور » Faiths & Folklore لهازلت W.C. Hazlitt

وانظر كذلك الكتاب الهام الذى وضعه العلامة پول سبيو Paul Sébillot وهو Légendes et curiosité des metiers.

(١٦٧) انظر صفحات ٣٧٥ وما بعدها من المقالات والدراسات التى وضعها س . أ . كوك ، واهداها لوليام ريدجواى عام ١٩١٤ وعنوانها The Evolution and Survival of Primitive Thought.

(١٦٨) صفحة ١٦ وصفحة ١٤٧ وما بعدها من « تحديد الوقت البدائى » لمارتن نيلسون Primitive Time Reckoning — Martin

(١٦٩) صفحة ١٩٦ الجزء الأول من الكتاب الذى وضعه سير چيمس فريزر بعنوان « أدونيس — اتيس و أوزيريس »
Adonis — Atis — Osiris ; Frazer.

(١٧٠) تاريخ الحرب بين العلم وعلم الدين فى المسيحية لاندرو

هوايت Andrew D. White وقد صـــــدر فى مدينـــة نيويورك عام ١٩١٣ .

(١٧١) الديســـكوريون فى القصص الخـــرافى والمسيحى ـ لرندل هاريس The Dioscuri in The Christian Legends
Rendel Harris.

(١٧٢) انظر صفحة ١٦٧ الجزء الأول من « كتاب الملوك لأبى القاسم الفردوسى » Le livre des Rois par Aboulkasim Firdousi —
Jules Mohl.

وصفحة ٦٨ وما بعدها من كتاب « تاريخ ملوك الفرس لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى » الذى نشره Zotenberg فى باريس عام ١٩٠٠ .

(١٧٣) اصل الأراء الأخلاقية وتطورها لوسترمارك .
The Origin & Development of Moral Ideas — E. Westermarck.

(١٧٤) انظر الكتاب الذى وضـــعه شوفلد وصـــدر فى كمبريدج بماساتشوستس عام ١٩٢٠ وعنوانه
Mythical Bards and the life of William Wallace —
W. H. Schofield.

(١٧٥) صفحة ٢٧١ وما بعـــدها من « الاثنوجرافيا المقارنة » لأندريه Ethnograpische Parallen

(١٧٦) انظر مادة Divination الجزء الرابع من معلمة الدين والأخلاق Enc. of Religion & Ethics

(١٧٧) نبوءات الميلاد البابلية والأشورية لموريس ياسترووف وانظر كتاب مارنيان وعنوانه « الطب فى الكنيسة أثناء القرن السادس الميلادى »

(١٧٨) انظر جراف J.H. Graf فى كتابه Die Zahl Sieben

(١٧٩) ص ٩٧ وما بعد من كتاب « الثقافة البدائية »
Primitive Culture للعلامة تايلور E.B. Tylor

(١٨٠) فكرة الروح لكرولى
The Idea of the Soul — A.E. Crawley

(١٨١) صفحة ٢٣٢ وما بعـــــدها من الجزء الثانى من Perseus لهارتلاند .

وانظر مادة Blood فى معلمة الدين والأخلاق المجلد الثانى .

(١٨٢) صفحة ١٩٣ الجزء الثـانى من كتاب « بولدر الجميل » لسير چيمس فريزر .

(١٨٣) صفحة ١٨١ وما بعـدها الجزء الثـانى من « الميتولوجيا الفيدية » لهيلبرانت
Vedischc Mythologie — A. Hillebrandt.

(١٨٤) مرشد فى فولكلور الجو ـ لسوانسون
A Handbook of Weather Folklore C. Swainson.

(١٨٥) صفحة ١٢١ من جاك دى فترى طبعة كرين ـ وانظر كتاب هرفييه «Les Fabulistes Latins» وكتاب لوزل F.M. Luzel

« القصص الخرافى المسيحى فى بريتانيا السفلى »
Legendes chretiennes de la Basse — Bretagne —

(١٨٦) شعائر الانتقال للعلامة أرنولد ڤان جنب
Les Rites du passage — Arnold Van Gennep.

(١٨٧) صـــفحة ٣١١ الجزء الثـــانى من كتاب « أپوللودوروس » لسير چيمس فريزر
Apollodorus — Sir J.G. Frazer

(١٨٨) صفحة ٢٨ الجزء الأول من كتاب « الفولكلور الكلتى » لسير جون ريس
Celtic Folklore — Sir John Dhys.

* * *

الفصل الثانى عشر

قائمة فهرسة عامة وملاحظات :

انظر

ـ الفولكلور والنبات ـ لثيسلتون داير

The Folklore and Plants. — T.F. Thiselton Dyer.

ـ مأثور النبات والخرافات والغنائيات الشعرية لفولكارد

Plant lore, Legends, and Lyrics.—R. Folkard.

ـ مأثورات النبات والحيوان ـ لفانى د . برجن

Animal & Plant lore — Fanny D. Bergen.

ـ الزهور ومأثورات الزهور ـ لفرند

Flowers and Flower lore — H. Friend

ـ ميتولوجيا النبات لدجوبرناتس

La Mythologie des plantes — A. De Gubernatis.

ـ أساطير وخرافات الزهور ، والثمار ، والنباتات ، فى سائر العصور والأزمان ـ لسكينر

Myths & Legends of flowers, plants, Fruits in all ages and all Climes — M. Skinner.

ـ حكايات النبات الألمانية ـ لرتير فون برجر

Deutsche Pflanzensagen A. Ritter V. Perger.

وأنظر كذلك روزان Rozan فيما كتب عن « الخضر فى الأمثال » Les vegétaux dans les proverbes وما كتبه رولان فى مؤلفه علم الزهور الشعبية أو التاريخ الطبيعى للنباتات ، فى صلتها باللغويات

Flore populaires, ou histoire naturelle des plantes والفولكلور
dans leurs rapports avec la linguistique et le folk-lore.

وانظر الكتاب الهام الذى وضعه پول سپيو وهو « فولكلور فرنسا »
Le Folklore de France وكتاب فرهان « قصص الأنساب »
الذى سبقت الاشـارة اليـه . وكتاب جـوريه Joret « النباتات
فى العصور القديمة والوسطى » Les plantes dans l'antiquité et
ou moyen âge.

(١٨٩) أنظر صفحة ١ وما بعدها من كتاب منهارت
Wald — und Feldkulle W. Manhardt

(١٩٠) العين الحاسدة ــ لالورذى
The Evil Eye — F. T. Elworthy

(١٩١) أنظر صفحة ٨٤ وما بعـدها من الدراسـات البرلينية
للفيولوجيا وعلم الآثار الكلاسية ــ العدد ١٣ ــ وانظر « بولدر الجميل »
صفحة ١٦٥ الجزء الثانى .

(١٩٢) صفحة ٧٥ و ٣٢٥ و ٣٦٠ وما بعدها عدد ١٨ من Classical
Review ــ مقـال Zeus, Jupiter and the Oak — A.B. Cook.

(١٩٣) صفحة ١ ــ ١٨ العدد ١٣ من دورية مكتبة John Rylands
ــ مقال The Origin of the Cult of Hermes لرندل هاريس .

(١٩٤) ص ٣٥ من كتاب رندل هاريس وعنوانه
The Ascent of Olympus

وانظر صفحات ١٨٤ الى ٢١٥ من مجلة « الفولكلور » الانجليزية
عدد ٣٤ مقال الكزاندر هجرتى كراب .

(١٩٥) نشوء الملحمة الاغريقية صفحات ١٢٦ وما بعدها .

(١٩٦) فيما يتصـل بالدور الذى قام به أوريانون فى بلاد الاغـريق
انظر صفحة ١٦٠ من كتاب زمتر Geburt, Hochzeit und Tod.
Samter

(١٩٧) الأسماء الانجليزية للنباتات من القرن العاشر الى القرن الخامس عشر لجون ايرل

English Plant Names from the Tenth to the fifteenth Century — John Earle.

وانظر

« فى الأسماء الشعبية للنباتات الانجليزية » لبريور

On the popular Names of the English Plants — R.C.A. Prior

وانظر

قاموس أسماء النباتات الانجليزية

Dictionary of English Plant Names — J. Britten and Robert Holland.

وانظر زيجلر

الأسماء الشعبية الألمانية للنباتات

Die deutschen Volksnamen der Pflanzen — H. Ziegler.

وكتاب « أسماء النباتات الألمانية »

Germanische Pflanzennamen.

(١٩٨) سيجد القارىء ارشادات دقيقة فى الكتاب الذى وضعه ايجرمونت Aigremont بعنوان Volkscrotik und Pflanzenwelt

(١٩٩) انظر صفحة ٥٥ وما بعدها من كتاب « الأساطير العجيبة للعصور الوسطى » لبرينج جولد

Curious myths of the Middle Ages — Baring — Gould.

(٢٠٠) صفحة ٦١ من كتاب شراور المشار اليه فيما سبق .

* * *

الفصل الثالث عشر

قائمة فهرسية عامة وملاحظات :

ـ « مأثورات الحيوان والنبات » ـ لفانى برجن
Animal & Plant lore — Fanny D. Bergen.

Die Antike Tierwelt. O. Keller. —

ـ ميتولوجيا علم الحيوان ـ لأنجلو دجوبرناتس
Zoological Mythology — Angelo De Gubernatis.

ـ الطير فى القصص الخرافى وخرافات الحيوان والفولكلور ـ لأرنست انجرسل
Birds in Legends, fables & Folklore. — Ernest Ingersoll.

(۲۰۱) انظر صفحة ۲۰۵ من كتاب ماورر المشار اليه فيما سبق .

(۲۰۲) لا أستطيع أن اعرض بالتفصيل لمشكلة الطوطمية وبقاياها فى الفولكلور الأوروبى فالقارىء يجد دراسة ممتازة ومحايدة للنظريات السائدة فى هذا الميدان ، الآن فى كتاب « الوضع الراهن للمشـــكلة الطوطمية » الذى وضعه العلامة أرنولد فان جنب L'Etat actuel du problème totémique. A. Van Grennep.

(۲۰۳) صفحة ۱۸ الجزء الثامن من كتاب تولدو P. Toldo وعنوانه : دراسة فى تاريخ الأدب الشعبى
Studien zur Vgl. literaturgeschichte.

(۲۰٤) الحيوان فى الأمثال ـ لروزان
Les Animaux dans les proverbes — Rozan.
وأنظر كذلك لرايجلر كتابه Das Tier im spiegel der Sprache.

(۲۰٥) صفحة ٥٠ وما بعدها الجزء الأول من
Sagen und Märchen Altindiens — A. Essigmann.

(٢٠٦) المحظورات ومخاطر الروح لسير چيمس فريزر
Taboo and the Perils of Soul.

وانظر صفحة ٢٧٥ وما بعدها من كتاب K. Nyrop
وعنوانه « أجرومية تاريخية للغة الفرنسية » Grammaire historique
de la langue Française.

(٢٠٧) صفحة ١٧٠ وما بعدها من كتاب « الحكايات الشعبية الصينية » Chinesische Volkmarchen — R. Wilhelm.

(٢٠٨) صفحة ١ وما بعدها من كتاب « حول علم الفولكلور » للبرشت السابق الاشارة اليه .

(٢٠٩) هذا الايضاح الظاهر ، قديم للغاية ، وقد قال به سلسوس نفسه انظر كتاب « Celse » للويس روجييه Louis Rougier الصادر فى باريس عام ١٩٢٥ .

(٢١٠) صفحة ٧٠ وما بعدها من The Modern Language Review عدد ٢١ مقال رندل هاريس عن Picus who is also Zeus.

(٢١١) « عبادة الثعبان ومقالات أخرى » لويك
Serpent Worshiph and other Essays. — C.S. Wake.

(٢١٢) صفحة ٤٤ الجزء الثانى من برزيوس لهارتلاند وصفحة ١٢٣ من هو ، و ٩٩ و ١٠٤ و ٣٥٦ من ناومان وصفحة ١٧٦ الجزء الأول من « الحكايات الشعبية لمنطقة اللورين » لامانويل كوسكان
Contes populaires de Lorraine

(٢١٣) انظر رقم ٦٧٢ صفحة ١٠٨ فى آرنى وطوسون وكذلك « أساطير العالم الجديد » Myths of the New World لبرنتون Brinton و « أساطير الهنود الأمريكيين الشماليين » للويس سبنس .

(٢١٤) صفحة ١٢٣ وما بعدها من Kalypso لجونترت H. Guntert.

* * *

الفصل الرابع عشر

(٢١٥) انظر

الجواهر السحرية فى العصور الوسطى وعصر النهضة وبخاصة فى انجلترا لايفانز

Magical Jewels of the Middle Ages and the Renaissance, particularly in England — I. Evans.

(٢١٦) انظر كتاب هوجو جرسمان

Die hellenistische Giestirnreligion.

الملحق الخامس حتى « الشرق الأدنى » وانظر كتاب « السحر والتنجيم فى العصور القديمة والوسطى » لمورى

La Magie et l'astrologie «dans l'antiquité et au moyen âges. A. Maury.

(٢١٧) قصص خرافية ومأثورات شعبية لمناطق الباسك

Legendes et Récits populaires. du pays basque J.F. Cerquand.

(٢١٨) مختصر الميتولوجيا ـ لأرنست شايكه

Mythologische Briefe — Ernst Siecke.

(٢١٩) قصص الأنساب الدائرة حول الطبيعة ـ لدانهارت

Natursagen — O. Dähnhardt.

(٢٢٠) انظر العدد السابع من المجلة الفلسفية التاريخية الألمانية لعام ١٩١٨ مقال جوستاف Gustav Neckel

* * *

الفصل الخامس عشر

مراجع عامة وملاحظات :

ـ انظر كتاب

الذى وضعه أوتو فون راينزبرج ودورنجرفلد

Das festliche far otto V. Reinsberg — Düringsfeld

ـ وكتاب « Das Jahr und scine Tage. » لفـــلهم شميث

ـ وكتاب « السنة فى بلجيكا القديمة » لكورمانز

L'année de l'ancienne Belgique — Coremans.

ـ و « العادات البريطانية الشعبية » لداير

British popular Customs — T.E.T. Dyer.

وانظر مادة « تقويم » Calendar فى معلمة الأخلاق والدين الجزء الثالث .

ـ و « Das germanische Julfest » لبلفنجر Bilfinger.

ـ و « عيد راس السنة الميلادية فى الطقس والتقاليد ، المسيحية والوثنية » لمايلز

Christmas in Ritual and Tradition Christian & Pagan — C.A. Miles.

ـ و Griechische Feste — M.P. Nilsson. لنلسون

ـ الأعياد الرومانية فى عصر الجمهورية ـ لوارد فولر

Roman Festivals of the period of the Republic — W. Warde Fowler.

(٢٢١) Geburt, Hochzeit und Tod Ernst Samter لأرنست زمتر

و « الوثنية المعاصرة عند الشعوب السيلتية اللاتينية » لپول سبيو
La Paganisme contemporain chez les peuples Celto — Latins
Paul Sebillot.

H. Usener. لاوزنر « Das Weinhnachtfest » (٢٢٢)
و « Das Weinhnachffest. » لأرنولد ماير

(٢٢٣) صفحة ٢٥٦ الجزء الأول من كتاب « مرشد فى الميتولوجيا الجرمانية » لجولتر
Handbuch der germanischen Mythologie — W. Gotler.

(٢٢٤) صفحة ١٤ وما بعدها الجزء الثانى من « ارواح القمح والبرارى » لسير چيمس فريزر
Spirits of the Corn and the Wild.

(٢٢٥) صفحة ٤٤ وما بعدها الجزء الأول من « أوديب » لروبرت Oidipus — C. Robert. وقد صدر فى برلين عام ١٩١٥

(٢٢٦) مادة Ashes فى معلمة الدين والأخلاق المجلد الثانى .

(٢٢٧) صفحات ٢٢٦ الى ٢٣٣ من الجزء الثالث من مضابط الفيلولوجيا الاسكنديناوية .

Acta philologia Scandinavica

(٢٢٨) صفحة ٧٨ وما بعدها من الجزء الأول من « تاريخ الزواج البشرى » لومستر مارك
The History of Human Marriage. — E. Westermarch.

(٢٢٩) صفحات ٢٦٦ وما بعدها من « الطقس والمعتقد » لهارتلاند Ritual & Belief. E. S. Hartland.

(٢٣٠) صفحة ١١٢ وما بعدها الجزء الأول من Les manes لجاكوبسون .

(٢٣١) صفحات ٩٨ وما بعدها من كتاب كراوس وهو
Slavische Volks forschungen — F.S. Krauss.

(٢٣٢) صفحة فى العصور الوسطى لكومبارتى
Vergil in the Middle Ages — D. Comparetti.

(٢٣٣) صفحة ٣٠١ فى الجزء الأول من كتاب السحر وتطور الملوك لسير جيمس فريزر وقد سبقت الاشارة اليه .

(٢٣٤) عن حجاب المراة أنظر مراسيم الزواج فى مراكش لوسترمارك
Marriage Ceremoniez in Morocco — Westermarch.

* * *

الفصل السادس عشر

قائمة فهرسية عامة وملاحظات :

أنظر « السحر والدين » لاندرو لانج
Magic and Religion — Andrew Lang.

— والسحر البابلى لكنج Babylonian Magic — L.W. King.

— و « تاريخ السحر والعلم التجريبى فى الثلاثة عشر قرن الأولى من تاريخنا » لثورندايك

A History of Magic and experimental Science in the first Thirteen centuries of our era. L. Thorndike.

(٢٣٥) وانظر كذلك الكتيب الممتاز الذى وضعه أرنست زمتر بعنوان Volkskunde im altsprachlichen unterricht.

(٢٣٦) يفتح هذا الأمر ، الميدان الواسع للطب الشعبى ، الذى لا أستطيع أن أناقشه هنا مناقشة شاملة أو أن أتناوله بأكثر مما عرضت له عند الحديث عن مأثور النبات . وسيجد القارىء اشارات نافعة فى الكتابات التالية .

ـ مأثور الحيوان والنبات لبرجن

ـ و الطب الشعبى لبلاك Folk — Medicine W. C. Black.

(٢٣٧) انظر هايلر فى كتابه Das Gebet. الصادر فى ميونيخ عام ١٩٢٣ .

(٢٣٨) لعل القارىء يذكر البالاده الجميلة لموريكه وعنوانها Der Feuerrciter.

(٢٣٩) Die Sage vom Rattenfanger von Hamlen F. Meissel.

(٢٤٠) صفحة ٤٢٨ من دراسة أويسترلى Ed. Oesterley وكذلك صفحة ٧٢٧ .

و عن قصة مشابهة من السويد انظر صفحة ٥٥ من الجزء الثانى من كتاب « الميتولوجيا الشمالية » لثورب
Northern Mythology — B. Thorpe.

(٢٤١) « الألف باء فى التصوف والسحر » لدورنشف
Das Alphabet in Mystik und Magic — F. Dornsciff.

(٢٤٢) المجلد الخامس من « قائمة فهرسية بالمؤلفات العربية » لشوفان Bibliographie des ouvrages Arabe. — V. Chauvin.

(٢٤٣) ديانة الساميين The Religion of the Scmites.

(٢٤٤) عصا الساحر أو صولجانة فى الحضارة الجريكو لاتينيه القديمة .

The Magic staff or Rod in the Gracco — Italian Antiquity
F. J. M. De Waele.

* * *

الفصل السابع عشر

قائمة فهرسية عامة :

انظر

الرقص المقدس ــ لاويسترلى

The Sacred Dance W. O. E. Oesterley

ــ و تاريخ الرقص فى المانيا لبيمه

Geschichte des Tanzes in Deutschland — Franz M. Böhme.

و Das deutsche Volksschauspiel لرشل K. Reuschel.

أهم المراجع الإنجليزية والفرنسية

اهم المراجـع الانجليزية والفرنسـية

رايت أن اشير هنا الى اهم المراجع المنشورة باللغتين الانجليزية والفرنسـية ، تيسيرا على الباحث العربى الذى يدرس ناحية من نواحى علم الفولكلور .

ومع ان المؤلف ذكر هــــذه المراجع فى الصفحات التى الحقناها ، فى باب المراجع العــامة والملاحظات الا انى أحب أن أنوه بأهمهــــا ، لا بسائرها ـ المترجم

* * *

1 — The Types of Folk — Tale : A arne — Thompson.

2 — Les Fabliaux
Joseph Bedier.

3 — Etudes de mythologie et de folklore germanique
A. H. Krappe.

4 — Les Contes de Perrault et les récits paralléles
P. Saintyves.

5 — Folklore in the old Testament
Sir J. G. Frazer.

6 — The Magic Art and the Evolution of Kings
Sir J. G. Frazer.

7 — The Science of Fairy-Tales
E.S. Hartland.

8 — Les Légendes épiques
J. Bedier.

9 — The Religion of the Ancient Celts
J.A. MacCulloch.

10 — Histoire de la chanson populaire en France
J. Tiersot.

11 — Ballads & Lyrics of Old France
A. Lang. ترجمها الى الانجليزية

12 — The Traditional Games of England, Scotland, and Ireland.
Alice Bertha Gomme.

13 — Légendes et Curiosités des métiers.
Paul Sébillot.

14 — The Cult of Heavenly Twins
Rendel Harris.

15 — The Dioscuri in The Christian Legends
Rendel Harris.

16 — Adonis, Altis, Osiris
Sir J.G. Frazer.

17 — The Origin and Development of Moral Ideas.
E. Westermarck.

18 — Balder the Beautiful
Sir J.G. Frazer.

19 — A pollodorus
Sir J.G. Frazer.

20 — The Folk-Lore of Plants
T.F. Thiselton Dyer.

21 — Animal and Plant lore
Fanny D. Bergen.

22 — Le Folk-Lore de France
Paul Sébillot.

23 — Birds in Legend, Fable and Folklore
Ernest Ingersoll.

24 — L'Etat actual du problème totémique.
Arnold Van Gennep.

25 — Taboo and the Perils of the Soul
Sir J.G. Frazer.

26 — Contes populaires de Lorraine
E. Cosquin.

27 — Les Légendes épiques
J. Bédier.

28 — Celtic Folklore
Sir John Rhys.

29 — Spirits or the Corn and the Wild
Sir J.G. Frazer.

30 — The History of Human Marriage.
E. Westermarck.

31 — Marriage Ceremonies in Morocco.
E. Westermarck.

32 — A History of Magic
L. Thorndike.

33 — Magic and Religion
Andrew Lang.

الدوريات

رجع المؤلف الى دوريات ومطبوعات علمية صادرة باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية هى

دوريات باللغة الانجليزية :

1 — The American Journal of Philology.

2 — The American Journal of Semitic Languages & literature.

3 — The Journal of American Folk-lore.

4 — The Classical Journal.

5 — The Journal of English & Germanic philogy.

6 — Modern languages Notes.

7 — The Modern Language Review.

8 — Modern philology.

9 — Publications of the Modern language Association of America.

10 — The Roman Review.

11 — Scandinavian Studies. & Notes.

12 — Folklore Fellows Communications.

دوريات بالفرنسية :

13 — Bulletin Hispanique.

14 — Revue Celtique.

15 — Revue d'Ethnographic et des traditions populaires.

16 — Revue de littérature comparée.

17 — Revue de Traditions Populaires.

دوريات بالألمانية :

18 — Archiv für das Studium der neueren Sprachen und literaturen.

19 — Hessiche Blatter für Volkskunde.

20 — Kinder — und Hausmarchen der Bruder Grimm.

21 — Schweizeriches Archiv für Volkskunde.

22 — Zeitschrift für deutsches Altertum.

23 — Zeitschcrift für deutsche philologie.

24 — Zeitschrift für franzosiche Sprache und literatur.

25 — Zeitschrift für Niederdeutsche Volkskunde.

26 — Zeitschrift für romanische philologie.

27 — Zeitschrift für rheinische und westfalische Volkskunde.

28 — Zeitschrift des Vereins für Volkskunde.

29 — Rheinisches Museum für philologie.

فهرس الأعلام والمصطلحات

فهرس الاعلام والمصطلحات

ابوللو .

اله الوحى والموسيقى والشعر والشمس وابن الاله جوبيتر ولاتونا . واخو ديانا آلهة القمر .

ابوللونيوس الروديسى : Appolonius Rhodius

شاعر ملحمى اغريقى ولد فى مصر ، قبيل بداية القرن الثالث قبل الميلاد . وعندما عاش فى رودس كتب ملحمته ارجوناوتيكا Argonautica قصة ركاب الأرجو Argonauts المبنية على خرافة اغريقية (انظر ركاب الأرجو) .

اتينــا : Athena

الهة الاغريق العذراء ، سماها الرومان منيرفا — وهى ابنة زيوس وقد خرجت من جبينه — وكانت الهة حرب ثم صارت الهة حكمة وقد بنى البارثينون تكريما لهـا .

اغنية بطولات : Chansons de geste

اغنية او ملحمة ، تدور حول بطولات شخصية بارزة ومن اشهر هذه الاغانى الملحمية اغنية رولاند الموضوعة فى القرن الحادى عشر ، أو اغانى بطولات شارلمان .

افروديتى (فينوس)

الهة الحب والجمال ، ابنة جوبيتر وديون افتتن بها الآلهة وارادها كل منهم أن تكون زوجته . لكن جوبيتر منحها لفولكان جزاء له على أنل خلق الصواعق وهكذا أصبحت أجمل الهة ، زوجة لأبشع اله . وكانت تصطفى من الطير الحمام ومن النبات الورد .

آرجو (ركاب الأرجو) : Argonauts

كان الاغريق يستخدمون قوارب صغيرة فى رحلاتهم البحرية ، ولم يكونوا قد صنعوا بعد ، تلك السفن التى تستطيع أن تحمل على ظهرها عشرين أو ثلاثين ملاحا . غير أن اياسون الذى قرر أن يبحر فى طلب الفراء الذهبى استعمل « آرجوس » ليبنى له سفينة تحمل خمسين رجلا . وصنع « آرجوس » هذه السفينة المعجزة بالنسبة لزمانها . وأصبح اسمها « أرجو » وسمى الذين ركبوها ارجونوت (ركاب سفينة ارجو) وهم ــ فيما تقول الأساطير ــ مجموعة من الأبطال الشجعان منهم هرقل وتيتويوس وأورفيوس ونستور .

ارتيميس : Artemis

فى الديانة اليونانية القديمة ، هى الالهة العذراء ربة الطبيعة والقمر والبحيرات والأنهار والغابات والحيوان والصيد . وكانت تعبد فى اثينا واركاديا باعتبارها ربة القبيلة أو العشيرة ، وفى اسبرطة كانت حامية النساء والأطفال .

آرثر :

ملك اسطورى لبريطانيا ، وقد ذاعت سيرته الأسطورية فى العصور الوسطى وهى تحكى عن ملك شجاع من ديلا كان حاميا للسيليتيين ضد غزوات القبائل السكسونية التى أغارت على بريطانيا . ثم صارت شخصية أرثر شخصية الفارس حامى الحمى ، الكريم القوى .

اريستوفان : Aristophanes

شاعر الاغريق ، ومؤلف الكوميديات الخالدة ولد ٤٥٠ ق.م ومات ٣٨٥ ق.م وقد ولد أثناء حرب اليونان والفرس لكنه وضع أكثر مسرحياته اثناء الحروب البليونية التى انتهت بهزيمة أثينا .

انتقد نقدا ساخرا جوانب كثيرة من حياة اثينا ــ فكتب ضد الحرب ــ مسرحية « السلم » و « الفرسان » وكتب « السحب » التى انتقد فيها سقراط والرواقيين ومسرحية « الضفادع » التى انتقد فيها يوريبيدس .

ويظن انه الف ٤٠ مسرحية بقيت منها احدى عشر أشهرها « الطير » و « الضفادع » و « السحب » وكان اريستوفان ذا فكر محافظ ، يهاجم

ديمقراطية أثينا ، وسياستها ، ويدعو الى حكم الأرستقراطية ، وكان داعيا ــ بالاضافة الى ذلك ــ الى وقف « الحرب » كنظام بين البلدان . وقد جعل احد أبطاله ــ وهو فلاح أثينى عادى ــ يعقد صلحا شخصيا منفردا مع اسبرطة امعانا فى ابراز وجه المفارقة بين السلم والحرب .

اندرو لانـج : Andrew Lang

من مؤسسى علم الأساطير ولد عام ١٨٤٤ وتوفى عام ١٩١٢ وكان لانج صحفيا ورجل أدب . عارض نظريات بنفى الهندية . وطبق طريقة « الموروثات » لتايلور فى الفولكلور . وعارض التفسير الانتروبولوجى لتشابه المأثورات الفولكلورية . ومن دراساته العادة والأسطورة وحكايات بيرو الشعبية والسحر والدين .

اندرو ميـدا : Andromeda

ابنة الملك سفيوس والملكة كاسيوبيا . وكانت امها قد اغضبت ربات البحر ، بزهوها وخيلائها ، فأرسلت الربات وحشا أسطوريا ليدمر بلاد الملك . وأوحى للملك بأن يقدم ابنته أندروميدا قربانا للوحش الأسطورى ــ فقيدها الى صخرة على البحر . وعنـدما حانت اللحظة الخطيرة ، رآها برزيوس صدفة فأعجب بجمالها ، وخطبها لنفســه ، وقبل ابواها ، ان يتزوجهـا برزيوس اذا قتل الوحش الأسطورى . ودارت معركة هائلة بين المنقـــذ برزيوس ، والوحش الأسطورى ، انتهت بأن قتل برزيوس ذلك الوحش وتزوج من أندروميدا .

نموذج ــ حكاية ــ تايب : Type

تستخدم كلمة Type فى الفولكلور بمعنى « حكاية » كما تستخدم بمعنى اعم وهو « أنموذج » ويشترط ان تكون الحـــكاية التى نعنيها بهذا المصطلح ، متكاملة فى ذاتها ، بصرف النظر عن طولهـا أو قصرها ، بساطتها أو تعقيدها . ومؤلف هذا الكتاب يستخدم كلمة « تايب » بمعنى حكاية أو مثل أو خرافة ــ دون أن يلتزم بتحديد واضح ثابت . على أن بعض المؤلفين الآخرين ، يستخدمونها للدلالة على نوع ادبى متكامل من المادة الفولكلورية .

امانويل كوسكان : Emmanuel Cosquin

من اظهر أتبـاع بنفى ونظريته الشرقية الهندية ــ شجعه الاخوان جريمة على أن يجمع الحـــكايات ، فجمع « الحكايات » الشعبية من منطقة اللورين وصدرت له كذلك « دراسات فولكلورية » . والحكايات الهندية والغرب .

ومع انه يأخـــذ برأى بنفى القائل بأن الهند هى المصدر الأول للحكاية الشعبية بعامة الا انه يختلف معه فى بعض التفصيلات ، فيرى انه قد تجد حكايات شعبية لا تعود بأصلها الى الهند ، كما أن المغول لم يكونوا وحدهم الأداة التى نشرت الحكايات الهنـــدية والمشرقية فى أنحاء أوروبا ــ وقد ولد كوسكان عام ١٨٤١ وتوفى عام ١٩٢١ .

اهل العالم السفلى

او ارباب العام السفلى

ترجمنـــا Ch thonic deities بأرباب العـــالم الســفلى أو أهله وهم يقابلون الأرباب السماوية فى الديانة الاغريقيـــة ، لانهم أرباب العالم السفلى ، الذين كانوا فيما يزعمون ، أرواح أسلاف غيروا ، أو اشباح موتى وكانت لعبادة أرباب العالم السفلى شعائر خاصة ، وقرابين بذاتها .

أوديـــب : OEdipus

تقول الأساطير الاغريقية : عندما ولدته يوكاستا ، انذر العرافون اباه الملك لايوس من خطر هذا الطفل على عرشه . فأسلمه لبعض الرعاه وأمره بقتله . لكن الراعى لم يصدع بأمر الملك ، بل علق أوديب من رجله فى شجرة ، فورمت قـــدمه ، وانقذه فلاح ورباه . وذات يوم تقـــابل الملك لايوس وأوديب دون ان يعرف أحدهما الآخر ، فى ممر ضيق ــ قتل تابع الملك حصـانا لأوديب . فقتله أوديب وقتل أباه دون أن يدرى .

وعندما هدد أبو الهول الأسطورى مدينة طيبة وراح يقتل كل من يعجز عن حل اللغز الذى يطرحه على أهل المدينـــة ، تصدى له أوديب وسأله ابو الهول « ما هو الحيوان الذى يمشى على اربع فى الصباح واثنتين فى الظهر وثلاث فى المســـاء » . وأجاب أوديب انه « لانسان الذى يحبو فى طفولته على يديه وركبتيـــه ويمشى منتصب القامة عنـــدما يبلغ سن الصبا ، ويتوكأ على عصى فى الشيخوخة » .

ونفق الوحش الأسطورى فجازاه أهل المدينـــة بأن جعلوه ملكا عليها وتزوج بيوكاستا ــ أمه ــ دون أن يدرى .

واصيبت المدينـــة بالمجاعة والجفاف وهددها الهلاك ، وعرف سبب ذلك ،

وهو جريمتا أوديب البشعتان : قتل الأب والزواج من الأم – ففقأ عينيه ، وهام على وجهه ، مكروها ، وحيدا ، ليس حوله احد الا بناته حتى لقى مصيره .

ايزيـــس :

آلهة فرعونية كبرى – أخت أوزيريس وزوجته . كانت تحكم مصر بينما كان أوزيريس بنشر ما اكتشفته هى فى الآفاق المختلفة . وعندما قتل ست أخاه أوزيريس ومزق جسمه الى ١٤ جزءا راحت تبحث فى الارض عن هذه الأجزاء لتجمعها وتدفنها . وكانت ايزيس فى الأساطير الفرعونية آلهة الخصب والطب والآلهة الأم . وتقول الاساطير انها كانت ســـاحرة . وارادت أن تصير آلهة ، فاحتالت لتعرف الاسم الحقيقى – السرى – للاله رع وصنعت من بصاقه ثعبانا ووضعته فى طريق رع فلدغه ، وعندما بلغ منه الالم مبلغه ، طلبت اليه أن يبوح لها باسمه ، لتلقى « رقوة » تشفيه من السم وعبثا حاول رع أن يحتفظ دونها باسمه الحقيقى ، لـكنه اضطر الى البوح به ، وبواسطة معرفة اسم الالـه الاكبر ، اصبحت هى نفسها آلهة . وكانت أهم أماكن عبادتها – التى انتشرت فى العالم الاغريقى والرومانى – أبيدوس وبوزيريس .

ايســـوب : Aesop

مؤلف حكايات اغريقيـــة (عاش فى القرن السادس ق.م) ويزعم هيرودت ان ايسوب كان عبدا لرجل اسمه ايادمون كان يعيش فى جزيرة ساموس فى القرن السادس قبل الميلاد ثم أعتقه سيده وذهب الى ديلفى بأمر كرويوس ملك ليديا ، لكنه لقى مصرعه . على أن رواية هيرودوت أثارت شكا عظيما ، وقيل ان ايسوب لم يكن شخصا حقيقيا . بل كان اسما ، اخترعه الخيال ونسب اليه الحكايات والخرافات المعروفة باسمه .

ويبدو أن حكاياته وضعت نثرا أول الأمر ويزعم أفلاطون ان أرسطو نظمها شعرا . وذكر أريستوفان أنها كانت تروى فى المآدب .

وقيل ان اقدم نص هو هذا الذى دونه ديمتريوس فى القرن الرابع ق . م لكنا نعرف النصوص اللاتينيـــة الشعرية التى صارت أساس النسخ الرائجة فى العصور الوسطى ومصدر الوحى لـ « لافونتين » .

وحكاياته – نوادر ومواعظ واخلاقيات على الغالب – نثرية أو شعرية ، مختزلة ، وقد اختلطت بها حكايات حيوان هندية وشرقية فى العصور الوسطى .

Dies Fasti أيام العطلات الرسمية
Dies Nefasti ايام حرم

ايولوس : Aeolus

ملك الريح فى الأساطير الاغريقية والرومانية . التى كانت تقول أن له جزيرة ، وأن جوبيتر ولاه التصرف فى الريح ، فكان له أن يأمرها ، لتكون ريحا ذلولا ، أو لتكون ريحا عاصفة . وقد أعطى عوليس « قربة » ريح معاكسة ، يحكم فمها ، خاتم فضى . وكانت هذه القربة ، مع عوليس ، قوة ضاغطة ، على الريح عامة ، تجعلها تواتى سفينة عوليس . وسهر عوليس ليالى بطولها ، حريصا على الا يفتح القربة ، غير أن التعب هد جسمه بعد ٩ ايام فأغفى ، وأراد بحارته أن يعرفوا سر هـــذه القربة ، وأن يأخذوا شيئا منها ، ففتحوها ، وخرجت منها الريح المعاكسة لتدفع سفينة عوليس الى حيث بدات ، وتردها الى جزيرة ايليوس الذى غضب ورفض أن يعين عوليس مرة ثانية .

بازيلى جيا مباتستا : Dasile Giambattista

ولد عام ١٥٧٥ فى مدينة نابولى وانتقل الى البندقية ، ثم عاد الى نابلى ، ومنها الى مانتوا حيث حصل على لقب فارس وتولى منصب متصرف فى بعض المزارع وتوفى عام ١٦٣٢ فى بلدة جوليانو .

وأما كتاباته فتصور حياة بلدته الأصلية فى جنوب ايطاليا ، وعاداتها وخرافاتها واقوالها السائرة .

وقد الف بلهجة نابولى ــ كتابيه « القواف النابولية » و « حكاية الحكايات » وجمع خمسين قصة خرافية شعبية كانت شائعة فى زمانه بمدينة نابولى واصدرها بعنوان « بنتاميرونى » .

باندورا : Pandora

هى فى الميتولوجيا الاغريقية أول امرأة خلقها هيفايستوس لتعاقب الرجل على انه قبل النار المسروقة من السماء .. وتلك كانت خطيئة خارجة على ارادة زيوس .

بترارك Petrarch, Francesco

ولد بترارك فى ارنزو ، ثم استقر فى افينيون فتعلم القانون فى مونبيليه وبولونيا ودرس الآداب ونال حظوة لدى الملوك والأمراء والبابوات لاتساع علمه

وعلو صيته وزار جاسكونيا وباريس وبلاد الراين والبلاد الواطئة ومناطق بوهيميا وشمال ايطاليا وروما الخ وقد نظم ٣٦٦ قصيدة غزلية فى لارا ـ التى لم يعرف الباحثون شخصيتها الحقيقية ـ ومن كتاباته الدائمة « عن مشاهير الرجال » والمحاورات المقدسة الخيالية مع القديس أوغسطين وترجماته اللاتينية لبعض قصص الديكاميرون .

بنتا ميرونى : Pentamerone

كان أمير كومبورتوندو قد تزوج راغما من فتـــاة سمراء ـ لكن زوزا كانت تحبه وقد أغرته بأن يحضر عشر نساء تقص كل واحدة منهن خمس قصص . فاذا فرغن من القصة التاسعة والاربعين ، وحان وقت النهاية والقاء القصة الخمسين ، تخفت زوزا فى ثياب بعض هذه النسوان الأخريات وقصت عليه خير القصص . وكشفت الستار عن زواج الأمير بالفتاة السمراء .

ويلفت النظر فى هذه الحكايات ، أنها تستخدم بعض « حيل » الف ليلة وأهمها اقامة علاقة بين رواية القصص المتوالية ، وما يدور فى نفس الامير .

بوزيـدون : Poseidon

اله البحر عند الاغريق ، ويقابله نبتون عند الرومان .

تشارلز بيرو :

مولود عام ١٦٢٨ ومتوفى عام ١٧٠٣ شـــاعر فرنسى وجامع حكايات ونوادر شهير . وتعتبر مجموعته « حكايات أمى الأوزة » ذات أهمية خاصة ، عند دارسى الفولكلور والأدب الفرنسى ذاته . ومنـذ القرن التاسع عشر ظهرت عدة طبعات لهذه المجموعة .فى المانيا وايطاليا ـ كما انها ترجمت ـ أو ترجم بعض أجزائها ـ الى لغات أوربية اخرى ـ وتناولها بالبحث سانتيفز ومؤلف هذا الكتاب كراب) وستيث طومسون وغيرهم .

بيولـف : Bewolf

ملحمة انجليزية وضعت فى منتصف القرن الثـــامن لكن اقدم نص مكتوب للملحمـة يرجع الى القرن العاشر الميـلادى وقد بدأ الباحثون يدرســـونها فى القرن الثالث عشر .

وتدور هذه الملحمة ، وأغانيها الشعرية ، حول بطولات بيولف ، ذى القوة الخارقة ، الشجاعة المنقطعة النظير . فقد ذاع صيته أول ما ذاع حين قتل عددا من وحوش البحر . وهو يسبح سبعة أيام وسبع ليال ، ليصل الى فنلندة . وصار بيولف ، وصيا على ملك الدانيمرك ، لكن مملكة الدانيمرك كان يهددها تنين بحرى اسطورى ، يغير عليها ، ويجتاح قاعة الملك ، يقتل من يشاء كل ليلة فقتله بيولف ، وعندما جاءت أم التنين تنتقم له ، دارت معركة هائلة بينها وبيولف وانتهت بقتلها .

واصبح بيولف ملكا على منطقة تقع فى جنوب السويد . وشاء القدر ان يهددها وحش بحرى أسطورى آخر . وكان بيولف قد أصبح شيخا عجوزا ، لكنه خاض معركة فاصلة ضد هذا الوحش . وتخلى عنه رجاله عندما اشتدت المعركة الا تابعا واحدا هو ويجلاف ! .

واستطاع التنين ان يصيب بيولف بجراح قاتلة . وقبل أن يموت ، قتل ويجلاف هذا التنين وأوصى بيولف بأن يخلفه ويجلاف على العرش وأوصى بأن تحرق جثته ، ويوضع رمادها ، فى تابوت فوق أعلى التلال التى تسيطر بموقعها على البحر .

تاسيتوس (تاست) : Tacitus

ولد هذا المؤرخ الرومانى الشهير عام ٥٥ ميلادية وتوفى عام ١١٧ وأهم أعماله « التواريخ » و « الحوليات » وأما « التواريخ » فتتقصى الأحداث التى وقعت فى روما بين عامى ٦٩ و ٩٦ ميلادية وأما الحوليات فتتناول الفترة ما بين عام ١٤ ميلادية و ٦٨ وقد اشتهر بقدراته الأسلوبية ، ودقته فى الوصف ، وبلاغته .

تشابه النصوص (نظرية انتشار النص الأصلى من مركز واحد) :

من اهم ما شغل علماء الفولكلور البحث فى علة تشابه الحكايات أو الأمثال أو الخرافات الخ . وقد ظهرت نظريتان متعارضتان أولاهما تقول ان سبب تشابه النصوص التى نلقاها فى مواطن جغرافية مختلفة هو انها جميعا ، تعود الى اصل واحد أو مركز ثقافى واحد ، ومنه انتشرت بواسطة الهجرات ويقابل هذا الرأى ، نظرية تعدد المصادر الأصلية وتشابه البيئة الثقافية وخلاصتها ان السبب فى تشابه الحكايات مثلا لا يعود الى أنها نشأت فى مكان

واحد اصلا ـ ذلك أن الأنواع الأدبية تنشأ محليا ـ ومن مصادر مستقلة بعضها عن بعض ـ وانما سبب التشابه هو وحدة الظروف الثقافية أو البيئة الحضارية فالانسان أيان كان يواجه نفس المشكلات الأساسية التى تطرحها الحياة ، ويكون لنفسه تصورا ملائما لدرجة تطوره ونموه الحضارى .

تشاروس أو تشارونتاس : Charos

ملاك الموت ، فى الفولكلور اليونانى الحديث ، شخصيته مفزعة تركب حصانها وتحمل الموتى . وهو مشتق من « تشارون » الشخصية الميتولوجية القديمة عند الاغريق . ابن اربوس ونوكس ، الذى كان يعبر بأرواح الموتى الى العالم الآخر ، ويشترط أن يكون الميت قد دفن بطريقة صحيحة . وكان الظن الاسطورى انه يتقاضى اجرا نقديا على نقل الميت ولذلك كان الاغريق يضعون قطعة نقود فى فم الميت . وتلك عادة عاشت الى العصور الحديثة ولم تزل موجودة فى بلاد مختلفة وتختلف كذلك الأماكن التى توضع فيها النقود ، فتكون حجر الميت أو طرف كفنه أو راحة يده أو جيبه .

وفيما رواه فيرجيل ان اينياس جاء الى نهر كوكيتوس الاسود ، فوجد تشارون العجوز . والقوى ، وأمامه خلق كثير يريدون أن يعبروا الى الشاطىء الآخر ولكنه كان يختار من يشاء وعندما سأل اينياس عن سبب هذا التمييز قيل انه يحمل فى قاربه أرواح الذين نالوا مراسم الدفن الصحيحة .

تقاويم :

للتقاويم معنى محدد فى الكتابات الفولكلورية فهى تصانيف تجمع بين الطوالع الفلكية والأحداث الزمنية ، والكلمات المأثورة ، والنوادر ، وتواريخ الأيام والشهور . وقد نشأت فى القرن الثانى الميلادى . واتصلت بالفلكلور ، بسبب ما كانت تتضمنه من نبوءات فلكية أو نبوءات بما سيقع من احداث أو لما كانت تذيعه من أقوال سائرة ، ومأثورات .

تنين :

حيوان أسطورى ، ذائع فى مأثورات شعوب كثيرة . وهو من حيث الشكل ، ثعبان أو تمساح ، له رأس أسد أو صقر أو بشر ، وقد تكون له أجنحة وهو ينفخ النار من فمه ، وقد يكون لسانه مشقوقا الى فروع ، قاتلة ،

وقد تظهر على جسمه دروع أو قشرة سميكة ، وجزئية صراع البطل والتنين ، تدخل فى حكايات وخرافات عديدة . ففى الحكايات الأوروبية المسيحية ، يكون التنين هو الشيطان ، وفى الحكايات الوثنية والبدائية ، يكون هو حارس الكنز .

ومن أشهر قاتلى التنين الملك آرثر والقديس جون .

وقد استحم سيجفرزيد فى دم التنين فأصبح محجبا ، لا يناله اذى .

تيرزيـــاس : Tiresias

هو فى الأساطير الاغريقية عراف أعمى من طيبة وقال هزيود انه عاش سبعة اجيال . وقيل فى تفسير سبب عماه أنه رأى أثينا وهى تستحم فغضبت عليه وعاقبته بحرمانه من بصره ثم عوضته بعد ذلك عن هذا ، بأن منحته القدرة على معرفة ما يقع فى المستقبل . ويتردد اسمه ونبوءاته فى الأساطير الدائرة حول انتيجون واتيوكليز ومينوسيوس والنزاع الداخلى بين هذين الأخوين .

تيـودور بنفى : Theodor Benfey

عالم لغويات المـــانى ، ولد عام ١٨٠٩ وتولى منصب أســـتاذ اللغـة السنسكريتية فى جامعة جتنجن بألمانيا ، وقد ذاعت شهرته كباحث يطبق المنهج المقارن اللغوى وقد ترجم البانشاتانترا عام ١٨٥٩ ، وتقصى فى مقدمة لهـــذه الترجمة ، آثار الآداب الهنـدية فى الآداب الشرقية والغربية ـ وهو مؤسس المدرسة الهندية التى ترد القصص الشعبى الى مصادر أولية هندية ، وتزعم انها هاجرت من الهند فاتجهت غربا عبر بلاد الشرق الأوسط والأدنى . ودخلته اوروبا من جنوبهـا الشرقى أو جنوبها الغربى ، أو عن طريق آخر . لـكنها نشأت أول ما نشأت فى الهند ثم بلغت أوروبا فكونت المادة القصصية الاساسية لفولكلور أوروبا من الحكاية عامة .

جـاك ديفترى : Jacques de Vitry

مؤرخ وراهب فرنسى ولد عام ١١٧٨ وتوفى عام ١٢٤٠ ودرس فى جمعـــة باريس ، وكان من أشد الدعاة المتحمسين لاشعال الحرب الصليبية ضـــد المسلمين وقد يوفد مع حملة صـليبية الى دميـاط عام (١٢١٨) وكان يبـدا رسائله ومواعظه الكنسية بالـكثير من الاشـارات الى طبائع أوروبا المسيحية وعاداتها فى العصور الوسطى . ويعزى اليه أنه أنشأ الكثير من القصص

الوعظى الذى وضعه من نسج خياله ومن اشهرها قصة « الشيطان والعذراء » ومن مؤلفاته « تاريخ الشرق » وقد ارتقى فى مناصب الكنيسة حتى اصبح بطريرك أورشليم اللاتينى فى أواخر حياته .

جانوس (يانوس)

اله البدء عند الرومان ، وكان معبده يغلق فى أيام السلم ويفتح فى أيام الحرب وكان يصور برأس له وجهان .

جريمة (الاخوان ـ يعقوب وولهيلم) :

هما اخوان : يعقوب لودفيج كارل جريم مولود عام ١٧٨٥ ومتوفى عام ١٨٦٣ ويلهيلم كارل جريم مولود عام ١٧٨٦ والمتوفى عام ١٨٥٩ . وكانا عالمى لغويات وأساطير كبيرين . ومن مؤسسى علم الفولكلور . لكن يعتبر يعقوب جريمة السباق الى تأسيس علم الفولكور . واصدرا معا « الحكايات المنزلية » فى جزءين ودراسات مختلفة أخرى .

ويعقوب جريمة هو واضع « الأساطير الجرمانية » و « الأجرومية الجرمانية » . وقد عملا معا ٥٠ سنة فى ميادين اللغويات والأثريات الشعبية .

جزئية متكررة ـ وحدة متكررة موتيفة :

كلمة موتيف motif فى الفولكلور ، تعنى أى جزء يمكن أن تنحل اليه فقرة الفولكلور » وهى فى الفولكلور تقابل ما تعنيه كلمة « زخرفية ولتقريب المعنى ، نقول ان المراة الجميلة ليست موتيفة فولكلورية وانما « ست الحسن والجمال » موتيفه فولكلورية . و « المانزيرة » وهى نوع من العفاريت فى المعتقد الشعبى ـ موتيفة فولكلورية اخرى . وكذلك « جحا » و « الشاطر حسن » و « الشاطر محمد » الخ ويمكن أن نعتبر بعض النوادر المختصرة البسيطة التكوين ، موتيفات بالنسبة للقصص الشعبى .

ويشترط ان تتكرر هذه الوحدة فى الفن الشعبى شأنها شأن الوحدة الزخرفية فى الزخارف .

جلجامش (ملحمة) :

ملحمة بابلية ترجع الى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وتدور اشعارها القصصية حول البطل جلجامش الذى كان مستبدا ، ثم صادق رجلا من العامة

.. ومن اهم اجزائها ، قصـــة الفيضان البابليـة ووصف عالم ما بعد الحياة التى يقال انها مأخوذة عن قصيدة سومرية .

جورج لورنس جـوم : Sir George Laurence Gomme

عالم آثار بريطاني ومن مؤسسي جمعية الفولكلور فى لندن ـ وثقة فى الاثريات والحضارات القديمة والفولكلور ومن اهم كتبه (الفولكلور كعلم تاريخى) ولزوجته اللادى اليس برتا جوم فضل ظاهر فى جمع الأغانى واللعبات ولها دراسات « الألعاب التقليدية فى انجلترا واسكتلندة وايرلندة » و « العابه الأطفال الغنائية » .

جوزيف بدييه : Joseph Bédier

عالم فرنسى متخصص فى آداب العصور الوسطى ولد عام ١٨٦٤ ، وبعد فراغه من التعليم ، أعد رسالته للدكتوراه عن الحكايات الشعبية الشعرية المرحة والماجنة وانتقد فيها نظرية بنفى الهندية ، وقال ان الملاحم الأوروبية اكتملت وراجت ، أثناء هجراتها . وتوفى عام ١٩٣٨ .

جويل تشاندلر هاريس : Jcel Chandler Harris

كاتب وصحفى امريكى ، ولد عام ١٨٤٨ وتوفى عاى ١٩٠٨ ، واشـــتهر عند المشتغلين بالفولكلور بكتابه « العم رموس اغانيه واقواله المأثورة » وكتابه « فولكلور المزرعة القديمة » .

جيرالدوس كامبرنسس : Giraldus Cambrensis

احد علماء التاريخ فى العصور الوسطى ولد عام ١١٤٧ فى « مانوربير »بالقرب من بمبروك واتم دراسته فى باريس . وتوفى عام ١٢٢٣ .

وفى عام ١١٨٥ صحب ابن انريكو الثانى الى ايرلنده .

ورفض عددا من المناصب الدينية . وعاد الى روما يكرس نفسه للعلم .

ومن اهم اعماله « الجوهرة الكنسية » La Gremma ecclesiastica الصادر عام ١١٩٧ وهو مؤلف تربوى ثيولوجى ذو قيمة ادبية .

جيمس جورج فريزر : Sir James George Frazer

مولود عام ١٨٥٤ ومتوفى عام ١٩١١ من أعلام الدراسات الأنثروبولوجية . ومؤلف الغصن الذهبي الذى ظهر فى ١٢ جزءا وهو دراسة متوسعة فى العبادات القديمة والوثنية ، ومن آرائه الجوهرية أن الجماعات البشرية مرت بمراحل متماثلة بل واحدة من التطور الثقافى والروحى . ومن دراساته « الطوطمية » وأدونيس وآتيس وأوزوريس وأسئلة عن العادات والمعتقدات واللغات عند المتوحشين والطوطمية ونظام الزواج من خارج العائلة والاعتقاد فى الخلود وعبادة الموتى والخوف من الموتى فى الديانات البدائية . وقد صدر كتابه « الغصن الذهبى » ملخصا فى جزئين .

جيوفاني بوكاشيو : Giovanni Boccacio

رائد من رواد عصر الاحياء وشاعر ايطاليا وحكاؤها وواضع سيرة دانتى . أجاد فى شعر الغراميات والوصف والقصص ، واستخدم اللهجة التوسكانية فاذاعها .

ولد فى باريس من علاقة غير شرعية ، بين اب فرنسى وام من فلورنسا ، وعاش فى فلورنسا ونابولى ، وأسفر عن بلده لدى امبراطور الانبا ، وبابا افينيون .

وعاش حياة عاصفة ، يكتب النثر والشعر باللهجة الدارجة ، ووضع ديكاميرون (المائة حكاية) وغيره . ثم تأثر بيتراك ، فهجر العامية ، الى اللاتينية الفصحى ، وتثقف بالثقافة الاغريقية ووضع مؤلفا فى اساطير اليونان هو انساب الآلهة وقاموسا جغرافيا ، وكتابا عن سقوط الرجال الاعلام .

ويعتبر بوكاشيو بثقافته وانتاجه وسيرته ، من ابرز رجال عصر النهضة وقد ولد عام ١٣١٣ وتوفى عام ١٣٧٥ .

حكايات امي الأوزة : Contes de ma mére L'oye

من أشهر مجموعات حكايات الجان الفرنسية نشرها تشارلز بيرو عام ١٦٩٧ ونسبت الى ابنه بيرو دارمانكور . ومنها حكايات « الجمال النائم » واللحية الزرقاء والقط يلبس حذاءه .

حكاية حيوان ذات غرض اخلاقى ـ موعظة قصصية حول الحيوان : Fable

ترجمنا Fable بحكاية الحيوان ذات الغرض الاخلاقى لأنها أحدوثة قصيرة بطلها حيوان له قدرة الانســـان على الحديث والتفكير وكثيرا ما ترد الموعظة والدرس الأخلاقى فى شكل مثل ينهى الحكاية او يكون نقطة المركز فيها ، او يكون النتيجة المنطقية لها .

حيوانات العالم السفلى : Chthonic Animals

فى مقابل الارباب العلى ـ فى ديانة قدماء الاغريق ـ كان هناك ارباب العالم السفلى وكان الظن انهم أرواح الأسلاف ، وكانوا يظهرون فى صورة ثعابين ضخمة أو حيوانات أخرى . وقد تكون الحيوانات السفلية هى هذه او غيرها مما كان يعيش ـ تحت الأرض ـ فى الظن البدائى .

ديانـــا :

الالهة العذراء ـ آلهة الغابات والقمر والصيد . رآها اكتيون ابن الملك كادموس ـ ذات يوم وهى عارية ، بين وصيفاتها الحوريات . فعاقبته بأن جعلته ايلا ، له قرنان ، وأربع ســـيقان ، وجلد ثور خصى ... وعنـــدما خـــرج الى الغابة ، كان اصدقاؤه وكلاب صيدهم ينتظرون فرأوا « الايل » وطاردته الكلاب حتى احاطت به ونهشت جسمه ومزقته .

ديوسكـــورى :

ديوسكوريان : Dioscuri

ولدا ازيوس وكاسترو وبوللوكس ويوصـــفان بانهما التوائم الاسبرطية فيما تقول الأساطير الاغريقية ويظهر أن فى قصص انقاذ هيلين من أثينا ورحلة ركاب الارجو وبعض المعارك والبطولات الاسطورية الأخرى وللتوائم الاسبرطية ، نظائر من التوائم الفيدية وقد قام الكزاندر كراب ـ مؤلف هذه الدراسة ـ مع الاســـتاذ هاريس بتحليل عـــدد من الحكايات الهندواوروبية الدائرة حول التوائم ونشر نتائج هذا البحث فى الفصل الخامس من الميثولوجيا العالمية .

ديونسيوس : Dionysus

اله الخمر فى الأصـــل اله الخضرة ويظن أن عبادته نشأت فى تراقيا او فريجيا .

روبرت بيرنز : Robert Burns

شاعر اسكلندة ، وعلم ادبها ، ولد وعاش حياة فقيرة ، يعمل فلاحا طول الوقت ، وموظفـــا بعض الوقت . عرف بمحبتـــه لأهل بلده ، ومألوراتهم الشعبية ، ولهجتهم ، وموســيقاهم وافراحهم واحزانهم ، وعبر عن ذلك بقصصه الغنائى الشعرى ، يقلد فيه البالادا التقليدية ، يضيف اليها . ويعتبر باتجاهه وانتاجه ، من طلائع الحركة الرومانسية فى الادب الانجليزى الاسكلندى ، ويمكن اعتبار قصصه الغنائى ، امتدادا ، لما انشاه العامة فى هذا الفن ، وجديرا بالاشارة اليه ، فى دراسة فولكلورية كهذه الدراسة .

ولد عام ١٧٥٩ وتوفى عام ١٧٩٦ .

زيـــوس :

رب ارباب الاغريق اله السماء والجو وقمم الجبـــال والنسور وأشجار اللــسنديان والصواعق ، وكل شاهق ، ومرتفع الى عنان الفضاء . وكان يعبد فى سائر انحاء اليونان القديمة لكن اهم معابده كانت فى أوليمبيا ودودون .

سحـــر : Apotropaism السحر الدافع للشر :

ترجمنا Apotropaism بالسحر الدافع للشر أو (الشبشبة — حلب النجوم) او التعاويذ الواقية ، ذلك أنها تشتمل على النصوص السحرية وممارسة طقوس سحرية لدفع الشر والادواء الدافعة للمرض — فى المعتقد الشعبى — لهـــا فاعليـــة سحرية ، وتشمل عناصر من دم الانســان وافرازاته وغائطه ، وبصاقه ومن الروائح النفاذة .

سن الأسد (نبات وزهرة) Dandelion

يوحى هذا النبات (الزهر) فى المعتقد الشعبى الأوروبى ، بنبوءات مختلفة فاذا لم تتفتح زهرة الداندليون فى الصباح ، كان الجو ممطرا ويعتقد أن النبيذ المصنوع من هذا الزهر علاج لأمراض مختلفة . كما يظن أن للزهر خواص شافية لأمراض القلب والدم الخ .. ويعطى علماء الفولـكلور اهميـــة خاصة لتسمية الزهور بأسماء بشرية أو حيوانية ، ذلك ان الظن البدائى ينسب الى سائر الكائنات ، ان لها روحا أو نفسا أو صفات حيوية مشتركة .

شعائر الانتقال :

ترجمنا Rites de passage بشعائر الانتقال لأنها تعنى الانتقال من حالة الى حالة وهو اصطلاح وضعه ارنولدفان جنب ليدل على « الشعائر التى تصاحب كل تغيير فى المكان أو المكانة أو الوضع الاجتماعى أو العمر » فالشعائر التى تصاحب الميلاد والتعميد والزواج والوفاة والسفر والحج وتغيير المنزل الخ شعائر انتقال . قد ذاع استعمال هذا المصطلح فيما كتب بعد ذلك عن أنظمة الزواج البشرى وتاريخها وعن العادات والتقاليد .

شيفا : Siva

فى الديانة الهندوكية اله الطبيعة والفنون والمعرفة والرقص والجمال والخير وحسن الطالع وهو عدو كل ما يناقض هذه المعانى — له أربع اذرع وخمسة وجوه ، وثلاث عيون . ويظن أنه يسكن قمم جبال الهملايا وترجع عبادته الى القرن الثالث ويعتقد أنه مثلث الثالوث الذى يتألف من براهما وفيشنو ومنه .

عشتارت :

آلهة بابلية واشورية ترمز للأم المفرطة فى خيانتها وربة الجنس والحرب . ومنقذة المرضى ، وحاكمة الخصب ، وقد تظهر فى ملحمة جلجامش بصورة آلهة الشر .

وهى ابنة آنو اله السماء أو سن اله القمر . ومن حيوانها وطيرها المقدس الأسد والحمام . وأهم مراكز عبادتها نينوى واكاد وأروك واربل .

علاء الدين والمصباح السحرى :

ظهرت قصة « علاء الدين » والمصباح السحرى فى أكثر ترجمات ألف ليلة وليلة الى اللغات الأوروبية .

وقد عنى الدارسون بجزئيات « الشىء أو الأداة المسحورة » (المصباح) والخاتم السحرى وخادم العمل السحرى . ذلك أن لهذه الجزئيات نظائر فى المأثورات الشعبية الهند أوروبية والعربية والسامية وغيرها .

عيد القديسين : All Saint's Day

يوافق هذا العيد اول نوفمبر من كل سنة ويقال ان البابا بونيفاس الرابع هو الذى ادخله فى المواسم الكنسية كان ذلك فى القرن السابع الميلادى وانه

اراد به أن يحل محل عيـــد وثنى كان تاريخـــه يوافق اول نوفمبر . وكان عيد الموتى .

وكان عيد القديسين يقام يوم ١٢ مايو لكن البابا جريجورى الثالث جعله اول نوفمبر .

وفى الثانى من نوفمبر ، يكون عيد القديسين ، فيصلى الأحياء ويدعون ويتوسلون أن يطهر الله الموتى ذوى القربى مما علق بهم من ذنوب .

فاونوس Faunus

كان فاونوس ملكا على مقاطعة لاتزيو التى اصبحت روما عاصمة لها . وبعد موته عبد واعتبر الها يرعى الحقول والغابات والأرض الخضراء .

فرانشسكو تشييكو : Francesco Cieco

عاش هذا الشاعر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر والاخبار الصحيحة قليلة عن حياته . كما أن الغموض يحيط باطلاق الأسماء المختلفة عليه . ولكنا نعرف من شعره أنه كان أعمى . وينسب اليه أنه نظم ٩٥ انشودة قصصية من اشهرها قصة شعرية عنوانها :

أيها التاريخ لماذا يقال

ان المنقار صنع خصيصا

للأوزة .

فردريك مكس موللـر :

مولود عام ١٨٢٣ ومتوفى عام ١٩٠٠ مستشرق وعالم لغويات مقارنة . من اهم دراساته ــ ابحاثه عن الأصول الأولى للأساطير الهند أوروبية وأبحاثه العلمية فى الديانات الشرقية غير المسيحية وتاريخه للآداب السنسكريتية . ويعتبر بين دارسى الفولكلور ، ذا اثر كبير فى دراسة الأسطورة ، والثقافة الشعبية ،الارية (الهندية الأوروبية) .

قاتل التنين :

فكرة قتل او قاتل التنين Andromeda Theme

فكرة ذائعة فى الفولكلور العالمى ، وهى تنسج حول قاتل التنين، الذى يتقدم لانقاذ عذراء موهوبة للتنين أو اسيرة ، أو قربان . وتفسر هذه الفكرة على انها

بقيـــة من موروث الايمان بالصراع بين الظـلام والضوء (الليل والنهار) او هى بقية موروث لعادة تقديم القرابين البشرية لآلهة الماء .

قدرة على تحويل الانسان :

ترجمنا Lycanthropy بالقـــدرة على تحويل الـكائن البشرى الى ذئب ـ أو هى القـدرة على « سخط » الانسان الى ذئب او ذئبة . وهذه الموتيفة ذائعة فى القصص الشعبى شرقه وغربه ، لأن التحول من عالم الانسان ، الى عالم الحيوان ، ليس ميســـورا فحسب ، فيما يظن العــامة ، بل هو من مقدرات الساحر أوالـساحرة ، فحين يغضب « الساحرة » او « الغولة » على انسان تجعله حيوانا ، وحين تســتبد زوجة الاب بابن زوجها تسخطه الى ديك أو قط الخ .

قراءة الغيب ـ استطلاع الغيب : Divination

(الزايرجة) فى موروث كل شعب ، توجد ممارسات لاستطلاع الغيب ـ وقد توضع قواعد نظـــرية وتطبيقية لهذه الممارسة وتســـتخدم الزايرجة او ما يشبهها فى التنبؤ بما سيقع من احداث .

ثنائية الخلق : Dualism

فى المعتقد الشعبى (الهندى) أن الهين أخوين أكبر واصغر او توأمين ، يقومان بعمليـــة الخلق ، وان أحـدهما خير والأخير شرير . فالثنائية اذن هى مذهب من مذاهب الاعتقاد الوثنى .

كاساندرا : Cassandra

اجمل المتنبئات الاغريقيات ـ ابنة بريام وهكوبا . كانت طفلة عندما نامت هى واخوها فى معبـــد ابوللو ، فاجتمعت حـــولهما الثعابين ولعقت آذانهما ومنحتهما القدرة على سماع لغة الحيوان ومعرفتها . وكشفت عينهما الحجاب وقد تنبأت كاساندرا بقصـــة طروادة قبل وقوعها .

كيوبيـــد : Eros — Cupid

هو فى الأسطورة الاغريقيـــة اله الحب ابن فينوس . ومرافقها الدائم ، يحمل قوسه وسهامه يرمى نزوات الحب ورغباته فى قلوب الآلهة والبشر .

كيوبيد وبسايكه :

كان الملك ثلاث بنات جميلات ، غير أن جمال أصغرهن ، فاق كل وصف ، وجاوز كل حد . وكانت تلك هي بسايكة ، التى اتجهت اليها الأنظار وانصرف اليها الناس وهجروا معابد الآلهة فينوس ربة الجمال وغارت فينوس من هذه الآنسية البديعة الجمال فأمرت ابنها كيوبيد بأن يعاقبها بأن يملأ قلبها بحب كائن « حقير » وأطاع كيوبيد أمر امه ، وحمل معه وعائين فى أحدهما ماء حلو وفى الوعاء الثانى ماء مر وذهب الى مخدع بسايكه وهى نائمة ولمس شفتيها بقطرات من الماء المر ولمس جانبها بذبابة سهمه واستيقظت بسايكة وفتحت عينيها الجميلتين وذهل كيوبيد لجمالها ، فنسى نفسه ، وجرح جسمه بسهمه ، وأراد أن يكفر عن اساءته لها ، فصب بزيت المر عليها . غير أن غضب فينوس عليها جعل الناس يعجبون بها ثم لا يتقدم أحد للزواج منها . واستشار أبواها العرافون فقالوا لهما : لن تتزوج العذراء من انسى فزوجها المنتظر يعيش فوق قمة جبل .

وذهبت بسايكة — لتنفذ ارادة القدر — الى قمة الجبل وحملها زفير ، على أجنحة الريح ، ووضعها فى حدائق غناء وادخلها قصرا منيفا ، وصارت تسمع أصواتا حانية تخدمها ، وتشم أريجا عبقريا ، وترى ما لا تراه عين بشر : وتسمع كلمات العشق من زوجها الذى يأتى بالليل ، ويتركها مع مولد النهار ، لا تراه أو تعرفه .

وعندما طلبت اليه أن يكشف لها عن نفسه راوغها ورفض طلبها فطلبت ان يحمل زفير أختها اليها . وجاءت الاختان والحتا عليها أن تعرف حقيقة زوجها . واستعانت بمصباح ، وكشفت الغطاء عن وجهه فاذا هو كيوبيد أجمل من رأت عينها . ولكن كيوبيد غضب لأنها شكت فيه وهجرها . واختفت البساتين الجميلة والقصر البديع وتركت بسايكه لشقائها وتعاستها .

وبينما كان كيوبيد يعالج جراحه ، كانت فينوس تتفنن فى ايذاء بسايكه . وتحدث « مخاطر » مختلفة تنتهى بمصرع بسايكة — ويشفى كيوبيد من جراحه الجسيمة ، لكن أشواقه اليها تزيد ويعلم بمصرعها ، فيبادر بالذهاب الى جوبيتر يرجوه أن يعيدها الى الحياة ويسقيها جوبيتر ماء الخلود ، ويأمر بأن يعيش كيوبيد وبسايكة زوجين خالدين ، وان تبقى الرابطة بينهما الى آخر الزمن وأن تولد لهما بنت هى « المسرة » .

لحية زرقاء (ذو اللحية الزرقاء) : Blue beard

تلحق هــذه التسمية فى الحــكايات الأوروبيــة بالزوج الذى يقتل زوجته . لكن الحكايات الشعبية التى تحمل هذا الاسم ، ليست فقط قديمة ومتنوعة فى أوربا ، بل غايتها ـ كما يقول الفلولكور ـ أن تتناول فكرة المحظورات كالأبواب المحظور فتحها والأماكن المحظور ارتيادها والأعمال الممنوع اتيانها .

ويكون القاتل زوجا ذا مكانة كبيرة ملكا أو تاجرا أو ثريا ، يتزوج أخوات سبعا أو ثلاثا ، الواحدة بعد الأخرى ، ويسلم كلا منهن مفتاح قلعته أو قصره ويأمرها بأن تفتح ما تشــاء من الحجرات الا بابا واحــدا ، غير أن زوجاته يخالفنــه ، فاذا فتحت احداهن الباب المحظور ، رات ما يفزعها ـ جثث موتى او احواض دم ـ وتسقط من يدها البيضة التى أخذتها من زوجها أو يصطبغ المفتاح بالدماء ، فيفضحها ويكون جزاؤها القتل . ثم تكون الأخت الصغرى آخر زوجاته وتتغلب عليه بحيلتها وتقتله أو يقتله اخوتها الذكور .

لوســان :

ولد هذا الشاعر الملحمى الرومانى عام ٣٩ قبل الميلاد واسمه مركوس انايوس لوسانوس وكان من أصدقاء نيرون لكن نيرون منعه من نشر شعره . وانضم الى أعداء الامبراطور فحــكم عليــه نيرون بأن يقتل نفسه ومات وهو فى السادسة والعشرين ـ ومما بقى من شعره قصته الشعرية الناقصة فارساليا او الحرب الأهلية de bello Civili وهى عن الصراع بين بومبى وقيصر .

لوسيــان :

من بلغاء الاغريق الساخرين ، وادبائهم الذين تثقفوا بلغتهم وان كانوا قد ولدوا بعيــدا عن بلاد اليونان فلوسيان مولود فى سوريا عام ١٢٠ ق . م . وقد ظهرت مقدرته البلاغية والادبية ، وثقافتة ، وارتحل فى عدد من البلاد حتى وصــل الى بلاد الغــال ثم عاد الى اليونان فى منصب بمصر فذهب اليها وتوفى بها .

واشتهر بمسخرياته اللاذعة ونقده للخطابة والفلسـفة والديانة الاغريقية ومن اعماله « حوار الاله » و « حوار الموتى » و « وحوار حاشية الملوك »

وقد انشأ من هذا النوع الأدبى ثلاثين حوارا جمعت بين السخرية ، والرأى الفلسفى ، والاشارة الى عادات الافريق وطبائعهم ومعارفهم .

مذهب (الحيوية) :

ترجمنا كلمة Animism بالمذهب الحيوى ، لأنها تعنى أصلا الايمان بالأرواح وأن تنسب الى الجمادات أن لها روحا أو شخصية ويتبدى هـذا المذهب فى عبادة الأرواح أو الأسلاف أو عبادة أرواح الجمادات .

ملحمة السيد :

قصص أسبانى ملحمى يرجع الى مرحلة الصراع بين الأسبان المسيحيين والمسلمين فى أسبانيا . وينسج حول بطولات للدريق ودياز ديفيفار . ويصوره بصورة الفارس الشجاع ، الكريم الأخلاق — وهى خصال الفروسية العربية فى الواقع .

وقد أثرت هذه القصص والملاحم فيما كتب لوب دى فيجا ، بل فيما كتب كورنى للمسرح (مسرحيته السيد) التى ظهرت عام ١٦٣٦ .

منهج مقارن : Comparative Method

فى الفولكلور ، هو نظام فى دراسة مادة المأثورات الشعبية . استخدمته المدرسة الانتروبولوجية . ويقوم هذا المنهج على أساس أن الجماعات البشرية المختلفة قد مرت فى أطوار ثقافية متشابهة غير أن سرعة تطورها الثقافى ، يختلف من جماعة الى جماعة ، بحيث نستطيع أن نجد جماعة بشرية فى طور بدائى ، تعيش فى قرننا العشرين ، على حين نجد جماعات أخرى تعيش فى طور ثقافى عصرى ، ولذلك نستطيع أن نتعرف على المرحلة البدائية فى الجماعة المتحضرة ، من دراسة الجماعة المتأخرة فى تطورها .

مورجانا : Morgana (Fata Morgana)

جنية ذائعة فى الملاحم وقصص البطولات — اخت الملك ارتورو Arturo وتلميذة الساحر مرليتو Merlino .

Non liquet

اصطلاح يعنى « هذا الأمر غير بين » وكان القضاة يكتبونه على المائدة ، اذا غمض عليهم الأمر ، وحكموا بتأجيل الفصل فى القضية المعروضة عليهم .

ميتامورفوزيس : Metamorfosis

« التحولات » نظمها اوفيد شاعر اللاتينية العظيم ـ تضم قصصا خرافيا وموروثات اسطورية من العالم القديم وقد ترجمها الى الايطالية جيوفانى أندريا وجوزيبى ترامبللا وليوبولدو دوروشى سومليونيزى ويونچى جوداشى .

نبلنجليـد : Nibelungenlied

ملحمة من اشهر القصص الشعرى الألمانى ومؤلفها مجهول . لكن موطنها الأصلى بعض مناطق النمسا . وقد استمدت مادتها من اخبار هجرات القبائل الجرمانية ، التى تواترت من ازمان سابقة على تأليفها ذلك انها وضعت فى بداية القرن الثالث عشر لكنها تتحدث عن اخبار تعود الى عصور الوثنية والمسيحية الأولى فى أوروبا وتنتظم الملحمة ٣٩ حلقة (او مخاطرة) وهى منظومة على أساس الوحدة ذات الأربعة أبيات ، وكل بيتين بقافية واحدة .

وتنقسم احداثها الى جزئين أساسيين أولهما يدور حول بطولات سيجورد وزواجه من كريمهيلد ومصرعه والثـانى يدور حـول انتقام كريمهيلد لمصرع زوجهـا .

نص مستحدث ـ نص شفاهى : Variant

يستخدم المؤلف مصطلح Variant تمييزا لنوع محدد من النصوص الفولكلورية ، على نصوص اخرى طواها تحت مصطلح Version

ويقصد بـ Variant النص المأخوذ من أفواه رواته . والذى يحتمل ان يكون قد حدث فيه تحريف ـ كما أن المؤلف استخدم هذا المصطلح فى الدلالة على النسخة من النص الأصلى أى من الـ Version

وقد رأى ان النصوص المدونة التاريخية ـ هى النصوص الام او الأصلية ـ فى الغالب ـ وان النصوص الشفاهية هى المستحدثة أو الصور أو النسخ لهذه النصوص الأم .

نص مكتوب ـ نص أصلى ـ نص تاريخى : Version

يستخدم المؤلف مصطلح Version للدلالة على النص الذى تم تدوينه بالكتابة او النص الأم او الأصلى الذى نجد له نسخا مروية شفاها أو النص الذى نعرف تاريخ تدوينه اى اكتماله نضجه .

لكن مراجع الفولكلور الأخرى لا تضع حدا فاصلا بين ما تعنيه كلمة Version وما تعنيه كلمة Variant فمن العسير ـ أن لم يكن من المستحيل ـ أن نقطع بأن نصا بذاته هو الاصل وسائر النصوص الأخرى مشتقة منه أو دائرة على منواله . ذلك اذا نظرنا الى الفولكلور بعامة وأخذنا فى اعتبارنا أن الكثير من نماذجه لم يجد سبيله الى التدوين بالكتابة خاصة فى المجتمعات الأمية أو تلك التى تمارس تراثها وتتوارثه جيلا بعد جيل . باعتباره مأثورات ذات قداسة .

نوادر شعرية ماجنة أو مرحة : Fabliau

نوع من القصص الشعرى أو الأغانى القصصية المرحة ـ القصيرة ـ ازدهرت فى فرنسا فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر . وقد بلغ المرح فيها حد الهزء والأسلوب الفاضح الماجن ، وظهرت كذلك فى انجلترا حيث تعتبر بعض أجزاء « حكايات كانتربرى لتشوسر من نوعها ـ وذاعت فى البلاد الأوروبية الأخرى . وتناولت بالسخرية والمجون ، شخصيات الزوجات العاشقات ، وغيرهن ـ ولم يسلم منها رجال الاكليروس انفسهم .

هارتلاند : Edwin Sidney Hartland

عالم فولكلور بريطانى عرف بدراسة « علم حكايات الجان » و « اسطورة برزيوس » وقد كان رئيسا لجمعية الفولكلور البريطانية واستاذا فى جامعة أكسفورد .

وله « حكايات الجان والحكايات الفولكلورية البريطانية الأخرى » و « الابوة البدائية » و « القانون البدائى » و « المجتمع البدائى » .

هانز كريستيان اندرسن : Hans Christian Andersen

شاعر دانيمركى ، وجامع حكايات جان ، ولد عام ١٨٠٥ ، وفى الثلاثين من عمره أخذ ينشر Eventun (حكايات الجان) التى ظلت تظهر تباعا حتى عام ١٨٧٢ حين أصيب اصابة أقعدته عن العمل وتوفى عام ١٨٧٥ .

هـرا : Hera

زوجة جوبيتر وملكة الآلهة ـ ووصيفتها ـ هى ايزيس وطائرها المفضل هو الطاووس .

هزيـــود :

شاعر اليونان القديمة ولد فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ومؤلفه « الأعمال والأيام » يزخر بالاشارات الاعتقادية والاشارات الى العادات والطبائع الخاصة بالاغريق القدماء .

هـومـر :

شاعر الاغريق الذى يظن انه عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد واليه تعزى الالياذة والاوديسة وقد اختلف الراى فى حقيقته فذهب البعض الى ان الاعمال المنسوبة اليه ، هى فى الحقيقة ، أعمال شعراء آخرين سبقوه ـ وذهب آخرون الى القول بأنه عاش فى القرن الثـانى عشر قبل الميـلاد أو أنه كان امـرأة ولم يكن رجلا .

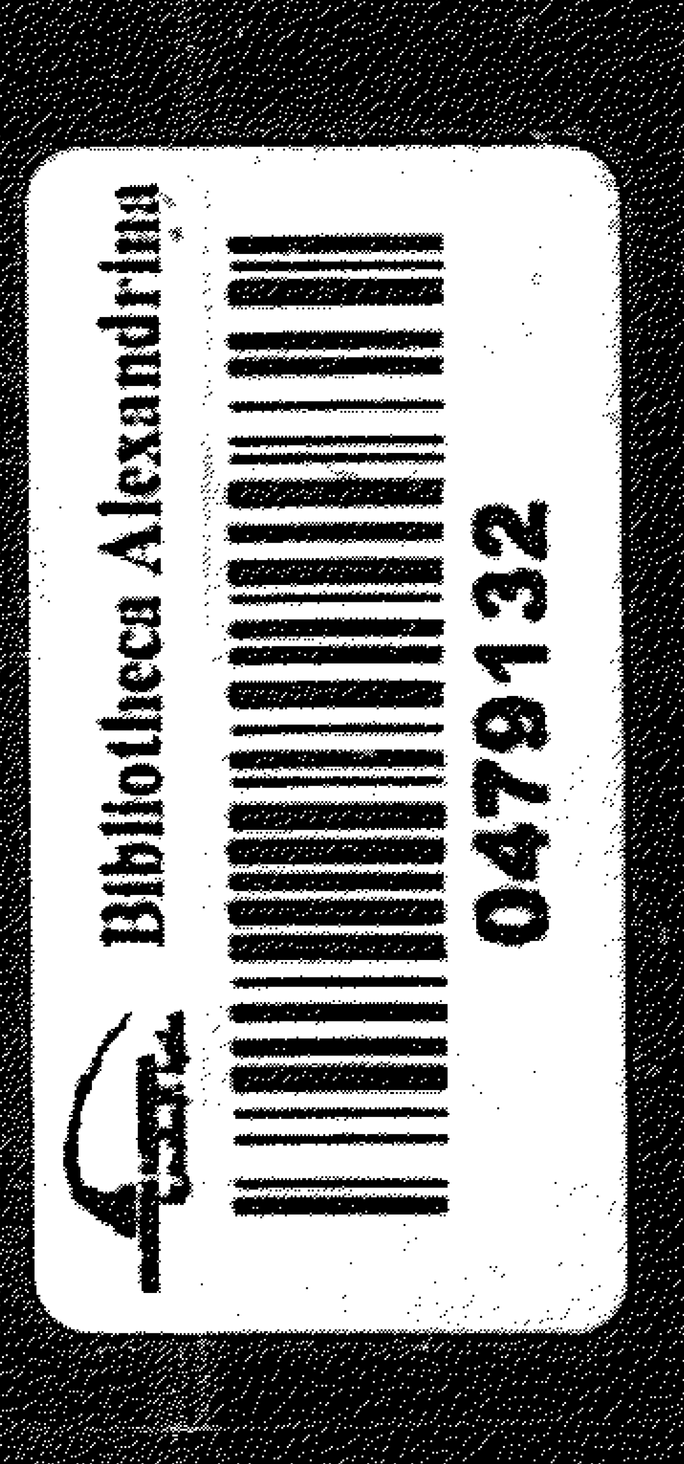
هيفايستوسـن :

اله الحدادة عند الاغريق ، وسماه الرومان بفولكان أو موليبر .

وبليام جون تومـز : William Jhon Thoms

مولود عام ١٨٠٣ ومتوفى عام ١٨٨٥ عالم آثار بريطانى (مفهرس آثار) . فى ٢٢ اغسطس ١٨٤٦ ارسل خطابا الى مجلة الاثنيوم استعمل فيه كلمة فولكلور . ادار جمعية الفولكلور البريطانية عند تأسيسها .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر


Bibliotheca Alexandrina
0479132